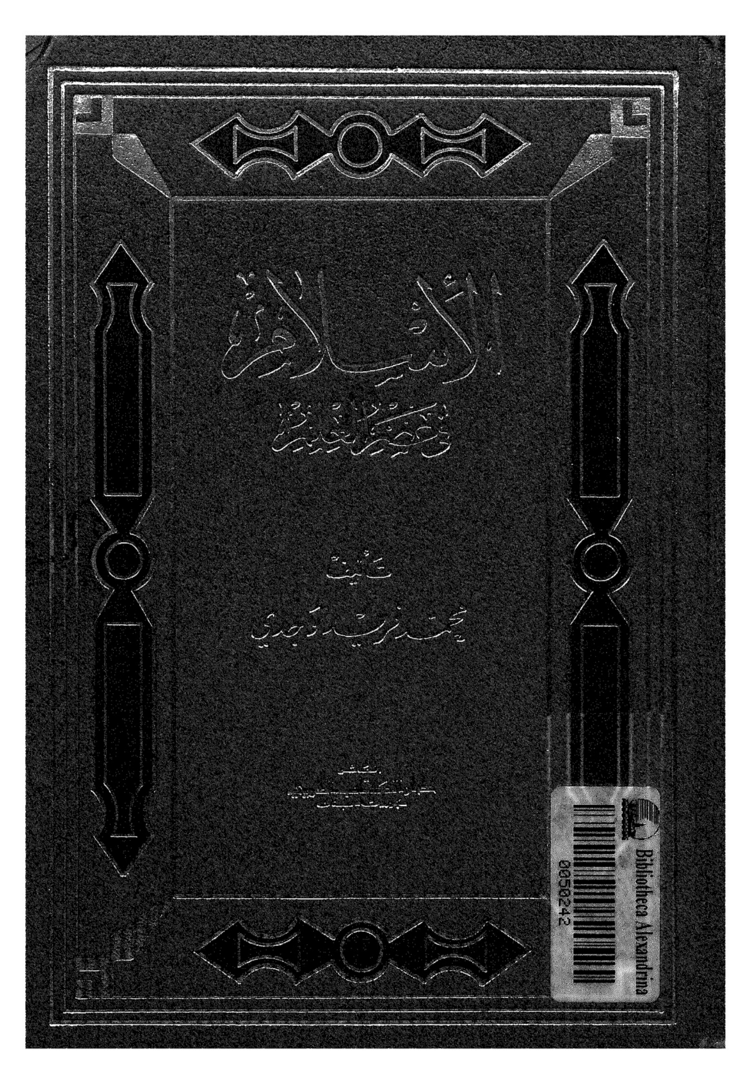


الإسلام
في عصر العلم
تأليف
محمد فريد وجدي

الإسلام
في عصر العلم



تأليف

محمد فريد وجدي

★

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت لبنان

الطبعة الثالثة

بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

« الإسلام في عصر العلم » .. صيحة حق.. أطلقها المؤلف الأستاذ محمد فريد وجدي ليتردد صداها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، بعد أن هاله طغيان المبادىء الإلحادية المادية ومحاولة دعاتها وفلاسفتها ، ترسيخها وتثبيتها ونشرها ، مغلّفة بمظاهر المدنية الحديثة البراقـة ، هادفين القضاء على مبـادىء وأخلاق الرسالات السماوية ، وعلى ديننا الحنيف بالذات .. متجاهلين أن المدنية الحديثة بجميع صورها ووسائلها يجب ألا تؤدي بالانسان إلا إلى الإيمان بقدرة الله عز وجلّ والتمسك بتعاليم الدين الحنيف ، التي تكفل للجميع حياة هادئـة هانئة عزيزة مستقرة، في جميع العصور والأزمان .

ولقد بذل المؤلف جهداً عظيماً ، في كتابه هذا ، متناولاً بالتعليق والتفنيد كل ما يتشدق به أعداء الدين ، وموضحاً لشبابنا الحائر الذي خُدع حيناً بهذه الفلسفات والافتراءات ، طريق الحـق والسعادة المثلى في ظل العقيدة الصافيـة والايمان الذي لا يتزعزع .

وان « دار الكتاب العربي » ، جرياً على عادتها في نشر كل قيّم ونفيس ، ليسرّها أن تقدم إلى قرائها في أنحاء العالمين الإسلامي والعربي ، هـــذه الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب « الإســلام في عصر العلم » ، جامعـة أجزاءه جميعها،

في هذا الجلد ، موضحة أقسام وأبواب الكتاب تقسيماً جديداً واضحاً ، تسهيلاً للقارىء واستكمالاً للفائدة .

ففي الباب الأول : « معرفة الانسان نفسه » ، يسهب المؤلف في الحديث عن حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه وماهية سعادته وطريق الوصول اليها ، ثم عن الدين والدنيا ، كيف يتحدان وكيف يفترقان ، الى غير ذلك من الأبحاث المتعلقة بالانسان والتي يجد المرء نفسه دائماً متشوقاً الى معرفة حقائقها . وفي الباب الثاني « المدنية » ، يفرق المؤلف بين المدنية الحقيقية بمعناها السامي ، والمدنية الشكلية الزائفة كما يروّج لها البعض . وفي الباب الثالث « حياة خاتم المرسلين » محمد ﷺ ، يؤكد المؤلف أنه لا سبيل الى إصلاح حال المسلمين ولا طريق الى استردادهم مجدهم إلا بالرجوع الى الدين ودراسة هذا القلب السامي الذي أشرق فيه هذا الدين أول إشراقه .

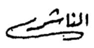
أما في الباب الرابع : « ما وراء المادة » ، فالبحث عن الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب والثواب ، وفي علاقتها جميعاً بالعلم والعرفان .

ثم ننتقل الى الجزء الثاني ، حيث يشرح المؤلف موقف الناس من العقائد وأقسامهم من حيث الإيمان بها والتكذيب لها أو الشك فيها ، ثم يتحدث عن إعجاز القرآن ، ثم يتناول أبحاثاً مختلفة متنوعة لا غنى لباحث أو متطلع الى معرفة حقائق ديننا الحنيف عن إدراكها .

ثم يصل القارىء الى الملحق الذي أضافه المؤلف وضمنه ردوده المسهبة على كل من وجه اليه سؤالاً أو استيضاحاً لأمر غمض اليه خلال قراءته للكتاب .

وإننا لنرجو للجميع التوفيق إلى كل ما فيه نصرة وعزة الدين القويم وازدهار الثقافة الإسلامية العربية ..

والله الموفق



الجزء الأول

مقدمة المؤلف

للطبعة الثانية

ألفت هذا الكتاب وأنا في ميعة السن قريب عهد بدور التحصيل والدرس ، فهو أصدق كتاب يمثلني مناضـــلاً عن الفلسفة الروحانية والدين باعتبار أنهما الركنان القويان من أركان الاجتماع والترقي ، في أول أدواري وأنا أدفع بالدليل تلو الدليل اكتساباً للأنصار حول هذا الأصل ، وهو أن الجماعة التي أقامهـــا الاسلام في أول عهدها بالوجود يجب أن يكون هو الذي ينعشها من كبوتها .

على هذا الأصل سرت في تأليف كتابي هذا ، رامياً الى لفت نظر المتعلمين الذين فتنتهم فواتن الفلسفة الحديثة فتخيلوا أنهـا الطريق الوحيد لبلوغ الغـاية القصوى من الرقي الانساني ، وإذا قلت الفلسفة الحديثة عنيت بها الفلسفة المادية التي تفرض أن الانسان حيوان راق وأن الغاية التي أمامه هي وصوله الى آخر ما تنيله إياه العلوم الكونية ، وما يعده استعداده لقبوله منها .

كنت في ذلك العهد أي منذ ثلاثين سنة قد أتممت جولة شاقة متعبة قـد جلتها وأنا فتي السن وحيداً في متاهات خالية من الهـداة والأدلة ، وفي وسط جماعات علمية لا تمت الى هذه المباحث بسبب ، فكنت أرتطم في الشبهة العلمية وأصلى نارها وحدي لا أجد من يهديني الى حلها ، ولا من يدلني على مقابلها ، فما كدت أخرج منها ، سليم الأيمان ، قوياً على النضال ، حتى ألقيت بنفسي من هذا الكتاب في مجال لا يجسر أن يقفه المقرمون الفحول ، فما ظنك بناشىء لا يزال من هو أسن منه في دور التعلم والتحصيل ؟

· خضت من البحث في نفسية الانسان بحراً خضما ، فألقيت بنفسي بين أواذيه وليس لي من وسائل النجاة من طغيانها إلا عزمة قوية للوصول الى ساحله ، فلم أدع من عوامله الذاتية وعوامله الخارجية وروح العصر باباً للبحث إلا ولجته ، ولا كلاماً عن الدين والعقل والروح العلمية ومـا طوحت بي اليه من درس أول مناشئها وما أثر عن اليونانيين الأقدمين عنها . وما أتى به فلاسفتهم وحكماؤهم فيها ، وما أنتجته الحروب بين الفرس وبينهم من الآثار على العلم والفلسفة ، وما أحدثته جامعة الاسكندرية من النهوض العلمي في العالم ، وما اقتضاه هذا الخوض من دراسة مذاهب الفلاسفة اليونانيين الخ الخ ، ثم الخروج من ذلك كله الى دراسة الروح الاسلامية ، والمثل الأعلى الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسان ، وما استدعاه ذلك من البحوث في ماهية الدين الفطري ، وعرض الأدوار التي تنتاب العقائد ، وكنه الفضيلة والرذيلة ، وغاية المدنية الاسلامية ، وما استتبعه هذا الدرس العميق من النظر في المادة وما وراءها ، والالمـام بالبحوث التجريبيـة التي يقوم علمـاء اوروبا في هذا العصر بهـا لإثبات العالم الروحاني الخ الخ ، إلا درستها درس تعمق ، فخرجت منها وأنا أشد إيماناً بصحة النتائج التي وصلت اليها مني بها قبل أن أخوضها ، فلم أشأ أن أختص بها فأخذت أدونها وأنشرها بين الناس حتى ملأت مجلدين ضخمين ، نالا من إعجاب القارئين قسطاً كبيراً ، فلم يمر عليها غير زمن يسير حتى نفدت طبعتها الاولى ، وانصرفت لخوض غمرات اخرى فأهملت إعادة طبعها سنين رغماً عن كثرة طلبها ، ومضت مدة كانت تكفي للتعفية على رسومه ، ومحو اسمه من الأذهـان ، غير أن الذين وعوا ذكراه كانوا لا يفتأون يلحون في إعـادة نشره ، فأمكننا الله من ذلك ويسره ، وها نحن نقدمه للقراء مطبوعاً أجمل طبع ، راجين من الله التوفيق فيما نتوخى من نشر الحقيقة ، وبث الفضيلة ، وتغذية الروح ، انه ولي الكفاية وهو المستعان .

محمد فريد وجدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعة الأولى

أحمدك اللهم على أن هديتنا لدينك القويم ، وأقمتنا بكلامك القديم ، على صراتك المستقيم ، حمد عبد معترف بالقصور عن حصر آلائك مقر بالعجز عن توفيتك الشكر على جزيل نعمائك ؛ وصل اللهم وسلم على الانسان الكامل الذي بعثته بالنور الشامل والبرهان الفاصل ، فنصرت به الحق على الباطل ، وأقمت به وبأتباعه الأماثل ، ميزان حكمك العادل سيد الوجود محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين. آمين .

(أما بعد) فاني استخرت الله تعالى في وضع كتاب كبير الحجم أضمنه موجز أبحاثي في المواضع الفلسفية التي لها علاقة بالاسلام خصوصاً وبالدين المطلق عموماً ، وأريد من هذا العمل الشاق إقامة صرح مشيد للدين الاسلامي في هذا العصر الذي اشتهر بزعزعة أركان الأديان وهدم صروحها وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها . وسأتوخى ان شاء الله في بناء هذا الصرح

تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ، ولا ناهج بمقدراته مخالج التكلف والتحريف . ولكني سأسير معها سيرهـا الطبيعي وأسلك بها مسلكها التحليلي . ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثاني وناصره ، وحاميه من شائبات الشكوك ومؤازره ، ما دام العلم منتزعاً من أشياء الكون والدين وحي من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحي سماوي مخالفاً لوضع طبيعي وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تتنزه أفعاله عن التناقض وتتعالى إفاضاته عن التعارض ؟ بل الذي يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته ، رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته ، هذا هو الذي يرى العلم عدواً لدوداً ، فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً ، هذا هو الذي ان ذكر العلم بحضرته عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال ان هذا الا قول البشر . أما المسلم فمتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ؟ وأنّى رأيناه صدف عنه وخاف بطشه ؟ .

العلم في كل عصر ظهير الاسلام ومؤيده ، وناصر تعاليمه ومعضده . لم يسقط المسلمون الى ما هم عليه الآن إلا بلويهم عن العلم كشحاً ، وضربهم عن الخوض في مناحيه صفحاً ، ألم تر أن في كل دور من أدوار العلم كتباً للمسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحاً للدفاع عن الاسلام وتأييده ، وجعلت أعضل مسائله آلة لتشييد صرحه وتوطيده ؟ فما الاشعري وابن تيمية والغزالي وغيرهم إلا من فرسان تلك الحلبة ، وأعلام ذلك الميدان ، وقد فازوا وفاز من اقتدى بهم في كل عصر على اعدائه فوزاً ليس بعده مطلب للمزيد . فلماذا لايكون هذا العلم نفسه في هذا العصر الأنور جارياً على سنته الطبيعية التي سارها مع الاسلام في كل عصر سابق ؟

أكبر سبب نراه لتراخي روابط الدين من قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لا شك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آبائنا

الأولـــين، وسنتهم في نشر الدين، لهذا الاهمال ظن أولئك المتعلمون ان اسلحة الاسلام أقل مضاء من أسلحة علومهم الكونية ، فانتبذوا لأنفسهم مكاناً بعيداً عن اخوانهم في المدركات والعقائد .

نرى كثيراً من المتكلمين في الدين لا يسلكون في تأييد دعـاويه إلا مسلك القضايا المنطقية ، والفلسفة العقلية ، بينا يرى هؤلاء المتعـلمون أنفسهم في عصر الفلسفة الحسية ، والبراهين الطبيعية التحليلية فكيف يقر هؤلاء لأولئك بزعامة ويعترفون لهم برئاسة وهم يريدون أن يلمسوا ما يعتقدونه أو يدركوه بصفـة تقرب من ذلك .

يقرأ هؤلاء المتعلمون من كتب الغرب ما يستدلون به على أن الانسان مترق من سلسلة حيوانية ، وان بينه وبين القردة والكلاب قرابة أصلية فتنكشط من أذهانهم بسبب هذه الشبهة الواحدة كثير من المدركات الدينية في أصل الخليقة ومنابع الأخلاق ووجود النفس وخلودها وحقيقة الفضيلة وليسوا من العلم بمكانة يستطيعون معها النظر في أدلة أولئك القائلين ومحاكمتها، فتلتاث أفكارهم بشبه لا يجدون أمامهم من أكثر القوام على العقائد رجالاً نصبوا أنفسهم لتحليل أمثال هذه المسائل التي طم بها العلم العصري وصار بذلك جائحة على ما يسمونـــه الدين : فلا يرى أولئك الشبــان إلا السكوت على مضض والجمود على هواجس تجيش في صدورهم ، وترغمهم على عدم التعلق بالدين لتوهمهم أنه أضعف من أن يقاوم هذا التيار الجارف الذي لم يترك أمامه سداً أثرياً الا هدمه ، ولا بـناء قديماً الا اكتسحه ، فيحسبون أنه في حركته هذه قــد نسف صرح الاسلام أيضاً قياساً على غيره، ويفوتهم ان صرح الاسلام ليس مبنياً من آجر الخزعبلات متماسكة بطين الأوهام ، حتى يعدو عليه تيار أو يقابله في جريه اعصار « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

هذا هو السبب الأكبر في عدم تمسك أكثر المتعلمين منا بالدين ، وهروبهم من كل ما يشم منه رائحــة الدين ، وهم أنفسهم لو رأوا من المدافعين عنــــه قور

حقيقية في حمايتهم لبيضته لكانوا أعز أبنائه وأقوى اعضائه . بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع في هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الاولين الذين استخدموا علوم عصورهم للدين ، وسنجعل ان شاء الله عمدتنا في الدفاع عنه المقررات العلمية ، والمدركات الفلسفية الثابتة ، سالكين بها أقصد المسالك الاستقرائية والتحليلية ، غير تاركين فيما نظن هاجساً يهجس بالضمير بسبب أي مسألة من المسائل العلمية الحديثة التي لها ارتباط بالعقائد الا أتينا على تحليلها وبيان الحقيقة منها مع البرهنة على أنها أقوى مؤيد لمدركات الاسلام وأشد ناصر لحقائقه ، حتى أن القارىء سوف يرى ان شاء الله ان ما كان يخاله في العلم الطبيعي ناسفاً لأصول الدين ومبدداً لفروعه أحسن مقرر لها وأمتن مثبت لبنائها وليس ذلك بعجيب ، فقد قال الله تعالى : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » « ولتعلمن نبأه بعد حين » وعندئذ يليق بنا أن نتمثل بقول الشاعر :

(أفلت شموس الأولين وشمسنا أبداً على أفق العلا لا تغرب)

وقد رأينا أن نقسم كتابنا هذا إلى أربعة أجزاء كل منها يشتمل على بحث قائم بنفسه ولكنها كلها ترمي إلى غاية واحدة هى إقامة أقوى الأدلة العلمية لتقرير « ان الدين عند الله الاسلام » .

سنتكلم ان شاء الله في الجزء الأول على (الإنسان) ثم في الثاني على (المدنية) ثم في الثالث على (ما وراء المادة) ثم في الرابع على (حياة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم) أما مبحث (الانسان) فسندرس فيه ان شاء الله الانسان من كل جهاته التي لها ارتباط بالدين والفلسفة . ولا يعجبن قارىء من تخصيص كتاب ضخم في موضوع الانسان وحده فان حقيقة الانسان أعوص مسائل الانسان ، وقد سهل عليه أن يدرس الكون ويستخدم كثيراً من نواميسه ، ولكن صعب عليه جداً درس نفسه والوقوف على سرها .

نحن لا نعني بدرس الانسان درس جثمانه فإنا لا نعد ذلك الهيكل اللحمي على ادهاشه للعقل وتحييره للفكر إلا جزءاً من الكون المادي الذي تغلغل الانسان في اكتشافه ، ولا نعني به أيضاً اكتناه سر روحه والوقوف على جوهرها : هيهات ذلك مما لا نطمع فيه ولا نسمح لعقولنا بالتطفل عليه ، ولكنا نريد به درس علاقاتنا بالوجود المحسوس وبوجود آخر نشعر به ونذوب شوقاً لمعرفته .

لو كان الانسان مدفوعاً بالفطرة إلى انتهاج سبيل خاص في أمور حياته كما هو الشأن عند سائر الحيونات لما كان ثمت حاجة إلى درس علاقاته بالوجود الا من جهة محدودة ، ولكانت سعادته تبعاً لذلك محصورة بحدود الدائرة التي حجر عليه تعديها ولكنه خلق مطلوق القوى مرخي العنان لا يدرك لسعادته حداً ، ولا يتخيل لكماله تخما ، كلما ارتقى في معارج احدى سعادته درجة لاحت له درجات ، وكلما جاز باحة تراءت له باحات ، وهو مع ذلك يجد من كنز فطرته مادة تمكنه من مداومة الجد والتعب ، ومن فيض مبدعه عوناً على معاناة النصب ، حتى سمح لنفسه أن يقول وقد جال في موامي المطالب وجاب ، وجاس في انحاء الكون فأخطأ وأصاب :

(ولكن قلباً بين جنبي ما له مدى ينتهي بي في مراد اجده)

الانسان في كل جولة من جولات معناه ، وفي كل جوبة من جوبات فكره ، حتى في كل همسة من همسات ضميره ، أو حركة من حركات وجدانه يحاول أن يستجلي جمال ذاته ، ويستكشف محيا سره ، ويستديم مع ذلك وجوده الشخصي على أكمل صفة يدركها في نفسه ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يلبس أو يتزين ، ولا يفكر أو يتدبر وبالاختصار لا يتحرك حركة مهما كانت بسيطة الا وهو مدفوع بدافع مبهم لتسجيل ذاته وشخصيته في سجل الوجود ، ونقش معناه في صفحاته نقشاً يأمن عليه العاديات من كل نوع .

مضى على الانسان زمن كان فيه قريب العهد بهذا المشهد المدهش (الدنيا)

فكان شغله بنفسه واهتمامه بدفع الطوارىء عنه ، مانعاً له من التفكر في كنــه القوى التي تصرفه ، ولكن حدثت عليه أزمان بعد ذلك تم له فيها التغــلب على المبيدات الفجائية فما شعر الا وضميره يطالبه بأمر جــلل وخطب عظيم ، وإذا بصائح في فؤاده يصيح : ماذا أنا ؟ ما هذا العالم ؟ ما هي هذه المحسوسات التي تحتف بي من كل جــانب ؟ ما هي علاقتي بها ؟ أين أنا ذاهب بعد فناء هــــذا الجسد ؟ أأتلاشى كما تتلاشى الأشياء أم أدوم في عالم غير هذا العــالم وعلى شكل غير هذا الشكل ؟ الوجود قديم أم حديث ؟ إن كان قديماً فكيف وجد وان كان حديثاً فمتى وجد ولماذا وجـــد ؟ أهو أبدي لا يزول أم فانٍ لا بد له من أفول ؟ ان كان أبدياً فماذا يكون في المستقبل وبأي شكل يتشكل ؟ وان كان فانياً فإلى أين يذهب وما الذي يحل مكانه حين يعطب ؟ أيحل مكانه لا شيء أم الفضاء ؟ ما معنى لا شيء وما معنى الفضاء ؟ .

دعنا من هذا كله : فما هي المادة في ذاتها وما هي أسباب وجودها ودوامها وما هي عوامل رقيها وتدرجها ؟ كيف استحــالت من تراب الى انسان ؟ وما هي الحياة وكيف نشأت في الجماد وما هو هذا العقــل المكرم وكيف تولد في هذا الطين الأصم الأبهم ؟ ثم دعنا من هذا أيضــاً وهلم نفتكر كيف نشأ الحيوان ووجد الانسان وتدرج في مراقي العرم فان ؟ كيف اهتـــدى وتصرف وكيف نما وتطور ؟

ثم دعنا من هذا؛ فما هذه النباتات ولم وجدت بهذه الاختلافات ؟ ومـــا سبب تلوين أزهارهـــا وتطييب أنوارها وتحلية ثمارها ؟ هل خلقت للانسان والحيوان ، أو هي عوالم مستقلة خلقت لذاتها ولها أغراض وقوانـــين ؟ كيف اهتدت الى ما فيه حيـــاتها وتمتعت بما به بقاءها واستمرارها ؟ ثم ما هذه الحيوانات ولم اختلفت في الصور والهيئات وتنوعت في الأقـــدار والأحجام وتباينت في التراكيب والأجسام ؟. كيف نشأ فيها ذلك الالهام العجيب الذي يهـــديها لبناء مساكنها وتغذية صغارها والهيمنة على أحوالها وأمورها وأنـّى

اهتدت الى معائشها ووفقت لسبل غذائها وما يقيم أمر حياتها ؟ وما الانسان من بينها ؟ .

كل هذه المسائل جاشت في صدر الانسان وتراءت له على ما لا يعـــد من الصور على حسب المؤثرات التي أثرت على ذهنه ، والمناسبات التي أحاطت به في مكانه وزمنه ، واشتغل بها قديماً وحديثاً وبنى عليها علومه وصنائعه وأخلاقه وسجاياه ، وقاس عليها فضائله ومزاياه ، وشرع على موجبها قوانينه ، ونظم على مقتضاها عقائده ودينه ، وعلى قدر تمكنه من درسها وتدربه على فحصها والقرب من أسرارها فاز من وجوده بقسط من السعادة محدوداً ، ونال من حياته جزءاً مقدوراً .

فمنهم من حكم على وجوده بالحدوث والعدم ، ومنهم من قضى له بالبقـــاء والقدم . فجرى الأولون فيه على سمت شكلوا على مقتضاه علومهم وعقائدهم ، وسار الآخرون على طريق خالفوا فيه مناظيرهم على الجملة وبنوا عليــه علومهم وعقائدهم أيضاً ، وجرى الاثنان من قديم الزمن في حلبة واحدة كان السبق بينهما سجالاً فكان حكم العقل عليهما في كل زمن يختلف عن سابقه ولاحقه مما لا يجوز أن نخفيه عن قرائنا اليوم .

قال الأولون بأن للوجود إلها لا نهاية لحوله وقوته ، وللانسان روحاً خالدة بعد موته ، وله فضائل مستمدة من دينه وعقيدته ، ولأعماله في هذه الدار صور تنتظره في آخرته ، وان الوجود وما فيه مسخر لسيطرته ، يجول في ضمائره بما تقتضيه امور مصلحته ، وتستدعيه مطالب سعادته ، جعلوا هذه العقائد تسلية للانسان في دار محنتة ، وروحاً يتنسمها في كربته ، وأملا يدفع بـــه اليأس في شدته .

أمـــا الآخرون فانفضوا رءوسهم سخرية وهزؤا ، وهزوا أعطافهم زهوا وعجبا ، ثم رفعوا عقيرتهم كبراً وصلفاً وقالوا : هذه آثار الماضين وبقية من الأقدمين . فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس الكون كافية في تعليل كل

ظواهره وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ، فلا داعي لفرض وجود قوى وراء الطبيعة ، ولا موجب لتوهم عالم علوي وراء هذه المرائي المحسوسة . أما الوجود فقديم إن لم يكن بصورته فبمادته الأولية ، وأما القوى التي تصرفه فلا استقلال لها في ذاتها بل هي صفة هيولاه الأصلية . فلا مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة ، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر القوة المتحركة في الأثير من الأزل . أما الانسان وما نسبتموه اليه من نفس مستقلة عن الجسد ، وما منحتموها من مزية الخلود بعد فنائه وتبعثر ذراته ، فمما تبطله الشواهد العلمية وتحيله البداءة التشريحية. فقد قرر العلم (معاذ الله) أنه لا فرق بينه وبين غيره من الكائنات السفلية ، ولا ميزة له على سواه من الأنواع الحيوانية بل ليس هو في ذاته الا حيواناً فاق في قوة التعقل غيره من بني نوعه ، على أن بني نوعه (الحيوانات) ليست محرومة من قسط مناسب من العقل والفطنة ، واذا أردت الدليل فدونك كتب حياة الحيوان تر من آثار الفكر ونتائج العقل ما يدلك تمام الدلالة على ان العقل ليس وصف الإنسان المميز ولا حد الانفصال بين العالمين الحيواني والانساني . فاذا نسبت للانسان روحاً مستقلة عن الجسد ومنحتها مزية الخلود والبقاء ، فلم لا تحكم هذا الحكم نفسه بالنسبة للحيوانات. أليس هذا من آثار المعلومات السابقة الناقصة حينما كان الناس لا يميزون بين ما يؤيده الحس والعيان وبين ما هو من قبيل الخيالات التي تنشأ في الوجدان بلا روية ولا امعان ؟

أما الفضائل التي تقرعون الآذان بها ، وتضربون وجوه مناظريكم بسلاحها، مدعين انكم قادتها وزعماؤها ، وأن بيدكم حلها وعقدها ، وان لكم حق السيطرة على الناس بها، فليست في الحقيقة تبعاً لتعليم من التعليم ولا حقاً لناس دون ناس ،بل هي تابعة لنواميس طبيعية تظهر في الأمم الحية ظهور آثار سائر النواميس الأخرى ولا علاقة لها بدين البتة ، بل الدين مشتق منها ومتفرع عنها . الا ترى أن أكثر المتدينين بعداء عن الفضيلة مغمورون في غمرات الرذيلة؟ دونك الاحصائيات المدققة التي يستقصيها علماء الجرائم مثل (لومبروزو) و (فيريرو) و (سيرجي) وغيرهم ترى بعينك ان أكثر الجرائم صادرة من المتدينين الذين

يزعمون أن لهم ارتباطاً بالدين ، وغيرة على تعاليمه ثم انظر بعــد ذلك للأمم التي تركت الأديان ، وجعلتهـا خبراً لكان والتفتت للمدنية والعلوم الطبيعية ؛ تر أنهـا قد دبرت أمورها ، ونظمت شؤونها ، فقامت على قطب الاستقامة والاستقلال ونحت منحى الكرامة والجلال ، وكشفت لهـا المدنية عن وجهها الباسم ، وتجلت لهـا الحضارة في شكلها الفاتن ، فسيطرت على الأمم الأخرى بعلومها وصنائعها ، وقهرتهم بقوتها وسطوتها ، كما أنها صارت بالنسبة اليهم علمـاً في فضائلها وآدابها ؟

إذا كان لا فضيلة بغير الدين ، وأنها مطابقة لذات التعاريف التي تكلفون أنفسكم باثباتها في كتب الأخلاق ، فما سبب هذه الآثار المدهشة للعقول المضللة للمدارك ؟ إذا كان الانسان كما تقولون خلق مستقلا وأنه من طبيعة علوية ، وأنه مستعد لأن يسمو بروحه إلى أرقى منصة للحياة الملكية ، فلماذا هبطتم وعـلا عليكم أولئك الذين يزعمون ان الانسان من سلالة القردة وان بينه وبين الحيوانات أواصر من القربى ، ووشائج من الرحم ؟ إذا كانت الفضيلة كما تقولون لا تثبت للانسان بغير دين ولا تلتصق بضميره بأي عامل غيره ، فلماذا حرمتم من أصغر أنواعهـا ، وسبقكم في باحاتها أولئك الذين يقولون إن الفضيلة صفة من صفات الحياة الانسانية والرذيلة كذلك ، تنشأ الأولى عندما تكون شؤون تلك الحياة جارية على سمت طبيعي ملائمة لسنن الكون ، وتبرز الثانية في ضد تلك الحالة ؟

أما ما تزعمونه من أن لا قيام للأمم بغير الدين ، ولا نظام لهم سوى حبـله المتين ، فمما لا نحتاج معكم فيه إلى كبير جدال ، ولا كثير قيل وقال ، فدونكم الأمم الغربية الكبرى قـد بنت عظمتها بملاشاته ، وأقامت وحدتها بمنـابذة أشياعه ، وتشتيت شمل أتباعه ، ومع ذلك فلها كل يوم في سجــل المعالي أثر جديـد ، وفي حدائق الفخار والمجد صرح مشيد ، فان كان الأمر كما تزعمون فما هذا الأثر المنعكس ، وما تفسير هذا الأمر الملتبس ؟ أليست كل هذا البراهين المحسوسة تدل على أنكم متمسكون بأقوال لا يقوم عليها من عالم الشهود شاهد ،

ولا ينهض لهـا من واقع الحوادث مدافع ! لا جرم أنكم تتأخرون ونتقدم ، وتخضعون ونتحكم ، ولا غرو إن علونا وسفلتم ، وعززنا وذللتم ، كما لا عجب ان استخدمنا نواميس الكون وأسرتكم ، واستدررنا خيرات الطبيعة وحرمتكم .

كل هذه الشُبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوربي ، ونبع سمهـا من بـين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة . فالتاثت أكثر العقول بأقذارها ، وتسممت بسمومها، فدارت على محاورها، وجرت على مخالجها ، فتأدت إلى حال سندرسه هنا إن شاء الله درساً مدققاً .

هذه السموم بعينها سرت إلى أكثر أفراد شبيبتنا الاسلامية ، التي نهلت من دنّ العلوم الاجنبية ، فخلعتها عن مجموعها وذهبت بها مذهباً لا يجعلها مع هؤلاء ولا هؤلاء . وكفى أمة عجزاً أن لا يكون لشبيبتها وجهة .

حلت هذه الشكوك والشبه من قادة النشأة وزعماء التقدم في البلاد الأجنبية محلا علياً ، جعلتهم ينبذون معتقداتهم ظهرياً ، ويجعلونها نسياً منسياً ، وأمراً فرياً، ولكن قام مقامها موقتاً لديهم غيرة قومية ، وحمية جنسية أو لغوية، لمت شعثهم ، وضمت أجزاءهم ، ولاءمت بين أميالهم حيناً ظنوا فيه امكان قيامهم بدون الدين ، بل زعموا أن مصدر رقيهم ، ومنبع نظامهم والتئامهم ومنشأ ألفتهم ووئامهم ، هدم تعاليمه وتذريتها في الهواء . ثم لما استقاموا على هـذه المفازة الخطرة حيناً من الزمان ورأى قادتهم ورؤساء معارفهم أن هذه خطة عوجاء، وسراب ليس وراءه ماء ، وانهم بالادمان على متابعة خطتهم هذه ملاقون الهلاك الملاشي والبلاء المستأصل والحاجة الكبرى التي تهدم عروش مدنيتهم، وتطفىء نور حضارتهم ، وساعد هذا الأثر عندهم ما أحسته نفوسهم من الفراغ الموحش لفقـد العقيدة بمستقبل ارواحهم ، ومصير حياتهم ، حنت فطرهم إلى الدين الصحيح حنـين البائس ينتظر فرجة ، ويتنسم من روح الخلاص نسمة ، ولكن اين الدين ؟

كانت الفلسفة الحسية فلسفة الفيلسوف (أجوست كونت) واتباعه ، القائلين بأن كل معقول لا يؤيده شاهد من الحس جاز أن يكون ضلالا ، آخذة من الأفكار مكانـــة لا يمكن قلعها منها ، ولما كانت أسس الدين من عقيدة وجود الروح وخلودها في دار غير هذه الدار مما لا يمكن الاستدلال عليه بمحسوس جازت أن تكون ضلالا لا حقيقة له في الواقع ، فهي على حسب أسلوب هـــذا المذهب الكثير الأشياع من قبيل ما لا يمكن إثباته ، وما لا بد من عدم الخوض فيه. وما معنى دين بدون روح وخلود ونعيم وشقاء في دار بعد هذه الدار ؟ اذن كيف يمكـــن الاعتقاد بدين في عصر هذه فلسفة بنيه وتلك مبادئها ؟ لكن الله أكرم من أن يخيب سائلا ، وارحم من أن يطرد عن بابه طارقاً . ارسل عليهم من جهة فلسفتهم هذه آيات تأخذ بالأعناق خضوعا ، وبالأبصار والبصائر دهشة وخشوعـــا ، فنشأت أبحاث سموها (ابنو تزم وما نيتيزم) التنويم المغناطيسي و (اسبر تزم) استحضار الارواح ، وغير ذلك استدل منها عليتهم على أن للإنسان روحا فانشؤوا مئات من المجلات والمجامع. وعقدوا لها المؤتمرات والمحافل. وألفوا فيها الكتب والرسائل . وبلغ عددهم من العلماء الاعلام ، وقادة المعارف العظام ، والمحامين الأماثل ، والكتاب الفطاحل ، ما لا يقل عن عشرين مليوناً وكل يوم يزيدون على هـــذا . فهم لم يقعوا حتى نهضوا ، ولم يضلوا حتى كادوا يهتدون . ولكن شبيبتنا التي شربت من حوض علمهم ، وتشبحت في أذهانها صور معلوماتهم ، لم يشاؤوا ان يوسعوا دائرة معـــارفهم وكأنهم لم يعلموا أن ما يدرس في المدارس من العلوم الطبيعية والرياضيـــة ليس الا قطرة من بحر لا تنقع صدى ، ولا تروي غلة ، بل كأنهم يعتقدون أن العلم واقف حيث هو عن عهد (لفوازيير) و (تورسلي) و (ماريوط) و (فولتا) وان باب الرحمة الالهية اغلق في وجه بني آدم والعياذ بالله ، فلا مرمى بعد مرماهم ولا مذهب بعـــد مذهبهم ! ثم نسوا ما تعلموه أيضاً ولم تحفظ ذاكرتهم منه الا شكلا مشوهـــاً ليس له أصل يعتمد عليه ولا ركن يرتكن اليه . فهم على مـــذهب (اجوست كونت) و (داروين) بـــدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة ماهية مذهبها ولا

أصول نظرياتها ، وكأنهم كفاهم أن يكونوا (اجوستين) و (داروينين) أن يروا شيئاً من فلسفتها في بعض الكتب ليس آتيـاً على أسلوب صحيح ، ولا سلك فيـه كاتبه مسلك التحليل والاستقراء . ثم أنهم على فرض تعمقهم في مبادىء فلسفة هذا العصر وتغلغلهم في مناحيها تدقيقاً وتمحيصاً ، لم يكلفوا أنفسهم النظر في ماهية الاسلام ليروا إن كانت مبانيه مما يهدمها مثل هذه النظريات أو بالعكس تقويها وتسندها .

نحن لسنا من أعداء المعارف الحقة ، ولا من أضداد فرع من فروع العـلوم الأجنبية الصحيحة ، لأن الاسلام دين غايته العليا الحقيقية ، وغرضه الأسمى تخـليص الانسانية مما ران على فطرتها من خبث الأوهام ، وقذر المعتقدات الباطلة ، فغايته وله المثل الأعلى كغاية مذاهب (اوجست كونت) و (باكون) وغيرهما في تنقية المدارك من أدران الباطل ، وأسلوبه أدق من أسلوبها واجمع للشرائط الموصلة للكمال الانساني من كل وجوه كما سيتضح لك ذلك عند إيراد تلك المذاهب ومقارنتها بالاسلام إن شاء الله .

سيشمل الجزء الأول من مؤلفنا هذا عدا عما سبق على كلام مشبع على حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه ومناشىء بلائه وماهية سعـادته وطريق الوصول اليها .

خلق الحيوان على حال لا يستطيع عنها محيصاً ، ولا يرتقي فوقها درجة ، وحصرت قواه العقلية والفكرية في دوائر لا يستطيع تعديها من تلقـاء نفسه ولا بواسطة غيره ، ولكنه وهب في مقابل هـذا سوقاً طبيعياً يهـديه إلى مصالح وجوده جملة وتفصيلاً ، حتى أنه ليأتي في تربية صغاره والعناية بها أموراً يعجز أكثر أفراد النوع الانساني عن معرفتها وإدراك أسرارها . فبينما ترى مثـلاً أن أكثر الأمهات والأباء من نوعنا الآدمي يقتلون أفلاذ أكبادهم باتخـامهم بالأغذية الدسمة قبل وصولهم إلى السن المناسب لتعاطيها ، ترى الهرة بجـانبهم لا تعطي صغارها شيئاً من المأكولات الدهنية إلا لما يبـلغون سناً معلوماً فتراها قائمـة

بتربيتهم على سنة قويمة صالحة حتى يشبوا صحاح الأجسام سليمي البنية مستعدين لمكافحة العوارض من كل نوع . لا تجد فيهم عمياً ولا عمشاً ولا مهزولين ولا مما يكثر في صغار عالمنا الانساني وكباره ، وما ذلك إلا لأن الخالق جل شأنه فطرهم على قوانين حكيمة لا يتعدونها فهم يقضون حياتهم في سعادة مناسبة لهم تمام المناسبة . أما الانسان المفطور على غير هذه الفطرة فتراه جارياً على غير هذه السنة : تتناوله الجهالة من جميع جهاته ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فتتقاسمه الأمراض والأوصاب ، وتتنازعه الأعراض والمعاطب حتى أن كثيراً من أفراده يموت على أتعس حالة بعد أن يكون قد عاش حياة كلها نكد وكدر ، ومضى عمراً كان عبئاً ثقيلاً على البشر . لِمَ هذا؟ هل خلق الانسان أحط من الحيوان ؟ هل متع الحيوان لجهاده الحيوي في العالم بأسلحة أمضى وانسب لنوال غايته من أسلحة الانسان ؟ هل كتب على الانسان الشقاء والبلاء وقضي عليه أن يمضي أيامه بين مزعجات الكون ومبيداته يقذفه تيار من المصائب ، ويتناوله آخر من النوائب ، وهو بينهما لا يكاد يستفيق حتى يغشى عليه ، ولا يتخلص حتى يوثق من رجليه ويديه ! فهل سألنا أنفسنا يوماً قائلين ما هو الانسان ، وما هي الحياة ، وما هي المصائب ، وما علاقتها بالانسان ، وما حكمتها ولم صبت عليه صباً دون غيره من الكائنات الأرضية وكيف التخلص منها إن كان يمكن منها الخلاص ، وهل الخلاص معقود بأهداب العلوم أو مرتبط بعلائق الدين ، ما هو الدين وما هي الدنيا ، كيف يتحدان وكيف هما ضروريان لحياة الانسان ، ما هي الفضيلة وما هي الرذيلة وما هو كنه ارتباطهما بالانسان ، هل الانسان مقصور على هذه الحياة فقط أم له عالم آخر بعد هذا الشكل المحسوس ، ما هو ذلك العالم وما هي نسبة الانسان اليه وعلاقته به ؟ .

هذه كلها أسئلة يرى كل إنسان نفسه شيقة إلى حلها ، مغرمة برفع الحجب عن حقيقتها ، وشوقه وغرامه هذان دليلان حسيان على أنه مفطور على البحث عليها ، ومتمتع من القوة بما يمكنه من الوصول الى معرفتها ، لأنه لو لم يكن مستعداً ومتأهلاً لها لما خلق الله تعالى فيه الميل اليها . فما له اذن مقصر عنها وواقف على

ساحلها خائفاً من الخوض فيها ؟ ما له يئن ويتألم ، ويذوب طول حياته بـــين نيران المعاطب والجوائح ، ويموت في اليوم ألف موتة مما يحتف من شؤون الحياة ومصاعبها . ولا تتحرك فيه عاطفـــة همة تسوقه الى كشف المستور عنه من الحقائق التي ترتبط بها سعادته تمام الارتباط ؟ قلنا الحيوان سعيد لكونه فطر على حالٍ خاص وله وظيفة محدودة ولقواه الادراكيـــة دوائر محصورة وتخوم معلومة ، وسعادته كلها مقصورة على أكل وشرب وسفاد وتناسل ، فما للانسان وهو الانسان يريد أن تكون سعادته حيوانية وأحط ؟ فانه يريد ان (يسرف) في الأكل ولا يتخم ، وفي الشرب ولا يمتلىء ، وفي السفـــاد ولا يضعف ، وأن يعتدي ولا يعاقب ، ويجهل ولا يضل ، مع أنه لم يخلق حيواناً ولكن إنساناً ، له ذهن يجيله في ضمائر الكون ، وقوى يتسلط بها على النواميس فيأسرهـــا ومواهبه تستخدم الجن والملائكة ، وله مستقبل لا يمكن لعقله مهما اتسع نطاقه تصوره ولا تحديده ؟ .

أليست هذه السعادة الموهومة التي نتطلبها صباح مساء وهي التي نستخدم لها قوانا ومداركنا، ونستهلك في تمنيها عواطفنا واحساساتنا ، وننقشهـــا في أذهان أبنائنا ونبني عليها أشعارنا ودعواتنا وصلواتنا ؟أليست هذه هي السعادة الحيوانية بعينها المبنية على الالتذاذ بالطاعم ، والاكثار من المشارب ، والتفاخر بالملابس ، وعدم الشعور بالحياة ، بتمضية الوقت بين الدنان والحدائق ، والغزلان والكواعب ؟ هذه هي السعادة التي يطلبها أكثر النوع الانساني وليست هـــي سعادته المكتوبة له ، ولا المخلوقة مطابقة لاستعداده ومواهبه ، فمهما طلبهـــا فلا يجدها لأنها لا تليق لسمو ملكاته ولا تتناسب مع علو عنصره . لذلك يموت أكثر الناس وفي قلبهم من الحياة حسرة ، وفي أحشائهم من لواعجها نار . ولهذا يسب أكثرهم حظه وبخته ، ويمقت نفسه وجسمه ، ويدعي أن السعادة اسم لا مسمى له ، ولفظ لا يعني شيئاً . وليس ذلك فيما نعلم الا جوراً بيّناً في الحكم ، وشططاً ظاهراً في العقل ، فان الخالق الحكيم قرن بكل قابلية ما يناسبها من الكمال واللـــذة، فكيف يعقل أو يتصور أنه يخـــلق الانسان وهو أكمل

الموجودات وأجملها مجرداً من غاية في الحياة يسكن اليها ، ويستتب أمره عليها؟ اذن لا بد من أن يكون للانسان سعادة عالية، قطوفها دانية ، وحدائقها مزهرة زاهية ، وانه منح كل الأسباب التي تؤهله لها ، ومتع بكل الأسلحة التي تسهل له الجهاد لنوالها ، من أقرب الطرق وأمثلها ، فاذا لم يحصلها بعد ذلك فلا يكون ذلك دليلاً على عدمها ، ولكن حجة ناطقة على أنه سائر على غير صراطها وناهج غير سبيلها ، وتائه عن مطلوبه ، وموجه فكره لما ليس له، أي أنه يريد أن تكون سعادته على ما وصفناه سابقاً على نسق حيواني ولم يخلق استعداده مناسباً لذلك. فما هي اذن السعادة الانسانية، وما هي شرائطها وكيف يسلك الانسان مناهجها ليصل اليها ؟ هـذا مما يحتاج الى شرح طويل ، وتفسير كبير ، وتقديم مقدمات، واستنتاج نتائج ليست من الفلسفة العويصة ، ولا من العبارات الضخمة ذات الألفاظ التي يذهب فيها الفكر مذهب الحيرة .

اذا انتهى معنا القارىء الى هنا تحقق أن الجزء الأول من مؤلفنا هـذا لن يدع ان شاء الله تعالى شاردة من شوارد أحوال الانسان الا قيدها ، ولا مدركا من مدركات الفلاسفة والعلمـاء فيه الا عقلها ، ولا رأيا من آراء أكثر الفرق المعروفة في كيفية نشوء الانسان وحياته وخلوده أو فنائه الا أثبتها ، ولا شبهة ولا شبه شبهة مما يقيمه غلاة المذاهب المادية امام حماة الفضائل ، وما يتدافع به الفريقان من البراهين والحجج الا سجلها . ثم يتبع كل فصل من هـذه الفصول تحليلات فلسفية ، واستقراءات علمية ، ومحاكات جدلية ، يتضح منها للقارىء صالح الآراء من فاسدها ، وصحيحها من سقيمهـا ، ومشتبهاتها من صريحها ، وتنجلي له النفس الانسانية جوهرة نقية صافية من كل درن ، مشخصة في اكمل صورها ، وأجلى مظاهرها ، في النفس المحمدية العلية ، التي هي النموذج الكامل لكل نفس بشرية تريد أن تتكمل وتتهذب لتستقيم على جادة الحق الأزلي الابدي وتصل بحركتها الذاتية الى ما أعد لها من مقاوم الرفعة ومكانات الكمال الأقدس. هنالك يعرف الانسان معنى قوله تعالى «انا هديناه السبيل» وقوله تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين» وقوله تعالى «ان هذا القرآن

يهدي للتي هي أقوم » وقوله تعالى « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » وقوله تعالى « ولتعلمن نبأه بعد حين». وسيلي هــذا الجزء جزء ثان هو تابع للأول في الحقيقة ولكنا فصلناه لأهمية موضوعه وسعة مجال ابحاثه وهو في مبحث المدنية.

المدنية لفظ شاع وذاع ، وملأ كما يقولون الأسماع ، وصالت بـه الأقلام في ميادين التعبير ، وجالت به القرائح في مجالات التحرير ، وسرى الى العامــة ودخل في مصطلحاتهم فطال معناه مرة وقصر ، وقلّ محصوله آونـة وكثر ، وعسر فهمـه طوراً ويسر ، حتى أصبح الناس والمدنية أقـل الالفاظ مدلولا ، وايسر الكلمات مفهوماً، فما هي في عرف الكثيرين إلا زخارف الصناعة الأوربية في الالبسة الجسمية ، والفرش البيتية ، والأواني الفضية والذهبية ، وما تقتضيه هذه المصنوعات من التهيؤ لاستعمالها ، والتظاهر بها من تعلم لغة القوم وتقليدهم في عاداتهم وطبائعهم ، وان شئت فقل وما تستدعيه من خفر ذمـة الحشمة ، وخلع أزر التقيـة والجري وراء ما تهواه النفس تمتعـاً بقانون الحرية الشخصية . هذا كل أو جل ما يفهمه الكثيرون من معنى المدنية . أمـــا المدنية بمعناها الحقيقي من أنها روح سامية تهبط على النفوس المتهيئة لها فتزعجها الى الحركة والتقدم وتنتقل بهـــا من أوج الى اوج حتى تجلسها على عرش الكمال الانساني صوريا ومعنويا، فمما لم نعتد في بلادنا هذه على الخوض فيه كأننا قنعنا من كل شيء بقشره الظاهري وعلافه الخارجي ، اللهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . بناء على هذا رأينا ان الانسانية تطالبنا على عجزنا بتلافي هــذا النقص بدرس هذا الموضوع الهائل درساً مناسباً لأهميته مبتدئين بايراد التعاريف الكثيرة التي حددوا بها المدنية ، مارين بالقارىء على معظم الاختلافات بين العلمــاء في امرها ، واقفين به على كل مرمى من مرامي مداركهم ، داليه على جهات قوة كل منهم وضعفه ، ثم مشهديه بعد ذلك محاكمة دقيقة بين مذاهبهم فيها ليكتنه بنفسه كنه الحقيقة النقية .

هذا الدرس التحليلي الشاق يستلزم بالطبع الاستمداد من جملة علوم مهمـة

مثل علوم العمران والنفس وأحـــوال الانسان وطبائعه والتشريع وأساليبه والسياسة وقوانينها والاقتصاد ودستوره ، هذا عدا عما يجيء عرضاً من مباحث التشريح أو الظواهر الجوية وطبائع البلدان والأمم المختلفة ، وما يستدعيه الحال من المرور على كل مدنية قامت في العالم القديم ، وما كان فيها من علل وجراثيم أمراض وما كان من أمر هذه العلل من السريان في جسم الأمة ، وما كان من شأن تلك الجراثيم من الكمون في جسمها ثم ظهورها وتفشيها بالفواعل الاجتماعية المختلفة ؛ ويمر في أثناء ذلك طبعـــا الباعث الحقيقي لكل من تلك المدنيات والدور الذي لعبته في الوجود والدائرة المحدودة التي حكم عليها بعدم تخطيها بسبب قصر نظر واضعيها ، ومقدار ما جاءت بـه كل منها من النفع للعالم ، وما جنته من جناية عليه وكيفية تسلسل تلك المنافع والجنايات بحكم الوراثة الى يومنا هذا . كل هذه الابحاث ستكون بطريقة سهلة يفهمها الخاص والعام بعيدة عن مصطلحات الفلسفة والتعبيرات العويصة .

هذا النوع من البحث التحليلي وان يكن شاقاً متعباً الا ان فائدته كبيرة وعائدته لا تقدر فان الانسان لا يستطيع أن يتحلى بما يجهله ، ولا أن يتسم بما لا يعرف حدوده ؛ اليك مثلاً لذلك بسيطاً : ليس لدى الانسان أحب من المال بعد نفسه وولده ، وربما فاقها عند بعض افراده ، لانـه يعينه على كل رغيبة سواء كانت ادبية أو مادية ؛ وليست أمم الشرق بأقل طلبا له وشرها فيه من أمم الغرب ، ولكنك مع ذلك تراهم أقل من سواهم فيه قسطا ، وأهون من غيرهم منه نصيباً ! لماذا ؟ لأنهم يحبونه ولا يعرفون أساليب جلبه ، ويهوونـه ولا يدرون طريق استدراره . هذه حادثة اجتماعية محسوسة . كذلك الحال بالنسبة للمدنية فانهم يحبونها ويتمنونها وتنبسط نفوسهم الى رؤيا مجاليها ومعاهدها ولا يمكن أن يقال انهم لا يودون طلبها كما يطلبها غيرهم ، ولا أنهم مرتاحون من حالهم المخجل أمام مزاحميهم من أمم الغرب ، اذن ما المانع لهم عن الوصول اليها ، وما الآخذ بخناقهم دونها ؟ أليس ذلك المانع القاهر هو جهلهم سبيلها ، وعدم المامهم بحدودها واصولها .

الإنسان مفطور على التكمل والترقي فهو إن تدنى وهبط فلا يكون ذلك لمحبته للهبوط ، فهو لا يهبط الا رغم أنفه ، ويكاد فؤاده في كل دركة من دركات هويه يتمزق حسرة ، وتسيل مهجته أسى وأسفاً ، وأنه لو رأى وهو في تلك الحالة شبحاً يميل لجذبه بيده لا يأنف أن يضحي نفسه له ، تحمساً بـه وفرحاً بمعونته . ولكنه قـد يعصى ناصحه الأمين ، ويستغش دليله الخريت ، ويهجو طبيبه وربما ضربه ؛ ولا يقال ان هذا عكس ما نقول ، لأن الانسان في تلك الحالة المتناقضة يكون غير فاهم ما يراد به ، ولا عارف بنتيجة أمره فان رحمته وتركته حتى يفهم وصبرت عليه الى أن يؤوب الى رشده أتاك تائباً ، وعانقك متحبباً متقربا ، ورجاك أن تغفر له ما قد سلف .

هذه حالة الانسان في كل ما يجهله . فان قال قائل بأن الشرقيين ميتون ، أو أنهم لهـذا الشكل البديع من المدنيـة لا يصلحون ، أو أن دورهم انقضى ونجمهم أفل، فكل ذلك كلام يصح أن يكون شعراً لا علماً ، وخيالاً لا حقيقة . ولا يجوز لمسلم دستوره القرآن أن يصدقه فانه يحرم عليه ذلك ؛ بل ربما أداه اعتقاده ذلك الى الكفر ، فانه اليأس بعينه ، واليأس والاسلام لا يجتمعان في قلب رجل ، كيف ييأس مسلم يعرف أن واضع مجد هذه الأمة بأسرها وباني أسس عظمتها التي أدهشت بها العالم كله ولم تزل تدهشه حتى اليوم ، رسول قام بلا جند ولا مال ، ولا أعوان ولا أنصار ، في وسط أمة لم تعرف للمدنية اسما ولا معنى ولم تستأهل بسبب قحولة أرضها وحالة حياتهـا الى شيء من الرقي الاجتماعي مطلقاً ، والدليل على ذلك انها لبثت فيما كانت فيه من يوم وجودها ليوم البعثة بدون اقل تغير في شؤونها ، ولا ترق في أمورها ، فلم يلبث فيها زمناً قصيراً حتى نهضت نهضة لو رام الشاعر لها من عالم الخيال صورة تحاكيها ، لضاق به على سعة ارجائه ضيقا يرى معه أن الحقيقة لو تجلت في كالها لأغنته عن تكلف الأكاذيب ولاغتنت هي بذاتها عن كل تفخيم وتجسيم .

فالمسلم اذا تدبر في هذه الحادثة التاريخية وحدها يصبح وفؤاده مملوء أملاً

ورجاء بأن حياته مرتبطة بذلك الاكسير الأعظم ، والدواء المكرم ، الذي حمله الى العالم ذلك الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لو أدرك سره وتركيبه وتعاطاه كما تعاطاه من قبله آباؤه الأولون لم تضره المزاحمات التي تحيط به من كل جانب، ولم تعجزه المقاومات التي تحتف به من كل وجهة كما لم تضرهم مدنية الرومان والأعجام . ولم تعجزهم بمؤثراتها عن مزاحمتهم في مضمار العلاء وميادين الرقي والتقدم ، بل سبقوهم وسيطروا عليهم بعد ان جاروهم وبزّوهم . فما هي تلك الروح العالية التي هبطت على هذه الأمة بواسطة نبيها، وما هو ذلك السر العظيم الذي حمله اليهم ففرطوا في حفظه ؟ ذلك ما يجب ان يسأل عنه كل مسلم نفسه ؛ وهو مـا سنجعله موضوع بحثنا في هذا المؤلف الضافي الذيول إن شاء الله .

★

اما الجزء الثالث من مؤلفنا هذا فقد أعددناه للبحث فيما وراء المادة وقصرناه على ذلك الا ما يمس الموضوع نفسه من المعارف المرتبطة به التي لا مندوحة للسير فيه من الاتيان عليها والالمام بها .

الانسان لما كان في دور الفطرة كان يعتقد أن له روحاً لها حياة أبـدية في عالم غير هذا العالم ، وعلى حال غير هذه الحال لا يقربه في هذه العقيدة شك ولا يخالج صدره ريب ، ولكنه لما خرج من هذا الدور الطفلي إلى دور أرقى منه ، ودارت فيه القوة العقلية على محور البحث والتنقيب ، وتيقظت فيه عوامل اكتناه المساتير والمجاهيل ؛ وأراد أن لا يصدق العقيدة الملتصقة بضميره الا بدليل ، جعل أهم مباحثه البحث عن ذاته للوصول إلى حقيقتها ، لا سيما وهي أحب شيء اليه ، وأعز عزيز عليه ، فظل يسأل نفسـه : ما هي الروح في ذاتها ؛ هل لها استقلال وتميز عن الجسد وقوام بدونه ؛ هل لهـا خلود في دار بعد هذه الدار ، ان كان نعم فبجسم أم بغير جسم ، ان كان بجسم فهل هو جسمها القديم أم بجسم آخر ينشأ لها جديداً ؟ ان كان بجسمها القديم ، فكيف يتأتى ذلك

بعد ما تضيع ذراته في أحشاء الأرض ، وربما دخلت في تركيب الأشجار والحيوانات بل وربما في انسان آخر ، وإن كان ينشأ لها جسم جديد فكيف يكون ذلك بدون خلق تدريجي وأدوار متتالية كما هي العادة المحسوسة ؟ وإن كان ذلك الخلود بغير جسم فكيف يحصل ذلك وعلى أي صفة يكون وكيف يتأتى السمع والإبصار والذوق واللمس بدون الحواس الموضوعة لها ؟

خلنا من كل ذلك ، الا يحتمل أن تكون الروح عبارة عن مجموع وظائف الجسم ولا استقلال لها في نفسها ؟ ألا ترى الانسان لو حرم الغذاء أم الهواء أو انتزف دمه مات وبطل حراكه كأن ما يسمى روحاً متعلق بذلك كله ؟ فما معنى وجود روح مستقلة في الجسم بعد هذه المشاهدات ؟ إنا نرى الرجل مثلاً اذا قتر على نفسه في الغذاء ، أو لو سكن في محل فاسد الهواء ، أو ولو توالت عليه الأدواء .. قل عقله وهبطت حركته وقرب من الزوال والتلاشي ، ألا يدل هذا الارتباط بين وظائف الجسم والعقل أن ما يسمى روحاً هو الخاصية العمومية الناتجة من كل هذه الوظائف والحاجات الجسمية ؟ اذ لو كانت فيه روح مستقلة عن الجسد لدام عقله مؤديا وظيفته لآخر لحظة من حياته ولما وجد ذلك الارتباط التام بين مادة جسمه وقوى عقله . ثم دعنا من هذا أيضاً ولنسأل : لماذا قلنا ان لنا روحاً لها كيت وكيت من الصفات والامتيازات ، ولم نرض للحيوان ببعض شيء من ذلك ، بل حكمنا عليه حكماً قاسياً وشبهناه بالآلات الصناعية المحضة مع أنه يشاهد فيه ادراك وفكر واختيار ؟ ألا يعد هذا من الجور في الحكم؟ ان كنا نحكم لأنفسنا بكل تلك الامتيازات بناء على ما لدينا من الادراك والفكر ، فلماذا لا نحكم بشيء من ذلك لتلك الحيوانات أيضاً وفيها ما هو أعقل وأحكم من كثير من متوحشي النوع الانساني ؟

كل هذه الشُبه ترددت في نفس الانسان من زمن مديد فكان يحاربها بما لديه من الأسلحة العلمية النظرية ، والقضايا الكلامية المنطقية ، ولكننا اليوم في عصر تشبعت الأفكار فيه بأن العقيدة اذا لم يسندها من جهة الحس دليل ملموس ،

جـاز أن تكون خرافة كما ثبت ويثبت مثله في عقائـد المتوحشين ، فما المخلص ليوم من هذه الشبه الهائلة والشكوك المتعاصية ؟

اضطربت هذه المسائل في عقول علماء الغرب اضطراباً شديداً ، استدعـاه غلواء أبناء ملتهم في التشدد في العقيدة،والجمود على خرافات الأقدمين وتهالكهم على تقليد أسلافهم ، ولو نابذ العلم وجافى البديهة العلمية ، فحملهم هذا التفريط الى افراط أشـد منه ، فنهضوا نهضة المنتقم ولم يدعوا صقعاً من أصقاع الأرض الا وذروا فيه من هذه الشبه ما لا يدع للعقيدة محلا في النفس ، وتذرع حزبهم لذلك بكل وسيلة حتى زعموا أن العلم عدو العقيدة وعدو كل ما يثمره الفكر المجرد ، وانه سينتهي أمر هذا التنازع بين العلم والعقائد الى تلاشي هذه الأخيرة مرة واحدة،وطفقوا يفسرون كل مجاهيل الوجود بالنواميس الطبيعية المعروفة، ويحاولون حل المشكلات الكونية بالقوانين المكتشفة ، فوقعوا في تفريط مخجل كانت غايته تشويه حياة الانسان وسلبه أغلى مسلياته ، والهبوط به الى عـالم الحيوانية السفلى ، وآل الأمر الى خلل في تركيب معنـاه السامي ، وفساد في جوهره المكرم ، ممـا سنلم به ان شاء الله في موضعه الماماً لا يدع للاستزادة مساغاً .

هـذه الطائفة انكرت الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب والثواب وزعمت أن ذلك كله من خيالات الافكار القديمـة وبقية من بقايا السالفين ، سيلاشيهـا العلم والعرفان ، ويجعلها التمدن في زوايا النسيان ، فانهم لكذلك يموجون في قفص من الحيرة ، ويضطربون في غيهـب من الوحشة ، واذا بـآية عظمى ، وقارعة كبرى ، ظلت الأعناق لهـا خاضعة والرؤوس اليها منكسة والألباب أمامهـا حـائرة ، والعقول بازائهـا باهتة ، واذاهم بالتنويم المغناطيسي والاستهواء ثم تلاه فن استحضار الأرواح وتجسدها ، فهبوا ينابذون تلك الخوارق جريا على سنتهم السابقة مع كل ما يشم فيه عالم ما وراء المادة . ولكن هيهات، تزل تلك الخوارق تخترق كل ما سدلوه أمامها من الحجب ، وتمزق ما وضعوه

حياها من الأغشية ، حتى دخلت دور العلوم ، وغرف العلماء ، وقصور الملوك ، ومكاتب السياسيين ، وثكنات رجال الحرب ، ولم تدع مجالا من مجالات الحياة الا وجالت فيه جولة استلفتت لها الانظار والبصائر ، فلم يمر ردح من الزمن الا وعشرون مليونا من العلماء والرؤساء يعتقدون بها ويروجونها بواسطة مائتي مجلة تطبع وتنشر في العالم اجمع بجميع اللغات الحية. فماذا كان من نتيجة هذه القارعة العظمى ؟ كانت النتيجة انهزام الماديين هزيمة كبرى لا يقوم لهم بعدها علم ، ولا يرفع لهم صوت. ولكن اين الشرقيون من هذه الانقلابات المدهشة ؟ اين شبانهم الذين تعلموا اللغات الاوروبية وتشبعوا بفلسفتها الالحادية فينظروا كم في ضمائر الغيوب من آية وكم في رحمة الله من سعة ؟

يقول قائلهم اذا انتهى الى هذا الموضع : هذا تجسيم لوهم وتجسيد لخيال قام ببعض العقول الساذجة في أوروبا فطنطنوا به كما هي عادتهم في كل أمر ، فقام صاحبنا هذا يردد صداهم ، ويؤمن لدعاهم ، بدون تحكيم العقل ، ولا استقصاء العلم . هذا مما يمكن أن يقوله بعضهم ممن لم يطالعوا في هذا الأمر سطراً ، ولم يجيلوا فيه فكراً ، مع أن الحقيقة فوق ما صورناه ، وأهمية تلك المسائل اليوم بين العلماء أكبر مما ذكرناه، وسيرى مطالع مؤلفنا هذا مما سنرويه عنهم،ونسنده الى علمائهم وفلاسفتهم خاصة من الذين كانوا بالأمس ماديين لا يصدقون بشيء ، ما يجعله يقول كما قال الأستاذ الأميركي الشهير (هيزلوب) « العالم على وشك حصول انقلابات كبيرة » ويردد ما فاه به العلامة (لودج) الانجليزي : « إن الحائط الموجود بين العالمين المادي والروحاني أخذ يرق شيئاً فشيئاً وسينتهي أمره بالزوال مرة واحدة » ويرجع ما قاله الاستاذ الألماني (كارل دوبرل) « العلوم الطبيعية تجارت على التكذيب بعقيدة الآخرة فسيعاقبها الله بأن يجعلها تقيم على وجودها البرهان القاطع »

أما كتابنا الرابع فسيكون موضوعه حياة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ...

ولا نعلم بحثاً أدق موضوعاً،وأدعى إلى العناية والاهتمام بالنسبة للعالم الإسلامي بل الانساني من هذا الموضوع السامي. اذا كنا نعتقد أنه لا سبيل الى صلاح حال المسلمين ولا طريق الى استردادهم لمجدهم القديم وسؤددهم الأثيل ، الا بالرجوع الى دينهم الفطري خالياً من درن البدع التي ألصقت به ، والقائم بأنفسهم بين يديـه ، فلا يتأتى ذلك البتة الا بالمامهم بماهيته واسراره، ووقوفهم على حقيقته وأنواره ؛ ولا يمكن الوصول الى تلك الحقيقة النقية ، وذلك النور النـاصع الا بدرس ذلك القلب السامي الذي أشرق فيه هذا الدين بادىء بدء ثم انعكس منه على غيره. بهذه الطريقة نستطيع أن نعرف مـاهية الدين في ذاته وندرك كنه تأثيره على المعنى الانساني النقي من ران الوساوس،فنكون بهذه الصفة قد درسنا الشيء في منبعه ، واستشرقنا البدر من مطلعه .

نعم إن درس هذا الفؤاد الكبير أمر عسير،بل إدراكه على حقيقته مستحيل على من لم يبلغ مبلغه من السمو الروحاني،ولم يضرب مثله بسهم من العلاء الملكوتي لأنه لا يعرف الفضل الاذوو الفضل،وهيهات ان يحدد التصور درجة ذلك القلب العالي من عالم القدس ، أو أن يشرف على منزلقه من حظائر الملأ الأعلى ؛ ولكن الخـالق العليم إذ أراد أن يكون ذلك الرسول الكريم الواسطة العظمى بينه وبين عباده ، والناشر الأمين لكلمته العليا ونوره الفياض بين مخلوقاته ، أبدعه على صورة ينجذب اليها كل نوع من أنواع العواطف الشريفة ، ويتعرف اليها كل جنس من أجنـاس العقول الانسانية ، ليصح أن يكون حجة لله على خليقته ، وسببا لأفاضات الرحمة على عبدتـه ، ولو كان على غير تلك الصفة لكان للناس عـذر في عدم التصديق به لعلوه عن متناول عقولهم ، ولعدم وجود نسبة بينه وبين عواطفهم وأميالهم يتوصلون بها إلى ادراك وظيفته، ولجاز أن يرسل الله اليهم رسلاً من الملائكة وهو مما تأباه الحكمة الالهية ولم تجر به سنته تعالى بين البشر .

الانسان مهما سفـل في حضيض النقص والخسة ، وانحط الى دركات الغيّ والدناءة، فلا يعدم خاصية التمييز بين القبيح والجميل، ولايفقد صفة الانجذاب الى

الكمال حيث يراه . والنفوس وان كانت تتفاوت مراتبها في هذه الخاصية ، وتتفاضل احساساتها في تلك الصفة ، الا أن الجمال والكمال في ذاتها قوتان جذابتان ، ولو تجلتا لنفس من النفوس قاومتا كل ما يعترضها من حجب الغفلة وأستار الحرمان ، وأثرتا على الفؤاد الانساني مهما كانت صفته تأثيراً لا يمكن محوه منه بوجه من الوجوه . ألا ترى أن أصحاب الدعارة واحلاس الخسة والدنايا من الناس لا يزالون يحترمون الفضلاء ويشعرون لهم في أنفسهم بإعزاز وإجلال مع ما بين الفريقين من التباين في المشارب ، والتخالف في النزعات والمذاهب ، ولو جردنا النفس الانسانية من هذه الخاصية فماذا نبقي لها بعد ذلك .

السنة الحكيمة التي نشاهدها في بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ان الله جل وعز يصطفيهم في أممهم من أشرف معاصريهم نسباً ، وأعلاهم حسباً ، وأقوامهم جسماً ، وأزكاهم عقلاً ، وأنداهم بالعرف كفاً ، وأكرمهم خلقاً ، وأكثرهم علماً ، وأحكمهم سياسة ، وأرجحهم كياسة ، وأبسطهم بالمكارم يداً ، وأوسعهم بالحلم صدراً ، وأضوأهم بالبشر وجهاً ، وأسمحهم بذلة العبودية نفساً ، وأتعبهم في مرضاة الله جسماً ، رأفة بالناس ورحمة بضعفهم ، ليسهل الرضوخ لهم من الملك في سطوته ، والشريف في علو عنصره وسمو محتده ، ومن الشجاع في قوته ورباطة جأشه ، ومن الفيلسوف في نفوذ فكرته وسعة حكمته ، ومن السياسي في دقة أساليبه في سلوكه بين رعيته ، ومن السخي في كثرة بذله وتكرمه ، ومن الصالح في شدة تورعه ودقة تحرجه ، ومن العابد في كثرة تهجده وحسن تعبده .

هذه سنة الله عز وجل في إرسال الرسل الى خلقه أخذاً للناس الى طريقه بأشد ما يؤثر على عواطفهم ، وسوقاً له الى صراطه المستقيم بأكبر ما يطأ من كبريائهم ، ويكسر من شرتهم ، ويدلنا الاستقراء التاريخي ان الله عز وجل راعى في بعثة كل رسول أن يحليه من الصفات بأرقى ما اصطلح قومه عليه من مفاخرهم ، وأسباب سؤددهم ، حتى توجد النسبة بينهم وبين نبيهم ، ثم يكون

سموه في كل تلك المفاخر والمحامد، وزيادته عليها بما يكرمه به الله من إشراقات النبوة ، وسبحات الوحي ، مدعاة الى الخشوع له ، والخضوع لما يجيء به من الأوامر الالهية والحكم التشريعية . على هذه السنة الكريمة أرسل الله سيد البشر محمداً صلى الله عليه وسلم في الحين الذي بلغ فيه الجوهر الانساني نموه ، وتم فيه لعقله المكرم نضجه وكماله ، وتبينت فيه أشخاص الفضائل والكمالات ، وتميزت فيه الحقائق من الخيالات، وعلم النوع الانساني بوقع الحوادث المتوالية بأن له من الحياة غاية عالية ، ونتيجة شريفة سامية . قلنا أرسل الله في ذلك الحين رسوله المصطفى جامعاً لأشتات الفضائل والسجايا ، شاملا لمتفرقات المواهب والمزايا .

ان تخيلت الملوك في عروشها ، والقياصر في أبهتها ، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أعلاهم في السيادة كعباً ، وأعطفهم على رعيته قلباً ، وأشدهم على أعدائه صولة ، وأقواهم عليه شوكة . وان تخيلت القواد وسط كتائبها ، وغطاريف الحرب بين صفوفها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أشدهم لها مراساً ، وأقواهم في هيجائها بأساً، وأسرعهم في إدارة رحاها يداً، وأرحمهم في إصلاء لظاها أسلوبا. وان تخيلت الفرسان في ثبات جأشها ، والشجعان في جلد أفئدتها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أصبرهم في غمراتها ، وأجلدهم في هياجها ، وأطعنهم بالرمح في صفوفها وأضربهم بالسيف في نحور فرسانها . وان تخيلت الفلاسفة في حكمتها، والمتشرعين في دقة نظرها ، في أدواء الأمم وعلاجها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أحكم العالم قولاً وعملاً، وأنفذ في علل الامم وطبها نظراً. وان تخيلت الشعراء في سعة خيالها، وسبحها في بحار الابتكارات وغوصها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أبعد منهم في مجال وصف الحقائق مرمى ، وأكثر منهم لشوارد المعاني المبتكرة اصابة . وان تخيلت الخطباء في منابرها ، وهي تخلب الأفئدة بسحرها ، وتأسر الألباب ببيانها ، رأيته صلى الله عليه وسلم أحسنهم بضروب الكلام علماً ، وأكثرهم لأفئدة سامعيه أسراً . وان تخيلت الزهاد في صوامعها ، والعباد في محاريبها ، رأيته صلى الله عليه وسلم في الزهد صاحب العلم الأرفع والمقام الأول، وفي العبادة النموذج الاكمل ، والمثال الاجمل .

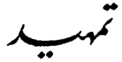
من أي جهة نظرت الى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم رأيته فيها نسيج وحده ، ووحيد عالمه فاق كل فائق في صفته وبز كل سابق في خاصيته ، وفات كل ذي كمال كماله، مما يدلك بالحس انه النسخة الكاملة للابداع الالهي في هذا العالم والنموذج الكمالي الذي وضعه الله للبشر نوراً يعشون اليه. وعلماً يهتدون به اليه. سيكون موضوع هذا الجزء اذن درس حياة هذه الروح الكبرى درساً مناسباً لدرجتها. وستكون العلوم العصرية الجديدة أقوى وسائلنا في تجلية هذه الحياة الكريمة في مظهرها الباهر ، ومجلاها الآسر . متعنا الله بنعمة اتباعه ، وحلانا من إشراقات روحه الكريمة بنفحة من تعطفاته . صل اللهم عليه صلاة أبدية سرمدية ، وعلى آله وصحبه وأتباعه الى يوم الدين . آمين .

محمد فريد وجدي

★

الباب الأول

معرفة الإنسان نفسه



يشهد الوجود بتفصيله وجملته ، وينطق التاريخ الطبيعي بلسان حملته ، بل ويقر الانسان على نفسه بنفسه ، بأن الانسان أبدع الكائنات الأرضية من كل ناحية .

أما من جهة تركيب جسمه ، فهو الصناعة المدهشة للفكر ، الباهرة للمدارك ، قد ركبت آلاته تركيباً متناسقاً ، ورتبت على بعضها ترتيباً متناسباً . لا تجد فيها عوجاً ولا أمتا ، ولا تصادف فيها خللا ولا عيباً ، اللهم الا ما تلحقه به العوارض التي يجرها على نفسه أو تجرها عليه الطبيعة وفي ذلك حكمة ليس هنا موضعها .

تتحرك هذه الآلات كلها حركات منتظمة ، خاضعة لمحرك فرد ، وناموس واحد ، فيؤدي كل عضو وظيفته الخاصة به ويبلغ منها غاية خاصة ، فتجتمع كل تلك الغايات المختلفة الى بعضها ، وتأتلف ائتلافاً متناسباً مضبوطاً وتؤدي الجسم الى صراط العدل المستقيم ، وتفيض على جميع أجزائه روح الراحة والصحة الى حين .

عجيب أمر هذا الهيكل الانساني : حركات دائمة ، ومجهودات من أجزائه متواصلة ، لا تهدأ مطرف عين ، ولا تقف لحظة من زمان : قلب يرتجف ،

ومعدة تعمل وعصارات تفرز وسوائل تتحلل وتتركب وتـــترشح وتتصعد . وغازات تتكون وتصعد . وغدد تختزن السوائل لحين الحـــاجة ، ودم دائب الجريان في أجزاء الجسد ، وخلايا بسيطة تتلاشى وتتكون وتتكاثر الى غير نهاية، وكل هذا لا يهدأ لحظة ، ولا يسكن آونة من ليل أو نهار !

اليك من الجسم الانساني مثالاً عجيباً وقس عليه غيره : للانسان عـين ترسم الأشياء على شبكتيها ، كيف ترسمها بهـــذا الضبط ؟ وكيف تصغرهـا بكل أجزائها الدقيقة ؟

يعـــلم كل من رأى التصوير الفوتوغرافي أن المصور يظل يقرب عدسة آلته مراراً ويبعدها ، بعد ما يكون قـــد أعد لنفسه غرفة ذات أستار محكمة ونوركاف ، حتى يضبط البعد المناسب ثم يأمر من يريد أخذ صورته أمراً صارماً بأن يلزم مكانه ويقف أمـــامه وقفة التمثال لأن أي حركة منه تؤثر على الصورة فتفسدها حتى أنه ليغشى على بعض العصبيـين من تلك الوقفة المضجرة ، وبعد هذه العملية الثقيلة كلها قد يقف المصور أمام الشخص حانياً ظهره قائلاً : عفواً يا سيدي ، أرجوك أن تقف مرة ثانية فقد أطـــارت الريح الستارة التي كنت أقمتها لحجز الأشعة فدخل منها اكثر مما يلزم فجاءت الصورة على غير ما يجب .

أما العين وما أدراك ما العين ؟ فإنها قد ترسم لك في الدقيقة الواحدة ستين مرئياً منتظماً مختلفة في القرب والبعد والطول والقصر، والكبر والصغر ، بدون أن تتكلف لها مشقة ولا تعباً .

المصور ان لم يتعهد آلته ولا سيا عدستها الزجاجية بالتنظيف والجلاء كل يوم فلا تؤدي وظيفتها الا على أسوإ حالة ، أما العين فقد يعمر الانسان مـــائة سنة حافظاً لقوة الابصار وبلورية عينه لم تطالبه بشيء من ذلك . ولو أراد صاحبهـا تنظيفها لما استطاع الى ذلك سبيلاً بل قد يعيش الانسان مائة وخمســين سنة ولا يدري من تركيب عينه شيئاً ولا خطر بباله أن يسأل عنه غيره . هذا من حيث العين وهي من أصغر الاشياء في الجسم . أما اللمس والذوق والمعدة والاعصاب

والأوتار والأوردة والشرايين والقلب والرئتان وغيرها من أجزاء هـذا الشكل الانساني فمما يحير الفكر ، ويبهر العقل ، ويقضي على الانسان بالدهشة والحيرة حقيقة . كيف لا وقد حيرت العلماء الذين قصروا أعمالهم وأعمـارهم على تقصي عجائبها ووقفوا حياتهم لدرسها ، فسبحان « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » القائل « انا خلقنا الانسان في احسن تقويم » [1] .

هذا حال الانسان من حيث جسمه وأنت تعلم أنه موضوع البحث والفحص منـذ ألوف من السنـين ، ولم يزل أعجوبة العـلم ، ومعجزة الخليقة ، وطلسم الكائنات الأرضية .

أما حالته من حيث روحه ومعناه فبحر لا يدرك له ساحل ، ولانهاية يتوه في أرجائها الفكر ، وينقطع عنها العقل ، وتتحل دونها عزمات الروية ، وتقف أمامها البصيرة حيرى ، والعقل كليلا .

اذا كانت منزلة الهيكل الانساني من العالم المادي نهاية الابداع ، وغـاية الاختراع ، وزهرة الخلق والدليل الظاهر على وجود الحق ، فمكانة روحه من عالم الملكوت السر الالهي ، والنور الرباني ، وصورة الجمال الأقدس ، والكمال الأقدم، سكنت وهي هي في جمالها وكمالها أبدع أشكال المادة تركيباً وهو هذا الجسد الانساني ، فناسب الخالق الحكيم بينهما مناسبة أوجدت هذه الوحدة المحيرة للعقل التي نراها بين الانسان وروحه ليؤديا باتحادهما وظيفة شريفة في عالم المادة تتميماً لقانون إلهي أبدي . وتكميلا لإبداع قدسي أزلي ، ان غـاب عنا ادراك كنهه ، ففي درس بعضه تسلية في دار الغربة ، ومعز في قرار المحنة .

طبع الانسان على حب ادراك المجاهيل، واكتشاف المساتير ، وهتك حجب المضمرات من الأشياء ، وتاريخه من أول وجوده لليوم أكبر شاهد على ما نقول.

---

(١) من أراد التوسع في عجائب جسم الانسان فليطالعه في كتابنا (الفلسفة الحقة في بدائع الاكوان)

يشاهد هذا الخلق منه طفلاً ويافعاً وشاباً وهرماً وفانياً كأن في صميم معناه زاجراً لا يهدأ يحدوه للبحث والتنقيب ، ووازعا قويا يزعه عن الوقوف في معلوماته عند حد ، فهو من هذه الجهة كأنه خلق ليعلم ، ولو كان غير ذلك لقنع من العلم بقسط معلوم ، ولرضي بأمد منه محدود ، ثم انه من جهة أخرى منهوم بالادراك ، مشغوف بالفهم ، يزيده إدراكه للشيء قوة على قوة فتضاعف خاصية إدراكه على نسبة ما أدرك من معلوماته فيزيد نهمه ويشتد طلبه وينمو الى المدركات ولوعه وشغفه كأن خاصية إدراكه غير محصورة ، ومداها غير محدود ولو كان غير ذلك لكان كلما ازداد إدراكاً للأشياء قرب من الشبع بما حصل ، والرضاء بما اليه توصل .

اذا جاع الانسان طلبت معدته الغذاء لحاجة الجسم وكان ألم الطلب على قدر عظم الحاجة ، ومتى بدأ الانسان بالأكل أخذ باعث الطلب يقل شيئاً فشيئاً على نسبة حصول الأكل حتى تكتفي المعدة فيفنى عامل الطلب .

أما طلب الروح للعلم وحصولها عليه فليست على هذه السنة ، نراها طالبة للعلم دائماً وكلما نالت منه شيئاً فلا يكون نوالها له مقللاً من شدة الطلب بل منمياً لعامله . ويرى الانسان روحه تدرك ولكن لا يقرب بهـا ذلك الإدراك من الرضاء بل يزيدها طلباً للإدراك ، وباعثاً عليه ، على عكس ما يحصل في الأمور المحسوسة. كأن غاية الروح أن تدرك علماً لا غاية له ،وكأنها نوال كال لا نهاية بعده.

ما من انسان في الوجود الا وهاله أمر الحياة ، وشق عليه شأنها واحتوشته من أول يوم من ميلاده لآخر لحظة من حياته ، أحوال يرى نفسه بينهـا كالذرة الصغيرة سابحة بين أمواج بحر عجاج تدفعه موجة الى الأمام ، وترده أخرى الى الوراء ، وتتلقاه واحدة ذات اليمين ، وتجذبه الثانية ذات الشمال ، ثم تضغطه كلها بمجموع قواها فتتنازعه في موقف لا أجد له من لغة الانسان وصفاً ، ولا يزال هكذا حتى تشتد عليه الأحوال فتضعف آلات جسمه ، وتهرم أجهزة أعضائه فيودع الحيـاة ويذهب الى حيث أتى . الى أين ؟

هذا موقف الحيرة، وموضع الدهشة، ومضطرب الذهن، ومزدلق الفكرة.

يولد الانسان فيقوم بتربيته أبوان أو أب واحد أو مرب فيشب بين تكاليف ومشاغب يختلس منها اللهو اختلاساً ، وفي لهوه البلاء المحقق ، وهو يعلم ذلك من نفسه فيشب في وسط يشكو أهله عين شكواه ويلاقي من حياته مثل ما يلاقون، فيكبر وفي نفسه ميل الى النجـاة مبهم ، وفي قلبه سوق الى الخـلاص مُضمر ، فيفكر في وجه الحيلة ، ويعمل قواه الكامنة في ابتكار الوسيلة فلا يجد أمـامه الا مـا يعطيه له ذلك الوسط الذي درج فيه فينساق بطبعه الى التقليد فيقع في مـا وقعوا ، ثم يقف حيث وقفوا ، ولا يسعه الا ان يضم صوته الى اصواتهم في الأنين فيكون تسليته الوحيدة في دنياه انه تعيس بـين تعساء ، وصريع بين مصروعين.

هذا الموقف المدهش بعث الى قلب الانسان في الأجيال المتأخرة اليأس من الطمأنينة فجعله شعاره الحقيقي اللاصق بضميره ، أما الرجاء فجعله ثوباً عارياً يتظاهر به بين اخوانه كما يتظاهرون به أمامه . فتجده ان ضحك فلا يضحك إلا رياء يتصنع الفرح وفي فؤاده نيران متقدة تحمشها أمور جـلى ، وخطوب عظمى ، يخفيها مضطراً لفقد الآسي وعدم الطبيب . وهو ان أكل وشرب أو تزين فلا يفعل ذلك الا وهو سادل على صوت ضمـيره الف غشاء حتى لا يسمع احتجاجه عليه ولا يعي ما يلقيه من القوارع والقوارص اليه ، فيغش على هـذه الصورة نفسه غشاً له في محكمة قلبه عقـاب صـارم يعرفه ولكنه يتحمله رغم أنفه لعدم امكانه العيش على غير هذه الصفة ، لأنه لو أصغى الى الصوت الجهوري المنبعث من معناه الانساني وعرف ماهية تكاليف الحياة لامتنع عن الأكل والشرب ولجمد مكانه من شدة الأسى على عظم المسؤولية ، وعدم الحيلة المنجية .

ما التاجر في حانوته يقاول ويبايع ، ومـا الزارع وسط مزرعته يحرث ويزرع ، وما الصانع في معمله يتفنن ويجتهد ، وما الغني بين أمـلاكه يحسب ويختزن ، وما العاطل وسط الطريق يتمنى في نفسه الأماني ، الا وهو حامل بين

جنبيه خطوباً تضطرم اضطراماً وأموراً تصطك ببعضها اصطكاكاً لا علاقة لها بأمور جثمانه أصلاً ولكنه لا يعرف لها تحديداً ولا يستطيع لها وصفاً ، ولا يفهم لها مضمراً ،ولكنها من الهول بحيث تريه أن ما هو فيه من مال ومتاع، وخدم، وأتباع ، وقول مسموع وأمر مطاع ليس بشيء يذكر ، ومـــا هو الا عرض حائل، وظل زائل، ويرى نفسه مفطورة على أن لا ترضى بشيء مهما عظم شأنه وكبر أمره، ما دام بين جنبيه تلك العلل المعنوية، والأدواء القلبية .

ما هو هذا الداء الدفين الذى يحرم الانسان من التمتع بملذات حياته ولطائف معيشته ؟ ما هي هذه العلة السرية التي تنغص فؤاده ، وتبلبل باله ، وتزعجه في إهداء أحواله ؟ هل يصح أن يكون هذا حال الانسان في الوجود مع أنه أرقى الكائنات جسماً ، وأعلى الحيوانات روحاً ، وأقدر من كل ما عداه من الأنواع الحية على استخدام أشياء الكون لمصالحه ؟ كيف يعقل أن يكون حال الانسان على ما وصفناه من الألم والحيرة وهو زهرة الابداع الالهي في عالم الشهادة ، وغاية الاختراع التكويني في الوجود المادي بأسره ؟

كيف يتصور أن يكون الانسان وهو جمال الدنيا وكمال الموجودات، أحوج الى نادبة تندب حظه ، ومعددة تعدد له مصـائبه ، ونائحة تنوح على بخته ، من مهنيء يهنئه على أنه انسان لا حيوان ، وذو روح تستخدم الملك والجـان ، ووجدان يصور له الحكمة والعرفـــان ؟ كيف يصل الانسان من فقد التسلية واسوداد القلب لحد أن يعمد لترويح نفسه إلى إزهاق عقـــله بشرب الأشربة المحرقة لكبده ، المفقرة لأهـــله وولده ، المهلكة لأمته وبلده ، مع أنه النسخة الكاملة للوجود كله ، والنقطة الجامعة لمتفرق جماله وكماله؟!

كيف تعلل تسفل الانسان في مطـــالبه ، واسفافه في ملذات جسده ، وسلوكه اخس الطرق لنوال مآربه : فيخدع ويكذب ويسرق ويرائي ويقتل مع أنه مستأهل من العلاء العقلي والجسداني لمنصة يقف أمامها الفكر كليـــلاً ، والبصر خاسئاً حسيرا ؟

لقد استعصى أمر الانسان على نفسه وعلى القائمين عليه من عقلاء بني جنسه . حتى صار عقدة الاشكالات ، ومعضلة الروايات ، وموضع الحيرة والريب ، وأصبح هو نفسه بعد ان كان لا يخشى الا مبيدات الوجود ومهلكات الطبيعة ، لا يرى لنفسه عدواً غير نفسه ، ولا لذاته خصماً غير من يحيط به من أهله وعشيرته .

كيف يصبح عدو نفسه وهي أحب الأشياء اليه . ووجودها أعز الوجودات عليه ؟ وكيف يضحى لا يأمن بني نوعه وهم الذين يجب أن يكونوا كما كانوا قبل المكملين لوجوده ، والمتممين بأرواحهم لإنالته غاية ما يتمناه من لذة الحياة وطيب العيش ؟

نعم ، أصبح الانسان عدو نفسه على علم منه بما أوصل اليه حياته الشخصية والاجتماعية من الارتباك والتناقض فظل لا هم له الا العمل على ما يبيده ويبدده .

يشهد الانسان بأن الحق قوام كل أمر ، وروح كل موجود ، والناموس الأعم السائد على كل حركة وسكون من أكبر الأشياء إلى أصغرها ولكنه يرى نفسه مسوقاً لمعاكسة هذه العقيدة ، فتراه مرغماً ليركب متن الباطل في كل محاولاته : يكذب في قوله ، ويختل في عمله ، ويتظاهر بالحذق فيما يجهله ، وبالقوة أمام ما لا يطيقه

وجعل التصنع ديدنه فاستعمله ، في مشيته وقعدته ونظره وتسليمه وتكلمه وكتابته وغلا في هذا السبيل حتى كادت تكون حياته كلها مبنية على رذائل اخلاق اصطلح عليها ، ودنايا صفات ألفها ومال اليها ، وانس بذلك لحد أن أصبح يعتقد أن الحياة المدنية تستلزمها وتستوجبها !

تراه يعلم علم اليقين أن للطبيعة قوانين يجب عليه ملاءمتها ، وتوفيق مجهوداته على مقتضياتها ، ولكنه يجد نفسه مسوقاً للسير على عكسها : فيأكل أكثر مما ينبغي ، ويتفنن في أشكال الاطعمة تفنناً يسمه بدل أن يغذيه ، ولا يقنع بذلك

كله بل يدخل الى جوفه من السوائل المحرقة ، والمخدرات المؤبقة ، ما يمتص قوى حياته امتصاصاً ، ويبدد روابط جسمانه تبديداً ، ولا يقنعه الرضاء بذلك على نفسه ، بل يعده بالتعود عليه احسن ما يكرم به صديقاً يزوره ، أو انساناً يود أن يتحبب اليه .

وأصبح الانسان عدواً لبني نوعه لأن الشكل الذي ورط فيه نفسه من أشكال الحياة صار يريه ويوحي اليه أن جميع أفراد جمعيته وبني جنسه مزاحمون له في الحياة لا مساعدون له على تذليل صعابها، وتيسير مطالبها ، فأضحى يكد ذهنه ، ويجهد قواه العقلية في وضع العقبات الممكنة أمام من يعمل مثل عمله حتى أن الشركة اذا نجحت في ملاشاة جارتها من الوجود وبلغت الغاية من تبديد شكلها ، عدت ذلك فوزاً عظيماً تهنأ عليه وتحبذ من أجله . وصــــارت الحكومة من الحكومات اذا توصلت لتوريط جارتها في مشكلة من المشاكل الكبرى وهي أختها في العقيدة والمذهب تحسب ذلك فوزاً عظيماً ونصراً مؤزراً تحلي من أجله صدور رجالها بالوسامات المرصعة ، وأجسامهم بالحلل المذهبة . وغلت في ذلك حتى استباحت في هذا السبيل الكذب ، والرياء ، والمراوغة ، والخيانة !

هذا ما آل اليه أمر الأمم المتمدنة اليوم كما سندرسه درساً مدققاً ان شاء الله في موضعه ، مؤيداً بأقاويل عقلاء تلك الامم وفلاسفتها . ونخشى أن ينالنا ذلك الداء الدوي من طريق العدوى ان لم يقف عقلاؤنا أمامه وقفة حزم واخلاص .

انا لنعلم أن منا من يرى في كلامنا هذا شيئاً من الغلواء لأنهم لم يروا بأعينهم ولم يبحثوا بعقولهم هذا الشكل الذي نحكي عنه. ولكنهم لو كلفوا أنفسهم مشقة البحث في حالة القوم من جهــات متعددة ولم توقفهم سواحر الصنــاعة وانوار الكهربائية لعلموا أن الامر اهول ممــا نصف بكثير ، ولأدركوا ان مسائــل الفوضويين وغيرهم من الأحزاب المتطرفة اصبحت جراحــاً دامية في جسم تلك المدنية يتوقع منها خطر لا يرأب له صدع ولا يرتق له فتق البتة، ان لم يتداركهم الله تعالى بشيء من رحمته . نظام حالة القوم الاقتصادية هي التي تضلل عقولنــا

في أكثر احكامنا بالنسبة لحال هذهالمدنية ، فان المتحمسين منا بشكل هذه المدنية المادية يرون نظام حالة القوم الاقتصادية فيحكمون بنظامها على سائر أحوالهم الحيوية مع أن هــذا النظام الاقتصادي نفسه أشد مـا تشكو منه أمم الغرب ؛ لانه نظام يجعل الملايين أسراء أذلاء لرجل واحد بيده اسعادهم واشقاؤهم . ولو رأى الشرقيون بأعينهم أن السواد الاعظم من تلك الامم حيارى لا يملكون لحياتهم تصريفاً ، ولا لأنفسهم من الحقوق الطبيعة شيئا ...

ولو رأوا أن هذه المخلوقات رجالاً ونساء وأطفالاً أسراء مسخرين لرجـال يعدون على الأصابع ولا ينالون قوت يومهم الا بشق الأنفس وبذل مهجة الفؤاد امام التنانير المحرقة ، وفي باطن المناجم المظلمة ، لاعتقدوا كما يعتقد فلاسفة القوم (وسترى أقوالهم ان شاء الله) إن وصول الانسانية لهذا الحد من الاثرة وعـدم رحمة الضعفاء ، ومن احتقار النساء والأطفال لا بد له قارعة عظمى ؛ وصاخة كبرى ولو بعد حين !

فهل حظ النوع الانساني من الحياة أن توصله المدنية الى إحلال الرذائل محل الفضائل ؛ واستبدال الحق بالباطل ؟

هل يؤول أمر الانسان شيئاً فشيئاً لأن يكون قوام حيـاته المكر والخديعة والمداجاة والكذب والبهتان والمزاحمات ؟

هذا ما تنافيه البداهة وتدحضه المحسوسات ، إذن كيف وصل العالم المتمدن الى هــذا الحد وما هي الأدوار التي دخل فيهـــا فجرته عليه ؟ وكيف ينجو الانسان من الوقوع فيه ؟

ومما يزيدنا قلقاً على حالة سجايانا الشريفة اننا أصبحنـا نرى بأعيننا تسرب بعض تلك المكاريب إلينا تسرباً غير محسوس ! ألا نشاهد تهالك كثـير من شبانـنـا على تعاطي المسكرات وتعمير أفنية الملاهي والمنتديات العـامة وشغل

ساعات فراغهم بالدنايا والسفاسف، مما يدل على حرج في الصدر وضيق في النفس وهروب من وجه الحق !

فهل قضي علينا أن ندور في تلك الدائرة مع الدائرين ، ونطوف أطوارها مع الطائفين حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا . أم لم يزل بين ثنيات قلوبنا محل لقبول الأنوار المحمدية الملكوتية تتشربها فتنير علينا مسالك الحياة ، وتحيي في أرواحنا روح الأمل ، وتكشف لنا من مستور ضمائرنا سر البقاء وطلسم الوجود ؟

الفصل الاول

العوامل الذاتية

للانسان في باحات حياته مواقف مختلفة تقيمه فيها أسباب شتى وعوامل لا تحصى ، ولكل موقف منها لوازم كثيرة تستولي من فؤاده وتتسلط على عواطفه ، فتجبره على سلوك السبيل الملائم لها الموافق لمراميها رغم انفه وضد ارادته ؛ وربما كان وهو في موقف من تلك المواقف يرى نفسه على هاوية حتفه ، فيريد أن يأخذ بيد نفسه ليحيدها الى ما يعتقد أن فيه سلامته ومنجاته ، فتخور ارادته وتخونه عزيمته ، ويجد نفسه مرغماً على الوقوف أو السير ، كأنه مسحوب من أنفه أو مقود على يده أو مدفوع من جميع جهاته .

الانسان كائن مفكر تقع عليه الحوادث فلا يدعها تمر بدون أن يتعقلها على وجه ما وقد يقع في تعقله وادراكه الغلط والقصور ، وقد يخطىء في تحديد نسب النفع والضر وعلاقتها بوجوده ، وهو يعرف ذلك من نفسه ، الا أنه مطبوع على أن يفتكر في حوادثه ليدرك وجه العلاقة بينها وبينه .

العوامل التي تدفع الانسان بقواها ومؤثراتها فتقف به في ساحات وجوده

المواقف المختلفة ، كثيرة متنوعة متداخلة في بعضها منهـــا ما هو طبيعي ، ومنها ما هو كسبي ، ومنها ما وجوده معلق على ازدواجها ؛ ولكل هذه الفواعل سير خاص ، واتجاه خاص ، وتعرجات خاصة ، وتأثير لا يشتبه بغيره ، ثم لا يلبث أن تتلاقى هذه العوامل في نقط من سيرهـا فتتحـــد على وجوه وتشترك في أفاعيل وتصير شبكة لا يعرف أولها من آخرهـــا ، والانسان يعرف ذلك في نفسه لأنه يحس بآثارها على جسمه وعقله ، ولكنه مع اعترافه بعجز وسائـــله عن الالمـــام بها يجد نفسه محفوزاً الى تعليل ما هو فيه من صلاح أو فساد بعلل يدركها ويفهمها ، فلا يرى بدأ من عزو ما هو فيه لسبب أو أسباب ، وتعليقه بفاعل واحد أو بفواعل عدة ، فيظل يقنع نفسه بصدق تعليله وكال إحاطتـــه بأسباب بلائه ولا يتجلى له قصوره الا لما تهم به الرغبـة ، وتنفعل مشاعره للتخلص مما هو فيه ، مسوقاً بما ركب فيه من عاطفة الهرب من المبيـدات ، والتفصي من أنياب العوادي ، حيث يرى نفسه مجذوباً الى مركزه بجـــواذب كثيرة ، هنالك يتحقق أن فلسفته في أسباب دائه غير كاملة لإحساسه بأن ثمت فواعل لم تدر في خـــلده قد سيطرت على إرادته ، وتسلطت على اختياره ، فالزمته مركزه وقهرته على عدم التحول منه . وربما لم يصادف في مبدإ همـــه ما يجذبه الى مكانه فيجري تحت تصريف إرادته في المجال الذي تخيله أبقى لحياته ، وأحفظ لذاته ، ولكنه لا يكاد يفرح بانطلاقه حتى تصدمه في صـدره دوافع ، وتقوم في وجهه حواجز ، لو قاواها قليلاً سحقته مكانـــه ، وذرت أجزاءه في ذيول العواصف ، فيرى نفسه مرغما على الهزيمة مكرهاً على النكوص على عقبه . إلا أنه مع هذا كله لا يرتاح الا اذا أدرك سبباً لما يؤلمه وينغصه ، فيعمل فكره ثانية وثالثة فإن كان مسلماً حقاً لا يتطرق اليأس الى قلبه ، بل يظـــل يلتمس العلة على مقتضى ما فطر عليه من طلب الخلاص وعدم الاستسلام للمهلكات حتى يجد العلة أو يموت باحثاً عنها ليودع الحياة وداع رجل أدى الواجب ، ليجد بعد أن يخلع هذا الرداء الجسداني قوة في معناه يتابع بها خطتـــه في العروج الى عالم الكمال والجمال ، في حياته الثانية وداره الباقية . وأما إن كان غير مسلم حقـاً

يئس من وجود المخلص ، وقنط من رحمة ربه ، ورنا للوجود بعين اليائس القانط ، ونشر على حياته غواشي سوداء من أوهامه ؛ وكسفاً مدلهمة من سودائــه ، ويلتجىء لأن يداوي هواجسه ووساوسه بغير دوائها الطبيعي ، فيعمد لإزهاق عقله وفكره بالسوائل المخدرة ، ويركن في الهاء نفسه الى الملهيات المادية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، فيحتاج للمال الكثير ليستطيع أن يعطي اللهو حقه من العناية ، فيتكالب على إيجاده بكل ما تصل إليه قوتــه من الوسائل: بالغش ، بالتدليس ، بالتزوير ، بالسرقة ، بقتل النفس ، واذا يئس من ذلك كله قتل نفسه وأرسلها للعدم ، أو عاش على أسوإ حالة يمكن أن يتصورها خيال الشاعر !

اعتاد أكثر الخطباء أن يشكوا من أنهم لا يجدون لنصائحهم أثراً في قلوب سامعيهم ، ولا نتيجة لها في تحويل مجاري أعمالهم ، ويبالغون جداً في الأسى والأسف على صلابة القلوب وخمود العواطف ، ويتعجبون جداً من رؤيتهم هذا الأثر السيء ، ويزيدهم تعجباً ما يعرفون من أن أمثال هذه المواعظ كانت تأخذ بقلوب سلفهم الصالح فتثير كامن قواهم ، وتبعثهم لأقوم السبل الواصلة بهم الى خيري معاشهم ومعادهم . ولو سئلنا نحن عن رأينا في هذه الظاهرة النفسية ، لقلنا إن هذا مما لا يستدعي العجب ، بل يستلزم البحث لمعرفة السبب . لأن الانسان مفطور على الشغف بنفسه وبكمالها . ومطبوع على حفظها من المبيدات وصونها ، فإن شوهد منه خلاف هذه الغرائز بالنسبة لحال من أحواله ، فلا يصح أن يقال أنه قد تغيرت فطرته فأصبح مدفوعاً لإهلاك نفسه وولده وبني نوعه ، ولكن يجب أن يقال : لا بد من ان يكون هنالك عوامل تؤثر عليــه فتقهره على لزوم مركزه ، وتجبره على عدم التحول من مكانه . وما مثل خطيب يكثر العجب من هذه الظواهر ولا يكلف نفسه البحث فى مظاهرها ليعثر على أسبابها ، الا كمثل رجل يقوم بإزاء رجل ، مكتوف من يديه ورجليــه ، وبجانبه نار تمتد اليه بلهبها ، فيصيح به أن ابعد أيها الرجل عن النار ، فإنها قد

وصلت اليك أو كادت ، ولما لا يراه يستطيع الحراك ، يأخذ في تقريعه وتأنيبه وشتمه ويتهمه بالكسل ... أو بالجبن ... أو بعــدم الشعور .. ولا يكلف نفسه الذهاب اليه ، وفحصه بيديه ليرى ان كان الحق في عدم حراكــه له أو عليه .. ما هو الكسل والجبن وعدم الشعور الخ الخ من الألفاظ التي يعلل الناس بها ما يرونه من أمراض الأفراد والأمـــم ؟ الكسل ضد النشاط وهو داء كما اصطلح عليه الناس يمنع الانسان من الاتيان بالحركات اللازمة للأمر المطـــلوب الحصول عليه . والجبن ضد الشجاعة وهو داء يقعد بالانسان عن مدافعة ما يراه عادياً على ذاته أو ما يرتبط بها ، وعدم الشعور داء يحل بالنفس ، فيمنع عنهـا نعمة الاحساس بما يلزم التأثر منه .

هذه هي كبرى الأدواء التي اعتـاد الناس على تعليـــل جمود العواطف الاجتماعية والذاتيـــة بها ، ولكنـا هل نرى الذين نصمهم بالكسل في الأمور النافعة العائدة عليهم بالفوائد الصورية والمعنوية كسالى عــن التردد على الملاهي والمراقص ، كسالى عن إعداد معدات الترف والسرف ، كسالى عن موجبـات الزينة والزخرف ؟ أترى الذين نصمهم بالجبن جبنـاء امام الخمر الذي يعرفون أنه مميتهم وملاشيهم ، عن القمار الذي يتحققون أنه مفلسهم ومفقرهم ، عـــن الافراطات التي يتأكدون أنها مسرعه بهم الى خمود حياتهم ؟ أترى فاقد الشعور كذلك بلذات خلاعته وقصفه ، بنعيم مأكـله ومشربـــه، بلطائف ملبسه ومسكنـه ؟

اذا كان الذي يقعد بالانسان عن الالتفات لمصالح ذاته وبني نوعه هي هذه العلل الاصطلاحية لوجب أن يكون الكسلان كسلان في كل اعماله ومحاولاته وعن جميع ما يرتبط بأمور حياته ، لا أن يكون كذلك أمام ما يرجع عليـه بالمنافع المادية والمعنوية ، ويكون مثال النشاط والحركة أمام ما يهلكه ويتلفه . ويلزم أن يكون الجبان جبان حيال كل ما فيه مظنة الضرر عليـــه ، لا أن يكون كذلك بازاء الاخطار التي فيها حياته وحياة ذويه واشجع الشجعـان

أمام ما فيه ثبوره وعطبه مما يرتبط بملاذ بدنـــه . ولكان المعقول ان يكون الفاقد للشعور فاقده بكل شيء ، لا أن يكون كذلك بالنسبة لما فيــه تلف ذاته وذوات أهـــله وبني جلدته ، وأشعر الشاعرين بما له علاقة بلذات بدنه وسرف نفسه .

إن قيل ان تأثير الشهوات ، وفعـــل النزغات هي التي تذهب بالنفوس مذاهب الخور والضعف أمام معالي الامور وشريف الاعمال ، وتميل بها نحـــو السفاسف والدنايا ، قلنا : ما الشهوات ؟ ما النزعـات ؟ ما الأهواء ؟ هل هذه كلها الفاظ مجملة قنعنا بها في تعليل أعمالنا التي نرى أنفسنا مدفوعـين لها رغم أنفنا وضد إرادتنا ، وأنسنا بها حتى أخذت من خيالنا شكلاً لا يجب أن يكون لها ودفعنا هذا الشكل الذي تخيلناه عليها الى الخطأ في تكييفها وتصويرهـــا ، والشطط عن حدود سلطانها ، والبعد عن مداواتها وعلاجها ، حتى جرنا ذلك الى محاربتهـــا بألفاظ مثلها فاستحالت ادواؤنا وعلاجاتها الى الفاظ نتفنن فيها تفنناً ونتلاعب بها تلاعباً ، وهيهات ان تنجلي هذه المعارك اللفظية عن حقيقة ، أو تقف بنا عند حد .

اذا كانت أمراضنا هي مدلولات هذه الالفاظ ، وعلاجاتها ما نطالعه في الكتب وما نسمعه من قراء الخطب على المنابر وفي المحافل ، فلماذا لم يظهر لها أثر في تقويم الملكات ، وتعديل الطباع ، والأخذ بأيدينا عـــن السفاسف ، والصعود بأرواحنا الى مكانات الفضائل ، ومقامات المكارم ، مع علمك بأن هذا التشخيص وذاك العـــلاج مستعملان فينا من منذ قرون عديدة ؟ هل عهد في طبيعة الانسان ان يأنس بمرضه ويعتاد آلامه ، فلا يلتفت الى علاجه وهو بين يديه ، ونصب عينيه .

لم يبق فينا رجل إلا وأحس بشر منقلبه ، وضلال مذهبه ومرارة مشربه ، وتحقق انه مأخوذ به الى حتفه ، ومقود بأنفه الى تلفه ، وليس فينا رجل إلا

وهو يتنسم روح الخلاص بمجموع قوته ، ومذخور وسائله وحيله ، فلماذا لم يصادف من تلك العلاجات المستعملة علاجاً مرضياً، ولا من القائمين بها طبيباً حفيا؟ اذا كنت تستهجن فكر من يداوي السعال بمحض ذم السعال، وتشهير ما يجر اليه من الأهوال ، ومجرد النصيحة بالاقلاع عنه بدون إمهال ، فليس من يداوي شهوات النفوس وعلل القلوب بسبها وسرد مخازيها ومشائنها ، والنصيحة اللفظية بالاقلاع عنها بأقل استحقاقاً من الأول لاهمال قوله ، والاغضاء عن مضجرات نصائحه . أليس المصاب اكثر شعوراً بآلام دائه ، وأحس به من أفصح خطبائه ؟ فان كانت تلك الآلام لم تهده الى وسائل النجاة منها ، فكيف تهديه اوصافها ونعوتها ؟ واذا كانت جميع جوارحه ألسنة طالبة الخلاص منها ، وارادته شرهة الى الفكاك عنها ، ومع ذلك فلم يستطع التفصي من حبائلها ، ولا النجاة من اشراكها ، فكيف يكفيه أمر من الواعظ بتركها وعدم اتيانها ؟ أليس ذلك يدل اجلى دلالة على أن هنالك عوامل مؤثرة على الانسان تجره على لزوم الصراط الذي ترسمه له ثم تدفعه اليه بمؤثراتها المختلفة دفعاً يسيطر على ارادته واختياره ، ويحكم على عزيمته واقتداره ؟ نعم ، هذا هو الذي يحس به كل انسان عني ببحث نفسه ، وهو ما يمكن أن يفسر به سائر الاختلافات الانسانية في العوائد والطبائع ، والفضائل والرذائل ، وهو ما يجب علينا أن نبحث عنه بحثاً دقيقاً ونتحسس منه تحسساً ذريعاً لأنه طب الانسان والانسانية ، وطلسم السعادة الذاتية والعمومية فنقول : ما هي تلك العوامل المؤثرة على الانسان ؟ ما طبيعتها ؟ ما حدودها وما وظيفتها ؟ ما هي وجوه اختلافها ؟ هل هي من ضمن نواميس الوجود الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول ، أم هي تابعة لنواميس أخرى متغيرة تظهر بظهورها وتعدم بعدمها ؟ هل هي داخلة تحت إرادة الانسان ويمكن له تغييرها وتحويلها لتفعل عليه فعلاً مناسباً لمصالحه ، أم هي خارجة عن ارادته لا يستطيع لها تحويلاً ولا تبديلاً ، ولا يملك لها تحويراً ولا تعديلا ؟... إن كان الأول فكيف يسلط عليها ارادته ليغير مجاريها على مقتضى مصالحه ، ويحول قوتها على حسب منفعته ؟

وان كان الثاني فهل هو متمتع بما يخرجه من دائرة سلطانها ليدخل تحت نفوذ فواعل أليق منها بحياته ؟ إن رُمْتَ رأينا في هذه المسائـــل فإليك : إنا نرى نوعين من العوامل سائدين على الانسان ، أحدهما عوامل ذاتية ، والآخر عوامل عمومية . أما الذاتية منها فليست الا ما يحس به الانسان في تركيبه من المطالب المختلفة المتعلقة بحفظ ذاته وتكميلها . هذه العوامل الذاتية الكثيرة كان يمكن تقسيمها الى عاملين عامين فقط : عامل مادي جثماني سلطانه على الامور الجسدانية ، وعامل معنوي روحاني سيطرته على الامور الروحانية ، ولكن لسنا في مقام التعميم ، بل نحن في صدد التفصيل حتى لا يضيع علينا شيء من جزئيات البحث ولذلك نقول : الانسان يحس بأنه محتاج للأكل والشرب والمسكن والملبس ثم يحس مع هذا بعاطفة حب العلوّ على غيره في كل ما يشترك فيه معه ، فيحب ان يكون أعلم وأفصح وأجمل وأغنى وأولد وآهل من كل من يقع تحت بصره من بني جنسه ، وهو مع هذا كله يشعر في بعض أوقاته عندما يرى الموتى أو يتذكر أنه لا محالة ميت ، أن كل مطالبه الأولى عرض حائل ، وظل زائل ، وإن الأجمل من ذلك كله والأكمل ، أن يكون بينة وبين السماء صلة وسبباً ، وعنده من أحوالها علماً وخبراً ، وان ينال فيها بعد موته مـــن الأرض جزاء وعوضاً . هذه أكثر عوامل الانسان الذاتية التي لها الأثر الظاهر في وجوده ، والطابع البين على حياته . فيندفع أولاً وراء ألصق الحاجيات بـــه من مأكل ومشرب فإذا نالهما ذهب وراء الملبس والمسكن ، فإذا حصلهما وارتاح باله مـــن جهة مطالبه الوقتية ، عملت فيه العوامل الأخرى عملها ، وساقته إلى إشباعها ، فيجري أشواطاً بعيدة في مواميها ، وبما أنه غـير محدود القوى ولا مقيـــد المواهب فيجري وراء كل منها في المجال الذي يهديه إليه علمه ، ويرى أن في غايته نوال أربه فإن عجز وجد من حيلته ما يساعده على اخفـــاء عجزه : فيمكر ويداجي ، ويتصنع ويرائي ، ويكذب ويدلس ، ويسرق ويغـدر وإن اشتد به ألمه يقتل وقد ينتحر .

هذه العوامل الذاتية فطرية طبيعية لا يمكن تبديلها ولا تغييرها أي أنه ليس

للارادة الشخصية سلطان عليها من جهة الملاشاة أو التعطيل ، ولكنها مثل كل شيء في الانسان قابلة للتهذب والترقي ، ورقيها وتهذيها متعلق برقي الانسان في معارج العلم والمعرفة . فانها بصفتها الأصلية أي قبل أن تتهذب وتتعدل بارادة الانسان قد تنقلب شر الشرور عليه ، وتكون أسرع في إهلاكه من كل ما يهرب منه من المبيدات والعوادي الطبيعية . ذلك لأنها مغروزة في جبلته على حالة مطلقة غير مقيدة . أودعها الخالق الحكيم على هذه الصفة ليكون أهلا للمنصة العلية التي خصصها له في عالمي الملك والملكوت وليستحق خلافته على الأرض ، فان وجودها مطلقة يجبره على الاحتكاك بكل ما يقع تحت حسه من أشياء الوجود ، وهذا الاحتكاك يعرفه من أسرارها ويكشف له من ضمائرها ، ما لا يمكن الوصول اليه الا من هذا السبيل .

هذه الدوافع الذاتية دوافع إلهية ، وبواعث ربانية ، طبعت في جبلة هذا الانسان لترفعه إلى المكانات العلا ، والمنصات السامية ، ولتنشر من سلطان روحه على الكائنات الأرضية ، وتمد من أيدي حوله وقوته عليها وعلى نواميسها ما لا يتخيله أكبر فكر الآن ؛ ولكن ما أجهل الانسان بنفسه ، وما أهون ذاته في نظره ، وما أشد تغاضيه عن درس قواه ومواهبه ؛ هذه الغرائز والعوامل الذاتية صارت بجهل الانسان واغضائه عن تعديلها وتهذيبها وباهماله في درسها ومعرفة طبائعها ؛ عوامل شر عليه وعلى أهله وبني نوعه ... أحس بضرورة المأكل والمشرب والمسكن والملبس ولما حصلها وجد من نفسه ميلاً إلى شيء مبهم ، وشعر بما يدفعه عن الرضاء بحالته والوقوف عند حدها ، فلم يسكن حتى يعرف ماهية ذلك الميل إلى الشيء المبهم ، بل اعتراه داء العجلة فظن أن ذلك الشيء المبهم هو الافراط فيما حصله ، والغلو فيما ناله ، فوقف كل قواه على ذلك ، فتفنن في صنوف الطعام واشكال اللباس ، وفي بناء المساكن ورياشها ، وفي أنواع المشارب حتى صار كل ذلك وبالا عليه بعد أن كان مقوماً لشخصه ، لما أدى إليه من أنواع الافراط والتفريط والأدواء النفسية القاتلة ، مع أن

المسألة بسيطة في ذاتها لا تعوز منه كل تلك الحمى الهائلة ، فان شعوره بعدم الرضاء بما حصل ليس سببه قلة ما وصل اليه ، وإنما هو باعث وجداني يلفته إلى أنه لم يخلق ليأكل ويشرب فقط فان ذلك مما يشاركه البهائم فيه وربما كان منها ما هو أقل جهاداً في نوال مقومات ذاته منه ، وإنما خلق لأمر عظيم يؤديه للعالم ، ولوظيفة كبرى لا تتم إلا به في عالم الشهادة ، فلم تذهب به هذه المذاهب المضللة إلا إهماله في درس مواهبه وملكاته .

كذلك غلط الانسان من جهة تكميل ذاته فتاه في متاته كلها خطر عليه وعلى بني نوعه : فانه لما أحس بعاطفة التكمل والاعتلاء حسب أنه يؤدي مطالب تلك العاطفة بالتفضل على غيره في المزايا التي يشترك فيها معه سواه فبذل غاية جهده في هذا السبيل ، ومال لأن يكون أغنى وأعلم وأفصح وأولد وآهل والخ الخ من مجاوريه ، فنشأ التحاقد والتحاسد والتباغض والتسافك ولو صبر قليلاً أو لو اصغى إلى الرسل الكرام الذين لم يحرمه الله منهم أو من تعاليمهم من أول وجوده لليوم ، لعلم أن اشباع تلك العاطفة العالية لا يتأتى بالتعالي على غيره بل بنوال مراكز روحانية هو مستعد لنوالها بالفطرة ، وأن أمثاله من بني نوعه ليسوا بمزاحمين له في الحياة بل هم أعوانه وأنصاره فيها ، فكان يحل بينهم الوئام بدل الخصام والسلام بدل الحرب ، والتحاب بدل التباغض ، والترافد بدل التناهب ، وكانت الحياة الانسانية أجمل أشكال الحياة لا أن تكون مجال صراع وقراع ، وميدان نضال وضراب ، ومضماراً لسفك الدماء وتيتم الأبناء .

من يرد أن يعلم أن كل هذه العوامل بدل أن تكون كما هي الآن أسباب الافراطات والتفريطات المبيدة للانسان ، كالتحاقد والتباغض بين الأفراد والشعوب ، يمكن أن تصير عوامل ملكوتية تبعث الانسان للرقي المادي والمعنوي ، والكمال الجسداني والروحاني بمحض تعديلها وتهذيبها بالانصياع لأوامر خالقها وواضعها ، فلينظر إلى ذلك التبدل السريع الذي حصل في الأمة العربية في بضع وعشرين سنة . ألا ترى كيف استحال ذلك التباغض والتنازع

والافتراق إلى تحاب وتعاطف واجتماع ؟ كيف حصل هذا.. أتبدلت الفِطَر أم جاءها ما لم يكن فيها من قبل ؟.. لا شيء من ذلك.

وإنما هي روح التهذيب الالهي الذي أنزله الله على رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم سرت إلى تلك الأرواح فأزالت ما كان يحجب عنها نور الحق فدارت في مجاريها الأصلية فتأدت إلى تلك النتيجة الطبيعية ، وهي نتيجة أدهشت المؤمن والجاحد على حد سواء ، فكيف لا تهتز العواطف شوقاً إلى معرفة أسرار ذلك التهذب الذي يجعل قلوبنا وأرواحنا مستعدة إلى مثل هذا الكمال المحبوب ؟ وكيف لا تلتهب الحمية غيرة للوصول إلى مثل ذلك النعيم الملكوتي الجدير بحياة الانسان ؟ وكيف لا يهيم الانسان لمعرفة تلك الفواعل القاهرة التي تصدنا عن الانتفاع بتعاليم خالقنا الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) القائل (إنا هديناه السبيل إما شاكراً واما كفوراً) ؟ ذلك ما لا يمكن الخوض فيه إلا بعد معرفة ماهية العوامل العمومية .

*

الفصل الثاني

العوامل العمومية

أو

(روح الجيل العمومية)

ما قلناه في الفصل الماضي عن العوامل الذاتية التي تتنازع الانسان فتوقفه من باحات وجوده المواقف المختلفة رغم أنفه وضد إرادته ، لا يكفي في تفسير ذلك التناقض الهائل الذي يشعر به الانسان في ذاته بين علمه وعمله وبين عقله وإحساسه ، وليس فيه ما ينقع غلة الباحث عن كمال نفسه ، المغرم بالاستقامة على صراط العدل المستقيم . وقد أشرنا نحن إلى ذلك في بحثنا عن عواملنا الذاتية وعلقنا بلوغ الغاية من هذا البحث على العوامل العمومية التي هي موضوع كلامنا اليوم .

أصدق العلوم أثراً في تحسين حال الانسان من جهة صورته ومعناه ، وأقواها عاملاً في انالته ما يتمناه ، من سعادة دينه ودنياه ، ما كانت أصولها مستمدة من حقائق الكون ومشاهداته ، وفروعه منتزعة من حوادثه التي تشاهد آثارها

في كائناته ، لا مما يتصيده الفكر تصيداً من أرجاء الخيال وخطرات الأفكار المجردة . لهذا لا مناص لنا ، ما دمنا نرجّي الوصول إلى نتيجة محسوسة ، من سرد كثير من الحوادث سرداً استقرائياً ، وجمع ما تشابه منها إلى رابطة واحدة ، والسعي في رد ما تخالف منها إلى أصولها الرئيسية ، واستنتاج القوانين السائدة على كل نوع منها استنتاجا تحليلياً محسوساً ، والاجتهاد في رد تلك القوانين إلى مبادئها الأولية ، لإمكان تحديد روحها العمومية ، بطريقة يفهمها الخاص والعام فهماً جلياً ، وهو عمل شاق جداً يستدعي من الكاتب عدم الطيش أمام الحوادث ، وثبات الجأش حيال ما يصادفه من المتناقضات الكبيرة ، ويستلزم من القارىء كثيراً من الصبر والجلد حتى تشرق له الحقيقة اشراقا كاملا .

رأينا أن مجرد معرفة الانسان بطريق العلاج لا يكفيه في اقامته على منهاجه ، ولا يجديه في تمشيته فيه ، وضربنا لذلك الامثال العديدة في فصلنا المتقدم ، وقلنا لا بد من أن يكون هنالك عوامل عمومية تسيطر على ارادة الفرد الواحد فتوجهه كيف شاءت ، بل على الامة برمتها فتسوقها الى الطريق الذي ترسمه لها وتدفعها اليه دفعاً فتسلكه مضطرة لا مختارة ! فما هي تلك العوامل العمومية ؟

مناقشة في التعليلات المصطلح عليها :

يقولون ان سبب ما يقع فيه الواحد والامة بأجمعها من الخبط في الأحوال ، والخلل في الاقوال والاعمال ، واللوث في الشؤون الخاصة والعامة ، هو عدم الدين الهادي الى سوء السبيل ، أو ضعف الارادة ، أو الجبن ، أو عدم التربية ، أو الجهل الخ .

نقول ؛ كل هذا صحيح ، ولكن كل هذه العلل لوازم لتلك العوامل لا هي بداتها ، والمدار في مداواة المرض على معرفته بذاته لامكان مكافحته مكافحة

حقيقية ، أما مكافحة لوازمه وأعراضه فلا يكون من ورائها غير اضاعة الوقت في مصاولة شيء لا يتلاشى حتى يتجدد ، ولا يسكن حتى يتهيج .

فما هو ذلك العامل القوي الكبير ، أو العوامل القوية الكبيرة التي انتزعت منا الدين انتزاعاً ، وما هي تلك المؤثرات الخارجية الهائلة التي اخترقت اغشية أفئدتنا وسرت فيها سرياناً سحرياً حتى وصلت الى مكانه من صميمها فأجلته منها اجلاء غير محسوس ؟ وما هي تلك الفواعل الشديدة التي عدت على الفطر فمسختها ، وعلى الوجدانات فغيرتها ، وعلى العواطف فحولتها ، وعلى المشاعر فثلمتها ، وعلى الاميال فحورتها ، وعلى المدارك فضللتها ، حتى صرنا ونحن أبناء الدين ، واساطين العقائد ، واراكين الايمان ، وأحفاد بناة الحقائق ، نلتمس الدين فلا نجده ، وننشده فلا نهتدي اليه ؟ ما هي هذه العوامل المدهشة ؟ ما طبيعتها ؟ ما حقيقتها ؟ ما حدودها ؟ ما سلطانها ؟ ما آثارها ؟ كيف تنشأ وكيف تؤثر ؟ هل هي متعلقة بطبيعة الهيئة الاجتماعية ؟ هل مرتبطة بتطورات الافكار والمعارف ، هل هي نتيجة من نتائج العلم أو أثر من آثار الجهل أو هي لازم من لوازم الرقي المادي أو هي صفة من صفات طور مخصوص من أطوار الحياة ؟ هل هي في ذاتنا وفينا مادتها ومنا روحها ، أو هي عارضة علينا من سوانا ؟ ان كانت منا فكيف نشأت ؟ وكيف تطورت وتدرجت ؟ وان كانت عارضة علينا من غيرنا فكيف جاءت ؟ وبأي وسيلة عملت فينا هذه الافاعيل ، وكيف واجهت معاقد عقائدنا فحلتها ، وصادمت صروح تقاليدنا فهدمتها ؟

لا مشاحة في أن التنازع بين العقائد الراسخة والفواعل العارضة ، شديد عنيد فمتى بدأ ذلك التنازع ، ومتى شعرت بـه الامة ، كيف كانت الحرب بينهما في أنفسنا وبأي وسيلة حصلت الغلبة للثانية دون الأول !

اعتدنا أن نقول أن سبب هبوطنا عدم الدين ، ولكننا لم نكلف أنفسنا بالبحث عن ماهية الدين ولا عن مكانه من أفئدتنا ولا عن مادة بقائه ونمائه ،

ولا عن جرثومة فنائه وتلاشيه هل هو روح تحل بالنفوس من الخارج فتقيمها على طريق مخصوص ؟ أو عاطفة ذاتية من عواطف الفؤاد تتيقظ فيه بسبب من الأسباب ، وتنام وتتخدر بسبب آخر ؟ ان كان هو روحاً تحل بالنفس من الخارج فكيف يكون التهيؤ لقبولها ، وكيف يعد الانسان نفسه لتحل فيه ؟ وان كان عاطفة من العواطف المغروزة في جبلتنا فأين مكانها منا ؟ وما هي أسباب تيقظها وما هي علل نومها ؟

دعنا من كونه روحا خارجية ، أو عاطفة نفسية ، فهل هو ضروري في ذاته ؟ هلا يمكن أن يقوم مقامه عامل غيره ؟ كيف قامت أمم اوروبا بدونه ، وادعت أنها استغنت عنه ؟

هذه كلها مسائل يجب حلها حلاً فلسفياً تحليليا محسوساً ليخرج الانسان من تلك الجاهيل المظلمــة التي كونتها حوله تلك الألفـاظ الضخمة ، والتعبيرات المفخمة ، التي لا طائل تحتها ولتنجلي أمامه هذه المتناقضات الكثيرة بين ما يسمعه من مرشديه وما يراه بعينيه من الحوادث الكونية ، ولتتجلى له جلالة وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام تجلياً باهراً في مجلاها المعجز . فلقد ساء فهم الناس في أولئك الرجال الفخام الذين اصطفاهم الله من بين سائر الأنام فظن كثير منهم أنهـــم لم يعملوا الا أن دعوا الناس الى شيء فاتبعوهم وقادوهم في طريق فانقادوا فيه ، ووجهوهم لغايات من الحياة فتوجهوا اليها ، فكان من شأنهم ما يرويه لنا التاريخ من جلائل الأعمال ، ومدهشات السير ، ويغيب عن أفكارهم أن معالجة أدواء النفوس وتمريض الأفئدة الغرقى في دياجير الفتن ، ومراس الطباع المتسممة بسموم المفاسد ، أمور لا يقدرها قدرها الا الذين سبروا علمي النفس والاجتماع البشري ، خصوصاً ما كان منها مختص بالعالم القديم أي في الزمن الذي أرسل الله تعالى فيه أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد تخيل بعض الناس أن معالجة تهذيب المتوحشين أسهل وأيسر من معالجة المتنورين ، وهو ظن فاسد ، فقد أثبت علماء الانسان ، أن المتوحشين

اشد الناس إباء لدعوة الدعاة ، واكثرهم استعصاء على هداتهم . وقد لبث المبشرون المسيحيون فيهم آمادا طويلة ولم يبلغوا منهم ما يكافىء محاولاتهم ، رغما عما يبدونه لهم من اللطف واللين ، وما يبذلونه لهم من الرشا والهبات وحسن الملبس والمسكن ، وقد أثبت الاستاذ (أرثوردوليا) في كتابه (الانسان على حسب مذهب داروين) إن من المتوحشين الذين يخضعون للمبشرين من يتظاهر بالدخول في المسيحية ظاهراً لينال قسطه من الخبز والتبغ والشاي ولكنه في الباطن على مذهبه الأول لم يتحول عنه قيد شبر .

من هنا يرى ان حل المسائل التي أشرنا اليها كما يكون من ورائه نفع للشخص من حيثية تكمله وتهذبه ، كذلك يكون من ورائه ادراكه لجلالة وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحققه بأن كل من لم يتبع نهجهم خطوة بخطوة في سبيل ترقية الأمم لا يفلح في دعوته ، ولا ينال سوى الخيبة الفاضحة من وراء جهاده .

واذا علق هذا الهبوط الذي نحن فيه على ضعف إرادتنا ، وقلة مادة همتنا ، نقول لماذا ضعفت إرادتنا وقويت إرادة غيرنا ؟ وما هي الارادة في ذاتها بالنسبة للفرد في نفسه وبالنسبة للأمة في مجموعها ؟ كيف تنشأ وكيف تنمو ؟ كيف تقوى وكيف تضعف ؟ هل هي تابعة للمزاج ؟ هل هي مرتبطة بصحة الانسان ومرضه وبقوته وضعفه ؟ هل يمكن أن تقوى الارادة بعد أن تضعف ؟ وما هي الأسباب التى تقويها وتؤيدها ؟ ألا يكفي في تقوية الارادة أن نرى أنفسنا مسوقين إلى التلاشي؟ واذا كان هذا لا يكفي في تقويتها فأي شيء أشد من ذلك تأثيراً عليها ؟ هل الأمم القوية الارادة قوت إرادتها بنفسها ، أم نشأت قوية الارادة ولم تفكر في ذلك يوماً من أيام حياتها ؟ هل تقوية إرادة الأمة متعلق بالفرد على حدته أم بالمجموع ؟ وهل أسباب ضعف إرادة الأمم آتية اليها من ذاتها أم تأثيراً من الأمم المرتبطة بها ارتباطاً ما ؟

. وهكذا يقال في الأسباب الأخرى التي نتخيلها لتعليل ما نحن فيه من الضعف كعدم التربية والجهل والجبن وغير ذلك . ومهما ترقينا في انتحال العلل والأسباب فلا نزال نرى في أنفسنا داعياً الى اختراق صفوف تلك العلل الى العلة الرئيسية التى تهدأ اليها النفس ، ويسكن بها اضطراب الفكر ، ويركد منها جيشان الروية .

قلنا مراراً ولم نزل نقول أن اكتفاءنا في تعليل مضانكنا بالألفاظ الضخمة ، والعبارات المفوّفة ؛ هو الذي ضلنا في مدركاتنا ، وصغر في أعيننا وظيفة تربية الأمم ، وشجع كثيرين منا على التكلم في علم الاجتماع البشري ولم يقرأوا فيه كتاباً بسيطاً ؛ لا جرم يكون نتيجة هذا أن يصبح الناس هنا كلهم فلاسفة اجتماعيين ، يشخصون أدواء الأمم ويصفون علاجاتها وصف الطبيب النطاسي بغاية الجسارة والحرية. ولِمَ لا يكونون كذلك وقد اختصروا العلل الاجتماعية في كلمتين : (عدم الدين وعدم التربية) وجمعوا سائر علاجات الأمم في نقطتين أخريين : (الدين والتربية) فصرت ترى أفكار الناس تتراوح بين وصف عدم التدين وعدم التربية ، وبين وصف مزايا الدين ومزايا التربية ، حتى اقتصرت أكثر الكتابات على ذلك وصار الكلام كله ترديداً في ترديد لا يختلف عن سابقه شكلاً ومعنى إلا على قدر نسبة اقتدار الكتاب في التصوير ، ومهارتهم في ابتكار أساليب التعبير والتحبير ؛ وإذا كان هذا كافياً في معالجة أدواء الأمم وبعث الحياة اليها ، فالأمم الشرقية اليوم أعلم أمم الأرض بدائها ودوائها ، وأقدرهم على النهوض بنفسها من وهدتها . واذا كان الأمر كذلك فما الذي يأخذ على متنفسها فيكبحها عن العمل ، وما الذي يمسكها في مركزها ويمنعها من التقدم خطوة الى الأمام ؟..

قول القائل ان تأخرنا سببه عدم الدين يشبه قوله ان سببه عدم الفضائل الاجتماعية والذاتية . وهو صادق في كلا الزعمين ؛ ولكن ما هو الدين وما هي الفضائل ؟ اذا سهل عليه أن يسرد بعض قواعد الدين وبعض أمهات الفضائل

ويقول ها هو الدين وها هي لفضائل ، فلا يدل ذلك على أنه فعل شيئا عـــير ترديد عبارات قرأها في بعض الكتب أو سمعها على ألسنة بعض الخطباء، وهذه التعبيرات الضخمة كا لي ن لهـا أدنى تأثير في تحسين حـــالة القائل الشخصية ، تعديلاً لطبعه ، وتهذيباً لنفسه ، كا يقر هو بذلك ويعترف به ؛ كذلك ليس لها أقل أثر في المجموع كا يرى ذلك بعينيه . وقد اعتلى الجيل الأول من المسلمين الى ذروة من الفضائل الذاتية والاجتماعية يكاد الانسان يعد أخبارها من الشعر ، ولم يقرأ الفاضل منهم ولا كتاباً واحداً في علم الأخـلاق ، بل ولم يكن يستطيع أن يعد من أمهات الفضائل وحدودها وآثارها ما يستطيع اليوم أن يعده رجل من أحلاس الرذائل يكون قد قرأ في علم الأخلاق كتاباً ؛ فماذا أغنتنا تلك الألفاظ الفارغة ، وماذا ضر آباءنا الاولين من عدم معرفتها .

يقولون : أن سبب تأخرنا عدم الدين ولا بد لنا من الرجوع اليه ، والتعويل عليه ، ونحن وكل صغير وكبير ، وعالم وجاهل من المسلمين، نقول ذلك . ولكن ليست هذه هي النقطة الصعبة من المسألة ، بل النقطة الصعبة التي يجب حلها هي ابتكار الوسيلة التي بها يرجع المسلمون الى الدين بقوة طبيعية دافعة مثل ســـائر القوى التي تدفع الأفراد والامم الى أي موقف من مواقف الحياة .

أقم نفسك متأملاً قليلاً فيما يدور حولك، وتخيل أولئك القوم الذين يعمرون محلات الملاهي والمراقص والمواخير والحانات من بعد غروب الشمس إلى مطلــع الفجر ، وتدبر جيداً تلك الحركة النشيطة والروح التي تديرها وتدبرها ، وتبصر في القوى ذات الأشكال الكثيرة التي تستهلك في تلك المجالات الابليسية الموبقة، وصوّر لنفسك الناس وهم داخلون الى تلك المحلات أفواجاً أفواجاً يتدافعون بالمنا كب ويتزاحمون إلى الصفوف الاولى تزاحم العطاش على الماء . أو الجياع إلى الغذاء، ووجوههم تتألق بشراً وسروراً؛ وجيوبهم تصيل لجيناً وتبراً. ثم تأملهم في خشوعهم وانصاتهم ، وسكون حركاتهم حينما يغنيهم المغني أو تتمايل أمامهم الراقصة يميناً ويساراً .

دع هؤلاء جانباً ثم صور لذهنك أولئك القوم الذين يعمرون المساجد ! أنظرهم في قلة عددهم ، وفتور حركاتهم ، وانكماش كل منهم في نفسه ، حتى ليود الرجل منهم أن يصلي في صف وحده من شدة ما يحس في نفسه من الاستقلال وعدم الارتباط ، تأملهم في يوم الجمعة أثناء خطبة الخطيب ترى السآمة والكلال قد ألقيا أستارهما على وجوه الكثيرين منهم ، وترى من القرائن ما يدلك على أن فكر كل منهم قد شطح في مجال من مجالات مصالحه الخارجية ، وان زدت في انتقاد الوجوه بدقة وجدت منهم من تتراوح رأسه نعاساً فلا يهب حتى يقوم الناس للصلاة ، فاذا تمت هرعوا إلى الباب كأنهم خارجون من سجن مظلم ، لا يلوي أحد على صاحبه ، قد أخذ التقاطع منهم مأخذه ، وفعل التهاجر فيهم فعله . تخيل حال هذين القسمين ثم فسر لنا سر هذا المعمّى المدهش ، وأوضح لنا طلسم هذا التناقض المستغرب ؟

الأولون من أصحاب الخلاعة يعلمون أن ما هم فيه سبب فسادهم وفساد بلادهم ويسمعون عن ذلك كل يوم في الجرائد والمجلات من أنواع الزجر والوعظ والنصح والارشاد ما يذيب الصخر لو يفهم ، ويسحق الحديد لو يدرك ، ومع ذلك لا يزدادون الا جرياً وراء ما هم فيه من بذل ماء الوجه وماء الحياة ، وانضاب معين الثروة والحط من كرامات الأسر ، والقضاء المبرم على الشرف وحسن السيرة . ويعرف الآخرون من أصحاب التدين أن ما هم فيه هو عين الفلاح والنجاح ، وبين أيدينا مئات من الكتب والجرائد تنشطهم في حركتهم ، وتصيح بالناس للانضمام اليهم ولكنهم رغماً عن ذلك يحسون انهم الأقلون عدداً ، والاضعفون جنداً ، ويأنسون من ذواتهم الضعف ومن أشخاصهم الضؤولة ، حتى يكاد بعضهم يتوارى عن الناس كيلا يرونه في تلك الزمرة .

اذا حضر أحدهم في مجلس اعضاؤه من القسم الأول وخشي فوت الصلاة فلا يجد من نفسه القوة الكافية لأن يقوم لتأدية مطلوب روحه ، وان وجدها فلا يقوم من بينهم الا تسللا ، وان دعوه الى الشراب فلا يجد من نفسه جسارة

يصرح لهم بها أنهـا حرام في دينه . بل يظل يبتكر لتركه لها الأسباب والعلل الصحية والمالية ويفيض فيما قاله عن ضررها علماء الأجانب .... واذا صـادف أحدَهم في الطـريق أو في بيت صديق تراه مع تشبع فكره بـأنه جرثومة من جراثم الخراب والمحن ، وأرومة من أرومـات الفتن ، هش إليه وبش ، ودلس على ضميره وغش ، ومد له طنافس الحفاوة ، وبوأه مكانات الكرامة ورفعه على صديق يجانبه يشاطره حلو الحياة ومرها، ويزامله في قطع مراحلها. وإذا نشأ له ولد سرت إليه مكاريب العدوى من أصحـاب القسم الاول ، فكلف باللهو والقصف ، وغري بالشرب والرشف أمده بالمال ، وأسدل عليه أستار الامهال ، وربما داخله الاعجاب به فوصف تفرنجه في المجالس بلسان الشكوى وهو ينوي التفاخر لما يتخلل عباراته من الابتسامات والفكاهات .

ما سبب هذا التناقض المدهش ؟ ما الذي ينفخ في أنوف أصحـاب الخلاعة والاباحة هذه الروح فيجعلهم الأعلين الأغلين مع علمهم وعلم الناس بأنهم احلاس الرذائل ، وزوامل الباطل ، وجراثيم دائنا القاتل، وما الذي يرغم من معاطس أصحاب التدين فيجعلهم الأحطين الادنينَ مع ظنهم أنهم على الهدى وبمعـزل عن الردى ؟

إن قيل لأن الاكـثرين من الأولين متعلمون مثرون وجلهم من أصحـاب الكلمة النـافذة والقول المسموع ، بخلاف الآخرين فسوادهم الاعظم جهـلاء معدمون ، ومتى اجتمع العلم والغنى والمنصب مع شخص رجح في ميزان الحياة الانسانية ولو كان من النقص بحيث يأنف من نفسه ، وفاز على خصمه الصـالح المجرد من تلك المواهب الثلاث ولو كان من الفضـائل بحيث يكسف نوره ضوء الشمس ... نقول هذا تمحل شعري لا تعليل فلسفي ، ولو صدق هذا التعليل لما انتصر أبداً الحق على الباطل ولما قشعت أنوار الفضائل غيـاهب الرذائل ، مع أن تاريخ العالم مشحون بما فعله الانبياء والشهداء والصـالحون من كسر شوكة المبطلين والغض من أعين الضالين ، والتنكيس لأعلام الطغاة المتمردين مع فقرهم

وضعف وسائلهم بمحض قوه الفضيلة الذاتية ، وصولتها الروحانية ، بل هـــذه صفة الفضلاء والصالحين في كل زمان ومكان ، وبها عرف فضلهم في تاريـــخ الانسان .

الفضيلة قوة تحل بالنفس فتخلع عنها غاشيات الباطل فتري صاحبها الحق في في أجلا مجاليه، وأنور جهاته؛ فلا يتأتى، بل لم يسمع في تاريخ العالم أن يستخذي الفاضل لعاطل ، ولا يتصور أبداً أن يذل الصالح لطالح . وان أردت أن تقيم الدليل على أنه قد يتأتى أن يخشع الكامل لناقص فأقم الدليل أولاً على أنه قد يتغلب الضعف على القوة .

الفاضل لا يتصنع القوة ولا يتظاهر بها، ولكنه يجد نفسه رغماً عنه متلألئة نابغة ، فتـــتزاحم عليه العيون والظنون ، وهو لا يريد ذلك فيسعى في تبديل أشعة الأنظار والافكار المتوجهة اليه ، ولكنه لا يزداد الا إشراقاً ولألاءً .

الفاضل يحس في نفسه نهاية العجز والضعف أمام الله وحده لا أمام أمثـاله فتنفجر له من ذلك العجز والضعف قوة لا يعرف مستقرها من نفسه، ولا يتخيل محلها من صميم سره . يراه الناس مهيباً قوياً ، وهو لا يرى نفسه الا عاجزاً ضعيفاً . يهابه الناس ويتوقونه ، ويرون في وجهه سمـات تدل على علو روحه ، وسمو صفاته ، وهو لا يرى ذلك في نفسه ، ولا يبحث عنه ، وإنمـــا يحس أنه هادىء السر من كونه عبد مليك قوي تذل لعزته الجبـاه والنواصي ، وتعنو لجبروته الوجوه .

ومن يتصفح تاريخ الرسل وأتباعهم لا سيا تاريخ خاتم النبيين صلى الله عليـه وسلم وتاريخ أصحابه ير العجب العجاب من تأثـــير قوة الفضيلة ، وتغلبها على الرذيلة تغلباً طبيعياً ، كما تتغلب القوى الطبيعية على بعضها في عالم المادة « فأمـا الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

اذا تقرر ما قدمناه رجعنا نسأل عما سألنا عنه آنفاً قائلين : ما سبب ظهور

المبطلين على المحقين ، وما سر غلبة روح الشريرين على الخيرين مع علمك بأن الناموس الطبيعي ينادي بلسان فصيح « ألا إن حزب الله هم الغالبون » .

هذه مسألة من أكبر المسائل الفلسفية ولا نريد أن نحلها بألفاظ بجملة لا طائل تحتها كقولهم مثلاً : سبب ذلك ان الناس أصبحوا كلهم مبطلـــين ، أو قولهم سبب هذا قرب الساعة وهذا الحال من أشراطها . لأن الزعم الأول لا يعد حلا للمسألة بل يعد تعقيداً لها إذ ينبني عليه مسائل أعوص من الأولى وهي : لم أصبح الناس كلهم مبطلين ، ولم يصبحوا كلهم محقين ؟ وهل الانسان مفطور على الشر دون الخير ؟ واذا عدم الخير الآن فكيف قامت الانسانية بدونه ؟ وهـل هذا يعد دليلاً للذين يجحدون الفضيلة ويدعون امكان قيام الحياة بدونها ؟

هذا بعض ما ينبني على الزعم الأول . أما قولهم إن هذا من أشراط الساعة فليس يعد حلاً للمسألة أيضاً ولا يفسر جـبن انصار الحق أمام انصار الباطل ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت انا والساعة كهاتين) ، ومع ذلك سعى في تحسين حال الانسانية سعياً لم يتفق قبله لنبي ولا بعـده لمصلح ولا ولي ، وأوصلها من السعادة الحقة الى ذروة لم تصل اليها أبـداً . وهؤلاء الخلفاء الراشدون ، والأولياء الصالحون ، الذين عرفوا ذلك الحديث ونقلوه الينـــا لم يقصروا لحظـــة عن محاربة الباطل ودحضه حتى خلص السلطان للفضيلة ، وتقوضت أركان الرذيلة .

يتضح من هنا أن هذين القولين ليسا من الحلول في شيء وإنمـــا هما من آثار الجبن الذي وقع فيه اليوم انصار الحق وغفلوا عن سببه .

يصيح بعض الناس من حين لحين آخر قائلين : العلماء مقصرون عن الارشاد ، والرؤساء عائثون في الأرض الفساد وعاسفون العباد والبلاد ، وأصحاب المهن غافلون عن علوم الاقتصاد ، وواقفون من مهنهم حيث وقف الآباء والأجداد ، ثم يسلقونهم بألسنة حداد ، ويقرعونهم بما يذيب الصم الشداد . ولكنـا نغضي

عن ذلك كله ونسأل بهدوء وسكينة عن سبب هذا الخـدر الذي نزل بالأعضاء فأضعفها ، وبالعقول فأتلفها ، وبالأفكار فأوقفها ، وبالأبصار فغشاها، وبالنفوس فدساها ، وبالفضائل فأجلاها .

نسأل عن هذا السحر الذي حل بالأعيان فقلبها ، وبالأوهام فجسدهـا ، وبالوساوس فجسمها ، وبالآثار فغيرها ، وبالطبائع فبدلهـا . ولا نزال نكرر السؤال عن منشأ هـذا الخدر ، وعن مصدر هذا السحر حتى نعرفه فنداويه ، أو يغم علينا فنترصده .

نبحث عنه أولاً فى ذاتنا فإن لم نجده ففي أهل بلدنا فإن لم نجده ففي عمـوم أقاليمنا فإن لم نجده ففي الأمم المجاورة لنا ، فإن لم نجده ففي العالم أجمع .

داؤنا روح الجيل

قد بحثنا جهدنا عن سبب هذا الخدر فوجدناه في العالم كـله ، ولا عجب فلكل جيل روح خاصة تعم عموم الناس بأثر واحد ولكن لا يظهر تأثيرها في الأمم الا على حسب استعدادها وقابليتها ، وقد تتخالف تلك الآثار في الأمم المختلفة تخالفـا لا يجعلك تتوهم وحدة الفاعل فيها ولكنك لو دققت النظر ، واخترقت الحجب الظاهرية ، لرأيت ان السبب واحد في ذاته ، وإنما هي آثاره التي تباينت على حسب تباين الأمم في قوتها وضعفها ، أو علمها وجهلها الخ الخ كما ينتشر شيء من الرطوبة في الجـو فيصيب الأجسام البشرية اصابات مختلفة : يصيب هذا بصداع ، وهذا بغثيان، وهذا بانقباض ، وهذا بنزلة شعبية الخ، مع أن المؤثر واحد في ذاته .

هذه الروح العمومية التي تنتشر في كل جيل في آفاق العالم فتعم الأمم كلها بأثر واحد، قد تكون روحاً طيبة سامية أو رديئة سافلة أو مركبة من خـير

وشر ، وتكون آثارها في الأمم على هذه النسبة بغاية الاحكام والضبط . هذه الروح لا تنتشر في الوجود من غير سبب ظاهر وإنما هي روح أقوى أمة في الجيل أو أقوى الأمم فيه . ففي القرون التي كانت فيها الأمة المصرية القديمة أقوى أمم الأرض كانت الروح العمومية مصرية لا تدع أمة من الأمم الداخلة في دائرة الاتصال بها الا طبعتها بطابع مصري في صنائعها وأفكارها ومداركها . فكانت الفكرة الفلسفية التي ترن في هيكل (آمون) يسمع لها صدى خاص في معبد (جوبيتير) بأثينا وغيرها من العواصم . وفي القرون التي كانت فيها العظمة للأشوريين والفارسيين واليونانيين والرومانيين والعرب والعثمانيين والفرنسيين كانت الروح العمومية آشورية أو فارسية أو يونانية الخ الخ .

هذه الروح العمومية التي تسيطر على أحوال الأمم في كل جيل هي التي يجب معرفتها جيداً ليمكن مشايعتها ان كانت روحاً طيبة سامية أو منابذتها ومحاربتها ان كانت رديئة سافلة ،وما دمنا لا نعرفها فلا نصل من بحثنا في أنفسنا وأمتنا الى شيء من الحقيقة ، ولا نزال نتخبط في علل ثانوية ، ونرتطم في اعراض نتخيلها امراضاً حتى يكل المريض ويسأم الطبيب وينتهي الأمر الى مثل ما انتهى بنا اليوم من عدم الاهتمام بالارشاد والوعظ ، لقلة فعلهما على النفوس وعدم تأثيرهما في تعديل القلوب .

هذه الروح العمومية المنبعثة من أقوى أمة تشبه السيال المغناطيسي المنبعث من الذي ينوم رجلاً أمامه نوماً مغناطيسياً . يحس هذا في مبدأ الأمر أن قوى أحاطت به من جميع جهاته ، وأن روحاً من الخدر تتمشى في سائر أعضائه ، ولكنه لا يزال حافظاً ذاكرته وارادته وانما يجده ميالا للرضوخ لتلك القوى المحيطة به ومسوقاً للاستنامة اليها . ولا يزال به هذا الحال حتى تضمحل ارادته الذاتية وتفنى في ارادة منومه فيكون تحت تأثيره مباشرة يوجهه كيف شاء ، حتى لو أمره بقتل ابنه بعد أن يوقظه لقتله .

كذلك روح الأمة أو الامم القوية التي تنتشر في أفق العالم فتعم سائر الامم. نجد هذه الأمم انها محاطة بقوى حولها غريبة عن ذاتها فتنكرها وتشمئز منها فان كانت قوية قاومتها ونابذتها وبذلت وسعها في عدم الاستنامة اليها، وأما ان كانت ضعيفة عديمة الوسائل الدفاعية هان أمرها على تلك القوة المحيطة بها فلا تزال تساورها حتى تخدرها وتتسلط على ارادتها فلا تنتفع بوجودها ، ولا تغتبط بحياتها ، وتكون كل حركاتها وسكناتها في صالح تلك الأمة أو الامم التي اكتنفتها بروحها من جميع جهاتها .

تقع امثال هذه الامم المستضعفة من جراء هذا التأثير الخارجي في اللوث في شؤونها والخلل ، في أحوالها ، وهي ترى ذلك بعينها ، وتعرف طرق الخلاص مما هي فيه ، ولكنها لا تستفيد من ارادتها بشيء كمن غشيه الكابوس يريد أن يهم فلا يستطيع النهوض ، ويتخيل انه ملأ الأفق صياحاً وهو في الحقيقة لم يسمع من حوله الا أنيناً خافتاً وهنيناً مشوشاً .

يدعو الناس بعضهم بعضاً في امثال هذه الامم الى الاتحاد والوئام ، ويكثرون في ذكر أمراضهم الكلام حتى يكادون يلمسون داءهم بأصابعهم ، ثم يتواصفون الدواء فيرونه أمام أعينهم وبين أيديهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم لتناوله كأن أيديهم مغلولة وما هي مغلولة ، فيرجعون الى بعضهم يتساءلون عن السبب ، ويقضون منه بالعجب ، وربما زاد بهم الخلل فاتهم بعضهم بعضاً بتبعة هذا الاحجام ، وتبادلوا من أجل ذلك التقريع والملام ، بل ربما زاد بهم الحال وتدرج من التلاوم الى التخاصم ، ومن التحاور الى التشاتم ، حتى يعلو بينهم صوت التلاحي ، ويشتد أوار التماري ، فيكونون بفعلهم هذا اظهر مثال لما يعتري الامم الساقطة من التناقض في احوالها: يتهاجرون وهم يتداعون للاتحاد ، يتخاصمون وهم يتنادون للتحاب ، يتشاتمون وهم يتناجون في التسامح؛ يتناهبون وهم يتصايحون بالتواهب ، وقد يشتد بهم الامر فيكون حالهم أعجب من هذا في شدة التناقض : يأمر الآمر منهم بالمعروف وهو أول المنتهكين لحماه ،

وينهى الناهي منهم عن المنكر وهو أول من يغشاه ، يذم الخمر وهو في دنّها غريق ، ويزري بالميسر وهو له زعيم . يدعو الى الصلاة وهو هاجرها ، والى الزكاة وهو تاركها ، والى الصوم وهو متجاهر بالافطار . يعلم علم الاقتصاد وهو أول المسرفين ، وإمام المبذرين ، يعرّف الناس قوانين الحكمة وهو لمبادئها قائد المقوضين ونقيب الهادمين .

في هذه الدرجة تكون ارادة الامة قد تلاشت وفنيت في ارادة الأمة أو الامم القوية المحيطة بها ويكون شأنها من بعض الجهات كشأن النائم نوماً مغناطيسياً لا استقلال له في ذاته ، وحياته تبع لحياة منومه .

وكما لا تنتفع الأمة بوجودها تحت تأثير هذه الروح الاجنبية العمومية كذلك لا ينتفع بوجوده الفرد الواحد منها. فيرى في نفسه أنه حي ولكن لا كالأحياء، وله ارادة ولكن لا كإرادة المستقلين ، يحس أن هنالك شيئاً غير محسوس قد ران على فؤاده وأيقظ فيه عاملا من الأرق والضجر لا يكاد يفارقه طرفة عين . يرى أن له عقلاً ولكنه غير سائد عليه ولا مهيمن على أفعاله ، لشدة ما يرى نفسه مسوقاً الى مناقضة احكامه ، ومنابذة تعاليمه . ويرى أن له فكراً ولكنه لا رابط له ولا نظام ، يجول في بيد الخيالات حتى اذا اعياه الجولان خمد خموداً ، فاذا هب هب طائشاً أخرق لا يدبره علم ولا ينظمه قانون . ويشعر أنه مسؤول عن أفعاله وأن فيه قوة تحوله عن القبيح وتميل به الى الجميل ، ولكنه يرى نفسه مسوقاً رغم أنفه لعمل من يعتقد انه غير مسؤول وانه مجرد عن كل اختيار في أموره. يجد نفسه حراً رشيداً ذا عقل وعلم وبصيرة ، ولكنه يحس أنه مرغم لأن يعمل عمل الأسير القاصر المجرد من العقل والعلم والبصيرة . يرى التناقض الفاضح بين علمه وعمله ، وبين سيره وعقيدته فينسبه تارة لتقصير نفسه وطوراً لتقصير غيره ، ولا يزال يكثر من العلل والاسباب حتى يخيل له أن الوجود كله يحاربه ، فتعتريه رعدة من خوف يتمنى معها أن لو خلق بلا

فكر ولا روية ، فيجتهد في أن ينسى نفسه ولو بازهاق عقله ، ثم يقنع من العيش بمجرد البقاء ولو كان اليأس قرين شخصه .

أمثال هـذه الامم لا تعيش لنفسها ولكن للامم ذات الروح العمومية ، فتكـون كل قواها وقفاً على مصالح ممغطسيها، وهي تعلم ذلك وتتململ منه على ألسنة كتابها وخطبائها فتراهم يذمون مظاهره كالتقليد على أشكاله والسرف في ترويج زخارف صنائعها ومموهات زيناتها وما يتبع ذلك من التزاحم على مـا يقيمه آحادها من الملاهي والمراقص ، والتغاير على أجابة دعوة كل قزم منهـم يذمون ذلك كله ولكنهم يرون أنفسهم مسوقين اليه بقوة غير قوتهم الذاتية ، وكثيراً ما يكتب الكاتب منهم تلك النصائح وهـو في وسط ناد من تلك المنتديات المجتاحة .

يبكي الناس على ما آل اليه أمرهم من التناقض وضعف الارادة وانحـلال الروابط وسوء المنقلب ويعرفون أسبابه القريبة جيداً، ويكثرون الكلام فيهـا سرا وجهرا ، تلميحا وتصريحاً، بل وتراهم إذا جمعهم ناد أو ضمهم مجلس سمر، لا يكادون يجدون حديثاً يقضون به الوقت غير ذكر ما هم فيه والافاضة في اسبابه وعلله وطرق شفائهم منه ، ثم لما يرفض مجلسهم ترى كلا منهـم محفوزاً بكليته لا الى الأخذ بأسباب الشفاء ، بل الى تقوية الداء وامداد جراثيمه بمـا يجعلها أشد فعلا وأنكى أثراً كأنهم لم يكونوا بالأمس يتناجون في شيء . يحدث منهم كل هذا التناقض ولا يجدون في أنفسهم ما يحط من كرامتهم في نظرهم بل ربما أتوا بما يعتبرونه أقتل أمراضهم وهم في ذات المجلس ، عقب محاوراتهم في شؤونهم مباشرة، ولا يؤاخذ بعضهم بعضاً على هذا التناقض الفاضح كأنهم رضوا بأن يكون لحياتهم حالتان متميزتان : حالة كلامية وهمية وحالة حقيقية ، ولا علاقة لهما ببعضهما ، في الأولى متمتعون بادراك وارادة ، وفي الثانية مجردون منهما تماماً . وقد انفصل في نظرهم عالم القول عن عالم العمل انفصالاً ولم يعد من العيب عندهم أن يقول الرجل ما لا يفعل أو يفعل مـا لا يريد . حتى انهم

ليندهشون ممن يؤذى لاصراره على التوفيق بين قوله وعمله وبين عمله وإرادته ، لشدة ما يحسونه في أنفسهم من صعوبة ذلك .

خلاصة ما تقدم ان لكل جيل روحاً عمومية تنتشر في أفق العالم وهي روح أقوى أمة أو اقوى الامم في ذلك الجيل ، فتحيط بالامم الداخلة في دائرة المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم وتزاحم قواها كما يتزاحم الناس بالمناكب ، فــان كانت قوية قاومتها وحفظت استقلالها على نوع ما ، واما ان كانت ضعيفة خدرتها كما تخدر بعض الحيوانات فريستها قبل صيدهــا ، وحينئذ تشعر تلك الامم الضعيفة بأعراض وعلل يتوه فكر عقلائها في تحديدها وتصويرهــا ، ولا تزال بها تلك القوة حتى تفقدها إرادتها وشخصيتها وهو ما يعبر عنه بفناء أمة في أمة أخرى .

الروح العمومية السائدة اليوم على البشر روح أوربية مركبة من أرواح أمم قوية كثيرة لها على الأمم الضعيفة أفعال وآثار مختلفة يطول شرحهــا في هذا الفصل ، وربما فصلناها في فرصة أخرى ان شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين يرسلهم الله لتغيير أحــوال الأمم هي انشاء روح جديدة في أمة من الأمم يختارها الخالق تعالى لذلك ، لتقاوم الروح العمومية الموجودة وتكسر من شرتها وتحل مكانها ، كما قال تعالى «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » فترى الواحــد منهم لا يدعو قومه الى التقليد لأنه لا معنى له الا الرضوخ لتلك الروح السائدة المراد ملاشاتها ، بل يواجهون الأمة من جهة حياتها الكامنة فينفخون فيها روحاً طيبة صالحة فتهب في الأمــة عواطفها الذاتية بسرعة مدهشة وتسري الحياة الى مجموعها سرياناً غريبــاً ، فيصبح الرجل وكأنه خلق خلقاً جديداً أو سرت فيه روح لم تكن فيه ولا في آبائه ، فتتيقظ في نفسه عوامل النشاط والحركة ويجد نفسه مدفوعــاً لجلائل الاعمال وعظائم الامور دفعاً طبيعياً لا نزقــاً تحمسياً . ومن يطالع سيرة خاتم

النبيين محمد صلى الله عليه وسلم يجد أصرح مثال لما نقول « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي الى صراط مستقيم » الآية .

ولما كنا في كتابنا على الانسان نريد أن نعرف أمثل الطرق للاستقامة على صراط الحق المستقيم فلا نجد بدأ من افاضة الكلام في الروح العمومية السائدة في جيلنا هذا لأن الفرد منا مرتبط بمجموعه ومن العبث البحث في سعادة الفرد قبل سعادة المجموع . فليس من العقل أن يسعى الرجل الضعيف في تقوية ساعده قبل أن يعرف سبب ضعفه العام فيداويه بعلاج عام مثله لتعم القوة ساعده وجميع أجزاء بدنه ، والا فيكون سعيه في تقوية عضو واحد منه من المستحيلات الواضحة .

انا نرى من خلال الحوادث ان الحرب التي أضرمتها الروح الأوربية على روح الأمة الاسلامية شديدة مزعجة لم يسبق مثلها في تاريخ الأرواح العمومية ، ولكنها ستنجلي ولا شك عن هزيمة الروح الأوربية وفنائها في الروح الاسلامية فناء أبدياً . وأن ما الأمة الاسلامية فيه اليوم من الفتن والمحن مهما عظمت وتفاقمت ، فلا تعد شيئاً بجانب ما لقيته وتلقاه الأمم الضعيفة من تأثير أرواح الأمم القوية . فبينا تتخيل الروح الأوربية أن السلطان قد خلص لها ترى الروح الاسلامية من وراء حجاب تكتسب عواطف الأفراد والأمم وينمو سلطانها على العقول يوماً بعد يوم ، وقد شعر بذلك كبار مديري الروح الأوربية فأخذوا يتساءلون عن السبب ، وبعضهم يجد نفسه مدفوعاً لايقاظ الروح الاسلامية بيده بواسطة كتاباته وابحاثه على الاسلام والمسلمين مصداقاً للحديث الشريف « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله » .

قلنا ان البحث في هذا الكتاب خاص بالانسان ولكن طبيعة نظريتنا هذه تلجئنا الى الكلام على الروحين الأوربية والاسلامية لارتباط حال الفرد الواحد

بشكل الحرب القائمة بينهما ونتيجتها . لذلك سنجتهد ان شاء الله في تصوير تلك الروح الاوربية تصويراً حقيقيا ، وتحديد تيارات آثارها في الامم عموماً وفي المسلمين خصوصاً تحديداً استقرائياً ، وتوضيح أحوالها في تطورها من القرن الخامس عشر الى هذا اليوم ، وتبيين ادوار تدرجها من روح إلحاد وعناد الى روح خضوع واعتقاد ، ثم سنختم ذلك كله ببيان كيف ان هذه الروح الاوربية سينتهي بها الامر الى مقابلة الروح الاسلامية في أفقها العالي ، وكيف انها ستفنى فيها وتدع لها السلطان المطلق على الارواح والاجساد معاً « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله »، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون » .

★

الفصل الثالث

الدين قبل ظهور العلم

تمهيد

صل الروح العمومية السائدة في هذا الجيل :

قلنا في الفصل الماضي ان لكل جيل روحاً عمومية هي روح أقوى أمة أو ‏ُقوى الامم فيه واننا تحت تأثير روح عمومية مركبة من أرواح أمم قوية كثيرة، ‏وقلنا ان هذه الروح الاوروبية سائرة بالناس سيراً طبيعياً الى مقابلة الروح لاسلامية والفناء فيها وترك السلطان لها . وسنزيد على ذلك ان شاء الله بأن هذه الروح الاوربية هي حركة من الروح الاسلامية العامة كما يقر بذلك قادتهم ولو لم يعرف ذلك دهماء المسلمين اليوم .

هذا البحث الذي تصدينا له لا يتأتى حصوله ولا ننال به من قرائنا ما نريد لا بالبسط الشافي ليكون القارىء من سلسلة هذه الحوادث الكبرى بمكان المشاهد لحركات الجنود من مرقب عال يلم بمجموعها لأول نظرة ولا يغيب عنه من دقائقها لا ما لا يخل بحكمه عليها . وهذا يستدعي منا قبل كل شيء امساك تلك سلسلة من طرفها الأقصى ولو كان ذلك يطوح بنا الى السريان في صميم التاريخ

سرياناً دقيقاً ، والسبح في مناحيه سبحاً طويلاً ، فلا يحسبن القارىء اننا شردنا عن الموضوع إذا أنس منا الذهاب به يميناً ويساراً ، فإن ذلك لحرصنا على أن لا يخرج من هذه الجولة الطويلة قانعاً من الغنيمة بالإياب ، وراضياً من البحث بعظم حجم الكتاب ، والله المسؤول في هدايتنا الى الصواب .

★

الدين قبل ظهور العلم :

لا نريد من العلم مطلق ما يدل عليه اللفظ ، لأنه لا يتصور أن يكون الانسان قد عاش يوماً واحداً بلا علم ولو على ابسط أحواله ، وانما نريد منه أخص معانيه ، وهو النظر في حوادث الوجود نظراً مجرداً عن الصبغة الدينية والبحث عن علاقاتها ببعضها وترتيب تلك العلاقات على كيفية تستخدمها اليد في تحسين الحالة المعيشية ، ويعتضد بها الفكر في سبحه في مرامي المسائل العقلية . تخصيص العلم بهذا التحديد يسمح لنا أن نقول انه مر على الانسان حين من الدهر لم يكن يذكر العلم بلسانه ، ولا يخطره بجنانه ، فلم يكن له غير الدين قائد ، ولم يكن يعرف مصدراً لحياته سواه ، ولا قائماً على أحواله غير كهانه وحملة أسراره . فكانت الهياكل كما تعلمه كيفية الاخبات لمعبوده ؛ تعرفه ايضاً سبل المعيشة في جوده بل وتهيىء له آلات تلك المعيشة .

في هذا الدور القديم كانت الامم منعزلة عن بعضها تقريباً وواقعة في أشد حالات تنازع البقاء ، حاجات أفرادها الجسدية مستوعبة مواهب عقولهم ، ومستولية بهولها على مشاعرهم ، ليس لافكارهم من الفراغ ما يسمح لها بأن تجول في فيافي النظر ، أو تحلق بهم في جو العبر . وكان القائمون عليهم عاملين على تكثيف الحجب عليهم كيلا ينفذ اليهم بصيص من نور الوجود فيخلعوا نير

سلطتهم ويتخلصوا من قيد سيطرتهم . وكان هؤلاء التابعون من الجهل بالكون والعـــماية عن أسراره بحيث لم يشكهم الشك في شيء من عقائدهم ، ولم ينلهم الريب في أمر من أمور دينهم ، ودام الناس في هذه الظلمات يخرجون من غيهب ويدخلون الى غيهب ، اللهم إلا في أزمنة النبوات ، حتى جاء القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام فجال الفكر على نفسه جولة كسر بها كثيراً من اصفاده، وتفصى من حبائـــل كانت آخذة بقياده ، فكان له بعد ذلك شأن لا تكفي في بيانه الاشارة ، فاليك التفصيل ...

يقظة العقل :

كانت الامة اليونانية من حيث الدين مثلها كمثل سائر الامم الاخرى لا ميزة لها عليهم في شيء ، أخذت المدنية ومبادىء الصناعات والفنـون عن المصريين الاقدمين فجرت على سمتها بما يناسب حالتها العقلية والاجتماعية وموقع بلادها ، وكان لها من صفاء جوها وروتق الطبيعة المحيطة بها ، أكبر منشط لافكار بنيها على متابعة السير في باحات الرقي العقلي والروحاني معاً، مما صار له في تاريخ العالم الأثر الجميل الذي سيمر بك طرف منه ان شاء الله. قلنا انها كانت من جهة الدين على نفس الطريق الذي كان عليه غيرهـــا من الاقدمين : تجسيم للقوى المدبرة للكون وتعداد للآلهة المهيمنة عليه ، وأساطير خيالية، تناسب حال تلك الآلهة الجسدانية . وكان ادراكهم للوجود لا يتعدى ما تنتهي اليه مشاعرهم ، فكانوا يتخيلون أن السماء مقر الآلهة وهي موضوعة على جبـــال (أولامبيا) وهي سلسلة جبال أوروبا بعضها في مقدونيا وبعضها في تساليا . وكانوا يتوهمون أن الغيوم التي تحيط بأعلا نقطة منها البالغ ارتفاعها (٢٩٧٣ متراً) تستر مدخل السماء عن أعين البشر . وكانت آلهتهم مقسمة الى أربع رتب : الرتبـة الأولى (الآلهـــة العلويون) وهم المكونون لمجلس شورى السماء وعددهم اثنى عشر يجتمعون فيتداولون في الشؤون العامـــة والخاصة ويصدرون بذلك الاوامر

المناسبة . وكان من أعضاء هذا المجلس (جوبيتير) رئيس الآلهة و (نبتـون) إله البحر و (ابولون) اله المعجزات والطب والادبيات والصنائع الخ و (منيرف) ابنة جوبيتير إلهة الحرب والعقل . الخ الخ .

الرتبة الثانية (الآلهه التابعون) وهم من الكثرة بحيث لا يحصى لهم عـدد فقد كان لأمة الرومان وحدها منهم أكثر من ثلاثين الفا .

الرتبة الثالثة (الآلهة الطبيعية) وهم السماء والارض والقمر والنجوم الخ .

(الرتبة الرابعة) الآلهة الحيوية وهم الرجال الذين ينبغون منهم في الشؤون الكبرى فتمنحهم الآلهة رتبة الالوهية بعد موتهم ومنهم (هيركرل) البطـل الشهير . وقد كان هذا دأب الاولين في تأليه كل من يسمو على غيره منهم حتى لا تكاد تعثر على أساطير ديانة قديمة خالية من هذا الضرب من الجهل ، فقد كان الرومان يزعمون أن مؤسس مملكتهم (رومولوس) ابن الاله (مارس)، وكان تلامذة أفلاطون المصريون يعتقدون انه ابن الإله (أبولون). ولما فتح الاسكندر مصر وخلصها من جور الاعجام زعم سدنة هيكل الإله (آمون) أن هـذا الاله أخبرهم بأنه ابنه فكان المصريون والسوريون يقولون بذلك ويعتقدونه لدرجة لا يتصورها العقل[١] .

كان إدراك اليونانيين لصفات الكمال اللائقة بهؤلاء الآلهة لا تتعدى درجتهم في العلم ، فكان آلهتهم رجالاً ونساء مثلهم لهم أعين وأسماع وغير معصومين من الشهوات والجرائم ، فقد زعموا أن الاله (أورانوس) كره أولاده وحبسهم في جهنم فجاء ابنه (سارتون) فخلعه وحكم الكون بدله . أما سارتون هذا فحدث منه أنه أكل أولاده ساعة ولادتهم وفاء لوعد كان وعـده (للتيتان) وهو من القوى السفلية أولاد السماء والارض فاحتالت (سيبيل) امرأته فوضعت حجراً

---

(١) كتاب (المنازعة بين العلم والدين) تأليف الاستاذ الاميريكي الشهير (درابر) .

مكان أحد أولئك الاولاد وهو (جوبيتير) فابتلع (سارتون) ذلك الحجر ظنا أنه ابنه فنجا الولد ثم ثار ضد أبيه وعزله وطرده من السماء وحكم الكون بدله . أمـا (سارتون) هذا فهبط في (اللاتيوم) وهو قطر قديم من ايطاليا الوسطى وصرف زمنه في تعضيد السلم وهبة البركات وتعليم الناس فنون الزرع وأساليب الحراثة .

هذا موجز يسير من أساطير اليونان الأقدمين جئنا به كنموذج لما كانوا عليه من جهة العقائد ، أما تفصيله فيحتاج لأسفار كثيرة لأن هذه الآلهة لـما كانت لا تعـلو في نظر اليونانيين عن الآدميين إلا في كونهم خالدين وان لهم التصرف في الكون، فلا جرم كان يصدر منهم كما يصدر من الناس انواع من التحاسد والتحاقد والتنازع، ولا عجب بعد ذلك إن كان لكل منهم سيرة طولى وتاريخ مسهب صقله خيال اليونانيين بصقال التصورات ، وذهبوا من الابداع الشعري بـه كل مذهب فكان للشعب فكاهة وديناً في آن واحد .

مبدأ النظر في الكون :

هذا كان حال اليونانيين من أول تكونهم الى القرن الرابع قبل الميلاد . فماذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان طبيعة بلادهم القاحـلة دفعتهم بوخزات الضروره الماشية لامتطاء صهوة البحر والاتجار في السواحل القريبة للاستعاضة عن الزائد من محصولات بلادهم بما تستدعيه حالة الحيـاة من مصنوعات الأمم الأخرى ومحصولاتها، فارتقت لديهم مهنة الملاحة ونشأ لهم فيهـا غرام استحال الى ملكة راسخة في نفوسهم فصاروا يتوغلون في البحر المتوسط شيئاً فشيئاً ويجوسون خلال الجزائر والثغور فوقفوا على ما كانوا لا يحلمون بوجوده قبـل ذلك ولا يتخيلونه تخيلاً .

كان نتيجة هذه المشاهدات وغيرها ان اتسع نطاق فكرهم عـما كان عليه

وصار إدراكهم للكون أوسع مما ورثوه من أساطير آبائهم الأولين ، فنشأ تناقض بين ما وصلوا اليه من سعة الفكر وما عليه دينهم من حرج المدركات ، فسرى الشك الى نفوسهم ولم يبق للدين في نظرهم مقامه السابق . مـــا زالت الريب تنتقل من فؤاد إلى فؤاد حتى توجس حمـــلة تلك الأساطير خيفة على مستقبل لعقائـــد ، فقرروا العقوبات المختلفة لاصحاب النزعات الالحادية بمصادرتهم في الأموال ونفيهم من البلاد أو بقتلهم بالسم أو النار أو الرجم ، فـلم تنجح تلك الوسائل بل استمر العقل آخذاً مجراه في التخلص من نير الضغط والحجر. وكان موقف العقائد القديمـــة بإزاء هذه الحركة من أحرج المواقف حتى انتهى الأمر بتلاشيها، بالمرة ولكن بعد أن جازت ثلاثة أدوار متوالية يلزمنا أن نهبها شيئاً من التفصيل لانها من القوانين الثابتة التي تنتاب العقائد الباطلة .

الادوار التي تنتاب العقائد الباطلة :

لما سرى بين اليونانيين الشك في عقائدهم من جراء اتساع نطـــاق فكرهم ، وقف السواد الأعظم بازائها ثلاث مواقف متوالية يعد كل منهـا دوراً من ادوار ثلاثة : (١) زعموا أولاً أن الأقدمين لا يجوز عليهم تصديق الأباطيل ولا يتصور أنهم ينخدعون لزخارف الخرافات مع رجاحة عقولهم وسمو مداركهم . قالوا : فلو لم تكن هذه العقائد حقة لا غبار عليها لما تمسكوا بأهدابها هذا التمسك الذي له في الكتب الأمثلة المدهشة . وضعوا هذه الثقة بأسلافهم نصب أعينهم وقاموا يحاربون الشاكين بكل ما يصل اليه امكانهم . ولبثوا على هذا الحال أمداً حتى ازداد تيار الشك في الأذهـــان وكادت تكون له الأغلبية واعتادته الاسماع فاستحال التشدد السابق بحكم الضرورة إلى شيء من التساهل في الدور الثـــاني . (٢) وذلك أنهم أخذوا يقررون بأن هذه العقائد لا يجوز أن تؤخذ على علاتها بصورتها المـادية فما هي إلا رموز لمدركات عالية ليس المقصود منها مدلولاتهـا القريبة . فما الآلهة في تناسلهم وتنازعهم وتصرفاتهم ، ومـــا السماء في عجائبها

إشارات لأسرار عظمى ، ورموز لمفاهيم جلى.. قرروا هذا الأصل ثم طفقوا يطبقونها على ما وصلت اليه افكارهم من الرقى العلمي والفلسفي وقنعوا بذلك أمداً مناسباً حتى نمى علمهم بالكون إلى درجة أصبح من العبث الجمود على الماضي ولرعاء قدسيته فدخلوا في الدور الثالث. (٣) وهو اعتقاد بطلانها بالمرة .

هذه سنة الأمم كافة من جهة التصديق بالعقائد الباطلة : يحل الشك أولاً محل الاحترام المطلق لها ، ثم يتطور الشك ويتدرج في أدمغة المتحمسين إلى شرحها وتأويلها والسعي في تطبيقها على المدركات الجديدة ، ثم يقع أصحاب البصر في الخلاف والتلاحي من جرائها حتى ينتهي الأمر بتركها بالمرة. وهذا بعينه ما حصل للأوروبيين بالنسبة لعقائدهم فان الحرب الصليبية التي شرعوا فيها في القرن الحادي عشر لكسر شوكة المسلمين وانتزاع بيت المقدس من يدهم سمحت لهم بالاشراف على تلك المدنية الباهرة التي أقامها المسلمون في سوريا أحد إيالات الملك الاسلامي الفخم ، فأثرت في أفكارهم تأثيراً كبيراً وحولت من مجراها بعض الشيء فحدث الشك في العقائد وصار اللغط به كبيراً فالتجأت رئاستهم الدينية لتأليف محكمة التفتيش لمعاقبة المبتدعة بالقتل والحرق والتمثيل حتى عدت على حياة أكثر من ثلاثمائة الف نسمة من كبار الرجال وغيرهم. ومع هذه الشدة والصرامة لم تستطع أن توقف تيار الشك بوجه من الوجوه، قال الأستاذ (درابر) في كتابه (المنابذة بين العلم والدين) « ان محكمة التفتيش لم تنجع في عملها رغماً عن سلطتها الكبرى . ولما لم يستطع المبتدع النجاة من غوائلها كان يلجأ إلى كتمان شكوكه وعدم إظهارها فكانت نتيجة هذا أن انتشر الشك في جميع أرجاء أوربا » ...

ثم اعقب هذا الشك الذي عم الناس أن تحمس بعض المتدينين من ذوي البصر وتعصبوا للدين وقاموا في طريق وسط بين الحزبين وسعوا في إيجاد التوفيق بين العلم والعقائد ، ولكن انتهى الأمر باتساع مسافة الخلاف بين العلم ومقررات الدين ففشلوا فشلاً لم يقوموا بعده. قال الأستاذ (درابر) في كتابه المتقدم:

« لقد قام عدد عديد من رجال الخير ذوي النوايا الصالحة وسعوا في التوفيق بين مقررات خلق الكون من الكتاب المقدس وبين مكتشفات العلم ، ولكن كان الخلاف بينهما قد وصل الى حد أن أصبح في حكم المقرر انمحاء أحدهما بالمرة ».

ثم انتهى هذا الدور في القرن السابع عشر وحل محله اعتقاد المنافاة التامة بين العلم والدين، وتقرر لديهم بأنهما عدوان لدودان، وضدان لا يجتمعان، وسرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة فالعامة ، فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ، ومحفوزين بحكم الحاجة لما يرون من خيرات العلم وبركاته وما يتنعمون فيه من اكتشافاته وابتكاراته؛ وسينتهي الأمر كما يكتبون في كتبهم بزوال الدين بالمرة، ولا يريدون بالدين الدين المطلق بل الدين بالمعنى الذي قام بحفظه سدنة اليها كل ، وخدمة المعابد ؛ أما الدين المطلق فهم بإزائه على أقسام شتى على حسب مذاهبهم مما سيجيء كلامنا عليه إن شاء الله تعالى .

نظرة على ما سبق

إذا تقرر هذا فهل نحن أيضاً على ذات الطريق الذي سارت الأمم عليه قبلنا ؟ وهل لا مناص لنا من التطواف على هذه الادوار الثلاثة حتى ينتهي بنا الأمر الى المروق التام من الدين ؟ يقول قائل « نعم ، وقد اجتزتم منه عقبة وأنتم اليوم في العقبة الثانية وليس بينكم وبين الدور الذي فيه أوروبا الا قارعة تنصب عليكم فتريكم أن سبب انحطاطكم هو عدم العلم لا عدم الدين ، وأن أوروبا لم تأخذ بتنفسكم ولم تمسك بأكظامكم في كل شأن من شؤون حياتكم إلا بوسائل العلوم الطبيعية ، والاكتشافات الفنيـة ، لا بالوسائط الاعتقادية ، والمقالات الجدلية » .

ولئن سألت هذا القائل عن تفسير ما قاله من اننــا اجتزنا الدور الاول من الادوار الثلاثة ونحن في الدور الثاني وعلى مقربة من الثالث لقال : « لا اذهب بكم بعيداً ؛ ها هو قطركم المصري لبث تلك الاجيال الطويلة من عهد فتح مصر بالجيوش الاسلامية الى آخر عهد المماليك وهو جاعل من العقيدة حصنه الحصين، وركنه الركين ، وقد توالت عليه الغارات والفتوحات ، وتداولته الامم المختلفة وهو لم يتحول عن تلك الحالة حتى هلّ القرن الثاني عشر الهجري ودهمتــه الجيوش الفرنسوية ، وأعقب ذلك تكوّن حكومة منظمة في البــلاد غيورة على صالح الأمة وترقيتها على مقتضى روح المدنية الأوربية ، فشدت دور العــلوم والصنائع وأقامت معالم المعارف والفنون ، وأرادت اعطاء هذه الحركة المدنة حقها فأرسلت عدداً كبيراً من أبنــاء البلاد إلى أوروبا للاشراف على أسرار المدنيــة من قرب ، فلم يكد هؤلاء الشبان يشرفون على تلك المعاهــد الفخيمة وينيفون على هاتيك المعالم الباهرة ويرتضعون ثدي العلم الجديد ، حتى أحسوا بالبــون الشاسع بين ما ورثوه عن آبائهم من العقائد وبين مــا عليه الوجود من الفخامة والجلال، فسرى الشك اليهم سريان النار في الهشيم فجاؤا إلى بلادهم وفي نفوسهم من الهواجس والشبه ما فيها فتظاهروا بالتفرنج والتقليد ، وتركوا من العادات ما لا يتفق مع الفكر الجديد . »

« فماذا حدث من هذا الانقلاب السريـع ؟ حــدث أن حمي وطيس التحمس للدين في بعض الأدمغة الحريصة على ذكرى الماضي فأخذت تصيح بانطباق الدين على المدنية ، وعدم منافاة العقائد للعلوم الطبيعية... وقد كتبتم في ذلك المجلات والكتب، ووالبتم فيه الابحاث والخطب ولم يزل كتابكم يزاولون هذه المجاهدات الشاقة الى اليوم . فهل ينتظر بكم بعد هذا إلا الوقوع في الدور الثالث وهــــو تحققكم أن العلم ينافي الدين ؛ وأن العـــلم منبع الحياة الحقيقية ؛ وملاك السعادة الانسانية : وأن للأديان أزمنة خاصة في تاريخ الانسان تؤدي وظيفتها ثم تنتهي بانتهاء دورها ؟ وهل مثلكم بالنسبة للأدوار التي قدرت للأنسان إلا كمثل غيركم،

فاذا كان غيركم مر على هذه الادوار وانتهى إلى ما ترون، فلماذا تزعمون أنكم لا تنتهون إلى حيث انتهى وتقفون من الحياة حيث وقف » .

هذا ما يستطيع أن يقوله قائل تشبع فكره بأبحاث الماديين من هدمة العقائد الباطلة في أوروبا أو تقليداً لمن تشبع فكره بها، وانا لنعلم ان القائلين بهذا القول في البلاد الشرقية قليل ، ولكنه في زعمنا من الشبه التي وقع الناس فيها بالعمل قبل ان يدركها فكرهم بالتصور وهي لفحة من لفحات المدنية المادية التي حكم علينا بالاحتكاك بها والافتتان بمظاهرها .

هذا القائل لو درى ما هي الغاية التي خلق النوع الانساني مسوقاً اليها ، وما هي الدوافع التي تدفعه في خلال القرون والحوادث للتوجه اليها ، ومــا هو سر الحياة الانسانية والعواطف القلبية ، ثم علم ما هو الاسلام في ذاته ، وما علاقته بالنفس البشرية وباحساساتها الداخلية ، وما الغرض منه، لتحقق ان شبهته هذه التي هدمت العقائد الباطلة وجعلتها خبراً لكان هي بالنسبة للاسلام أوهى من بيت العناكب ، وأضعف من أن تسمى شبهة ، بل لعلم علما يقينياً ان شبهته هذه هي ادل الادلة على أن الاسلام دين الله ، وان العالم مسير اليه بدوافع الطبيعة ، ونواميس الحياة ، لأنه دين الفطرة الأصلية النقية من الأوهام والاباطيــل ، ومطلب الروح الاقصى المنزه عن الوساوس والأضاليل ؛ ولكن ماذا يعني هذا القول مجرداً عن الدليل ، وعارياً عن الشرح والتفصيل ، بل ماذا يفعــل في خصمنا ان لم نقف في حيزه الذي هو فيه ليعلم أنا واياه في مستو واحد ثم نساوره من قرب بنفس علومه ومقررات معارفه مما يتوهم انها أكبر هوادم العقائــد ، وأقوى معاول الخيالات ، ليعرف أننا لا ندافع عن حقائقنا من وراء حجب تحامياً من صولة العلم ، وتحاشياً من مواجهة اصوله وقوانينه .

هذا وظيفة كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فاقرأ حل هذه الشبهة هناك ولنرجع نحن الى متابعة الكلام على تاريخ نشأة الروح العلمية ...

الفصل الرابع

نشأة الروح العلمية

التي يسيطر بها الغرب على الشرق

قلنا ان الأمة اليونانية القديمة مصدر نشأة الروح العلمية التي أيقظت العقل من سباته وفكته من قيوده ، حينما ألقت بنفسها على أسنمة الأمواج تجوب البلاد وتخترق الآفاق، ورأت ما رأته من عظم الكون وجلالته مما شككها في دينها وأنزل من فؤادها مقام أساطيرها ، ولكنا وقفنا بالقارىء وقفة كان لا بد لنا منها صيداً لشاردة العبر ، وتأملا في سنة البشر ، ونريد اليوم تتميم الكلام فنقول :

ما زال اليونانيون يجوسون خلال الثغور والأمم البحرية للاتجار حتى مرنوا على السياحات وصارت لهم الملاحة ملكة راسخة ، وتبع هذا اتساع في نطاق مداركهم ، وتهذب في عواطفهم ، ورقية في طبائعهم من كثرة إشرافهم على أجناس الشعوب في رحلهم، وإنافتهم على مختلفات القوانين ومتباينات النظامات، واحتكاكهم بصنوف الأمم المتخالفة في عوائدها وعقائدها وألوانها ولغاتها ، كل هذا وما وهبه اليونانيون من مضاء الفكر وحب النظر وحسن التأثر

بالمشاهدات قذفت بهم إلى باحات من الرقي العقلي فاقوا به سائر الأمم المعاصرة لهم .

كان اليونانيون في ذلك الوقت ، أي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد منقسمين إلى قسمين : قسم في أوروبا وآخر في آسيا . الثاني كان راضخاً لنير الفارسيين لا يحدث نفسه بالاستقلال ولا يعنيها بتغيير الحال . أما الأول فكان نشوان من خمرة الحرية ، عدواً للاستبداد والعبودية ، وكان منقسماً إلى ممالك عديدة لكل منها ملك خاص ونظام خاص ، وكان يقع بينهم النزاع كما يقع بين الأمم المتخالفة الأجناس ، ولكن ذلك لم يكن ليمنعهم من الاتحاد على بلوغ غرض عام أحياناً ، كما اتحدوا على مقارعة الفارسيين في القرن الخامس قبل الميلاد حينما أرادوا أن ينشروا عليهم سلطانهم . وكان هذا الانقسام داعياً لبعض ذوي الأطماع الواسعة من أولئك الملوك ، لمحاولة إخضاع إخوانه لسيطرته ، فكانت تقع بينهم الحروب من جراء هذا الأمر وتصطلم كثيراً من زهرة نشأتهم وتصدهم بعض الشيء عن بلوغ نهاية ما قدر لهم .

فيليب المقدوني :

كان من أولئك الذين تاقوا إلى توحيد اليونانيين فيليب المقدوني لما بينهم وبينه من صلة الرحم فبدأ في تتميم مشروعه بشن الغارة على المدائن المتاخمة لبلاده، فلم يأبه به اليونانيون رغماً عن نداء خطيبهم الشهير (ديموستين) ولم يدركوا الخطر المحدق بهم إلا في سنة (٣٣٨ ق.م) فقاوموه بالقوة فهزمهم وأخضعهم لصولجانه، وعين نفسه قائداً عاماً للجيوش اليونانية وعزم على الإغارة على بلاد الفرس ، فكمن له يوناني فقتله ، فخلفه ابنه (الاسكندر) الأكبر سنة (٣٣٦ ق.م) وعين نفسه في كورنث قائداً عاماً لليونانيين ، وعزم على فتح بلاد الفرس وتتميم رغائب أبيه .

سبب توق اليونانيين الى فتح فارس:

كان مُلك العجم في القرن الخامس ضريب ملك الرومان فكانت مساحته تبلغ نصف مساحة أوروبا يمتد من سواحل البحر الأبيض إلى سواحل البحر الأسود فبحر أيجه فبحر قزوين فبحر الهند فالبحر الأحمر ، وكان به ستة من أكبر أنهار العالم ، وهي الدجلة والفرات والأندوس والأكسوس وجاكسارت والنيل ، تفيض كل عام بالخيرات والبركات على البلاد التي تمر بها ، فتغمر أهليها من نعيم العيش وخفض الحياة بما يسمح لهم باستثمار قوة العقل واستثارة كنوز الفكر واستنباط غرائب الصنائع وعجائب الفنون ، فلا جرم كانت بلاد الفرس حديقة العالم الأرضي ونموذجاً لغاية ما يمكن الوصول اليه في تلك الأجيال من المدنية الصناعية والحضارة .

أمة هذا شأنها من العظمة وسعة السلطان وكثرة الجند والمال، لم تكن تحسب لليونانيين حساباً في قلة عددهم ووهن وسائلهم ، فكانت من أمن جانبهم بحيث لا تتحامى أن تستخدمهم في جيوشها لمقارعة أعداء دولتها . ومن هنا أدرك اليونانيون جهة الضعف في جنديتها ، فصارت نفوسهم تحدثهم بإمكان قلب سلطانها واكتساح كنوزها ، وكان فيليب ملك مقدونيا أكبر من حدث نفسه بذلك الأمر الجلل ولم يثنه عن عزمه إلا طعنة ذلك اليوناني كما ذكرنا .

خلفه ابنه (الاسكندر) فلبث ريثما استتب له أمر الحكومة ثم جال بخاطره ما كان يجول بخاطر والده من فتح بلاد الفرس، فسار إليها بأربعة وثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس في سنة (٣٣٦ ق.م) ودخل آسيا الصغرى والتقى بجيش الفرس فكان النصر في جانبه في آسيا الصغرى ، ولبث بها ريثما نظم حكومتها ثم اتجه لفتح سوريا فصادف جيش (دارا) ملك الفرس يموج في ستمائة ألف مقاتل فلم يغنه كثرة عدده شيئاً فولى الأدبار ، فاتجه الاسكندر للجنوب خوفاً من أن يقطع الفرس عليه خط الرجعة ، ثم جمع أركان حربه

وساورهم في الأمر ، فأجمعوا على لزوم فتح صور تحامياً من أن يشن الفرس الغارة على بلاد اليونان فيحملون على النكوص على أعقابهم وترك مغانمهم فحاصرها ، فقاومته ستة أشهر ثم دخلها ، وسلمت له أورشليم ، فاتجه إلى غزة ففتحها عنوة ثم اتجه للقطر المصري فطوعه ونظم حكومته ، ثم رجع إلى سوريا بأربعين ألف محارب ، واجتاز نهر الفرات فصادف في الشاطىء الأيسر جيشاً فارسياً مؤلفاً من مليون ومائة ألف مقاتل فالتقت الفئتان ، وانتهت الوقعة بهزيمة الفرس وحدث أن قتل (دارا) بعدها بقليل ، فصفا الأمر للاسكندر فجاست خيله خلال ذلك الملك البازخ بلا مزاحم ولا مقاوم وأخذت من خزائن الفارسيين وكنوزهم ما لا يقبل الاحصاء ، ولا يدخل في حسبان .

نتيجة هذا الفتح على اليونانيين وتأثير المدنية على العقائد الباطلة :

نشأ لليونانيين من جراء هذا الفتح نمو سريع في ملكاتهم وفكرة كبرى على عظمة الكون وجلالة الوجود ، وناهيك بقوم فيهم قابلية للحركة الفكرية والرقي العقلي مطبوعين على التأثر بالمناظر والمشاهد يمرون في ردح قليل من الزمن على معاهد المدنيات القديمة ، ويجمعون في وقت واحد بين الينبوعين العظيمين للمدنية الانسانية ، أي النيل في مصر والجانج في الهند ، ويمرون بينها على تلك المدنيات الصغيرة التي استمدت حياتها من ذينك الينبوعين كأمم الاشوريين والميديين والليديين والبابليين وغيرها .

رأوا الأهرام القائمة تناغي السحائب وتسامر الكواكب ، وتلك النصب المنصوبة من منذ آلاف من السنين تخلد ذكر ملوك قادوا الكتائب ، وزانوا العروش والمواكب ، ثم شارفوا بعد ذلك منصات سلاطين الآشوريين المحفوفة بالأصنام ذوات الأجنحة ، وشاهدوا بقايا هيكل بعل ، وهو من العلو بحيث

تكنفه السحب من كل جانب . ورأوا فوقه مرصد الأفلاك ، لذا تنزلت منه على تلك الأمة أساطير دينها الذي باعت له أرواح بنيها ، وصحت من أجله أفلاذ أكبادهم ، ثم أبصروا ذينك القصرين الشهيرين بحدائقهما المعلقة في الهواء على أعمدة متينة ، وفيها من ضخام الأشجار وعظام الدوح ما لا يقل عما على البسيطة منها. وبصروا ببقايا تلك الآلات الضخمة العجيبة التي كانت ترفع المياه إلى تلك الحدائق الهوائية .

ثم استعرضوا بلاد العجم ورأوا من عجائب المدنية ما هو أحدث عهداً من كل ما سبق : لحظوا أواوين (بيرسوبوليس) المعلقة على أعمدة محلاة بالنقوش الغريبة وشهدوا تلك التماثيل الضخمة والأنصاب الباذخة ، ومروا من هناك بأكباتان مصيف الأكاسرة الفخام وهي محاطة بسبعة أسوار مبنية بالأحجار المفصلة المصقولة ذات الألوان المختلفة ، وهي ترتفع لجهة المركز لتعطي بذلك صورة مدارات الكواكب السبعة. وأموا ذلك القصر الذي غشيت سقوفه بالفضة الناصعة وكسيت خشبه بطبقات من الذهب الوهاج ، وعاينوا تلك الأهلة المصنوعة من النفط التي كانت تضيء ذلك القصر بما يشبه ضوء النهار .

نعم ، رأى اليونانيون كل هذا الملك الباذخ وتأملوه جيداً ، فكانوا يشرفون في كل خطوة يخطونها على مشاهد لم يحلموا بوجودها ولم تتولد في خيالهم صورتها، ولما كانوا هم بطبعهم أميل الأمم للنظر والتأثر بعجائب المخلوقات ، فقد صادفوا في هذا الملك الواسع ما يبل غليلهم ويشفي صدورهم . فبينما هم وسط صحراء رملية ، لا يتصور الوهم لها حداً ، إذا هم بسفح جبل ينقطع شعاع البصر دون بلوغ ذروته علواً وشموخاً ، هذا عدا ما كانوا يمرون به من التلال والظلال والوهاد والنجاد والحيوانات المختلفة الأشكال والألوان والأحجام والنباتات المتباينة الأجناس والفصائل مما لم يكونوا يتوهمون له وجوداً .

فماذا كان من نتيجة ذلك على عقائدهم ؟ كان ولا شك الحكم البات على بطلان

أساطيرهم والجزم بأنها من مخترعات كهانهم ، وبذلك أصبح الشك الذي كان اعتراهم خلال رحلاتهم السابقة حكماً جازماً وعقيدة راسخة . وقد أثرت عليهم هذه المشاهد تأثيراً أنام عاطفة الدين في نفوسهم مرة واحدة وقذف بهم إلى متاهات الإلحاد المطلق ، فلم يعودوا بها يصدقون بشيء واعتبروا سائر العقائد صوراً ولدها الخيال وجسمها الوهم ، وغلوا في الشك والتشكيك حتى شكوا في وجود المحسوسات ووجود أنفسهم .

★

الباب الثاني

المدنيّة

الفصل الخامس

تأثير المدنية على العقائد

بعد أن جلنا بالقارىء هذه الجولة التاريخية ، يحسن بنا أن نسأل أنفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقي المادي والشكوك في الدين ؟ وما هذه العلاقة الأكيدة بين العلم بالكون والإلحاد ؟ لو كان هذا شأن أمة من الأمم لقلنا أن له سبباً عرضياً استدعته حالة من أحوالها الخاصة ، ولكنه يشاهد في جميع الأمم على حد سواء (إلا الأمة الاسلامية) وأظهر مثال لنا ما نشاهده بأعيننا من الأوروبيين فإنهم أصبحوا من ترك العقائد بحيث لا نستطيع أن نتخيل إمكان رجوعهم إليها ، وقد علقوا رقيهم كله على تركها ، وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل في هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة أن الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأنّ الأديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمتها أدوار خاصة ، وقد أدت وظيفتها وأخذت في الانحلال ولن يقوم لها في عصر العلم قائمة ؟

إن كان لا هذا ولا ذاك ، كما برهنا عليه في الفصل السابق ، وكما سنعود اليه إن شاء الله بصور مختلفة ، فهل في الرقي المادي شيء من السحر يعتري النفوس ، فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟

إن كان كذلك ، فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشأه ، وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكمالات روحانية ، ويكون الانسان بينهما مغموراً في نعيم روحه وجسده ، متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ إن كان لا يمكن ذلك ، فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين ؟

وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية ، أو كمالات روحية ، فما بال بعض المسلمين الذين قضي عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية الأوروبية قد خلعوا أعنة الدين، وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل أن نصمهم كلهم بالعماية والطيش، فان منهم المتعلم الذي يفخر به معلموه ، والسمح الذي هام به محبوه ، والأريحي الذي يحمده قاصدوه ، فما الذي أمال أعناق هؤلاء إلى الهوى ودفعهم إلى الردى ؟ وإذا كان لا مناص من أن يكون الرقي المادي يقابله عدم الدين ، وقد رأينا بوادره في إخواننا الأقربين ، فانتظر إذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راكعاً في محراب ، ولا داعياً إلى غير شراب ، لأن المدنية الصناعية آخذة في الانتشار ومتسربة إلى سائر الأمصار ، وإنك ترى أنها تعدت من كبار الأفراد إلى من يليهم ، وممن يليهم إلى من دونهم ، حتى دخلت إلى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فإن كان كما قلنا : في المدنية شيء مما نسميه سحراً ، فقد قرب الوقت الذي ندعو فيه إلى الدين ، فلا يجيبنا غير الصدى ،ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى ؟

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لإدراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكامن الداء وحقيقة الدواء تفادياً من التعب في غير متعب ، وهرباً من الذهاب في غير مذهب ؟

ما هي المدنية ، وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الإنسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الإيمان ؟ فما هو الإيمان ، كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في إيتاء الروح حاجتها، وتهدئة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذي عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية ، وتكتفي بملاذها الجسدية ؟ هل نمو القـوة العقلية ينتهي بالإنسان إلى اعتقاد بطلان الأديان ، وإدراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل ، حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه في أداء وظيفته ؟.. يمكن أن يقال نعم ، وأن يقال لا .

إن قيل نعم ، فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانها على النفوس ؟ هل هما يتنازعان الإنسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب منهما دون الآخر ، أم لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على الانسان من قبلهـا ؟ إن كانا يتنازعان الانسان من جهة واحدة ، فما هي تلك الجهة منه ؟ وإن كان لكل منهما جهـة خاصة فما هي جهة سلطة العقل ، وما هي جهة سلطة الدين ؟

وإن قيل لا ، نقول : إذن مـا هذا الأثر الذي نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علماً بالكون وبالأمم من أصحاب الأديان سواء الأقدمـين أو المحدثين ، يشكون في العقائد ويتهاونون في أمرهـــا ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمـرة ؟

إن قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم لأمثال هذه الأمم قائمة ، وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الأصلية؟ هل ذلك لأنا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال :

« إنكم سميتم عاداتكم فضائل ، ودعوتم أضدادها رذائــل ، وجعلتم ذلك قانوناً تحكمون به على الأمم والأفــراد ، فيذهب كل يوم حكمكم أدراج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها ، فتحكمون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة ، وترون فيها أضداد عاداتكم فتحسبونها رذائل ، فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشي . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون .

« إنكم تنظرون الى الربا ، فتظنونه رذيلة مجتاحة (هذا قول المعترض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العـــالم المتمدن كله ، وبه تتوطد الدعـائم الاقتصادية فيه . وتلتفتون إلى الخمر فتعدونها رذيلة ، حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الأكبر لمالية الأمم المتمدنة . وترنون الى مسألة تكشف النساء، وحضورهن في مجالس الرجال، فتخالونه رذيلة ، مع أنه أهم الأسباب التي رقّت الأوربيين ، وأخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميتم كل مــا خالفكم فيه غيركم رذيلة ، وهي في الحقيقة فضيلة ، وصرتم تثرثرون بها كل يوم حتى اعتادتها الأسماع ولم يعدلها تأثير .

إنكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم الى تقليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون في تعليل هذا الأمر مذاهب الخيال ، والشعر ، فتسمونه سحراً ، أو تسمونه روحاً . وقد جعلتم التفيهق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في ابحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أي قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة في الأمم التي تحتكون بها ، لأن الفضيلة جذابة خلابة ، تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميــال ، فهي تجذبكم كل يوم إليها بقوتها الذاتية ، فترضخون لأحكامها بالفعل بينا تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية ، والجمــل التعجبية ، اندهاشاً من كونكم مسحورين بالرذائل ، ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم أن تتبصروا وتجيـــدوا استعمال الروية ، قبل أن تقع على عاتق المتهورين من كتابكم المسئولية ، مسئولية صد الشرق عن الاستفادة من خير المدنية » .

هذا ما يستطيــع أن يقوله مجادل عنيد في مناسبة مـــا سقناه من النبذة التاريخية ، وما تساءلنا عنه من ذلـك المؤثر الذي يؤثر على العقيدة الدينية في عصور المدنية . وهو من الشُّبه الرائجة في أيامنا هذه على ألسنة بعض الناس ، ممن يستطيعون التعبير . وفي ضمائر البعض الآخر ، ممن لا يحسنون القال والقيل. فلا مناص لنا من حلها حلا جلياً تفصيلياً إن شاء الله تعـــالى ، لأنها من أحابيل شياطين الشرق اليوم ، التي وقع فيها كثير من أفراد النشأة الجـديدة ، مسوقين إليها بتيارين : تيار سحر الزخرف الصناعي المنصب إلينا مز أوروبا ، وتيــار القوة والنفوذ اللذين هما في جانب الغرب اليوم .

هذان التياران ، وإن كانا في العـــادة دافعين هائلين للأمم المستضعفة إلى الانحلال ، إلا أنهما لا يبلغان غاية قوتهما ، إلا أمـام الأمم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التي لا تسمح لها عمايتها بالتفكر فيما بعد يومها الذي هي فيه ، وتوهمها وساوسها بأن الحال لن يتغير عما هو عليه ، وإن العالم قد طبع بطابع نهائي ، أي أن القوي يبقى قوياً الى الأبد ، والضعيف لا يبرح ضعيفاً الى الأبد ، ولامعنى لهذا إلا اليأس بعينه ، وهو أشد درجات الكفر في مذهبنا .

فالعلم والحالة هذه، يفتح للأرواح باب الأمل الواسع ، ويحلهم بساحة الرجاء المنعش ، فيطلبون الحياة بمالديهم من الوسائل ، فإن أكدت الوسائل إليها ولو بالتمني ، واحتموا بذلك من اليأس الذي هو طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والأمم ؛ ولو لم يكن في حلولنا لهذه الشبه ، إلا الإلمام بشيء من أسرار الحياة ، لكفى به نتيجة عظمى ، ولا محل لتلك الحلول غير كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، عسى أن يصادفنا من نوره الأقدس، شعاع نستقيم بلألائه على المنهاج السوي ، وللصراط الإلهي ، والله مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

* * *

الفصل السادس

أثر فتح فارس
على علم اليونانيين وفلسفتهم

درسنا في الفصل المتقدم الأثر الذي أحدثته على عقائد اليونانيين معالم المدنية المادية ، في بلاد الفرس ومستعمراتها الواسعة ، ثم وقفنا بالقارىء وقفة أعتبار وتأمل ، وقلنا في ذلك ما شاء الله أن نقول على مقتضى أسلوبنا في هذه المباحث ، ونريد اليوم العود إلى موضوعنا الأصلي ، لاستيفاء درس ذلك التأثير من جميع وجوهه العلمية والفلسفية فنقول :

وجد اليونانيون بإزاء تلك الكنوز الثمينة من اللجين والعقيان ، والجواهر والذهبان ، والأبنية التي كانت تناغي الكواكب ، وتسامي الدراري الثواقب ، كنوزاً أدبية أثمن قيمة ، وأغلا ثمناً ، وأصلح لإقامة الحياة الإنسانية ، وأليق بعواطف الفطرة البشرية ، وهي نتائج أفكار تلك الأمم القديمة ، التي كان يتكوّن منها ذلك المُلْك الفارسي الضخم ، من الكلدانيين والبابليين ، وغيرهم من الشعوب العريقة في القدم ، ممن كانت مدنياتهم بين جدولي الدجلة والفرات ، تبهر الأنظار ، وتحير المدارك ، وتدلنا نحن ، ونحن أبناء القرن العشرين ، على مقدار ما كان يبذله قادة أفكار تلك الأمم ، من المجهودات الفكرية ، والمحاولات النظرية ، مما يليق أن نعجب به ونتعجب منه .

وجد اليونانيون في بلاد البابليين من ذخائر العلوم الفلكية ، جواهر لا توازيها الجواهر ، وكنوزاً دونها الذهب الباهر ، كأسباب الخسوف والكسوف ، وطرق معرفة أوقات حصولها بالضبط ، وعثروا على جداول تبين مواقع النجوم من السماء ، ومواضعها من الأجواء ، مع بيان ثبات ثابتها ، وحركة متحركها ، ومنازلها بالنسبة إلى أخواتها ، مع معرفة مقادير الأبعاد الشاسعة التي تفصل بعضها عن بعض ، ووقفوا على غير هذا من الآلات الفلكية ، والمعدات الرصدية ، والعدسات المكبرة ، والمعادلات الرياضية النافعة ، مما لا يكفي في العثور عليه القرون المتطاولة ، والأحقاب المترامية .

رأى اليونان كل هذا ، ولا تسل عما أحدثه على عقولهم ونفوسهم ، وهم قوم لم يكونوا لذلك الحين اعتادوا من أعمال المواهب الأدبية غير التأملات المطبوعة بطابع الأساطير الوهمية ، المقيسة على خرافاتهم الاعتقادية .

كان هذا تأثير ذلك الفتح العظيم على اليونانيين من جهة العلوم النظرية والتجريبية ، أما أثره عليهم من جهة الفلسفة والحكمة فمما لا يستهان به .

عاش اليونانيون تلك القرون كلها ، وهم بين يدي كهان الهياكل ، وسدنة المعابد ، أفكارهم أسرى تعاليمهم ، وعقولهم وقف على تصديقهم ، كأن رؤساءهم أرواحهم التي بها يتحركون ، ومشاعرهم التي بها يشعرون ويتأثرون ، كما هو شأن كل الأمم الطفلة بين يدي قادتها المتغلبين ، وسادتها الروحيين ، ولم يكونوا لذلك العهد قد وقفوا من أسرار الحكمة التي نزل بها الوحي على بعض الأمم ، أو من الأساطير المؤنقة التي ولدتها وصقلتها قرائح الشعوب الراقية ، على شيء يصلح لأن يحدث حركة في أفكارهم ، أو يستجيش من غيابة ضمائرهم مكنون ملكاتهم ، إلا أنهم لما شارفوا هذه الأمم ، التي ذاقت حلاوة الوحي الحق ، واستضاءت بنور الرسل والنبيين ، واجتازت دور الطفولية الأولى ، وإن كانت عدت على حقائقها بالتحوير والتبديل ، رأوا أنهم حيال بحر من الحكمة زاخر ، وفي وسط باحة من ثمرات الفكر ، ليس لها أول ولا آخر .

رأوا تعاليم ديانـة (ذورو واستر) الفـــارسي الذي ولد ، كما يدعي اليونانيون ، قبل زمن جاهليتهم بخمسة آلاف عام ، ولم يهتدِ العلم التاريخي إلى تحديد زمن وجوده للآن. وأول تعاليم تلك الديانة ، فرض وجود إلهين مستقلين بحكمان الوجود، إله للخير، وله سبعة أعوان عظام ، يتلقون أوامره ويساعدونه في إدارة العالم ، يصرفون القوى الخاضعة لهم إلى الوجهة التي يريدونها ، وإله للشر، وهو متسلط على عالم الظلمة وله أعضاء سبعة كالأول يوازرونه في تصريف شؤون عالمه الظلماني . هذان الإلهان في نزاع مستمر ، وتناظر دائم ، يتجاذبان بينهما هذا الإنسان الضعيف ويود كل منهم أن يخضعه لسلطانه ، فهو إذن لمن غلب منهما . ولكن هذا النزاع ليس بأبدي لا آخـر له ، بل له يوم ينقطع فيه بغلبة إله الخير على خصمه إله الشر ، هناك تنقطع مادة الشرور، ويصل الانسان من نعيم الحياة ولذات الفضائل ، إلى حـالة ليس بعدها غاية لطموح . ثم رآى اليونانيون بجانب هذه الديانة ، العقيدة المجوسية ،التي ترى في النار أعظم مظهر للقوة الخالقة المحيية للكون ، وناهيك بما في هذه الاساطير من صور خيالة ، وأشكال تصورية ، وأحلام شعرية ، ومدارك فلسفية، انتزعت من باحات المعاني الإنسانية ، واصطيدت من شوارد العواطف القلبية ، فكان مثلها مثل الشعر في تلطيف العواطف ، وتليين الشكائم ، والتملق لإحساسات النفس وأميالهـــا ، والتزلف لمراميها وآمالها .

سبح فكر اليونانيين من كل هذه الثمرات الفلسفية ، في بحـــار تتراوح أمواجها ، وتتقـــاذف تياراتها ، فذهبت بأفكارهم مذاهب شتى ، وانتحت بمدركاتهم مناحي بعيدة ، وصارت لعقولهم صقالاً جلت عنها غاشيات الجمود ، وحجب العماية ، فجرت بهم في ساحات التصورات أشواطاً شاسعة نقلتهم من حالة إلى حالات أخـرى ، وقذفت بهم في أطوار عدة ، أعدتهم لأن يكونوا المكان المناسب لتكوّن جرثومة العلم ، التي انتقلت منهم الى العرب ، فأفرعت فيهم.وبهم هذه الأفـــرع المثمرة ، التي من ثمراتها مدنية اليوم . هذه الأفرع

الوارفة الظلال ، السابغة الأفياء ، وإن زاحم فيها الشوك ثمراتها اليانعة ، حتى أصبح الجاني لا يصيب ثمرة حتى تصيبه شوكـــة ، فليس ذلك إلا من غلطات القائمين بحفظ غياضها ، وهو ما سنجعله إن شاء الله ، من بعض مباحثنا لتتجلى دوحة العلم طاهرة مما يشينها ويعيبها .

وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه :

توفي الاسكندر بعد أداء هــذه الفتوحات الباهرة في سنة (٣٢٣) قبل الميلاد ، ولم يجاوز سنه إذ ذاك الثلاث والثلاثين سنة ، فأعقبت موتــه فتن قامت لها دولته وقعدت أكثر من عشرين سنة ، ثم انتهت بتجزؤ ملكه إلى ثلاثة أقسام : (١) مقدونيا ، (٢) آسيا الصغرى ، (٣) مصر . أما المملكتان الأوليان ، فليس لنا عليها كلام ، لعدم تعلقها بموضوعنا ، وأما الثالثة ، وهي مصر ، فهي مرمى غرضنـــا في هذه العجالة ، لمساسها بمـــا نحن فيه من كل وجهة .

وقعت مصر في هذه القسمة ، نصيباً لبطليموس أخي الاسكندر من أبيه ، وهو وإن لم يكن في مقام الاسكندر ، من حيث قيـــادة الجيوش ، وفض المعاقل والحصون ، إلا أنه مؤسس دولة العلم ، وغارس علمه ، وهو أمر جعل اسمه مقروناً بالإعجاب والإكبار ، في تاريخ الحكمة والعرفان .

اتخــذ هذا الملك الكبير مقر ملكه مدينة الاسكندرية ، التي بناها أخوه الإسكندر . وكان قد علم ، من حسن موقعها ، أنها ستكون نقطة الاتصال بين الغرب والشرق ، وحشر إليها أمة كبيرة من اليهود رجاء تعميرها ، فلما اتخذها بطليموس هذا الملقب (سوتير) ، مقر ملكه وعش دولته ، بعث إليها مائة ألف من الإسرائيليين ، وأظلهم هم وأهلها الأصليين بأجنحة النظامات والقوانين العادلة ، والمساواة النادرة المثال ، وسهل لهم سبل المعاش والرغد .

فلم يمض عليهم طائفة من الزمن، حتى تهاطل اليونانيون إليها من كل حدب، طمعاً في الحياة تحت ظل هذه الحكومة العادلة ، في خفض من العيش ، وأمان من الظلم ، وبهذا أصبحت الاسكندرية وأهلها من ثلاث طوائف مختلفة : المصريون الأصليون ، واليهود المستعمرون ، واليونانيون المهاجرون ، والكل عائشون في سلام ووئام ، لا يفكرون في غير حفظ النظام ، فلم تمر على تلك المدينة غير سنوات قليلة ، حتى حلاها صناع اليونانيين ومهندسيهم بما لا يقبل الوصف من المعاهد والبنيان ، والبساتين والجنان ، والآثار الحسان ، مما جعلها زهرة البلدان ، ودرة ثغور اليونان . ولكن كل هذا ، ليس بشيء يذكر في تاريخ بطليموس أخي الاسكندر ، إذا قسته بأثره الخالد الذكر ، ألا وهو شروعه في تأسيس (دار الآثار) ، التي منها انبعثت أشعة العلوم والعرفان ، وتدفقت جداول الحكمة والبيان ، وفيها حفظت ذخائر الأولين من الدثور والزوال ، فكانت منبتاً لشجرة العلم الوارفة الظلال ، التي من ثمراتها ما نحن فيه اليوم من وسائل الصناعة ، وأساليب سهولة المعاش .

*

دار آثار الاسكندرية وكليتها العلمية

وضع مشروع هذه الدار الخالدة الذكرى ، وأقام جدرانها (بطليموس سوتير) في أجود بقاع الاسكندرية هواء ، وأحسنها منظراً ورواء . وأتم بناءها ابنه (بطليموس فيلادلف) السالك على قدم أبيه ، ولا عجب بعد هذا ، في دار يتولى أمرها ملكان ، ويبذلا دونها خزائن العقيان ، ويقفا عليها قرائح المهندسين العظام ، والصناع الكبار ، أن تجيء من الرواء على أحسن

الأشكال ، ومن الفخامة على أكمل حال ، فلا تسل عما أودعته فيها يد الصناعة من الانصاب والتماثيل ، وما وشته بها أنامل الفنون الجميلة من النقوش والتلوين ، وما أودعته بها أدوات الإبداع من التنسيق والتنظيم ، ومـــا نشرته عليها راحات الغنى ، من رواء الفخامة المهيب ، ورونق الظرف العجيب الغريب ؛ دع كل هذا جانباً ، فإن ما حشر إليها من نفائس الكتب ، وذخائر مجهودات العقول ، وجواهر القرائح والأفكار ، لمـــا يدهش الواقف عليه ، والمطالع لأخباره ، وناهيك بما يستدعيه جمع سبعمائة ألف مجـــلد منسوخ من نوادر المؤلفات ، وشوارد المباحث ، في وقت لم تكن للطباعة فيه أثر ولا خبر ، ولا من المصاريف الباهظة ، والكلف البالغة حد الكثرة . إلا أنه لو عرف الغرض من هـــذا التبذير والاسراف ، لقيل التبذير في أشرف الأغراض قصد واعتدال .

كان الغرض من إقامــة معالم هذه الدار ، ثلاث أمور مهمة : (أولاها) صيانة ثمرات العقول والافكار الإنسانية من أن تغتالها يد الضياع ، أو تلعب بها أنامل التبديل والمسخ . و(ثانيها) إنماء تلك الثمرات ، واستثمار جراثيمها على مقتضى ناموس الترقي . و(ثالثها) نشرها بين العالم ، وإشرابها للعقول لتحسين حال الحياة الإنسانية .

أما ما يختص بالأمر الأول ، فقد وكل إلى من كان يديرها من قادة الأفكار ، وملوك العقول ، شراء كل ما يقع تحت أيديهم من الكتب مهما بلغ ثمنهـــا ، وإيداعها في محلها من المكتبة ، ولا تسل عما كان يتبع ذلك من عدد النساخين والمصححين والمرتبين الخ ... ممـا لا قبل للقلم بوصفه ، كالمجهودات التي كانت تبذل للحصول على المؤلفات النادرة من العواصم المتنائيــة ، والبلدان البعيدة .

أما ما يختص بالأمر الثاني ، أي بإنماء تلك العلوم واستثمارها ، فقد وكلت إلى رجالها من أئمــة الأفكار ، وسلاطين المدارك ، الذين أسكنهم الملك تلك

الدار ، وأحلهم بها ... ع جوار ، لهم فيها ما يلزمهم من حجرات ومطاعم ، وأجرى عليهم الأجور والمرتبات ، وكان كثيراً مـا يجيء الملك إليهم ويشاركهم في غذائهم ، إكباراً لشأنهم ، وتفخيماً لأمرهم .

.. العلوم كلها في هذه الجامعة ، فكانت تنقسم إلى أربعـــة أقسام : (١) العلوم الأدبية ، (٢) العلوم الرياضية ، (٣) العلوم الفلكية ، (٤) العلوم الطبية . وكانت الفروع العلمية الباقية تابعة لهذه الأصول الاربعة .

كان ... حديقة كبرى ... بها كل ما أمكن الاهتداء إليه من النباتات التي يقبلها الجو المصري ، لتسهيل دراسة علم النباتات ، كما أنه كان بها محل خاص بالحيوانات ، حشر إليه كل ما وصلت إليه يد الثروة من أنواعها ، لتكميل درس التاريخ الطبيعي ، وزيادة عمـا مضى ، فقد أودع هذا الصرح العلمي الفخم ، كل ما كان معروفاً من آلات الأرصاد ، وعـــدد الكيمياء ، ومعدات سائر الفنون المعروفة ، مما يستحيل وجوده مجتمعاً في مكان واحد .

أما فيما يتعلق بالأمر الثالث : أي نشر أنوار المعلومات الإنسانية في سائر طبقات العالم ، فقد ساروا فيه بإعداد محـــلات للمطالعة ، وسماع الخطب ، يحضره من شاء من كل صنف وجنس ، وزيادة عن ذلك ، فقد كان فيها من طلبة العلم ، ما يزيد عن الأربعة عشر ألفاً من أقاصي الأرض وأدانيها .

دستور العلوم الطبيعية في كلية الاسكندرية :

بالنسبة لما كان بين الاسكندر وأ... بطليموس ، وبين الفيلسوف الشهير أرسطو من المحبة الأكيدة ، ونظراً لما كان يحفظه هذان الملكان في قلبيهما لهذا الرجل الكبير ، من الشعور بحقوق التربية والتعليم ، سادت تعاليمه وأفكاره في زمانيهما ، وكان لها السهم العالي من الإجلال والإعزاز ، حتى أنه لما تم بناء مدرسة الاسكندرية ، جعل دستور التعليم فيهـــا مطابقاً لدستور أرسطو ، وأسلوب البحث تابع لأسلوبه .

أما دستور أرسطو هذا ، في مباحثه لاستكناه المجهولات ، واستطلاع خفايا المساتير الكونية ، فقد كان النظر في الحوادث الجزئية ، ثم التدرج منها إلى الأمور الكلية على معراج الاستدلال والاستقراء ، ومن كان هذا أسلوبه في مباحثه احتاج الى مشاهدات كثيرة ، وأعوزه الـدأب والسهر وراء اصطياد نوادرها وتقييد شواردها ، وإعمال قواه في الفحص والتدقيق ، والمقارنة والتوفيق ، وبذل الوسع في التأمل ، ليستطيع تبين علائقها ، وإدراك نسبها بعضها إلى بعض ، واستشراق قانونها السائد عليها . ورد ما شذ عنه إلى القانون الملائم له ، ولا يخفى ما في هذا من المشقة ، لأنه يرتكن على صفاء التعقل ، وجودة التفكير ، لا على قوة الخيال وحسن التصوير . وما يعد على أرسطو من الأغلاط الكبيرة ، فلا يدل على فساد مبدئه ، بل هو يؤيده ويقويه ، لأن منشأها قلة المشاهدات التي ارتكز عليها في الحكم ليس إلا .

هذا الدستور ، الذي وضع أرسطو دعائمه ، هو بعينه دستور العلم الحالي ، وبسببه نشأت هـذه المدينة الصناعية الساحرة ، التي أصبحت فتنة الأعين والقلوب ، وكادت تنسي الإنسان جمال العالم المعنوي الذي خلق للبحث عنه واستشراقه « والله غالب على أمره » .

دستور العلوم الادبية في كلية الاسكندرية :

بينما كانت العلوم المادية تابعـة أسلوب فيلسوف (أثينـا) في كلية الاسكندرية ، كانت العلوم الأدبية سائرة على مقتضى فلسفة (زينون) ، التي كان لها المقام الأول مـدى قرون كثيرة ، في تعزية الانسان على مصائبه ، وتشجيعه على خوض غمرات الحياة ، واقتحام حزونها ، مطمئن الجأش ثابت العزيمة .

أول غـرض وجه (زينون) إليه سائر قواه ، ووضعه نصب عينه ، هو إيجاد قاعدة قديمة حكيمة ، إذا سار عليها الإنسان ، وأدمن عليهـا ، أدته إلى كمال الفضيلة ، وأجلسته على كرسي السعادة والطمأنينة . الأساس الذي بنى عليه

هذا الفيلسوف فلسفته في تكميل الانسان ، هو التربية ، فقد سمع يقول : « إذا كنا نعرف الخير ، لملنا إليه ميلاً فطرياً ، وعملنا به لا محالة . فيلزمنا أن نركن إلى مشاعرنا في تهيئة العلوم الأولية لنا، وهدايتنا إلى مبادىء المعارف الضرورية، وأن نعتمد بعد ذلك على عقلنا ، ليكون لنا من مجموعها ، ما يحسن بنا السير عليه في إقامة أمر الحياة وتحسينها . فإن الحسد ، والميل للشهوات ، والشره ، أدواء لم تنشأ فينا إلا من نقص معارفنا . أما أجسامنا ، فإنها وإن كانت خُلقت على نظام ومزاج لا دخل لنا في كسبه ، إلا أننا يجب علينا ، مع ذلك ، أن نتعلم كيف نحكم على شهواتنا ، وكيف نعيش أحراراً عقلاء فضلاء ، خاضعين لأحكام العقل في كل حركاتنا وسكناتنا . أما حياتنا ، فيجب أن يسود فيها سلطان الفكر على سلطان الجسم . وبناء عليه، فيلزمنا أن لا نحفل باللذات، ولا بالأوجاع البدنية ، ويجدر بنا أن نروض أنفسنا على استصغارها ، وعدم الخشية منها ، مهما تفاقمت وعظمت ، وإن كان في أعقابها الموت نفسه ؟ ويجب علينا أن لا نغفل هذه الحقيقة ، وهي أن الطبيعة مسوقة إلى الكمال العام ، وأنها تضحي الجزئيات في سبيل الكليات ، فليس أمامنا ، والحالة هذه ، إلا الرضوخ لهذا القضاء والرضاء به ، فلنجعل كل همنا موجهاً إلى زيادة معارفنا ، وتقوية عاطفة الاعتدال والحكمة في نفوسنا ، فإن المعارف هي العناصر الأولية للفضيلة اللازمة لنا ، التي هي رأس مالنا في هذا العالم .

«إنا لنرى أن كل ما حولنا من العالم ، ينتابه التغير والتحول ، وإن الموت يعقب الحياة ، وإن الحياة تعقب الموت ، فمن الجهل إذن أن لا نريد الموت في عالم كل ما فيه صائر إلى الزوال والتلاشي . وكما أن التيار الجاري ، يحفظ شكله وقوامه دائماً ، مهما تبدلت مياهه وتجددت ، فكذلك الطبيعة ، يمكن تشبيهها بتيار دائم الجريان تتبدل كائناته وتتغير ، وهو حافظ صورته إلى الأبد . (كذا) . وإنك ، إذا نظرت للوجود في مجموعه ، وجدته لا يتغير ، ولكن الخالد منه في الحقيقة هو الفضاء ، والجوهر الفرد ، والقوة ، أما صور الكائنات فهي أشكال وقتية معرضة للزوال والتلاشي .

« يلزمنا أن نعلم ، أن أكثر الناس على فساد عظيم من حيث التربية ، وبناء عليه ، فيجب علينا أن لا ننعي عليهم ما هم فيه من العقائد والتعاليم الراهنة . أما نحن ، فيكفينا من العقيدة ، أن نعترف بأنه ، وإن كان يوجد في الكون قوة أسمى من أن يحددها التصور ، إلا أنه لا يوجد فيه ذات مشخصة ، أي أنه يوجد في العالم أصل محجوب عن نواظرنا ، ولكن ليس هو إلهاً مكيفاً ذا شخصية يوصف بصورة وإحساسات وأهواء ، كما للإنسان من ذلك . ذلك مستحيل ، بل كفر صراح . من هنا ، فلا وجه لتصديق ما يسميه الناس وحياً (كذا) . أما ما يدعوه الناس (صدفة) فليس إلا نتيجة لسبب مجهول ، فإن للصدفة نفسها قانوناً ». ثم ذكر كلاماً دل على جحوده بالعناية الإلهية ، وعلى أن الكون سائر على مقتضى نواميس طبيعية . ثم عزي إليه بعد ذلك قوله : « إن التغيرات التي تنتاب الكائنات ، تحصل بطريقة لازمة ضرورية ، حتى أنه يمكن أن يقال ، أن العالم في ترقيه وتدرجه ، مثله كمثل الجرثومة التي لا تستطيع أن تنمو إلا على صفة محدودة .

« أما الروح فهي شعاع من الشمس الحيوية التي هي الأصل العام لجميع الكائنات ، وهي تنتقل كالحرارة من فرد إلى فرد ، وتنتهي بأن ترجع ثانياً إلى محتدها العام التي جاءت منه . وبناء عليه ، فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال ، بل الاجتماع والانضمام . وكما أن الرجل إذا أعياه الكد بالنهار يلجأ إلى النوم والسبات، فكذلك الفيلسوف متى تعب من مجهودات الحياة وتكاليفها، يتمنى الموت والراحة . على أنه ، ليس لدينا إلا معلومات تافهة على هذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه . ومن الأمور المضادة للفلسفة الحقة ، أن يدأب الإنسان للبحث عن أصول الأسباب ، فالواجب القنوع بدرس الحوادث في ذاتها . ومما يجب علينا وضعه نصب أعيننا ، هو أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المطلقة ، مهما حاولها وتطلع إليها . وأن الثمرة النهائية لمجهودات الانسان وراء اكتناه أسرار المادة ، هي تأكده

بأنه لا يصلح للإلمام بكل شيء . وأننا على فرض وصولنا إلى حقيقة من الحقائق ، فلا نزال نشعر بالحاجة الى دليل على أنها حقيقة . إذن فماذا بقي علينا بعد هـذا من الواجبات ؟بقي علينا العلم بالكون على الطريقة التي يهيئها لنا البحث العميق ، والفضيلة والصداقة ، وحب الحقيقة ، وصدق النية ، وقبول تكاليف حياتنـا بالصبر والثبات ، والمعيشة على صفة تلائم قوانين العقل ونواميس الحكمة . »

هذا ملخص فلسفة (ذينون) . عـلى أن تلك الجامعة لم تكن قاصرة على فلسفة أرسطو وذينون ، بل كانت تتناول من سائر المذاهب حصصاً مناسبة ، بحيث أنها كانت ملتقى لأشعة أفكار سائر الأعلياء من النوع الإنساني .

* * *

نظرة على ما سبق

نحن بإيرادنا تاريخ العلم من أول نشأته ، وتنقيبنا عن أصول المذاهب الفلسفية والوصول إلى جراثيمها الأصلية ، لا نقصد بسط مجرد تاريخها .. بل نقصد بذلك أن نواتي مقتضيات نظريتنا التي بسطناها في كتاب (خاتم النبيين) صلى الله عليه وسلم ، وهي أن الإلحاد حال من الأحوال الإنسانية ، تقتضيها الفواعل الاجتماعية والأدبية والدينية ، التي تحتوش الأمة ، حتى إن تلك العلوم ، التي يقصد بها الإلحـاد والجحود (تأمل) هي نتيجة الحال لا سببها المولد لها .

قلنا ذلك ، ووعدنا ببذل الوسع في السلوك في هـذا الموضوع ، المسالك التي تلائمه وتوافقه ، من اختراق غلف الظواهر والنفوذ إلى سرائر المسائل وضمائرها ، لنحصر ان شاء الله تلك الحال الإلحادية التي لا توافق مطالب الروح الإنسانية في دائرتها الضيقة ليمكن علاجها فيها واستئصال شأفتها . ذلك أولى من أن نتابع

الخطة المعروفة في محاولة حل مسألة الإلحاد بالحجج والبراهين التي لا نصيب لها من التأثير على الأفعال الإنسانية إلا ما نراه من التناقض بين العمل والعقيدة .

وقد رأينا أنا لا نستطيع أن نوفي حق أسلوبنا هذا ، إلا بدرس الأحوال الإنسانية المختلفة من لدن تكوّنها ، ومشارفة العلوم والمعارف من أول نشأتها . وقد وفينا بعض ذلك بدرس أحوال اليونانيين ، وهي الأمة التي نشأ فيها العلم ، ثم طفنا بها في فتوحاتها حتى وصلنا إلى تأسيسها لجامعة الإسكندرية ، التي جمعت فيها جراثيم المعارف المنثورة في الآفاق . ومن هنا ، نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية في مدى القرون والأجيال ، مع درس الأحوال الإنسانية التي اقتضته . مجلين في كل دور من هذه الأدوار ، مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير إلى عصرنا الحالي ، إن شاء الله ، فنقف بالقارىء موقفاً يطلع منه على حال الإنسانية في علومها ، وصنائعها ، وفلسفاتها ، ومكانة الدين لديها ، وعلى السبيل التي تسيره بمجموعها ، وعلى آثار مدنيتها في تعديل أو تعويج أمورها .

أما كتاب خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم ، فسيكون من وظيفته في كل دور من هذه الأدوار ، تتبع كل بحث من هذه الأبحاث ، بما يحله ويجليه من كتاب الله تعالى ، ليتجلى للقارىء بأوضح بيان قوله تعالى : « ما فرطنا في في الكتاب من شيء » ، « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » . وليسطع أمام عينيه البرهان المحسوس ، على أن لا حياة للعالم ولا قوام له ، على الحال التي تليق بالإنسان الراقي ، ولا عدالة تسود على جميع أفراده فتعمهم بالفيض الإلهي على السواء ، إلا بالاعتقاد برسالة المصلح الأعظم خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم ، واتخاذ القرآن دستوراً للنظام والمدنية في كل الأزمان . ومن الله نستمد العون والقوة .

* * *

الفصل السابع

تاريخ الفلسفة

وصلنا بالقارىء من تاريخ ارتقاء الفكر الإنساني ، وتدرجه في معـــارج الكمال ، إلى ذكر تأسيس مدرسة الاسكندرية الجامعة التي بدأهـــا بطليموس سوتير ، وتمم بناءها ابنـــه ووريثه في الملك (بطليموس فيلادلف) ملك القطر المصري . وقلنا عند ذاك : « ومن هنـــا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجراثيم العلمية في مدى القرون والأجيال ، مع درس الأحـوال الانسانية التي اقتضتها ، مجلين في كل دور من هذه الأدوار ، مكان العـــاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير ، إلى عصرنا الحالي ، إن شاء الله ، فنقف بالقارىء موقفاً يطلع منه على حـــال الإنسانية في علومها ، وصنائعها ، وفلسفاتها ، ومكانة الدين لديها ، وعلى السبيل الذي تسيره بمجموعها ، وعلى آثار مدنيتها في تعديل أو تعويج أمورها . »

قلنا ذلك في الفصل المتقدم ، ونود اليوم أن نسير على الطريق الذي رسمنـاه لأنفسنا ، سيراً يناسب موضوعنا من جميع وجوهه ، بحول الله تعالى وتوفيقه . ولذلك رأينا أن نأتي على مذاهب الفلاسفة اليونانيين ، الذين اتخذت أساليبهم في البحث والنظر ، دساتير محترمة سار على مقتضاها من جاء بعدهم من كبار العقول وأئمة الفلسفة ، ولن نتقيد بمن سارت جامعة الإسكندرية على مذهبه رسميـاً ،

كأرسطو ، وأفلاطون ، وذينون ، ولكن سيتناول كلامنا، إن شاء الله ، غيرهم من فلاسفة اليونانيين السابقين والتالين ، ليتكون للقارىء من ذلك صورة محكمة التركيب ، من شكل الفكر الإنساني في عهد خلافة الأمة اليونانية في الأرض ، أيام كانت (أثينا) عاصمتها مثابة كبار الرجال ، ومحط رحال الأقيال ، من سائر آفاق الأرض ، يطلبون فيها العلم ، ويقابلون العلماء ، ويستشرقون منها شموس المعارف وأنوار المعلومات ، ليكون قارئنا على بيّنة من مبدأ تكون الجرثومة الأولية لدوحة العلم الوارفة الظلال ، وليستطيع أن يتتبع معنا ، سلسلة هذا التاريخ العلمي الحافل من أقرب الطرق وأيسرها ، وبالله التوفيق .

هنا ننبه القارىء ، أننا لن ننقل من مذاهب الفلاسفة اليونانيين إلا عدداً يعد على الأصابع ، ممن لهم أثر ظاهر في حركة الفكر الانساني ، ولأساليبهم في البحث اعتبار إلى يومنا هذا . قبل أن نتكلم على مذهب كل فيلسوف من هؤلاء ، يحسن بنا أن نقدم للقارىء طرفاً من ترجمته .

★

فيثاغورس

(بيتاجور)

ولد فيثاغورس في سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ومات سنة ٤٧٠ ، أي عاش تسعاً وتسعين سنة . ولد بجزيرة (ساموس) من جزائر الأرخبيل اليوناني ، وكان أبوه نقاشاً اسمه (أمنيزارك) وقيل أن موطنه (توسكان) .

تعلم فيثاغورس صناعة أبيه ، وصنع بنفسه ثلاثة كؤوس من الفضة ، وأهداها لثلاثة من قسوس المصريين . معلمه الأول الفيلسوف (فيرسيد) ،

وكان يحب أحدهما الآخر حباً جماً حتى أن أستاذه لما مرض المرض الذي مات فيه ، ونحل جسمه جداً ، خاف أن يكون مصاباً بمرض معدٍ فيعدي تلميذه المخلص فيثاغورس . فلما جاءه ليعوده على حسب عادته ، أغلق دونه الباب رغماً عن حبه الشديد له ، وأخرج إليه أصابعه من شقوق الباب قائلاً : « تأمل نحول أصابعي ، تعلم منه حالتي » . ولما مات أستاذه فيرسيد ، لزم فيثاغورس الفيلسوف (هرمودامنط) بجزيرة ساموس مدة من الزمن . ثم هزه الشوق للسياحة ، وتعرف أخلاق الأمم ، والأخذ عن فلاسفتها وعلمائها . فتوجه إلى مصر بوصية من الملك (بوليكراط) ملك ساموس الى الملك (أمزيس) ملك مصر بشأنه ، فمكث في مصر مدة ، يتردد فيها على كهان المعابد المصرية ، ويلقف منهم أسرار العلوم والمعارف التي يسمحون له بها ، ثم سافر من مصر إلى بلاد الكلدانيين ، ليتعلم علومهم ويقف على مساتيرهم . ثم اتجه من هنالك إلى كثير من البلاد الشرقية ، الشهيرة بالآثار والفنون ، ثم آب من هنالك إلى مملكة (اكريطه) ، ولاذ بالفيلسوف (ايمنيديس) وتودد اليه ؛ ثم رجع من هناك إلى وطنه الأصلي ، جزيرة (ساموس) ، فرأى أن الملك (بوليكراط) قد أحل قومه محلة البوار ، وأوغل فيهم عسفاً وظلماً ، فهاله ذلك الأمر ولم يطق الصبر على تلك الحالة المريعة ، فهاجر إلى إيطاليا ، وسكن (باكروطون) ، وأخذ يعلم الناس الفلسفة والأخلاق . فنشأ من ذلك أن مذهبه سمي (إيطاليا) . فانتشر من صيته وذاع ، واشتهر اسمه ، وكثرت تلامذته وطلابه ، حتى صار من يلازمه منهم أكثر من ثلاثمائه ، كوّن بهم جمهورية صغيرة مرتبة ترتيباً جميلاً. وذهب بعض المؤلفين إلى أن (نوما) الذي تولى امبراطوراً على الرومان ، كان أحد أولئك التلامذة ، والحقيقة هي أن نوما كان سابقاً فيثاغورس بعدة قرون ، ولم ينشأ هذا الغلط إلا من وجود تشابه كبير بين آراء نوما وفيثاغورس ، فظن بعض الناس أن ذلك جاء من كونه تلميذه وليس الأمر لذلك .

كان فيثاغورس يقول أن أشياء المتحابين يجب أن تكون شيوعاً بينهم ،

بحيث يكونون كلهم سواء في الانتفاع والمتاع بها . لذلك كان تلاميذه متبعين هذه القاعدة تمام الاتباع ، ولم يكن لأحدهم ملك خاص ، ولا مال ذاتي ، بل كان كل ما يملكونه عاماً بينهم على حد سواء . وكان من القوانين التي وضعها للأخذ عنه، أن الطالب الجديد يكلف بأن يصبر خمس سنوات متوالية في تلقي كل ما يلقى اليه ، بدون أن ينطق ببنت شفة طول تلك المدة ، حتى إذا وفى هذا الامتحان على ما يرام ويلتظر ، أدخل إلى فيثاغورس نفسه ليزوره ويحاوره في العلوم والمعارف .

أوصاف فيثاغورس الشخصية : كان معتدل القامة ، وسيم الطلعة ، تلوح عليه المهابة والوقار ، وكان من عادته أن يلبس ثوباً رقيقاً من الصوف الأبيض البالغ الحد في النظافة . وكان عفيف النفس حاكماً عليها ، لا يميل لأهوائها وخطوطها . يحافظ على السر إذا استودعه ، ويبالغ في كتمه . ويؤثر عنه أن لم يُرَ ضاحكاً قط ، ولم يسمع أحد منه مزاحاً ولا هزلاً قط . وكان إذا غضب لا ينتقم ممن أغضبه ، حتى أنه كان متى أثم بعض عبيده ، ووقع منه ما يستحق التأديب ، يكبر عليه أن يضربه بيده . لهذا كان تلامذته تعتقد ألوهتيه . ولا عجب ، فقد غلا القدماء في تأليه كل رجل يرون فيه فضل عقل وحكمة ، حتى أنه قد لا تخلو أمة من مثل هذه الكبوة المردية . وكان الناس يقصدونه من آفاق الأرض ، لسماع كلامه والحظوة بالتقرب إليه . حتى قيل أنه كان يأتي إلى (كروتون) في كل عام ، نحو من ستمائة من الناس لهذا القصد ليس غير . ولقد شاع ذكر فيثاغورس في البلاد بالعقل والحكمة ، حتى أن كثيراً من الأمم طلبت منه أن يسن لها قوانين تصلح به أمر حكومتها ، وتبني به هيئة اجتماعها ؟ ومما أثر عنه من صفاته ، أنه كان يحرم الحلف بالآلهة والاستشهاد بها في جميع الأحوال تحريماً . وكان يقول يجب على كل إنسان أن يؤدب نفسه ، ويروضها على الكمالات ، حتى تتصف بها ، لكيلا يكون في حاجة إلى الحلف لأجل أن يصدقه الناس .

حياته السياسية ومذهبه : — قلنا إن فيثاغورس نزل من إيطاليا بمدينة (كروتون) ، واتخذ بيت (ميلون) مدرسة له ، وحشر اليها مع النفر الذين كانوا معه من اليونانيين ، شرذمة من أهل تلك البلدة ممن التفوا حوله ولازموه ، رجاء الوصول إلى لباب الحكمة على يديه .

في عصر هذا الفيلسوف ، كان جنوب إيطاليا وهي القطعة التي اختارها دار هجرة له ، شاملة لجملة حكومات (أريستوكراسية) ، أي إن الحكومة فيها بيد الأعيان والأشراف. ولكن فيثاغورس كان فكره متشبعاً منذ صغره ، بأفكار الشعوب الشرقية المتبعة في الحكم المبدأ (التيو كرامي) ، وهو المبدأ الذي يستبد بالحكومة فيه نفر قليلون استبداداً كلياً ، بدون حق للشعب في الملاحظة عليهم بهذا السبب ، نشر فيثاغورس هذا المبدأ بين تلك الشعوب ، فاتبع نصائحه كثير منها ، وأكسب المبدأ الأريستوكراسي صبغة (تيوكراسية) جديدة ، تميزت به عن بقية تلك الحكومات ، وكان قصده من كل ذلك حصر السلطة والحكم في يد طائفة منتخبة من صفوة الأمـــة ، وقصر أسرار العلوم والمعارف عليها دون العامة ، لتعتبرهم الأمم ملوكاً معصومين من الخطأ ، كما عليه الحال في بعض الفرق الدينية بالنسبة لرؤساء دينها . هـذا المبدأ بعينه ، كان أنشودة سائر فلاسفة اليونان ، فلقد كانوا لا يودون إعطاء السلطة لرجل واحد ، ولا لأمة بأجمعها ، ولكن للفلاسفة منها . هذه كانت أمنيتهم ، وكثيراً ما سعوا في تحقيقها ، ولكن لم يتح لواحد منهم مـــا أتيح لفيثاغورس من النجاح في تقريرها .

نجاح فيثاغورس في مشروعه الاجتماعي هذا أكسبه شهرة فائقة ؛ فانتخب رئيساً للحزب (الأريستوكراسي) في مدينة كروتون . واتفق في ذلك الحين أن الحزب (الديموكراسي) أي الجمهوري، تغلب على الحزب (الاريستوكراسي) في مدينة (سيباريس) ، ففر أنصاره إلى (كروتون) واستجاروا بإخوانهم في المذهب ، فأرسل الفيلسوف وفداً إلى أهل تلك المدينة يدعوهم إلى مذهبه ،

غضبوا وقتلوا الوفد ، فلم يسع الفيلسوف غير شن الحرب عليهم . ثم جهز إليهم جيشاً من ساعته ، وهو وإن كان أقل عدداً من جيش الأعـــداء ، إلا أنهم صبروا صبر الأبطال وهزموا عدوهم شر هزيمـــة ، واستولوا على المدينة ، فخربوها إلا قليلاً ، واستعبدوا أهلها ، وقسموا ما فيها على المقاتلة ، فخص فيثاغورس حدائق زاهرة ، فابتنى فيها مدرسة جامعة على الشكل الذي رآه في مصر وبلاد الكلدانيين، واشتهرت هذه المدرسة باسم مجمع فيثاغورس العلمي . ووكل إلى تلامذته أن يجعلوها منبعاً لنشر مذهبه وتخريج خلاصة الناس عليه ، ليتكوّن منهم طائفة صالحة لأن تحكم الأمم والشعوب .

وقد نقل عنه كثير من الرواة أشياء خرافية ، ولكن ثبت الآن أنهـــا موضوعة عليه وأن كثيراً منها لم يعرف إلا بعده بزمن طويل . والذي أجمع الرواة عليه ، أنـــه كان يصدر منه كثير من الخوارق للطبيعة أمام تلامذته ومريديه . أما مذهبه ، فقد حفظ عنه ودونه تلامذته بالدقة فيما يقال ، وهو أنه كان يعتقد بالتناسخ ، وإن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل ، وبخلاف ذلك ، لو كانت شقية فإنهـــا تتقمص جسم حيوان قذر . وكان يقول أنه يتذكر الحالات التي كان فيها هو نفسه في أجساد مختلفة .

هذه العقيدة قديمة جداً ، ومبدؤها فيما يرجح الهند . وممـــا يحسن ترجيحه جداً أن فيثاغورس كان له عقائـــد عالية في الحكمة الإلهية والعناية الربانية والوحدة الذاتية ، وإن كانت تعليماته العامة مخلوطة بأشياء خرافية كثيرة فيما يقال . والذي يمـيز مذهب فيثاغورس عن كثير من المذاهب الأخرى ، هي صبغته العلمية ، فإن تلامذته كلهم كانوا يتعمقون في درس الرياضيات تعمقـــاً كلياً . ولقد كان فيثاغورس رياضياً من الطبقة الأولى، وينسب إليه جملة نظريات هندسية ، وهو أول من قال بحركة الأجرام السماويـــة حول الشمس ، وهو الأمر الذي ثبت بالحس في القرن الخامس عشر بواسطة الفلكي (كوبرنيك) .

ولكن ، رغماً عن كون تعاليم فيثاغورس ومدرسته انتجت للمدنية أعظم الآثار ، وطبعت تاريخ الرقي الإنساني بطابع لا يزول أثره ، لم تبق زمناً بعد تأسيسها . وذلك في العادة شأن كل جمعية تتكون بقصد الاستيلاء والحكم . فإن محض رؤية شكل الترتيب الذي كان مسنوناً لتلك المدرسة ، كان يدعو للارتياب في أمرها . ألا ترى أنه مما يريب الأمم والشعوب ، أن يروا جمعية من الشبان ملتئمين غاية الالتئام فيما بينهم ، ومنفصلين تمام الانفصال عن الهيئة الاجتماعية ، ومشتغلين الليل والنهار بالأشغال العقلية والعلوم الرياضية ، يعدون أنفسهم لمنصات الحكم وأرائك السياسة ؟ نعم ، كان ذاك سبباً لارتياب النفوس واضطرابها على مدرسة فيثاغورس ، حتى ثـار ضدها الناس في ثورة عامة ، بمدينة (كروتون) ، وصاروا يقتلون من وصلت اليـه أيديهم من تلامذة فيثاغورس وفي أي جهة صادفوهم ، ونفوا كثيراً منهم ايضاً إلى البلاد الأخرى ، ولم يعفوا إلا عن فيثاغورس نفسه ، وقد كان وقتها بلغ الثمانين من عمره . فعرض على كثير من المدائن ان تقبله نزيلاً فيها فلم تفعل ، وأخيراً قبلت منه ذلك مدينة (ترانت) ، فرحل إليها وأقام بها حتى توفي . وما بقي من تلامذته لم يناموا عن نشر مذهبه في كل جهة حلوا بها .

هذه الترجمة نقلناها عن علمـاء أوروبا ، والعهدة عليهم في روايتها ، فربما كانت سيرة هؤلاء الرجال أرقى مما قالوه عنهم ، ولكنهم حرفوها ، وتصرفوا فيها ، كما فعلوا في سير أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم .

★

أفلاطون

ولد هذا الفيلسوف الشهير (بأثينا) ، ويقال في جزيرة (أجين) سنة ٤٣٠ قبل الميلاد ، وتوفي سنة ٣٤٧ ، فيكون قد عاش ثلاثاً وثمانين سنة . وكان اسمه (اريستوكليس) ثم لقب بعد ذلك أفلاطون واشتهر به . وهو من عائلة عريقة في النسب . مال أولاً إلى الشعر ، ويقال وللتصوير أيضاً ، ثم لمـــا تعرف إلى الفيلسوف (كراتيل) تلميذ (هيزوكليت) وإلى (سقراط) ، مال بكليته إلى الفلسفة ووقف حياته عليها . فاتخذه سقراط تلميذه الأول لما تفرسه فيه من النجابة والفطنة ، ولكنه لم يعش حتى يرى ما هي غاية استعداد تلك القريحة العالية . لازم أستاذه ثمان سنوات ، ثم حدث بعدها أن فرقــة السوفسطائية اتهمت سقراط بالإلحاد في صفات الآلهة ، فقام بالذب عنه أفلاطون ، حتى صعد على منبر مجلس النواب. وابتدأ يخطب في الدفاع عنه ، حتى إذا كاد يتغلب على الأميال ، ويخلب بسحره عقول الرجال ، أخذ أعـــداء سقراط يلغطون لكيلا يسمع الناس بلاغــة الخطيب ، فيقرروا عدم قتله . فلما لم ينجح في دفاعه ونفذ الحكم على أستاذه ، هجر وطنه غماً وكدراً وذهب إلى ميجار ، وحدثته همته بعدم ادخار شيء من حوله في طلب العـلم ، حتى لا يبقى منه شيء يند عنه . وكانت إذ ذاك المذاهب الفلسفية مشتتة في أصقاع الأرض ، فقصد أولاً إيطاليا ولحق بتلامذة فيثاغورس ، فأشركوه في أسرار مذهبهم ، ثم رجع منها إلى سيرين لدرس هندسة (تيودور) ، ثم يمم مصر ومكث مدة في مدينة (هيليو بوليس) ، ويقال أن كاهناً مصرياً لقنه علم الفلك . ثم رجع إلى أثينا وأسس بها دار العلوم ، فحازت شهرة فائقة ، وكان كثيراً ما يتركها ويسافر طلباً لتعرف أحوال الأمم والشعوب المختلفة.

ذهب مرة إلى جزيرة سيسليا ، فاستجلب سخط ملكها (دونيس) لحريته وجرأة فؤاده ، فأسره وباعه عبداً ، فرآه بعض أصحابه فاشتراه وأعتقه ، فآب إلى وطنه . ثم ذهب إليها ثانياً وسافر مرة أخرى الى (سيراكوز) .

أما فلسفة أفلاطون ، فكانت هي بعينها فلسفة أستاذه سقراط ، إلا أنه بما اكتسب من العلوم الكونية والوجودية ، ألقاها على الناس بصفة جديدة ، وبشكل لم يكن معهوداً قبله ، وأضاف إليها أفكاره الخاصة ، فجاءت أكمل فلسفة وجدت لذلك العهد . وقد ذاع صيته في البلاد ، وانتشرت شهرته في المدائن ، وعرف بسمو العقل وبعد النظر في الشرائع والقوانين ، ولذلك كانت تطلب إليه كثير من الحكومات ، أن يسن لها من القوانين ما يستصلح أمرها وتطرد به عماريتها . وقـد لقب بالالهي ، وكانت فلسفته وأفكاره محترمة معتبرة ، لدرجة أن كل العقلاء كانوا على أفكاره وآرائـه . وكان كأستاذه سقراط لا يميل للمناصب ، ولمـا توفي ترك مجمعـه العلمي لزعامة حفيدة (سبوزيب) .

كل كتابات هذا الفيلسوف وصلت إلينا ولكنه كان يلقي دروسه شفهياً ، وكان يقول :

« كل كتابة على الورق ، يجب أن تكون مذكرة فقط للذي تعلم وانتهى ، لا أن تتخذ واسطة للتعليم ؛ فإنها لا تنطق إن سئلت ، ولا تدافع عن نفسها إن فندت . فكل موضوع مكتوب باليد ، هو بناء على هذا عمل خفيف الوزن ، وتذكار غير كامل ، مخلوط بكثير من الغلواء . فليس للأفكار إذن من ثمرة جنية نافعة ، إلا خطابة مرتجلة موضوعها العدل والجمال ، وتكون منقوشة في صميم الفؤاد » .

ولقد كانت تروقه الخطابة ، لدرجة أن مؤلفاته شبيهة بالخطب ، وكل كتاباته ما عدا رسائله ، عبارة عن محاورات فيها سقراط أحد من محاوريه . وكثيراً ما تكون الأفكار فيها أفكاره الذاتية ، ولكنه كان يضعها في المحاورة في فم أستاذه ويجعله هو البادىء بها .

لم يدون مذهب أفلاطون بصفة مضبوطة وخالصة من الخبط واللوث ، لأن المشهور عنه أنه كان له مذهبان . مذهب عـــام ظاهر فيما بينه وبين الناس ، ومذهب خـــاص به ، لا يفاتح به إلا نفراً من أهل خاصته ممن يثق بعقلهم وثباتهم .

الفلسفة عنده هي معرفة العموميات والإلمام بالضروريات ، وكان يقسمها إلى جدليات وطبيعيات وأخلاقيات . وكان يقرر ، أن للعقل ثلاث خصائص وهي الإحساسات ، والمدركات ، والأفكار . فالإحسات تقـــابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ، ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها . أما الأفكار فتقابل الأشياء الثابتة والحقائق العامة . وعنده أن أن الأفكار في ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ، ولكنها أصول الأشياء وحقائقها ، بمعنى أنها كل ما في الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول أنها عالم قائم بذاته ، فوق عالم الكون والفساد ، وهي واصلة إلينا من الله مباشرة ، وهي القوالب التي شيأ الله تعالى على قوالبها جميـــع الأشياء . ولما كانت الأفكار على رأي أفلاطون هي الأشكال الحقيقية السرمدية لكل ما هو موجود ، فقد سماها (بالنموذجات) . قـــال : وأنه يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء ، موجود بذاته ، هو المادة العمياء الصماء التي لا شكل لها ولا صورة . فبأثر الله تعـــالى الذي أوقعه عليها ، ازدوجت النموذجات التي هي الأفكار المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل ، على درجـــات مناسبة ، فنشأ منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر روح العالم ، فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها إلى أرواح مختلفة ، تكوّن الآلهة التي يعبدها العامة وتولد الناس ، وهم الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وفي رأيه ، أن الكون المادي مكون من عنصرين متضادين : التراب ، وهـــو أصل لجمود العالم وجعله محسوساً . والنار ، وهي سبب صيرورته مرئياً . هذان العنصران الترابي والناري ، ملتئمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما هما

الهواء والماء . وهما من جهة متشابهان في صفة مشتركة هي السيالية ، ومن جهة أخرى ، كل منهما مشابه للطرفين الآخرين ، فالهواء يشبه النار ، والماء يشبه التراب .

أما روح الانسان في نظر الفيلسوف ، فهي حياة غير قابلة للفناء ، محصورة في سجن فانٍ هو جسد الإنسان . وهي متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الإدراك أي العقل . والقلب أي الشجاعة . والرغبة أي الشهوة . فأما الجزء السامي من النفس التي هي حية بالأفكار والمطالب التي توافقها وتلائمها فمحله الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وما سفل من قوى النفس فموضعه الأمعاء .

وكان يقول أن الفضيلة هي مطابقة عمل الانسان لأصل الخير المحض . والدستور العام للأخلاق هو التخلق بأخلاق الله تعالى . وكما أن الله تعالى ، يحب الافكار التي استخدمها قوالب لتكوين الأشياء بحقائقها ، فيجب على الإنسان أن يغلب حبه للأفكار ، أي للخير المطلق على حبه للسفليات واللذات الجسدية ، وأن لا يأتي بحركة إلا في سبيل تحقيق الأفكار الإلهية بقدر ما تسمح به قوته ، أما الجميل في نظر أفلاطون ، فهو رونق الحقيقة وبهاء الافكار التي جعلها نموذجات للأشياء ، وقال عنها أنها عالم قائم بذاته . والجمال المادي في نظره ، ليس هو إلا صورة مرئية آتية من الجمال السرمدي .

هذا موجز من فلسفة أفلاطون ومذهبه ، ومنها يتبين للقارىء مراميه الفكرية على الإنسان والنفس والأخلاق . أما اقتداره في التشريع والتقنين فمما لا يستهان به أيضاً . وكتبه في ذلك كانت في زمانه ، المورد الوحيد العذب لطلاب الشرائع ورواد القوانين ، وبقيت بعده قروناً كثيرة مثابة لعقول المشتغلين بقيادة الأمم وزعامة الشعوب والممالك. وأحسن ما يبل صدى الباحث في تشريع أفلاطون هي كتبه التي بقيت الى اليوم ككتابه المسمى « الجمهورية الفاضلة » ، وكتابه « السياسة » ، وكتابه « القوانين » ، فإنه بسط فيها

أفكاره بسطاً جلياً واضحاً . فكتابه « الجمهورية » عبارة عن محاورة طويلة مقسمة إلى اثني عشر باباً ، جعل أكبر مخاطبيه فيها سقراط . وسواء كانت هذه المرامي التشريعية هي له ، أو لأستاذه ، فإنها تكوّن نظامات جمهورية فاضلة ، اتخذها قادة الإصلاح وطلاب العدالة في الحكومات مرجعاً يرجعون إليه للاستقاء من حياضها في تأييد مطالبهم وتدعيم نظرياتهم . ومما لسنا في حاجة الى التنبيه عليه ، هو أن كل ما في تلك الكتب التشريعية ليس اختراعاً لأفلاطون أو لأستاذه بحيث لم يسبقهما فيه أحد ، فإن المعلوم أن أفلاطون أخذ شيئاً كثيراً عن نظامات ليكورج متشرع (اسبارطا) من ممالك اليونان القديمة ، وأخذ أيضاً عن قوانين السفسطائية القدماء حصصاً مناسبة . وقد نقل تلميذه (أرسطو) نفسه أن (هيبوداموس) هو أول من كتب كتاباً في « الجمهورية الفاضلة » .

كان مذهب أفلاطون في الحكومة ، مثل مذهب سائر الفلاسفة الأقدمين ، وهو أن يكون مبدأها سيادة الأعيان والأشراف ، وهو المبدأ الأريستوكراسي بعينه الذي تكلمنا عنه في تاريخ (فيثاغورس) ، وهم لا يريدون من الأعيان كما قلنا هنالك أيضاً الأغنياء وذوي الجاه والقوة ، بل الفضلاء النبلاء أي الفلاسفة . فأين حولت بصرك في كتب الشرائع الفلسفية القديمة ، وجدت هذا المبدأ واضحاً جلياً فيها بطريقة لا تسلم به الفلسفة الحقة ، فإنهم يفرضون للطبقة الحاكمة ، وهي بالطبع منهم ، كل إكبار وإجلال بما يشبه العبادة ، وبإزاء ذلك ، لا ترى للعامة والمحكومين إلا الازدراء والاحتقار . هذه صفة عامة لجميع كتب الفلاسفة الأقدمين، الذين تكلموا في الشرائع . والجمهورية الفاضلة لأفلاطون غير مستثناة من هذه القاعدة العامة أيضاً ، فقد حكم فيها على طوائف بحذافيرها أو على أنواع برمتها ، بالطاعة الدائمة والجهالة الخالدة . على أن (الجمهورية الفاضلة) لأفلاطون ، على ما بها من خلط بين المدركات العالية والمدركات الضيقة ، وبين النظريات الفلسفية الجليلة والخياليات المحتقرة ، وبين

الحرية المعتدلة والاستبداد الجائر ، كانت رغماً عن هذا كله ، فذلكة موجزة للحكمة القديمة ، وكانت المرجع الأصلي الذي ورده كل الفلاسفة الذين اشتغلوا بأمر الاجتماع الانساني .

في الجمهورية الفاضلة ، يفضل أفلاطون الحكم الملكي أي حكم الفرد بالواحد، على مبدأ حكم الأعيان أي (الأريستوكراطي) ، وعلى المبدأ الجمهوري أي (الديمو كراطي) . قال : لأن الملك الصالح يحكم أمته أحسن من أن يحكمها أي قانون كان ، لأنه صالح لأن يلم بكل التغيرات الطارئة والعلاقات المتجددة ، ويقابلها بما تتطلبه من رأي أو عمل ، بخلاف القانون ، فإنه ثابت لا يتغير وجامد لا يلين . ثم قال : ومع ذلك فالقانون لازم ينطبق على الجماهير ، والملك لا يستطيع أن يعرف كل إنسان بشخصه ، ولكنه مع ذلك يجب أن يكون القانون تابعاً للملك مباشرة دون غيره . ويلي هذه الحكومة في نظر أفلاطون ، الحكومة المتمسكة بالقانون التي لا تحيد عنه في شيء . قال : لأن القوانين لم تتقرر ولم تستتب إلا بعد تجارب طويلة واختبارات عديدة في أحوال شتى . وبناء عليه ، فيجب أن تكون محترمة مرعية ، ولا يجوز عصيانها بوجه من الوجوه . ومن رأي أفلاطون في الصنائع ، أن يحجر عليها في قواعد ثابتة لا تتغير وهذا معناه تقييدها ووضع العقوبات الكؤود أمام رقيها .

قسم أفلاطون الناس في جمهوريته إلى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أي الفلاسفة ، (٢) المحاربون ، (٣) الصناع . أما الأولون ، فهم المخلوقون للحكم الصالحون له دون غيرهم ، وأطلق عليهم الصنف الذهبي . وأما المحاربون ، فهم حراس المملكة وخفراؤها وأطلق عليهم الصنف الفضي . وأما الأخيرون أي الصناع فهم المخلوقون للطاعة العمياء للصنفين المتقدمين ، وأطلق عليهم الصنف الحديدي . أما العبيد ، فقال عنهم أنهم ماشية الأمة ، مثلها فيها كمثل البهائم العاملة . وهذا رأي الأقدمين كلهم في الرقيق ، فإن لهم عليه أحكاماً جائرة لا تنطبق على عقل ولا على عدل ، حتى جاء الإسلام بدستور المساواة والحرية ،

فرفع عن عاتق العبيد آثاراً ثقيلة ، مما ستراه مفصلاً في محله من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الناظر لجمهورية أفلاطون هذه يرى أن حكومتها تشبه الحكومات الشرقية القديمة ، ذات المبدأ (التيوكراطي) ، أي التي يخول فيها حق الحكم لطائفة من رؤساء الدين ، ويفرض على العامة والخاصة إطاعتهم إطاعة عمياء بدون رقابة على أعمالهم ولا هيمنة على إرادتهم. وإنما الفرق بين هذا المبدأ ومبدأ حكومة الجمهورية الافلاطونية ، أنه أبدل فيها الموبذان والبرهمي بالفيلسوف والمشرع . ومن نظامات جمهورية هذا الفيلسوف ، أن المحاربين يجب أن يكونوا دائماً على أهبة تامة ، متحفزين إما لقمع فتنة داخلية ، أوصد غارة خارجية . وهؤلاء المحاربون لا يجوز لهم أن يمتلكوا عقاراً ولا أن يكتنزوا ديناراً ، بل يجب عليهم أن يعيشوا أحراراً من كل التكاليف الشخصية والعائلية ، وعلى بيت المال أن يجري عليهم ما يلزم من غذاء وملبس ومسكن ، وما تقضيه سائر الحاجات المعيشية . أما العلوم التي يجب عليهم تعلمها ، فهي كيفية تمرين أجسامهم على الألاعيب الرياضية ، وفن حفظ الصحة ، والموسيقى ، والأخلاق ، ويلزمهم أن يتربوا ويتمرنوا على الخضوع والطاعة للقواعد العسكرية الصارمة ، ليكونوا بذلك مثال النظام والأحكام أمام الناس أجمعين .

أما بالنسبة للنساء ، فقد فاه عنهم الفيلسوف بكلمات فاق بها في الشعور أهل زمانه بمراحل ، وإن كان مقلداً في ذلك ما علمه من حالة النساء وحريتهن في جمهورية (اسبارطا) اليونانية ، وذلك أنه وهبهن حقوقاً لم تكن لهن من قبل ، واعترف لهن بمزايا كانت لذلك العهد ضائعة لا يسلم بها أحد . فقد قال : « إن هذا الجنس (أي النساء) الذي نحجر عليه ، ولا نسمح له في العادة إلا بالاشتغال بالأشياء التافهة والشؤون المنزلية .. أليس فيه استعداد لأمور أشرف ، ووظائف أرقى ؟ ألم يعطنا أمثلة كثيرة من الشجاعة والعقل والرقي ، في كل ضرب من

ضروب الفضيلة ؟ » . ولكنه لم يغال في السير في تيار هذا الشعور الجميل الذي خالف فيه عموم أهل عصره ، بل رجع فاعترف بأنها أحط من الرجل منزلة ، وأقل منه درجة. ولم يقصر في الإشارة والنصيحة بإعطاء النساء ذات العلوم التي تدرس للرجال كما كان الشأن في مدينة (لا سيديمونيا) اليونانية عاصمة جمهورية (اسبارطا)، وقرر بأن يشاركن الرجال في الألاعيب الرياضية، وفي التمرينات العسكرية أيضاً .

أما المتشرعون ، فيجب أن ينتخبوا من صنف المحاربين ، فيرتقون من الصنف الفضي إلى الصنف الذهبي . والنسل الحاصل من هذا الصنف الفضي يجب أن يؤخذ ويربى تربية خاصة ، تؤهلهم للانخراط في سلك الطبقة الحاكمة ، ولا يجوز أن يربى هذه التربية ويهيأ هذا التهيؤ إلا الأطفال الذين تتوفر فيهم شرطي حسن الخَلق والخُلق ، ويكونون حاصلين على مواهب طبيعية جليلة . وتلك التربية الخاصة هي تخريجهم في كل العلوم والفنون المعروفة ، وإدخالهم في قواعد شاقة وتحميلهم تكاليف صارمة ، ليشبوا متعودين على الخشونة والنظام ، وليصلحوا أن يكونوا بأفعالهم وأقوالهم أمثلة في الفضيلة والزهادة ، حتى إذا صبروا على كل هذه المشاق في التربية ، وخرجوا من كل دور منها لابسين تيجان النجاح ، ألحقوا بذلك الصنف الذهبي الحاكم على غيره ، وسلموا مقاليد الحكومة عفواً بغير تعب .

أما العامة ، وهو الصنف الحديدي ، فلم يشر عنهم الفيلسوف أقل إشارة ، لأنهم في نظره وفي نظر سائر الفلاسفة الأقدمين ، خلقوا للطاعة العمياء للأولين، ووجدوا لأن يحيوا بحياتهم ويتحركوا بحركتهم .

★

أرسطو

الفيلسوف أرسطو أشهر فلاسفة اليونان ، بل فلاسفة العالم كله . وهو أكبر قريحة ظهرت في العـــالم القديم ، ولذلك يلقب بأمير الفلاسفة . ولد بمدينة (ستاجير) من مملكة مقدونيـــا في سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٢ ، وله من العمر ثلاث وستون سنة . كان أبوه طبيباً شهيراً اسمه (نيكوماك) ، عني بتربية ابنه أرسطو وهيأه لدراسة الطب ، ولكنه لم يعش حتى يرى المواهب العظمى التي وهبها الله لابنه ، وتركه ولم ينـــاهز السابعة عشر من عمره ، فكفله صديق لأبيه ، وقام له مقام الوالد ، وهو ما جعل أرسطو يذكر طول حيـاته برّ هذا الرجل به ، ويثني عليه بما هو أهله .

روى ثلاثة من المؤرخين الأقدمين أنه لما مات كفيل أرسطو ، جمع هذا كل « ما آل إليه من ميراث آبائه وأقربائه ، وأطلق لنفسه عنان الهوى في ميادين اللهو ، حتى أتى على آخر ما يمتلكه ، ولم يبق له ما يسد به حاجة الحياة ، فلما ضاقت به حلقات العيش ، ألحق نفسه بخدمة الجندية ، ولبث بها مدة ، ولكنه لما لم يطق مشقاتها وصرامتها تركها وألقى بنفسه بين يدي الفلسفة .

يقول أنصار أرسطو أن هذه الرواية واهية السند ، لا يستطاع إثبـــاتها لانقطاع أسنادها ، ومع ذلك فلو فرض أنهـــا صحيحة ، فلا تؤثر كما يقولون ، على مقام الفيلسوف بشيء ، ولا تنزل من اعتبـاره ، فما بالك وهي من الضعف حيث رأيت .

الذي لا شك فيه من بدايات أرسطو أنه تعاطى ، في أول أمـره ، صناعة الطب طلباً لإقامة أمور المعيشة ، ولقد حفظ لهذه الصناعة أثراً جميلاً في نفسه ، حتى أنه لما اتصل بالاسكندر بصفة مرب له ، نقش في فؤاده حبها وإكبارها ،

فشب الإسكندر على ذلك . وقد ألـف أرسطو في الطب كتاباً نفيساً اسمه الصحة والأمراض .

دعنا من هذا كـله ، فكله قليل الخطر وأكـثره واهي السند ضعيف الرواية ، أما الذي لا شك فيه ولا غبار عليه من ترجمة حياة أرسطو ، هو أنه حضر إلى (أثينا) في العصر الذي كانت تتلألأ فيه علماً وفلسفة ، وتتهـادى مدنية وحضـارة ، وكان علمها الخفاق في العلم في ذلـك الحين ، الفيلسوف (أفلاطون) ، فلم يكد يضع أرسطو قدمه في أثينا ويرى ذلك الينبوع العلمي الفياض ، حتى التحق به ، واكتتب في مدرسة أفلاطون ، ولازم الفيلسوف مجدّاً في الدرس دائباً في البحث والنظر ، حتى لحظ ذلك منه أستاذه ، وتحقق من مكانته في توقد الذهن وبعد النظر وسعة مجـال الفكر ، فقال عنه لبعض خواصه : إنه ليس مثل (أكسينوكرات) محتاجاً إلى مهماز يحثه ، بل إلى لجام يوقفه . فلازم أفلاطون عشرين سنة يتلقى عنه العـلم والفلسفة ، ويسمع منه الحكمة والخطابة ، ثم تركه فجأة ، فكان ذلك مساغاً لأعدائه في الطعن عليه وتنقصه ووصمه بما هو براء منه من ذمائم الصفـات ومشائن الخلال . قائلين : ليس من الإنسانية أن يلازم الرجل أستاذه عشرين سنة ثم يتركه ، غضباً عليه منكراً فضله وجاحداً أتعابه . والذي حققه المحققون أن الأمر بخلاف ذلك ، وأن أرسطو لم يترك معلمه ومربيه على صفة غـير جديرة بمثله من رجال الحكمة والعلم ، ولكن الذي أتاح لأعدائه أن يظنوا هذا الظن السيء ، الخلاف الذريع الذي بين فلسفة أرسطو وفلسفة أستاذه ، وهو خلاف جوهري لا يسمح للمطلع أن يحكم بأن أحدهما تلميذ الآخـر . ذلك لأن فلسفة أرسطو مبناها المشاهدات والمحسوسات ، وأسسها التجـارب والمقارنات . فهو فيلسوف حسي من الطبقة العليا ، لا تفترق فلسفته عن فلسفة الفرق المعاصرة لنا في شيء . أمـا أستاذه أفلاطون ففلسفته على خلاف ذلك ، فإن دعامتهـا التصورات ، وسنادها الأفكار والتأملات ، فهو فيلسوف عقلي من الطراز الأول .

هذا هو الذي حكم به العرفـــاء في هذا الموضوع ، وزد عليه أن أرسطو لم يذكر قط أفلاطون في كتبه ، إلا بما يستحقه من الإعجاب والإجلال ، حتى أنه لما التجأ بحكم وظيفته أن يدحض مذهب أستاذه ، أمـام تلامذته قال لهم : وإنه وإن كان قد قال هذا المذهب قوم نعزهم ونجلهم ، إلا أن الحق أولى بالاتباع وأجدر بالاحترام والدفاع .

لبث أرسطو في أثينا مدة حياة أستاذه أفلاطون ، ولما مات رحل عنها مدفوعاً بما كان يلحق المقدونيين من الأذى والاضطهاد بسبب الحقد على مقدونيا وملكها فيليب أبي الاسكندر ، فلحق (بهرمياس) الظالم الغاشم ملك بـــلاد (اترنا) هرمياس وكان مملوكاً سمت به همته إلى أن ارتقى عرش الملك في بلاد (اترنا) ، ولكنه كان مع همته هذه ظالماً عتياً ، فلما لحق به أرسطو زوجه أخته وأكرمه غاية الإكرام ، فمدحه أرسطو مدائح خلدت له اسمه في التاريخ. وهذا من أكبر ما يتذرع به أعداؤه للحط من كرامته . ولم يزل الملك هرمياس هذا يسوم الناس الخسف ويذيقهم الحيف والعسف ، حتى حـاقت به سيئاته وارتكست عليه نياته ، فقتله الفرس شر قتلة . عند ذاك رحـــل الفيلسوف المقدوني إلى جزيرة (لبسون) ، وبينما هو بها إذ جاءه كتاب من الملك فيليب المقدوني يستدعيه لتربية الاسكندر ، وإعداده لحكم مملكة مقدونيا . فشخص ملبياً طلب الملك إلى مقدونيا، وأقام بها اثنتي عشرة سنة مـلازماً للإسكندر ، يغذوه لبان الحكمة ويرشفه ثدي الآداب والفلسفة ، ثم رجع بعد ذلك إلى أثينا وأسس بها مدرسته الشهيرة بمدرسة المشائين ، لأن من عـادة أرسطو التدريس ماشياً .

حلّ أرسطو بأثينا بعد هذه الغيبة الطويلة عنها ، وقد فـــاض صدره علماً وتجارب ، فأراد أن يشرك العالم أجمع في ثمرات حيـاته ، فأكب على التأليف والتصنيف واخترع علوماً جديدة لم تكن موجودة ، وساعده على هذا الجهد العالي تلميذه الملك إسكندر ، فإنه أمر الألوف المؤلفة من جنوده وضباطه أن

يتلقطوا له أينما حلوا ونزلوا ، أنواع النباتات وصنوف الحيوانات ، ويحملوها إلى الفيلسوف المقدوني بأثينا ، لتساعده وتعينه على دراسة التاريـــخ الطبيعي والتعمق في أسراره ولبابه . هذا فضلاً عما أعده له من المال الجم لشراء الكتب وتأسيس المدرسة ، وما يستدعيه ذلك الشأن من الأمور . ولكن لم يدم تعضيد الإسكندر له ، بل حدث ما يكدر صفو الحب بينهما . وذلك أنه كان لأرسطو ابن عمة اسمه (كاليثينوس) ، رباه واعتنى بتربيته حتى صـــار حكيماً ، فلما انفصل أرسطو عن الإسكندر ورجع إلى أثينا ، استودعه ابن عمته هذا على أن يتبعه في غزواته وغاراته ، وأوصاه عليه كثيراً ، فلم يحفظ (كاليثينوس) هذه المنزلة على ما يروى عنه فإنه كان لا يبالي بالملك ، ولا يقدم له الاحترام الواجب ، فغضب عليه الإسكندر وحدث بعد ذلك أنه قتله لجرم ارتكبه يستحق عليه القتل في نظر الإسكندر . ولكن أرسطو لم يقتنع بصحة ذلك . فكانت النتيجة أن تكدر الفيلسوف من هذا الأمر وقاطع الاسكندر .

حدث بعد ذلك أن هبت ثورة عامة في أثينا ، ونزع أهلهـــا إلى استرداد استقلالهم من المكدونيين ، واستدعى الأمـــر بعد ذلك بحكم الضرورة أن يلحظوا المكدونيين الذين بين أظهرهم شزراً ويوسعوهم اضطهاداً وعسفاً . وبما أن أرسطو مقدوني الأصل وقوة كبرى من قوى مقدونيا ، تذرعوا إلى قتله .. تذرع السوفسطائية لقتل (سقراط) وذلك أنهم اتخذوا مـــدح أرسطو للملك (هرمياس) الظالم واسطة لاتهامه بالإلحاد . فلما رأى أرسطو هذا التألب عليه خاف من أن يصيبه ما أصاب (سقراط) ، فأوى إلى جزيرة (أوبيه) وصدر عليه الحكم بالقتل من محكمة أثينا ، ولم يكن بها . وعلل انسحابه من أثيناوتجنبه لحكم القتل بقوله : « فعلت ذلك لأحول بين الاثينيين وبين العـــود الى إهانة الفلسفة » ، يشير بذلك الى إهانتهم الأولى للفلسفة بقتل سقراط . ولم يعش بعد هذه الهجرة طويلاً ، بل مات في تلك السنة . وقيل أنه انتحر سأماً من الحياة . وروى بعض قسوس النصرانية ، أنه لما يئس من تعليل ظاهرة المد والجزر ألقى بنفسه في اليم ، وليس من مستند لهذه الرواية والله أعلم .

كان أرسطو ضعيف الجسم نحيف الساقين ، ذا صحة مضطربة يشكو من معدته كثيراً ، ولقد كان ضئيل الصحة لحد أن معاصريه كانوا يعجبون من احتمال مثل بدنه لأعباء الحياة وتكاليفها ثلاثاً وستين سنة .

من حكم أرسطو الشهيرة التي تستحق الذكر قوله : « جذور العلم مريرة ولكن ثمراته حلوة » .

« الفرق بين العالم والجاهل ، كالفرق بين الحي والميت » .

« لا شيء يهزم الانسان أسرع من الإحسان » .

« الأمل حلم اليقظان » .

« لنحفظ حب سقراط وأفلاطون ، ولكن لنحب الحقيقة أكثر منهم » .

« رسائل الإخوان زينة في السراء وتعزية في الضراء » .

« لا فضيلة إلا في التوسط » .

مذهب ارسطو

يمكن اختصار مبنى مذهب أرسطو في هذه القاعدة الأساسية وهي : « لا يصل إلى العقل إلا ما يمر أولاً بالحواس الخمس » ، وهي قاعدة كما لا يخفى تجعل الحواس أصلاً للأفكار ومنبعاً للمدركات . ومن هنا ، ترى أن أرسطو ألح في تمييز الواجب عن الممكن ، والمطلق عن المقيد. وبما أن الممكن والمقيد تقابلها الحواس الخمس في الإدراك الإنساني ، فتكون المدركات التي تقابل الواجب والمطلق، تشبه ما كان يسميه أفلاطون (أفكاراً) . وكان أرسطو يريد من ذلك أن يؤسس فلسفة وسطاً بين المذهب الفكري والمذهب الحسي ، ولكن غاب عنا الآن ماهية ذلك التوسط وكيفيته حتى إنها عميت على بعض أتباعه ، فوقعوا في

المذهب الحسي المطلق ، ونحن لأجل إيراد موجز من فلسفة أرسطو ، يحسن بنا أن نوردها من أصدق مصادرها ، صارفين النظر عما نالها من جدل المجادلين وآراء المحصين ، فلسنا بصدد إيراد تاريخ الفلسفة على الطريقة التاريخية ، وإنما غرضنا الإلمام بجوهرها وروحها على الطريقة الفلسفية المحضة .

يفرض مذهب أرسطو أن للعقل الإنساني جزأين متميزين عن بعضهما تمام التمايز ، وهما الأشكال العقلية ، والاصول التي تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الأشكال الأصلية فيه ، يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصي بصبغة الضروري العام ، كإدراكه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ، ولكن هذه الاشكال العقلية التي تصدر منها ، تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الأحساس والتجربة .

إذا تقرر هذا ، يعلم من أول وهلة أن مذهب أرسطو يوافق من بعض الجهات مذهب إفلاطون ويلائم مذهب (ابيقور) من جهات أخرى ، ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما .

أما موافقته لمذهب (أفلاطون) ، فذهابه الى وجود عنصر في العقل الإنساني ، يتميز تمام التميز عن الإحساس ، وأما موافقته لمذهب (أبيقور) فلتسليمه بأنه لولا الإحساس ، لما أمكن الإنسان أن يعلم عن الوجود شيئاً ولا أن يحصل عنه خبراً . أما كونه مع ذلك حافظاً لشخصيته صائناً لاستقلاله ، فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعداً شاسعاً في بقية مستلزمات هذه المبادىء . فإن أفلاطون يذهب إلى أن (الأفكار) التي هي منابع الأحكام المطلقة ، هي حقائق أبدية ، مستقلة عن العقل وخارجة عنه ومشرفة عليه فقط ، ويذهب (أبيقور) إلى أن أحكام العقل ، ليست إلا تعميماً لإحساس الحواس ، أما في مذهب أرسطو فالأمر بخلاف هذا ، فإن الأشكال العقلية في فلسفته وإن لم تستطع أن تنطبق إلا على الحواس فقط ، إلا أنها تضيف إليها عنصراً خارجياً مستفاداً من التجربة ليتم أمر الإدراك والعلم .

من هنا ، يعلم سر تشدد أتباع أفلاطون في الاستقلال عن فلسفتي (أفلاطون) و (أبيقور) ، فإنهم كانوا ينصبون أنفسم منصب الموفقين بينهما ، الموجدين خط الوسط بين تطرفيهما .

وقد اختلف بعض الفلاسفة في تقرير مبادىء أرسطو هذا اختلافاً ذريعاً ، فمنهم من جعله فكريا محضاً ، ومنهم من صوره حسياً صرفاً ، وهو تناقض شديد تكبر عنه ، كما يقول بعض الفلاسفة ، فلسفة أرسطو ، وهي تلك الفلسفة التي كان لها المقام الأول في زمانها إلى مـــا قبل أربعة قرون ، ولم تزل لليوم رائجة لدى بعض العقول التي تحب الأمور القديمة .

إذا تحقق أن ما أوردناه هنا عن أرسطو عن أئمة الفلسفة في أوروبا هو حقيقة مذهبه ، فيكون مبناه إذن تحديد القوانين الداخلية السائـــدة على العقل الإنساني ، أو بعبارة أخرى ، يكون معتمده الأول علم المنطق ، وهو أعظم عمل عمله أرسطو ، وبه يمكن معرفة سائر تأملاته ، ويستطاع التوفيق به بين جميع أجزاء مذهبه الكبير الواسع . ورغماً عما نال مدركات أرسطو فيما وراء الطبيعة من عدم الثبات بعد ظهور لألاء العلم العصري ؛ فإن المنطق لم يزل حياً معمولاً بـــه في بعض المذاهب الفلسفية ، ولقد كان في القرون الوسطى الآلة الوحيدة في الجدليات وتقرير الدليل .

العلم في نظر (أرسطو) هو حركة العقل ، وهذه الحركة لهـــا شكلان رئيسيان : وهما النظر والعمل . ومن هنا قسم العلم إلى قسمين : عـــلم نظري تأملي ، وعلم عملي . فالعلم الأول تدخل تحته العلوم النظرية (علوم مـــا وراء الطبيعة والعلوم الرياضية) ، والعلوم التجريبية (التاريخ الطبيعي وعلم النفس)، والعلوم المختلطة (علم الطبيعة العمومية التي ليست في ذاتهـــا إلا تطبيق علوم ما وراء الطبيعة على الحوادث العامة للكون) ، أمـــا القسم الثاني وهي العلوم العملية فعلم الأخلاق والسياسة والاقتصاد .

هذا هو التقسيم الذي يمكن استنتاجه من فلسفة أرسطو وكتبه ، ومن يعتني باستقصاء مرامي أتباع هذا المذهب على الاخلاق والفضيلة والسياسة والاقتصاد والعمران ، يرى أن مبدأهم في الاخلاق التوفيق بين أحكام العقل ومطالب الشهوة ، وتوخي الاعتدال في تلك المطالب حتى تكون خاضعة لأحكام العقل تمام الخضوع .

أما الفضيلة في نظرهم ، فقد خالفوا فيها (أفلاطون) الذي جعلها في أداء الواجب المطلق ، وخالفوا (أبيقور) أيضاً في قوله : إنها اللذة المعتدلة ، وقالوا إنها القيام على الخط الوسط بين الشهوات المتعاكسة في النفس . والغرض من الأخلاق في نظرهم هي الراحة التي تنتج من الاعتدال في الشهوات الجسمية .

أما قاعدتهم في السياسة ، فكانت اجتلاب المنفعة من وجوهها المعتدلة ، ويعلم ذلك من قاعدتهم الأخلاقية وهي التوسط في مطالب البدن لتحصيل السعادة الجسدية ، وهي الراحة والصحة ، ولما كان قاعدة سياستهم النفع ، فقد قرروا الاسترقاق في قانونهم وعدوه أصلاً من الأصول التي يقوم عليها بنــاء الهيئة الاجتماعية .

أما قاعدتهم الاقتصادية العائلية ، فكان قسط الحرية فيها ضعيفاً ، وذلك أنهم كانوا يعتبرون العائلة مملكة مستقلة ، فيها الحكم بين الزوج والزوجة على الأسلوب الأريستوكراسي ، أي الحكومة التي يكون فيهــا رجال قلائل مالكين زمام الاحكام ومخولين سيادة مطلقة على سائر أفراد الشعب ، وبهذه الصفة ، كانت الزوجة تحت سلطة الزوج مباشرة ، ولا يخفى أن تلك السلطة قد تكون استبدادية عسفية ، على حسب أخلاق الرجال وعادات الجيل ، وهذا ليس من العــدل في شيء . هذا بالنسبة للزوج والزوجة . أمــا بالنسبة للأب وأولاده فكانوا على سنة الحكومة المطلقة الاستبدادية ، أي أن للأب على أولاده سلطة غير محدودة ، وإرادة نافذة لا تقف عند حد . أما الأولاد فيما بينهم ، فكانوا على الدستور (الديموكراسي) ، أي المساواة المطلقة في جميع

الحقوق . وفي مذهبهم أنه لو كان يهم الأب تربية أبنائه ، أو تقوية أجسام أرقائه ، فما ذلك إلا لأنهم مكونين لركني مملكته .

فلسفة أرسطو هذه ، دخلت الى أوروبا بواسطة ابن رشد الفيلسوف الاسلامي ، فقوبلت من بعض الفرق النصرانية هنالك بالحماسة والحفاوة . فتردد علماء اللاهوت في قبولها أولا ، ثم قبلوها نهائياً وتحمسوا لها تحمساً غريباً ، وتعصبوا لذلك الفيلسوف تعصباً مدهشاً ، حتى أنهم كانوا يعتبرون أقل كلماته وأصغر أحكامه غير قابل للنقض. فلم يستطع أحد أن يجاهر بفلسفة غير فلسفة أرسطو مهما كانت صفته . ولما جاء أوان يقظة أوروبا ، حوالي القرن السادس عشر ، أخذت تلك الفلسفة في السقوط شيئاً فشيئاً . فقام فيلسوف اسمه (راموس) فرنساوي الأصل ، ونقض أصول تلك الفلسفة بالدلائل والبراهين فقتل في مقتلة (سان برتلمي) التي حصلت في فرنسا ، بين الكاثوليك والبروتسانت ، وقتل فيها من هؤلاء عدد عديد[1] . ثم ظهر بعده (باتريزي) ، فسار على خطة (راموس) ، ثم نبغ (كامبانيلا) وشن على تعاليم أرسطو غارة شعواء فحكم عليها بالحرق ، ولكن ما الحيلة ولكل شيء أجل ، ولكل نابغة جيل أو أجيال معدودة ، فلا يستطاع إماتة شيء له في الحياة نصيب ، كما لا يستطاع إحياء شيء قضى عليه الله بالموت . فرغماً عن هذه السلطة الهائلة ، التي أيد بها علماء اللاهوت في أوروبا فلسفة أرسطو ، حتى قتلوا وأحرقوا أضدادها تلاشت تلك الفلسفة تحت أنظارهم بتوالي ظهور العقول المضادة لها توالياً عجيباً . فقد نبغ بعد الذين تقدم ذكرهم (باكون) الانجليزي ، و (ديكارت) الفرنساوي وغيرهما من رجال العلم والفكر فقضوا على تلك الفلسفة قضاء نهائياً . ولكن لما كان لم يزل لها أنصار متحمسون للدرجة القصوى

(١) حصلت هذه المقتلة الهائلة في فرنسا في ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ تحت حكم شارل التاسع ، وسببها تحاقد الطوائف الدينية فيما بينها ، فاستمرت مدة أيام متوالية في سائر البلاد الفرنساوية وخصوصاً في باريس .

من رجال الدين الاقوياء ، فقد تحصلوا على أمر من مجلس نواب باريس سنة ١٦٢٤ بقتل كل من تجاسر على تعليم فلسفة تناقض فلسفة أرسطو . ولكن هيهات . لكل نبأ مستقر . فلم تفعل تلك العقوبات شيئاً فإن العقوبة لا تنصر ما قضى عليه الحق بالزوال ، فنبغ (موليير) بأساوبه المضحك المر ، وتلاه (بوالو) بطريقته الاستهزائية القاسية ، وأدخلوا ذلك من ضمن أضاحيك رواياتهم ، حتى جعلوا تلك الفلسفة التي كانت بتلك المنزلة من الاحترام مضغة في الأفواه وسخرية في السهرات والتياترات والنوادي . ذلك كله جزاء الغلو السابق في الانتصار لهذا المذهب ، فسبحان الملك الحق الذي لا يزول كلامه ولا يحول . ولا يعتري أحكامه الأفول .



أبيقور

ولد هذا الفيلسوف الشهير سنة ٣٤٢ وتوفي سنة ٢٧٠ قبل الميلاد ، وهو من عائلة عريقة في الشرف ، قديمة في النسب . وكان مولده في (جارجينوس) وهي قرية من قرى مقاطعة (أتيكا) اليونانية ، فلما بلغ الثمانية عشرة سنة ، شخص الى أثينا ، ولم يطل مكثه بها ، فغادرها قاصداً (كلوفون) في آسيا الصغرى مع أبيه ، وهناك أسس مدرسة لتدريس اللغة والقواعد النحوية .

مال أبيقور منذ نعومة أظفاره لدراسة الفلسفة ، فاشتغل بها ولم يتجاوز عمره الأربعة عشر ربيعاً ، وظل مكباً عليها ست سنين ، ثم أخذ في تدريسها ونشرها بين مواطنيه على قدم كبار الفلاسفة وعظماء المفكرين . يقال أنه لم يترك علم البيان الذي كان يشتغل به في مبدأ أمره إلا احتقاراً له وازدراء به ، حيث لم يجد فيه ما يكشف له عن كنه هذا الفراغ الشاسع الشامل للكائنات كلها .

وذلك أنه بينا كان يتلقى عن معلمه قول (هيزيود) : « أول ما حدث في الكون هو الفضاء » سأل معلمه ومن أين نشأ الفضاء ؟ فلما لم يجـــد جواباً علم أن العلوم النحوية لن توصله إلى شيء من المعلومات الضرورية لحياة الانسان ، فمال عنها إلى دراسة الفلسفة .

هذه رواية من روايات كثـــيرة بشأن تحوله من العلوم النحوية إلى العلوم الفلسفية . وقد نسب كثـير من الكتاب الأقدمـــين تعلقه بالعلوم الفلسفية إلى الصدفة . وذلك أنه وقع بين يديه يوماً من الأيام بعض كتب ألفهـــا الفيلسوف (ديموكريت) فأنعم النظر فيها . فارتاح إليها خاطره ، وثلج عليهـا صدره ، ووجد من نفسه باعثاً شديداً إليها وحنيناً قوياً لها ، فانضم إلى الفلاسفة ، وسواء صحت هذه الرواية الأخيرة أو لم تصح ، فـإن كتب (ديموكريت) أثرت على (أبيقور) تأثيراً ظاهراً جداً لا سيا مذهبه في الجوهر الفرد .

لا يعلم بالضبط التاريخ الذي غادر فيه (أبيقور) كولوفون ورحـــل إلى (ميتلين) ثم إلى (لمسالا) ، وهي تلك البـلدة التي كانت معروفة بالـــثروة والرونق والعلم ، ولكن مما لا شبهة فيه أنه عاد إلى أثينا سنة ٣٠٦ قبل الميلاد ، وسنه إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة ، فاشترى بها في وسط الاحياء حديقة غنـــاء بثمانين ألف مين (المين سكة قديمة الثمانون ألفاً تساوي ٧٥٠٠ فرنك) ، عرفت هذه الحديقة بحديقة (أبيقور) .

صفات أبيقور : كان أبيقور حاوياً الصفات التي تحببه إلى الناس وتأسرهم ، فقد كان هـــادىء النفس ، سليم النية ، ثابت الجأش ، متواضعاً ، لا يقـــابل إنساناً بالمعارضة والملاجة ، سمحاً هيناً ليناً ، ذا صحة ضعيفة ، كثير الأمراض، لا يحابي ولا يجور . مما حفظ عنه من الخلال النادرة ، أنه لما أصاب بلاده مجاعة صرف كل أمواله في تقويت تلامذته ، حتى صار معدماً لا يملك شيئاً ، وهذا من السماحة التي لا تصادف في الناس إلا قليلاً ، ولم يلبث على التدريس إلا سنين قلائل حتى ذاعت شهرته في جميع البلدان ، وتحدثت بسعة مداركه الركبان ، وجابت سمعته أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ورغماً عما تقـــول الناس على هذا الفيلسوف ،

ونسبوه إليه من الميل للملاذ البدنية فإنه كان على جـانب كبير من البساطة في المأكل ، فقد كان يأكل في العادة خبز الشعير مغموساً في المـاء ، ومتى أراد في بعض الأيام أن يأتدم كان لا يتعاطى إلا قليلاً من الجبن مع ذلك الخـبز الخشن ، وكان يقول : « يجب أن يكون العيش الكفاف كافياً لإسعـاد الرجل الحكيم ، وأرى أن خبز الشعير والقليل من المـاء يكفيان لإيتاء الإنسان مثل سعادة جوبتير » .

هذا ما كان يرويه عنه تلامذته من صفات القناعة ، وخلال العفاف . أما من لم يكونوا تلامذة له فقد نقلوا كثـيراً من حوادث تمس شرفه وتزري بمقـام الفلاسفة من الإفراطات والتفريطات الخلقية ، ولكن (ديوجين لايرس) المؤرخ الشهير نقل عنه أنه حاصل على جميع الفضائل النفسية التي تجعل الإنسان محبوباً محترماً .

شيخوخة (أبيقور) كانت أليمة جداً ، فإنه أصيب بالشلل في آخر أيامه ، وأصابته قبل ذلك آلام أخرى ، ومات وعمره إثنان وسبعون سنة ، وخلفه في رئاسة مذهبه تلميذه (ميترودوردولمساك) ، ولم يعش بعده كثـيراً ، فآلت رئاسة المدرسة الأبيقورية إلى (أبوللودور) أحد مشاهير تلامذته .

فلسفة أبيقور

لا تعرف فلسفة في العالم ، خرّجها أعداؤها عن أصولها وبعدوا بهـا عن حقيقة مراميها، وصوروها صورة تخالف صورتها الحقيقية ، مثل فلسفة أبيقور، فقد ادعوا أن الرجل شهواني محض ، وفلسفته شهوانية صرفة ، لا هم لمتبعيها إلا الانغماس في لذائذ الشراب والطعام والانغمار في لجج اللهو والغرام ، والحقيقة فوق ما يتوهمون ، فإن هذا الفيلسوف كما نقله عنه الثقات ، كان من الزهد في الملاذ البدنية بحيث كان يكتفي بخبز الشعير غـذاء اعتيادياً ، وفلسفة توصل

رئيسها إلى هذه القناعة والزهد ، لا شك لا يكون من أصولهـا الدعوة إلى الانهماك في الملذات والإغراق في الشهوات . إن فلسفة زينون ، التي درسنا أصولها في مقالة سابقة ، لم توصل ذويها إلى مثل هذه الظلافة النفسية ، فكيف بما يدعونه على أبيقور من المبادىء الشهوانية ، والأصول الإفراطية ؟ لا شك في أن هذه المزاعم ، إما نشأت من التقول عليه بالباطل حسداً وحقداً ، وإما من سوء فهم مراميه الفلسفية ، وكثيراً ما يؤدي سوء الفهم إلى هذا الشطط في الحكم .

لسنا نقول هذا إطراء لفلسفة أبيقور ، وذهاباً بها فوق ما تستأهله من الإجلال والاحترام ، فإنا على بينة من النقص الذي فيها ، هي وسائر فلسفات الفلاسفة الأقدمين ، كما تراه في فصل خاتم النبيين إن شاء الله تعالى ، وإنما نقول ما قلناه ، دفاعاً عن الرجل ، فقد هضموا حقه ، وألبسوه غير ثوبه ، ووصموه بما هو منه براء ، ولقد كانت مبادئه الأخلاقية في مذهبه مهذبة لكثير من أتباعه ، فقد نبغ على يديه فضلاء كثيرون يحفظ التاريخ إسمهم للآن . على أن تلك الفلسفة ليست فلسفته الخاصة وإنما هو نشرها وعممها . ومن يطالع كتب (ديموكريت) و (لوسيب) يجد أن أبيقور قد استقى منهما شيئاً كثيراً ، ولكن فاقهما في نشر تلك المبادىء وإشرابها في العقول ، ولا يخفى أن هذه صفة أخرى من صفات الكمال البشري ، تتفاضل النفوس فيها إلى ما لا نهاية . فمن العلماء من لا يشق لهم غبار في العلم والحكمة ، ولكنهم من موات العزيمة عن نشر علمهم ، بحيث يرحلون عن الدنيا وهم لا يفترقون عن عامة جيلهم في شيء ، ويتلاشى إسمهم على أول الزمن ، ولا يبقى لهم في الوجود الذي وردوا إليه أثر يذكر ، ومنهم من فتح الله لهم خزائن العلم وكنوز العزيمة أيضاً ، فأخذوا من هذه وتلك فأصبحوا النجوم السواري يهتدي بها الضال ، ويؤوب إليها التائه ، ولسنا نرى على سطح الكرة في جميع أدوار التاريخ الإنساني إنساناً نال من هذه القوة ، ما ناله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد نشر ديناً جديداً في أمة تعد بالملايين الكثيرة ، في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ولا يخفى الفارق

الجسيم بين نشر دين ونشر فلسفة ، فإن نشر الدين يستلزم أن يخلع الإنسان عاداته الوراثية ، وفي ذلك ما فيه من الصعوبات ، خصوصاً في الأمم الجاهلية الشديدة البأس ، كالأمة العربية ، فنجاحه صلى الله عليه وسلم ، لم يكن إلا تأييداً إلهياً . وعوناً ربانياً . ومن ادعى غير ذلك ، فليرنا مستنده من نواميس الطبيعة أو قوانين النفس ، وهيهات « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

إذا نظرت لفلسفة (أبيقور) نظرة إجمالية ، لم تجد فيها تلك الأصالة والجدة التي تصادف عادة في مؤلفات كبار فلاسفة اليونانيين ، هذا النقص ، يمكن عزوه إلى ما كانت عليه حالة البلاد اليونانية في ذلك العهد من القلاقل والاضطرابات الداخلية . يقول العارفون أن العصر الذي وجد فيه (أبيقور) وهو العصر الذي كان يتنازع فيه السلطة خلفاء الإسكندر الأكبر ، بين قارتي آسيا وأوروبا ، وكانت الجيوش الرومانية تتقدم إلى الأمام في كل جهة ، تبتلع الأمم والعواصم ، لم يكن أهله صالحين لظهور أفكار كبيرة بين ظهرانيهم ، ولا لنبوغ قرائح قوية يستضيئون بنبراسها ، ويحيون بحياتها العالية ، فالتجأ (أبيقور) أن يسالم ألسنة الطبيعة ويسير كما شاء القدر .

كان مثل (أبيقور) في هذا الجيل المشحون بالقلاقل والمشاغب ، الخالي من الفلاسفة والعقلاء ، كمثل قائد تفرقت عنه أجناده شذر مذر ، فأراد أن يجمع شملهم ، وينظم عقدهم ، فلم يرَ أحسن وسيلة لأداء مهمته هذه ، من أن يحمل الفلسفة إلى معناها الحقيقي ، ويوصلها الى غايتها الأصلية ، وهي تهذيب ملكات الانسان ، وترقية مواهبه الطبيعية بالرياضة والعمل ، لا بالنظريات والعبارات لفارغة ، كما كان يفعله أكثر الفلاسفة . حيث ينبغ منهم فيكون همه ابتناء القصور والعلالي الفكرية الخيالية ، ثم يورثها لتلامذته ، فيصقلونها شرحاً وتنقيحاً ، ثم يدعونها لأخلافهم مثلها كمثل ألعوبة عقلية ، أو رياضة تصورية

ليس إلا . فلأجل أن يصل (أبيقور) بالإنسان إلى هـــذه النقطة من الفلسفه العملية التطبيقية ، جعل همه الوحيد دراسة الإنسان والطبيعة معاً .

نعم إنا لو استعرضنا أفكاره على الطبيعة بعلمنا الحالي لرأينــا أكثره حديث خرافة ، ولكن مثله في ذلك كمثل سائر الفلاسفة الأقدمين، فلم يكونوا أقل منه غلطاً على مساتير الطبيعة وضلالاً عن أسرارهـا . ولكن رغماً عن هذا فإن طبيعيات (أبيقور) تحتوي على حقائق طبيعية من الطبقة العليا جداً ، ذلك كوجدانه ناموس الجاذبية العامة ، وناموس التجاذب بـــين الجواهر الفردة في في الأجسام ، ولا يخفى أن على هذين الناموسين ، قامت صروح العلوم الطبيعية والكيماوية في هذا العصر .

قبل أن يبدي فكره على شيء من الكون، سأل (أبيقور) نفسه عن مصدر علمه وإدراكه ، فلم يره في غير (الشعور) ، الذي بتشكله وتطوره على حسب الأحوال والمناسبات ، يسمى بأسماء مختلفة ، كاللذة والفرح والحزن وغـــير ذلك ، وليست كل هذه الإحساسات في الحقيقة إلا الشعور بذاته مصبوغـــ بصبغة مختلفة .

فمذهب (أبيقور) والحالة هذه ، هو المذهب الحسي الذي لا يعتمد إلا على الأمور المحسوسة والدلائل العيانية ، المشاهدة بإحدى الحواس الخمس .

هذه قاعدة فلسفة (أبيقور) ، وهو بعينه مذهب (لوك) و (كوندياك) و (ديستوت) ، (وترامي) ، من فلاسفة هذه العصور المتأخرة .

أما عقائد (أبيقور) في أمور ما وراء الطبيعة، فلا يعلم لنا منها شيء يركز إليه ، والظاهر أنه كان لايصدق بشيء منها، ولكن لم يروَ عنه أن نابذها وهَم بدحضها علناً ، بل أثر عنه أنه كان يتكلم عن الآلهة باحترام وتبجيل ، ولكن قيل أن ذلك كان منه مشايعة للعامة فقط ، وقد عده الفلاسفة (الذينونيون أتباع ذينون ، من ضمن الفلاسفة الذين لا يعتقدون بالصانع ، وقد عجب بعض

الفلاسفة من دعواه أن الروح الإنسانية جوهر لطيف له خصائص عـالية ، وأنه وجد في هذا الجسد أمداً محدوداً ، واستخدمه حتى إذا ما صار البدن عديم الفائدة واختـل ، خرج منه وتحلل هو أيضاً (أي الروح) وتلاشى في الوجود .

عجب بعض الفلاسفة من دعواه هذه لمخالفتها لأصول مذهبه ، فإنه لم يرَ ذلك الجوهر اللطيف، ولم يحضر تحلله وفناءه. قالوا : وما دام هو حسياً لا يعتقد بغير المادة ، أفما كان من السهل عليه أن يزيد المادة صفة فوق صفاتها التي عرفها بها ، ليستطيع أن يفسر مسألة الحياة الإنسانية ، بدل أن يفرض هذه الفروض الغريبة ؟

الغرض من فلسفة (أبيقور) ، البحث عن ماهية الأخلاق الفاضلة التي توصل الإنسان إلى الحياة الدنيوية السعيدة . فما هي تلك الأخلاق الفاضلة ؟ هي البحث عن السعادة . وما هي السعادة ؟ السعادة قد عرفهـا فلاسفة الأقدمين بحدود كثيرة اختلفوا بها اختلافات بعيدة . فقد قـال (أفلاطون) : هى التخلق بأخلاق الله تعالى . وقال (ذينون) ، هي ملائمة العمل لنظام الكون ، وقال (أريستبيب) : هي اللذة . أمـا رأي (أبيقور) في السعادة فهي : سكينة النفس وسلوك جادة الفضيلة .

روي عن (أبيقور) أربعـة أصول خلقية تهذيبية ، بسببها كذب عليه الكاذبون واتهموه بأنه طالب للشهوات ليس غير وهي :

١ ــ أطلب اللذائذ التي لا يكون وراءها ألماً .

٢ ــ إياك والألم الذي لا يجلب لذة .

٣ ــ إياك واللذة التي تحرمك من لذة أكـبر منها ، أو تكون عاقبتها ألماً أكبر منها .

٤ ـ إحتمل الألم الذي ينجيك من ألم أكبر منه . أو الذي يكون من ورائه لذة كبرى .

هذا ما يروونه عن (أبيقـور) وينسبونه به إلى الانهاك في الشهوات ، ويصمون مذهبه بما هو براء منه . ولكن (أبيقـور) يزيد عن هذه الأصول الأربعة ، أصولاً أجلّ منها وأفضل ، فإن هذه الأصول الأربعة لا تشير إلا إلى فضيلة واحدة ، وهي الاعتـــدال ، ولكن لا تنسَ أن (أبيقور) كان يوصي باتباع ثلاث أصول أخرى يجانب هذا الاعتدال، وهي: التبصر والحزم والعدل.

السبب في إعطاء(أبيقور) هذه العناية للذات الإنسانية، هو أنه أطال بحثه في أحوال الإنسان ومراميه البدنية والعقلية ، وأمياله المادية والأدبية ، فرأى أنه تحت سلطان كثير من مطــالب جسدية ، ركبت فيه بالفطرة ، وسلطت عليه تسليطاً طبيعياً ، فلم يرد أن يغفل البحث عنها ، ولو فعل لما استطاع أن يصل بالإنسان الي شيء ممـــا يوده له من السعادة النفسية ، فجعل درسها من بعض اشتغالاته ليصل إلىحدود الاعتدال منها. وليكسر من سلطتها على هذا الإنسان الضعيف . فاعتبر اللذات أموراً مشروعة حقة ، ولم يحرم على أحـد من أتباعه شيئاً منها ما دام الاعتدال رائدها .

قسم (أبيقور) المطالب الجسدية إلى أقسام : وهي طبيعية ، وضرورية ، وغلابة كالجوع والعطش . وهناك مطالب أخرى وإن كانت طبيعية ، إلا أنها شهوية ، كطلب صنوف الأطعمة ، وأنواع الحلوى والأشربة وغير ذلك ، وزاد عليها مطالب سماها صناعية تعودية خطرة ، كطلب شرب الأشربة الروحية ، والحشائش المخدرة وغـير ذلك . والاعتدال في نظره هو إيتاء النفس المطالب الطبيعية والضرورية والغلابة . والاحـــتراس من المطالب الشهوية ، ومكافحة المطالب الصناعية بكل سلاح . فغرضه الأول من الفلسفة إذن ، هو الحكم على الحواس لا الخضوع لها .

يظهر أن أبيقور غالى جداً في بعض الأمـور بحثاً عن الراحة والسعادة ، فقد حرم على نفسه الاشغال بالأمور العامة ، وحرم ذلك على أتباعه ، وقد سلك هذا المسلك في هذه العصور المتأخرة ، الفيلسوف الفرنسي (مونتني) ، حيث كتب في ذلك فصولاً بديعة سماها معاصروه قانون الأثرة الظريفة . ولكن مما يجب أن لا ينساه أحد أن كلا هذين الفيلسوفين ، اليوناني والفرنساوي ، عاش في جيل مشحون بالقلاقل والفتن ، غاص بالاضطرابات والمحن ، بحيث يعذر من يعتزل الناس ويتركهم جانباً .

★

بـــيرون

هو الفيلسوف اليوناني الطـائر الصيت ، ولد بمدينة (اليس) من البلدان اليونانية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، ولا تعلم بالتحقيق السنة التي مات فيها ، واختلف المؤرخون في اسم أبيه . فقال (ديوجين لا يرس) أن أباه اسمه (بليستارك) ، وقال (بوزانياس) أن اسمه (بيستوكرات) .

ولد (بيرون) فقيراً لا يملك شيئاً ، واشتغل في حداثة سنه بفن التصوير . نقل معاصره وكاتب سيرته (أنتيجون دوكاريست) ، أنه رسم في شرف مسقط رأسه صورة شمعيـة (شمعدان) ذات جملة شعب ، فأعجب بها العارفون إعجاباً كبيراً .

فلسفة بيرون : يقال أن الذي أثر على فكر (بيرون) وحوّله عن الرسم إلى الفلسفة ، هي كتب الفيلسوف ديكريت ، فلقد كان مكباً على مطالعتهـا ، مشتغلاً بفك رموزها ، وكان قبل ذلك متبعاً سير الفيلسوف (بريزون) تلميذ (سيتلبون) ، ثم اقتفى نهج الفيلسوف (أنا كزارك) وهو تلميذ (ميترودور) ، وميترودور هذا هو أحد قادة المذهب الديموكريتي .

ويقال أن (بيرون) هذا ، لحق بجيوش الاسكندر في غزوته لآسيا ودرس الفلسفة الفارسية من موابذتها أنفسهم ، كما أخذ الأسرار الهندية عن ذات الهنديين في بلادهم . فكان مثـــال فلاسفة الهند في سكينة أنفسهم وهدوء خواطرهم لا يغيب عن ذاكرته ، حتى إن أستاذه (انا كزارك) الذي كان يعلمه كيفية تسكين نفسه وتهدئتها ، كان يوقظ في نفسه دائماً ذلك الحنين إلى مذهب الهنود في السكينة ، حتى قوي على تأسيس مذهبه الشهير ، كما ستراه بعد قليل إن شاء الله .

رجع (بيرون) إلى مسقط رأسه (أليس) ، فاجتذب قلوب مواطنيه إليه واكتسب احترامهم وتبجيلهم بأخلاقه العالية ، وشمائله الطيبة ، وفقره المدقع ، واستجماعه الصفات التي يعرف بها الفاضل في زمنه ، فلم يلبث غير قليل حتى عينه أهل بلده رئيساً للكهنة : ولأجل حبه أعفت تلك المدينة سائر فلاسفتها من سائر الضرائب .

معاصره وكاتب سيرته المؤرخ (انتيجون دوكاريست) ، نقل عنه حوادث مضحكة ونسب إليه خللاً في القوة العقلية ، ولو كان كذلك لما انتخبه أهل بلده رئيساً للكهنة في زمن كان اليونانيون فيه شديدو التمسك بالدين . أمـــا (انيسيديم) ، فقد فند كل التفنيد سائر ما نسب إلى هذا الفيلسوف من خلل العقل ، ولكن لم يعفه من داء التشكك وعدم العقيدة . وكذب القائلين بأن من مبادىء مذهبه أن يترك الإنسان نفسه للحوادث تقذفه حيث شاءت . الأمر الذي يشير إلى إغفال الإرادة وإهمال العزيمة .

مات (بيرون) بالغاً من السن أكثر من تسعين سنة ، وهو حاصل على احترام اليونانيين عموماً .

اخلاق بيرون : كان بيرون يحب العزلة والانفراد ، وهما للفيلسوف مهبط التأملات ومسقط الإفاضات ، ويهوى البساطة التامة في معيشته الداخلية حتى

ضرب به المثل في ذلك . وكان يشتغل مع أخته في الشؤون البيتية ، وروى أكثر من واحد من المؤرخين ، أنه كان يحمل إلى السوق الدجاجات والخنازير بنفسه .

يروى أنه رؤي يوماً غضباناً يؤنب أخته على أمر فعلته ، فقيل له : أيها الفيلسوف ، ألست القائل بأن العاقل يجب أن لا يحفل بشيء ، وأن لا يهتم لحادث ؟ ، فأجاب على الفور : « أتظن أن فلسفتي تنطبق على النساء ؟ » . وكان يكره الأطماع في أي موضوع كانت ، سواء في الثروة أو الجاه ، وعلى الخصوص في المدح والمجد ، ولا يخفى أن هذه الصفة الأخيرة هي طلبة الفلاسفة وأنشودتهم الوحيدة ، قنعوا بها عن سائر الصفات والمواهب المادية الأخرى .

وقد علل (بيرون) كراهته للمدح بعبارة يحسن إيرادها ، قال : « إن الناس في أحوالهم وشؤونهم يشبهون أوراق الأشجار الدائرة مع الرياح ، تبقى خضراء هينة ثم يعتريها الجفاف واليبس فتصير هشيماً ، ومن كان هذا شأنه فأجدر به أن لا يؤبه لمدحه ولا لذمه » .

(أبيكتيت) الفيلسوف ، كان فيلسوفاً اعتقادياً متعصباً لمذهبه تعصباً شديداً ، وكان بالطبع عدواً للملحدين واللاأدريين الذين يرأسهم (بيرون) ، ولكنه مع ذلك كان يعترف لخصمه بثبات الجأش ورباطة الفؤاد ، وكان كثيراً ما يظهر إعجابه بذلك .

يروى أنه كان يلقي على تلامذته يوماً قوله : « يستوي عند العاقل الموت والحياة » ، فقال له أحد تلامذته : «ولماذا لم تفضل الموت أيها الاستاذ ؟» قال : « لأنهما يستويان » .

ويروى أنه كان مسافراً على البحر ، فهب إعصار شديد انخلعت له الأفئدة ، وانحلت أمامه العزائم ، وأشرفت السفينة معه على التردي في مهاوي التلف ، فصاح بيرون بمن في السفينة قائلاً :«أنظروا إلى ذلك الخنزير الذي يشتغل بالأكل

وسط هذا الخطر المزعج ، واعلموا أن هذا ما يجب أن يكون عليه الفيلسوف من الهدوء والسكينة » .

يظهر أن (بيرون) لم يكتب شيئاً غير قصيدة مدح بها الاسكندر الأكبر ، كما رواه « سكتوس » و « بلوتارك » ، أما كتبه الحقيقية فكانت تلامذته أمثال : « أوريلوك » ، و « فيلون داتين » ، و « هيكاثيه دابدير » .

قلنا إنه مال لمطالعة فلسفة « ديموكريت » والغوص في بحارها ، ولكنه تركها واتبع فلسفة « ميجار » ، ثم تركها هي الأخرى واتبع فلسفة « السوفسطائية » ، ثم يئس من الوصول الى الحقيقة بواسطة كتب الفلاسفة ، فتركها جميعاً والتفت إلى الطبيعة نفسها ، فهي كتاب الكتب لمن يستطيع أن يفهم عنها . لذلك رحل مع الإسكندر الأكبر إلى آسيا في حملته على دارا ، وتكبد مشاق هذه الرحل الشاسعة في سبيل العلوم والمعارف . وقد كان « لبيرون » الحق في ما طرأ عليه من سوء الظن بالنسبة للفلسفة ، فقد كانت في زمنه في اضطراب لم يسبق له مثيل في زمن من الأزمان .

وذلك أنه مات أفلاطون فخلفته الجمعية العلمية التي أسسها ، فلم تستقم على آرائه ومبادئه ، بل مال بعضها إلى مذهب « فيثاغورس » ، وبعضها إلى مذهب اللاأدرية . وكان أرسطو في ذلك الوقت ، وهو رئيس الحزب المضاد للحزب السابق ، ساقط الآراء والمبادىء ، لاستناد مذهبه على الحس والتجربة ، ومجافاة ذلك لميل اليونانيين لا سيما أتباع الفيلسوف سقراط .

(والسينيكيون) ، رغماً عن احتقار الناس لهم كان لهم مستقبل كبير أمامهم . وقد كان هؤلاء الفلاسفة شأنهم عجيب جداً ، وذلك أنهم كانوا يعيشون عالة على الغير ، معفين أنفسهم من سائر التكاليف الاجتماعية ، وكانوا يهزأون بالحضارة والمدنية ، ويسخرون بالشرائع والقوانين الإدارية ، ويتربصون للمارة يوسعونهم هجواً وشتماً ، ولم يكن يجمعهم ببيرون إلا توافقهم على ذم الحياة المدنية وتسويء سمعتها .

وكان أتباع الفيلسوف ذينون متبعين نهج « السينيكين » في هجر العقل والمعقولات ، وزاعمين أن معتمدهم في الحياة أداء الواجب ليس غير ، ولم يكونوا كذلك، بل كانوا رغماً عما يقضي به عليهم مذهبهم من الخشونة المعيشية والظلافة النفسية ، متبعين سيرة الأبيقوريين في ترف الحياة ولذات الجنس .

فكان « بيرون » بين هذه الزعازع الفكرية كلها ، في غاية التردد والذبذبة، لا يدري أي فيلسوف يتبع ، ولا أي فلسفة يدافع عنها ، فلم يسعه إلا أن جعل ذلك التردد مذهباً فلسفياً ، ودعمه تدعيماً منطقياً ، واتبعه فيه ناس كثيرون ممن هم على شاكلته في ذلك التردد بين المدركات المختلفة. فكان في نظره الاعتقاد مستحيلاً ، وكذلك الإنكار ، ولم يكن أمامه إلا خطة الحياد بين الطرفين والتردد والشك .

ليس بيرون هو أول شاك في العالم ، ولا أول من رأى الشك أسلم الطرق له ، بل هو أول من جعله مذهباً فلسفياً ، وأسسه على دعائم علمية بقي قائماً عليها لليوم .

اليك كيف وضع « بيرون » أول حجر لاقامة صرح مذهبه ، قال : الانسان متى خرج من غيابة العدم إلى نور الوجود ، وأراد أن يسبر غور هذه المساتير المحيطة به من كل جانب ، فلا يجد أمامه إلا أحد أمرين : فإما أن يصدق كل ما يراه وما يستنتجه ، ويعدّه حقائق غير قابلة للنقض ، وإما أن ينكر كل ذلك ويدعي أن ليس هنالك شيء . ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين ، تطرف ينافي طبيعة الإنسان ، ويعاكس فطرته الأصلية . إذن فليس للإنسان إلا خطة الاعتدال ، وهي الامتناع عن الحكم على الأشياء .

هذا المبدأ يحسن كثير من الناس فهمه كما يريد « بيرون » نفسه ، فظن خصومه أن يخصموه بأقل الحجج وأصغر البراهين فقالوا له مثلاً :

إما أن يكون شكك عاماً ، وبذلك فأنت شاك في وجود نفسك ، وكفاك

بذلك تناقضاً في مذهبك ، لأنـك بشكك في نفسك أقررت على أنك تفكر وتبحث ، وبناء عليه فأنت موجود . وإمـــا أن يكون شكك ليس عاماً ، وتقر بوجود نفسك ، فتكون قد أثبت شيئاً وناقضت مذهبك .

يقول العارفون أن أمثال هذه المقالات تدل على عدم معرفة قائليها بمذهب « بيرون » ، فإنه لا يقول أنا أثبت ، ولا يقول أنا أنفي ، وإنما يقول أنا أشك فقط ، ذلك لأنه كان يقول أن كل شيء أمامه سر غامض ومساتير مغلقة ، يقضي العقل والتبصر أن يكون الانسان بإزائها متبصراً حكيماً ، فـلا يصدر عليها حكماً ربما كان غلطاً وناقصاً .

هذه ما رآه « بيرون » أليق بالمتبصر ، وأدعى لعدم الجور فى الأحكام على الكون وما فيه .

هذا الشك الذي جعله « بيرون » مذهباً فلسفياً ، لا يقتضي أن يكون الانسان متردداً متذبذباً في سائر أحواله المعيشية ، وفي كل حركاته وسكناته ، فلقد كان من قواعد فلسفة هذا الفيلسوف ، الدعـوة إلى الاعتدال في المطالب الجسدية ، والشهوات البدنية . وإنمـا جعل الشك فقط منظماً لسير الفكر أمام البحث وفي اثناء التنقيب على مساتير الكون .

قالوا إن بيرون لم يكن عدواً للدين ، ولا خصماً للفضائل ، كما يريد أن يدعيه السوفسطائية الخياليون الذين جعـلوا الفلسفة آلة لتضليل الأفكار ، وتغرير العقول ، وإنما كان كل اهتمامه موجهاً لمنع الإنسان من ترامیه بالاعتقاد ، وتهالكه بالتصديق ، على كل ما يقال له ويقدم اليه ، من قبل قوم لا حظ لهم من العـلم إلا جملاً أتقنوا التفيهق بها ، ومرنوا على حسن أدائها وتصويرها ليس إلا . وهي بعيدة عن الحقائق الثابتة كل البعد . فـــلم يرد « بيرون » من هؤلاء الناس إلا إرجاء الحكم على تلك الاعتقادات والمرامي الفلسفية ، والوقوف بها موقف البحث والتنقيب ، لا الذهاب مذهب الأشر والبطر ، زعماً أنها حقائق ، وهي ضلالات وأوهام .

يزعم بعض الناس أن (بيرون) ينكر وجود الحقيقة ، وهو زعم كما يقول بعض المحققين ، لا مستند له البتة ، فإن بيرون لم يقل ذلك ، وإنما قال أنه استعرض فلسفات سائر الفلاسفة فلم يجد الحقيقة في واحدة منها ، ولا في مجموعها ، فتركها كلها لعدم فائدتها واتبع طريق الشك فوجد فيه راحته ، وثلج عليه صدره .

بالنسبة لما كان عليه « بيرون » من المبادىء المتقدمة اتهمه أعداؤه بأنه مثل بعض السوفسطائية ، كان ينكر العدل والظلم ويدعي أن الكل وهم في وهم . وهذا كله افتراء عليه كما تدل عليه فلسفته . والقول المعتمد أنه ما كان ينكر وجود الحقيقة ، ولكنه ما كان يسلم بها إلا للحوادث المشاهدة المحسوسة ، وكان لا يأنف من أي شيء يقال ، على شريطة أن يبدأه قائله بكلمة : « يظهر لي » ، وكان يسلم بالموجودات ، ولا يدعي أنها خيالات أو أوهام ، كما يتهمه به خصومه ، وكان يعترف بالفطرة الإنسانية والنواميس الأدبية العامة ، ويرى أنها منقوشة في صميم المعنى الإنساني .

والذي يؤاخذ به (بيرون) ، هو أنه جعل الشك غاية لمذهبه ، ونهاية لمطلبه ، لا وسيلة يتقدم بها نحو البحث ، ويسلك بها في فيافي النظر .

أما ما يقوله عنه أضداده من أنه كان ينكر المحسوسات ، ولذلك فكان طول حياته محتاجاً لمن يمشي معه في الطرقات مخافة أن يتردى في هاوية أو يصطدم بحائط ، من شدة ما علق بفكره من أنها خيالات لا حقائق ، فبهتان لا حقيقة له .

خلاصة مذهب بيرون :

من مبادىء هذا المذهب التصديق بالشيء الواقع أي الحادثة . فإذا حدثت حادثة طبيعية وأحس بها الإنسان ، فلا يجوز له أن يقول : إنها شديدة أو هينة ، باردة أو حارة ؛ وإنما يقول : يظهر لي أنها شديدة أو هينة ، ويظهر لي أنها باردة أو حارة .

وقد أبى « بيرون » ، أن يضع لمذهبه قواعد بنفسه ، قائلا : ما من شيء إلا ويمكن معارضته ودحضه، وقد أدهشه ما وصل إليه علم الجدل من الرقي الباهر، حتى أنه كان يقول أنه يخشى أن يبرهن علم الجدل للناس «أن مقطعاً من الحروف الهجائية أكل جبناً» ، كما كان يفعله بعض السوفسطائية لأعدائهم المغلوب على أمرهم .

قالوا : وليس من شأن مذهب « بيرون » أن ينكر شيئاً ، ولو فعل لسقط أساسه وانهار ركنه ، ولذلك متى قال « البيروني » : أنا لا أفرض شيئاً . يعجل بقوله : بل ولا أقول إني لا أفرض شيئاً .

إليك الأسباب العشرة التي يستندون عليها في عدم حكمهم على الأشياء :

١ ــ إختلاف الأحياء من حيث السن ، وتركيب الجسم ، وقوة المشاعر ، ودرجة الإحساس أمام الشيء الواحد .

٢ ــ اختلاف الناس في الصفات الأدبية والفزيولوجية « التشريحية » .

٣ ــ إختلاف الأعضاء الحساسة في الإنسان الواحد ، الأمر الذي ينتج منه أن كل حاسة من تلك الحواس تنتج له كمية محدودة من الشعور بالشيء الموجود ، فلا يدري الإنسان أذلك القدر من الشعور خاص بعضوه الذي أحس أم طبيعي في الشيء المحسوس .

٤ ــ إختلاف الشعور في الجسم الواحد بالنسبة للأحوال المختلفة ، كالمرض والنوم والحزن والهرم .

٥ ــ الاختلاف في الحكم على حسب كمية الشيء المحسوس : فإن زيادة البرودة وقلتها ، أو سرعة الحركة وبطؤها، أو شرب قليل من الخمر، يغير الحكم السابق عليها كل التغيير .

٦ ــ اختلاف الناس في أساليب التربية ، وفي الشرائع والعقائد .

٧ – اختلاط الأشياء ببعضها بحيث يستحيل الحكم على كل شيء منهـا على حدته . كاستحالة وزن الحديد مجـرداً عن الهواء المحيط به ، أو إدراك الألوان إلا تبعاً لأخلاط العين التي يخترقها الشعاع أثناء سيره .

٨ – إستحالة مواجهة الأشياء مجردة ، فلا مناص من رؤيتهـا على مساند أو في أماكن أو أوضاع أو أحوال مختلفة .

٩ – ندرة أو كثرة الحوادث التي تحدث لمستجليها الجمود عن رؤيتها أو عدم العناية بها .

١٠ – القيود التي لا يمكن الافتكاك عنها في حكم من الأحكام على الموجودات. فإن الأشياء متعلقة ببعضها . والحكم على الشيء لا بد من أن يكون مقيداً بحـالة الحاكم عليه .

هذه هي الأصول العشرة التي يستند عليها أتباع (بيرون) في عدم حكمهم على الأشياء. ويؤيدون بها دعواهم من عدم إمكان الوصول إلى حقيقة ما . وهناك أصول أخرى خمسة ، نشأت بعد العشرة الأولى بقصد إسقـاط فلسفة أرسطو وهي :

١ – إحساسات الناس تختلف بالنسبة لكل موجود من الموجودات .

٢ – كل برهان يسوقه الإنسان لإثبات شيء يحتاج إلى برهـان يثبته ، وإلا فعلى أي دعامة يستند في كونه حقاً ؟ فإذا أقمت الدليل الثاني، احتاج هو أيضاً إلى دليل ثالث يثبته ، كما احتاج الأول إليه ، ثم يحتاج الثالث إلى رابع وهكذا ما لا نهاية له .

٣ – الذي يبرهن على وجود المحسوس بالدليل المعقول ، يلزمه الدلالة عـلى بقيّة برهانه الأخير ، ولكن لما كان لا يمكن الدلالة عليه ببرهان عقلي – بنـاء على الأصل المتقدم – ، وجب الدلالة عليه بالمحسوس ، وهذا أمر يقتضي الدور التسلسل .

٤ — الفرض الذي هو كما يقولون حقيقة يجب التسليم بها بدون دليل لتكون ركناً لدليل آخر لا تقبل ، ولا يمكن التسليم بها ، لأنه لا دليل لهم على أن ما يجب أن يكون أساساً للدليل ، لا يحتاج لدليل يثبته .

٥ — كل معقول تابع للعاقلين الذين يدركونه ، وكل محسوس تابع للكائنات المتمتعة بالحساسية ، وكل شيء تابع لما لا يمكن أن يعرف إلا به .

هذه الأصول الخمسة الأخرى التي يعتمد عليها اللاأدرية في حقية مذهبهم . نقلناها عن مواطنها الصحيحة المستخلصة عن شوائب الافتراء والتعصب الذميم.

أشهر اتباع « بيرون » من أهل القرون المتأخرة « انيزيديم » اليوناني ، الذي كان عائشاً في القرن الأول الميلادي . فقد كتب هذا الفلسوف كتاباً كبيراً في مذهب اللا أدرية سماه « حجج البيرونيين » ، قسّمه إلى ثمانية أبواب :

الباب الاول ، عرض فيه الأصول العامة للمذهب اللاأدري . وبين الخلاف بينه وبين مبادىء الجمعية العلمية الجديدة التي تشكلت في البلاد اليونانية للمبادىء اللاأدرية . وكتب في الفصل الثاني تحليلات فلسفية على المدركات الآتية : الحقيقي ، والعلة ، والشهودة ، والحركة ، والتوليد . وزعم أنها غير قابلة للحل . في الفصل الثالث ، سرد وجود التناقضات الموجودة في مدركاتنا على الحركة وعلى الإحساس . في الفصل الرابع ، جادل ضد أفكارنا على العالم والعقائد. وفي الخامس ، درس العلة أي السبب من حيث هو ، وعرض الثمانية أشكال المعيبة. أما الثلاثة فصول الباقية ، فدرس نهاية الإنسان ومصيره ، ولم يذكر عنه إلا أشياء سلبية محضة .

كتب الفيلسوف « انيزيديم » غير هذه الكتب على مذهب « بيرون » كتباً مهمة أخرى منها : « كتاب الفروض البيرونية » ، وكتاب ضد العلم ، وكتاب في البحث .

بعد موت « انيزيديم » انتشر مذهب « بيرون » بسرعة في الاقطار العالية

من المملكة الرومانية ، ونشبت في أذهان أعلياء القوم هنالك ، وقام بالدفاع عنها وحفظها عقول من الطبقة العليا توالت بدون انقطاع مدة من الزمن ، مثل « زوكسيس دوتارس» ، و « انتيوكوس دولا أوديسيه » ، و « مينودوت » ، و « هيرودوت دوتارس » ، و « سكتوس » الذي كان في عصر الامبراطور الروماني الشهير « ستيم سيفير » . وسكتوس هذا ، هو الذي جمع في المذهب اللا أدري كتاباً كبيراً حشر إليه ما وقف عليه من أقوال الفلاسفة البيرونيين . وليس لهذا الكتاب أثر الآن .

ومما يحسن الالتفات إليه أن أكثر أشياع «بيرون» الأخيرين هم من الأطباء ، وكان في المذهب الذي اختاروه لأنفسهم فذلكة الفلسفة اليونانية القديمة القريبة منهم .

لما تأسست جامعة الإسكندرية ، التي تكلمنا عنها في بعض فصولنا الماضية ، لم يستطع مؤسسو نظامها العلمي أن يجدوا محلاً فيها لفلسفة « بيرون » ، فتركوها لنفسها فوجدت أنصاراً كثيرين من الخارج في كل مكان وكل زمان ، حتى أنها دخلت الهياكل واتبعها بعض رجال الدين في أوروبا . وقريب منا « مونتني » و « بسكال » الفيلسوفين الفرنساويين كانا تابعين لهذه الفلسفة اللا أدرية ، وفي العالم اليوم كثيرون غيرهم .

★

نظرة على ما سبق

إلى هنا، انتهى بنا الكلام على موجز فلسفة الأقدمين، فقد عمدنا إلى أصولها الرئيسية فأتينا بها معزوة إلى قائليها من قادة الحكماء اليونانيين . ونظن أننا بهذا البسط قد استعرضنا أمام نظر القارىء درجة رقي الفكر الإنساني في تلك

القرون البعيدة ، وأشرفنا به على مبلغ حظهم من العلم بالحياة الإنسانية في جميع أشكالها وأطوارها ، وبالكون في جملته وكليته ، ولكنا لن نكتفي بذلك ، فسنعقد فصلاً مطولاً نحشر إليه إن شاء الله ، خلاصة مجموع تلك الفلسفة القديمة على المسائل الفلسفية الكبرى في فصول متعددة .

وذلك أننا سنشرح مبلغ مداركهم في اللاهوت ، ثم في الروح والخلود ، ثم في الإنسان وأخلاقه وأطواره والفضيلة وماهيتها وعلاقتها به ، ثم في الكون بجملته ، ثم في أفرع العلوم الكونية الخ ... لنستطيع أن نحاكمهم على مدركاتهم تلك، في كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ على كل نوع من أنواع تلك المدركات ، ثم نخرج إن شاء الله من هذا البحث إلى اتباع حركة سير العلم في خلال القرون التي توالت بعد اليونانيين ، حتى نصل إلى الأمة العربية ، فندرس مقامها في العلم الطبيعي في جميع فروعه ، وفي الفلسفة ، ومواهبها بالنسبة لكل فرع من أفرع المعارف الإنسانية الخ ... مما يعز علينا سرده الآن ، والله المستعان .

ثم نخرج من هذا البحث إلى إيراد تاريخ العلم والفلسفة عند الأوروبيين ، فنورد إن شاء الله ، أشهر مذاهبهم الفلسفية وآرائهم في كل فن من الفنون الإنسانية ، رادين عليهم بحول الله ، كل ما تطرفوا به عن جادة العلم الصحيح، وسلاحنا في ذلك كله كلام الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

* * *

مبلغ حظ الفلاسفة الأقدمين

من إدراك الحقائق الأولية

درسنا في فصولنا المتقدمة ، تاريخ ما وصل إليه النوع الإنساني من مبلغ الإدراك في العصور البعيدة ، وهي فلسفة اليونانيين ، وقصدنا من ذلك كله تتبع حركة رقي العقل الإنساني وتدرجه في إدراك الحقيقة جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا ، ليرى قارئنا بالبرهان المحسوس إن شاء الله ، أن الإسلام هو الحقيقة المطلقة التي ليس وراءها مرمى ولا بعدها مطلب ، بل هي عامات الغايات ، ونهاية النهايات ، ولا نستطيع ذلك إلا بالطريقة التي سلكناها هنا ، وهي استعراض معقولات النوع الإنساني كله ، أمام نظر مطالعنا جيلاً بعد جيل ، ليكون على بيّنة من قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . وقد بدأنا بالعالم اليوناني ، لأن الفلسفة لم تتكون مستقلة عن تعليم الدين إلا فيه ، ولقد سردنا أمام نظر القارىء كثيراً من رؤساء المذاهب الفلسفية المختلفة ، من اعتقاديين وملحدين ولا أدريين ، رجاء أن يكون لقارئنا فكرة عامة على مبلغ ما كان وصل إليه العقل الإنساني في تلك القرون ، ولكننا نخشى أن يكون قد طال الكلام ، وصار تطاول الزمن على الموضوع وتشعب فصوله مانعين من وصول قارئنا إلى النقطة التي نرمي إليها ، لذلك رأينا أن نعقد هنا فصلاً كبيراً ، نحشر إليه مقالاتنا السابقة المبعثرة في أطواء الصحف الكثيرة ، لتكون النقطة التي نود أن يشرف قارئنا عليها ، مشخصة أمام نظره في حيز محدود . هذا لا يعد تكراراً لما سبق إيراده وإنما هو استخلاص لجوهره ، وتصفية للبابه ، وإيضاح لما غمض في أثناء العبارات، واستتر في طي التقريرات، وسنزيد عليه إن شاء الله ، ما لا بد منه للوصول إلى هذه الخلاصة الجوهرية ، وسنقسم الكلام في هذه الخلاصة إلى أقسام عدة ، سنبدأها بمبلغ مدارك الأقدمين على مسألة اللاهوت ، ثم نتدرج منها إلى مبلغ علمهم بمسألة النفس

والخلود ، ثم بمسألة الكون المحسوس وما فيه ، ثم بمسألة مـا وراء الطبيعة ، ثم بالأخلاق ، ثم بالسياسة ، ثم بالشرائع الخ ... وهو بحث كما يراه القـارىء يحتاج من المؤلف لكلام جديد وتحليل جديد ، يستدعي من القارىء التفـاتاً ونظراً .

* * *

مبلغ مدارك فلاسفة اليونانيين «بالمسألة اللاهوتية»

الفلاسفة اليونانيون الذين أتينا على فذلكات من فلسفاتهم في فصولنـا المتقدمة ، يشخصون مبلغ ما وصل إليه الأقدمون من المدارك الفلسفية عـلى الأصول الأولية ، والحقائق العلمية . ولقد كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : قسم يعتقدون بوجود الصانع جل وعز ، وقسم ينكرونه ويكفرون به ، وقسم شاكون لا يقررون نفياً ولا إثباتاً .

القسم الأول أكثرهم عدداً ، وأقواهم جنداً لميل فطرة العـالم الإنساني إلى العقيدة ، واحتياجها إليها كل الاحتياج .

أما الكافرون والشاكون ، فقد كان كفرهم سبباً لسقوط مبـادئهم ، وموجباً لانفراط القلوب عنهم ، وأي جناية يجنيها الرجل على العـالم الإنساني أشد من حرمانه من نور الإيمان، الذي هو مصباحه المنير في ظلمات هذه الحياة القصيرة الأمد ، وكيف لا يظهر الإنسان أشد الكراهة والمقت لمن يسعى في إطفاء ذلك المصباح الطبيعي المتلألىء في ضمير هذا القلب الواجف ؟

لا يوجد برهان ولا شبه برهان على نفي العقيدة بالصانع جل وعز ، وقـد تتبعنا آثار أقوى العقول الملحدة، وأشد الأفكار جماحاً وعناداً في هذه المسألة،

وأتينا على نزغاتهم واحدة بعد أخرى [1] فلم نجد من بينها شيئاً يستحق العناية به ، فما هي إلا ظنون وهواجس ، تلم ببعض النفوس المظـــلمة لأسباب خلقية طبيعية ، أو عارضة اكتسابية ، فتخرج صاحبها عن الطور المعتاد ، إلى أطوار أخرى ظلمات بعضها فوق بعض ، نعوذ بالله منها ، لذلك لا نرى موجباً لإيراد أقاويل كفار الفلاسفة الأقدمين في نفي عقيدة الصانع ، لا سيما وأنهم لوجودهم في عصر كان للدين فيه سلطة تامة ، مـــا كانوا يستطيعون أن يتكلمـوا بتمام الصراحة في بَسطِ عقائدهم الإلحادية ؛ ولقد كان الملحد منهم يكتم مـــا به من الشكوك والهواجس ، ويتظاهر بالدين واحترام المعتقدات، كما كان شأن أبيقور على ما يقال ، فلقد كان كما قررنا يتكلم عن آلهة اليونانيين بتبجيل واحترام ، وهو في الحقيقة على ما يدعيه أتباع ذينون ، ملحد لا يعتقد بوجود الصانع .

سنأتي هنا إن شاء الله ، من بين أقوال سائر الفلاسفة اليونانيـين على ثلاثة أقوال في هذا الموضوع السامي، وهي أقوال سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهي تدل المطالع بأجلى بيان على مقدار ما بلغ إليه العقل الإنساني في عصر الفلسفة اليونانية من الرقي في ذات العقيدة والبرهان عليها .

*

مدارك سقراط في المسألة اللاهوتية

سقراط ، كما يعلم قارئنا من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو عصر كانت الشكوك قد كثرت فيه بواسطة السوفسطائية الذين استعملوا أسلحـــة الجدل في التضليل والتغرير ، حتى زلزلوا عقـــائد بعض الناس ، فكان سقراط أقوى ناصر للعقائد في زمنه ، أصلاهم حرباً عواناً ذاقوا لواعجها سنين كثيرة ،

---

(١) انظر مؤلفنا الحديقة الفكرية في اثبات الله بالبراهين الطبيعية .

ثم توصلوا إلى الوقيعة به ، فرموه بالإلحـاد وقتلوه بالسم في السجن ، وهو وسط بعض تلامذته وأصدقائه يقرر لهم خلود الروح وذهابها من هذا العالم إلى عالم آخر بعد الموت ، وقـد احتمل مضض السجن وآلام التسمم بصبر وجلد ضرب بهما المثل ، وعرف بهما كنه نفسه العالية ، وهمته الكبيرة .

سقراط لم يؤلف كتاباً قط، وإنما كانت كتبه تلامذته، وخيرهم (أفلاطون)، فقد نقل عنه مذهبه كله وزاد عليه ، ونحن هنا نورد أقواله عن (أكسونوفوت)، الفيلسوف اليوناني المعاصر له ، قال :

« سأقص عليكم الحادثة التي حصلت ذات يوم بين (سقراط) وبين أريستوديم الملقب بالصغير بشأن مسألة اللاهوت . فقد كان سقراط علم عن (أريستوديم) هذا ، أنه لا يقرب للآلهة القرابين [1] ولا يتقرب إليهم بالصلاة والدعاء ، وأنه لا يستقسم (يستقسم أى يعرف ما قسم له في المستقبل)،بل وأنه يهزأ بمن يمارس تلك الأمور .

قال سقراط : «قل لي يا أريستوديم ! أترى أنه يوجد رجال يستحقون منك الإعجاب في مهارتهم وحسن أعمالهم ؟ .

قال أريستوديم : بلى .

قال سقراط : ألا تخبرنا عن أسمائهم ؟.

قال أريستوديم : « إني في نوع الشعر التـاريخي أعجب (بهومير) ، وفي الحماسة يطربني (ميلاتييد) ، وفي المراثي يشجوني (سفوكل) ، ويروقني في التماثيل (بوليكليت) ، ويعجبني (زوكسيس) في فن التصوير .»

قال سقراط : « قل لي أيها أحقهم من إعجابك بالقسط الأكـــبر ، الذين

(١) كان اليونانيون معددين للآلهة ، مثل كل الشعوب القديمة التي لم تقف عند حدود الوحي الإلهي ، وسيجيء في أقوال سقراط لفظ آلهة كثيراً ، ولعله كان يجاري العامة في تلك اللهجة ، أما هو فلا نظنه إلا موحداً .

يعملون صوراً لا شعور بها ولا حراك ، أم الذين يخلقون الكائنات الحية المتمتعة بالإدراك ؟.

« قال أريستوديم : وحق الإله ، إن الأحق بالقسط الأكبر من الإعجاب هم الذين يخلقون الكائنات المتمتعة بالحياة، إذا لم تكن تلك الكائنات نتيجة الصدفة، بل كانت نتيجة حكمة وإرادة .

« قال سقراط : أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منهـــا ما هو خفي المنفعة ومنها ما له منفعة ظاهرة وحكمة في الوجود باهرة ، فأيها أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة والاتفاق ، أو من نتائج العقل والحكمة ؟.

« قال أريستوديم : تقضي علينا بداهة العقل ، أن نقول أن الذي له حكمة في الوجود ظاهرة ، ومنفعة في نظام العالم بيّنة ، هو من فعل العقل والحكمة .

« قال سقراط : ألا ترى معنا أن الذي خلق الإنسان وسوّاه ، قد أعطـاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة وفائدة بيّنة ، ومتعه من الأجزاء والأجهزة بما يحس ويشعر بواسطته . فمتعه بعينين ليرى بهما المحسوسات ، وبأذنين ليسمع بهما الأصوات . وبماذا كانت تفيدنا زكيات الروائح ، لو لم تكن لنا أنوف تدركهـا وتحس بها؟ أترى أنا كنا نتمتع بإدراك الحلو والمر من الطعام،وبالالتذاذ بمحبوبات الفم ، لو لم يكن لنا ذلك اللسان الذي وضع لتمييزها والحس بهـا ؟ ألا ترى أن من دلائل التدبير والحكمة ، أن تمتع العين وهي ضعيفة بجفون تنفتح وتنغلق عند الحاجة وتنطبق عند النوم طول الليل، وأن توهب تلك العين غربالاً من أهداب لتقيها فعل الرياح الثائرة ، وأن تمنح لها تلك الحواجب كميزاب يمنع عنها غوائل العـرق المتساقط من الرأس ، وأن تصنع الأذن على صورة لا تكل من سمـــاع الأصوات ولا تعيا من الحس بها، وأن تعطى جميع الحيوانات أسناناً أمامية لقطع الأغذية، وأضراساً جانبية لسحقها، وأن يكون الفم الذي تدخل منه الحيوانات الأغذية الصالحة لها إلى اجوافها موضوعاً قريباً من العينين والمناخير ، وأن المحل الذي يحصل منه الإفراز للمواد المستقذرة ، بعيد عن مرمى النظـر ومعكوس

الوضع ، وعلى أبعد ما يمكن من الأعضاء الرئيسية . أترى نفسك بإزاء كل هذه الأعمال التي تدل على تدبير وحكمة ، لا تزال متردداً بين عزوهـا إلى الصدفة والاتفاق ، وبين إسنادها للحكمة والعلم ؟.

« قال أريستوديم : لا والإله ، فإن أقل نظر في هذه الكائنات الحية ، يدلنا على أن هنالك ذات عالم رحيم خلقها وعدلها .

« قال سقراط : زد على هـذا الميل المودع في الطبائع للتكاثر ، والرحمة المودعة في قلوب الأمهات لتغذية صغارها وإعالتهم ، ومـا غرس في نفوس تلك الصغار من عواطف حب الحياة والهرب من الموت ؟.

« قال أريستوديم : لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع موجود حكيم، أعد الأرض وهيأها لسكنى الحيوانات .

« قال سقراط : أتظن بعد هذا ، إنك وحدك الكائن المتمتع بحكمة وعلم ، وأنه لا يوجد غيرك في هذا الوجود كله عاقل ولا حكيم ،وأنت تعلم أن جسمك هذا، هو قطعة لا قدر لها من حجم هذه الأرض ، ونطفة من مياه هـذا المحيط الزاخر ، وأن الذي أقام أودك وكوّن شكلك هـذا ، هو جزء لا يؤبه به من هذه المواد العظيمة الحجم،الكبيرة المدد؟ أتظن أنك وحدك قد استلبت من هذا الوجود حكمة وإدراكاً ليسا فيه ، وأن كل هذه الكائنات التي لا نهاية لها بالنسبة لك في العدد والعظم قامت كلها في هذا النظام البديع ، بقوة ليست متمتعة بحكمة وعلم ؟

« قال أريستوديم : أنا أنكرها والإله ، لأني لم أرَ صناعها ، كما أرى الصناع للأعمال الأرضية .

« قال سقراط : إنك لا ترى روحك التي هي سلطـانة جسمك ومديرته ، وعلى هذا، فيمكنك أن تقول قياساً على قولك السابق، بأن أفعالك كلها تصدر عنك عن غير حكمة ولا تدبير ، ولكن عن الصدفة والاتفاق . »

يرى القارىء من هذه المحاورة بين أريستوديم وسقراط ، أن الفيلسوف قد أحال خصمه بقوة حجته للإقرار معه بوجود الصانع الحكيم ، ولكن بقيت لديه شُبَه أخرى ، فلم يرد سقراط أن يدعها تجول في فؤاده ، فاستأنف معه المحادثة ، مثبتاً له عناية الخالق بمخلوقاته ، فقال :

« كيف تزعم أن الآلهة لا تعتني بمخلوقاتها ، مع أنك تعلم ، أنها قد وهبت الإنسان من بين سائر الحيوانات خاصية الوقوف على قدميه ، وهي تلك الخاصية التي تسمح له بلقاء نظره الى أبعد ما يصل اليه ، والتأمل في المرئيات التي فوقه ، وهي مع منحها للحيوانات اللاصقة بالأرض تلك الأرجل التي لا تسمح لها إلا بالتحرك وتغيير أوضاعها فقط ، أعطت الإنسان دونها أيدياً بواسطتها تحدث أكثر الأعمال التي تجعلنا أسعد حالاً من الحيوانات. انك ترى أن لجميع الحيوانات ألسنة ، ولكن لسان الإنسان من بينها كلها ، متمتع بخاصية إظهار الأصوات المختلفة بانتقاله في مواضع مختلفة من الفم ، وبهذه الواسطة نستطيع أن نعبر لغيرنا عما يضطرب في ضمائرنا من الأغراض والأحاديث . »

إلى أن قال :

« لم يحدد الخالق عنايته بأمر الجثمان الإنساني فقط ، بل أنه أبدع الروح الإنسانية ! وهي المقصودة بالذات ، على أكمل الصفات ، وإلا فأرني أي حيوان من الحيوانات يستطيع أن يدرك وجود تلك الآلهة التي فطرت هذه الأجسام العلوية العالية ، على هذا المثال البديع والشكل الآسر ؟ قل لي أي حيوان آخر ، ما عدا الإنسان ، سما به عقله إلى عبادة الآلهة والاخبات لها ؟ أخبرني أي روح تضارع الروح الإنسانية ، في اتقاء غوائل الجوع والعطش والبرد والحر ، ومداواة نوازل الأمراض والأعراض ، وملافاة فقد القوى بأنواع الرياضات الجسمية ، والكد والكدح لنوال العلم ، وتذكر ما رأته وما سمعته وما علمته ، أليس من الجلي الواضح بعد هذا البيان ، أن أفراد الانسان مثلهم بين أنواع الحيوانات كمثل الآلهة لعلوهم عنها جسماً وروحاً ، أترى أنه لو وهب الإنسان

جسم ثور وعقل رجل ، يستطيع أن يحدث من الأعمال ما تحدثه به نفسه ، ومن جهة أخرى ، فأي فـائدة تعود على حيوانات متمتعة بأيدٍ كأيدينـا ولكن لم توهبْ بإزائها عقلاً مناسباً لها ، وأنت أيها الكائن الذي وهب المنحتـين وتمتع بالنعمتين العاليتين ، تريد أن تظن أن الآلهة لا تعتني بك ولا تهتم بشأنك . وأي شيء تركته تلك الآلهة من الدلائل اللازمة لإقناعك بذلك ؟. »

فأجابه عند ذاك أريستوديم بجواب حمل سقراط على محـاولته من طريق آخر ، وألجأه إلى محاربته بشهادة النوع الإنساني في خلال القرون . قـال أريستوديم :

« لترسل لي الآلهة خبراً بما يجب علي عمله أو تركه ، كما تدعي أنهـا أرسلت لك أنت . »

فأجابه سقراط قائلاً :

« لما خاطبت الآلهة الآثنيين بواسطة الاستقسام (١) أتظن أنها لم تخاطبك في زمرتهم ؟ أترى أنها لما أظهرت لليونانيين ولجميع العالم مكنونات إرادتهـا ، بواسطة المعجزات والآيات، كنت أنت وحدك الرجل الذي تركته نسياً منسياً؛ أتظن أن الآلهة وضعت في أعماق الفطرة الإنسانية عقيدة الاقتدار على إحداث الخير أو الشر ، ولم تهبها قوة تمكنها من إحداثها ، وأن النوع الإنساني قد انخدع بذلك كل هذه القرون ، ولم يشعر بانخداعه لليوم ؟ ألا ترى أن أقدم التأسيسات

(١) الاستقسام هو أن يطلب الإنسان معرفة ما قسم له في عالم الغيب بواسطة الآلهة، وقـد ولع بذلك الأقدمون واختلفوا في كيفياته على حسب عقـائدهم وآلهتهم . أما العرب ، فكانوا يجيئون بثلاث قداح يكتبون على أحدها أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، ويتركون الثالث غفلاً بدون كتابة ، ثم يرمونها ، فـإن ظهر القدح المكتوب عليه نهاني ربي ، أقلع عن العمل ، وإن ظهر الذي هو مكتوب عليه أمرني ربي ، مضى فيه ، وإن ظهر الخالي من الكتابة أعـادوا الإلقاء حتى يظهر لهم شيء . هذا كان حال العرب ، أما اليونانيون ، فـكان الاستقسام عندهم على غير هذه الصفة .

الانسانية وأحكمها ، والممالك القائمة والأمم العظيمة ، هي أكثرها تمسكاً بالدين واعتقاداً بالآلهة ، وأن أكثر العصور نوراً ولألاءً ، هو أكثرها وأشدها تعلقاً بالتقوى والطاعة . إعلم يا صاح ، أن روحك كما لها السلطة التامة على جسمك تديره وتدبره كما شاءت ، كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون ، لها التصرف والإرادة النافذين فيه كله . ما هذا ! أيصح أن يكون مرمى نظرك يصل لجملة مراحل، ونظر الإله لا يلم بكل المخلوقات جملة واحدة؟ وهل يتصور أن روحك تستطيع أن تشتغل في آن واحد بما يحصل هنا وفي مصر وصقلية ؛ وأن العلم الالهي لا يحيط بكل شيء في لحظة واحدة ؟ نعم إنك متى أردت أن تصنع معروفاً مع الناس لو عرفت من منهم يريد أن يكافئك عليه ، ومتى أديت إليهم خدمة من الخدم لو علمت من منهم يود أن يقابلك بجزائها ، ومتى استشرت الناس لو ميزت من بينهم أهل البصيرة والتسديد ، وكذلك متى قدمت واجبات العبودية للآلهة لو بحثت أن تدرك إلى أي درجة تريد تلك الآلهة كشف مكنونات العلم لك ... عند ذاك ، تدرك ماهية صفات الإله العلمية وعظمته الحقيقية،ذلك الإله السميع البصير ، المحيط بكل شيء ، المهيمن على كل شيء ».

من هذه المحاورة، يتضح لقارئنا مبلغ قوة الفيلسوف (سقراط) في إثبات الصانع ، ومنها يرى أنه لم يستند إلا على (البرهان الطبيعي) و (البرهان التاريخي) ، وهما نوعان من البراهين المستعملة في إثبات الصانع . أما البرهان الطبيعي ، فموضوعه بسط حوادث الكون وصنائعه الباهرة أمام نظر الخصم ومحاجته بها، والاستدلال منها على لزوم وجود واضع لها ومهيمن عليها . وأما البرهان التاريخي ، فموضوعه الاعتماد على شهادة النوع الإنساني وميله الفطري إلى الإعتقاد منذ خلق للآن ، واستبعاد اجتماع كل فطر النوع الإنساني على غير الحقيقة . كيف لا ، واجتماعهم على هذه العقيدة مع تخالفهم في الألسن والصور والألوان والاستعدادات والأزمان ، ودرجات المعلومات ، يدل تمام الدلالة على أن تلك العقيدة حاجة طبيعية من حاجات الروح الإنسانية، وميل غريزي

فطري ، منقوش في أعمـــاق الفؤاد الإنساني ، مثله فيه كمثل سائر الغـرائز والعواطف البشرية .

هذان هما البرهانان اللذان استند عليهما (سقراط) في محاورته لأريستوديم، وهناك أنواع من براهين أخرى في إثبات الصانع ، استعملها فلاسفة اليونانيـين ، سيأتي كثير منها في أثناء هذا الموضوع إن شاء الله .



مدارك أفلاطون في المسألة اللاهوتية

أفلاطون تلميذ سقراط الأول وكتابه الناطق الذي نقل عنه جميع مبادئه ونظرياته ، وهو أحد أراكين الفلسفة في العالم القديم . وقد سلك مذهباً في تقرير فلسفته ، أعلى من المذهب الذي علمه أستاذه. فإن صح ما يقال ، من أن لسقراط مذهبين : مذهباً بينه وبين العامة ، لا يعلو به عن مداركهم في كبـــير شيء ، ليجعل لفلسفته خصيصة تنطبق بها على الناس أجمعين ، ومذهباً خاصاً بينه وبين خاصته من أصحاب العقول القوية والأفكار البعيدة المرامي . إن صحّت هذه الرواية، كان فضل أفلاطون في مذهبه، مشتركاً بينه وبين أستاذه، وإن لم تصح وهو الأرجح ، كان لأفلاطون الفضل وحده في مبلغ الرقي الفلسفي المشاهـد في مذهبه .

رأينا من برهان سقراط ، أنه سلك بالذهن مسلك المحسوسات والملموسات ، فلم يشق كلامه على أبسط المدارك وأخلاها من العلم ، وهذا لا ينافي كونهـا قوية سليمة من العيوب ، ولكن تلميذه أفلاطون لم يقف عند هذا الحد بل اكتشف نظرية (الأفكار) ، كما قررناه في ترجمته في بعض الفصول الماضية ، وعلل بهذا النحو وجود المحسوسات بتلك المعقولات ، وجعـــل محض الإدراك الإنساني المجرد ، تابعاً لعالم قائم بذاته غير متلبس بالمادة . هـذه النظرية التجريدية ، هي

أساس فلسفة أفلاطون وركنها الركين ، وآثارها فيها لا تحتاج لكثير تأمل في جميع مبادئه وأقواله . حتى أن براهينه في إثبات الصانع ، مصبوغة بتلك الصبغة أيضاً ، كما سيتضح إن شاء الله للقارىء .

قد تدرج أفلاطون في إثبات الصانع بتحليل درجات العلم . ولأجل ذلك، قسم العلم إلى قسمين عامين : علم بالمحسوس وعلم بالمعقول . أما العلم بالمعقول فينقسم إلى نوعين: الفكر التعقلي (الذي لا يحدث إلا بالتعقل والنظر) والإدراك ذاته. فالقسم الأدنى ، أي الفكر التعقلي ، يذهب في الإدراك مذهب الاستدلال والاستقراء ، ويعرف بتلك الطريقة حقائق ثابتة ، وأحكاماً ضرورية عامة ، ولكنه لا يصل بها إلى حقيقتها الأولى ، ولا يصعد بها إلى الله تعالى .

أما القسم الأعلى ، وهو الإدراك ذاته ، فيسلك مسلك الجدل ويصعد بكل حقيقة إلى أصلها الأولي ومصدرها الجوهري . ومن هذا القسم ، العلم الذي ينير على الإنسان حوالك الأمور ، ويضيء عليه مشكلات المسائل . ولكن هل هذا القسم الأعلى من الجوهر الإنساني، هو نهاية كل ما يمكن بلوغه من درجات الإدراك البشري ، أم هنالك درجات أخرى يمكن الوصول إليها ؟ ألا يوجد مرمى وراء هذا العلم الذي يثير على الإنسان دياجير أموره ، ويكشف له مكنونات المعارف ؟.

يقول أفلاطون : بلى! يوجد وراء ذلك كله الذات نفسها والحقيقة عينها ، وهما اللذان يعطيان الحقية للأشياء والقوة للعقول . فإذا كان العلم والحقيقة ، على ما يعهد الناس من جمال وكمال ، فمصدرهما أجمل وأكمل . وكما يغلط من يظن أن الشمس هي النور والنظر ، كذلك يخطىء من يظن أن العلم والحقيقة هما الخير المطلق بذاتة . ولكنهما صور وظلال للخير المطلق . فنهاية الكمال العقلي ، وأرقى مرمى لعلم الجدل ، هو أن يصلا بالإنسان إلى رؤية ظلال العالم الإلهي ، فيريانه بأنها صور تقابلها شمس مضيئة .

وقد مثل أفلاطون العقول التي تعلو عن مداحض الحس إلى التمتع بمجالي عوالم المعاني المجردة ، بمثال عجيب وضعه في مقدمة الفصل السابع من كتابه في «الجمهورية» ، قال: إن الذي لم يعلُ بفكره عن عالم الحس بل ارتطم فيه وتورط في أوحاله ، كمثل رجال بؤساء نشأوا في غار مظلم ، وربطوا فيه بحيث لا يستطيعون فكاكاً ، ووضعت نار من خلفهم ، فهي تضيء عليهم ضوءاً ضئيلاً تنعكس بسببه ظلالهم على الجدار المقابل لهم ، فيحسبون أن تلك الظلال كائنات حية متمتعة بعقل وإرادة وحركة وكلام ، ويظلون على ذلك الزعم ما داموا في الغار ، ولكن أي دهشة تلم بهم وأي حيرة تأخذ بتنفسهم ، متى أخرجوا من قاع ذلك الغار المعتم ، وعرضوا على أنوار الشمس الساطعة ، ورأوا الحياة بأعلى مظاهرها تحت هذا الجو الباهر ؟ فأي فرح يحل بفؤادهم ، ويطفح من أفئدتهم ، متى قارنوا بين الحالة التي كانوا عليها ، وبين ما صاروا إليه من طيب الحياة ورؤية حقائق الأشياء ؟. قال أفلاطون : هذا مثل حالة الإنسان في هذا العالم الحسي . فإن ذلك الغار المظلم هو العالم الحسي ، وتلك النار الضئيلة التي كانت تضيء عليهم هي هذه الشمس ، وإن الذي يصعد منهم على سطح الأرض ويتأملها ، هي الروح الإنسانية التي تعلو عن عالم الحس ، وتتصل بعالم المعاني والمعقولات ، ومتى انتهى الإنسان الى قمة ذلك العالم ، أدرك معنى الخير ، وهي قمة لا يصل إليها الإنسان إلا بشق النفس وإجهاد القوى ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ذلك المعنى السامي إلا إذا أدرك قبل ذلك أنه الأصل الأولي لكل جمال وخير في الوجود ، وأنه هو الذي في هذا العالم الأرضي يعطينا النور المنبعث من كوكب الشمس ، وأنه هو الذي في العالم المعنوي يمنحنا الحقيقة والإدراك .

مجرد النظر في هذه المبادىء الأفلاطونية ، يكفي المطالع في فهم مرامي هذا الفيلسوف ، بالنسبة لهذه المسألة الهامة ، المسألة اللاهوتية .

أما براهينه في إثبات الصانع ، فقد كتب في بعض كتبه ما معناه :

« من الواضح الضروري ، أن كل ما يتولد يجب أن يكون له سبب يولده .

ومن المعلوم أن الدنيـــا قد تولدت ونشأت بعد أن لم تكن لأنها مرئية ملموسة وجسمية ، وكل هذه الأوصاف محسوسة فيها ، إذن فكل محسوس يظهـــر أنه متولد وناتج... وبما أن الكون أجمل الموجودات وأكملها ، فلا مناص من التسليم بأن موجدها أكمل الأسباب ، وهذا الكون لا بد من أن يكون مصنوعاً على نموذج بديع على مقتضى الحكمة والعلم » .

هذا النموذج الذي يقول عنه أفلاطون ، هي المعقولات الأصلية التي يسميها أفكاراً ويعزوها لعالم مستقل قائم بذاته متميز عن هذا العالم .

ولئن سئل أفلاطون ، عن حكمة إيجاد الخالق جل وعز للمخلوقـــات ، لأجابك كما كتبه في بعض كتبه : « لإظهار كماله الإلهي ، ومن كان كامـــلاً كان منزهاً عن الأغراض والشهوات ، وهو مع تنزهه عن النقائص كلها يود أن كل شيء يشبهه في كماله على قدر الإمكان . »

هذا هو (البرهان السببي) في إثبات الصانع ، توصل به أفـــلاطون لتقرير تلك الحقيقة الكلية كما ترى ، فأداه إلى وجود إله واحد حكيم عليم قادر ، منزه عن الأغراض والشهوات . مكوّن الكائنات ومدبرها .

أما في كتابـه (القوانين) فقد جاء أفلاطون ببرهان جديد في إثبـــات الصانع ، وهو ضرورة وجود محرك أول للوجود متحرك بذاته . وقبل أن يقرر أفلاطون برهانه هذا ، أصلى الملاحدة حرباً عواناً ، بكلمات خلدت له الذكـر ولهم الخزي. قال: أي كدر وغيظ يلم بالنفس، متى رأى الإنسان أنه قد ألجىء لإثبات وجود الآلهة [1]. لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه عن مقت وازدراء

(١) رأى القارىء من البرهان السببي الذي قدمه لنا أفلاطون، أنه مقر بوحدانية الخالق جل وعز ، فلا يتعجبن القارىء من ذكره كلمة آلهة ، فإنما اعتاد فلاسفة اليونان على مجاراة العـــامة في بعض الأحيان .

هؤلاء الناس، الذين هم الباعث اليوم لنا على الجدل في هذا الموضوع. إلى أن قال: « ولكن يجب علينا أن نكلمهم ونحن بغاية الهدوء والسكينة، لكي لا يقال بأنه كما أسكرتهم حميا الشهوات ، قد ضللنا نحن مثلهم سورة الغضب . فلنوجه إذن لمن فسدت عقولهم بمثل هذه الأصول الملحدة، معارفنا هادئة ثابتة، ولنأخذ أحد أولئك الإباحيين على جانب ، ولنقل له بهدوء وبعد أن نتغلب على سورة الغضب في نفوسنا : يا بني إنك شاب ، وكلما كبرت وطعنت في السن، تغير فكرك على كثير من الأشياء وستذهب بفكرك ضد ما تذهب إليه الآن ، فانتظر نماء عقلك وكمال سنك ، حتى تستطيع أن تحكم على عقيدة هي أمسّ شيء بحياتك ، وإن ما تعده الآن عديم الجدوى لدى البحث والنظر ، هو أفيد ما تنصرف إليه همتك وتتعلق به عزيمتك ، تلك المسأله الهامة هي أن يكون للإنسان عقيدة نقية من البدع في ذات الله خالية من الخرافات ، فإن عليها مدار السيرة الإنسانية ، وبها يتعلق أمر الصلاح والهدى ، كما ينبني على ضدها الفساد والردى . وإني لا أخشى التكذيب لو قلت لك في هذا الموضوع أمراً جديراً بالنظر ، وهو أنك لست أنت وحدك ولا أصدقاؤك معك ، أول من ألحد في الآلهة ، فإن في كل زمان ومكان يوجد أقوام قليلون أو كثيرون ، يصابون بهذه العلة . ولا أدري بأي يمين أقسم لك ، بأني قد شاهدت كثيرين أصيبوا بهذه العلة في شبوبيتهم وظنوا أن لا آلهة في الوجود ، فلم تثبت معهم تلك العلة في سن الشيخوخة » .

إليك محاورة من محاورات أفلاطون، تريك كنه المناهج التي نهجها في إثبات الصانع ، وإلى أي مدى بلغ به تصوره من ميدان هذه المسألة الهامة . في هذه المحاورة الملقب بالآتيني هو أفلاطون .

الآتيني : الحركة نوعان : إحداهما ، مواد في إمكانها إعطاء حركتها لسواها ولكنها هي نفسها لا قبل لها بتحريك نفسها ، والأخرى مواد متحركة على الدوام بنفسها ، وفي استطاعتها إعطاء حركتها لمواد أخرى بالتركيب أو

التقسيم ، وبالزيادة أو التقليل ، وبالتوليد أو الإفساد ، فأي هاتين الحركتين يجب علينا وضعها فوق أختها في الدرجة ، وأيها أقوى وأنشط من الأخرى بما لا يقدر ؟.

كلينياس : لا شك أن النوع الذي حركته حركة ذاتية وغير مستعارة، هو النوع الذي يفوق غيره بما لا حد له .

الآتيني : لنسأل سؤالاً آخر ولنسعَ في الإجابة عنه، إذا سلمنا جدلاً بما يجسر خصومنا على قوله ، من أن كل الأشياء الكونية أتى عليها حين من الدهر كانت في غاية السكون ، فمن أين نشأت فيها الحركة الأولى ؟

كلينياس : يجب أن تكون الحركة ابتدأت من المواد التي تتحرك بذاتها ، لأنه من الواضح الجلي أن لا داعي للمواد الأخرى يجبرها على أن تغير من أوضاعها قبل تلك اللحظة، فإنه قبل تحرك تلك المواد المتحركة بذاتها لا يطرأ أي تغيير في سائر المواد الأخرى .

الآتيني : لنفرض أن أصل كل الحركات وكل التغييرات ، سرى في كل ما هو ساكن وصار المحرك الراهن لما هو متحرك الآن ، وهذا الأصل متمتع كما قلنا بالحركة الذاتية ، فمتى رأينا مادة من المواد متحركة ، فكيف نستطيع أن نقول أن تلك الحركة مستعارة ؟

كلينياس: أتريد أن تسألني عما إذا كانت تلك المادة حية متى تحركت بذاتها؟

الآتيني : نعم ، هل هي حية ؟

كلينياس : بلا شك .

الآتيني : ولكن متى رأينا مواد حية ، أليس من الضروري الاعتراف بأن أصل حياتها هي الروح ؟

كلينياس : لا يمكن أن يقال غير هذا .

الآتيني : فما هو تحديد الروح إذن ؟ هل هي شيء غير ما سبق لنا قوله ، وهو أنها جوهر فيه خاصية التحرك من ذاته ؟. إذا تقرر هذا ، أفلا تكون النتيجة الواضحة ، بأن الروح هي مبدأ كل توليد وحركة ، وكل إفساد وسكون في كل الكائنات الماضية والحالية والمستقبلة ؟ ومن هنا، أفلا يحق لنا أن نقول أن الروح قد وجدت قبل الجسم ؟.. أوَلا يجب على خصومنا التسليم أيضاً ، بأن الروح الساكنة في كل ما هو متحرك لتدبير حركاته هي أيضاً المحركة والمدبرة للسماء ؟

كلينياس : نعم .

الآتيني: فالروح إذن في الحالة هي المحركة والمدبرة لكل ما هو في السماءوعلى الأرض وفي البحر، كلٌ بالحركات الملائمة له،وهو ما نسميه نحن ارادة،وامتحان، وعناية ، وشورى ، وحكم صادق أو كاذب ، وفرح وحزن ، وائتمان ، وخوف، وكراهة، وحب،كما أن الروح تحكم وتدبر بحركات أخرى مشابهة ، هي الأسباب الأصلية ، فتولد في الكائنات بواسطة أسباب ثانوية النمو أو الضمور ، والتركيب أو الانقسام ، والصفات التي تنتج منها : كالحر والبرد ، والثقل والخفة ، والجمود والرخاوة، والأبيض والأسود ، والحامض والحلو والمر . ولكن مع هذا يمكن أن يفرض وجود نوعين من الروح : الأولى روح تعتضد بالعقل والحكمة في إدارة شؤون الحركات وتدبيرها ، فتحكم بذلك كل شيء على مقتضى العدالة والحكمة ، وتهيئه لسعادته الحقة . والثانية روح لا تأتمر إلا بما يصدرها لها عدم التبصر والجنون من الأحكام الجائرة . فأي روح من هاتين يظهر لنا أنها الحاكمة على السماء والأرض وجميع هذا الكون ؟ هل الحاكمة فيه هي الروح المتصفة بالحكمة والكمال أو المجردة منها ؟ لأجل الإجابة على هذا السؤال ، يجب علينا أولاً معرفة ما إذا كانت كل هذه الحركات الكونية ، والتغيرات العلوية في الاجرام السماوية ، منطبقة على حركات العقل وتغيراته وتعقلاته ، فإن كانت الروحان متشابهتين في سيرهما، كلٌ في عالمها، وجب علينا أن نستنتج من ذلك،

أن الروح التي تحكم هذا الكون هي الروح الكاملة ، وأنها سائرة به في طريق الكمال .

كلينياس : هو ذاك

الآتيني : وبالعكس ، تكون هي الروح المضادة لها لو كان كل ما على الأرض يدل على الخلل والفساد .

كلينياس : هذا حق .

الآتيني : فما هي إذن طبيعة حركة العقل ؟ ... من بين كل الحركات المعروفة، الحركة التي يكون لها محل وحاصلة حول مركز هي الحركة المشابهة كل الشبه لحركة العقل ، لأنها حاصلة على مقتضى قاعدة ثابتة متماثلة ، حافظة دائماً علاقات ثابتة بينها وبين مركزها وبين الأجزاء المحيطة بها ، على مقتضى نسبة وترتيب لا يتغيران .

كلينياس : إنك قلت الصواب .

الآتيني : وبالعكس ، الحركة التي لا تكون منتظمة ولا هي على مقتضى قواعد ثابتة ، وليس لها مركز ثابت،ولا علاقة معلومة بينها وبين الأجزاء المحيطة بها ، وبالاختصار ، الحركة التي لا قاعدة لها ولا ترتيب ولا نظام ، تشبه تمام الشبه للحركة المنبعثة من عدم التبصر والجنون .

كلينياس : لا شيء أصدق مما تقول .

الآتيني : الآن لا يصعب علينا أن نجيب على تلك المسألة بغاية الضبط والإحكام ، بقولنا أنه لما كانت الروح السائدة على الكون قد طبعته بحركة مستديرة ، وجب بالضرورة أن تكون التغيرات الحاصلة في الأجرام العلوية ناشئة من قبل الروح الكاملة لا محالة .

كلينياس : إن ما قدمته كله ، لا يسمح لقائل أن يقول بغير تلك النتيجة ، وهو أن هنالك روحاً، أو أرواحاً ، متصفة بكل صفات الكمال ، تدير حركات الأجسام العلوية .

الآتيني : إنك قد أدركت صميم مـــا أريد أن أقوله يا عزيزي كلينياس ، فأرجوك أن تعيرني التفاتك لما يأتي ...

كلينياس : وما هو ؟

الآتيني : إذا كانت الروح كما قلنا هي المحركة لأجرام السماء ، أفلا تكون هي أصل حركات الشمس والقمر وكل كوكب على حدته ؟.

كلينياس : لا شك في ذلك .

الآتيني : لنبحث في كنه الحركة الحـــاصلة في أحد هذه الأجرام ، بحيث ينطبق حكمنا عليه على سائر الأجرام الأخرى .

كلينياس : أيها تختار ؟

الآتيني : أختار الشمس ، فاسمع . كل إنسان يشاهد جسم هذا الكوكب ، ولكن لا يرى أحد روحه التي تديره وتدبره ، كما لا يرى روح أي حيوان حي أو ميت . ولكن لنا أن نقول ، أن هذا الجوهر الروحـــاني هو من طبيعة لا تدركها مشاعرنا الجسمية ،ولا تتراءى إلا لعين العقل وحده ، فلنجتهد في إدراكه بالعقل والفكر .

كلينياس : كيف ذلك ؟

الآتيني : إذا كانت هذه الشمس دائرة ومدبرة بروح الأرواح ، فـــلا يخلو الأمر من أن يكون حاصلا بأحد الطرق الثلاث الآتية : فإمـــا أن تكون تلك الروح في داخل ذلك الجرم الكروي ، فهي تحمله إلى كل جهة كما تحمل الروح الإنسانية الجسم ؛ وإما أن تكون مكتسية بجسم آخر من النار أو الهواء ، كما يدعيه بعضهم ، فهي تتوصل بقوة ذلك الجسم إلى دفع الشمس حيث تريد ؛ وإما أن تكون منزهة عن الجسمية ومنفصلة عن الشمس تمام الانفصال ، وإنما تديرها وتحركها بخاصية فيها لا يدريهـــا العقل . ولكن ، هب أن تلك الروح تحمل الشمس في عربة وتوزع بتلك الواسطة نورها على العباد ، أو أنها تؤثر عليها بقوة

خارجية على صفة وأسلوب لا ندريه ، فكل منا يجب أن يعلم أن تلك الروح لا بد من أن تكون من عالم عال ، وأنها تقرب من أن تكون (آلهة) ، أليس ذلك صحيحاً ؟

كلينياس : هذا لا يشك فيه أحد .

الآتيني : وماذا نقول بالنسبة للقمر والكواكب ، وبالنسبة لتعاقب السنين والشهور والفصول ، أليس كل ذلك مصدره روح واحدة ، أو أرواح عدة ، بالغة نهايات الكمال وجميع صفات الجلال ، وإن هذه الأرواح هي آلهة ، تارة تسكن الأجرام وتتشكل بأشكال بعض الحيوانات ، فتنظم كل ما يحصل في العالم العلوي من حركات وانتقالات ، وتارة أخرى تؤدي أعمالها على غير تلك الصفة ، ؟ إني سائلك الآن ، أيستطيع الإنسان أن يقر معنا بهذه الحقائق ، ولا يعتقد أن العالم مملوء آلهة ؟

كلينياس : لا ، الناس أعقل من ذلك .

الآتيني : لنتم الآن بحثنا هذا الذي وجهناه إلى الذين يزعمون عدم وجود صانع للكون، بعد أن نريهم الحدود التي يجب عليهم الوقوف عندها في الرد علينا.

كلينياس : أي الحدود ؟

الآتيني : يجب عليهم أن يثبتوا لنا فساد ما قلناه ، من أن الروح هي أصل توليد وأصل كل شيء، وأن يبرهنوا لنا بتلك الواسطة، بطلان كل ما استنتجناه من هذا الأصل ، أو فليقروا بأنهم لا يستطيعون هدم ما قدمناه ، فيرجعوا إلى ما قلناه ، وليعيشوا معتقدين بوجود (آلهة) .



براهين أرسطو

أرسطو كما يعلم قراؤنا تلميذ (أفلاطون) ، وكان ينتظر مع هـذا أن يكونا متحدين في فلسفتيهما من بعض الوجوه ؟ ولكنهما من العجيب مختلفان كل الاختلاف ؟ لأن كلا منهما رسم لنفسه مبادىء لا تتفق مع صاحبه . فإن أفلاطون جعل مدار نظره العموميات والكليات ، ثم تنزل منها على الجزئيات . ولكن أرسطو جعل وجهة بحثه الجزئيات ، والتدرج منهـا إلى الكليات ، ليأمن من الخطأ في الحكم ، ومن اللبس في التصور . من هنا نشأ ذلك الخلاف الجوهري بين أفلاطون وتلميذه أرسطو ، حتى كأنهما خلقا ليتعارضا ولا يتحدان .

العـالم في مذهب أرسطو قديم أزلي أبدي ضروري ، موجود من القدم ولا يزال كذلك ، على الحالة المنتظمة المدبرة التي يُرى عليهـا الآن حاصلاً على جميع قواه ونواميسه ؟ وحاصل بطبعه على القوى التي تحركه وتدبره . ولكن يكون الكون في حالة خدر وخمـود لو لم يكن لتلك القوى المحركة له مـدد يعطيها القوة ويهبها الحركة . إذن وجب أن يكون محـرك أول للكون ، ويجب أن يكون ذلك المحرك الأول ثابتاً ساكناً ؟ لأنه لو كان متحركاً لاحتاج إلى قوة تحدث فيه تلك الحركة ، ولاحتاجت تلك الأسباب المحدثـة للحركة إلى أسباب أخرى ، وهكذا إلى مالا نهاية وهو محال .

من هنا يرى أن أرسطو توصل إلى إثبات الصانع بنظرية الحركة ، وهي من المشاهدات العيانية كما لايخفى ، ولكنه وضعها في قالب يعلو عن فكر العامـة ، فقال : « لامناص من التسليم بأنه يوجد شيء متحرك حركة دائمة ، وتلك الحركة دائرية . هذا ما أثبته الحس لا الدليل العقلي وحـده . ينتج من هذا أن السماء الأولى يجب أن تكون أزلية . ثم لا مناص من التسليم بأنه يوجد شيء آخـر يعطي تلك الحركة بطريقة مستمرة ، وبما أنه لا يوجد إلا ثلاثة أنواع من الكائنات وهي : الكائن الذي يحركه محـرك ، والكائن الذي يعطي الحـركة للمتحرك ، والكائن الوسط بين المتحرك والمحرك ، وهو كائن يجب أن يهب الحركة ولايتحرك هو ، فهو أبدي أزلي ، أصل لغيره ، منزّه ، فعال مؤثر .

« إليك كيف يهب الحركة للكائنات . لا يخفاك أن الشيء المرغوب والمعقول يهبان للراغب والعاقل الحركة بـدون أن يتحركا . وأول مرغـوب مشابه لأول معقول ، لأن موضوع الرغبة والحامل عليها هو الشيء الذي يظهر أنه جميل . وأول غرض للإرادة والمؤثر عليها هو ما يظهر أنه جميل أيضاً . وعليه،فنحن لا نطلب الشيء إلا إذا تراءى لنا جميلاً ، لا أنه جميل لأننا نطلبه. فأصل الموضوع إذن الفكر . وهذا الفكر يتحرك لماهو معقول، كما يتحرك لما هو جميل ،فيكون كلاهما في صف واحـد من حيث أصليهما . ولا يخفى أن أصـل الشيء ، يجب أن يقدم على غيره من العلاقات والخصائص الأخرى الملازمة لذلك الشيء ، كما لايخفى أن أكمل الأصول هو أبسطها وأفعلها . إذن فقد دخل الجميل في ذاته ، والمعقول في ذاته ، في دائرة المعقول . ولا يخفى أن ما كان أول ، كان أكمل ، سواء كان مطلقاً أو مقيداً . وبناء على هذا ، وجب أن يكون سبب الأسباب كلها موجوداً ثابتاً لا يتحرك . وهذا هو الفرق بين هذا السبب الأولي والأسباب الأخرى . فإن الأسباب نوعان ، نوع مطلق ونوع غير مطلق . والكائن الثابت يهب الحركة للأشياء بالصفة التي يهبها الشيء المحبوب ، وما يتحرك يهب الحركة للمجموع كله . من هنا ترى كل كائن متحرك جائز عليه التغير والتحول . فإذا كانت أول حركة هي حركة الانتقال من مكان إلى مكان ، فالكائن المتحرك يحصل فيه تغير ، إن لم يكن في أصله ففي موضعه . ولكن بمـا أنه من الضروري وجود كائن يحرك وهو ثابت ، وثباته لا يمنع كونه فعالاً مؤثراً،فيكون هذا الكائن غير قابل للتغير ومنزهاً عن التحول . ودليل ذلك اننا قلنا أن أبسط التحولات وأولها ، هـــو الانتقال من مكان إلى آخر . وقلنا أن أول الحركات الأولية هي الحركات الدائرية. ينتج من ذلك،أن الكائن الذي تصدر منه تلك الحركة الأولى يجب أن يكون ثابتاً، فالمحرك الثابت إذن ضروري الوجود . وبمـا أنه واجب الوجود ، فهو الكمال المحض . وبناء عليه فهو أصل . ولأجل أن تدرك ذلك ، إليك أنواع الضروري وهي : ضرورة قاهرة وهي من نوع الضرورات التي تبعث أميالنا الطبيعية نحو مطالبها . وضرورة هي في الحقيقة سبب لنيل الكمال . ثم هناك ضرورة أخيرة ، وهي ما كانت ضرورة في ذاتها ، ولا يمكن أن تكون إلا كذلك.»

نظرة على ما سبق

نقلنا ثلاثة أقوال في المسألة اللاهوتية ، عن ثلاثة فلاسفة هم دعائم الفلسفة اليونانية وأركانها ، ليتضح للقارىء مبلغ مدرك الأقدمين في تلك المسألة الكبيرة ولا بد أن يكون قارئنا قد لاحظ معنا ، أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة ، ذهب مذهباً خاصاً به في تقرير تلك الحقيقة ، فتأدوا إلى نتائج وإن اتحدت في الإيجاب والإثبات ، إلا أنها اختلفت من حيث النعوت والصفات .

أما سقراط ، فقد سلك في بحثه مسلك البساطة والوضوح ، فاستجلى أمام سامعه مشاهد الطبيعة ، ومعاهد آثارها البديعة ، وجال بفكره في مناحيها جولة المفكر الباحث ، فرأى أنه لاشك في وجود واضع لهذا النظام البديع ، موجد لهذا الكون الفخم ، فآمن به إيماناً فطرياً ، يستوي فيه سقراط الفيلسوف وأجهل الجاهلين من هذا النوع الإنساني . ثم إنه قوّى برهانه الطبيعي هذا بالبرهان التاريخي ، فاستعرض لذلك أحوال الأمم ، ودرس شيوع تلك العقيدة بينها جيلاً بعد جيل ، مع اختلافها في اللغات والأجناس ، وتفاوتها في الفكر والعلم ، فاتخذ سقراط هذا الإجماع دليلاً قوياً على أن العقيدة بوجود الصانع حاجة من حاجات الروح ، وغريزة من غرائز العقل ، لا يمكن الإنسان أن يلفت نفسه عنها إلا بعارض من النقص ، كما لا يستطيع أن يلفت نفسه عن خاصية من خصائص جسمه إلا بعارض من الخلل فيه . هذه الحاجة العامة في النفوس ، عالمها أو جاهلها ، متمدنها ومتوحشها ، قديمها وحديثها ، دليل محسوس على أن موضوعها حق ، إذ لا يعقل ولا يتصور أن تحتاج النفوس إلى وهم ، وترتاح إلى خيال مجرد ، وهي مجمعة عليه هذا الإجماع المطبق .

هذان برهانا سقراط ، وهما من البساطة والوضوح بحيث لا يعز إدراكهما على أي عقل ، ولا يعلو متناولهما عن أقصر فكر . أما ما ورد في أثناء عباراته مما يشعر بتعدد الآلهة ، فنعتذر عنه بأنه إنما كان يتسامح في ذلك أحياناً مجاراة

للعامة، واحتراماً لأميال الأمة، وإن كان ذلك يعد نقصاً في كماله — إن صح ذلك عنه — ويريك رأي العين ذلك الفرق الشاسع بين النبي والفيلسوف . الفيلسوف كما ترى ، يساتر في العقيدة أحياناً ، فيكتم إيمانه ويخفيه ثم قد يذيعه ويفشيه ،وقد يكون بينه وبين العامة شأن يخالف شأنه بينه وبين الخاصة الخ ... من أمثال هذه الأحوال التي سببها ضعف القـوة البشرية . أما النبي ، فيذيع إيمانه لا يخاف لومة لائم ، ولا يخشى صولة ظالم، يواجه بها الملوك في أبهتها والرؤساء في سطوتها، ويصادم بها الأمم في عقائدها ، لا يتخيل بطشاً ولا هضماً ، ولا يخاف بغياً ولا صدماً ، ولا يزال كذلك حتى يظهره الله على أعداء أنفسهم، أو يجلو عن الوجود وقد أحدث فيه أكبر الآثار وأعظم الحوادث ، ولسنا نرى من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، نبياً مرسلاً نال مثل ما ناله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الخصلة الكريمة كما ستراه إن شاء الله .

أما أفلاطون ، فبرهانه يحتاج الى شيء من العلم والحكمة ،فهو بعيدعنالبرهان الفطري على قدر بعده عن متناول العقل العادي ، وهـذا كما لا يخفى عيب في الدليل لا يغيب على بصير . إذ لا يخفى أن الخالق جل وعز ، أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر ، فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخفـاء بحيث يدق على كثير من الأفهام ، ولا يهتدي اليه بعض العقول إلا بوسائل منالعلم غير متيسرة للعالم كله ؟

إن قيل : إن ذلك البرهان خاص بأهـل العلم ، أما العامـة فأمرهم سهل وخطبهم هين . قلنا : إن خفاء الدليل مهما كانتوسائل العلم المستعملة له ،لايليق إلا بالشيء الخفي الذي يعوز شيئاً من الجهد في إدراكه والحس به . أتراكيوماً من الأيام ، في حاجة لاستنباط خفايا النظريات الفلسفية من باحات الجماليالفكرية لتقيم البرهان على وجود الشمس تتلألأ في رابعة النهار ،أم ترى من نفسكالاكتفاء بالإشارة إليها ، واستلفات النظر إلى الضوء الذي حواليها ؟

إن قلت: إنما أكتفي بالإشارة اليها لمن هم وإياي في مستوىواحد منالشعور .

أما بالنسبة للمحجوبين الذين لا يستطيعون إدراكها إلا من تلك الطريق،فالتجىء أمامهم للغوص في سرائر الفلسفة لاستنباط أدق البراهين إرغاماً لهم، وكبحاً من شرتهم . قلنا : ان إغماضك في الدليل على هؤلاء المحجوبين ، لا يزيدهم الا مضياً في عشوائهم ، واسترسالاً في ضلتهم ، ويكون اغماضك هذا عليهم مغرياً لهم على مقارعة دليلك بمثله ، وتوهم الظهور عليك ، فلا تزال بينهم في أخذ ورد،ومحاجة وملاجة ، حتى تجدون أنفسكم قد خرجتم عن الموضوع الأصلي ، الى متاهات يحار فيها الفكر ، ويضل فيها العقل ، فترجعون من تلك الجولة المتعبة ، لا يمتاز أحدكم عن الآخر في الإعياء والعجز ، وتكون النتيجة غالباً تثبيت الضال في ضلاله، وفرحه بزخارف أقواله . وهلم جرا .

* * *

الباب الثالث

حياة خاتم المرسلين ﷺ

محمد ﷺ

تمهيد

نحن اليوم بإزاء موضوع يحفى القلم دون توفيته بعض حقه ، وتضيق مجالات التعبير عن تصوير شطر من حقيقته ، وتكل عزمات الروية عن خوض لجج باحاته ، وتنقطع أنفاس التصور عن السبح في سبحات أنواره .

إذا كانت النفس الإنسانية في ذاتها معضلة العلم ، ومشكلة الفلسفة ، وعقدة الحكمة من القدم إلى اليوم ؛ وإذا كانت المعارف الإنسانية بأجمعها ، وقوانين علوم النفس برمتها ، لم تزل قاصرة عن تتبع سير النفس في حركتها وسكناتها ، والإشراف على سر تطوراتها في صلاحها وفسادها ، وعاجزة عن الإلمام بصفة عروجها في عالمها على أجنحة الفضائل ، أو هبوطها بدوافع شهوتها إلى حضيض النقص والرذائل ، فكيف يطمع باحث أن يقف على حقيقة روح نزلت من حظائر الملأ الأعلى ، وانفصلت من سرادقات العالم الأسمى ، واتصلت بأبدع وأكمل صورة من صور المادة ، لتأخذ في الأرض بيد أرواح غرقى ، وتنجي من الغمم نفوساً هلكى ، وتشفي بسبحات جمالها عيوناً عميا ، وتخلص من الأدران قلوباً غلفاً ، وتفتح لسماع الحقيقة أصمخة جامدة وآذاناً صما ، وتنطق بفصاحتها ألسنة أصبحت عن غير المفاسد بكما ، وتنقي بمطهرات حكمتها مدارك غدت بأوضار الوساوس رجساً ، وتفك أصفاد عقول أوسعها رؤساء العقائد ضيقاً وضغطا ، وتحل أغلال أفكار قتلها حفظة الأباطل ذلاً وأسرا ، وتدحض من حملة الشرائع ضلالاً وزيغاً ، وتقيم من الفلسفة عوجاً وأمتا ، وتتم من مكارم

الأخـلاق خداجاً ونقصاً ، وتدك عروش ملوك ساموا الأمم خسفا ، وأحرقوا الضعفاء عسفا ، وتلصق بالأرض جباهاً ادعت أن بينها وبين السماء صلة وودا ، وأن بيدها من أمور الناس حلاً وعقداً ، وتلحق بمصاف العامة أقيالاً زعموا أن لهم من الربوبية قسطا ، ومن التسلط على رقاب المخلوقين حقاً ، وتنسف قصوراً شيدت بمهج الأرامل واليتامى جوراً ، وترد حقوقاً اغتصبها الرؤساء عدوانـاً وظلماً، وتضع للعدل في الأرض ميزاناً فصلا، وللقسط قسطاساً عدلا، وتكشف عن جوهر الإنسانية خبثاً ران عليه فجعله فحما، وتجلو عن أرواحها غماً سودا، وعن ضمائرهـا غياهب سحما ، وتهيء بذلك الأرض لقبول نور يفيض عليها من سماء الرحمة فيضا ، ويعد النفوس لكمال طالما حنت إليه حنيناً وبكت عليـه الضمائر شوقا ، وتشرح الصدور لدين ترتع فيه الأرواح رتعا، وتسبح في سبحاته القلوب سبحاً ؟

درس هذه الروح يستلزم معارف جلى ، وعلماً جما، ويستدعي من الباحث بعلم النفس إحاطة كبرى ، وبضمائر المساتير معرفة عظمى .

دعنا من قوم يظنون أن للشعريات في هذه الأقاويل حظا ، وللخيال في هذه العبارات سهما ، وهلم بنا نستجوب الحوادث ، فإن لها بالحقائق ألسنة فصحى ، وأجوبة مثلى .

من ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الطاهرة الكريمة ، نشأت بين قوم كانوا من الدين في وثنية ، ومن الأخلاق في همجية ، ومن العادات في وحشية ، ومن الاجتماع في إنقسامات قبيلية ، وتحزبات عصبية ، ومن المدارك في جهالة ، ومن الأفكار في ضلالة ، ومن الوجود في عماية ، ومن العقائـد في غواية ، ومن النظامات في فاقة ، ومن القوانين في حاجة ؛ حروب متواصلة ، وأحقـاد متوارثة ، ودماء مهدرة ، ومهج مهراقـة ، وعادات نشبت فيهم نشوبا ، وغرست فيهم عيوبا، وجرت عليهم خطوبا، وطباع خلعتهم عن مقتضى الفطرة، ونبت بهم عن مطالـب الخلقة ، واصطلاحات بعدت بهم عن قوانين الطبيعة ،

وألقت بهم إلى مطـارح الرذيلة ، وأشربت نفوسهم سموم القطيعة ، صناديد لا يفكرون في غير الغارات ، ولا يفاخرون إلا بطعن الردينيـات وضرب المشرفيات ، شعراء ولكن في الدعوة إلى القتال ، وتيتيم الأطفال ، وإفناء الأهل والمال ، أقوياء ولكن في نسف المعالم ، واكتساح المغانم ، نجـداء ولكن ضد بعضهم ، شجعان ولكن على أنفسهم . ولكني مع هـذا لا أنكر أنهم كانوا أقل من سائر الأمم عيوباً ، وأهون منهم في الرذائل نشوبا ، وأولى بأن يؤدبهم الله بوحيه ويحملهم إلى خلقه أنوار دينه . ومن ينكر علينا ، أن هـذه الروح المحمدية الشريفة ، قامت في مبدأ الأمر وحدها بدون مرشد ولا نصير ؛ وبغير مشير ولا وزير .

ومن ينكر علينا أنها لاقت مما يحيط بها من الأرواح مقاومات عنيفة ، ومخاصمات شديدة ، وفتناً مظلمة ، وإحناً حالكة وصدوراً وغرة ، وأعداء فجرة ؟

ومن ينكر علينا أنها صبرت تجالد هذه الأرواح سنين متوالية ، تأخذهـا بالنصيحة مرة ، وبالترغيب أخرى ، وبالترهيب حيناً . وبالجدال أحيانـاً ، فكانت بذلك وحدها أمام أمة بأسرها ، ترمقها عن بكرة أبيها شزراً وتتوعدها شراً ، وتهددها سراً وجهراً ، وتنصب لها الحبائل ، وترصد لها المخاتـل ، وتغري بها اللئام والرعاع ، وتثير عليها الإحن والأحقاد ؟

ومن ينكر علينا ، أنها فازت في النهاية على جميع مجاوراتهـا ، وأخضعت لسلطانهـا جميع عدواتها ، وسائر حواسدها ، وأتمت كل وظائفها ، ثم صعدت إلى حيث أتت ، قريرة العين مرتاحـة البال ، لم ينلها من تألب أعدائها شيئاً ، ولم يلحقها في أداء وظيفتها فتور ولا ونى ، ولم تصعد ، حتى نقشت إسمهـا في صفحات الوجود نقشاً لا يمحى ، وأبقت فيه أثراً لا يبلى ، واستخلفت فيـه روحاً لا تزهق ، وحياة لا تضمحل أفاعيلها في تابعها إلى يومنا هذا .

من يرد أن ينكر علينا كل هذه الحوادث فلينكر ، الشمس طالعة والنجوم ساطعة ، ونفسه الجاحدة .

إذن ، كيف نشأت هــذه الروح على غير سنة الوسط الذي ولدت فيه ، وكيف احتمت من مؤثرات ما يحيط بها من العادات والأخلاق ، وكيف نجت من مشائن الغرائز التي كان يجب أن تنشأ فيهــا بطريق الوراثة ، ثم كيف سلكت وحدهــا هذه المسالك الوعرة ، وذللت كل هذه الصعوبات الهائلة ، واجتازت كل هاتيك العقبات الكئود ..؟

ثم كيف نجحت في مشروعها ، واستطاعت أن تخضع تلك الملايين من الأرواح لسيطرتها ، وتجعل كل تلك الإرادات القوية تحت سلطان إرادتها ؟

ألا ترى معي الآن ، أن هذه الروح أكبر روح ظهرت في العالم ، وأن إرادتهــا أقوى إرادة عرفت من بني آدم . وأن عزمها لما تندك أمامــه الجبال الشمخ ، وتهبط منه العرانين البذخ ، وأن علمها لما لا يدخل تحت نطاق فكر ، ولا ينحصر في دائرة روية .

إذا كنا نحن أمام هذه الروح حيارى لا نستطيع كيف ندركها ، مــع اعتقادنا بأنها روح نبي مكرم ، ورسول معظم ، له من جانب القوة الإلهية عون جبروتي ، ومن الملائكة المقربين عضد سماوي ؛ فكيف تكون حيرة جاحــد لا يعتقد بنبوة صاحبها ، ولا يصدق بأن له من جهة العالم العلوي توفيقــاً يمده ، ونصيراً يدفع عنه الفشل ويرده ؟

كيف يعلل الملحد هذا التأثير الهائل الذي لم يسبق مثله للأنبياء والتاريخ أصدق شاهد ، وحوادث الكون أعدل ناطق ؟

ألا يكون المكذب به أحير من تحت السماء في تعليل هــذه المدهشات ، وتفسير هذه المعجزات ؟

إذا كانت هذه الأعمال العظمى ، تتم لغير نبي وتمكن لمن ليس له عون رباني ومدد إلهي ، فما هو فضل النبوة على السياسة ، وما هو امتيازها على حيل طلاب التسلط وعشاق السلطة ؟ نعوذ بك اللهم من الجمود على أحقاد الآباء ، والتــأثر بوراثة الأسلاف .

نحـن لا نكتب السيرة المحمدية الكريمة كتاريخ يقرأ لتمضية الوقت ، ولا نود أن نجعله تسلية للنفوس في أوقات فراغها ، ولكنا نود درسها من وجهـة فلسفية حيوية ، نتعلم منها ماهية الإنسان ، ومقدار مـا وهب من ملكات ومواهب ، وكيف نسلك بأرواحنا سبل المطالب ، وكيف نأخذ نفوسنا بآداب الدنيـا والدين ، ونجمع بينهما في مسلك واحد . ومن ذا الذي لا يرضى بأن يكون تابع أشرف روح برهنت على حقيقتها وفضيلتها ، وسلكت في الحياة كل السبل الممكنة ، وكانت في كل سبيل منها نوراً يعشو إلى ضوئها التائه ، وعلمـاً يهتدي به الخابط ، وبزت في كل مجالة من مجالات المجهودات الإنسانية كل مزاحم ، ونالت من مسالمة الوجود لها ، وموافقة مقتضياته لآمالها ، ما لم يبلغه حي قبلها ولا بعدهـا ألقى بنفسه في معممان هذا العالم ؛ ثم عرجت بعد ذلك كله إلى محتدها العلوي ، نقية الجيب طاهرة الذيل ، لم ترتكب إثماً ولا شططـاً ، ولم تكتسب إلا ما يخلد لها حسن الأحدوثة وجمال الأثر .

من ذا الذي لا يرضى بأن يكون تابع هذه الروح العالية في حركاتهـــا وسكناتها ، وسلمها وحربها ، ورضائها وغضبها ، وانبساطها وانقباضهـا ؟ لا جرم أن هذه الروح لا تتحرك إلا لنوال كمال ومحامد خصال ، ولا تسكن إلا عن حرام وضلال ، ولا تسالم إلا الفضيلة والجمال ، ولا تحارب إلا الرذائل وذميم الخلال ، ولا ترضى إلا الحق والاعتدال ، ولا تغضب إلا لله في جميع الأحوال ، ولا تنبسط إلا لمشاهدة سبحات الملك المتعال ، ولا تنقبض إلا لمن لحظ سواه في الأقوال والأفعال .

من منا لم يؤلمه التناقض بين إحساسه وعقله ، ولم ينغصه التعاكس بين عقيدته وفعله ، ولم يسخط على نفسه التباين بين دينه وميله ؟

يرينا العقل أن وقفنا لأنفسنا على الفانيات غاية الغوايات ، وشر البليـات ، فإن همت بنا الرغبة إلى الإصاخة لصوته ، والعمل بنصحه ، جذبتنـــا من الإحسـاسات الشهوية تيارات ، ولعبت بنا من نزغاتها نزوات ، وحالت بـــين

أنفسنا وبيننا حيلولة تدق عن أن يتصورها الفكر بصورة ، أو يقع منها التعبير على كيفية .

ترينا العقيدة أن ذلك الأمر رجس حرام ، وتبرهن لنا الحوادث على أن فيه الآلام والأسقام ، بل الموت الزؤام ، فنرى أنفسنا مسوقين لإتيانه ، مرغمين على غشيانه ، كأننا موجورون على إتلاف أنفسنا وأموالنا ، ومرشون على إهلاك ذواتنا وأشخاصنا !

ليس هذا قاصراً على من كان له دين وعقيدة ، فإن كل الأمم حتى في هذا العالم المتمدن ، يرى منها هذه الآثار المحزنة من التناقض والتباين في كل حيثية . فلقد أرتها معارفها ضرر الخمر وويلاته ، وشروره وموبقاته ، ومع ذلك فهي تعتصره وتنشط العاملين عليه ، وتبيعه وتستلفت الأنظار بكل الحيل إليه .

دلتها معلوماتها وأرشدتها التجارب أن القمار سبب الدمار والخراب ، ومبيد الأسر العالية الأطناب ، وملصق الجباه الشماء بالتراب ، ومكثر الانتحار بين الشيب والشباب ، والرجال والكعاب ، ومع ذلك فهي تأتيه جهرة ومن وراء حجاب ، وتعلن عنه في الجرائد إعلانها عن فوائد أعظم كتاب !

دلتها المثلات أن تكشف النساء ودورانهن في الطرقات ، ورقصهن مع غير أزواجهن في المنتديات ؛ مجلبة لما لا يعد من المخزيات والمنكرات ، وقد أرشدتها الحوادث المتكررة لتلك السيئات ، بقوارع تتفتت منها الأكباد ، وتذوب الإحساسات حسرات ، ومع ذلك فهي سائرة في سبيلها سيراً حثيثاً . وعاملة على بقاء ذلك واستشرائه بكل الوسائل . إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، كما سيراه القراء إن شاء الله في موضعه من كتاب الإنسان والمدنية .

فلم هذا التناقض الهائل بين مطلب إحساساتنا وأحكام عقولنا ، ولماذا هذا التعارض بين عقائدنا وأفعالنا ؟ هل قضي على الإنسان بأن يكون عمره متذبذباً متردداً ، لا يركن إلى شيء حتى يزعج عنه ، ولا يعتمد على أمر حتى يطرد منه ، ولا يقف لحظة حتى يساق للأمام ، ولا يساق للأمام حتى يجذب إلى الوراء ،

ولا يكون كذلك حتى تتوزعه القوى المختلفة من جميع جهاته ، وهو مع ذلك يزعم أنه حر رشيد ، وأنه مختار مريد ، وأنه بطل صنديد، وأنه ذو عزيمة تقد الحديد وتذيب الصياخيد ، وأنه مما طالت فيه دعاويه ، وكثرت عليه من نفسه شكاويه .

هل للإنسان عذر في الحال المرتبك ، والأمر المشتبك ؟ هل له أن يقول عن نفسه مدافعاً : أنه ضعيف ألقي به في وجود قوي العوامل، قصير مدى الفكر، تكتنفه في الكون ألوف من الفواعل ، محدود العلم ، قضي عليه أن يسير من حياته في مراحل بغير زاد ولا رواحل . عديم الخبرة بالطبيعة ، قذف به منها في مجاهل ، ظامىء الفؤاد لكمال مجهول سيق لأن يعرف منه المناهل ، فاتجه إليه من غير دلائل،ممتع بصفات متباينة، حتم عليه أن يختار منها الفضائل ويقاوم الرذائل ، وهو مع ذلك بين أمثاله في حياة لها قوانين وشرائط ، وعليه منها تكاليف ومغارم ، تشتبك فيها مطالب حياتهم بمطالب حياته ، وأغراض نفوسهم بأغراض نفسه ، فتتجلى له الحياة على صور شتى ، وأشكال عدة ، لابسة من جهله وجهلهم ثياباً تتنوع وتتباين ، وتتلون وتتخالف ، على نسب يلتوي عليه أكثرها ، ولا يدرك منها إلا جزءها ، فيرى نفسه مرغماً على إتيان ما ينكره عقله ، وغشيان ما يستهجنه فكره ، إن رغب في إصلاح نفسه قاومته مما يحيط به عقبات عدة ، وصدمته في صدره صعوبات وشدة ، فيكره نفسه على أن يعيش ناقصاً وهو يرى الكمال بعينيه ، ويمضي عمره في تعاسة وهو يرى السعادة بين يديه ، ترنو بنظرها إليه ؟

قلنا، هل للإنسان أن يقول هذا مدافعاً عن نفسه، وملصقاً العار في نقصه على بني جنسه ؟

كان يمكن أن يقول هذا ، لو لم يكن الله تعالى قد أقام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم ، مثلاً يرسم الطريق للخابطين، وعلماً على سبيل السائرين يتتبع التائه أثر قدمه ، ويسير مسترشداً بعلمه ، قطعاً لعذر المتذر بوعورة

المسالك، ودحضا لحجة الزاعمين بأن الإنسان مكره على تقحم المهالك، والتردي في المضانك .

ليس على الذين رعبتهم مفازات الحياة ووعوثتها، وهالتهم عقباتهاومعاطبها، إلا أن يتبعوا ذلك المثال الكامل في سيره ويقتدوا بهديه في جميع أمره ، فإنه جاء ليعلم الإنسان كيف يسلك بنفسه الحياة بدون أن يدنسها ، وكيف يطير بروحه الى الغايات بدون أن يتعبها ، وكيف يجري في باحات المطالب المختلفة بدون أن يلامسه الجور بذلة ، ويركض في ساحات المجد غير خاش أن يصدمه الغلو في صدره.

قضى الله على سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، أن يطوف جميع أدوار الحياة الممكنة ليكون للناس في جميعها مرشداً أميناً ، ودليلاً خبيراً ، فكان (فرداً) في أسرة ، و (واحداً) من قبيلة ، و (نفراً) في أمة ، و (زوجاً) و (أبا) و (تاجراً) و (مربياً) و (مرشداً) و (واعظاً) و (جندياً) و(قائداً) و (مشرّعاً) و (قاضياً) و (حكيماً) و (إماماً) و (سياسياً) و (ملكاً) و (مسالماً) و (محارباً) و (معاهداً) و (عابداً) و (زاهداً) و (نبيا) و (مرسلا) ، وهي وظائف حيوية يستحيل أن تتفق كلها لبشر ، ولكن لا يخرج من أن يكون له بعض صفات منها ، فلم لا يقتدي بهذه الروح العالية الكريمة التي برهنت للعالم أجمع أنها جازت كل عقبات الحياة نقية طاهرة، ومرت بين أمواج المصاعب والفتن نقية زاهرة ، ثم صعدت إلى عالمها تاركة وراءها من حسن الذكر، شذى أعطر من أرج الزهر في السحر ، وأثراً يكسف بلألائه كل أثر ، ولم تزل قوتها في الأرض تعمل أعمالاً تدهش البشر ، ونورها بين الأنوار يحسر البصر .

فهل يصح ، أن يعد المسلمون هذه السيرة من ضمن السير ، ويجعلوها مجرد فكاهة في السهر ،ورقائق يوشون بها أطراف السمر ،أم يجب أن يدرسوها منجهة فلسفية حيوية، ليتخذوها دستوراً للعمل ، ونبراساً يجلون به عن حياتهم ظلمات الخطل، ويحتمون به التدهور في الزلل،وعلماً يعشون إلى ضوئه في كل أمر جلل؟

فالفرد في أسرته، والواحد في قبيلته، والنفر في أمته، والزوج مع زوجته، والأب بين أهله وصبيته ، والتاجر في تجارته ، والمربي أمام تلامذته ، والمرشد بين زمرته ، والواعظ أمام حلقته ، والجندي في مهنته ، والقائد في رتبته ، والمشرّع في وظيفته ، والقاضي في ولايته ، والحكيم لدى طلبته ، والإمام حيال حشدته ، والسياسي في حكومته ، والملك في رعيته ، والمسالم أمام أوليائه ، والمحارب قدام أعدائه، والمعاهد بإزاء أهل ذمته، والعابد في محرابه، والزاهد في دنياه، يجد من سيرته صلى الله عليه وسلم نوراً يهتدي به في شرعته، وروحاً يقوى بها في مزاولة صناعته ، ودستوراً يسير عليه لتحقيق أمنيته ، وقانونا يرجع إليه في حيرته .

كيف لا يجعل المسلمون هذه السيرة المثلى لهذه الروح العظمى كحلا لأعينهم، وشغافاً لقلوبهم ، ودخيلاً تحت ضلوعهم ، وشعاراً على جسومهم ، ودثاراً فوق لباسهم ؟

وكيف لا يجعلونها مرجعاً لفخارهم ، وأصلا لمجدهم وسؤددهم ، ودواء لأدوائهم ، ومرهماً شافياً لجراحهم ، ومنشطاً لفتورهم ، وسلماً لأوليائهم ، وحربا لأعدائهم ، وحجة على صحة دينهم ، ودليلا على وضوح طريقهم .

نعم ، إن تجلية هذه السيرة الكريمة على الصورة الحيوية المؤثرة ، بالنسبة لأبناء هذا العصر ، الذين اشتبكت أمور حياتهم وتداخلت حلقاتها ، وامتدت مصالحهم وتشعبت فروعها ؛ حتى يستطيع كل فرد منهم أن يجد منها الهادي المرشد ، والدليل المبين لما يحتاج إلى بحث وتنقيب ، وتفصيل وتبويب،وأبحاث في أساطير الحياة طولى ، ودروس في أسرار القوى النفسية جلى .

هذا مما سنتوخاه في كتابنا هذا والله المعين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه أجمعين إلى يوم الدين .

* * *

الفصل الثامن

لزوم السيرة المحمدية
لكل إنسان

كل مجهودات الإنسان ومحاولاته ، متنازعة بين عاملين عامين يتقاسمان فؤاده ويتوزعان سائر قواه المغروزة في طبيعته . عامـل مادي جثماني ، وعامل أدبي روحاني . الأول يدفعه لتأييد مركزه في هـذا المشهد المحسوس ، ويبعثه لأداء وظيفته فيه بحيث لايستطيع الفكاك منه ، وله مما ركب في الجثمان من الضروريات الكثيرة كالغذاء والمسكن واللباس والتحفظ من عوادي الأمطار والرياح والهوام ، وما غرز فيه من العواطف نحو أهله وولده وبني نوعه جنود وأعوان تقوي فعله وتشـد أزره ، وتزيده قـوة على قوته ، وكلما تدرج الإنسان في تذليل صعوبات حياته المادية ، زاد هذا العامل تأثيراً ، وصار أحشد جنوداً وأكثر نفيراً ، وتشكل وتطور على حسب تشكلات الحياة المادية وتطوراتها . ومن يرد الدليل المشاهد فعليه بالتدبر في حالتي المتوحشين والمتبدنين ، فإن المدنية مع ما أحدثته من التسهيلات في أمور الإنسان الجسدانية ، لم تقلل من شـدة ذلك العامل ، بل زادته أيداً على أيده ، فصار أقوى مما هو عند المتوحشين ، بما فتحت لذويها من باحات المطالب ، وما أيقظته في نفوسهم من الحاجيات والرغائب .

هذا العامل يجلي للإنسان اللذائذ العاجـلة ، ويصور له المشتهيات الفاتنة ، ويكسوها من سحر التمويهات والزخرف ثياباً يأخـذ بالبصر رواؤها ، ويميل

بالأعناق زبرجها ، ويتوجه بمجموع هذا السحر الفاتن إلى ما عـــرز في طبيعة الإنسان من عاطفة العجلة، ويظل يواجهها بهذه المرائي الفاتنة، والمظاهر الساحرة حتى يستولي على إرادتها ، ويتحقق من إثارة حميتها ، ثم يسلطها على الإنسان نفسه فيقيم فؤاده ويقعده، وينسيه ذاته ويذهله ، فيشمر عن ذيله ، سعياً لنوالها، وجداً للحصول عليهـا على الصفـة التي تصورها في خياله فيدأب وينصب ، ويفتكر ويتخيل ، فإذا لم تنجح هذه الوسائل كلها في إنالته أمله ، وتكليل عمله، ووجد من مصالح معاشريه ما يقاومه في سبيل رغباته ، ويصادمه في محاولاته لعـدم اعتداله فيها ، تذرع بالدخائل ، وتوسل بالدسائس ، ومت بالحيل، وأدرع بالتمويه والكذب ، فنافق ومكر، وداجى وستر، ثم خلب وختل، وسلب بعد ما قتل! هذا ما يشاهد يومياً من أسرى هذا العامل المادي ، وهو في العالم المتمدن أكثر ، وأثره في تشويه الفطرة الإنسانية هنالك أظهر .

أما العامل الروحاني ، فهو عامل قلبي وجداني ، يناجي الإنسان في ضميره ، ويناغيه في صميم معناه ، ويناقشه في سويداء قلبـه ، فيبين له علو عنصره وسمو جوهره ، ويكاشفه بجمال ذاته ولألاء روحه ، ويفضح له من سوءات الدنيا قصر مدتها ، وكثرة آلامها وشدة محنتها ، ويستلفته إلى الذين وقفوا قواهم في حبها ، وسروا أنفسهم لفتنتها ، كيف عاجلتهم المنية ودهمهم الفناء ، فتركوا المال والولد ونزحوا من الدار والبلد ، ونزلوا بعد سكنى القصور الشامخة ، والعلالي الباذخة ، إلى حفرة ضيقة ، ومحلة خشنة ، مثلهم كمثل القذر يؤنف من رؤيته ، ويهرب من ريحته ، ولم يزل به ذلك العامـــل حتى يوقظه من سكرته ، ويبعثه من غفلته، ويستولي على كليته ، ثم يفتح له من جانب روحه نافذة تطل به على كنوز معناه من ذخائر الجمال المعنوي ولطائف النعيم الروحاني ، ولذائذ السعادة الأبـــدية ، وحدائق الكمالات الحقيقية ، ما يذيب فؤاده شوقاً إليها ، ولهفاً عليها ، ويأخذ بلبه هياماً بها وغراماً فيها . ولكن ، دون ذلك جهاد ونصب ، وسهاد وتعب ، دون ذلك العدل والاستقامة ؛ عدل في استعمال المواهب ، عدل في أعمال الحواس الظاهرة ، عدل في وظائف المشاعر الباطنة، عدل في توجيه القوى الخارجة، عدل

في إثارة الإحساسات الكامنة ، عدل في مرامي الأفكار ، عـــدل في خطرات الخواطر ؛ واستقامة في معاملات الخلق ، إستقامة في منهاج الحق ، إستقامة في التوجه لنوال المآرب ، إستقامة في النكوص عند فوات الرغائب ، إستقامة حين الفتن ، إستقامة وقت المحن ، إستقامة في كل حركة وسكون !

هذان العاملان العامان ، المادي والمعنوي ، لهما في صميم فـؤاد الإنسان مجال واسع يتصاولان فيه ويتجاولان ، ويتدافعان في أرجائه ويتجاذبان، والإنسان بينهما واقف وقفة المستكين ، ينصاع لإشـــارة الغالب منهما ، ويرضخ لسلطان الأقوى فيهما ، ولكن لا يلبث المغلوب منهما أن يثور على خصمه ، ويعيد الكرة عليه ، فيرتفع بينهما الصخب واللجب ، ويتجدد العداء والشغب ، ويتنازعان الإنسان بينهما من كثب ، فيميل مع من غلب ، وهكذا حتى يجيء يومه فيذهب مع من ذهب !

هذان العاملان العامان، قد تقاسما الأفراد والأمم وتوزعا العواطف والهمم، حتى يعز عليك أن ترى رجلاً توصل إلى إيجاد الصلح بينهما، فعاش حراً من نزاعهما، وما الناس إلا أحد رجلين : رجل يطلب الدنيا قد تكالب على حطامها ، ووقف كل قواه على التمتع بلذائذها ، فأعمل لذلك ما استطاع من حيـل ووسائل ، وما أمكنه من حبائل ومخاتل ، ولم يبال عدل أم جار ، أحسن أم أساء ، وكلمـــا أصاب شيئاً مما طلب ، ونال رشحة مما إليه دأب ، زاد نهمه وكلبه ، ونمى لهفه ولهبه، واستشرى جشعه وطمعه، وثار ثوران الحصان الجموح يدوس كل ما صادفه من حقوق وأعراض ، ولم يزل في سورة جماحه حتى تقابله سهام المنايا في صدره، فيكون قد أنضب الجهاد ماء قوته ، ونكر الجشع والظلم جمال صورته، ولاحت أمام عينيه أشباح ضحاياه من بني جنسه ، وأشلاء صرعاه من إخوان حياته ، فتكبكبه في مهاوي عمله ، فيودّع الحياة وفي قلبه ما فيه من حسرات لا نعرف لها من اللغة وصفاً !

أو رجل ـ وهذا الصنف أقل من أن يعد ـ تشبع فكره بسوءات الدنيا وشدة

محنها ، وتذوق عقله تفاهة أشيائهــا وقصر مدتها ، وأحست مشاعره الداخلة بماهية اللذات الروحية وجلالتها ، فصدف عن الدنيا نفسه ، وقصر على الآخــرة جهده ، فترك الشغل والعمل ، وصرف مجهوده للفكر والأمل ، ولم يبال عضته الفاقة بناب ، أم راشته الحاجة بسهم ،ولم يسأل أنفحه البرد بزمهريره ، أم لفحه الحر بهجيره ، بل غرق في لجـة التأملات الذاتية ، وأشرف على عجائبه القلبية ، وترك مادته تحت تأثير الفواعل وسلطان العوامل، وقنع بنعيم روحهعن كل نعيم، وعن لذائذ الجسمانيات بالصفاء المستديم .

دلنا تاريخ الأمم كلها ، أن الإنسان لا يقوم أمره ولا ينتظم حاله بواحد من هذين العاملين على انفراده،ولا بد منأن يكونكلاهما متسلطين عليه .شوهدت أمم قامت بالعامل المادي ، فنالت من خير الحيــاة الأرضية ما نالت ، ولكن لم تلبث أن جار بها ذلك العامل عن قصد السبيل ، فورطها فيأنواع من الإفراطات والتفريطات كانت السبب في تلاشيها وفنائها . وشوهدت أمم قامت بالعامــل الروحاني فنالت من رقي الروح المكانات العلى ، والمقامات الفضلى ، ولكنها لم تأمن عدوان جيرانها ، وجور متاخميها من الأمم ، بل ولم تطق فطرتها الصبر على تلك الحالة ، فجاءها الفساد من ذاتها ، وعدى عليها عامل جسدها فذهبت إلى حيث ذهب السابقون .

فانتظام حياة الإنسان واستتبابها ، متعلق بإيجاد الصلح بــين ذينك العاملين المسيطرين على كيانه ، وهو مجهود أصبح الشغل الشاغل اليوم للعالم الإنساني في الغرب خصوصاً ؛ فقــد أرشدتهم المثلات والحوادث إلى ذلك ، كما سيمر بك إن شاء الله تفصيله ؛ ولكن كيف نجد تلك الطريقة وأنـّى نبحث عنها ، وممن نتعلم حدودها وشرائطها ؟

يدل تاريخ الإنسان من أول نشأته لليوم ، أن الحقائق الكبرى لا تسري إلى فؤاده ، ولا تأخذ مكانها اللائق بها منه ، إلا إذا رأى لها مثالاً محسوسا يحس به وينظر إليه ، وتنفعل به نفسه وتنتقش في ذهنه صورته . فما هـــو ذلك المثال المحسوس ، الذي يتعلم الإنسانمنه كيف يوجد الصلح بين عاملي مادته ومعناه ؟

لو كانت المسألة تصورية فكرية ، لكفاه ما هو موجود في بطون الكتب من الحث على العدل بين مطالب الروح والجسد ، ولكن المسألة عملية أكثر مما هي علمية ، ولا يوجد الآن من يشك في أن التربية الحقة هي ما كانت بالقدوة الحسنة والأسوة الصالحة ، لأنها هي وحدها التي تستطيع أن تستولي على مشاعر الفرد ، فتقوده إلى صراطها رغم أنفه وضد إرادته ، بخلاف التربية بالأقوال فإنها تذهب على الأكثر أدراج الرياح ، ولولا ذلك لكانت الأمة المصرية اليوم أرقى الأمم في معارج الكمال الخلقي ، لكثرة ما يذيع فيها الآن من ألفاظ التهذيب والتربية . ذلك لأن الإنسان حسي بطبعه ، لا يستطيع أن يرضخ إلا للحوادث نفسها والمحسوسات بذاتها . يظهر هذا الخلق منه في كل حركاته وسكناته ، حتى في الحين الذي (يعتقد) فيه أنه (يعتقد) مدركاته بدون شك ولا ارتياب . وإلا فإلى أي علة تنسب إتيانه للإفراطات ، وهو يدعي أنه (يعتقد) ضررها على جسمه وعقله ، وبماذا تفسر غشيانه للتفريطات ، وهو يزعم أنه (يعتقد) أنها عادية على كمال مادته ومعناه ؟ لماذا لا يمسك النار المحرقة بيديه ؟ لماذا لا يلقي بنفسه في لجة بحر ؟ لماذا لا يرمي بنفسه من مأذنة ؟ أليس لكونه يعتقد أن كل عمل من هذه الأعمال عادٍ على حياته ، وعائد عليه بالضرر المحقق؟ فإن كان يعتقد بدون شك أن كل إفراط وتفريط له على تركيبه المادي والمعنوي مثل ذلك الضرر ، لآنس من طبيعته النفرة عنه والهرب منه ، وإن غشي شيئاً من ذلك يوماً أو أياماً ، فلا تزال عقيدته تزاحم عادته حتى تتغلب عليها تماماً . كل هذا يثبت أن الإنسان مرغم على أن لا يعتقد إلا على الأسلوب الحسي العملي، حتى في الحين الذي يدعي ويحلف فيه أنه على غير تلك الصفة ، ولولا هذه النظرية للزمنا أن نقول بأن أكثر المتدينين مجانين،لأنهم يأتون ما(يعتقدون) ضرره الدنيوي والأخروي ، ويكسلون عما (يعتقدون) نفعه وضرورته في كليهما ، ولا حيلة لهم بعد ذلك إلا أن يجلسوا إلى بعضهم فيبكون ويولولون على سوء طريقتهم وشر مآلهم ومنقلبهم . ألست ترى أن أكثر الذين يدعون أنهم معتقدون ، يخاتلون طول النهار ، ويكذبون ويسرقون ، ويراؤون ويمنعون

الماعون ، ثم لما يخلون ببعضهم يتحسرون ويتأففون ، ويحوقلون ويسترجعون، ويقولون ضاع الدين وعدم الإيمان ، وذهبت كالاتها إلى الأوربيين فعملوا بها وسادوا علينا ، وتركناها نحن فهبطنا وانحططنا ، ويظلون يظهرون من هذا الأمر غاية العجب ، ولا يدرون ما حقيقة السبب ، وهو ما نقوله من أن الإنسان حسي بطبعه لا يعمل إلا ما يعتقد (بالحس) نفعه . فترك المتدينين لفضائل دينهم وتأسفهم على عدم إمكانهم العمل بها ، لا يشعر بأنهم يعتقدونها بقلوبهم ، فإن عمل جوارحهم على ضدها يبين أوضح بيان أنهم شاكون في فائدتها ، مرتابون في حسن نتائجها. كما أن تحلي الأوروبيين بها لا يدل على أنهم متدينون، وإنما يدل كما يقرون بذلك،على أنهم اختبروها فوجدوها أليق الصفات بالإنسان، وأمسها بتحسين حياته ، فلصقوا بها لما أحسوا بآثارها الجليلة عليهم . هذا بحث مهم لذيذ يفضح كثيراً من تلبيسات الشيطان على الإنسان ، موضعه في الجزء الأول من كتابنا ، وإنما جئنا به هنا تمهيداً للبحث المهم الذي نحن بصدده .

قلنا ، أصبح الإنسان بدوافع الحوادث المتكررة في القرون المتوالية ، يميل ميلا اضطرارياً لأن يجمع بين مطالب روحه وجسده في سلك واحد ، ويؤاخي بينهما مؤاخاة طبيعية ثابتة ، وقد دل على هذا الميل الاضطراري بلسان قادة معارفه المادية أنفسهم ، كما رأيت وسترى أقوالهم إن شاء الله ، فما الذي يمنعه من إحداث تلك المؤاخاة المرجوة ؟

لو كانت المسألة من المسائل التي تتم بالأقوال ، لرأيت بعينيك اليوم أساطين دنيا ودين ، وأراكين علم ويقين ، قد اتحدت مطالب أرواحهم وأجسادهم ، فاستقاموا على منهاج الذين خلوا من الأنبياء والصديقين والشهداء ، لأن الأقوال فيها قد بلغت الغاية من إصابة جوهرها ، والإشراف على لبابها ، ولكن المسألة عملية شاقة ، تحتاج لأستاذ كبير حلل دقائقها، وعرف طبائعها، وخبر أجزاءها، وأدرك نسبها في ذاته بالاختبار والحس ، لا ترديداً من كتاب ولا حكاية من خيال . وإذا كان الترديد من الكتب والحكاية من الخيال ، لا يفيدان في إحداث

أبسط الأمور العملية ، فهل يفيدان في إحداث أكبر الأعمال ، التي من بعض نتائجها إقامة الإنسان على منهاج الفطرة ، وإيجاد الصلح والوئام بين عاملي طبيعته الروحية والجسدانية ، اللذين جعلاه بتنازعهما يحسد الحيوان في هدوء ضميره ، ويغبط النباتات في عدم إدراكها: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً . »

إليك مثالاً محسوساً : عرف كثير منا أن الماء مكون من جوهرين بسيطين وهما الأكسجين والإيدروجين ، فاعتقدوا ذلك قلباً وقالباً لما عرفوا من أنه صحيح بالاختبار ، ولكن إذا مست الحاجة إلى إيجاد الماء منهما استحال الأمر عليهم ، وأدركوا عندئذ أن مجرد العلم بالشيء لا يكفي في إيجاده ، وعلموا أنهم يحتاجون لجملة أمور عملية تشق عليهم بل تستحيل على قوتهم : (منها) استخراج كل من هذين العنصرين على حدة من الأجسام التي هما من مركباتها ، وهو يستلزم المعرفة التامة بوجوه استخلاصها بالطرق الكيماوية وبوسائل الحصول عليها نقيين غير مشوبين بمركبات أخرى تحول دون نجاح العملية ، ثم يحتاج الأمر لإحداث الحرارة اللازمة لإحداث ذلك الاتحاد لأنهما لا يتحدان على الدرجة العادية .. والخلاصة ، لا يمكن إيجاد الماء منهما إلا بتوقيف الأستاذ الكيماوي وإرشاده إرشاداً عملياً . هذا ما يعوزه إحداثك التآخي بين عنصرين بسيطين كثيري الانتشار في الكون وميالين لبعضهما كل الميل ، وقد رأيت أن مجرد العلم بذلك لا يغنيك من العمل شيئاً ، فما بالك بإيجاد الوحدة بين مطالب الروح والجسد ؟ للروح مطالب لا يستطيع أكبر الفلاسفة إحاطة بعلم النفس سردها سرداً ، فضلاً عن الإحاطة بحدودها ومعرفة نسبها إلى بعضها ، وللجسد أيضاً مطالب عدة ، وهي إن كانت أيسر عند الباحث من الأولى ، إلا أنها تستلزم علماً جماً بالمسائل الفزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) ، والزولوجية (علم الحيوانات) والتشريحية ، فإن كانت عملية إيجاد الاتحاد بين ذينك العنصرين البسيطين ، الأوكسجين والايدروجين ، تعوز العمليات التي سردتها عليك ، فإن المؤاخاة بين الروح والجسم تستدعي من العمليات ما يتلاشى بجانبه كل ما

رأيت ولا يعد شيئاً يذكر . ألا ترى معي أنها تستوجب إحاطة كبرى بقوى الروح وأنواعها ونسبها إلى بعضها ، وما منها مقدمة لتاليه ، وما منها نتيجة لسابقه ، وما منها مستقل ، وما منها تابع ، وما منها متبوع ، وما منها متغير ، وما منها ثابت ، وما منها متعادٍ ، وما منها متوافق ؛ ثم إن كل هذا يستدعي إلماماً كلياً بمجاري سيالات كل منها ، ومنابعها وغاياتها ، وتعرجاتها في سيرها ، ونكوصها على نفسها ، ثم تستلزم إدراكاً ذريعاً بحاجيات الجسد ومسارب تياراتها ، وما منها جوهري طبيعي ، وما منها عرضي وهمي ، وما منها صالح وما منها فاسد ؛ ثم تقتضي وقوفاً تاماً على وجه نسبة كل قوة روحية بما يقابلها من حاجيات الجسد ، وتحرياً مضبوطاً في كيفية توفيق نتائج تلك النسب الجزئية مع بعضها ، لتنضم كلها إلى نتيجة واحدة ، يكون من أثرها المؤاخاة التامة بين مادة الإنسان ومعناه ، وانقطاع تلك المنازعة الشديدة بينهما ، وهي التي حرمته من الغبطة بنفسه ، والتنعم بجمال روحه .

نعم ، إن هذه العملية الإنسانية الجليلة ، لتحتاج إلى أستاذ مجرب وموفق ذاقها في ذاته وصار هو نفسه النموذج الناطق بها ، فما هو ذلك الرجل الذي يصح أن يتخذ مثالاً لهذا الكمال الإنساني المحبوب ؟ هو عبد الله ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . لسنا نقول هذا مجرداً عن الدليل ، أو عارياً عن الحجة ، فإن الوجود وما فيه شهود عدول ودلائل ناطقة ، وما علينا إلا أن نتناول منها بأقلامنا ما نشاء ، فانتظر ترَ العجب العجاب إن شاء الله . نحن في سيرنا في السيرة المحمدية الكريمة على الأسلوب العلمي لا نريد أن نقيم أعدل الحجج العلمية على نبوة خاتم النبيين فقط ، بل نريد أيضاً أن نعرف إن شاء الله السبيل الذي يجب على كل مسلم أن يسلكه لنجاة نفسه واستنزال الرحمة الإلهية على قلوبنا التي تسممت بسموم ما يحيط بنا من هــذا البدع الجديد الساحر . من هذه الحيثية نرى أنفسنا في حاجة كبرى في كل خطوة نخطوها في بحثنــا إلى مدافعة حجب كثيرة حالت بين النفوس وبين القلوب ، فغيرت في نظرنا كل شيء ونكرت في بصائرنا كل صورة حتى تكاد تلبس الألفاظ غير مدلولاتها . ولئن

تعجب متفلسف متعسف من قولنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم هو الكمال المجسم والنموذج الذي يجب تعلم كيفية إيجاد الوحدة بين الروح والجسد منه ، فقد قالت مثل ما نقول أمة بأسرها بعد أن كانت من الشك بحيث يقول الله عنها : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون . » ثم انتهى أمرها بالخضوع له والاقتداء بهديه وسنته ، فصارت بعد أن لم تكن أمة عدت خير أمة أخرجت للناس ، ونالت من بسطتي الحياة المادية والروحية ما لم تنله أمة قبلها ولا بعدها . هذه الظاهرة الاجتماعية الكبرى كادت الفواشي المدنية والألفاظ العلمية القشرية تنسينا عظمتها بل تعمينا عن جلالتها . لو صحت وأنا في القرن العشرين بأعلى صوتي ، وبين قادة العلوم الاوربية أنفسهم ، وقلت : روح محمد أكبر روح ظهرت في بني آدم منذ نشأتهم لليوم لما استطاع أحد أن يتردد في صدق قولي ، ولو تردد لقلت له: أرني رجلاً فرداً نجح وحده في أمر واحد فقط من هذه الأمور : (١) توحيد أمة منقسمة إلى قبائل متعادية. (٢) سن قانون كفل لها السلطان على جميع الأمم بعد أن كانت لا تعد في مصافها . (٣) ملاشاة رذائلها الوراثية وإبدالها بفضائل اتخذت مثالاً للكمال الإنساني . (٤) نسف عقائدها الباطلة وإبدالها بدين لا يزال يزيد وينمو بصفة مدهشة إلى اليوم ، وينتظر أن يرث كل الأديان الباقية . فعل كل ذلك ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة ، أي أنه عاش وسط هذا النجاح الذي يفتن أقوى الأفئدة زاهداً عابداً عادلاً ، كما كان في أول يوم من دعوته . وكان في كل أفعاله المثال الكامل والنموذج الناطق والميزان العادل ؟ إذا كانت هذه الفتوحات المادية لم تستطع أن تؤثر على الفؤاد المحمدي العظيم ، ولا أن تفتن نفسه الطاهرة ، مع علمك بأن عشر معشار هذا النجاح في شق صغير من مثل عمله ، قد فتن الملوك والمشرعين والفلاسفة والقواد ؛ أفلا يكون هذا أقوى دليل محسوس على أن لديه صلى الله عليه وسلم ، السر الذي من عرفه أمن على نفسه سلطان الفتن ، والاكسير الذي من تعاطى منه جرعة وقي المحن ، واستقام على أعدل سنن ؟

الفصل التاسع

كيف كان العالم قبيل بعثة النبي
عليه الصلاة والسلام

قلنا في فصلنا الثالث من كتاب (الإنسان) أن لكل جيل روحاً عمومية تنتشر في أفق العالم فتعم سائر الأمم الداخلة في نطاق الاتصال بأثر واحد ، تظهر نتائجه فيها على حسب قابلتها ، وقلنا إن تلك الروح قد تكون سامية شريفة أو سافلة وضيعة ، أو مختلطة من هذه وتلك ، وقلنا إن وظيفة الأنبياء محصورة في إيجاد روح جديدة في الأمم التي يرسلون اليها « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده . » لتقاوم تلك الروح السائدة وتلاشيها لتحل مكانها فترفع الأمم من معارج التقدم إلى الدرجات التي قدرت لها ، وقلنا إن أظهر مثال لنظريتنا هذه أعمال خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

قلنا ذلك في الفصل المشار إليه ، ونريد من هذا الفصل أن نجلي لقرائنا تلك الروح العمومية التي كانت منتشرة في أفق العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، لنبين لهم بطريقة محسوسة أن حال الأمم كافة كان يستدعي الإصلاح والتعديل، ويستلزم قارعة عظمى تقيمهم على نهج السبيل ، وليتجلى لهم بأدل دليل أن رسالته كانت للعالم كافة، كما قال الله تعالى: « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

مما رأيناه بالبحث والاستقراء أن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما لبثت تقاوم الأرواح المحيطة بها وتجاهدها ثلاثة عشر سنة من عمر الفرد الواحد، ثم ظهرت بعد ذلك عليها ظهوراً سريعاً مدهشاً ودانت لها أرواح العرب كافة في عشر سنين أخر، كذلك بقيت روحه الكريمة تصاول الأرواح العامة المحيطة بأمته من كل جانب ثلاثة عشر قرناً من عمر العالم ، ثم ابتدأت بعد ذلك في الظهور والجلاء والتأثير على العواطف والإحساسات بطريقة في غاية الغرابة. ومن يتأمل في الثلاثة عشر قرناً الماضية ، ويطلع على ما كتبه أعداء الإسلام على الإسلام والمسلمين تحريفاً لتعاليمه ، وتشنيراً على قواعده وأصوله ، ووشاية وإيقاعاً بأهله ، ووصمهم بما لا يتصوره العقل من الوصمات الفاضحة، ثم يتأمل في مجموع الحركة الإسلامية المنبعثة من ذات أوربا في هذا القرن ، ير أن الشبه تام بين تأثير الروح المحمدية العظيمة في عمر الفرد الواحد ، وبين تأثير الروح العامة التي أودعها في أمته في عمر العالم. وبما أن المدة بين بدء انجلاء هذه الروح الكريمة الى تمام ظهورها وكمال سطوعها ، كانت عشر سنين من عمر جيله ، فكذلك نظن أن المدة بين بدء تجلي روحه في العالم أجمع إلى تمام إشراقها سيكون عشرة قرون ، فلا يأتي القرن الثالث والعشرون من الهجرة حتى يكون القرآن دستور الأمم كافة، يتلوه التالي في المشرق فيرن صداه في المغرب ، وليس هذا بعجيب لأنه الحق الصميم. والأمم بمجموعها مسيرة سيراً اضطرارياً نحو الحق بعامل ناموس الترقي فلا بد من أنها ستنتهي إلى القرآن ، كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ».

وبما أننا وصلنا من بحثنا إلى هذه النقطة ، فسيكون بحثنا على الإنسان والإنسانية في الجزء الأول سائراً مع بحثنا في حياة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لأننا رأينا كما سيراه قارئنا معنا أن الروح المحمدية التي أدبت الأمم كافة حين ظهورها ، هي بعينها التي تؤثر عليها اليوم وتجذبها إلى نورها شيئاً فشيئاً وبما أننا تكلمنا اليوم في فضل الإنسان على الأرواح العمومية ، فنريد أن نجلي للقارىء الروح العمومية التي كانت قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، بشهادة علماء أوربا أنفسهم ليكون الكلام أعجب فنقول :

كتب المسيو (جول لابوم) في مقدمة فهرسته الذي جمع فيه الآيات القرآنية الشريفة المتماثلة ، تحت عنوان محمد ما يأتي :

« لأجل أن يفهم الإنسان تمـــام الفهم أي دعوة من الدعوات ، يلزمه أولاً الإلمام بحال الداعي في ذاته، ولأجل أن يقدر قدر دعوته، يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها.هذا هو الغرض من هذه النبذه الوجيزة التي خصصناها للمشرع العربي، مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الإسلامية .

«حوالي ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرن السادس الميلادي ، كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الويزيجو) الآريين في إسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكيين ، فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو (جوستنيان)، ثم جبروا بالدخول معه في حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة ، فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفـاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين .

« أما في فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين ، وكانت الحروب التي شبت نيرانهـــا بين الملكة الويزيجوتية (برونهو) والملكة لفرنكية (فيريديجوند) ، تهيىء للتاريخ أشد الصحائف إثارة للأمى والكمد

«أما في انجلترة ؛ فكان (الأنجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس)، وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علمـاً وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة .

« أما في إيطاليا ، فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد أهميته القديمة، وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعني مملكة الرومان) ، في حالة تململهـا من استحالة أمرها إلى مركز ديني بسيط ، ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتهـا القديمة أيام

كانت مركزاً دينياً أصلياً ، فكانت تهيىء نفسها لأن تكون مركز البابوية وفي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شرلماني) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان؛ ولكنها مع ذلك لم يسعها حمل نير (الهيروليين) و (الاستروجوتين) وأباطرة المملكة الرومانية (واللومبارديين) الذين تداولوا السلطة عليهـــا تداولاً .

« أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم ، فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء. وكان شرق أوروبا مقلقاً جنوبها من أول مصب نهر (الراين) من جهة الغرب، لغاية مصب نهر (الدانوب) من جهة الشرق. فكان (الإسكندينافيون) و (النورفيجيون) و (الدانماركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (تارس) و (مكدونيا) و (لومبارديا) و (إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة.

«في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى، وهي تلك الأمة التي حصرت فيما بعد مملكة اليونان حوالي أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحي ، لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا في القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ في الأوحال [1].

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالاً من أوربا في شيء، فمملكة (تيبت) و (الهند) التي اقتبست منها الأمم السائدة فى أوربا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها، والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

(١) كتاب الانبياء الفصل السابع عشر .

أما السفح الشمالي من الهضبة الأسيوية العالية ، التي هي في حوزة الروسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الإطلاق. أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب ، خصوصاً من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني ، فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما في افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم القطر المصري ، وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبة وقتئذ ، الواقعة في الجهات الشمالية من افريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفنداليين) .

« والخلاصة ، كان جو العالم الأرضي متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وإن كان وقتياً إلا شيء واحد وهو : الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين. ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل ، لكانت البربرية أسرعت في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت إلى وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب ، التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا

إلا عن بعد ، وما كان يضلها ذلك اللغط إلا في غاية الضعف والضؤولة . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تكُ تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا إلى تبعية أباطرة القسطنطينية تبعية إسمية ، أورفع نير تلك التبعية الإسمية عنها ، على أن ذلك الوادي الأخير كان يهم بلاد العرب جداً ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطىء الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً إلى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبيه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانهم المتأخرين وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البائم .

«أما المملكه الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من افريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين ، وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحملون بوجودها .

ثم قال . قال المسيو (كوسان دوبرسوفال) في كتابه تاريخ العرب : « إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم . وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز ، الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه » .

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أي دين من الأديان . قال المسيو (دوزي) في كتابه (تاريخ عرب اسبانيا) : كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات :

الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفي ملتهم . نعم ، يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد منه فمنسوب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفه سطحية ... وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم الأصنام بأن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعجة . وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم . قال المسيو (كوسان دو برسوفال) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس ، فكنعان كانت تدين للقمر وللدبران . وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الأطفال من بني عقد لعطارد ، وكان بنو طي يدعون سهيلاً وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية . قال (كوسان دو برسوفال) في كتابه تاريخ العرب: « كان من العرب من يعتقد بفناء الإنسان إذا خلعته المنون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً ، معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى ، وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة ساجعة تأتيه بأخبار أولاده فإذا كان الفقيد قتيلاً تصيح صداه قائلة : « اسقوني » ، ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لا بوم بعد إيراده هاتين الجملتين من الأستاذين السابقين : « كانت

طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتاع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضاً – وهي نقطة تستلفت النظر – تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها، ولو لم يكن – وهو أمر أغرب من سابقه – إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى ، داعياً إلى الالتفات بنوع أخص » ، ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب مغرمين بشرب الراح..

« ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به ويلعب الميسر. وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب ، وقد حرم ذلك الإسلام وعدّه زواجاً ممقوتاً .... وكان هنالك عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الأهل لبناتهم . (أي دفنهن أحياء) .

« هذا كله لا يشير الى أن العرب لم يكن فيهم أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ويمارسون فضائل الكرم وبذل القرى .

« الافراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً، ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين ، لا يرى منهم اليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم في الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ؛ تلك القرابة يستدل عليها أيضا بتساويهم في حب الكسب ، وتآزيهم في الاستعداد

لعدم الأنفة من سلوك أي طريق من الحيل والمكر لنوال كسب أو حطـام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الإعتبارات أدنى ترقّ أدبي . أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً إلى بلاد العـرب ، هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن في حـالهم نور يستلفت البصر تألقه ، وفي حالة مسيحيي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فإنه لا يمكن أن يتحلى الإنسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

« في عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ، ولد محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ » . ا . هـ.

هذه هي الروح العمومية التي أرسل المصلح الأعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاشاتها وتخليص العـالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الأجنبي عن الإسلام أنها كانت محتاطة بالأمم الداخلة في نطاق المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الأفاعيل المحزنة ، بحيث تدل الرائي لأول وهلة أن بقـاء الإنسانية على تلك الحالة يؤدي بها إلى التلاشي العاجل ، ويريه بطريقة جلية أن لا بد من صاخة كبرى تنزل على تلك الأدمغة الجامدة والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يـد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المصلحين ، وفي التفصيل بلال الغلة ، وشفاء النفس ، فانتظره ترَ العجب إن شاء الله .

* * *

الفصل العاشر

الاسلام والأدوار التي تنتاب العقائد

قلنا أن كتابنا في حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، سيكون إن شاء الله تعالى كمرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال تلك الروح العظيمة في العالم، وأننا سننهج لذلك المناهج التي نستفيد منها في تعديـــل عوجنا وتقويم أودنا ومداواة عللنا ، لهذا نرى أنه لا مناص من أن نختط لأنفسنا خطة جديـــدة لم يقم عليها من سبقنا من كتاب السيرة الشريفة، وفاءً بمطلوب الروح العلمية الجديدة واستشراقاً لسبحات الأنوار المحمدية من جهتها التي تنطبق على أحوالنا في العصر الذي نحن فيه . وبما أننا وصلنا من بحثنا في كتاب الإنسان إلى تفصيل حوادث تلك الحرب القائمة بين الاعتقاد والعلم ، وبسط الأدوار المختلفة التي دخل فيهـا الإنسان تدريجاً تحت تأثير ناموس الترقي مما لا نشك في أننا داخلون فيه أيضاً فلا بد لنا من التعويل في حياة المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم ، على أسلوب ينطبق على تلك الأدوار نفسها لنجد منها الدواء المناسب لنا فنقول :

هل يمكن أن يعيش الانسان بلا دين ؟

الجواب على هذا السؤال يستدعي أولاً معرفة كنه الدين . لأنك لو حددتـه بأنه مجموع العقائد التي يتلقاها الإنسان عن أمه وأبيه ، وينقشها في ذهنه معلمـه ومربيه ، ويزيدها الوسط الذي يعيش به نشوباً فيه ، أو أنه تلك الأساطير التي

تفرقت عليها الأمم أحزاباً ، وانشقت بها الشعوب أسراباً ، وكثر فيها الجدال أحقاباً ، وصقلتها القرائح فصارت فصولاً وأبواباً ، فلا تعدم قائلاً يقول :

« تلك أيام خلت ، وسنين مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . وقد استقام الإنسان بعد ما تجاذبته الأدوار والأطوار وتنازعته المذاهب والأحزاب ، على طريق العلم الذي لم ينله إلا بعد ما بذل مهجة فؤاده وضحى في سبيله عزيز حياته ، وبهذا قد دخل في دور نهائي ليس للدين عليه فيه سلطان ، ولا للعقائد في فؤاده مكان ، وصارت الأديان في نظره من ضمن أساطير الماضي يلقي نظره عليها تفكها بسير من غبر ، واستجلاء لوجوه العبر من مقادير البشر . ألا ترى أن التدين اليوم قاصر على الأمم الشرقية ، المتأخرة في ميادين المدنية . ومن تراهـــا من الأمم الغربية على شيء من العقيدة الدينية ، فسهمها من الحضارة أنقص من سهم من تخلصت منه تماماً ، وليست فيها تلك البقية إلا لتأخرها عن غيرها في مجـــال العلوم والفنون ، وإبطائها في ترك ما كان عليه الأقدمون ، وليس بينها وبـين مساواة غيرها في عدم الدين إلا تعميم العلم في البنات والبنين ، وأنتم معاشر الشرقيين ، لا سبب لتأخركم عن غيركم وجمودكم على حالكم ، إلا أنكم تريدون أن تعيدوا مثل الأولين ، وترجعوا سنّة الماضين في الحياة بتعاليم الدين ؛ وكيف يتأتى ذلك وحياة الأمم كحياة الأفراد أطوار بعد أطوار ، ورقيها أدوار بعد أدوار ، ولكل طور لوازم ومقتضيات ، ولكل دور حالات ومناسبات ، فما مثلكم في نشوبكم بالدين وأحكامه ، وتعلقكم بآدابه وأهدابه ، إلا كمثـل من أراد أن يعيش طفلاً وقد دخل في دور الشبوبية ، فكما أن للشاب أميالاً وعواطف لا يحس بها الطفل ولا يتخيلها حتى يستحيل ان يتصنع أحدهما حـالة الآخر ؛ كذلك للأمم في كل دور من أدوار حياتها أميال وعواطف يستحيل معها أن تتصنع أنها في دور غير دورها ولو بذلت في ذلك غاية وسعها .

« هذا هو سر جمودكم وهبوطكم ، وما دمتم لا تعرفونه ولا يقوم فيكم رجال جسورون يدعونكم إلى تقليد الأوربيين في ترك الدين بالمرة أو بالأقل لفصله عن

حياتكم الاجتماعية كما فصلوه هم قبلكم ببضعة قرون ، فلا يرجى لكم إصلاح مطلقاً .

« ومما يستغرب من أحوالكم، أنكم تريدون أن تجاروا أوروبا وتساموها في حركتها ومدنيتها ، وأنتم كارهون دورها الذي هي فيه فكأنكم تريدون أن تباروها وتسبقوها وأنتم على ما أنتم عليه من الجمود على دور سابق . مثلكم في ذلك كمثل شخص جاز دور الطفولية ولكنه عز عليه أن يخلع مناسباته عنه ، وهو مع ذلك يريد أن يسابق شاباً آخر رضخ لأحكام الطبيعة ولم يعارض فعلها عليه فقادته إلى طريق الحياة الكاملة ورفعته من الكمال إلى الدرجات المقدرة له. لا جرم تذهب أتعاب الأول أدراج الرياح ولا يكون حظه من الحياة إلا الأسر والانغلاب ، والرضوخ للأقوى وحمل نيره على عاتقه . »

هذا ما يجيش في صدر بعض من شربوا من دنّ المعارف الأوروبية في القرن الماضي، وهو بعينه ما يتغنى به على وتر الفلسفة بعض الكتاب ويحتالون على بثه في الأذهان بكثير من الوسائل: تارة في أطواء المقالات العلمية في المجلات الدورية، وطوراً في الأبحاث السياسية على صفحات الصحف اليومية ، وقد نجحوا بعض الشيء في إشرابها في نفوس كثير من الأحداث حتى أخرجوهم عن دائرة الجامعة التي تربطهم بماضيهم. وهي من أقوى الشُبه التي لو نشبت في الأذهان حلت معاقد العقائد منها ، وأصبح تعب الكتاب الإسلاميين في إرجاع الدين إلى الأذهان كالضرب في الهواء أو الكتابة على الماء .

لهذا لا نرى بدأً من بسط أمثال هذه المدركات المضرة بغاية الحرية والصراحة، لأنها المكاريب الكامنة في النفوس الناشئة بالأفئدة ، بل الرجز المنتشرة جراثيمه في الهواء مما لا مناص لكل حي من تنسمه ، فهي إن صادفت رئتي ناشقها ضعيفتين سممتها وحللتها تحليلاً ، وإن وجدتها قويتين ساورتها من مكان قريب وعطلت من حركة صاحبها بعض التعطيل .

ولما كانت الحكمة في معالجة الامراض تقضي بإبادة جراثيمها أولاً بدل مكافحة

أعراضها التي لا تزول حتى تظهر ولا تضمحل حتى تنشط، فقد رأينا أن نتعقبها في مكامنها ونفتق دونها الحجب حتى نصل إلى مواطنها ومساقط ويلاتها .

ما هو الدين ؟ :

ليجرّد الإنسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثات المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه، وليمحُ من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الأسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من آحادها،وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكائناته وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر إلى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم إلا ما تهديه إليه مشاعره الظاهرة ، وإحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم ليمر به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الأطراف إلى كل جهة يوجه إليها بصره . ثم ليلقِ نظره على نفسه بعد ذلك ، فماذا يجيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة في أنه يؤوب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشسوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضؤولة جثمانه .

رأى تلك اللانهاية فوق رأسه ، فوقف عقله منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصوره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير أن ينفذ إلى صميم ذلك الأمر الجلل، فانحلت عزماته انحلالاً، وارتخت معاقد همته إرتخاء . وأخذ الفزع بتنفسه أخذاً كاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره ، في وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رنا ببصره إلى ما حوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق

عنه سعة خياله ، ويحرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي،فكاد يصعق من الوجل أمام هذا السكون المطلق! فإذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت في أرجائه النجوم والكواكب، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وزادتها مهابة الليل فخامة وعجباً، ازداد أمرها غموضاً على فكره وتبين له أنه وسط بحر من مجاهيل وأسرار ، أيسر ما يستطيعه أمامها الإقرار بعجزه وضعفه ، والخنوع بحقارتـه وضؤولة شخصه ، واحتياجه المطلق لملجأ يلجأ إليه ، وموئل يعول في النجاة عليه ، وفقره لقوي يهبه من قوته ، ورحيم ينشر عليه من إفاضات رحمته .

هذا هو مبدأ التدين والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز، وهو بعينه الدافع الذي دفع الأمم لتكوين الأديان، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم أمرهم في كل شأن ، وهو بذاتـه أيضاً الداعي لإرسال الله تعالى رسله تترى إلى الأمم بالهدى ودين الفطرة .

ربما يقول قائل : « إن هذا التصوير البديع إن صدق على الإنسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم ثملاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعياً أنه أدرك المعلومات والعلل ، ووقف من أمور الكون على ما لم يحلم به الأول ، ولا اضطرب لهم به أمل » . نقول لهذا المعترض هوّن عليك ! جرد نفسك من كل ما ذكرته لك من آثار الوراثات والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد إلى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك أن الفضاء ممتد إلى ما لانهاية... أي أنه ليس له حد ... وأنه مشحون بعوالم لا تحصى من نجـوم وكواكب وتوابع وذوات أذناب ، وأن الأرض التي أنت عليهـا ليست إلا كالذرة بالنسبة لتلك الأجرام الضخمة ، وتذكر مـا قرأته في أبحـاث (كبلر) و (كوبرنيك)

و (هرشل) و (زولنر) و (فلامريون) من أن الأرض كوكب من الكواكب السيارة السابحة في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصفاً في الثانية الواحدة، وأنها ذات شكل كروي محيطها ٤٠٠٠٠ كيلو متراً، وأنها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجماً ، دائرة كلهـا حول تلك الشمس المضيئة التي هي أكبر من الأرض مليوناً وأربعمائة ألف مرة ، وأن المسافة التي تفصلها عن الأرض هي ثمانية وثلاثون مليوناً من الفراسخ ، وأن هذه الشمس بهـذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الأخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش .

وإذا أردت أن يكون لك فكر عام على حجومها، فاعلم أن أقرب نجم إلينا يصل إلينا ضوؤه في ثلاث أو أربع سنين ، فإذا كان ضوء الشمس يصل إلينا في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكـبر من الأرض بمليون وأربعمائة الف ضعف ، فكم يكـون حجم نجم لا يصل ضوؤه إلينا إلا في أربع سنين أي في ٢٠٧٣٦٠٠ دقيقة ... ثم ماذا يكون حجم الشعرى التي يصل إلينا ضوءهـا في ٢٢ سنه ... خلِّ هذا جانباً ، وقل كيف تتصور أحجـام تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك أن ضوءها لم يزل سابحاً في الفضاء من يوم تكونها إلى يوم وصول ضوئها إلينا ، أي في ملايين من السنين ... أليس في هذا التخيل ما يرعد الفرائص ، ويأخذ بمخنق التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك، أما ما هو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وإنسان فليس أمرها بهين عليك ، لأنك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت أنك تلقي إلى الأرض بذرة لا تكاد تحس بها بين أصابعك ، فتراها بعد سنين شجرة ذات جزع غليظ وفروع ممتدة إلى أمتار عديدة وأوراق وأثمـار ذات ألوان وطعوم وأريج يفغم الأنف من مسافات بعيدة ؛ ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت إلى فكرك تلك الكائنات المختلفة في الصور والاحجام والاشكال والطبائع والغرائز والحيل ، مما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في أن المادة التي هي أصل

كل هذه الصور البديعــة مجهولة لديك بالمرة ، لرجعت وكلك شعور بضعفك وعجزك ، وإحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك، ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته أمام هذه القوة العظمى التي أبدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت أنك كلما ازددت بالكون علمــاً ازددت إحساساً بجهلك وشعوراً بضعفك ، واحتياجاً لمن يأخذ يدك ، ويسكن جيشان صدرك : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

ثم إنك كلما رنوت إلى أجزاء هذا الكون،ورأيتها تتلاشى وتتجدد وتتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان وجدت نفسك مسوقاً لأن تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد تلاشي هذا الجسم السريع العطب . ولوخزك حب الحياة المرتكز على أجمــل عواطف نفسك ودفعك لأن تجول بفكرك في مضمرات الأشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التي تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، أو لا تجدها فتبقى في هذه الأرض العمر الذي قدر لك بين فزع وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك ما لا تعبر عنه ، حتى تجيء تلك الساعة المنتظرة على صفة لا أستطيع أن أتخيلها .

ألا ترى بعد هذا أن الإنسان على أي حالة من أحواله ، سواء كان جاهلاً لا يعرف شيئاً أو عالماً يعلم شيئاً ... لو جرد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذي عاش فيه، وبالمذهب الذي ينتمي إليه، ثم تفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه ، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعــاً اضطرارياً الى إلقاء نفسه ساجداً أمام خالقه،ولو لم يستطع أن يتصوره بصورة، أو يقع فكره منه على كيفية .

هذا هو الدين الفطري الذي خلق الإنسان مطبوعاً عليه بطابع الخالــق الحكيم الذي أقام الإنسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر ، من الكمــال الصوري والمعنوي . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله

بوجه ، لأنه مرمى كل عواطف النفس وغايتها ، وقد أدرك ذلك أهل البصر من الغربيين ، فقال غطريف الفلسفة الأوربية (إرنست رينان) في كتابه (تاريخ الأديان) : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية » .

وقال الفيلسوف الشهير (أجوست سباتييه) في كتابه (فلسفة الأديان) : « لماذا أنا متدين ؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأني لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي . يقولون لي : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فأقول لهم . قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها . وأن ضرورة التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية ، أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية ، فهي ليست أقل تشبثاً مني بأهداب الدين . إلى أن قال : « إذن ، فالدين باق وغير قابل للزوال ، وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن ، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة » . ا . هـ.

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذي أوحاه الله لخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الاسلام هو الدين الفطري

الفطرة لغة الخلقة ، والخلقة في اللسان العصري الطبيعة ، فالدين الفطري يمكن تعبيره باللسان العصري بالدين الطبيعي ، ومعناه أنه لا يكلف الإنسان إلا

بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته ، وقــد سعى في القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعي في أوروبا، وكوّنوا لهم ديناً سموه بهذا الاسم، ولم يدخلوا إلى أصوله إلا ما تقضي به الفطرة الإنسانية ، وتقر على حقيته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزهاً عن الرموز والأسرار ، عملاً بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الألماني حيث قال: «الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوي إلا على قوانين ، أعني قواعد صالحة للجري عليها نشعر من ذاتنـــا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية»[1] .

سلك هؤلاء هذا المسلك في القرون المتأخرة بعدما سئموا من تناقض الأديان، وأنفوا من الرضوخ للكهان، ولم يعلموا أن الدين الطبيعي قد أوحاه خالق الطبيعة على أشرف عبـــاده قبلهم بأكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولنثبت لقرائنا أن الإسلام هو الدين الفطري الذي لا يعتريه الزوال، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا أن الإنسان على حالة البساطة الأولية والسذاجة المبدئية ، شعر بلزوم الإخبات لخالق ذاته ، وأحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فـلم يحرمه الله من إسعافه بعباد له كان يصطفيهم لحمل أمانته ، والقيام بتبليغ أمره إلى خليقته ، فكانوا يجيئون أقوامهم بدين الفطرة ، لأن الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً إلا وسعهـا) ، ولكن الناس في تلك الأحيـــان كانوا من سن الحياة العمومية في دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات أكثر من الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم إلا ما دام فيهم ، ومتى انتقل إلى العالم الآخر ارتكسوا إلى عقائدهم الأولى مكسوة بثوب جديد ، حتى إذا جاءهم رسول آخر قاوموه ونابذوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل

---

(١) دائرة معارف القرن التاسع عشر .

حجة وجادلوه ، وفيما يحكي الله عن حالهم صورة من أمرهم مع رسلهم ، قال تعالى: « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد. ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

هكذا كان حال الأمم مع رسلهم في خلال تلك القرون المتوالية ، حتى جاء القرن السادس ، وقد درسنا حال الأمم فيه في الفصل المتقدم ، وقد رأيت أن حالتهم كانت تدعو إلى قارعة كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقظهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فأرسل الله تعالى خاتم أنبيائه بدين الفطرة الذي أرسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) ، فخاطب الناس قائلاً عن ربه : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً) ،فدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً لأنهم كانوا قد سئموا الخيالات المضلة التي مزقتهم أحزاباً ، وفرقتهم أفذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب في قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ، ولم يزل ينمو لليوم بصفة مدهشة بتأثير المدنية الأوروبية نفسها . وإن تعجب من ذلك ، فإليك التفصيل : قد رأيت أن الفارق بين الدين الفطري أي الطبيعي والأديان الأخرى هو أن الأول مرتكز على الحقائق المحسوسة ، والثاني على الخيال ، فيكون الإنسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والأمم قبل سريان الحركة الأوروبية الاستعمارية في العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها، مستنيمة إلى أساطيرها لا يزعجها عنها

شيء ، تؤله ما شاءت من الرجال ، وتعبد مـا أرادت من الحكماء والأبطال ، والخلاصة أنها كانت من الدين على خيال ومن المدركات في ضلال . فلما جاء دور الأوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخـار ، أقاموا لتلك الأمم بأفواه المدافع والبنادق ، وبألسنة المشرفيات الصوارم ، أكبر البراهين الحسية على أن عهد الخيالات قد مضى ، وأن ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة ذلك الإله أو كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة ، فانجلى الدين عن أفئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة ، فاستعرضوا الأديان التي وصلت إليهم فلم يرتضوا منها غير الإسلام ديناً لخـلوه من الخيالات ، وارتكازه على المحسوسات ، فدخلوا فيه أفواجاً أفواجاً ولم يسمع في تاريخ الإنسان أن القبائل بجذافيرها تدخل إلى دين في زمن ضعف سلطة أهله غير الدين الإسلامي . وبناء على هذا ، فكلما توغلت مدافع الأوربيين في أحشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار الحقيقة على الخيال ، وفتحوا لدين الله أكبر مجال « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله » .

الإسلام الدين الفطري أو الدين الطبيعي ، لأنه لا يكلف الإنسان إلا بما هو مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجيئه من العقائد إلا بما لا يقف حجر عثرة في سبيل تقدمه وترقيه ، لأن غرضه الأول تخليص النفس الإنسانية من تلك الكسف الظلمانية التي أسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الأفئدة ممـا ران عليها من آثار الوراثات والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصبات والجمود .

كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون أساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين ، ما لو أرادت البصيرة أن تتنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في أصفاد اليأس ، وأغلال اللبس ، من هول ما وضع أمامها من عقبات وما أحيطت به من غياهب وظلمات ، فكانت بين أمرين ، إما أن تقتنع من الحياة بمجرد البقـاء ولو كان العمه لزيمها ،

والحيرة صفتها ، وإمــا أن تحاول أن ترى النور فتعرض نفسها لخطر أيسره أن تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولو توهماً . جاء الإسلام والبصيرة في هذا الأنين من ثقل نير الدين ، وفي لهف شديد إلى نور جديد ، فصاح بالناس: « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمـــة منه ويهديهم إليه صراطا مستقيماً » .

كانت النفوس حــيرى في معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المهين ، فقــرر لها الإسلام بأن الدين ضالة الأرواح وأنشودة العواطف، وبلسم جراح الحياة، ونسيم الراحة والطمأنينة، ومهب نفحات الحق، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به كافة الأنبياء إلى الأمم رفعاً لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسماً لمـا احتوشهم من روح النزاع : « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » .

أما ذلك الدين فهو الإسلام لله ، أي الاستسلام إلى أحكامه بالقيام على صراط الفطرة المجردة عن الأوهام والأفكار البشرية التي هي داعية الخـلاف ، ومثيرة التنابذ بخلاف الفطرة ، فإنها واحـدة في عموم النوع الإنساني ، فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ؛ ولا يتصور شقـاق بالانصياع لمقتضياتها « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فـإن الله سريع الحساب . فإن حاجّوك (أي جادلوك) فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والإيمان أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »، « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون. منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » .

التفت إلى أولئك الذين استعبدوا أنفسهم للأهـواء ، وخضعوا لسلطان الأوهام ، وحصروا عقولهم في مضائق الخرافات ، فنعى عليهم سذاجتهم قائلاً: « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »،ثم طالبهم بالدليل على ما حملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلاً : « إئتوني بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم إن كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

ثم سجل عليهم أنهم أسراء الوهم ، وعبدة الظن فقال : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

ثم بيّن لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهـان ، وبين المستسلم لزخارف الخيال ، الأسير لكواذب الأوهام ، فقال : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » .

ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر ، وخلعوا عن أعناقهم ربقة الذل والأسر ، ونفضوا عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية ، فقال : « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور » ، « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلا » .

ثم أمرهم أن لا يتبعوا ديناً من الأديان التي أقيم لها المعابد والكهان وصارت عبئاً ثقيلاً على هامة الإنسان ، لما سرى إليها من الضلال والبهتان ، ولكن ألزمهم الاعتراف بأن أصل جميعها واحد وهو الناموس الأقوم الذي بعث الله به الرسل إلى الأمم كافة ، فلم يحفظوه من التبديل والتحريف والتزييف ، فكلف الإسلام أهله بالإيمان بها إجمالاً ، فقال : « وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ومـا أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي

النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم. صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ».

هذا هو الدين الفطري في بساطة معناه ومتانة مبناه، وهو الذي دعا إليه الأنبياء كافة وتمت الدعوة إليه بخاتمهم وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد رأيت أنه من جهة التدين لا يدعو إلا لما يشعر به الإنسان في ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً، أما تلك الأساطير التي طمت بها الديانات وعدت من أركان الإيمان فيها، فقد أثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرة، وصار اعتقادها والتمسك بها من الإزراء بالعقل، والتغرير بالنفس، لأنها ليست إلا مبلغ علم الأقدمين بالطبيعيات والتاريخ، توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلاً مقدساً كما هي سنة الناس في احترام أسلافهم، حتى صارت هي الدين بذاته، وقد سبق القرآن العلم والفلسفة في تقرير أنها أباطيل وأوهام، فقال: « ان يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ». ثم أنبأنا بأن الإسلام مقدمة عصر العلم، وطليعة دولة الحق، ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه (دارون) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرناً تقريباً، وهو قولهما: (لا يبقى إلا الأصلح)، فقال تعالى بأفصح عبارة وأكمل بيان: « فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ».

أما من جهة العلم بالكون وأشيائه، فأرانا أننا لم نعلم منه إلا قليلاً وأمرنا بدوام طلب العلم، فقال تعالى: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »، « وقل رب زدني علما »، وبهذا فقد هدم صرح تلك العقائد الباطلة التي يزعم أصحابها أنها حوت علم الأولين والآخرين، على السموات والأرضين مما أذن الله به للعالمين؛ وإن ما عداه فرجس باطل، وخيال حائل، يستحق معلمه ان يحرق بالنار، أو أن يصلب كالفجار. أما من جهة سير الماضين وأخبار المتقدمين، مما جعلوها أساس العبادة والإيمان، وعلقوا عليها نجاة الإنسان، مما أثبت التاريخ العصري

بالحس والعيان ، أنها خرافات اخترعها الخيال وسطرها الجهال ، وأنها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الأمم أجمعين ، مما يشعر أنهـا دأب الأولين ، فقد سد الإسلام هذا الباب سداً محكماً بتقريره ، و « أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى »، و « كل امرىء بما كسب رهين » ،و «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

أما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريـخ ، له فيه أسلوب خاص به مثل سائر العلوم الأخرى ، أما الأديان فوظيفتها أشرف من كل وظيفة ، وهي إقامة الإنسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ما ليس طبيعياً فطرياً ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليدياً ، ليعيش حراً متمتعاً بعقله وفكره وحكمه ، لا عبداً لأوهام غيره . ألا ترى أنه لما سأل فرعون موسى، كما قال تعالى: «فما بال القرون الأولى» أجاب موسى عليه السلام، كما قال تعالى : « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » . فانظر إلى الجـواب النبوي الكريم الذي يشير بغاية الصراحة إلى أن التاريخ ليس من وظيفة الأنبياء من جهة ، ومن جهة أخرى يشير إلى أن سير أهل القرون الأولى ليس مما يمكن التهجم عليه بتلك الجسارة التي تشاهد في الجهال بالتاريخ ، بل هي حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . أنظر إلى هذا الجواب النبوي ، ثم انظر إلى أولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم إلى اليوم سرداً يشعرك بأنهم شهدوا أحوالهم ، ومن العجب أنهم يعلقون على ذلك عقائدهم وإيمانهم .

أما من جهة الأخلاق والعوائد فالإسلام لا يطلب من الإنسان فيها غـــير الاعتدال والتوسط . لأنه لما كان الدين الفطري (أو الطبيعي بلهجة العصر) ، فينظر للإنسان نظر العلم الطبيعي له ، أي بصفته أبـدع الأنواع الحية وأكمل نموذج للصورة المادية « إنا خلقنـا الإنسان في أحسن تقويم » ، ليس في تركيبه الخارجي والداخلي ولا في شكله الصوري والمعنوي زيادة ولا نقص ، لو اتبع في نموه قانون الحكمة الإلهية ، ولكن الخالق الحكيم إذ عده إلى منصات من الكمال

يحسر دون إدراكها التصور، فقد متعه بخاصيتي الاختيار والإرادة وأراه طريقي الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي، وصرح له بأنه إن اعتدل نال غايتي كماله المادي والأدبي ، وإن انحرف وارتطم في عقبات النقص وارتد إلى أسفل من عالم الحيوان كما هي السنة الطبيعية في هبوط العـــالي ، فقال تعالى : « إنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

★

نظرة على الأدوار التي تنتاب العقائد

من أكبر الشُبه التي يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور المليين ، ويغض بها الماديون من أعين الاعتقاديين ، هي قولهم أن الإنسان مرّ ويمر من عقائده على ثلاثة أدوار : (أولاً) دور الاحترام والإجلال ، والاعتقاد بأنها نهاية الكمال ، (ثانياً) دور الشك والارتيـاب ، عند يقظة الأفكار والألباب ، (ثالثاً) دور العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده، وينال الإنسان رشده ، فيعلم أن الأديان أساطير المـــاضي ووساوس الأقدمين فيتركها ويتجه للعلوم يحتلب درها ، ويستسقي ربابها ، ويكون بذلك كالشاب جاز دور الطفولة ، واتسم بصفات الرجولة ، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلماً لذيذاً ، وخيالاً مسلياً ، ويضحك منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق المحسوسة ، والدأب لاستغلال خـــير الطبيعة وتحسين حال بني نوعه من كل الوجوه الممكنة .

نقول : إن هذه المقولة إن صدقت في نسف صروح العقائد التي أنس بها الإنسان في دور طفوليته ، فلا تصدق على الإسلام الذي أرسله الله عند مـــا بلغ الإنسان رشده وسئم الوصاية عليه . وإليك التفصيل :

المسائل الكبرى التي يطأطىء المسلم أمامها رأسه ويحترمها جهده ، هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى ما دام الإنسان نقطاً بارزة في حياته ، يزيدها مر الأيام وضوحاً وجلاء ، وتكسوها زيادة العلم كالاً وجلالاً وهي :

أولاً — إن لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعاً حكيماً « لاتدركه الأبصار » ، « ليس كمثله شيء » ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما » ، « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، « خلق كل شيء فقدره تقديرا » ، ولا ينكر أحد أن هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه .

ثانياً — إن للإنسان روحاً غير مادية ، لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه أيضاً من المسائل العظمى التي أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول ، كما ننقله عنهم في كتاب ما وراء المادة .

ثالثاً — إن لله ملائكة وهم خلق متجردون عن المادة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، وهذه أيضاً مسألة أثبتتها مسألة استحضار الأرواح إثباتاً حسياً كما ستراه إن شاء الله .

رابعاً — إن لله رسلاً من الناس يمتعهم بخاصية الاشراف على الملأ الأعلى ويستودعهم أسرار وحيه وقوانين الدين ليبلغوها إلى أممهم « وما من أمة إلا خلا فيها نذير » ، « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم » ، « كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » ، وهذه أيضاً مسألة كبيرة زادتها مسألتا التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح جلاء ووضوحاً ، لما أثبتتا من أن الروح الانسانية إذا جردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلاً في محله من كتابنا .

خامساً — الكتب التي يرسلها الله إلى خلقه ، أي وحيه إلى أنبيائه ، وهي مسألة كبرى أيضاً ، لا يرتاب فيها إلا من يجهل مسألة التنويم المغناطسي العصري

كل الجهل ، ورضي أن يكون واقفاً من العلم حيث وقف ملحدو أوربا قبل قرن من الزمان ، وزعم أن الكون محصور على ما يعلم ...

سادساً – مسألة القضاء والقدر ، وهي مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة أجمعين من القدم لليوم ، ولها أنصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة ، لأن تشبع الفكر العصري بوجود نواميس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعي نفسه كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلاً .

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها والتي أمرنا بالتفكر فيها للوصول إلى المدركات العالية منها ، وقد رأيت أنها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم ، وإنها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في أي دور من أدوار الرقي العقلي لارتباطها بحياة الانسان مباشرة ، ووقوفها في مهب فكره ومضطرب ذهنه .

أما دور الشك ، فإن صح على العقائد الأخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه . الشك هو التردد في صحة شيء ودواؤه العلم ؛ وقد رأيت أن المسلم ليس له من العقائد إلا ما هو مغروز في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده ، وهي تلك المسائل الست ؛ وبما أنه قد يطرأ الشك للإنسان فيها لقلة علمه ، فالاسلام لا يعاقب الشاك أو المستشكل بالحرق بالنار أو بالصلب ، بل بدوائه الحقيقي وهو العلم واستنزال روح الرحمة الإلهية من قبله ، وقد وعده الله بحسن النتيجة ، فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، بل أنذر الضارب عن العلم صفحاً بالطبع على قلبه ، فقال عز وجل: « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » .

قلنا : إن الإسلام جاء بعد أن بلغ العقل الإنساني أشده ولذلك فهو لا ينزل الإنسان منزلة القاصر بل الراشد الذي له حق التصرف بفكره وإرادته ، بخلاف الأديان الأخرى التي ادعى قادتها أنهم أوصياء على الإنسان ، وأنه لا حق له في استعمال عقله وفكره في شؤون حياته إلا طبقاً لما يوحونه إليه من التعاليم

والقواعد ، وقد أساؤوا استعمال هذه الوصاية لحد أن الناس تركوا الدين من أجلها ، وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاد دام قروناً متوالية وعدى على حياة ملايين كثيرة من الأبرياء ، أما الإسلام فلم يجعل لأحد من بنيه حق الوصاية على غيره ، بل أسبغ على الكل نعمة المساواة الحقة ، وآخى بينهم إخاء ملكوتياً لم يسبق له مثال في تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الإلهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً والنـــار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً» ، ولذلك تراه يخاطب أبناءه عموماً بلسان واحد ، لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلاً دون قبيل ، ولم يعلق نجاة روح على روح أخرى ، وفي هذا الحديث الشريف أكبر عبرة لمن يعتبر : « اعملي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » ، وهذا غاية ما يتوق إليه أنصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة الاستبدادية .

أنظر إلى هذا المثال الباهر من الحرية ، وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به قادة الأديان الأخرى أعناق أتباعهم ، حيث علقوا نجاة السواد الأعظم منهم بشفاعــة رجال قلائل أو رجل واحد . ولا غرو فإنهم يتصورون الخالق تعالى على صورة المـــلوك الأرضيين الذين لا يمكن التقرب إليهم ، إلا بالتوسل بحاشيتهم وذوي الزلفى منهم ، أما المسلم الذي ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ، ولا يجري عليه صفاة الملوك الأرضيين ، ويعلم أنه أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، وأنه ليس بينه وبين عبيده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وأنه سميع مجيب ، « وهو أقرب إليه من حبل الوريد » ، فإنه لا يحتاج لمن يقربــه إليه زلفى غير صالح أعماله ، وعقائل صفاته . أما التعلق بشفاعة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم في الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمقيد بإذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقي المغفرة ، قال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . أما أولئك الذين ليس في أعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله ، فـلا يستطيع

أحد أن يشفع عنهم ، قال تعالى : « فما لهم من شافعين » ، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .

هذا الأصل وحده هو أهدى قائد لنفوس الآخذين بالدين إلى باحات الحرية، وأقوى باعث لهم إلى ساحات المساواة الأخوية ، ومن يعلم أن الحرية أصل كل الأصول المهذبة للأمم ، الرافعة لها إلى منصات العظم ، الباعثة إلى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا أن هذا الأصل كان من أقوى الأسباب التي نهضت بأسلافنا الأولين إلى أعلا عليين بينما كان غيرهم في أسفل سافلين مأسورين لرؤساء الدين، ويتأكد معنا أنه كما كان سبب إسلام عشرات الملايين ، من الأقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين هرباً من الضغط المهين ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، والمالك للأميال في هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلطان للإسلام ويكون الدين كله لله . فإن روح هذه العصور المتأخرة قد بعثت إلى قلب الإنسان حب الحرية والمساواة ، وسينمو هذا الشعور في الإنسان بتوالي الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، وأين يوجد ما يلائم هذا التطور غير الإسلام الذي يخلي بين الانسان وربه ،ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

والباحث في أسباب خلع أوروبا لطوق العقائد يرى من أهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان آريا) في كتابه (عقائد الغد) : « إن كراهة الناس لرؤساء الدين هي التي ولدت في أكثرهم كما يظهر لي الجافاة للدين . فإن الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضيع المناقشة في مؤتمر الأديان ، ولكنها فيما أرى من

المسائل الأولية التي يجب حلها في مستقبل قريب». وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التي للإسلام علىسائر الأديان، وأقرب شاهد على ذلك ما ورد في (المجلة) الفرنساوية في جزء ١٥ مايو ، وهو : « ليس في الإسلام البتة لا طقوس دينية ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً في أداء العبادة . بل فيه أن الإنسان شفيع نفسه أمام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه. وبعبارة الاصطلاحات الدينية الإسلام يعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة » .

قلنا : الإسلام ينزل الإنسان منزلة الراشد لا القاصر ، ولم يكلفه من العقائد إلا ما لو خلا ونفسه لاهتم بها لأنها نتيجة عواطفه المفروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره أو حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونمو مادته، كالسياحة واستشراف أحوال الأمم وتعرف نواميس الخليقة والعمران. وكالنظر في الكون وتنور أسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة : « أوَلم يسيروا في الأرض فينظروا . الخ الآية » ، « قل سيروا في الأرض فانظروا . الخ الآية » ، وقال عن النظر في الكون : « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم ، أفـــلا تبصرون » ، فانظر كيف أن السياحة واستطلاع أحوال الأمم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد بأربعمائة سنة ، وحلت معاقد عقائد الأوربيين في إبان اختلاطهم بالمسلمين وإشرافهم عن مدنيتهم كما أثبتنا لك ذلك في كتاب الإنسان ، قد ندب إليها الإسلام بصفاتها مقوية للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة لأراكين اليقين ، حتى قال الله عن السياحة : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »، وقال مبكتاً الذين لا ينظرون في مساتير الطبيعة: « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»،

فأي فرق هائل بين دينين يقوى أحدهما بما يهدم الآخر ، ويحيى بما يلاشي ضده؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالإنسان على أسرار العالم وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للإنسان فكرة عامة على معنى الحياة الإنسانية الصحيحة . والنظر في الكون نتيجته توسيع نطاق سلطة العقل الإنساني على الإدراك والسريان في ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات في تحسين الحياة الإنسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الأسرار . وهذا كله كما لا يخفى ، يعلو بالعقل والفكر ويسمو بهما درجات متوالية على نسب محسوسة ، فيحصل ما يسمونه الترقي في الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقي كما يحصل في الصنائع والفنون كذلك يحصل في المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك أن كل أمة ترتقي تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد أرقى منها. وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على أتباعهم ، وقرروا أن كل علم لا يوافق العقائد فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الإسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظة العقائد ، ويعلق كمال الإيمان وتمام اليقين على ما أحدث الشكوك في أذهان الأديان الأخرى وانتزع العقائد من أفئدتهم ؟

ذلك لأن الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد إلا بما لو ترك الإنسان وشأنه لتعلق به من نفسه ، لأنه نتيجة قوى عواطفه وإحساساته ، وهي تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفاً ، ثم إنه بعد ذلك لا يكلف الإنسان إلا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه ، خلعاً كليـاً ليستوي بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمثالاً محشواً بأقذار آبائه وأجداده وضلالات أسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواهبه ، أو مسلوب التصرف في نفسه . فما الذي يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم ، ونور غير

الحكمة « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

إذا تقرر هذا فهل يسري قـانون الأدوار التي تنتاب العقائد على الإسلام ؟ وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره بأحوال الأمم وعظمة الكون ؟ وهـل يليق بعد هذا أن يقال لمسلم إنك لا ترتقي إلا إذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعـله غيرك من الأمم الراقية ؟ وهل يقال له إنه من الحياة الانسانية في دور الطفولية أو أنه يود أن يبقى في ذلك الدور ويسابق الأمم الأخرى التي تجاوزته؟

إن الذي حرم المسلمين من التمتع بمزايا دينهم ، هو إضرابهم عن السياحات وعن تعرف الأحوال والنظر في الكون ، ومتى جاء ذلك اليوم الذي يـأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية أن تنفذ إلى أوروبا من خـــلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة ، لما ترتقي روحها السائدة في هذا الجيل عما هي عليه درجات أخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق إلى نصابه ، بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

*

سحر المدنية المادية

أطلنا التساؤل في فصل الانسان عن أثر المدنية المادية على المتدينين ، وطفنا بالقارىء على كثير من صور الشُبه الرائجة في جيلنا هذا ، وهي الشبه التي تسلطت على مـكان الشعور من أفئدة أكثر النشأة الحالية من جراء احتكاكها بزخارف الصناعات التي تجرفها إلينا سيول الترف الأوربي ، وصارت فتنة للأعين والعقول معاً ، وبلغت منا ما لم تبلغه الظبا من الهوادي ولا الرماح من الأفئدة؛ فلم نر بدأ من مناقشة هذه الأفئدة المفتونة الحساب في كتاب حكيم القلوب الأعظم خاتم

النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، لنستطيع بعون الله وقوته أن نوجه إليها شعاعاً ساطعاً من روحه الكريمة ، يمزق غياهبها ويكشف كسفها، ونهتدي به إلى كنه المدنيــة الفاضلة التي جاء صلى الله عليه وسلم يدعو العالمين إليها بذلك الكتاب الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم .

قال الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، وقد حقق وعده وأرى العالم آية هي أكبر آياته في خليقته ، وذلك بأنه بعث في الأميين رسولاً منهم في الحين الذي أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وناهيك بمدنيتي الرومان والفارسيين ، وقد رأيت في فصل الانسان لمعة صغيرة من وصف مدنية الفرس حين ملكها الاسكندر ، وأما مدنية الرومان فكانت لا تقل عنها في شيء ، بل تزيد عليها في كثير من الشؤون ، ولكي يبرهن الخالق الحكيم لعموم النوع الانساني على أن الفضائل روح إلهيــة إذا حلت في الأمة رفعتها إلى أعلى عليين ولو لم يكن في وسائلها الطبيعية ما يؤهلها لذلك الرقي المبين ، وسادت على سواها وإن كانت أصغر من ذلك في أعين الناظرين ، اختار الأمة العربية على أنها كانت من عدم الوسائل الطبيعية بحيث دامت آلافاً من السنين حافظة شكلها ، وواقفة مكانها ، أعرض عنها سائر الفاتحين يأساً من استصلاحها وتفادياً من العناء الذي يأتي من قبلها ، فلما أرسل الخالــق رسوله إليها حاملا روحاً كريمة، مكث بين أظهرها ثلاثاً وعشرين سنة سقاها في خلالها من ذلك الحوض الملكوتي جرعاً بعثت إليها حياة جديدة وصبغتها بصبغة إلهية، فأصبح العرب وبين جوانحهم قلوب كأنها انفصلت من الملأ الأعلى قد ملئت بأنوار الحق وتشبعت من روح الفضيلة ، فهبوا يحققون وعد الله من إحقــاق الحق وإزهاق الباطل ، وتأسيس خلافة يطأطيء أمامها كل جبار عنيد ، وتعنو لها جبهــة كل عات صنديد . كان يلزم أن يكون هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس يسكنون في الصحارى ويجولون في الفيافي ، أكثر الأمم تأثراً بسحر المدنيـــة وانسحاراً بالمموهات الصناعية كما يشاهد من البدو إذا جاؤا إلى المدائن العامرة، ولكن سبحان ربي الذي جعل في كل شأن من شؤون خاتم أنبيائــه معجزة

باهرة ، فإن أصحابه قد خالفوا كل السنن النفسية المعروفة ، وبدل أن تنبهر أبصارهم وتندهش بصائرهم عند رؤيتهم تلك المعاهد الفاتنة في مدنيتي الفرس والرومان قابلوها بفتور الآنف منها ، المحتقر لها ، ترفعاً عما فيها من الجراثيم السامة للفضائل ، القاتلة للعواطف ، فلم تلفتهم عن شأنهم بل قابلوها بأفئــدة عرفت حقيقة الحياة الصالحة واطمأنت إلى ما وعدها الله به من السعادة الحقة ، والكمال الخالص ، فلم يقم منهم داع إلى تقليد في بدعة ، ولا محاكاة في ضلالة ، ولم تمت من احتكاكهم بها غيرتهم ، ولم تنحل بسحرها الفاتن هممهم ، بــل استقاموا على صراطهم وهو الصراط القويم ، ووزنوا الأمور بقسطاسهم وهو قسطاس العدل المستقيم .

إن هجس بهم هاجس وصور لهم أنهم قليلون مستضعفون ، وأن أضدادهم كثيرون قويون « تذكروا فإذا هم مبصرون » ، وقالوا : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

وإن نزغ بينهم الشيطان وقال لهم أين أنتم من لحــاق هذا الشأو الباذخ ، ونوال مثل هذا الشأن الفخم ؛ قالوا كما كانوا يقولون قبل ذلك : « هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » ، وتلوا على أنفسهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم .. الخ الآية » .

وإن همس لهم هامس وأراد أن يفتنهم بتلك الزخارف التي كانت تقع تحت أنظارهم ، قالوا هذه سعادة الدنيا ونحن لا نريد إلا السعادتين معاً ، وقرأوا : « ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، وإن أراد الشيطان أن يوهمهم باستحالة الجمع بين سعادتي الحياتين ويريهم أن الدين ليس بشرط في سعادة البشر بدليل قيام أضدادهم بدونه ، قالوا : « واضرب لهم

مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهمـــا بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً. لكنَّ هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقل منك مالاً وولداً. فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبى » ، « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ، « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

لم يأتهم الشيطان من جانب إلا سدوه في وجهه بآية من كتـــاب الله وسنة رسوله ، فلم يمر عليهم قرن من الزمان حتى أصبحت الدنيا دنياهم والخلافة فيها خلافتهم ، ترتعد الملوك عند ذكر سلطانهم ، وتهتز العروش خوفاً من نفوذهم ، وصارت لهم مدنية كسفت بنورها كل مدنية ، وبلغوا بها ما لم تبلغه أمة قبلهم ولم تزل آثارهم تدل العموم على عظم مكانتهم وسمو أرواحهم .

قال (دروي) المؤرخ أحد وزراء معارف فرنسا السابقين : « بينا أهـــل أوروبا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط ، إذ سطع نور قوي جانب الأمة الإسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك ، حيث كانت مدنية بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وبصرة وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت في

الأمم واغتنم منها أهل أوروبا في القرون المتوسطة صناعات وفنوناً (يأتي بيانها). ونقل المؤرخ (سديو) عن (هومبلد): « إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطىء الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا ، وبين العلوم وأسباب التمدن ، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً لا يشبه بغيره » . ثم قال : « وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا — ونحن نعترف به — أساتيذنا ومعلمونا » .

وقال (درابر) أستاذ بكلية نيويورك بأمريكا : « ان أقوى وأكبر الممالك الدينية التي لم يرَ العالم مثلها ، قد ولدت فجأة وامتدت من المحيط الاتلانتيكي إلى أسوار الصين ، ومع ذلك فلم تك قد بلغت نهاية ما قدر لها من الامتداد والنفوذ، فلقد أتى عليها بعد ذلك حين من الدهر طردت فيه خلفاء القياصرة وملكت بلاد اليونان ونازعت النصرانية السلطة على أوربا ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصحارى الوحشية والغابات الموبوءة ، من أول شواطىء البحر الأبيض إلى خط الاستواء »، « لقد طافوا (العرب) معاهد الفلسفة والعلم بسرعة تشبه السرعة التي طافوا بها مملكة الرومان »، «إنا لتأخذنا الدهشة أحياناً لما نصادف في كتبهم آراء علمية كنا نظنها نشأت في هذا القرن . من هذا القبيل مذهب النشوء والترقي للكائنات العضوية ، فقد كان يدرّس في مدارسهم . »

وقال عن مدنيتهم : « إن خلفاء الأندلس كانوا محاطين بأنواع الأبهة التي هي من لوازم الحياة الشرقية، وكان لهم قصور عامرة ، وحدائق زاهرة (وسرايات) يعمرها الجلال والجمال وإن أوربا الحالية (تأمّل) لا تعلو في حسن الذوق والرقة والظرف في شيء من أشيائها عما كان في العواصم العربية الأندلسية في الزمن الذي نتكلم عنه . كانت شوارع هذه العواصم مضاءة بالليل ومبلطة تبليطاً متقناً . وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش ، وكانت تسخن في الشتاء بالمدافىء وترطب في الصيف بتيارات من النسمات المعطرة تصل إليها من سراديب تحت الأرض مغطاة فوهتها بالأزاهر الزكية، وكان لهم حمامات ومكاتب

ومحلات للغذاء وفوارات للميـــاه والزئبق . وكانت المدائن والأرياف حافلة بالاحتفالات والرقص الذي كانوا يأتونه على نغمة (العود) و (والمزهر) ،وكان شعار العرب في ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس بخـلاف جيرانهم الغربيين فقد كان ديدنهم النهم في الاكل والإدمان للسكر . وكان الخمر حرام عليهم لايقربونه وكانوا يتمشون في حدائقهم في الليالي القمريةوفي غياضهم المنعزلة المزروعة برتقالاً وهم يصغون إلى قصة أدبية أو يتحاورون في بعض المواضيع الفلسفية ، مسلين أنفسهم عن أحزان الدنيا بقولهم : إنها لو كانت خالصة من شوب الآ لام لأنستنا الحياة الآخرة ، وراضين بالكد والتعب في المعيشة الأرضية أملاً في نوال الراحة الأخروية الدائمة ». ا. هـ.

هذه مدنية سامية لا تقل في نظر (درابر) وغيره في حسن الذوق والرقة والظرف عما عليه أوربا اليوم ، ولقد نالها آباؤنا في أقـل من قرن واحد بمحض سيرهم على صراط العدل المستقيم المبين في القرآن الكريم .

كوّنوا هذه المدنية وطبعوها بطابـع إسلامي محض ، وأثروا بها على سائر الأمم ولم يتأثروا هم بشيء منها .

وإن تعجب من هذا فأعجب منه أنه كانت مساجدهم بجـوار هذه المعاهد الفتانة عامرة بالمصلين والشعائر الدينية خافقة الأعلام على الرؤوس أجمعين ، يقول المؤذن : حيّ على الفلاح ، فتجيبه الأرواح قبل الأشباح ، وتسجد لندائه الأفئدة قبل الجوارح ، لا كما نحن اليوم يلفتنا ملهى قذر عن أكـبر مطلب من مطالب أرواحنا، ويأخذ بعقولنا مرقص مخجل عن أسمى رغيبة لنفوسنا ، حتى أن ما أقيم في بلادنا من تلك المعاهد التافهة التي لا تساوي جزءاً مما كان لآبائنا قد أنسانا الدين والدنيا والشرف والحياء والحياة .

السبب الأكبر لما ألم بنا من السحر بهذا البـدع الجديد ، واغتال من نفوسنا أشرف عواطفنا ، هو لا شك العماية المطلقة عن قوانين الحيـاة ، ولقد بُلينا بكتّاب فقدوا رشدهم من سحر هذه المدنية الجديدة ، فقابلوا الأمة وهي في

عفلة عن ذاتها ، فصوروا لها المدنية الحالية في صورة خيالية محضة ، وانتهزوا فرصة فتور حركتها فملأوا فؤادها يأساً من لحاق شأو الأمم الأخرى، ونفثوا في روعها القنوط المطلق وسموم الاستخذاء للأقوياء، وقتلوا كل عاطفة شريفة فيها، فنشأ تحت هذه النغمة نشء من الناس مستعدين للتقليد والمحاكاة، فسلكوا المسالك التي نسعى جهدنا اليوم لردهم عنها ، ولولا أن اليأس كفر في مذهبنا لقلنا قد استعصى الداء وعز الدواء ، ولكن الله غالب على أمره والأفراد كالأمم في قبضة الله يميتها وينشرها ولا معقب لحكمه . « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

أي شيء يكسر من شره أولئك المترنمين بمدنية هذا الجيل أكبر من نقل أقاويل أصحابها في بيان نقصانها وأنها ساعية بالأمم إلى حتفها إن لم يقوموا بها على صراط الدين الحق ؟

قال الفيلسوف (فيبرنس جيافرت) : « إن العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدها بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها. ولما آب للإنسانية رشدها، وقد فقدت شعرياتها السابقة، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلا . وفي الواقع ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الإلحاد المتجدد المؤلم الذي يجرنا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة .

« إنهم ينصحون كل إنسان بأن يكوّن لنفسه دينه الخاص ، ولم يفطنوا إلى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوي على تناقض بيّن ، حيث أن المذهب الحسي لم يترك للإنسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضة .

« إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد ، وإن جنون البذخ والجبروت ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ . وهذا الإلحاد الآخذ في النمو يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة إلى

حالة ثوروية دائمة . وأصبحت ترى الملوك والعظـام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل أن يتشبح في بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين ، فكل ديموقراطي يتمنى أن يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة وازدرى بذلك الدستور السياسي الذي يراه يتغير بسرعة جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتـــبر أن ماله من حق المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن. ولقد رجونا أن نداوي مصائب النـوع الإنساني بالكنوز المـادية التي ألقيت بين أيدينا منذ قرن من الزمان . ولقد تكاتف العلماء والمهندسون والصنـاع المكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمى ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأي قانون أخلاقي يكفي لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة ..؟ لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شيء غير مدرك . لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس فترى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم في ارتـكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد .

«وإن تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر اختماراً بأشد مما كانت في أي زمن من الأزمان . فإن جرائم الفوضويين وإفلاس الماليين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس ، والجنون الذي لا ينتظر إلا سنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقي الشديد الوطأة البعيد القرار الذي عم أجناسنا ، ناشىء من عدم وجـود قاعدة دينية تصلح لإحداث الوحدة والإخـــاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكد آخـذة في الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الإنسان في غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانشراح ، حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فـرد يدعي لنفسه حقوقاً ليس لها حد تنتهي إليه ، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أي زمن من الازمان » .

وقال العـلامة (كاميل فلامريون) ، ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضينا به ، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هم لهـا إلا أغراضها الذاتية ، أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبـالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجهود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات؟» ، « وإن من التناقض البيّن المؤلم أن ترى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة ، بينما رفع عقولنا إلى المدركات العالية أهبط إنسانيتنا إلى أخس الدركات. ومن الحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفىء حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية » .

هذا تمهيد بسيط سقناه أمام الكلام في حل الشبهة الماضية ليعـلم أولئك المتفيهقون بزوال الدين وبقيام العلوم الطبيعية مقامه أن سنة الله لا تتبدل ، وأنه سيجيء يوم يرى الإنسان فيه أن الدين دواؤه الوحيد ، وأن ما كان فيه من تلك العجرفة والكبرياء لفحة من لفحات الشيطان ، ولكنه في ظننا لا يعـود حتى تصهره الحوادث صهراً ، وتؤدبه بعصاها أدباً ينتقش في كل ذرة من ذرات جسمه « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » .

هذه الفتنة العمياء التي يموج في دياجيرها الأوربيون الآن بشهادة من ننقل عنهم من كبار علمائهم ، أتتهم من الرقي الصناعي المدهش الذي حصل لهم لمـا تركوا

عقائدهم التي كانت تحول بين عقولهم وبين مشتهياتها من العلم ، فبدل أن يقفوا عند حدود الدين الفطري حاوزوه إلى متاهات الإلحاد، وقالوا: إذا كان كل ما نلناه من سعادة هو من العلم فلا نعترف بناموس غيره . وقد أريناك بعضاً من أقوال عرفائهم في هذه الفتنة العلمية الخطيرة وهو دور من أدوار حياة الأمم أشار الله إليه في كتابه الكريم بقوله تعالى: « فإذا مس الإنسان ضُرٌّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم (تأمل) بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

الشبه العلمية والعقائد

استعرضنا أمام القارىء في فصل الإنسان، تحت عنوان « نشأة الروح العلمية التي يسيطر بها الغرب على الشرق »، كثيراً من الشبه العلمية التي تلوكها اليوم بعض الألسن وتجيش في كثير من الضمائر ، واستدركناها في كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بفصل تمهيدي إجمالي ، ووعدنا قارئنا بالتفصيل الشافي ، فننجز اليوم وعدنا فنقول والله ولي المؤمنين :

قلنا في ذلك الفصل : « فهل في هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة أن الدين باعثه الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمتها أدوار خاصة، وقد أدت وظيفتها وأخذت في الانحلال ولن يقوم لها في عصر العلم القائمة ؟ »

وقلنا : « فهل في الرقي المادي شيء من السحر يعتري النفس فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟ إن كان كذلك فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشؤه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكمالات روحانية ويكون الإنسان بينهما مغموراً في نعيم روحه وجسده متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ إن كان لا يمكن

ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقـراء والمساكين ، وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين؟ وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية وكمالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضي عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية الأوربية قد خلعوا أعنة الدين وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟ »

ثم قلنا : « ما هي المدنية وما تأثيرها على الروح الإنسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الإنسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية؟ هل السبب في ذلك عدم الإيمان ؟ فما هو الإيمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في إيتاء الروح حاجتها وتهدئة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذي عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفي بملاذها الجسدية؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالإنسان إلى اعتقاد بطلان الأديان، وإدراك فساد ما بنيت عليه من الأركان، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته وقيـام العقل مقامه في أداء وظيفته ؟ . إن قيـل نعم ، فما هو العقل وما هو الدين ، وما حدود سلطانهما على النفوس ؟ »، « وإن قيل لا، نقول : إذن ما هذا الأثر الذي نشاهده ؟ » ، « إن قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم لأمثال هذه الأمم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الأصلية ؟ هل ذلك لأنا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ »

ثم أوردنا على أنفسنا قول معترض يقول : « إنـكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم إلى تقليد الأوربيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون في تعليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر، فتسمونه سحراً أو تسمونه روحاً، وقد جعلتم التفيهق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في أبحاثكم وكتاباتكم. أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أي قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة في الأمم التي

تحتكون بها ، لأن الفضيلة جذابة خــلابة تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميال، فهي تجذبكم كل يوم إليها بقوتها الذاتية ، فترضخون لأحكامها بالفعل، بينما تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية، والجمل التعجبية اندهاشاً من كونكم مسحورين بالرذائل ، ومجبرين على ترك الفضائل . »

هذا ما قلناه في الفصل المذكور آنفاً وأتينا به ههنا لمناقشته الحساب من قريب ، خشية أن يكون الرد في مجال والشبهة في مجال آخر ، فيعضل الموضوع على المطالع فلا يهبه من العناية ما يستحقه. فلنبدأ الكلام والله المستعان.

★



لو أردنا أن نعالج كل هذه الشبه التي سردناها واحدة بعد أخرى ، لطال بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارىء مع قلمنا مذاهب بعيدة يصعب معها إشرافه على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الإحاطة بأطرافه من أول جولة ، فتضيع الثمرة التي نقصدها بالذات من إشباع القول في هذا البحث. لهذا رأينا أن نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارىء أن يلم بمحيطها من أول نظرة ، ويدرك لها مركزاً معلوماً؛ ولا حرج علينا بعد ذلك إن مددنا أنصاف أقطارها إلى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فإنه مــا دام واقفاً في مركز الدائرة يمكنه أن يتتبع خطوات القــلم إلى حيث يشطح ثم يعود بنفسه إلى النقطة التي خرج منها ، ليتجه حيث أراد بدون أن يخشى الشرود عن جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التي نقول عنها ، هي عبارة عن بسط مقدمات أولية أساسية

صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحدود المرسومة للبناء، لا نرى بدا من إقامتها. ومن الله نستمد القوة والحول ..

★

دستور الكائنات ودستور الانسان

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجبه في حياته ، وتريد إليه سائر محاولاته ، حتى إن الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لأحوالها ، وإن كانت لم تتمتع من خصائص الإدراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها إليه ، وليس دستوراهما إلا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانها ، حتى إنك لو كلفت شخصاً من أشخاص الجمادات أو النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس أي على دستوره الخاص ، لقاومك وأعياك ، فإما أن تقلع عنه وإما أن يذهب فقيد هواك . فأما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط أكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها أوسع مجالاً،وأبعد اختصاصاً وأنأى مرامي وأغراضاً ، ولكنه مهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تتعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لأن ترمي لما وراء حسها بأي وجه من الوجوه .

أما الإنسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها إلى باحات أخرى معنوية لا يحددها له الوهم بحد ، ولا ينتهي منها تصوره إلى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعر درجة اتسعت أمامه تلك الباحات المعنوية درجات كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة إليها حتى أنه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحي معها الماديات في سبيلها ، ويكتفي من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغاً لتلك

المطالب العالية ، وجرياً وراء أمانيه منها . وقد شوهد من أحوال الأنبياء أنهم مع سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتنعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بلقيمات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وأنوار الجمال الإلهي لما هو أكبر من الدنيا وما فيها في نظرهم . وأعظم مثال نقدمه لقرائنا حال سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان من السلطان على رعيته في درجة لم ينلها عشاق الملك ومؤسسو الممالك ، بحيث أن كل واحد من أتباعه كان يهون عليه أن يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد أبت نفسه الشريفة كل ذلك النعيم الفاني ، ولم يصب من حاجيات بدنه إلا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحاني الذي كان يشعر به ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار أصحابه وعظماء تابعيه في كل الأجيال أن منهم من تبعه في هذه الخطة الشريفة ، فانغمر مما يتوق إليه في بحر من الفيض الإلهي لو وضعت الدنيا بلذائذها في صدفة من أصدافه لما وازنت أصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نعم إن تاريخ النوع البشري ليدل دلالة صريحة لا سيما لو استقرينا أحوال الأمم المرتقية منه على أن دستور الإنسان في حياته ، الذي يسيطر على سائر حركاته وسكناته ، هو غير دستور العالم الحيواني ولا هو ترق منه .

الحيوان لا هم له إلا خدمة الجسد ، وأداء مطالب البدن ، يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والإنسان على الضد منه : له مرام أبعد مدى ، وأغراض أشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به في صميم ذاته ، ويتضرم لأجله في لباب كيانه ، وإن لم يستطع أن يصوره بصورة ، أو يقف منه وهمه على كيفية .

نعم خلق الإنسان مغرماً بالكمال ، ولهان به في كل حال ... فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسالم ، ولا ينقض ولا يبرم ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلس ولا يحاجي ، وإن شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل إلا وفي قلبه نار تدفعه لطلب الكمال ، وتزعه عن الوقوف

في الأوحال وإن غلط في اختيار الوسائل ، وارتكس بجهله إلى أخس المنازل .

طلب الكمــال صفة من صفات الروح الإنساني ، ولازم من لوازم تركيبه الروحاني ، بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والأميــال والقوى التي ركبت في هذا الفؤاد الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الإنسان في جهله وعمايته ، وما تسمعه من غيه وضلته ، وما أكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية ، والأميــال السفلية ، كالإيغال في المآثم ، والإنغماس في أقذار الجرائم ، وأرجاس الذمائم ، وانظر إليـــه بشراً سوياً خالصاً من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ، طاهراً من شوب التقليد والوراثات . تر كائنـــاً أعطي من القوى والمواهب ، ومنح من الملكات والبواعث ، ما لا يدخل في حسبان حاسب ، ولا ينحصر في أبحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى إدراكاً لا تعجزه حقيقة ، وعقلاً لا تعمى عليه معضلة ، وفكراً لا ترتد تموجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهي قواه عند نهاية ، وخيالاً ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأميالاً لا تنتهي لها مطالب ، وقوى لا تعييها الرغائب ، وهو مع كل هذه العطايا في عالم لا تنتهي عجائبه ولا تفنى غرائبه ، ولا تنضب مادة آياته ، ولا تغيض أسرار مدهشاته .

تأمل في هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ، ثم قل لي أي مطلب يليق أن يتخذه له غاية في حياته ، وأي مرمى يصح أن يجعله غرض محاولاته ، وأنشودة ملكاته ؟ قلنا : دع ما تعلمه من حالة الإنسان في الفساد والدنايا جانباً وقـل لي بعدها أي طلبة تليق أن تكون مرمى هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا التركيب البديـع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ، ولائق بهذه المنح والنحائز ؟

نعم ، خلق الإنسان وكل ما فيه يسوقه ويحفزه لطلب الكمال والجمال ، بل ويهيئه ويدفعه في سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظمـأ للظمآن ! ولكن :

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

أي قلب لا يتفتت كمداً وحسرة ، وأي حشاشة لا تذوب أسفاً وحزناً ، إذا علم الانسان من حال بني نوعه واستعدادهم لأسمى منصات الكمال ، ما أتينا على طرف منه ، وإنهم قد وهبوا من الملكات والقوى ما يدفعهم إليه دفعاً ، ويهيئهم له تهييئاً ، ثم يرى أن أكثر هذا النوع المكرم قد شاكل البهائم في شرهها ونهمها ، وضارع الوحوش في ضلالها وجهلها ، وأشبه الضياغم في ضراوتها وقسوتها، وحاكى الشياطين في حيلها وخدعها؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى والملكات عكساً سقط بهم دون عالم الحيوان ، فروجوا بينهم ذمائم الصفات ، وخسائس الأخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم وأحوالهم ، ورتبوا على أصولها قوانينهم وشرائعهم، وحبسوا أنفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكمالهم، ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يلم بفكر المصلح الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، فيجعله دائم الحسرة طويل الفكرة، أسفاً على ما آل إليه أمر هذا النوع الكريم، وقد كاد هذا الأسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى أن مبدعه جل وعز خاطبه على لسان الروح الأمين قائلا : « فلعلك باخع نفسك (أي مهلكها) على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ، وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . » فرجع عليه الصلاة والسلام إلى هذا الأدب الإلهي ، وعلم أن تلك حكمة بالغة وإبداع لا يعلمه إلا هو ، فهو وحده المصرف للأمور ، العليم بصيور الشؤون وأعقاب الأحوال ، سبحانه لا معقب لحكمه .

أنظر إلى هذه الفطرة الانسانية الكريمة ، وإلى ما متعت به من قوى ومواهب، وإلى ما تليق له من عاليات المراتب، وساميات المناصب ، لو أسلمت وجهها إلى الله، أي لو تخلصت من شائبات التربية الفاسدة، وحررت من مؤثرات العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات ، إلى غير ما خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التي تحجب عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر، وتأمل كما ينبغي أن تتأمل

في تلك الغياهب الشيطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده. واشكر الله على أن هداك للإسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الإسلام إلا إسلام الوجه إلى الله وخلع كل الوراثات والعقائد والمدركات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والقيام على صراط الإحسان في القول والعمل على ما يقتضيه قانون الخلقة وناموس الحياة « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » .

إذا تأملت فيما قلناه ، ورأيت أنك بينما ترمي الإنسان نوراً صرفاً وجمالاً خالصاً وكمالاً بحتاً إذا هو بعدم إسلامه ، أي بعدم إسلام وجهه لله ، ظلمة متكاثفة وقذراً محضاً ونقصاً يسفل فيه عن أخس الحيوان ، إذا تأملت في هذا وتعجبت منه ، فإن أعجب منه بما لا يقدر أن الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك سائر قواه فتوجهها إلى مصاعد الكرامة ، ومعارج الجلالة فيعرج على أجنحها إلى الغايات القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ، وقد تتخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوي به الى أسفل من دركات الحيوانية ، ويغمره من عالم النقص إلى أخس المنازل ، ويتركه من مداحض الأهواء في هوة ليس لها آخر .

هذه العقيدة هي الإيمان بالعالم الروحاني . وإليك البيان :

الناس أمام هذه العقيدة :

الناس بإزاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة أصناف : صنف يعتقدها اعتقاداً ذوقياً فوق إقراره بها إقراراً برهانياً ، بمعنى أنه لم يكتف بإقامة الأدلة على حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ تلك البراهين والثرثرة بها كتابة وقولاً فقط ، بل صدقها بالحجة والبرهان وعمل بما تقتضيه من الأركان ، فذاقها ذوقاً ذاتيا فأنتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في أعماق ضميره وأقصى ثنيات فؤاده . ورجل لم يعتقدها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ، ولم يعد يخطرها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبن أموره على أصولها .

ورجل ثالث يعتقدها بالوراثة عن آبائه وأجداده ، فاكتفى منها بمجرد وهمه بأنه واحد من حملة أمانتها ، وفرد من الأمة التي كانت تحمل علمها ، وتستضيء بمصباحها .

لا جرم أن لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً في الحياة يلائم مكانه من هذه العقيدة ، لا بد لنا من الإلماع إلى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشُبه المتقدمة لارتباطها بهذا الموضوع تمام الارتباط .

حال المعتقد بالعالم الروحاني :

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه ، أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه الكليلة وما تلمسه يـــده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه أن يكون من الجمود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذي لا نهاية له لا يشتمل إلا عليه وعلى ما يمكن أن يحسه فقط ؛ وأنف تصوره أن يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقاً كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ، وأبى فكره الطموح الجوال أن يزعم أن هذه الطبيعة المدهشة لا يصرفها ويحركها إلا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا إرادة ، وأن كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست إلا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ، وتعاصى عقله أن يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاءه بها أولئك الذين ذهبت بصائرهم وطمست أفئدتهم ؛ لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفـــاه كلالة حده ، وعجزه عن إدراك كنه الذرة البسيطة فضلاً عن الإحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر .

علم صاحبنا كل هذا ، ثم نظر إلى تاريخ النوع الإنساني نظرة فرأى أن العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الأمم ، فصعب عليه أن يزعم أن النوع الإنساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموساً في بحار الخيال ، وواهماً

في أكبر مسألة تعنيه وتهمه . ثم ألقى بنظرة أخرى على تاريخ الإنسان ومر على أحــوال أولئك الرجال العظام ، الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الأجيال من لدن القدم لليوم ، وأحدثوا أكبر الحوادث الاجتماعية ، وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، فرآهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا إلى الإعتقاد به كافة الناس فأحدثوا بهذه العقيدة أعظم القوارع الأدبية التي كان ولم يزل لها أكبر أثر في حال الإنسان وأخلاقه . فرأى أن مجرد حال أولئك الأنبياء والرسل إن لم يكن هو وحده أدل الأدلة على وجود ذلك العالم، فلا أقل من أنه يستلفت إليه النظر، ويوجه عليه الفكر، ويميل بالعقل إلى ترجيح وجوده ، ويحبب إليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ، ثم عاد إلى نفسه ، فرأى أن الحياة الأرضية دار آلام وأحزان ، وقرارة أكدار وأشجان ، ومحلة بلايا وأرزاء ، تارة في النفس والمال وأخرى في الإخوان والآل ، وأن حوادثها سلسلة من أدوار وأطوار ، لا تنتهي حلقة منها حتى تبتدي حلقـــة أخرى ، والإنسان بين تلك الحلقات في حرب عوان ، وضراب وطعان ضد نفسه وأهله وبني بلده وإخوان وطنه وعموم نوعه، وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها، وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجري به إلى حيث يجهل ، ويجول به في كل جدول ، يجتهد ليقف لحظة أو يرتاح هنيهة فيرى أن في وقوفه الهلاك المعجل والشقاء المسجل ، فلا يسعه إلا الاستسلام لدفع ذلك التيار ، فلا يزال يقذف بـــه من جانب إلى جانب حتى ينتهي بـــه إلى غـاية حياته ، أو يصدمه في إحدى جمحاته ، صدمة توقف حركاته . ربما يكون هذا الرجل في أثناء دورانه هذا قد جاء بأولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه، وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه ، وكثيراً ما تمزقوا أمام عينيه فيكون ألمه مضاعفاً، وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف .

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال ، فتحقق أن الحياة على هذه الصفة عبثاً

ثقيلا ، بل بلاء وبيلا وشراً مهولاً ، يجدر بالإنسان معها أن يحسد الفـــأرة في وكرها ، والنملة في مسكنها ، والحمامة في عشها ، بل والحجارة في جبلهـــا ، والرمال في سهلها . وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويبتئس من حالته ويجأر إلى قيّوم الوجود ليهديه في حيرته ، وينعشه من وهدته ، وإذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه ، ويصعد إليه من لباب معناه تالياً عليه قوله تعـــالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منهـــا وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » ، فعلم عندها أنه مستودع أمانة جليلة ، وحامل سر عظيم ، فهمّ يتعرف تلك الأمانة ، ويدرك معنى ذلـك السر ، ولكن أين العرفاء ، أين الأدلاء ، أين المرشدون ، أين الهادون الخبيرون ، أين الحكماء الروحانيون ؟ فبينما هو يجأر إلى الله بهذا القلب المنكسر ، واللب المنذعر ، وإذا بصوت كالأول صعد إليه من غيابة سره تالياً عليه قوله عز وجل : « الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » ، فرمى بنفسه بين يدي أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، رجاء أن يأخذوا بيده ليوقفوه من هذا الدوران الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقـــة ، ولكن من الذي يقصد منهم وهم كثيرون ، ومن الذي يستمد من روحه وأكثر تعاليمهم قد حرفها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فإنه ليموج في متاهة هذه الحيرة وإذا بإلهام يذكره بهذه الآيات : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، فلم يسعه بعد أن ظهر له وجه الخلاص ، وتراءت له سفينة النجاة إلا أن يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولكن هيهات .. كيف الوصول إلى سلم السفينة وهو من موج أحواله في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل ، ويغري باليأس عن بلوغ الأمل ، فبينما هو على مهواة القنوط وإذا بذاكرته مرت به على هذه الآية : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، فعلم أنه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعده بالهداية ، وصوره على هذا الإبداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ

نفسه بآداب القرآن ، ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام ، حتى هـدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزماجر ، وقد كان يظنها لا تهدأ ، ثم منحـه الله كرامة السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الإبليسي ، والسكينة مشرق النور الإلهي ، ومهبط السر القدسي ، ومهب نسمات الطمأنينة والراحة « هـو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مـع إيمانهم » ، فازداد حباً في التأدب بآداب النبي الاعظم وتشبثاً بتعاليمه صلى الله عليه وسلم ، فنال على قدر ذلك قرباً من الحق الأقدم ، وتمتعاً بشهود الجمال الأقدس ، وبصراً بنور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام ، والتذاذاً بذلة العبودية ، وهياماً بما ينتظره في العوالم التي تلي هذا العالم « يهدي الله لنوره من يشاء » ، واكتسب ثباتاً في قوله وفعله ، ورزانة في فكره ونظره ، وزايلته تلـك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة ، وتستعبده للكمالات الوهمية الكاسدة ، وارتفـع عنه ذلك الطيش الحيواني ، والنزق الجنوني ، والخرق الشهواني الذي كان يلعب به لعب الطفل بالكرة ، ويستطيره استطارة الريح للريشة ، ، فكان من الذين قال خالقهم فيهم : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . الآية » ، ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه أن انفتح له من قبل عالم الجلال والجمال نافـذة علية يصل إليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات الفتن المـادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ، ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التي لا تفتأ تناصب الإنسان العداوة والجفاء ، وتنصب له أشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم في حالة تغبطه عليها الأملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحـانية العلوية والسفلية ، وتخضع له نواميس العوالم المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية .

هذا هو الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني اعتقاداً ذاتياً ، وعمل بمقتضياته عملاً حقيقياً ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهـو يعيش عيشة مباركة طيبة حاصلاً على سعادتيه ، وفرحاً بكمال حالتيه « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

أثره في الوجود

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من المنتسبين إليها أومن أضدادها، بأنها تغض من طرف الإنسان عن الاحتفال بالعالم الفاني ، وتثبط من حركته عن الرقي في مجال الكمال الصوري الجسداني ، وهو زعم لا أساس له من الواقع ، وما يروى من ذلك عن بعض الأنبياء، فإن صح كان ذلك خاصاً بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى، وهو أمر لا يبنى عليه حكم، فإن تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ إمامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على أن أكبر الحوادث الاجتماعية التي بعثت إلى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على أني لا أعني بالكمالات الصورية والترقيات المـادية تلوين الأواني وتزويق الألبسة والتفـنن في صنوف المآكل والمشارب ، وإقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن في الزينة والخلاعة كل مذهب . كل هـــذه الإفراطات يجدر أن تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات إنسانية، وإنما أعني بالرقي المادي المتاع بالمزايا العظيمة التي خلقها الله لنا في الطبيعة ، وصرف القدر الواجب من قوانا في تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعدو على الشرف والعرض ولا يصرف الإنسان عن الجمال الباقي إلى الوهم الفاني « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

إذا عجبت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد في الدنيا مع هذا السعي فيها ، قلنـــا :

الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني يعلم تبعاً لذلك أنه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ، وخليفة الله عز وجل في أرضه ، وأنه قد منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ، ما لا يحصره وصف الواصف ، أريد من هــذا أنه كلما ازداد تنوراً بعالم الروح، واستشرافاً لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس أن تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع فيه ثنيات فؤاده جزافاً ، بل خلقت لأغراض يجب أن تسعى إليها ومرام

لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذي يعتقد بالعالم الروحاني والحالة هـذه مجبراً على إعمالها فيا خلقت له ، مسوقاً إلى توجيهها إلى مراميها التي طبعت عليها ، عمـلا بشروط خلافة الله في أرضه ، وقياماً على صراط العدل الذي هو طريق حياته ونجاته . وبناء على هذا فيكون دأبه على إعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذي صوره عليه مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها إلى العوالم التي يتوق إليها ، لأنه يعلم أنه لا كمال إلا بأدائها . ولا صعود إلا بالنهوض بأعبائها.

هذا سر تلك الهمم العلية والعزمات القوية التي تسوق أصحاب العقائد الحقة إلى جلائل الأعمال في هذا العالم الأرضي مع زهدهم، وتفاهة الطينيات في نظرهم.

الرجل من هؤلاء لايستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، أو يصيب منها وطراً ، فإن ما يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للدنيا ومـا فيها ، ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه يعتقد أنه آلة من آلات الحياة ينشرها حيث يصل إليه إمكانه ، وأنه شعاع من نور الكمال خلق ليكشف الغمم ، ويقشع الغياهب، وأنه عامل من عوامل الحق أرسل ليقارع الباطل حيث كان وأنّى وجد .

أنا لا أدعي أن جميع أفراد الأمم ذوات العقائد الحقة هم على هذا النمط من الكمال ، وإنمـــا هذه الحال مخصوصة بأفراد من تلك الأمم يعدل الواحد منهم الألوف المؤلفة ممن ليسوا على شاكلته . فإذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فإن إرادتهم القوية تستولي على مجموع إرادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم إلى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس صبغتهم ولو تقليدياً ، وليس هذا بعجيب بل هو أثر من آثار قانون الموازنة . ألا ترى أن من كان جسمه أقوى كان جذبه لمن هو دونه مناسباً لتلك القوة ؟ كذلـك من كانت روحه أقوى جذب من هو أضعف منه لا محالة وحركه بحركته . ومن هنا ساغ لنا أن نقول أن روح خاتم النبيين محمد ﷺ أقوى الأرواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الأرواح المحيطة بها تأثيراً لم يعهد له مثيل في تاريخ الإنسان .

حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني

حاله على الضد من سابقه بمعنى أنه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه ، وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتـــأثر به ذوقه وسمعه وشمه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بها بواحدة من تلك الحواس فأنكر وجودهما ، وأراد أن يعلل وجوده ووجود الكائنات على غير الطريقة الاعتقادية ، فاخترع أسماء انتزعها من حـــال الموجودات وعلائقها ببعضها وسماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم أنها هي التي أبدعت كل هذا الإبداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وأن ليس الكون وما فيه إلا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنياوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية ، ثم تلبث ما قدر لها أن تلبث ، ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها أو بسبب آخر وهكذا الحال أبد الآبدين ودهر الداهرين ...

ولكن كيف العمل وهو من أدوار الحياة مسوق بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها أمر أفظع عليه من كل ما سبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولواعــج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله وإخوانه وبني نوعه ، ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل أن له منه معزياً ، ولا يتوهم أن وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ بانتظاره وتمنيه !

ينظر إلى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو إلى مقذوفات البلايا تهوي بالأرائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت

إلى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى هذا العالم الفاني يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من الفؤاد الصخر ! ثم يلتفت إلى نفسه فيراها فضلاً عما هي عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بأنفاسه ، وتزجه إلى شك من الأرض لا يقيم بعده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الأمر محيصاً ولا مفراً ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التي تلم بفؤاده والألم الذي يحل بمعناه ، والكمد الذي يستولي على لبه ، والنكد الذي يخيم على كيانه ؟

لا جرم أن كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم أنفه لطلب المخلص في العالم المادي وتدفعه في ذلك السبيل دفعاً قهرياً فيتجه بمجموع قواه إلى الماديات لتحسين حياته اتجاهاً جنونياً ، لا التفاتاً كالياً ، فينال منها شأواً لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ، ذلك لأن الله سبحانه خلق الإنسان وقذف به إلى الأرض ، وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية أيضاً ، أو بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو إن طلب الدين وحده ناله وإن طلب الدين والدنيا معاً حصلهما ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وإن لم يرد إلا الدنيا وحدها بلغ مناه منها فإن منح الله معروضة لكل من طلب ، كما قال سبحانه : « كُلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . »

أثره في الحيـــاة

تصنّع ساعة من الساعات حال الذي يئس من وجود الآخرة ، وهب أنك ممن لا يرى في الوجود إلا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك في معمعان الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق ، وتخيل مضاضة تلك اللحظة التي يخمد فيها الحس والشعور ،

ويدس فيها الإنسان الى أعماق القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركاً مالاً جمعه بعد طول التعب ، وأفلاذ كبد رباهم بالجهد والنصب ، وإخواناً شاطرهم الحزن والطرب ، ومعاهد أوطار نال فيها الأرب ، قلنا تصنـّع أن تكون في هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ، ثم انظر ما يلم بفؤادك من ألم ووجع ، وما يحيط بمعناك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تعجل بالخلاص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلاً ، وتأمل في ثورة عواطفك تأملاً طويلاً ، تر أن اليأس الذي خيم بفؤادك استحال إلى حمى تدفعك لتتلمس عن الآخرة عوضاً، وتزعجك لترتاد عن الخلود بدلاً ، وتراك اندفعت اندفاعاً قهرياً لأن تحصل من لذائذ هذا العالم أقصى ما يصل إليه الإمكان ، وأبعد ما يناله الجهد والعرفان : تراك تستسهل خوض الصعاب والعقاب ، وتستهون اقتحام المخاوف والأخطار ، جرياً وراء المطالب الكبار ، والرغائب الجسام ، ولسان حالك يقول :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

وترى أن هذا اليأس نفسه قد ألبسك نفس الصفات التي تكسبها العقيدة للمعتقدين من حيث الجد لاستثمار الطبيعة ، ولكن مع هذا الفارق الجسيم : وهو أن صفات المعتقد يكون سائقها أداء واجبات خلافة الله ، وتتميم نظام الوجود في أكمل معناه ، وتجليته في عالم الإمكان بأجمل مجلاه ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه فيما خلقت له ، فيكون بذلك ساكن الفؤاد ، مطمئن الجأش ، هادىء الضمير ، غير مصاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصاً من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجياً من وخزات الشهوات وطعنات الأهواء . وأما غير المعتقد فيكون مسوقاً إلى العمل والإقدام بأغراض سافلة ، ومحفوزاً إلى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر إلا في إيتاء جسده غاية لذاته ، وأقصى أمنياته ، فيلازمه الشره أينما سار ، وينغصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يهجع ، ويأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة وخزة من شهوة ، وفي كل لمحة طعنة من رغيبة ، يريد أن يحصل ما يؤمله ، فإن ناله كان نيله سبباً لزيادة همه وتفاقم غمه.

من هنا ترى أنه ليس بعجيب أن ينال غير المتقدين مدنية زاهــرة ، وحضارة باهرة ، ولكن لا تنس أن بواعثها هو ما أصف لك ، ولذلك لا ترى فيها نصيباً للروح، ولا قسطاً لكرائم العواطف . ترى أن الحق فيها مع القوة ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء فيها أسرى الأغنياء ، وعبيد الأقوياء ، يستغيثون فلا يغاثون ، ويجأرون فلا يجابون ، ويتعصبون فينهزمون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلــك إلا العمل بمبادىء الفوضى ، يترصدون لقتل الملوك ، ويعملون على ثل العروش ، وينابذون الأديان ، ويهزؤون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالأمم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام .

يشكو عقلاء هذه الأمم من سوء الأحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يجيب ! القوم سكرى من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دن الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ؛ وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » وإلا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالأولين من المكذبين : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » .

المعتقد بالوراثة

هو رجل وجد أبويه على ملة من الملل فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ، ولم يعمل فيها فكراً ، بل قنع من الحيــاة ونعيم الوجود بما حصله له آباؤه من الرقي المادي فجعل هذا الميراث حظه من الدنيا ، ورام أن يبقى في يديه كما ورثه ثم ينتقل إلى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً ، فأشبه في ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجتزىء به غير طامع في سواه ولم يدر أن حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه أو إنمائه حالة من الحالتين : إما عقيدة تعرفه أنه هو وماله لله ، وأن كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له إقامة لأمر الله ، وردعاً عن مناهي الله ، فيكون كالمسلمين الأولين حيث انصبت إلى خزائنهم ماليات الأمم بمحض

قيامهم بخلافة الله. وإما أن يكون بلا عقيدة فيظن أن المال قوام الحياة، وقيمة الإنسان في الوجود، ودستور الأمم والشعوب، ومفتاح السعادة والنعيم.. فيسعى لطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال أكثر أمم هذا العصر. هـذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه، كما أنهما السبيلان لإيجاد كل مدنية واستمرارها. أما الذي هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فلا يصلح أن يكون مستقلاً في نفسه لأن الأرض لأحد رجلين: إما لرجل يعتقد أن الأرض لله فيأخذها صيانة لأمانة الله وأداء لخلافته، وإما هي لرجل يعتقد أنها جنته ومأواه، وليس له غيرها إله فيتكالب عليها تكالب الضواري على فرائسها، ويبذل في سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة.

أما صاحبنا الذي يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجلين، إنه ليس بمعتقد لأنه غير عامل بعقيدته، ولا جاحد لأنه مقر بقبح الجحود وبشاعتـه، فهو وسط بين الإثنين وليس له إلا تحمل أحد النيرين: فإما أن يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحييه بحياته، ويصرفه بحركته، وإما أن يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يزدرده مع ما يزدرد.

نعم، العقيدة بالوراثة ما لم يعززها الذوق الذاتي لا تفيد صاحبها في الدنيا شيئاً، ولا أدري ماذا يكون نصيبه في الآخرة. لا تفيده في الدنيا لأنه محروم من دافع العقيدة ودافع الجحود معاً. لأن المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الأرض أكبر باعث على استغلال الطبيعة وإحياء مواتها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب، وتاريخ آبائنا الأولين أكبر شاهد؛ وغـير المعتقد له من يأسه من الآخرة أكبر سائق على التكالب على الدنيا والتنعم فيها بكل الوسائل الممكنة، أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره أن أبويه كانا مؤمنين، فلا يحس بأثر دافع من ذينك الدافعين، فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة، ولا حمى الجحود ويأسه الذي يسوقه لكل مـا ينعمه في دنياه، وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة إلا التمتع المؤقت بميراث آبائه فلا

يلبث أن تغشاه غاشية من صولة الأمم الطامحة ، فتجعله لقمة سائغة وتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون من كل الأمم .

الفضائل والرذائل

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين ، وجالوا بهما في كل مجال فنشأت بإزائهما شبهة قوية في الدين يكثر ترددها على ألسنة المشككين، فيقولون مثلاً: « إنكم تدعون أن الفضائل قوام الأمم وملاك الحياة، وأن عدمها نذير التلاشي ومقدمة الدمار ، فما بالكم ترون الأمم التي تزعمون أنهم أحط منكم في الفضائل أو أنهم مغمورون في الرذائل قد سبقوكم إلى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم ؟ » ، ليس حل هذه الشبهة بالأمر الهين إلا إذا أسسناها على قاعدتها الطبيعية ، وذلك لا يتأتى إلا بما قررناه آنفاً من أن الناس ثلاثة أقسام: قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يعتقد به، وقسم يعتقده بالوراثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحايلات الفلسفية أن لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه إلى الرقي والتقدم، وأن رقي الأول يشمل الرقي الروحي والجسدي، وأما الثاني فرقيه محدود في عالم المادة فقط ، وقلنا أن المعتقد بالوراثة لاحظ له من أحد هذين الدافعين ، وأنه لا يليق إلا أن يكون تبعاً لأحد هذين الصنفين . والآن نقول: إن ذلك الدافع الظاهر الذي يدفع المعتقد للتقدم للأمام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقي . هذا الدافع هو مبدأه الذي يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوره في كل أمر من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذي يرى نفسه مدفوعاً لتكميل بدنه وإشباع حواسه فمبدأه (تنازع الحياة) لأنه لا يرى سعادته إلا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه ، فتراه ينازع الناس فيهما منازعة اليأس المستميت بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ، ودافع تنازع الحياة ، دافعان عظيمان للحياة ، ودستوران كبيران للبقاء ، فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنهما لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الإنساني لأنها

تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره ، كما أريناك ذلك في الفصول السابقة ، وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره ، لأنهم عائشون بهذا الدستور وهي بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ، ولا يصح أن نعبر عنها برذيلة إلا بإضافتها للنوع الإنساني لأنها لا تليق به ولا تؤديه إلى غايته التي خلق لأجلها . ومن هنا ترى أن للأمم الخيار في القيام على أحد هذين الدستورين لأنها تحيا بكل منهما حياة طبيعية ، ولكن مع هذا الفارق الجسيم وهو أن الأمة التي يكون مبدأها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكمال الجسد معاً ، كما حصل لأتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » . وأما الأمة التي يكون مبدأها تنازع الحياة ، فلا تنال إلا كمال الجسد وحده ، كما قال تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » .

بيان لطبيعة هذين المبدأين

مبدأ (طلب الكمال) الذي هو دستور المؤمن ، مرتكز مباشرة على الاعتقاد بأن الإنسان جسد وروح ، وأن روحه هذه هبطت إليه من عالم التقديس والجمال لتبتلى في الدنيا إلى حين ، ولتتمم بهذا التدلي إبداعاً قدره الخالق لا يعلم سره إلا هو ، وأنها بعد أداء وظيفتها في هذا العالم تعرج إلى عالمها على جناح جهادها الحيوي إلى حظائر النور الأقدس ، في عالم فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك إلى أرواح عالية سبقتها بالكمال والإيمان فتبقى معها بقاء أبدياً سرمدياً في نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا يخفى على الناظر أن هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الإنسان عن عالم الحيوان الذي لاحظ له من الوجود إلا التكالب على إشباع كرشه وإيفاء حاجة حواسه .

أما مبدأ الذي لا يعتقد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لا طلب الكمال . وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الإنسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ، ولا فرق بينه وبينها في شيء على الإطلاق إلا في كونه أرقى منها عقلاً وأوسع

إدراكاً وأقدر على استثمار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمانية ، وأنه ليس له من الحياة إلا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة، ثم إذا ما تحللت عناصره في الأرض ، ذهب كل عنصر إلى ما يشبهه من عناصرها ، وفني عقله وإدراكه وذهب إلى هوة العدم ، كما تذهب الدجاجة والهرة سواء بسواء ؛ وأن الإنسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ، ينازعهم الحياة وينازعونه إياها، والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية، فمن كان أقوى يداً وعقلاً كان أحق بثمرة الحياة دون غيره ، أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة إلا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك إن سئم الحياة وأرسل نفسه إلى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والخصال الشريفة فليست مطلوبة إلا لما تجر إليه من المنافع المادية والأدبية في دائرة هذه الحياة وحدها .

أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلاً ، لكونها خلة من خلال الكمال التي يشاكل بها الإنسان سكان عالم التقديس وتهيئه لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبوها استجلاباً لرضى المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن يؤدي مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والرذائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيواني تقوم عليه طوائفه برمتها، ولها العذر في ذلك فإنها محدودة القوى والمواهب محصورة العقول والملكات ، لا تشعر بغير ما تحس به ولا تتخيل مرمى وراء ما تنظره . أما الإنسان الذي لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهي تصوره عند غاية ، فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها إلى أدنى من عالمها ، ويسلبها أشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيواني، أي مبدأ (تنازع البقاء) ، يصلح لإقامة أمر الطوائف الإنسانية ، بل ويبعثها للرقي والفلاح في السعادة الجسدية ، لأنه لم يخرج عن كونه مبدأً طبيعياً يقوم به أشخاص لا يحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ؛

ولكن فيه غبن فاحش على الإنسان ، لأنه بقيامه على هذا المبـــدأ لا يحصل إلا الحياة الدنيا ثم لا يزايله الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكمـد والوحشة يطمئن إلى شيء ، وكثرة المنتحرين في الأمم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على ما نقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذي يليق بالإنسان ويجدر به، لأنــه يكسبه الحياتين معاً كسباً طبيعياً ، لأن الكمال في ذاته الغاية القصوى التي ينتهي إليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء إلا وله كمال خاص خلق مسوقاً إليه ، فإما أن يحصله فيعيش على أكمل صفة من وجوده الخاص ، وإمــا أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط في كيانه حتى يلفظه الوجود إلى يتهور العدم . ولما كان الإنسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات؛ فلا جرم أنه متى تكمل امتلك سر نواميس الكائنات التي في عالمـــه فتخضع له خضوعاً اضطرارياً ، فتأتيه الدنيا بجذافيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بـــين يديه ، ألم ترَ أن رسول الله عليه وسلم لمـــا نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله في طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كـل شيء ، وانحدرت إليهم سائر خيرات الأرض انحداراً لم يُرَ مثله في تاريخ الفاتحين . فانظر كيف انهـم قاموا لمحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والأعجب من ذلك انها هربت إليهم من أولئك الشعوب الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لهـا ، ولا يعرفون لهم كمالاً سواها ، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ، ولا يحفلون بالنظر إليها في حسنها وبهائها .

أما تلك الأمم التي تجعل مبادئها في الحياة كمبادىء الحيوانات العجماء ، فـلا يكون لها حظ إلا في الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها إلا باتخاذها إلهاً من دون الله ، وصنما لا ترى لهـــا ملجأ سواه ، وناهيك بما في هذا من الإذلال لتلك الجبهة الإنسانيه الشماء ، التي لم تخلق إلا لتحاذي السماء .

أما لو علم الإنسان أن مفتاح السعادة الحقة هو طلب الكمال وأن سبيله سبيل

الله لما أذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم أفئدتهم فنـالوا سعادتي الحياتـين معاً ، وإلى هذا السر العمراني الكبير يشير الله تعالى بقوله : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . »

المدنية الاسلامية والمدنية الحديثة

الإسلام دين الله ، وهو الحقيقة المطلقة التي استودعها من عهد نشأة الإنسان قلوب سائر الأنبياء والرسل الكرام «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً. الخ الآية » ، ولكن كانت أيدي تلك الأمم الجائرة تمتد إلى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذي هم فيه، ودام هذا الحال آماداً حتى اقتضت الحكمة الإلهية إيداع هـذا السر الأقدس لخاتم أنبيائه ونخبة أصفيائه محمد صلى الله عليه وسلم ، في كتاب لا يأتيه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد حماه الله من امتداد الأيدي المحرفة اليه، وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو إلى اليوم كما أنزل يقيم الحجة على الغـالي والمقصر ، ويبشر المعتدل وينـذر المعذر ، ويشير إلى الطريق الذي لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

الغرض الأصلي من الإسلام تخليص الإنسان من قذر التربيـة الفاسدة ، وأثر الوسط الرديء ، ووضر الوراثات الساقطة التي تلم بمجموعها بفؤاد الإنسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذي دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذي يقول عنه عز وجل : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا . »، هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال، هو سبيل الرحمة، هو سبيل الهدى ، وإن شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقـدم ، هو سبيل التمدن . وهو السبيل الذي ساره خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بوحي من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابـه من بعده فأصبحوا ملوك الأرض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدنية الإسلامية والمدنية الحديثة مبلغ الرقي الصناعي في كليهما، لا ، ولكني أزيد الروح التي ساقت إليها وأقامتها على قطبيها . والسبب الذي يجعلني أفضل روح الأولى على روح الثانية، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبــدأ الجدير بالإنسان المناسب لما وهب من المنح الجسام ، لدفعه الإنسان إلى طريق الحق والعدل وإكسابه حظ الحياتين معاً ؛ أما هــذه (أي المدنية الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة ، وهو المبدأ الذي بسطنا أثره في الفصول المتقدمة وقلنا أنه لا يناسب الكمال الفطري للإنسان ، وأن فيه غبناً عليه لعدم صلاحيته إلا لنوال الحياة الفانية دون الباقية . على أننــا لسنا أول الناعين على هذه المدنية نقص مبدئها ، فإن عقلاءها أنفسهم يشاركوننا في هذا النظر ، وقد نقلنا كثيراً من أقوالهم في ذلك في الأجزاء السابقة .

ربما يقول قائل : « إن كنت تنقم على من يدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الجديدة والسير على قوانينها ، فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقى كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثلات ، ونحن بين ذلك في حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا ترضخ لقول القائل من أننا في عصر لا مناص لنا فيه من تقليد المتمدنين في جميع شؤونهم بدون شرط ، لنستطيع مجاراتهم في الحياة وحفظ شخصيتنا بإزائهم ؟ » . نقول أننا ممن يرى أن دون التمسك بأصول المدنيــة الحديثة على علاتها وبمحض الدعوة الإجمالية إليها عقبات اجتماعية وحوائــــل أدبية ومادية شديدة المراس ، بحيث أننا لو أضعنا وقتنا في محاولتها ومعالجتها ، لذهب تعبنا أدراج الرياح ولم نجن من وراء ذلك إلا تجريء أصحاب الأهواء إلى الجري وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديدة وحجاب الأخـــذ بأسباب الحضارة. ألم ترَ أنه من يوم ظهور الدعوة فينا إلى لزوم التمسك بآداب المدنية الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ، ولم تفعل فينــا إلا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق في ميدان الإباحة والحرية البهيمية، بحجة أنهم طليعة النشأة الشرقية ، والسابقون الغيورون في طريق المدنية ؟ ومـــاذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتهم البقية الباقية ؟

إذا تقرر هذا ، فعندي أن تداعينا إلى الرجوع إلى مبادئنا الأصلية القويمة أضمن لحياتنا وأقرب لإصلاح أحوالنا من تلك الثورة باسم المدنية الحديثة التي رأيت من أثرها ما رأيت .

فإن قيل : « هب أنك غير واهم في قضيتك من إمكان الرجوع إلى الفضائل الإسلامية الطاهرة ، وهب أننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء ، فماذا يفيدنا ذلك أمام قوة هذه المدنية الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستعمار ؟ » .

نقول : أما كوننا غير واهمين في أن الدعوة إلى الفضائل الإسلامية تفيد فائدة عظمى في الرجوع إليها مهما قاومتها الأحوال السافلة التي وقعنا فيها ، فذلك أمر ليس بعجيب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الإنسانية . فإننا من المضانك الاجتماعية والارتباكات المادية والأدبية في الحال التي تصلح لتدفعنا رغماً عنا إلى طلب المخلص وارتياد الملجأ بكل الوسائل . ولو درس الناس سر التفاف الشعوب بحذافيرها حول المصلحين لرأى أن من أكبر أسبابها ما هم فيه من الأخطار التي تتهددهم بالزوال والتلاشي ، فإن الطبيعة الإنسانية مجبولة على عدم الاستسلام للفناء إلا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاواة والمقاومة . ونحن بما نراه فيه اليوم من الشعور بلزوم المخلص ، لا نظن أن بيننا وبين الأخذ بالفضائل الحقة إلا دعوة داع متعظ ، وإرشاد هاد مهتد . وليس بعزيز على الله أن يتلافانا بنبوغ أرواح كبيرة تنشر الحياة حولها، وتكشف عن الأعين والعقول تلك الغمم التي انسدلت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك في أثر الفضائل أمام قوة هذه المدنية فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس الآخذين بها. أنا لا أعني بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس كاللين والبشاشة والانعطاف والخ الخ من الأخلاق التي يظنها الناس فضائل ، ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد الأمة وإعادة شرفها . وأن لهم العذر في هذا الشك ما داموا لا يميزون بين الضعف

الذي يؤدي للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسماحة ، وبين الفضيلة التي لا حد لسلطانها على النفوس .

أنا إن قلت فضيلة فإنما أعني بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف في قذر النفس ، والخوض في حمأة الدنايا ، وتهيب بهم إلى مسابقة الأمم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة ما لا يرقاه غيرها في قرن من الزمان .

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال،فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الأعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم، وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الأعداء الألداء والصناديد الأقوياء والأضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع اليأس في قلوب أضعاف أضعافهم ممن ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكرون النهوض ولا تمنياً، ولكن روح الفضيلة قوة إلهية لا يعرفها إلا الفضلاء ، فلم تزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرذمة القليلة جذبت إليها العواطف والقلوب، وانضمت إلى أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الأقوى على أكثر المعمور .

إن تعجب من هذا ، فأعجب منه رجل يرى هذا الأثر المدهش وينكر معه أثر الفضيلة أويشك في أنها قوة لا تقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم الغالبون » .

رجوع للمقصد الأصلي

يقول قائل : لقد طفت بنا من شعب المباحث في مناح شتى ومطارح بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت ، في دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك إلى حيث أردت ثم يعود إلى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، إلا أنك قسمت الناس إلى ثلاث رجال وقلت أن أحدهم رجل يعتقد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني

جاحد به، والثالث يعتقده وراثة عن آبائه وقومه فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ثم فصلت المبادىء الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة، فقلت: أن مبدأ الأول (طلب الكمال)، ومبدأ الثاني (تنازع البقاء)، والثالث لا مبدأ له بالكلية، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ما شاء الله أن تسير ولكن بقي عليك أمر أعظم خطراً وأشد مراساً من كل ما سبق، وهو إقامة الحجة البينة على وجود ذلك العالم الروحاني، ونصب الدليل الواضح المحسوس على أن الذي يعتقد به ليس يضرب في بيداء الخيال ولا يسبح في آل الوهم، خلافاً لما يزعم أعداء العقائد، وسماسرة الإلحاد.

نقول نعم، بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعي توجيه نظر قارئنا إلى حقيقة رئيسية، وهي أن نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم، أو زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت في قرن من القرون ووقفت حيث هي، بحيث أن من قرأ ذلك العلم أو شارف تلك الفلسفة أنكر الروح والخلود. كلا، وإنما ذلك الإنكار حال يعتري النفوس المستعدة له فيسلب عنها أجمل صفاتها وهي الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحاً لشياطين الشكوك والريب، حتى أن الواحد من المصابين بهذا المرض ليشك في وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان، وقد حكى الله لنا الوصف المميز لهذا المرض، فقال تعالى: « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ».

ذلك الحال الذي يحل بالنفوس وينشب فيها، فيلفتها عن ذاتها ويطوح بها في متاهات الشك، ومحارات الشبه، ويحول بينها وبين أنوار الحق الواضحة، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا، وإنما يحصل كما تحصل كل حال من الأحوال الإنسانية بواسطة أسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشرون وروح المدنية التي فيها الأمة، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والأفكار أو من الحرية والاطلاق الخ الخ من الأسباب التي تشكل الطباع والأميال، وتصبها في قالب لا يقدر على بعضها أي علم من العلوم.

ومن ينتقد حال الأوربيين في القرن الماضي والقرن الحالي ، كان ولم يزل يرى أن الإلحاد في بعض طبقات العامة أكثر منه لدى العلماء أنفسهم مما يدل تمـــام الدلالة على أن الإنكار لا يأتي من صفة العلوم وحدها بل من الأسباب الاجتماعية والأدبية التي تعيش الأمة في وسطها أيضاً .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل أن تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية أشد فعلاً في إحداث تلك الحال الإلحادية من العلوم التي يقصد بها بث الإلحاد والجحود بغاية الصراحة .

ذلك لأن سلطان العلم تابع لدرجة الإقناع ، والاقتناع كما لا يخفى ليس فيه الناس سواء بخلاف تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية فإنهـا متسلطة على الكل على حد سواء ، بل هي العوامـــل التي تتلقى الإنسان وهو على حالة السذاجة الطفلية فتنشئه على قالبها، وتخرجه على مقتضى أسلوبها، فيشب متشبعاً بدرياقها وسمها ، ريان من صفوها وكدرها ، ولسان حاله يقول :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خالياً فتمكنا

إذا تقرر هذا ، ربما علم قارئنا أن سيرنا في إثبات العالم الروحاني سيدفعنـــا رغماً عنا إلى درس تلك الأسباب العديدة التي تهيىء النفوس لقبول مرض الإلحاد، ولما كان عش الإلحاد الحاضر هو الغرب فسيكون كلامنـــا في تلك الأسباب موجهاً إليه إن شاء الله تعالى، سواء فيما يختص بالأسباب العلمية التي هيأته كمذهب لامارك وداروين اللذين يزعمان أن الإنسان مترق من القرد ، ومذهب أجوست كونت وليتريه وغيرهما ، الذين قصروا العلم على الحواس الخمس وسدوا في وجه الإنسان نافذة النور السماوي ، أو فيما يختص بعاداتهم وأميالهم وبواعث مدنيتهم التي أصبحت فتنة العالم الأرضي اليوم .

نسلك هذا المسلك الشاق ، وكان في وسعنا أن نقتصر على إثبات العـــالم

الروحاني بواسطة التحليلات العلمية والمقررات الفلسفية ، ولكن ما الفائدة من ذلك بعد ما علمنا أن الإلحاد أولى به أن يسمى حالاً تنتجه أسباب كثيرة ، من أن يسمى علماً تثمره المطالعة في كتب مخصوصة .

هب أن الناس كلهم أصبحوا يعتقدون بوجود العالم الروحاني ، فماذا يكون من أثر هذه العقيدة على أفعالهم ما داموا في هيئة من الحياة تبعثهم لضد ما يعتقدونه رغماً عن أنوفهم ؟ ألسنا نرى في أنفسنا أننا قد نعتقد في أمر من الأمور أنه حق وصواب وضده باطل وخطأ فنجد أنفسنا مسوقين لإتيان الباطل، محفوزين لغشيان الخطأ ، بينا يكون قلبنا يتضرم أسفاً وندماً ، وإحساساتنا تحترق أسى وسدماً ؟ أليس ذلك نتيجة أسباب وعوامل تنشأ من طبيعة الحالة الحيوية التي فيها الأمة ؟

أما نحن فبدرسنا للأسباب التي تولد ذلك الحال السيىء ، نؤمل أن نجعل أمتنا على بصيرة من الأمر قبل أن تتوغل في مظاهر هذه المدنية المنصبة عليها من كل مكان ، والله ولي المؤمنين .

★

محاكمة مدارك الفلاسفة الأقدمين

في مسألة اللاهوت

أتينا في مبحث الإنسان على أكبر مدارك الفلاسفة اليونانيين في المسألة اللاهوتية واستعرضنا أمام قارئنا المناهج التي نهجوها في تقرير عقيدة وجود الصانع جل وعز ، فرأينا أن سقراط استند على البرهان الطبيعي والتاريخي . عرض بالأول على أنظار خصومه بدائع الصنائع في هذا الوجود ، واختار منها ما وسعه علمه فبسطه بسطاً جدلياً وألزم خصمه من تلك الجهة بلزوم الإعتقاد بوجود موجد لهذه الأشياء يمسكها بقوته ويمدها بحوله ورحمته. وحاول ببرهانه التاريخي أن يقنع مناظره إلى أن العقيدة مساك الأمم ونظام الأمور، وأنها عامة في

سائر النوع الإنساني ، شائعة في كل أجياله ، واستبعد بذلك أن يكون النوع الإنساني كله مجمعاً على غير حقيقة .

ورأينا من براهين أفلاطون وأرسطو أنهما خرجا عن حدود البراهين الطبيعية ودخلا إلى متاهات الفلسفة الكلامية فتكلما عن لزوم وجود سبب أولي للأسباب الثانوية ومحرك أصلي يهب الحركة للحركات العلوية والسفلية ، ونهجا لبراهينهما مناهج تقتضيها فلسفتهما . وتستدعيها مداركهما الخصوصية .

كل هذا أشرف عليه قارئنا تفصيلاً ولعله قد اتضح له مثلنا أن أحسن تلك البراهين كلها اسلوباً ، وأقواها على ذهن السامع تأثيراً ، وأشدها لمقاتل الخصم المعاند إصابة ، هو البرهان الطبيعي الذي بسطه (سقراط) . وإن براهين أرسطو وأفلاطون رغماً عن علوها عن متناول العقول الوسطى فيها من التعسف والافتيات والحكم على المجاهيل ما لا يخفى على ذي فطنة . ولا غرو بعد ذلك إن قلنا لقرائنا إن أحسن تلك البراهين أثراً في الأمة التي نشأت فيها هي براهين (سقراط)، فقد أصلى الملاحدة بها ناراً حامية نثرت نظامهم، وحلت معاقدهم، وأخذت بتنفسهم ، ولم يأمنوا شره إلا بوسيلة لا يستعملها إلا الجبناء السفلة ، وذلك بالوشاية في حقه لدى حكومة تلك العصور ، واتهامه بالإلحاد في آلهتهم ، فانصاعت تلك الحكومة الجاهلة لمزاعمهم وحكمت عليه بالقتل سما ، فتجرعه بصبر الحكماء ، وثبات أصحاب الإعتقاد وهو يدرس كما قلنا لتلامذته في السجن خلود النفس بعد الموت .

ذلك لأن سلوك مسالك الخفاء ومناهج الاغماض في البرهان على مسألة كالمسألة اللاهوتية هى أجلى المسائل وأوضحها ينقل تلك المسألة من حيز الوضوح والجلاء، ويحشرها إلى عالم النظريات والظنون وهناك يتسع فيها المجال للأخذ والرد ، ويشتد فيها الحجاج بين قبول وصد، ويظن كلا الحزبين أنهما في موضوعها الأصلي وهما في الحقيقة قد خرجا إلى غيره مما ليس بينه وبين ما كانا فيه أدنى علاقة ولا نسبة .ثم لا يكون من وراء كل هذه الجلبة والصياح إلا تثبيت الملحد في إلحاده،

وإبقاء الجامد على جموده ، وخروج المؤمن منه وقد أضاع وقتـــه ، ورضي من الغنيمة بالإياب .

ذلك لأن النفوس من جهة الاستعداد للعقيدة وعدم الاستعداد لها تنقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم مستعد للإيمان بالفطرة ، وقسم غير مستعد له بالفطرة ، وقسم جامد ساذج .

النفس المستعدة للايمان بالفطرة

هذه نفس كريمة رقيقة الإحساسات ، دقيقة الشعور ، حيـة العواطف ، كثيرة الإنفعالات بالفواعل ، جوالة لا تقف عند حد ، تواقة لا يقنعها غاية تصل إليها ، عالية لا ترضى بشيء ولو سمت على السماك الأعزل ، وحلت بين الملوك في المحل الأول ، بعيدة الآمال لا يسع هذا العالم المادي بعض ما تتوق إليه وتتمناه من صنوف الكمال والجمال ، واسعة الخيال يضيق هـــذا الوجود المحسوس عن مضطرب خيالها ، ومختلف أحلامها ، شديدة الحرص على الحقيقة فلا تقنعهـا قشور الأمور ، ولا ظواهر الشؤون ، فهي تميـل دائماً لثقب الأغلاف ، وهتك الحجب توصلاً للباب ما تبصره ، وكنه ما ترمي إليه ؛ رحيمة الفؤاد تكاد تذوب أسى على نقصان الناقص ، وأسفاً على عيب المعيب ، ولولا شيء من العلم يريها أن الله أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، لقضت أيامها حزناً وكمداً على جهـل الجاهل وغرور الغافل ، وميل المائل .

هذه النفس تعشق الكمال وتتحرق لنيله ، وتهوى الجمال وتفنى شوقـــاً لاستشراقه ، وتحس بالفضيلة وتتلهف للوصول إلى غايتها ، وتشعر بجلالة العلوم وتتضرم للسبح في لجتها .

تنظر إلى أديم السماء الناصع والشمس في أبهة لألائها ، تختال في غلائل أشعتها ، فتود أن تنفذ إلى سر هذا الفضاء الفخيم فتردها أنوار الشمس حسرى ، تذرف دموع الهزيمة وتسكب عبرة الخيبة ؛ إلا أنها تجرد من ذاتهـا قوة أقوى من قوة

البصر بها لا يقدر وهي قوة البصيرة ، فتصعد بها على أجنحة التأمل والاعتبار ؛ تطير من أفق إلى أفق ومن سماء إلى سماء ، وإلى أين ؟ عنـد ذاك تصيح هل من نهاية ؟ هل من غاية ؟ هل من حد يقف التصور عنده ؟ هل من تخم يرتد الفكر بعده ؟

تنهزم هذه النفس من عالم الحس فتعتريها دهشة القصور ، ووحشة التقصير ، فتميل لتعويض ما فقدته من شممها بإدراك سرها ، فتنزل إلى عالمها في سويداء فؤادها ، وتقطع دونها علاقات المحسوسات وشواغلها فتغوص في بحار معانيها على قدر ما تسمح لها به قواها فلا تجد نهاية ترتد دونها ، ولا غاية تقف أمامهـا ، فتقف حيرى لا تحير جواباً ، ولا تستطيع خطاباً ، ثم ترتد إلى حالهـا الأولى حائرة بين عالمين لانهائيين ، عالم محيط بها ، وعالم في داخلها هي محيطة بـه ، لا تدري أيها أصل لصاحبه ، فلا تسل بعد ذلك عما يساورها من أرق وضجر ، وما يلابسها من ألم وسهر . لفوات مطلوبها ، وعجزها عن نيل بغيتها .

هذه النفس لا تقنع بعـد هاتين الخيبتين التي صادفتاها بلزوم السكينة ، والمعيشة كما يجيء ولو على غير طمأنينة . هيهات ! بل لا تزال تترامى طوراً في مهايع هذه اللانهاية السماوية ، وآخر في مضارب هذه اللانهاية الفؤادية ، وكلمـا تخيب تئن ولكن لا أنين اليائس ، وتحن إلى مطلوب ولو لم يكن متميزاً .

هذه النفس الحية المضطربة لا تطمئن إلا إذا وجدت العقيدة ، ولا ترتاح إلا إذا سلكت مناهجها الرشيدة .

هذه النفس في كمال خلقها أو استعدادها للكمال تحتاج لغاية كاملة تركز فيها نهايات أخلاقها ، وتجعلها قبلة لصاعدات عواطفها وإحساساتها ، وهذه الغاية لا تقنعها ، لما اتصفت به من العلو عن المحسوسات والماديات ، إلا إذا كانت أعلى من كل خيـال يضطرب في ذهنها ، وأسمى من كل كمال يجيش في صدرها ، وليس كذلك إلا الله وحده فهو كل الكمال ، وغاية الجمال ، سبحانه وتعالى .

هذه النفس في لطافتها ورحمتها ورقة عواطفها وجمال جوهرها ، تنظر إلى الكون فيشق عليها أن تعتقده خالياً من إله رحيم ينشر على المخلوقات أشعة رحمته ، ويقيم أمورها بحوله وقدرته ، ويفيض على أصنافها من إفاضات عنايته ورأفته .

هذه النفس الطاهرة لو اتفق وأقنعها مقنع جدلاً بعدم العقيدة ، اضطربت وتألمت ، وتخبطت وتوجعت ، ولا تزال كذلك حتى تجد سلام العقيدة على صدرها ، وتحس بريحانتها في روحها، وإلا عاشت منغصة متألمة لا يرتاح لها بال، ولا يقر لها قرار .

هذه النفس الكريمة هي النفس الإنسانية السليمة من آفات النقص،وعوارض الخداع ، فهي بطلب العقيدة إنما تؤدي وظيفتها التي خلقت لها ، كما تؤدي العين وظيفتها بإبصار المبصرات وإدراك الألوان والأشكال .

إذا تقرر هذا فما فائدة البرهان الفلسفي لمثل هذه النفس المؤمنة بالفطرة وليست في حاجة إليه بوجه من الوجوه ؟

هذه النفس لا تنتظر البرهان لتؤمن بخالقها ، فهي مؤمنة به بذاتها كما قررنا ذلك،بل هي ذاتها أصرح البراهين على وجود مبدعها فلا ترى في البراهين الفلسفية إلا إضاعة الوقت فيما لا يجدي ولا ينفع،بل ربما عدتها ضرراً على العقيدة لإغماضها في طرق الاستدلال ، وسلوكها مخالج الخفاء في أمر هو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلا إلى محض استلفات ، كقوله تعالى : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » ، « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » .

النفس الكافرة بالفطرة

هذه نفس مظلمة خشنة الإحساسات ، غليظة الشعور بكل ما لا يؤديها إلى لذة جسدية ، أو شهوة حيوانية، قليلة الانفعالات بالفواعل إلا ما يدفعها لغشيان قبيح أو إتيان أمر منكر ، جوالة لا تقف عند حد، ولكن في الأميال السفلية،

والمطالب البهيمية ، تواقة لا يقنعها غاية ، ولكن من غايات هذا الجسد المظلم ولذائذه ، سافلة ترضى بالهون متى لم تجد فيها القوة الحيوانية لبلوغ مآربها، فإذا آنست من نفسها شيئاً من الحول والحيلة نهضت نهضة البهيمة المفترسة تعدو على الأموال والأعراض والأنفس ، لا ترتدع بزاجر قلبي ولا تنتهي بناهٍ وجداني ، شديدة الحرص ولكن على ما فيه لها منفعة عاجلة ، أو طلبة سائغة ؛ وقافة مع الحس ، مرتطمة في أوحال المادة ، يكفيها من معاني الأشياء الغلف الظاهرة والحجب الساترة ، إلا فيما يختص بلذات الجسد وشهوات البدن ، فتراها ثقابة للحجب ، هتاكة للأستار ، سبارة للأغوار، غليظة الكبد ، تنظر للبؤساء نظرة المتشفي الشامت ، وتلحظ الزمنى والهلكى لحظة المنتقم الأشر ، ولولا شيء من الخجل من الناس لأعلنت على رءوس الأشهاد أنها ترتاح لرؤيا المصائب السود ، وتطرب لذوب المهج والكبود ، وتود لو جاء طاعون قتال فاجتاح الناس أجمعين لكيلا تبقى إلا وحدها ومن يكون وسيلة لتكميل لهوها ومرحها .

هذه النفس لا تدرك الكمال الخلقي فلا تحبه ، ولا تعرف الجمال المعنوي فلا تهواه، ولا تشعر بالفضيلة فلا تتمناها، ولا تحس بجلالة العلوم من الجهات الروحية فلا تريدها لتلك الفائدة بل تريد العلوم لتسهل لها نيل وطر مادي ، أو تكميل حظ دنيوي ، تنظر إلى استبرق السماء ، وتلحظ مجالي الغزالة في تنقلها في ذلك الدست الماسي المشرق ، فتود أن لا تشرق إلا عليها ولا تنير إلا حواليها ، وتقف مع حسها لا تود النفوذ إلى ورائه لا بالبصيرة ولا بالبصر . فهي إذن لا ترى اللانهاية الحسية والمعنوية ولا تريد أن تراها .

هذه النفس الحرجة الضيقة الظلمانية لا تحب أن ترى الوجود إلا على قدر عقلها فهي لا تحس بهزيمة أمام لانهاية ، ولا تعتريها وحشة القصور الذاتي الذي يدفع صاحبه إلى التكمل، ولا تلتجيء إلى سويداء فؤادها لتبحث عن سر ذاتها، كل ذلك لا فائدة منه لها ولا ترى له وجهاً في تتميم نظام شؤونها . فهي إذن لا تعرف تلك الحيرة التي تلم بالنفوس العالية طلباً للسكون إلى نقطة ؛ والركون

إلى حقيقة . نعم إنها تحس بنوع من الحيرة ولكن فيما يختص بأمور ذاتها المادية ؛ وأحوال حياتها الدنيوية .

هذه النفس الجامدة الراكدة ، الخشنة الخامدة ، لا تبحث عن العقيدة ، ولا تسمع لمن يدلها عليها لفقدانها معنى الكمال الذاتي ، ومغزى الجمال الأدبي . قلنا أن العقيدة ضرورية للنفس الطاهرة الكاملة لتكون كقبلة تتوجه النفس إليها في توقهـا للكمال الأقدس ، واشرئبابها للجمال الأقدم ؛ أما النفس الكافرة فهي من النقص والقبح في الحضيض التي وصفته لك ، فكيف تتطلب العقيدة . . وهي غاية الكمال ونهاية الجمال .

هذه النفس كافرة بالفطرة ، فهي مظلمة معتمة ، لا تدرك النور ولا تبحث عنه ، وإن حُمِل إليها فلا تدركه ولا تحس به ، وأصحاب هذه النفس معنيون بقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .

هذه النفس لا تفيدها البراهين الفلسفية بـــل تزيدها مرضاً على مرض ، وتكسبها ظلمة على ظلمة ، ولا يرغم من معاطس أصحابها ، ويكسر من خراطيمهم إلا البرهان الطبيعي المحسوس ، حتى أنك لو برهنت لأحد هؤلاء الملاحدة وجود الصانع بالبراهين الفلسفية وسلكت معه مسالك المنطق ، لوجدته يطير فرحاً لعلمه بأنك أفسحت له مجال القيل والقال ، وساويته في الاقرار بأن حقيقتك تحتاج إلى جدال ، ثم لرأيته رفع عقيرته وزمجر ، وهز رأسه وتجبر ، وأخذ يرد عليك رداً ، ويوسعك تأنيبـــاً ونقداً . ولكنك لو تركت له مجال التعسف في التفلسف ، وحاكمته للحس والعيان ، وخاطبته مخاطبة الإنسان للإنسان ، وناجيت منه الوجدان ، بلسان الوجدان ، لرأيته نكص على عقبيه وانهزم ، ونكل عنك وانصدم ، وغاب عنك وله رسيس في الصدر يذيب الحجر ويهد الجبل .

النفس الجامدة بالفطرة

بقي نوع ثالث من النفوس هي النفوس الجامدة بالفطرة، الخامدة من أصل طبيعتها. وهي بين النفس الكافرة والنفس المؤمنة في مركز لا تغبط عليه ولا تهنأ من أجله.

النفس المؤمنة نفس عالية كريمة لها لذات روحانية لا تعبر بلسان ولا تعرف إلا بذوقها بالوجدان ، ولها إشراف على علم كل ما فيه جمال وكمال ، وعظمة وجلال ، وهي بين جسمها وبينه طوراً في شقاء وآخر في صفاء ، آونة في نصب وأخرى في راحة، وذلك تبعاً لأحوال الجهاد الذي هي فيه، وشؤون العالم الذي تعمره وتحييه . والنفس الكافرة وإن لم تكن نفساً شريفة ولا عالية إنما لها عالم ظلماني خاص بها . فيه صور من لذات لها وهمية ، وأشكال من مموهات طينية وقتية ، فهي توهم نفسها بالسعادة وإن لم تذقها ، ويخيل إليها أنها على مقربة منها وإن كانت تدابرها وتبتعد عنها ، فهي تعيش عيشة مصطنعة وهمية ، وتحيا حياة ملفقة سرابية . إن فاتتها لذة المعاني الروحانية ، ولألاء المرائي السماوية ، اعتاضت عنها بأنوار الكهرباء وأضواء الثريات، والملاعب التياترية، والمظاهرات العيدية، وحسو السلافة العقيقية. وغير ذلك من الملاهي الوهمية . وهذه الظواهر الفاتنة الساحرة وإن لم تكن ذات فائدة حقيقية للروح الإنسانية ، لكنها لا تخرج عن كونها لذات وملهيات، فيها للنفس مسرح ومجال . أما النفس الجامدة فأمرها على غير تلك الشاكلة . ليس لها استقلال في ذاتها ، فيقال أنها من عالم قائم بذاته له شؤون وأحوال مثل كل العوالم الأخرى ، ولا هي تابعة لطبقة من النفوس خاصة حتى يقال أنها محكومة بسننها ، مقودة بقوانينها ؛ وإنما هي نفس لا صفة فيها ولا خاصية ، كأنها لم تستكمل شروط النفس الإنسانية فيكون صاحبها إنساناً ، ولم تهبط إلى الدركات السفلية فيكون صاحبها حيواناً . وإنما هو شيء يشبه الإنسان ، ويسفل عن الحيوان في كثير من الأحوال .

هذه النفس الناقصة لا تحس بحاجة روحية مطلقاً فتتوق إليها . ولا تهوى

معنى من المعاني فتتلهف عليها . وكيف يتوق الإنسان لما لا يحس بلذاته ، أو يهوى ما لا يخطر بمخيلته ؟

هذه النفس لاتهمها أي مسألة من المسائل الإنسانية الكبرى ، فلا تتبصر في الوجود ولا تتأمل الكائنات ، ولا ترفع طرفها إلى السماء ، ولا تلقي ببصرها إلى الأرض ، بقصد استكشاف سر أو وقوف على أمر . وإن نبهها إلى ذلك منبه له سلطة عليها من وجهة من الوجهات لبت طلبه بتثاقل ، فإن همت بالفعل أحست بكابوس على نفسها وثقل في أعضائها ، وخمود يدب إلى سائر جثمانهـا ؛ حتى لو أدمنت النظر ، وأعملت الفكر يخشى أن تسقط مغشياً عليها ، أو تخر نائمـة لا تستطيع حراكا . ذلك من تكلفها ما ليس في طبعها ، وتعملها ما لا يوجد في كيانها .

هذه النفس تعيش ما تعيشه وهي في يقظة تشبه النوم من أكثر الوجوه، ولا تعلو في إدراك الأشياء وتعقلها عن حلم النفس المؤمنة أو الكافرة ، فهي في نوم مؤبد تمر بها الأشياء مرور الأشباح على بصيرة المضطجع وقت القيلولة وهو بـين اليقظة والاغفاء، وهكذا تمر حياتنا سنة بعد سنة وعاماً بعد عام وهي في مركز طفوليتها الأولى لم تتحول عنه إلا في مقتضيات نمو أعضائها الطبيعية ليس إلا .

هذه النفس تسمع بالدين وقد تنسب إلى مذهب من المذاهب الاعتقادية المنتشرة بين البشر ولكن ذلك منها تقليد اضطراري ، وعمل آلي لا تعقل معه ولا فهم. وتراها تصلي مع المصلين وربما سبحت مع المسبحين ولكنها إنما تفعل ذلك مسوقة بعوامل الوراثة القاهرة ، مدفوعة بفواعل المحاكاة الطفلية ليس إلا.

هذه النفس ليست مستعدة لشيء من الأشياء المعنوية سواء كانت اعتقادية أو إلحادية ، فهي لا تنبغ في علم من العلوم ، ولا تبرز في فن من الفنون ، ولا تفيـد الأمة التي هي منها إلا بأمور مادية محضة تعملها عملا حيوانياً مسخرة لا مختارة. هذه النفس هي المعنية بقوله تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

هذه النفس إن تفضلت عليها بدعوة إلى الإيمان فلا تحدث نفسك بدعوتها إليه بالفلسفة والمنطق ، فربما نامت قبل أن تكمل حديثك ، واعمد إلى البرهان الطبيعي ، فاسرده عليها سرداً خروجاً من الإثم ليس إلا .

★

نظرة على ما سبق

رأيت من التقسيم الذي مر لك أن النفس على أي حالة من أحوالها لا تود البرهان على عقيدتها إلا طبيعياً محسوساً ، لا فلسفياً غامضاً . وكلما ابتعد أصحاب الاعتقاد في حفظ حقائقهم عن الفلسفة ، وقضايا الجدل ، سلموا من آفات الافتراقات في الدين ، والتحزبات في المذاهب .

هذه هي الخطة الإسلامية التي بعث الله بها سائر الأنبياء ، فأضاعها أتباعهم ، فبعث الله بها أخيرا خاتمهم وإمامهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأدى أمانتها أحسن أداء وجلب بها للنوع الإنساني خيراً في العقيدة والأخلاق والشريعة ما كان يحلم به فلاسفة العالم ولا يضطرب لهم به أمل .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم والناس من أمر الدين وطرق الوصول اليه في حنادس حالكة وظلمات متكاثفة . هذا يعدد في الآلهة ، وذاك يشبه الله بمخلوقاته ؛ ويعطيه صفات عباده ؛ وذلك يتخيله على ما يحدده له وهمه ، وتتردد به أخلاقه ، والكل مطيعون منصاعون لرؤساء اتخذوا الدين وسيلة للسلب والسطوة ، وجعلوا العقائد أحابيل للقهر والسلطة ، فعلوا عن مستوى العامة حتى صاروا كأنهم من نوع أرقى من نوعهم ، حتى ادعوا أنهم وسطاء بين الله ومخلوقاته وأنهم مهيمنون على مقادير عباده . فإن جال في صدر أحد مرؤوسيهم

شك أو دبت إلى نفسه شبهة، كان السيف إلى عنقه أسرع من سماع الإجابة عنها بأذنه . فإن تفضلوا بشيء من ذلك في كتبهم صوناً للعقائد ، وحفظاً للتقاليد ، أتوا بكسف من الغياهب يتلوها كسف ، وقطع من الدياجير الحالكة يتلوها دياجير أشد منها سواداً ، بحيث لو ألقى الإنسان عليها بصره غار في ظلمات ، فإذا هم عقله بإنقاذه منها غرق فيها معه وسبحا معاً في عيلم لا قاع له ولا ساحل؛ وصار بين أمرين : فإما أن يبقيا في تلك العماية طول حياتها يقاسيان لواعج تلك الغيابة الحالكة ، وإما أن يعودا فلا يذكرا الدين بعدها لما قاسوه أول مرة ؛ فيكتمان ما يلم بصدرهما حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأمم وهم بهذه الحالة السيئة من جهة أشرف الأشياء على أنفسهم وأعزها على قلوبهم ، فقال عن لسان ربه : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيما » ، « هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . ثم جرى صلى الله عليه وسلم على طريق الإسلام متبعاً وحي ربه في الدعوة ، مؤتمراً بهذه الآية « أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» .

التفت الناس إليه صلى الله عليه وسلم بعد ما أظهره الله على أعدائه وجعل كلمته هي العليا فإذا معه أنشودة الروح ، ومطلوب الفؤاد ، وضالة العواطف ، ومفقود الفطرة الإنسانية . وما هو ؟ دين واضح ، وشرع حكيم ، وعقائد مثبتة بالحس ، وأوامر لا يتجنبها إلا المجنون لوضوح حكمتها ، وجلالة أثرها ، ونواه لا يغشاها إلا المصاب بعقله لظهور ضررها ، وشيوع قذرها .

دين يدعو إلى الله الواحد المنزه عن كل ما يجيش بالفؤاد من صور وأشكال ومقتضيات وشؤون لا تليق بمقامه . ولم يكلف النفوس بما ليس في طبيعتها إدراكه من العوالم التي تعلو عن مداركها ، فما الذي يمنع النفوس من الترامي عليه خفافاً ، والهرع إليه بكل ما تمتلك من حول وقوة ؟

هذا هو الذي حصل في العالم ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام لبث في أمته ثلاثاً وعشرين سنة داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لهم ، فلم يدعه الله إليه حتى كانت الأمة العربية بأسرها تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وهذا أثر لم يحصل في أية أمة من أمم الأرض . لا على يد فيلسوف ولا على يد رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام . ولم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدار الأخرى حتى قام بعده خلفاؤه بالأمر ، ولم تمض مائة سنة حتى دخل في الإسلام طوعاً لا كرهاً مائة مليون من النفوس ، ولا يزال لليوم متبعاً سيره في الرقي والنماء ، حتى ينتظر أن يكون دين أوروبا بعد قرون قليلة إن شاء الله تعالى .

إنا لسنا هنا بصدد سرعة انتشار دين الإسلام وإنما نحن بصدد الأدلة على أن البرهان الطبيعي في العقيدة هو البرهان الحق الذي قرره الإسلام ودعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، فانظر الآن إلى الفرق بين دعوة النبي ودعوة الفيلسوف . دعا به سقراط وقاوم به أضداده حيناً ونال منهم شيئاً ، ولكنهم رموه بعد ذلك بالإلحاد في آلهتهم وفعلوا ما فعلوه من صفات الجبناء وهذا جهد الفلسفة والحكمة . أما النبي عليه الصلاة والسلام فأحال بـه أمة بأسرها إلى أرقى درجات الإيمان ، في سنين تعد على الأصابع. فهل بعد هذا يهم واهم بأن الفلسفة والنبوة متقاربان ، أو هما معاً في ميدان؟

إن الذي أثر على الأمة بأسرها فجعلها مؤمنة بعد أن لم تكن هي روح المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهي تلك الروح التي سادت على أرواح معاصريها كلهم وبسطت نفوذها على قومها عن بكرة أبيهم ، لم تترك فارساً ولا حكيماً ، ولا شاباً ولا هرماً ، ولا غنياً ولا فقيراً ، إلا وأدخلتهم تحت سلطانها ، وأظلتهم بظلالها ، فأين الفلسفة بعد هذا ، وأين الفلاسفة من ذلك ؟ أما ترى معي من هذه النظرة البسيطة أن مجرد التأمل في هذه المسألة يهب الإنسان أقوى البراهين الحسية على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى أفضليته على سائر الرسل الكرام عليه وعليهم التحية والسلام .

الباب الرابع

ما وراء المادة

الفصل الحادي عشر

الأسلوب العملي

أهميته عند علماء أوروبا

إنا لم نر بدأً لتتميم بناء هذا الصرح الفخيم الذي ندبنا أنفسنا لإقامته لديننا الإسلامي الحنيف في مقدمة هذا القرن الجديد من الخوض في علم (ما وراء المادة)، لا على طريقة من سبقنا من رجالات العلم في القرون الماضية، أيام كان للقضايا المنطقية والأفكار المجردة السلطة الكلية على العقول، والسطوة العظمى على الوجدان، بل سنخوض بحره إن شاء الله على القاعدة العملية التجريبية كما هي مطالب الروح العلمية العصرية.

ربما تعجب قارىء من عزمنا على خوض علم ما وراء المادة على الأسلوب التجريبي العملي، مبعداً أن تدخل الأشياء المعنوية غير المحسوسة تحت سلطان الاختبار والامتحان، وله العذر في تعجبه ما دام لم يقف على خبر من تلك القوارع الإلهية العظمى التي انصبت على هامة طواغي العلوم المادية في الغرب فقلبت شكل نظرياتهم رأساً على عقب، ولم تزل لليوم تفعل بهم وبمدركاتهم المؤيسة الأفاعيل. « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ».

ليست أعاصير الشكوك والريب التي تهب في رؤوس بعض المتعلمين

والمتفلسفين منا بشيء يذكر بجانب تلك الأعاصير الجتاحة من شكوك قادة العلم الأوروباوي الذين بسيطرتهم على موارد السعادة المادية ، والزخارف الصناعية ، كادوا يحرمون على الشفاه ذكر الدين فضلاً عن ملاشاتهم لأصوله ؛ ولقد كتبوا في ذلك من المؤلفات والأسفار وسلكوا فيها مسالك من العلم ما يمحو كل أثر من عقيدة ، ويعفي على كل صورة منه في الوجدان ! فإلى ماذا آل أمرهم اليوم ؟ هذا سؤال تحتاج الإجابة عليه إلى ما تصدينا له من كتابة ألوف من الصفحات ، وسترى ذلك بعينيك إن شاء الله. إنما نقول، باختصار تعجلاً بالنتيجة : أداهم إلى خلل في الضمائر ، خلل في العواطف ، خلل في مرامي الأفكار ، خلل في شكل الاجتماع ، خلل في الأخلاق ، خلل في الأموال والأنفس والثمرات ! أدى بهم الأمر لأن يقوم أحد رؤساء النشأة الجديدة في فرنسا وهو (هنري بيرنجيه) قائلاً لقومه[١]: « إن المسألة الدينية أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول، لأن مستقبل الأمم المتمدنة يتعلق بحلها . » أدى بهم لأن يقول العلامة الألماني الشهير (ادوار دوهرتمن)[٢] : « لم يوجد أبداً عصر كان أهله أقل تديناً من هذا العصر الذي نحن فيه ولكن مع ذلك قد لا يوجد عصر هاجت أهله المسائل الدينية مثل هذا الهياج الهائل . أدى بهم لأن يصيح بينهم الفيلسوف (فيير نس جيفايرت)[٣] :

«ولقد شعر النوع الإنساني بحاجة كبرى إلى الاعتقاد ولكنالا نستطيع تحديد شكل تلك العقيدة بالدقة ، ولقد أحسسنا كلنا بضرورة إرجاع الحياة إلى أرواحنا ، ولكننا لا ندري إن كانت ثمة روح تقية أقوى من روح عيسى (عليه السلام) ، وأشد نفوذاً منها على الوجدان تستطيع إحداث هذا العمل المعجز . إن أرواحنا لمتعطشة إلى دين لأننا في غاية الألم من أنه لا دين لنا . إن هذه

(١) أنظر مجلة المجلات الفرنساوية مجلد ٢٤ .
(٢) في كتابه (عقائد المستقبل) .
(٣) في كتابه الغمة الحاضرة .

الاستناثات التي تتصاعد من العالم العصري وتختلط فيها صيحات الرجاء بصيحات الشك تشبه بصفة مدهشة تلك الشهقات اليائسة التي كان يصعدها العالم القديم ، زمن تلاشي الوثنية اليونانية ، إن الهيئة الإجتماعية الحاضرة التي توحدت تماماً في أحوالها المادية المعاشية نراها بعكس ذلك متشعبة منشقة بالنسبة لمراميها الفكرية والدينية . ولقد أجهدنا أنفسنا في بيان كيف أن جيلنا هذا قد تدلى شيئاً فشيئاً في حضيض هذه الفوضى الأدبية الأخلاقية . وإنا لنعتقد أنه لا يوجد إلا علاج واحد يداوى به هذا الداء العياء : وذلك الدواء هو العقيدة الدينية ، فإنها وحدها تستطيع أن تداوي العالم الإنساني مما ألم به » . ا.هـ.

ولكن كيف تؤوب العقيدة إلى تلك القلوب التي أصلدتها المعلومات المادية قروناً متوالية ، وكيف تلين تلك العقول التي نشبت شعاب الفلسفات المختلفة فيها مع ما تأسست عليه من شكوك واستشكالات هائلة؟ لو كان الحال واقفاً عند هذا الحد ، لاستسهلنا الأمر ، ولقلنا أن البرهان إذا تجلى للفؤاد قلب كيانه وفصله عما جمد عليه ؟ ولكن هنالك داء دوي أشربته النفوس في الثلاثة قرون الماضية ونشأت عليه وهو سحر هذا الرقي الصناعي المدهش الفاتن ، وزخرف هذه المدنية الساحرة !

الإنسان وإن كان يعرف من نفسه الضعف ، ويأنس من حاله العجز ، ومن شخصه الضؤولة أمام ما يحيط به من هذا الوجود الواسع ، والكون المدهش ، إلا أنه شديد المحال ، كثير الادعاء ، عظيم المراوغة ، متقن فن التدليس على نفسه ، والتمويه على عقله ؛ يتظاهر بالجبرية المطلقة والفطرسة المفرطة ؛ في الوقت الذي يعلم أنه أضعف من بعوضة ، وأشد عرضة لمبيدات الحياة من ذرة . يتصنع القوة والحول ، ويرائي بالمقدرة والطول ، في الحين الذي يندب على قلة وسائله وعجز حيله . هذا شأنه وهو في أبسط أحواله وتاريخه يشهد عليه ؛ فما بالك وهو في هذا الجيل ، جيل المدهشات والعجائب ، جيل المكتشفات المحيرة للمدارك ، جيل العلوم الطبيعية ، والحرية الفلسفية ، لا جرم أن يزيد توغلاً في دعاويه ومزاعمه ، ويتغلغل في ريائه وتصنعه .

كان الإنسان وهو في أبسط أحواله في القرون الخالية يكذب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بدعوى أنهم إخوانه في البشرية ، يأكلون كما يأكل ، ويشربون كما يشرب ، ويموتون كما يموت ؛ فكان يحاول أن يرسل الله إليه رسلاً من السماء في أبهة تأخذ ببصره ، وجلالة تذهب بلبه !

كانت هذه الشُبَه وحدها تمنعه من سعادته ، وتنشطه في غوايته ، فكيف يكون حال الإنسان اليوم وهو بين هذه المدهشات الصناعية ، والسحريات الفنية : التليفون عن يمينه والفنوغراف «الحاكي» عن يساره ، والمنظار أمامه ، والآلة البخارية وراءه ، والأتوموبيل تحته ، والبالون فوقه ؛ هذا غير ما يحيط به من الآلات والأدوات ، وما يتخلل ذلك من مدافع مكسيم ، وبوم بوم ، وبنادق مرتين وموزر ، وصناديق الديناميت والتوربيد. لا جرم يكون قد زاد ادعاؤه وكبره ، وعظم رياؤه وتصنعه وأصبح يزعم (معاذ الله) أن الأنبياء دونه علماً وإدراكاً ، وأقل منه فهماً وتصوراً .

يرى بين يديه الملايين الكثيرة من المؤلفات والأسفار وقد أودعت من عجائب العلوم المادية ، والأبحاث الطبيعية ، على أصل تكوّن الأجرام العلوية ، والكرة الأرضية ، والجواء السماوية ، والأمطار والسحائب ، والرياح والعواصف ، والنباتات ومراتبها ، والحيوانات وفصائلها ، والإنسان وأدواره ، وتدرجه في أطواره ؛ واللغات ومناشئها ، والشعوب وتخالفها ؛ يرى ذلك كله بين يديه فينتفج حضناه كبراً ويرتفع أنفه شموخاً ، ويصعر خده عجباً ، ويتمايل في مشيته اختيالاً ؛ ثم يرمي ببصره إلى القرون الخالية في قلة علومها ، وأغلاط أعلامها ، وجهالة السواد الأعظم من أهلها ، فيكبر أن يكون فيها رجل يرضى لنفسه باتباعه أو يطأمن من كبره للرضوخ لأوامره . وكيف يتأتى ذلك وانصياعه له يستلزم أن يعتقد أنه أكبر منه علماً وفهماً ، وأفوز منه من قسط المعارف سهماً .

هذا من جهة . وأما من جهة أخرى فإنه يرى أنه قد قيد نفسه بعادات في الكلام ، عادات في السلام ، عادات في اللقاء ، عادات في الوداع ، وحمل جسمه

أحمالاً وأي أحمال : أطواقاً براقة في عنقه ، وألواحاً ملمعة على صدره وفي معاصمه ، وأقمشة مفصلة على جسده ، وسراويل لاصقة بسيقانه ، وأحذية ضاغطة على أقدامه ، وفي صدره ومعاصمه من أحجار الياقوت والماس ما يأخذ بالعين بصيصه ، ويداعب أشعة الشمس بريقه . ينظر إلى نفسه وهو في هذه الهيئة ثم يلقي ببصره إلى أولئك الأنبياء في بساطة ألبستهم ، وعدم تكلفهم ، فتنتفخ أوداجه صلفاً ، ويحاول أن يقنع نفسه رغماً عن احتجاج ضميره بأنه قد صعد درجات في سلم الإنسانية وارتقى مراقي بعيدة في الكمالات الصورية :

ثم ينظر لنفسه في تفننه في أصناف مأكله ومشربه ، وما استوجبه بذخه من استعمال الأواني الذهبية والفضية ، والموائد الأبنوسية ، والمناشف الحريرية ، والطنافس الصوفية ذات الصور الملهية ، ثم يرنو ببصره إلى أولئك الرسل الكرام في خشونة مأكلهم ، وقلة مؤونتهم فيراوغ عقله بما أوتي من قوة المراوغة والخداع ، ويحاول أن يقنعه بأن هذا رقي عظيم لم ينله أهل العصور الماضية ، ويكبر عليه أن يخضع لرجل منهم مهما كانت صفته ! ولما ينزل نفسه بقوة المخادعة والمخاتلة إلى هذه الدركة باختياره يكون قد هيأ فؤاده لقبول أثر هائل أنكى في تسميم معناه من كل ما سبق ، وهو قصيف هذه الجلبة المصمية المنبعثة من هذه المدنية الذهبية ، فيعتريه دوار في رأسه، يذهله عن ذات نفسه . فيدور في تياراتها مع الدائرين ، ويمثل دوراً فيها مع الممثلين .

هذا الأثر الهائل الذي بعثته هذه المدنية في قلوب أبنائها ، هو بعينه أثر كل مدنية مادية ظهرت في العالم ، وستكون نتيجتها كما كانت نتيجة ما تقدمتها من مدنيات الرومان واليونان، الارتكاس بأهلها إلى أشد ما عليه الأمم الميتة اليوم، إن لم يكن الله تعالى يريد أن يرينا من آيات حكمته أمراً .

بدا في العالم المتمدن جهة أعلا شرفة من شرفات بنائه الشامخ ضياء ساطع، وسناء لامع ، يبشر بقرب انفراج أزمة الإلحاد، وانفصام حلقات العناد، ولكن أين العامة منه ؟

ذلك النور ظهر شطر وجه رجالات خاصتهم ، وأعلياء كلمتهم ، وقد احتملته أعين بعضهم ، وعشت عنه عيون البعض الآخر ، أما العامة[1] الذين تسممت قلوبهم بتعاليم أولئك القادة سابقاً فأمرهم لم يزل عويصا .

العامة من كل أمة وفي كل زمان كان علاجهم شديداً على الرسل والأنبياء ، ومراسهم صعباً على الأتقياء والأولياء ، فكيف بهم في القرن العشرين الميلادي وقد أعماهم الترف ، وقذفتهم المدنية المادية بسحرها إلى متائه الضلالة والغي . هل ينتظر بهؤلاء إلا أحد أمرين : إما إياب إلى الرشاد ، وتنكب لسبيل العناد والإلحاد ، والتوجه شطر هذا النور اللامع ، والأخذ بيد أرواحهم من هذه الهلكة المجتاحة ؛ وإما الاسترسال مع التيار الذي هم هائمون على وجوههم فيه ، فيكون مصيرهم كمصير كل الأمم التي تقدمتهم من الفناء والتلاشي «ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

الفائدة العظمى التي ننتظرها من بحثنا في علم ما وراء المادة العصري ، وإثباتنا حيرة زعماء الماديين ودهشتهم من تلك القوارع التي صبت عليهم ، هي إلفات تلك العقول التي تتيه بذلك العلم الطبيعي الناقص ، وتزعم من أجله أنها فاقت كل أهل العصور الخوالي في مضمار الفهم والعرفان ، حقيقة كبرى : وهي أن هذا العلم مهما اتسع نطاقه ، وشسع مجاله فليس له علاقة إلا بظواهر الأشياء وقشورها ، ولا نسبة بينه وبين الكائنات إلا من جهة غلفها . أما العلم الذي يمس حقائقها ، ويدرك لبابها ، وأعد الإنسان بطبيعته للتغذي منه ، وإحياء روحه بمدركاته ، وقضي عليه أن لا يكون إنساناً إلا به ، فهو علم جاءت به الأنبياء وحملته صدورهم الرحبة. وإن ما أرسله الله على قادة العلم المادي في هذا العصر فكسر من شوكتهم ، وأراهم أنهم جهلاء لا يدرون شيئاً ، وأن كل ما حصلوه لا يساوي قطرة مما حجبته عنهم هذه المادة الصماء ، فليس إلا صورة

---

(١) لا أريد بالعامة من يعرف القراءة والكتابة كما اصطلحنا عليه في بلادنا بل أريد بالعامة كل من ليس بعالم مؤثر .

ناقصة من ذلك العلم العالي الذي تغلغل أولئك الأنبياء في أرجائه ، وقلبوا به العالم من شكل إلى شكل آخر .

أما نحن الذين قضي علينا أن نكون بضعفنا وباضمحلال شخصيتنا ، عرضة للتأثر بحال الأمم الغربية والدوران في حركتهم ، فإن أبينا إلى عقولنا ، واعتبرنا بالمثلات التي أدبتهم ،فحمدنا الله على أن هدانا إلى دينه القويم ، وصراطه المستقيم ، حمينا أنفسنا من مثل ما وقعوا فيه ،وصنـّا أمتنا من فتنة يطول فيها أمد الحيرة ، ويدوم فيها ألم البلاء ، وأما إن أبينا إلا أن ننسحر بترف أولئك العامة منهم ، مدعين أن عدم التدين دليل على سمو العقل ، ونكران العوالم الملكوتية ارتقاء في الفلسفة العالية ، فلن نلوم إلا أنفسنا ، ولن نجني من وراء هـذه الحركة الشيطانية إلا مـا جنته كل أمة كفرت بأنعم ربها : « وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .

نحن قبل الخوض في هذا الموضوع يحسن بنا أن نقدم بين يدي القارىء بعض أقاويل كبار أولئك الخاصة ليعرف أنه أمام أكبر موضوع من مواضيع العصر الحاضر ، وحيال مسألة أمالت رؤوساً كانت لا تميل ، وحولت عقولاً كانت لا تستحيل : « والله غالب على أمره » .

قال العلامة (م . ت . فالكومر M. T. Falcomer) أستاذ علم الحقوق في الكلية الملوكية باسكندرية إيطاليا في كتابه (المدخل إلى علـم الاسبرتزم العملي) : « هذه النظرية (النظرية القائلة بأن ما يحصل من خوارق العادات في جلسات الاسبرتزم منسوبة لأرواح الموتى) يظهر بادىء بدء أنها جديدة ، ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك ويمكن أن يقول الإنسان بدون أن يخشى معارضاً أن الفيلسوف (أما نويل كنت) قد أدركها ، وإن (اللان كاردك) قد نشرهـا بين العالم بعد أن فحصها فحصاً علمياً من جهاتها الثلاث : تجريبياً وفلسفياً وأدبياً ، ولكنها بالأسف كانت ولم تزل عرضة لنقد صارم بالنسبة لاختبارها اختباراً

علمياً وتعليل المشاهدات الروحية بها ، وبالنسبة لتطبيقها على الحيـاة الاجتماعية والدينية ، وأخيراً بالنسبة للشهادة الشخصية . أي نظرية غير هذه النظرية ممـا يكون أقل تأسساً على العلم كانت تزول من الوجود وتتلاشى أمام هذه الصدمات الهائلة من الماديين والقائلين بوحدة الوجود والروحيين الأقدمين أنفسهم . فإنك ترى الكنائس ومجامع العلوم الجامدة على ما لديها تحاربها في آن واحد (مع أنها تسعى في إيجاد الصلح بينهما) لأنها تلقي على الناس نوراً ساطعاً فينكشف بـه فساد ذمة البعض وجهالة البعض الآخر وكبر العموم . فالحرب التي تقاسيها هذه النظرية شديدة المراس جداً وأهول مما يمكن وصفه ولكن كلما شهر عليها النقد العلمي سيفه ضممنا صفوفنا وهيأنا أنفسنا وجمعنا أدلة للمقاومة . (فاكزا كوف) يصاول (هارتمن) ، و (ريشانباش) يقارع (بوشنر) ، و (ولاس) ينازل (سيد جويك) ، و(يونج) دحره (جاردي)، و (شيابا) هزم (لومبروزو). وكانت نتيجة هذه حرب أن انضم إلى صفنا واحداً بعد واحد (شيا بارلي) و (لودج) و (ريشيه) و (اكوروويكز) و (منديليجيف) و (زولنر) و (تندل) و (ويليم كروكس) و (إليوت كوس) و(اديزون) و (بلفور) و (جون لبوك) و (جلادستون) و (جيبرس) و (داريجليو) و (بروفيريو) و (جيبيه) وعدد عظيم من علماء مشاهير أخر[1] ..إلى أن قال :

---

(١) هؤلاء علماء مشاهير من شعوب مختلفة (Aksocaf) من كبار علماء الروس ومستشار القيصر و (R. Wallace) أكبر علمـاء الفسيولوجيا الانجليز ، و (Lodge) من أشهر علماء الانجليز ويلقب بداروين الطبيعة ، و (Richet) أشهر أطباء العالم وهو فرنساوي له من آثار عظيمة في الطب ، و (Zollner) عـالم فلكي ألماني شهير يعد اليوم أزكى بني البشر ، و (Tyndall) علم فرد في علم الطبيعة وهو انجليزي، و (Crookes) أكبر كيماويي الانجليز، و (Coues Elliot) عالم أمريكاني رئيس الجمعية العلمية الاميريكية ، و (Edison) عالم اميريكي شهير جداً باختراعاته وهو مخترع الفونوجراف ، و (Balfour) عالم انجليزي ورئيس وزراء انجلترا ، و (I. Lubbock) عالم انجليزي طائر الصيت ويلقب بلورد افـــبري ، و (Gibier) تلميذ باستور .

« مجموع المشاهدات التي تتأسس نظرية الروحيين العصريين عليها متشعبة يجب معرفة كيفية الاتجاه في بحثها وفحصها ولذلك فنحن ننصح الذين يريدون الاشتغال بها بأربعة أمور : المطالعة والنظر والاختبار والاستنتاج . » الى أن قال : « إن الظواهر والمشاهدات الروحية المذكورة ليس لها أدنى علاقة بظواهر علم الطبيعة والكيمياء الأرضيين ، بل هي من متعلقات طبيعة وكيميا علويتين ، أعني من عالم ما وراء المادة ، فليعلم الجاهل وليتذكر المتناسي أن العلم البشري لم يزل موصوماً بالنقص ، وإن العالم المحسوس ليس هو في الحقيقة إلا ظلاً للعالم غير المحسوس ، أعني أن المحسوس ليس هو إلا الظاهر القشري ، أما غير المحسوس فهو اللباب الحقيقي . إلى أن قال : هذه الطبيعة العالية ليست خيالية تأملية ، ولا هي مما تتعلق بالعقائد الجامدة ، بل هي حاصلة على جميع شرائط العلوم الكونية لأنها تجريبية امتحانية . وأخيراً هذه الطبيعة العالية هي وحدها التي تستطيع أن تسلك بجميع العلوم وبالدين مسالك التركيب الفلسفي بإشباع العقل والإحساس معاً » .

هذا واحد من خاصة أولئك الأقوام ، نقلنا ما مست إليه الحاجة من كلامه وسنعود إن شاء الله إلى ما يلزم الاستشهاد به من أقاويله . وأنت ترى أنه ليس بفاقد العقل ، ولا بقاصر التصور ولا بجاهل غمر ، بل درج في مهاد العلم الطبيعي والفلسفي ، وبين يديه من مجالي الصناعات المدهشة والمرائي الفاتنة الملهية ، ما ليس لغيره من صرعى هوى المدنية الغربية من المترفين ، ومع هذا كله وما هو فيه من المركز الاجتماعي العالي بين قومه ، وما يحيط به من نقدة الأقلام ، وأصحاب القيمة في العلم ، والذرابة في اللسان ، قام يلفت قومه إلى جمال ذاتهم وخلود أرواحهم ، معالجاً لهم مما وقعوا فيه من الدوار المدني الذي أصابهم من سحر حضارتهم . وسمح لنفسه مع عظم مركزه أن يختم كلامه بقوله :

إن هذه المشاهدات المتعلقة بالعلم الروحاني التي بسطتها وشرحتها في هذه الوريقات مما يشوش عقل العامة ، كما قال ذلك أيضاً الفيلسوف (بابوس Papus)

وسيحكم على عملي هذا أكثر من واحد من قرائي ، ولكن بدون برهان ولا حجة ، بأنه نتيجة شكل خاص من أشكال الخلل العقلي ولكن هذا الحكم لا يمنع من كون مذهب (الاسبرتزم) التجريبي تتمة للعلوم الطبيعية لما تأكد من أن الانسان مخلوق صالحاً لأن يعيش في عالمين متميزين. فمن العقل والتبصر أن يطالع الانسان وينظر ويجرب ويتأمل ويستنتج بعد معرفة السبب بدل أن يحكم مثل هذا الأحكام بلا دليل ولا برهان . »

أهميته عند علماء اوروبا

كتب الأستاذ الطائر الصيت (ألفرد روسل ولاس) الفسيولوجي الانجليزي الشهير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي مع الأستاذ (داروين) الطبيعي الشهير إلى جريدة التيمس : « بما أني قد حسبت لدى كثيرين من مكاتبيكم في مصاف رجال العلم الذين يصدقون بصحة مذهب استحضار الأرواح فأرجوكم أن تسمحوا لي بإيراد مبلغ البراهين التي أسست عليها معتقدي .

«ابتدأت أبحاثي من مدة ثمان سنوات تقريباً ، واعتبر من حسن حظي أن هذه المشادات العجيبة كانت في ذلك الوقت أقل شيوعاً وأضعف استلفاتاً مما هي عليه الآن ، لأن ذلك سمح لي أن أعمل أبحاثي في منزلي الخاص بمرأى جماعة من إخوان لي لا أشك في طهارة قلوبهم » . إلى أن قال :

« أنا لا أنتظر من الذين يتشككون ، سواء كانوا يشتغلون أو لا يشتغلون بالعلم ، أن يعتقدوا صحة هذه الخوارق التي أستطيع أن أسردلهم منها عدداً كبيراً اختبرته بنفسي ، ولكن يجب عليهم هم أيضاً أن لا ينتظروا مني أنا ولا من الألوف المؤلفة من رجال الذكاء والفطنة الذين تحصلنا على حجج ساطعة في هذا الموضوع أن نقبل تعليلاتهم الموجزة التافهة. ولو لم أكن أخشى أن أطيل عليكم لكنت أريتكم جملة ملاحظات على الأفكار الوهمية التي تغلبت على عدد كبير من أهل العلم بخصوص طبيعة هذا البحث ، فلأتخذ خطاب المستر (وركس). مراسلكم مثالاً

لذلك : اعتبر حضرته عدم إمكان الحصول على هذه الظواهر بمجرد الإرادة برهاناً قوياً ضد صحتها ، وحسب أن عدم تعليلها بالنواميس الطبيعية المعروفة حجة أخرى على بطلانها، وغاب عنه أن الإغماء وسقوط الأحجار الجوية وداء الكلب، لا يمكن الحصول عليها أيضاً بواسطة الإرادة ، وهي مع ذلك حوادث لا يشك في وجودها » .

ثم سرد أسماء جملة من إخوانه العلمــاء الذين يعتقدون بمذهب استحضار لأرواح ، ووصف فضلهم على العلم ودقتهم في التجارب . ثم قال :

« ولم يكتفوا فقط باعتقــاد صحة هذه الظواهــر العجيبة ، ولكنهم كانوا يعتبرون نظرية الروحيين الحاليين – أي النظرية القائلة بنسبة هذه المدهشات إلى أرواح الموتى– المفسرة الوحيدة لحصول هذه الحوادث الخارقة للعادة . وأعرف أيضاً فيزيولوجيا حياً للآن، ذامركز سامٍ، وهو من أمهر الباحثين في هذا المذهب ومن أشد المعتقدين به . ملخص الأمر أنه يمكنني أن أقول أنه وإن كان من الناس من ينسب حصول هذه الخــوارق للغش والتدليس إلا أني لم أكتشف شيئاً من ذلك مطلقاً ، وبما أن الجزء الأكــبر من هذه الخوارق لا يتأتى حصوله بطريق الغش إلا باستعمال آلات غــاية في الدقة فلم يستطع أحــد أن يقف على سر تلك الحيل للآن . على أني لست بمغالٍ إن قلت أن المشاهدات الرئيسية لهذه الخوارق صارت الآن مؤسسة على قواعد علمية وسهلة على الباحث مثل سائر الظواهر الطبيعية التي لم يكتشف ناموسها للآن . لهذه المشاهدات الخــارقة للعادة أهمية كبرى جداً لتفسير حوادث التاريــخ ، فإنه غاص بمثل هذه المسائل ، ولدرس مصدر الحياة والعقل اللذين لم يتوصل العلم إلى فك معماهما للآن . الخ » . ا.هـ.

نقول : يرى القارىء من هنا أن اهتمام مئات الألوف من علماء أوربا وأمريكا في بحث مسائل استحضار الأرواح ليس موجهاً للالتهاء وتمضية الوقت بالنظر لخوارق الطبيعة ، بل غرضهم أسمى من ذلك بكثير . غرضهم الوصول كما يقول

الأستاذ (ألفـرد ولاس) المتقدم ذكره ، لإدراك أصل الحياة والعقـل ، وفك معميات أخرى في الخليقة وقف العلم المادي أمامها حائراً لا يحير جواباً .

لما قام هؤلاء العلماء الأماثل يبحثون المسائل الروحية بالطريقة العلمية العملية، قام في وجوههم أعداء العلم ونصراء اليأس ، ونذر الظلمة ، يستهزئون بهم وينبذونهم بالألقـاب ويكذبون تجاربهم من غير أن يكون لهم أدنى علم بمسائل ذلك الموضوع ، ولكن سطوات الحقيقة تردع كل جبار عنيد فان أولئك العلماء الجسورون وقفوا أمـام خصومهم وقفة الحزم والحكمة وردوا عليهم الردود المفحمة وسلقوهم بألسنة حـداد ، قال الأستاذ الشهير (وليم كروكس) أكبر كيماويي الإنجليز وأحد رؤساء الجمعية العلمية الإنجليزية في كتابه (الأبحـاث في الظواهر النفسية) الذي طبعت ترجمته الفرنساوية اثنتي عشرة مرة بالإنجليزية والفرنساوية عشرات من المرات ، ما يأتي :

« وبما إني متحقق من صحة هذه المشاهدات ، فمن الجبن الأدبي أن آبى الشهادة لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم (تأمل) ممن يعلمون شيئاً في هـذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الأوهـام (تأمل) أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة (المدققة) » .

عجيب أمر هؤلاء الماديين ، يعلمون كما يعلم كل إنسان أن الإنسان لم يزل من العلم في دور الطفولية ، وأن المسائل المجهولة لم تزل تنغص عقـل كل باحث ، ثم إذا رأوا باحثاً أخذ ينمي مواد العلم بشيء من الأشياء التي تهدم أصلاً من أصولهم المقررة قاموا في وجهه يدعونه دعاً ، ويوسعونه شتماً وهجراً، كأنهم مأجورون على أن يدافعوا عن الإلحاد ، أو مرشون على أن يطفؤوا نور الايمان من قلوب العباد ، وكلما اشتدوا في تحمسهم الباطل لمذهب الفنـاء والعدم ، قابلهم أولئك العلماء الجسورون بشهب من الإفحام تقف بهم عند حدهم .

قال العـلامة الإنجليزي الطبيعي (كرمويل فرلي) ، كما نقلته عنه (المجلة

الروحية)، ما يأتي «إن الشتائم التي تكبدناها في سبيل الاعتقاد بمذهب استحضار الأرواح لم تأتِ إلا من جهة الذين لا يحصل لهم إقدام على البحث والتنقيب إلا بعد معاداة ما يجهلونه . »

وكتب العلامة (أجست مرجان)، رئيس قومبانيات التلغرافات الإنجليزية ، وهو من كبار علماء الطبيعة في مجلة (فروم ماستراف سبريت) قال :

« أنا مقتنع بصحة مذهب استحضار الأرواح مما رأيته بعيني وسمعته بأذني ، اقتناعاً يجعل تطرق الشك مستحيلاً عليّ . وإن الروحيين لعلى الطريق التي تقدم العلوم الطبيعية وليس أضدادهم إلا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات في سبيل الترقي . »

عجيب أمر هؤلاء الماديين . ماذا يصيبهم من الأذى لو ثبت يوماً من الأيام بالتجربة والامتحان أن للإنسان روحاً خالدة وأنه مجزى على كل صغيرة وكبيرة من أعماله وأفكاره في دار بعد هذه الدار؟ (ماذا يلحقهم من الضرر المادي أو الأدبي لو رجعت تلك القلوب اليائسة : والإحساسات الكئيبة المتلظية ، في هذه الحياة الأرضية ؛ فاعتقدت أن الدنيا دار ممر إلى دار أخرى ،فيها ينصب ميزان العدل الالهي ، وتتجلى للفاضلين والكاملين سبحات النور القدسي، فينالون جزاء جهادهم الحيوي الطويل في معترك هذه المادة الطينية ؟ ثم ماذا ينالهم من الفائدة لوثبت عكس ذلك ، وبقيت الفطرة الإنسانية تئن من فقد العقيدة، وانتشر الإلحاد في طبقات العالم حتى أكل الناس بعضهم بعضاً من الفساد الخلقي ؛ وأصبح الإنسان يرى في الموت العدو اللدود الذي يقطع بينه وبين أهله الأعزاء وأفلاذ كبده المحبوبين ؛ وأضحت الأم التي تفقد ولدها أو بنتها لا ترى لها معزياً ولا مسلياً غير الذهاب مثله أو مثلها إلى عوالم الظلمة والفناء .

الله أرحم بعباده من هؤلاء الماديين ، فليموتوا بغيظهم ، فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون ، وهو القائل وقوله الحق : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » .

كتب الفيلسوف الفرنساوي الشهير (شارل فوفتي) في كتابه المسمى (الوحي الجديد - الحياة) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الأرواح صارت منابع الحياة الخلقية مهددة بالغيضان، وأحست الجمعية الإنسانية (تأمل) من نفسها بأنها قد دخلت في دور الفتن والانحلال الذي يجب أن يعقبه الخراب التام ، ولكن لما أشرقت في الإذهان هذه الفكرة الجديدة (مذهب استحضار الأرواح) - وإن لم تكن بينة الحدود للآن - أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الأفكار » .

ولكن حضرات الماديين يظهر أنهم لا يريدون ذلك التغير في الأفكار ، بل يريدون أن يبقى الانسان معتقداً بأن روحه ليست إلا وظائف أعضائه المختلفة ، وأن عقله وفكره إفراز من مخه كما أن البول إفراز من كليتيه (كما يثرثرون بذلك في كتبهم) ، وأن الإنسان مثله كمثل النباتات لا حظ له من الحياة الا السنوات التي يعيشها على سطح الأرض في وسط هذه المحن الشديدة. دعهم يصدقون هم أنه لا أرواح لهم ولكن هيهات هيهات أن ينصاع الناس بعد اليوم لإعارة أقوالهم السامة جانب الأهمية . فقد زال سلطانهم وتقوضت دعائم دولتهم ونجى الناس من شراك أباطيلهم والحمد لله رب العالمين .

لنرجع إلى ما كنا فيه من نقل أقاويل علماء أوربا في بيان أهمية مذهب استحضار الأرواح ، حتى إذا وجدنا لقارئنا فكرة عامة على ذلك ، نقلنا له إن شاء الله تفصيلات الأبحاث المختلفة ، والمشاهدات العجيبة التي قام بها فحول علماء الارض والله غالب على أمره) .

نقلت المجلة الروحية أقوالاً للأستاذ (هودسن) الإنجليزي جاء فيها ما يأتي : « قد ابتدأت أنا والأستاذ (هزلوب) البحث من منذ اثنتي عشرة سنة ، وكنا ماديين دهريين لا نصدق بشيء مطلقاً ، ولم يكن لنا إلا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا . أما اليوم ومـا أدراك ما اليوم ، فإني أعتقد وأجزم

بإمكان المحادثة مع أرواح الموتى . وقد قام لي الدليل على هذا الأمـــر بحيث لا أتصور أن يتطرق الشك إليّ فيه مطلقاً » .

وقال الأستاذ الفسيولوجي الطائر الصيت (روسل ولاس) المتقدم ذكره في مقدمة هذا الفصل في كتابه (الخوارق العصرية) قال: « لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ، ولم يكن في ذهني أدنى محل للتصديق بوجود حياة روحية ، ولا بوجود عامل في هذا الكون كله سوى المادة وقوتها ، ولكني رأيت أن المدهشات الحسية لن تغالب ... فإنها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء حقيقية قبل أن أعتقد علاقتها بأرواح الموتى بمدة طويلة ، ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية (تأمـــل) ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة أخرى (أي بغير نسبتها إلى أرواح الموتى) . »

وقال الأستاذ (متزجر Metzger) السويسري في كتابه المسمى (الاسبرتزم العلمي) : « هذا المؤلف يتركب من سلسلة خطب قرئت في جمعية الأبحـــاث النفسية في مدينة (جنيف) وليس من السهل على المؤلف – يحكي عن نفسه بضمير الغائب كما هي عادة بعض العلماء – نشره بين الجمهور على هذه الصفة لأنه يعلم أن شكل الخطب لا يليق أن يكون تأليفـاً لما يكون فيه من التكرار في المواضيع والترداد للأفكار التي لا يسهل على الخطيب اجتنابها لاشتغاله فوق كل شيء بإقناع سامعيه وإلزامهم الحجة .

« الموضوع الذي نحن بصدده مشتبك ببعضه جداً ، فإن المشاهدات التي يلزم امتحانها كثيرة جداً ومتخالفة ، والنظريات التي رؤيت كافية لتعليلها وتفسيرها عديدة ومتناقضة . فمن الناس من ينسب لأرواح الموتى حدوث كل الظواهـر النفسية حتى أصغرها ، ومنهم من يقول بأن الرأي القائل بتداخل الأرواح في حدوثها لا لزوم له أصلاً ، فإن مجرد قوى الإنسان تكفي لتعليلها كلها . فالتوسط بين هذين الرأيين المتعاكسين بالبرهنة للأولين بأنهم واهمون في نسبتهم للأرواح

مشاهدات لا دخل لها فيها ، وبالإثبات للآخرين بأن تعليلهم كل المشاهدات بدون استثناء بمجرد العوامل الإنسانية ، هو تكليف لنظرياتهم بتفسير ما لاقبل لها به لا يكون من نتيجته التعرض لإغضاب كل من الخصمين المتجادلين :

« فما العمل إذن ؟ الأولى قول الحق لا السعي في إرضاء حزب من الأحزاب ؛ فالمؤلف بعد أن درس هذا المسألة درساً مدققاً ، اقتنع بأن كلا هذين الطرفين مفرط في مزاعمه ، سواء في ذلك أنصار مذهب استحضار الأرواح الذين يصدقونه بدون أقل تحفظ ، وأضداده الذين ينكرونه بتاتاً . فإذا كان لا شك في أن عدداً عظيماً من المشاهدات الروحية ممكن تعليلها بدون فرض تداخل الأرواح في إحداثها ، فلا شك كذلك في أن هنالك مشاهدات أخرى تستلزم فرض تداخل الأرواح بطريقة لا يمكن دحضها ولا التردد في قبولها . هذا ما يجب التجاسر على قوله ولو كان فيه مصادمة الثقة الطفلية للذين يتوهمون رؤية الأرواح في كل شيء ، ومكافحة ذلك الكبر المتناهي من الذين ينكرون وجودها رأساً ، أو الذين ينسبونها لفعل الشيطان .

« الذي شحذ عزيمة المؤلف وأمضاها هو أنه يعتقد قلباً وقالباً بأن مذهب استحضار الأرواح المنقى مما علق به من الأوهام الطفلية التي تحط من كرامته وتفسده ، سيحدث أثراً أدبياً في غاية من الأهمية في هيئاتنا الاجتماعية المختلة . فإنه عدا عما يكسبه للعلم من المواد العلمية ذات القيمة التي لا تقدر ، سيقذف نوراً ناصعاً على هذا الخبط الفكري الحاضر ، وسيكسب القسم المعنوي من الفلسفة والدين عضداً قوياً ، وسيوجد تسلية عظمى لعيون الباكين ، وروح رجاء لقلوب اليائسين .

« مذهب استحضار الأرواح يثبت وجود الروح ويكاد يجعلك تلمسها بأصابعك . ولقد أصبحت مسألة خلود الجزء المعنوي من الإنسان مما لا يمكن الجدل فيه لبداهتها . كما أنه قد انسدت تلك المهواة السحيقة القرار التي كانت تفصل الأحياء عمن كان يقال عنهم ميتون .

« هذه حقائق جديدة في الواقع ونفس الأمر ، ولكن ما أجل فوائدها وأعظم عوائدها ! فإن هيئاتنا الاجتماعية في هبوط مستمر ، ولقد أصبح الناس يتساءلون بقلوب يملؤها الأسف والأسى عما ستؤول إليه حالة مدنيتنا المتنازعة من كل جانب التي افترسها مذهب الماديين المجتاح للفضائل (تأمل) الذي يقتله فيها عواطف الجري وراء الكمال، وبمحوه أنوار مستقبلها يدفع الإنسان لغشيان كل ما يطوف بفكره من الملاذ الجسدانية بدون المبالاة بوسائل الحصول عليها .

« بعد هذا كله ، ألا يكون إقامة الأدلة العلمية على ضلال الذين يجحدون وجود الروح وبيان أننا لا محالة مجزيون على جميع أفعالنا وأقوالنا وأفكارنا ، هو أنجح العلاجات لهذا الجنون الكثير الأشكال ؟ هـذا هو تأثير الاسبرتزم وسيكون تأثيره دائماً كذلك فيما نرى » .

ثم تكلم الأستاذ السويسري على ما سيكون له من التأثير العظيم على الفلسفة والتدين لتأسس مباديه على المشاهدات المحسوسة التي لا تدع للشك مجالاً في النفس، ولا للارتياب سلطاناً على الفؤاد ، فقال مشيراً إلى الدين والفلسفة : « إنهما سيكونان بواسطته أقرب للفهم ، وسيكتسبان به حياة جديدة وصبغة علمية وستسترد أوامرهما وتعاليمهما السلطان الكبير الذي كان لهما على أرواح الناس ، وسيستطيعان مكافحة الإلحاد الذي وقعنا فيه بوسائل أنجح وأسلحة أمضى. هذا ما يعلل سر تزايد استلفاته لأنظار الباحثين رغماً عن العداوة الكامنة أو الظاهرة التي يصادفها في بعض المراكز . فأصبح العلماء (تأمل) يهتمون به لأنه يفتح لهم مجالاً عظيماً للبحث والتنقيب عن المساتير . والروحيون ذوو الصبغ المختلفة من الفلاسفة ابتدؤا يفهمون بأنهم يجدون منه وحده سنداً ركيناً في الحقيقة، وعماداً لا يتزعزع ، يعتمدون عليه في تأملاتهم على مسائل الروح وبقائها بعد الموت وعلى أحوال الحياة في العالم الثاني. لهذا ترى عالمين من العلماء الأعلام المسيو (أجوست سباتييه) الأستاذ الشهير جداً في كلية العلوم في (مونتيلييه) في خطبته (بالاولا) من جنيف،والمسيو (أرنست نافيل) الفيلسوف الكبير في كتابه (العلم ومذهب

الماديين) يتمنى كل منها بفتور ولكن بصراحة تامة أن يرى تحقيق نظرياته بواسطة المشاهدات النفسية ، أي مذهب استحضار الأرواح .

« فأهمية مسألة استحضار الأرواح وجدتها ، ولزوم محاربة مذهب الماديين ، مذهب الفناء والعدم الذي سيؤدي بنا إلى أسفل سافلين لو لم توضع العقبات ضد انتشاره ، وضرورة تغيير كيان ذلك التشدد الديني القديم الذي ساعد مساعدة كبرى على إيجاد هذا الإلحاد الذي يساورنا من كل جانب ، والفائدة المنتظرة للحقيقة الفلسفية والدينية والعلمية ؛ كل هذه الأسباب هي التي ساقت المؤلف لإبراز بحثه هذا ولو أنه لا يجهل عدم كفايته لبلوغ الغاية من هذا الموضوع ، وهو يتمنى من صميم فؤاده أن يوجد كتابه هذا ميلاً عند بعض قارئيه لبحث هذا الموضوع الذي لم يزل فيه كثير من الجهات المظلمة ، ويرجو أيضاً أن يجفف دموع عيون باكية ، وأن يعيد القوة والجلد للذين فدحتهم المصائب، وذلك بأن يبرهن لهم بأن ستجيء الساعة التي فيها تشرق العدالة والنجاة والسعادة لجميع العالم . فغرض المؤلف من هذا الموضوع هو خدمة الحقيقة والبر » .

الامضاء : د. متزجر

بعد هذا كله يوجد من الناس من يتهم الباحثين في هذا المذهب والمصدقين به بالجنون ، تقليداً لبعض علماء أوربا عند بدء ظهور هذه الخوارق بين ظهرانيهم . ولكنا نقول لهؤلاء قد مضت سنة الأولين وقد رجع أكبر القائلين بذلك وهو الأستاذ الكبير (سيزارلو مبروزو) عن زعمه لما رأى أن أكثر إخوانه دخلوا في ذلك المذهب أفواجاً أفواجاً ، ثم فحصه بنفسه وألف فيه كتاباً مهماً ذكر في آخره هذه العبارة الصالحة : « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل والاعتقاد بأن كل الناس من قبيل المخرفين ، والتوهم بأننا نحن العلماء دون سوانا ، فإن ذلك يوقعنا في الجهل والضلال » .

فرحم الله فتىً خلع عن عقله غاشيات العقائد الجامدة وأسلم وجهه لخالقه تالياً قوله (رب زدني علماً) .

منهب استحضار الأرواح
عامل كبير لنشر الاسلام في أوروبا[1]

أجَلّ مزايا مذهب استحضار الأرواح في أوروبا هي ما نراه من أنه فتح لذويه نافذة واسعة تطل على العالم الروحاني ، أشرفوا منهـا على مسألة الوحي والنبوة ، وهي تلك المسألة التي طالما قام بمنابذتها أسرى الحس وقصار النظر وأرادوا بذلك الغض من كرامة الأديان والحط من شرف العقائد ، ولكن أين يتاه بهم ! وقد حكم الخالق لأصفيائه بالنصر والتأييد ، رغماً عن كل جبار عنيد، فقال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون » .

نعم ، إن مسألة التنويم المغناطيسي ومذهب استحضار الأرواح ، قـد دلا الإنسان من طريق الحس على وجود عالم روحاني ، وراء هذا العالم الجسداني ، وكفى بهذا الرقي العلمي هادماً لأصول الملحدة الذين قصروا العالم لقصورمدار كهم، على ما تحسه حواسهم الكليلة . فكانت هاتان الآيتـان الكبراوان ، التنويم المغناطيسي ومذهب استحضار الأرواح، اللتان أرسلهما الله تعالى في هذا العصر، من البواعث العظمى التي ألجأت الإنسان إلى الاعتقاد بالنبوات والاعتراف بوظيفة أولئك الرسل الكرام في هداية الناس وتربيتهم ، ودلتهم على مقاومهم من عالم الجلال والجمال ، وخصوصاً مقام خاتمهم وإمامهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وهذه درجة في معراج الكمال الإنساني لا تساويها درجة سواها وهي بعينهـا مقدمة لوعد الله تعـالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » .

---

(١) هذه المقالة تتمة لسؤال وجهه إلينا حضرة الأستاذ الشيخ أحمد محمد الألفي بطـوخ القراموص بأبي كبير .

اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير (فيكتور هوجو)
برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام :

ليس في الشرقيين اليوم من يجهل مقام الفيلسوف الفرنساوي فيكتور هوجو الذي يجله الفرنساويون إجلالاً لا مزيد عليه ، وتشاركهم في ذلك كل الأمم الأوربية التي استقت من جداول فكره حكمة فكت لهم كثيراً من معميات الحياة. هذا الرجل الكبير كان يعتقد بمذهب استحضار الأرواح، وله في ذلك كلام كثير وليس يعنينا منه اليوم إلا نقل ما يؤخذ منه صورة اعتقاده بالنبوات وبالأنبياء ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام .

جاء في المجلة الروحية بتاريخ مارس سنة ١٩٠٣ ، ضمن مقالة مستخرجة من كتبه الشهيرة ، قوله في كتاب له : « العالم متحرك بمحركين متميزين ، كلاهما محجوبان عن مشاعرنا ، وهما الأرواح والقوى الطبيعية ، أما القوى الطبيعية ، فهي تابعة لدستور رياضي لا يتبدل ولا يتغير، وأما الأرواح فهي حرة لا يقيدها شيء . من هنا كان من لوازم القوى الطبيعية النظام والأحكام ، أما الأرواح في حريتها فجائز عليها الشطط والضلال ، ومع ذلك فلتلك الحرية التي تتمتع بها الروح معدل يعدلها وينظمها كلما مالت ذات اليمين أو ذات الشمال ، وذلك المنظم هو الضمير . هذا الضمير ليس هو في الحقيقة إلا الشعور بدستور معنوي خفي ناتج من ذلك القانون الأدبي العام المغروز في فطر البشر .

« أما تلك الذات الكاملة التي نسميها (الله) والتي يمكن تسميتها أيضاً بمركز الإفاضات ، فهي المفيضة لتينك القوتين السالفتي الذكر ، وبناء عليه فهي قيوم الروح والقوة معاً » .

ثم شبه تلك الذات الكاملة بالشمس وشبه الأنبياء في اكتساب النور منها بالأقمار فقال: « الفطرة المودعة في صميم الإنسان بوجود الله آتية من تلك الشمس مباشرة . أما الديانة اليهودية والصابئية والبوذية والمعددة للآلهة والمانوية و (المحمدية) والمسيحية فهي من نور القمر . لأن موسى ، وبوذا ، وذورو ،

واستر ، وارفيه ، وكونفوشيوس وماني ، (ومحمد) ، وعيسى : هم أنواع من الكواكب دائرين حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين . فالديانات التي هي أقمار الشمس الإلهية وظيفتهـا إفاضة النور على الإنسان في غياهب حياته وظلمات بقائه » .

هذا فيكتور هوجو وليس هو وحده الذي أصبح يقول هذا الكلام ، بل كل نخبة المعتقدين بمذهب استحضار الأرواح ، وقد أضحى هذا الموضوع شائعاً بينهم لدرجة معها صار يخطب به خطباؤهم ويكتبه كتابهم بدون حرج . ومن ذلك ما نقلته المجلة الروحية في جزئها الصادر في يوليو الماضي سنة ١٩٠٣ من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرتزم وخطيبها المفوه (ليون دوني) في غرفة الزراعة بباريس . تكلم الخطيب في أثناء الخطبة على وظيفة رجـــال القرائح الكبرى في العالم الإنساني ، وعلى مكانهم في هداية الخلــق وإرشادهم ثم قالت المجلة : « المسيو ليون دوني استعرض أمام سامعيه كبار الوسطاء بين الملأ الأعلى والناس ، وهم الذين خلد لنا التاريخ أسماءهم ، وسرد أدلة وحججاً استملاها من الحوادث ومن تفاصيل حياتهم ، وذكر من أولئك الرجال المسيح ، ومحمد ، وكريستوف كولومب ، ولوتاس ، وشكسبير ، وجوث ، وديكارت ، وألفريد موسيه نفسه الذي كان يقر بأنه إنما كان يكتب أشعاره بإملاء روح عالية[1] . من هنا يرى أن خاصية الإشراف على العالمين قد ملأت تاريخ العصور كلها ، وأن كل العاملين العظام على ترقية النوع الإنساني كان يوحى إليهم من قِبَل الأرواح العالية النيرة .

« هذه الخاصية كانت دائماً المدة للقرائح العالية ، والمهذبة للعالم والمعلمة المرشدة للأمم والشعوب ، أي أنها كانت الوسيلة التي بها يربي الخالق عبـــاده ويخرجهم من طور إلى طور آخر . وقد كان ينجي بها الشعوب في بعض الأحيان

(١) يرى قارئنا معنا أن القوم اعتقدوا بالوحي حتى أفرطوا فصاروا لا يفرقون بين الأنبياء ورجال القرائح. إنما الذي يهمنا هو إثبات اعترافهم بوظيفة نبينا وخروجهم من جحودهم السابق.

من سيطرة الظالمين كما حصل بواسطة (جان دارك) التي خلصت فرنسا من هاوية العدم. فالأرواح الكبرى بوحيها للمصطفين من النوع الإنساني ، ونريد بالمصطفين رجال المدارك العالية ترتقي الإنسانية بهم ، ويكبر معهم قسطها من إدراك الحقيقة ومن التنور والحب ». ا. هـ.

وكتب الكاتب الباحث (سنكس) في المجلة الروحية في جزئها الصادر في يونيو سنة (١٩٠٣) مقالة تحت عنوان « محمد » هي عقيدة أراكين مذهب استحضار الأرواح فيه صلى الله عليه وسلم، نقتطف منها ما يمس موضوعنا، وربما ترجمناها برمتها إن شاء الله في فرصة أخرى ، قال حضرته : « ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة وكانت وظيفته هو أيضاً ترقية عقول البشر بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد وبحياة بعد هذه الحياة » . ثم قال :

« إن الديانة الإسلامية أحدثت رقياً كبيراً جداً في الفكرة الدينية في العالم وخلصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوي الصبغ الدينية المختلفة . نعم ارتقى العقل بواسطة الإسلام للاعتقاد بحياة أخروية ، وهذه العقيدة هي الوازع الأقوى في محاولات الإنسان المادية ، وإلى الإخبات لإله واحد يستطيع أن يعبده بنفسه، بدون مداخلة أحد بينه وبينه ، وأن يرتقي في مصاعد كرامته إلى مجالي أنواره وبدون وساطة الوسطاء ولا شفاعة الشافعين من بني جنسه . ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة في المعابد ، وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ، إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة التي كانت من لوازم الفكر البشري في القرون الخالية، وأجبر النوع الإنساني بتأثير هذه التعاليم ، لأن يرجع إلى نفسه ويبحث عن الله خالقه في أعماق روحه وصميم سره ، ليستطيع أن يرتفع بهذه العقيدة النقية إليه تعالى بواسطة العبادة القلبية المملوءة احتراماً وشكراً ومحبة . ولقد قصر الناس في الالتفات إلى ذلك الرقي الأدبي الباهر الذي تم بواسطة الديانة الإسلامية.

وقد حصل هذا الرقي بعيداً عنا لدى شعوب يسهل علينا وصفهم بالمتوحشين ظلماً بمجرد كونهم لا يخضعون لأفكارنا ، ولا يقولون بعقائدنا ولأنهم أحط منا في العلم والفكر ، ولكن مع كل هذا يجب علينا أن نعترف بأن هذه الحركة الدينية قد رقت ، ولم تزل ترقي إلى اليوم ، عقول أمم شتى من سكان هذا المعمور .

« أما الإسلام في ذاته فهو في نظرنا اليوم – على شرط تخليصه من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ، ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي – أكبر وأعظم ما يدركه الإنسان من معنى الدين ، وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الإنسان وخالقه ، هي أكثر التعاليم انطباقاً على نواميس الطبيعة وقوانين العقل الإنساني » . ا. هـ.

هـــذا أجَلّ نتيجة لمذهب استحضار الأرواح في أوروبا ، وهو من أهم الأسباب التي تدعونا للإكثار من الكلام فيه والتنويه به ، وتلقي كل ما يجــد في مواده بالبشر والارتياح ، لأننا رأينا من مطالعة ما كان يكتبه القوم في مؤلفاتهم ، وما كانوا يبثونه في فلسفاتهم قبل ظهور هذه المسألة العجيبة ، أن أفكارهم قــد تشبعت بأصول المذاهب الحسية حتى صار من المستحيل عليهم أن يتصوروا بعقولهم ما لم يكونوا يلمسونه بأيديهم أو يحسونه بأحد حواسهم ، وكان قد تأصل فيهم هذا الجمود ، وأفرع فروعاً كثيرة تشبثت كلها في مجاري تصورهم ، ووقفت في مهب روياتهم ، وأثمرت ثمراتها المعهودة من الشكوك والشبه والإشكالات والشطط . على أنا رأينا أن كل ذلك كان منهم تابعاً لناموس رد الفعل ، حيث أن رؤساء مذاهبهم الدينية كانوا قبل ظهور دولة العلم وتأيد صولته عاملين على نشر الأوهام والخرافات وتسميم الفطر بالترهات والأضاليل ترويجاً لمصالحهم ، وحفظاً لمراكزهم ، فلما ظهر نور العلم على ظلمات الأوهــام ، واسترجع كل من العقل والفكر حريته الفطرية المفقودة ، وهبت نفوسهم من حذر الغفلة والجمود ، نبذوا كل شيء يشتم منه رائحتهم ، ويحس فيه بأثرهم ، وأولعوا بالتشنير عليهم ، والحط من كرامة كل شيء يذكر فيه اسمهم ، ولما كان أكثر كلامهم في مواعظهم ،

وأكبر دعامة يستندون عليها في أداء وظيفتهم هي مسألة الوحي والنبوات ، فقد تشدد أنصار العلم وقادته في القرون الثلاثة الأخيرة في دحضها وإبطالها ، فإنهم لكذلك ، وإذا بهذه الآية الكبرى ، آية استحضار الأرواح قد ظهرت من بين تلك الكسف الإلحادية المتكاثفة ظهور الكهرباء الجوية من خلال السحب المتراكبة في الليل الدامس ، فثار ضدها العلماء من أراكين المذاهب الحسية ، وصاحوا بالناس صيحات تدل على نهاية الكبرياء والتطرف في الجبروت قائلين : هذا عود إلى الظلمات الماضية ، هذا رجوع إلى خرافات الأمم البائدة ، هذا هدم لأصول العلوم العالية . وغلا كثير منهم فقالوا : هذا جنون يلم بالحاضرين في جلسات التحضير فيريهم أشباحاً ومرائي لا حقيقة لها إلا في وهمهم ؛ ولا أثر لها إلا في خيالهم ، حتى أن الأستاذ الشهير أكبر البحاثين في الجرائم (سيزار لومبروزو) كتب هذه المسألة في بعض كتبه ، ونسبها لجنون آتيها ، وعين إسم هذا النوع من الجنون ، وزعم بذلك أنه هدم أصل المسألة واستأصل شأفتها ، وتبعه غيره في مزاعمه هذه ، وكثر الجؤار والخوار من كل الأفواه مصبوغة بصبغ مختلفة ، حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا من أكثر الناس تشدداً في دحضها وإبطالها ، قائلين أن تلك من ألاعيب الشياطين والجنة بعقول الناس ، ونصحوا العامة بعدم التعرض لها، وقاموا لها مقاوم لها شأن في الهياكل والمعابد، ولكن ! تلك حادثة اقتضتها الحكمة الآلهية رحمة بذلك العالم الخابط في متاهات الإلحاد والجمود، المشرف على هاوية العدم والزوال. فبينما هم يتلفتون يميناً وشمالاً، وإذا بها امتدت وانتشرت واتبعت في انتشارها عين الناموس الذي تتبعه كل حقيقة ، وصار لها اليوم ، أي بعد مضي خمسين سنة تقريباً من ظهورها ، أكثر من مائتي مجلة خاصة وعشرون مليوناً من الأتباع ذوي المكانات الاجتماعية والعلمية المختلفة . وقد مرت في خلال هذه المدة على قرائح قوية ، وأفكار نقية ، وثافنها نقدة العلوم ، وأصحاب الباع الأطول في تدقيق التجارب ، وتمحيص الحقائق ، ولم نسمع أن عالماً فحصها أو كذب بها، أو نقاداً اختبرها وأرى العالم وهن أصولها ووهي أسانيدها ، بل بالعكس ، رأينا أن كل من جربها هام بها

وصدقها وصار من أشياعها ، ولو كانت أحبولة من أحابيل المشعوذين ، أو ضرباً من سيمياء الدجالين ، لما مرت على كل هذه الأنظار سليمة من الطعن ، نقية من الجرح . كلا ، فهـا هي لليوم تنتشر انتشار النور في الظلام تفتح غلف الأفئدة وتأسر أقوى العقول المتشددة ، وكانت هي السبب الوحيد في رجوع الناس إلى الاعتقاد بأن لله رسلاً إلى خلقه يحملون إليهم أنوار دينه ، وأصول شرائعـــه ، ولئن رأيت في كلامهم على الوحي والأنبياء شيئاً مما يخالف العدل والتبصر ، كوضعهم الفلاسفة والشعراء في مصاف الرسل والأنبيـــاء فليس ذلك بالخطب الصعب ، فإن الذي أرجعهم عن الجنوح المطلق إلى هذا البصيص من النور قادر على أن يقيمهم على الصراط السوي بعد قليل « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » .

وأنك لو عرفت كم حجاباً كان يحول بين هؤلاء وهذه الحقائق، وكم سداً كان مقاماً بينهم وبين هذه العقائد ، لقلت انهم قد خطوا خطوة لو حدث الإنسان بها لما صدق ، ثم أنك لو رأيت كل ما كتبوه في كتبهم إبعاداً للقلوب عن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتنفيراً لها حتى عن الحوم بالفكر حوله بواسطة ما دسوه من تلك الأكاذيب والأراجيف التي سمحت لهم أنفسهم بابتكارها واختلاقها، ثم قرأت اليوم ما ترجمناه عنهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، لعلمت أن روحه الشريفة قد عملت فيهم وهي في عالمها العالي ما لم تفعله الظبى من الأعناق ، ولا السمهريات من خبيئات الأضالع .

أليس كل هذا تحقيق لوعده تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط » .

★

الفصل الثاني عشر

كيف كان إسراء النبي

صلى الله عليه وسلم

وردتنا من حضرة المحترم رياض سليم أفندي بمصر هذه الأسئلة وهي :

١ — هل إسراء النبي صلى الله عليه وسلم حصل بالجسد والروح أم بالروح فقط ؟

٢ — هل المراد بالصراط والميزان أشياء حسية أو معنوية ؟

٣ — هل الحشر والنشر بالأجساد والارواح أم بالأرواح فقط ؟

٤ — أي شيء يتنعم في الآخرة الأجساد أم الأرواح ؟

٥ — ما الحكمة في إبراز عالم الشهادة من عالم الغيب؟ هل هي كما يقال لإظهار النور المحمدي ؟ وهل حق ما يقال من أنه لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخلق هذه العوالم كلها ؟ .

هذه خمسة مسائل من أعوص المسائل الدينية التي خاض عبابها العلماء قديماً وحديثاً ، وكانت سبباً لكثير من الخلافات بينهم ، وهي من الأمور التي تختص بعلم ما وراء المادة ، ولذلك فقد جعلناها من مواضيعه في هذا الجزء ، ولكنا لا نحب أن نجمل الكلام فيها إجمالاً لا تشتفي النفس به ، بل رأينا أن نحاول حلها واحدة بعد أخرى ليكون الموضوع أنفع لغلة العقل، وأرد لعادية الريب، وأنفذ لمكان الاقتناع من النفس ، والله الكافي ...

هل حصل الإسراء بالروح والجسد أم بالروح فقط ؟

قال الله تبارك وتعالى : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا» . وقال تعالى : «والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى . ذومرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى ؛ فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عنـد سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

هذه الآيات الكريمـة نصوص صريحة في حصول الإسراء إلى بيت المقدس والعروج إلى السماء ورؤيته صلى الله عليه وسلم لآيات الله الكبرى ، مما لا يخطر على بال أحدنا خطوراً لما نحن فيه من التورط في أوحال الحس ، والأمـة بإزاء هذه النصوص النيرة مجمعة على حصول الإسراء والعروج لا خلاف بينهـا فيها لاعتقادها بأن النبوة أمر عظيم ينكشف به للأنبياء من جهـة عالم الملكوت والجبروت نوافذ يطلون منها على سكان حظائر التقديس ، وعمار الصفيح الأعلى، هذا ما لا خلاف فيه بين اثنين من هذه الأمة ، ولكن الخلاف في كيفية الإسراء والعروج : هل كان بالروح وحدها أم بها وبالجسد أيضاً ؟

قال الأستاذ القاضي عياض رحمه الله تعالى في شفائه : « ثم اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه وجسده ؟ على ثلاث مقالات :

«١ ـ فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي ، وإلى هذا ذهب معاوية وحكى عن الحسن والمشهور عنه خلافه ، الخ » .

« ٢ – وذهب معظم السلف والمسلمين إلىأنه إسراء بالجسد وفي اليقظة، وهو الحق ، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حية البدري والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج ، وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهـــاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

« ٣ – وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « سبحـــان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ، فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظم القدرة والتمادح بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. قال هؤلاء ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد عن المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ في المدح. الخ . » (انتهى كلام القاضي عياض) .

نقول، من هنا يتضح لقارئنا أنه لا يوجد نص صريح بالإسراء بالروح والجسد معاً، ولو وجد لما كان مساغ لهذا الخلاف كله؛ ومما يحسن أن يلتفت إليه المطالع أن منكري الإسراء بالجسد ليسوا ممن لا يعتد بإيمانهم أو لا يؤبه لأقوالهم، الأمر الذي يدل على أن القول بالإسراء بالروح فقط ، لا يقدح في إيمـــان المؤمن ، ولا يؤثر على كمال عقيدته بشيء .

على أن الذي يود الاحتياط لعقله فيميل لرأي القائلين بأن الإسراء كان بالروح فقط ، لا يليق به أن يتخذ هذه الرخصة سبباً للحط من كرامة السواد الأعظم من الأمة الذين قالوا بأن الإسراء كان جسداً وروحاً . ولو تأمل أحدنا ، لرأى أن أولئك النفر الكبـــار الذين قالوا بمحض الإسراء الروحاني ، لم يقولوا ذلك استبعاداً له على قدرة الله وعلى كرامة رسوله ، ولكن قالوها وقوفاً مـــع مبلغ اجتهادهم فيها. ولو حاسب نفسه المستبعد منا وقوع ذلك الإسراء بالجسد والروح معاً ، لرأى أن حرج صدره يرتكز على ضيق دائرة علمه بمساتير الوجود وجهله

لأسرار الخليقة ، وعلى ظنه (وإن لم يصرح به) بأن كل ما خرج عن إحاطته الذاتية ومعارفه الشخصية باطل لا يعتد به في شيء . ونحن لأجل تبرئة هؤلاء الأسلاف الكرام ، الذين كانوا يعتقدون بالإسراء الروحاني الجسداني ، من وصمة الركون للخيال وسرعة التصديق لكل ما يقال، كما يميل لأن يرميهم به أعداؤهم، نود أن نقيم الأدلة الطبيعية على قدر يسمح به طاقة العلم المادي بأن عقيدتهم ليست من باب المستحيلات أو الظنون البعيدة التحقق بل هي من مشاهدات الطبيعة وحوادثها اليوم فنقول :

إن وجوه استحالة هذا الإسراء الجسداني تنحصر في أمرين :

أولهما : السرعة العظيمة التي يقتضيها ذلك الانتقـــال من مكة إلى بيت المقدس ، وهي مسافة يمكن تقديرها بألفي كيلومتر يتعذر على القطار المستعجل قطعها في أقل من ستين ساعة ذهاباً وإياباً .

ثانيها : إنتقـــال الجسم الإنساني من مكان إلى مكان بدون آلة من آلات الانتقال المعروفة .

نقول : أما الأمر الأول فليست السرعة اللازمة لقطع ألفي كيلومتراً ذهاباً وإياباً في بضع ساعات من الليل بالأمر المستحيل في ذاته . فإن هذه السرعة لو قورنت بالسرعة المتمتعة بها السيارات السماوية في مداراتها الواسعة لما عدت شيئاً يذكر . وهذه كرتنا الأرضية التي نعيش عليها ولا نتخيل أنها دائرة، قد برهنت العلوم الفلكية على أنها دائرة حول الشمس بسرعة (ثلاثين كيلومتراً ونصف في الثانية) أي أنها تقطع الألفي كيلو متر التي تفصل مكة عن بيت المقدس في أقل من عشر دقائق . وبناء على هذا فليس أمر هذه السرعة بالخطب الكبير ، ولا بالشيء العجيب . وكيف نعجب منه بعدما ثبت بالبرهان المحسوس أن هذا الكوكب الأرضي الذي نسرح ونمرح على صهوته ، دائر بنا كل لحظة هـــذا الدوران المزعج لا يفتر آونة ولا يغفل طرفة عـين ، ولو حصل فيه شيء من التغير لاختلت موازنته، ولتغيرت أوقات الشروق والغروب، ولتبدلت أحايين

الفضول ، ولتعطلت بسبب ذلك الزروع والضروع ، مما لا أستطيع أن ألم ببعضه فما بالك بكله والله أعلم .

على أن هذا كله ليس هو الشأن العويص في هذه المسألة ، فإن الخطب الجلل هو البرهنة على إمكان حصول انتقال الجسم الإنساني بدون وسائل النقل المعروفة إلى مثل هذه المسافات الشاسعة .

نقول : المسلمون بإزاء أمثال هذه المسائل العويصة التي تختص بالنبوات أحد رجلين ؛ رجل جاز عقبة الحياة المادية ، واخترق قشور هذه الحوائل الصورية ، فأشرف بروحه على عالم الأرواح واستشرف بفؤاده عجائبها وغرائبها ، وألم بطرف من أمورها وشؤونها ، فهو لا يصدق فقط أن بعض المسائل يصح أن تحصل بقوى روحانية فوق القوى الإنسانية ، بل يعتقد اعتقاد مشاهدة وعيان ، بأننا تحت سلطان العالم الروحاني بحالتيه العلوية والسفلية . فنوايانا الصالحة ، وعواطفنا نحو الكمال والجمال ، وما نحدث به نفوسنا من جلائل الأعمال ، وصالح الأميال ، وما نجده من الخفة للنجدة والمروءة ، وما نحسه من الحمية لمدافعة الضيم ، ومقارعة الذل ولو عدى على الحياة ، كل ذلك إلهامات ودوافع آتية إلينا من تلك القوى العالية المحيطة بنا من كل مكان مما نسميه الملائكة . وأما مقاصدنا السيئة ، وسلوكنا خطط الفجور ، ومخالج الفتن وتفكرنا في الإضرار بالناس ، فوسوسة من القوى السفلية التي تتناثر حولنا من كل صوب ونسميها بالشياطين ، هذا الرجل الذي نحكي عنه ممن تذوق طعم الروحانيات وعرف مكانها من الخليقة ، لا يستبعد مثل هذه الأمور ، ولا يجيش في صدره أن يثور عليها .

ورجل آخر مؤمن ولكنه لم يفتح له ذلك الباب العالي ، ولم يشرف على شيء من بدائع العالم الروحاني ، فإنه يحتاج بإزاء هذه المسائل إلى دليل يعتمد عليه ويقارع العدو بسلاحه ، كما هو شأن المسلم في كل ما يعتقد ، فلمثل هذا الرجل نسوق شيئاً مما فتح الله به على بعض العلماء الطبيعيين في أثناء تجاربهم في

مسألة استحضار الأرواح لنستطيع أن نقرب للأذهان كيفية انتقال الجسم الإنساني من نفسه (بجوامل روحانية) محضة . وإذ كانت هـــذه المسألة من عويصات المسائل فقد آلينا على أنفسنا أن لا نبني أسانيدهـــا إلا بواسطة من لا يمتري أحد في صدقهم من علماء أوربا .

كتب الأستاذ الشهير العالم الفرد في علم الكيمياء العصري (ويليم كروكس) الإنجليزي في كتابه (القوة النفسية) الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بها اثنتي عشرة طبعة ، تحت عنوان « ارتفاع الجسم الإنساني » ، ما يأتي :

« هذه الحادثة حصلت في الظلام بحضوري أربع مرار في شروط من الرقابة كافية مرضية . ولكن لما كان البرهان الحسي لازم جداً للبرهنة على مثـــل هذه المدهشات ليمكننا أن نهدم من أذهاننا عقائد جامدة — حددنا بها لأنفسنا ما هو الممكن وما هو المستحيل رأينا أن لا نذكر من هذه المشاهدات إلا مـــا يكون فيها الاستنتاج العقلي معضداً بحاسة النظر .

« شاهدت في فرصة من الفرص كرسياً عليه امرأة جالسة ارتفع بهـــا عن سطح الأرض بمقدار عدة عقد . وشاهدت مرة تلك المرأة، وقد أرادت أن تبعد عنها كل ظن من الحاضرين في أنها سبب هذا الارتفاع ، جثت على ركبتيها فوق كرسيها،فارتفع بها الكرسي على هذه الصفة بحيث أننا رأينا كلنا قوائمه الأربع. ارتفعت هذه المرأة بهذه الصفة مقدار ثلاث عقد ومكثت معلقة في الهواء مدة عشر ثوان تقريباً . ثم نزلت بهدوء وبطء . ورأيت مرة غلامـــين صغيرين في فرصتين مختلفتين ارتفعا بكراسيهما من على سطح الأرض في رابعة النهـــار وفي شروط من المراقبة والضبط مرضية جداً بالنسبة لي لأني عند ذاك كنت جاثياً على ركبتي لم تذهب عن مرمى عيني مطلقاً قوائم الكرسي . فتحققت أنـــه لا يمكن أن يكون بينه وبين أحد أدنى اتصال .

« أما أغرب مسائل انتقال الجسم البشري وأعظمها فوق كل ما حصل من ذلك أمامي ورأته عيناي ، فهو ما حدث بحضور (المسيو هوم) ، فلقد رأيته

في ثلاث حالات مختلفة يرتفع بجسمه من على سطح الأرض تماماً ويتعلق في الهواء، أما المرة الأولى فقد كان جالساً على كرسي طويل . وأما المرة الثانية فقد كان جاثماً فوق كرسيه . وأما في المرة الثالثة فقد كان واقفاً على كرسيه . وفي كل مرة من هذه المرار الثلاث كنت متمكناً من مشاهدة هذه الحادثة في بدء ظهورها .

«وقد حصلت هذه الارتفاعات الجسمية من المسيو هوم نحو مائة مرة شوهدت أحسن مشاهدة ، وروقبت تمام المراقبة أمام كثيرين من ذوي الصفات المختلفة. وقد سمعت من فم ثلاثة من شهود العيان وهم الكونت (دونرافن) واللورد (لندسي) والقبطان (س . وين) تاريخ حوادث من هذا القبيل من أغرب ما يتصوره العقل شوهدت بكل مفصلاتها وأدق جزئياتها » . ثم قال الأستاذ عقب هذا : « إن رفض صحة هذه الحوادث يعادل رفض كل شهادة إنسانية مهما كانت صفتها ، لأنه لا توجد حادثة ، سواء في التاريخ الديني أو في التاريخ الدنيوي ، مستندة على براهين بهذه القوة ». ا.هـ.

من هنا يرى قارئنا أن مسألة انتقال الجسم الإنساني بواسطة القوى الروحية أمر أثبته العلم العصري، وقد رأيت أنه يحصل لمثل الدكتور (هوم) على ما به من رعونات البشرية ، وغلبة القوى النفسية مما لا يسلم منه إلا الأقلون ؛ فما بالك بنبي مرسل أخلصه الله لنفسه ، واصطفاه لأعباء وحيه ، وانتخبه لحمل شرعه ، وطهره من أدناس الخصال ، وأرجاس الخلال ، وزكاه من جماح البشرية وزيغ الأميال الشهوية ، وجعله في عالم وسط بين عالمي الملك والملكوت . لا جرم أنه لا يستبعد على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو تلك الروح العالية التي برهنت للعالم أجمعه على أنها أكبر الأرواح قدراً ، وأعظمها مقاماً ، أن تنال من مزايا القوى الروحانية أكثر مما يناله مثل هوم بما لا يقدر ، فإذا كان هوم يستطيع أن يقف على كرسيه في الهواء فلا يستبعد على محمد صلى الله عليه وسلم (لا تنس ما بينه وما بين هوم من الفارق في القوة الروحية) أن ينتقل بجسمه الشريف على أجنحة القوى الروحانية من مكة إلى بيت المقدس ثم يعود في ليلته. فيا صاح لا تقنع بأنك صاح !

الفصل الثالث عشر

الاسبرتزم

ما وراء المــادة

سألنا حضرة الفاضل محمد أفندي العطفي مترجم محافظة السويس عن رأينا فيما قالته مجلة المقتطف في مسألة الاسبرتزم (استحضـــار الأرواح في أوروبا) بمناسبة سؤال وجه إليها ، فقال حضرته : « طالعت في أحد أعداد مجلة المقتطف إجابة لصاحبه على سؤال وجهه إليه أحد قرائه بشأن مسألة استحضار الأرواح ، فأنكر صحتها ونسب التصديق بها لهوس المشتغلين بالبحث فيها ، وقال لا عبرة بكونهم علماء فإن مراكز الإدراك تختلف في الدماغ فقد يكون الإنسان أعلم العلماء بفن من الفنون ولا يفترق عن العامة في ما عدا ذلك من الأمور ، فما قولكم في ذلك . أرجوكم الإجابة كتابة في (الإسلام في عصر العلم) لإفادة العموم » .

نقول : نحن إن كنا نكتب في فن استحضار الأرواح ونداقع عنه فإنمـــا نكتب فيه لجملة أوجه مهمة : منها أنه أكبر هادم لمقررات العلم المادي الحاضر الذي قرر عدم وجود شيء في الوجود غير المادة وقوتها الذاتية ، وأن كل هذا الإبداع في عالم الشهادة ناشىء من فعل نواميس الطبيعة القديمة كقدم المــادة ، وأنه لا روح ولا خلود ولا روحانيات ولا ملأ أعلا ولا نعيم أخروي ولا شقاء ولا جن ولا ملك ولا ولا ... مما ترويه للناس كتب الأديان ، وإن الإنسان حيوان مرتق في سلسلة

الوجود ليس غير . فننقل من مذهب ما وراء المادة التجريبي العملي ما يكسر من شره القائلين بهذه المقالات، المطنطنين بتلك المنكرات، لا سيا وهم يتبجحون بطلب الأدلة الحسية لا العقلية . حتى أنك لو أتيتهم بأعظم البراهين العقلية المنطقية ، لقالوا : إنما أنتم واهمون ، وفي بحار الخيال غرقون ، تصدقون ما تتصورون ، وتدينون لما لا تتحققون ، ولو كانت ثمة حقيقة كما تقولون لظهرت آثارها للعيون، ولاهتدى إليها الباحثون . فإن رويت لهم من كتب الأولين والآخرين ماشاهده الأولياء والصالحون ، ورآه بأعينهم العابدون ، لما ازدادوا إلا سخرية بك واستهزاء منك . زاعمين أن تلك المشاهدات ليست على أسلوب يكفل لها الحفظ من الخطأ، والتنزه عن العبث واللعب كما هو عليه أسلوب البحث في هذا العصر. فلم نرَ سلاحاً يطأطىء من هذه الرؤوس الشامخة، ويطأمن من هذه الكبرياء المفرطة ، ويرغم من هذه المعاطس المعجبة ، إلا مقابلتهم بأبحاث أراكين علماء أوروبا في فن استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي ، فإنها أقوى سلاح اتخذه حماة العقائد ضد هؤلاء المبطلين ، وشاع استعماله في الناس أجمعين .

قال المسيو دولن في كتابه (الحادثة الروحية) الذي طبع خمس مرات ، في صفحة (٢٨٣) : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرحوا براهين الفلاسفة المليين قائلين لهم أنها ليست على أسلوب يوصل إلى حقيقة ، ولكن باتباع أسلوب الروحيين لا يخشى من الماديين العود إلى مثل هذا الرفض . فإنا لا نقول للناس يجب أن تعتقدوا فيم أفيض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرأوا وجربوا وابحثوا كل ما يؤكد لكم صحة الحوادث التي ظهرت للعموم، وكونوا بحاثين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة إلا إذا استطعتم أن تكرروها بأنفسكم كثيراً وفي شروط مختلفة . وبالاختصار نقول لكم تقدموا والحذر ملء أفئدتكم في سبيل الوقوف على هذه المجاهيل لأن الذي يجشم نفسه بناء أصول جديدة يكون معرضاً للغلط والضلال ، ومتى درست حادثة من تلك الحوادث ترها تحدثك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار أهميتها . أليست هذه الطريقة هي

أسلوب الفلسفة العملية عينها ؟ وبماذا يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكيمة على أمثال (روبير هار) والأستاذ (مابس) والمستر (اكسون) ؟

«إننا إنما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لإرغامهم على الهزيمة ، فبنفس أسلوبهم تعلن على رؤوس الأشهاد خلود الروح بعد الموت .

« كل النظريات المـــادية التي تزعم أن الإنسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح ، وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادي سلاحاً لإثبات مادية الإنسان وعدم روحانيته ، قد كذبوا أشد التكذيب وبان ضلالهم بواسطة المشاهدات الحسية الروحية الخ » . إلى أن قال :

« إن قوة الإسبرتزم وسيطرته على العقول آتية إليه من تركه حرية البحث لذويه ، فإن كل أصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحانها ، ولكنها ما وضعت للامتحان مرة إلا وخرجت أقوى مما كانت قبلاً . والأديان في هذا العصر الأخير تشبه تلك الأربطة اللازمة للطفل لتعليمه المشي ، ولكنها صارت لا تفيده الآن (يظهر أن دولن لا يعرف الإسلام ولو عرفه لمـا عمم حكمه على الأديان) ، بل صارت مضرة به لبلوغه سناً يسمح له بالمشي وحده . والرجل في القـرن التاسع عشر لما رأى أن تلك الإديان ثابتة لا تتغير على حسب ناموس الترقي أحس أن تعاليمها القديمة لا توافق الدرجة التي وصل إليها من العلم ورأى نفسه بين أمرين : إما التسليم لمقررات العلم الواضحة ، وإما الخضوع للعقيدة التقليدية ، فـلم يسعه إلا إلقاء نفسه بين أحضان العلم المادي . ولكن متى رأى مثل هذا الرجل أن هنالك مذهباً يوفق ما بين مطلوب روحه من العقيدة ومطلوب العلم فلا يتوقف عن الأخذ به واتباعه . هذه الملحوظات الموجزة على الاسبرتزم تفسر لك سرّ سرعة انتشاره هذا الانتشار المدهش . لا يتوهمن أحـــد أن الاسبرتزم عدو الأديان ، وإنما هو عدو خرافاتها فقط . أما غريمه فهو المذهب المادي ، والذين يشكـّون بوجود العالم الأخروي وإن لم يكونوا كفاراً للنهاية . »

نقول : ونحن لعـين الأسباب نكثر الكلام من البحث في علم ما وراء المادة

العصري ، ونقول بأعلى صوتنا أنه أكبر نصير للإسلام ، وبواسطته ستسلم أوروبا إسلاماً تدريجياً كما أثبتنا ذلك في الفصل الماضي من أقوال (فكتور هوجو) أكبر رجل في الفرنساويين ، وأقوال الفيلسوف (ليون دوني) خطيب الاسبريتيين ، وأقوال (سينكس) الكاتب البليغ .

إن اتهام المشتغلين بالاسبرتزم بالهوس والجنون كان يروج لدى العقول قبل خمسين سنة في أوروبا ، أما الآن وقد صار المشتغلون بها أعلم علماء الأرض فلم يعد لتلك التهمة وزن ولا خطر ، بل أصبحنا ولا يقولها في أوروبا إلا الذين لا علم لهم بكنه الحركة الفكرية في العالم، وإذا ساغ لنا أن نتهم بما قاله المقتطف عالماً أو عالمين فكيف يسوغ لنا ذلك وهم الآن يعدون بالألوف ؟ إليك جدولاً بسيطاً يشتمل على عشرات من أسماء علماء أوروبا الأعلام ، نوردهم بدون ألقاب ولا نتأخر عن إيراد تاريخ أكثرهم والإدلال على أنهم جميعاً من رجال النهضة العصرية في الفنون الطبيعية في العالم :

في انجلترا

(١) وليم كروكس	(٢) لودج
(٣) دومرجان	(٤) هكسلي
(٥) فارلي	(٦) اكسن
(٧) دوكتور تشامبيرس	(٨) هودسن
(٩) سنتوس موزس	(١٠) مستر بلفور
(١١) رسل ولاس	(١٢) باريت
(١٣) جون لبوك	(١٤) لويس
(١٥) جان كوكس	(١٦) جورج سكتون
(١٧) دوكتور جمس جللي	(١٨) باركس
(١٩) جلادستون .	

في فرنسا

(٢٠) كاميل فلامريون
(٢١) موتنييه
(٢٢) دوكتور دوزار
(٢٣) دوكتور أوليفيه
(٢٤) ساردو
(٢٥) جول بوا
(٢٦) أوجين نو
(٢٧) دور وشاس
(٢٨) دوكتور داريكس
(٢٩) دوكتور ريشه
(٣٠) شارل فوفتي
(٣١) جان فينو
(٣٢) فيكتور هوجو
(٣٣) جريمار

في أمريكا

(٣٤) مابس
(٣٥) اليوت
(٣٦) أدمون
(٣٧) هار

في المانيا

(٣٩) زولنر
(٤٠) فيشنر
(٤١) أولتريسي
(٤٢) ونير
(٤٣) شبنر
(٤٤) وندت

في ايطاليا

(٤٥) لومبروزو
(٤٦) انجلو بروفيريو
(٤٧) كيايا
(٤٨) جيوزيب جيروزا
(٤٩) كياباريلي
(٥٠) فولبي
(٥١) بورتيسي
(٥٢) فالكومر
(٥٣) فنزي
(٥٤) جيوفاني

هؤلاء أربعة وخمسون عالماً شهيراً ، ولو شئنا لأصعدنا عددهم من نفس كتبهم إلى مئات عديدة ، وكل منهم له كلام على هذا المذهب وأهميته وتوقع انفراج الأزمة الإلحادية به ، سلكوا في تقريرهم نظرياته مسلك المتحمسين الغيورين بقدر ما كانوا متشددين في دحضه وراجمين بالجنون أشياعه وأتباعه . فإن الدكتور الشهير الباحث في الجرائم والقوى العقلية (سيزار لومبروزو) كان من كبار القائلين في النصف الأخير من القرن الماضي بجنون من يعتقد في الاسبرتزم ، أو يظن أنه يرى بعينيه شيئاً فيه ، وكتب ذلك في بعض مؤلفاته ، ثم لما أهداه الأستاذ فالكومر كتابه المسمى (بوصلة المستقبل) وقرأه الأستاذ قراءة إمعان وتدبر ، تغير فكره واتهم نفسه وتألم من كتابة ما كتبه قبل أن يفحص ذلك الأمر بنفسه ، فكتب للأستاذ صديقه يقول ما معناه : « لقد جعلني كتابك هذا كالحصاة الحقيرة هوت من قمة جبال عالٍ فهي تهبط إلى حيث لا تعلم ، يتلقاها سفح ويصدمها سفح آخر . وقد عزمت على أن أفحص تلك المشاهدات بنفسي . » ، ثم صدق في وعده وأكب على دراستها وتجربتها سنة وشهوراً عديدة حتى ثبت لديه بالامتحان أنه كان يجهل هذا الأمر بالمرة ، وأنه كتب عنه ما كتب عن جهل ، فندم على ذلك ولم يشأ أن يصر على ذنبه ، بل كتب كتاباً في هذا الموضوع كذب فيه نفسه واختتمه بهذه الجملة الجميلة : « لنحذر من ادعاء دقة العقل واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ، ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا ، فإن ذلك يوقعنا ولا شك في الضلالة والحيرة » .

وإليك الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الانجليزي الشهير ، كان من أشد الناس طعناً في الاسبرتزم وأمضاهم سلاحاً ضد الآخذين به ، ثم لأمر يعلمه الله حبب إليه بحثه فأكب عليه بذلك العقل الشكاك المتردد زيادة عن عشر سنين ثم اعتقده وكتب في مجلة (سبرتوالي مجازين) مقراً بغلطه ، وكذلك كان شأن الدكتور تشامبرس والدكتور جمس جللي ، أما الاستاذ جورج سكستون فقد كتب عن نفسه يقول ، كما رواه عنه الاستاذ الشهير (روسل ولاس) ، في كتابه عجائب العصر الحالي : « إني تحصلت في بيتي الخاص وبمعزل عن كل واسطة

للتحضير (غير أصحاب لي لديهم خصيصة استحضار الأرواح) على البرهان الذي يستحيل دحضة (تأمل) والذي هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت، بأن المخاطبات التي تحصلت عليها هي آتية من أصحاب وأقارب ميتين » .

يظهر لنا أن المقتطف لم يطالع ولا كتاباً واحداً في هذا الموضوع لأنه لو كان فعل لكبر عليه جداً أن يتهم هؤلاء العلماء بالجنون ، وكل واحد منهم لم يدخل ميدان البحث إلا وهو متسلح بسلاح العلم الطبيعي الحاد ، ومدرع بدرع الفلسفة الحسية الشديدة الشكيمة . هنا ننقل جملة مما كتبه الاستاذ كروكس في بعض المجلات الانجليزية ، ثم نقله في كتابه المسمى (أبحاث على المسائل الروحية) قبل أكثر من ثلاثين سنة ، أي قبل أن يصل هذا المذهب إلى ما هو عليه الآن من الشيوع وكثرة الأنصار . ننقل هذه الجملة ليعلم الذين يشكون في عقل أولئك العلماء كيف أنهم ولجوا باب البحث في هذا الموضوع وكيف أنهم فيه كما هم في كل فرع من الفروع العلمية التي يبحثون فيها ، رجال حزم وعزم ودقة وروية . قال كروكس :

« قبل بضعة أسابيع كتب في مجلة (ذي اثنوم) بأني شرعت في عمل أبحاث فيما يسمونه مذهب استحضار الأرواح ، وبالنسبة لما تحصلت عليه من المشاهدات العديدة من ذلك العهد ، رأيت أن أكتب كلمتين في هذه الأبحاث التي ابتدأت فيها . على أني لا أستطيع أن أقول بأن لي حكماً أو فكراً على موضوع لا أدعي أني قد سبرت غوره للآن ، فإنى أعرف أن الواجب على رجال العلم الذين تدربوا على العمل بأسلوب دقيق أن يختبروا الحوادث التي تستلفت أنظار العموم حتى يبينوا حقيقتها أو يفسروا إن أمكنهم وجوه اغترار ذوي النوايا الصالحة بها ويكشفون تدليسات المدلسين . ولكني آسف أن يعلن عن شخص بأنه بدأ في بحث شيء قبل أن يحكم هو نفسه بأنه قد حان الوقت المناسب لإشاعة ذلك وإذاعته .

« يمكن أن يكون الإنسان عالماً حقاً ويتفق مع الأستاذ (دومرجان) في

قوله : « لقد رأيت حوادث كثيرة روحية ، وسمعت بأن كثيراً منها حدث في أحوال وشرائط تجعل الشك فيها مستحيلاً ، بحيث أن أي كائن عاقل لا يستطيع أن يقبل أي تعليل لحصولها بالخديعة أو الصدفة أو الغلط . وإني من هذه الوجهة أحس بأني واقف على أرض ثابتة ؟ أما من جهة سبب حدوث هذه الخوارق فلا يمكني أن أختار تعليلاً من التعليلات التي قيلت في هذا الشأن . فإن من الناس من وجد لها بغاية السهولة تعليلات طبيعية ولكنها لا تغني عن الحقيقة شيئاً . ومنهم من عللها بنسبتها إلى أرواح الموتى ، ولكن هذا التعليل مع كونه أشفى للصدر من الأول إلا أنه لم يزل غامضاً يصعب قبوله. » (انتهى قول الاستاذ دومرجان).

ثم قال الأستاذ كروكس : « أنا لا أستطيع أن أحكم على السبب المحدث للمشاهدات التي رأيتها ، ولكن يوجد منها بعض حوادث طبيعية ، مثل تحرك الأشياء المادية وحدوث اللغط الشبيه بصوت بطاريات كهربائية تحصل في أحوال لا يمكن تعليلها معها بأي قانون طبيعي معروف . وهذا شيء أراني متحققاً منه تحققي بأبسط الحوادث الكيماوية .

« كل أبحاثي العلمية حلقة مستطيلة من مشاهدات دقيقة فأريد اليوم بأن يعرف عني بأن المشاهدات التي سأؤكد حصولها هي نتيجة أبحاث بلغت فيها حد الجهد من التمحيص والتدقيق (تأمل) . أنا لا أستطيع الآن أن أجازف بإبداء أي رأي على سبب هذه الحوادث ، فإني لم أرَ للآن ما يقنعني بصحة — الرأي الروحي — (القائل بأن سبب حدوثها الأرواح) ، فإن العقل في مثل هذا البحث يود أن يكون البرهان على ذلك الرأي من الوضوح بحيث لا يتطرق إليه الشك ، فإن الحقيقة يجب أن تكون مؤثرة مقنعة بحيث لا يتجاسر أحد على التردد في قبولها . » اهـ .

من هنا ترى أن هؤلاء العلماء المصدقين بمسألة الاسبرتزم ، وكروكس من أكبرهم بل من أكبر علماء الأرض ، لم يصدقوا بها جزافاً بل أنهم حاولوها بما يحاولون به

سائر مساتير الطبيعة بعلومهم التي برعوا فيها ، وعالجوها بعقلهم الخاص لا بالهوس وعدم التروي .

هنا يحسن بنا أيضاً أن نترجم لحضرات القراء فقرات طويلة من كتاب (الحادثة الروحية وشهادات العلماء) تأليف الكاتب الفرنسي الشهير (جابريل دولن) فإنها تشمل سير الحركة الاسبريتية في العالم بالتفصيل الموجز . **فاليك ملخص ما قاله تحت عنوان « العلماء » :**

« يمكننا أن نبدأ فصلنا هذا بذكر إسم قانوني كبير من نيويورك هو الآن رئيس مجلس الأعيان الأميريكي واسمه (أدمون)، فلقد كان لخبر دخوله إلى مذهب الأرواح رجة عظمى دوت لها الجرائد الدينية والدنيوية دوياً هائلاً . فرد ذلك الأصولي على جميع خصومه بكتاب سماه « الحوادث الروحية » ، كان له صدى كبير في جميع المملكة الأمريكية وبث فيها المشاهدات والتجارب التي استند عليها في تقرير مذهبه ، فصمد أحد الملحين على المؤتمر المقيم في وشنجتون بضرورة فحص المسائل الروحية إلى عدة ملايين ، ولم يكن قبل كتابه إلى خمسة عشر ألفاً .

« إليك كيفية نفوذ العقيدة الروحية إلى فؤاد ذلك القانوني العظيم . قال حضرته عن نفسه : « في ٢٣ ابريل سنة ١٨٥١ كنت أحد تسعة عشر رجلاً جالساً معهم حول مائدة في وسط الحجرة ، وكان يعلو المائدة مصباح منير وكان مصباح آخر فوق أنبوبة البخار الذي يسخن الحجرة . فما لبثنا غير قليل حتى ارتفعت المائدة نحو قدم عن الأرض ، وأخذت ترتج وتضطرب إلى الأمام والخلف بالسرعة والسهولة التي أستطيع أن أحرك بها قدحاً بين يدي . فحاول بعضنا أن يوقفها وبذلوا لذلك منتهى ما تصل إليه قواهم ، فلم ينجحوا . فلم يسعنا إلا الابتعاد عنها ، ولم نكد نفعل ذلك حتى رأيناها على نور المصباحين صعدت مع ثقلها وتعلقت بالهواء . فغريت من ذلك الوقت على متابعة هذه الأبحاث ظاناً (تأمل) أني واهم أو مغشوش ، وآليت على نفسي أن أسعى في قشع ظلمات الخرافات

عن عقول الناس بفضح سر هذه الألاعيب . ولكني رأيت أن أبحاثي وتجاربي أدتني إلى نتيجة غير التي كنت أقصدها ، أي إلى التصديق بها واعتقاد أنها أمور روحية » .

ثم قال جبريل دولن :

« والذي يجب ملاحظته والالتفات إليه في كل هذه الشهادات التي يقدمها العلماء للناس، أنهم إنما ابتدأوا أبحاثهم وهم مجمعون جازمون بأن هذه المسائل كلها غش وتدليس ، وأنهم ما كلفوا خاطرهم ببحثها وتجربتها إلا لشفاء معاصريهم من هذا الداء الجنوني المعدي. قال الأستاذ مابس الامريكي الشهير ، مدرس الكيمياء في المجمع العلمي الأهلي في الممالك المتحدة : « لقد رفضت بادىء بدء هذه المسائل واحتقرتها ، ولكني لما رأيت أن بعض زملائي غرقوا في بحارها ، وهو على ظني سحر جديد عزمت على استعمال عقلي وقواي في بحث هذه المسألة بالدقة ،وغرضي من البحث نجاة رجال متنورين محترمين في كل ما هم فيه ، ولكنهم على زعمي كانوا على وشك الهوي من هذه المسألة إلى مهواة الغفلة والغباوة » . قال جبريل دولن : « فكانت نتيجة أبحاث حضرة الأستاذ مابس مثل نتيجة القاضي ادمون ، وهي الغرق التام في حياض الاسبرتزم .وقد حصل مثل ذلك للأستاذ روبير هار ، وهو من أشهر علماء أمريكا ومدرس في كلية بانسيلفاني فإنه بدأ في البحث سنة ١٨٥٣ ، وهو زمن كما يقول عن نفسه : «أحس فيه بوجوب استعمال كل معلوماته ومداركه لإيقاف هذا التيار الجارف ، تيار المسائل الروحية التي هي — كما كان يعتقد قبل اعتقاده بها — نزغة عامية ظهرت رغماً عن مقرارات العلم وقضايا العقل » .

قال جبريل دولن: « قبل أن يدخل الأستاذ روبير هار هذا في معمعان هذا البحث ،كان يعرف نتائج أبحاث الأستاذ فاراديه على الموائد المتحركة بنفسها ، وكان يظن أن ذلك الكيماوي الكبير قد وقف على علة تلك الحركات ، وفسرها تفسيراً مقبولاً ، ولكنه لما جربها وامتحنها بنفسه وجد أن تعليلات الأستاذ

الكيماوي ناقصة ، فأخذ في تكيلها باختراع الآلات وأدوات جديدة . فأخذ كرات بليارد مصنوعة من نحاس ووضعها على سطح مصقول من الزنج ، ووضع أيدي الواسطة على تلك الكرات ليتحقق من عدم استعمالها ليديها . فرأى وهو مندهش غاية الدهشة ، أنه رغماً عن ذلك الاحتراس تحركت المائدة واضطربت بدون فعل فاعل . عند ذلك رأى أن يغمس أيدي تلك الواسطة في الماء بصفة لا تستطيع معها أن تلامس السطح الموجود عليه الإناء الشامل للسائل . فلم يلبث إلا قليلاً على ذلك الشكل حتى رأى أن قوة تعادل ثمانية عشر رطلاً إنجليزياً حدثت على ذلك السطح من غير أثر مؤثر مرئي . فلم يقنع بذلك أيضاً فوجه أبحاثه وتجاربه وجهة أخرى. وذلك أنه أتى بميزان ذو حلزون له دليل متحرك ، وأتى بمعول حديدي ثقيل ، ووضع طرفه على مشبك الميزان ، فتأثر طبعاً بثقل المعول ، ووقف عند حد محدود . أما طرف المعول الآخر فركزه على سطح ثابت غير متحرك ، ثم أمر الواسطة بوضع أصبعها على ذلك الطرف أمام عينيه ، بطريقة لا تؤثر على وزن المعول ، ولو أثرت عليه لأنقصت وزنه . فلم يلبث الأستاذ حتى رأى أن المعول ازداد وزنه في الميزان جملة أرطال ، فاندهش غاية الدهشة وقضى بالعجب العجاب » .

«وسترى بعد قليل بأنه في مثل هذه الحالة صنع الأستاذ الكيماوي كروكس جهازاً يدل على كل تغيرات الميزان في أثناء العمل ، وذلك ليتقي غش مشاعره ولكي يكون البرهان مادياً محسوساً من كل وجه .

«ولما اعتقد روبيرهار بأنه يوجد في الوجود قوة طبيعية تظهر كما ظهرت له في شروط مخصوصة ، أراد أن يعرف ما إذا كانت تلك القوة متمتعة بعقل دراك أم لا . فصنع لذلك القصد دائرة كتب على أحد جهتيها حروف الهجاء جميعها ، وترك الوجه الآخر خالياً ، ووضع في وسطها إبرة تتحرك كإبرة الساعة لتشير إلى الأحرف المطلوبة على التوالي متى تحركت بأثر يقع عليها . ووضع هذه

الدائرة على المائدة بحيث أن وجهها المكتوب كان أمام المجربين ووجهها الخالي من الخط أمام الواسطة من الجهة المقابلة ، فتحركت الإبرة ودلت على الأحرف المرادة ، وتركبت بذلك جمل معقولة بدون علم الواسطة ولا تداخلها .

«كل هذه التفاصيل مكتوبة في كتاب ألفه الدكتور روبير هار وطبعه ونشره باسم (الأبحاث التجريبية على المشاهدات الاسبريتية) ، وكان له نجاح باهر في أمريكا أكبر من نجاح كتاب القانوني أدمون . لأن كتاب أدمون ربما يفسح مجال الظن لبعض الشكاكين بخلاف كتاب الأستاذ روبير هار ، فإنه بمثابة إقرار رسمي من العلم الرسمي عن لسان أحد أبنائه الذين لهم الحق في أداء مثل هذا الحكم .

«من هذا العهد نشبت الحرب العوان ، وصعد لهيب الجدل إلى العنان ، واشتبك بذلك العلماء فيما بينهم أخذاً ورداً ، وتمحيصاً وفحصاً ، ولم يستطع واحد من المكذبين أن يبرهن على أن ما فعل من التجارب (تأمل) غير موافق للشروط العلمية العملية . فبقي النصر في جانب المنتصرين للاسبرتزم.

«والخلاصة أن أكثر الداخلين في هذا المذهب هم الرجال الذين تمهدوا في مبدأ الأمر بدحضه وإقامة الأدلة الحسية على فساد مبناه وأصله . ولسنا في حاجة إلى زيادة الشرح في هذه النقطة فإن المسألة عينها حصلت في انجلتره . فإن رجال العلم الغيورين على صفتهم العلمية في هذه المملكة الأخيرة ، لم يريدوا أن ينهزموا أمام ما كانوا يعتبرونه وساوس عامية وخرافات جاهلية ، بل رموا بأنفسهم في لجة البحث والتنقيب . ولما أنسوا بأن نتيجة التجارب العلمية أدتهم إلى خلاف ما كانوا ينتظرون ، لم يجبنوا عن إعلان الحقيقة بدون خشية ولا خوف من الاستهزاء والسخرية ، وهما سلاحا الجهالة والتعصب الذميم .

« من بين الرجال العظام في امريكا الذين دخلوا إلى مذهب الاسبرتزم حديثاً (روبير دال أوين) ، الحائز لصفتين كبيرتين : أولهما كونه معدوداً بين العلماء العاملين ، وثانيهما كونه من فطاحل الكتاب المنشئين باللغة الإنجليزية. فإن كتابه الأخير الذي طبعه في فيلادلفي سنة ١٨٧٧ تحت هذا العنوان المبتكر « عثرات

على حدود العالم الأخـــروي » ، مفعم بالأفكار العالية والملحوظات السامية والوقائع المعلمة المهذبة .

«والخلاصة أن الحركة الاسبرتية في هذه الأوقات أحيا وأنشط منها في أي زمان كان . فإنك ترى في كل بلدة وعاصمة من عواصم أمريكا وبلادها جمعيات منتظمة متسعة دأبهـا وهمها البحث في المسائل الروحية وامتحان مشاهداتها وخوارقها . وبها نحو من إثنين وعشرين جريدة ومجلة تنشربين الناس لنقل أخبار وحوادث تلك الحركة المدهشة إليهم . ومجلة « بتراوف ليت » التي تطبـع في بوستون هنالـك من منذ إثنين وعشرين سنة ، هي الرائد الخبير للاسبرتزم في أمريكا . ومما يدل بأجلى دليل على قوة سير الحركة الاسبرتية في أمريكا ، هي الاجتماعات السنوية التي تلتئم سنوياً حـول شاطىء بحيرة « كساراجا » . فقد ابتنى الروحيون هنالك محلات تسع نحوا من عشرة آلاف نسمة ، ومع ذلـك فالزحام يشتد هنـاك لدرجة أن كثيرين من الوفود بعائلاتهم يسكنون الخيـام حول المدينة .

« كل هذه الأمور تثبت أهمية الحركة الروحية في أمريكا ، لا سيما وأن مثل هذه الاجتماعات تحصـل على شواطىء المحيطين الأتلانتيكي والهادي وجميـع البحيرات الامريكية . ولنضف إلى هذا أن جميع عواصم الممالك المتحدة لها جمعيات روحية ملتئمة منتظمة . وقد ثبت من الإحصاء الذي عمل سنة ١٨٧٠ (أي قبل ٣٣ سنة) أنه يوجد بأمريكا للروحيين عشرين جمعية للمملكة ، ومائة جمعية وخمسة جمعيات للروحيين أنفسهم ، ومائتا خطيب وسبعة خطباء ، واثنين وعشرين واسطة تحت طلب النـاس غير الوسطاء الخاصين . وقد نقل الأستـاذ الفيسيولوجي الإنجليزي روسل ولاس في كتابه « عجائب العصر الحالي » أن عدد الروحيين في أمريكا وحدها بلغ أحد عشر مليوناً » (فتأمل)[١] .

---

(١) في هذه الصفحات وفي الصفحات التالية (من ٣٢٩ حتى صفحة ٣٥٤) يعرض المؤلف ، ملخص لما قاله (جبريل دولن) في كتابه (الحادثة الاسبرتية) . حول (الاسبرتزم في العالم) . مع بعض تعليقات للمؤلف خلال عرضه لترجمة الكتاب — الناشر .

الفصل الرابع عشر

الاسبرتزم في العالم

الاسبرتزم في انجلتره

في إنجلتره خصوصاً ، يجد الإنسان ثلة من كبـــار العقول مشتغلة دائبة في درس الإسبرتزم والتعمق فيه .

وأول ما نبتدىء به من الشهادات على صحة هذا المذهب ، شهادة الأستاذ وليم كروكس الذي تغنينا شهرته عن سرد ألقابه الكثيرة وما له من الاحترام والإجلال في أفئدة العالم .

ولأجل الإدلال على بعض فضله يكفينا أن نقول أنه هو الذي اكتشف الجوهر يسمى (تاليـوم) ، وهو المقيم البرهان العملي على وجـود المادة الذي تخليها (فاراديه) قبله تخيلاً ، هذ الاستكشاف فتح للأبحـاث العصرية مجالاً فسيحاً في ميداناً واسعاً ، وأبعد مدى التأملات الإنسانية حتى يمكن أن يقال أنه من أكبر الاكتشافات التي حدثت في هذا القرن . لا جرم أن عقلاً مثل عقل الأستاذ كروكس لا يجازف بنفسه في مضمار مجهول بدون أن يكون قد [illegible] ما يخطر يفكر من أسباب الدقة ووسائل الوصول إلى الحقيقة مع الأمن من الخطأ والخطل .

إليك ما قـاله في شأن الاسبرتزم في فصل كتبه في المجـلة الانجليزية المسماة (كواترلي رفيو) في شهر يوليو سنة ١٨٧٠ « أي قبل ٣٣ سنة » :

« يقول الروحي أن جسماً يزن ٥٠ رطلاً أو ١٠٠ رطل يمكن أن يعلو في الهواء بدون أدنى قوة محسوسة ، ولكن العالم الكيماوي اعتاد استعمال ميزان حساس جداً بحيث أنه يشعر بثقل ما لو جمع منه عشرة آلاف ضعف لما زاد وزنه عن الحبة . فهو لا يطلب من تلك القوة المحتجبة التي تقول أنها عاقلة مدركة وترفع تلك الأجرام الثقيلة إلى السقف ، إلا أن تحرك ميزانه الحساس في شروط مخصوصة عند ما يكون في حالة التوازن .

« الروحي يتكلم عن طرقات تسمع في جهات مختلفة من الحجرة لما يجلس نفران أو أكثر حول مائدة في غاية السكون ، ولكن المجرب العلمي يود أن تلك الطرقات تحدث على غشاء فونوغراف .

«يتكلم الروحي عن اهتزاز وارتجاج حدث في غرفة بل على بيوت حتى أحدث فيها خللاً بواسطة قوة فوق قوى الطبيعة ، ولكن رجل العلم لا يطلب إلا تحرك كرة البندول الموضوع تحت ناقوس من زجاج ومرتكز على أساس ثابت .

« يتكلم الروحي عن أشياء ثقيلة وأنواع من أثاث البيوت تتحرك من غرفة الى غرفة بدون فعل فاعل ، ولكن العالم قد اكتشف عدة تقسم له العقدة الى مليون درجة وتراه يشك في كل ما تعمله تلك القوة المحتجبة ان لم تستطع أن تحرك دليل تلك الآلة درجة واحدة من تلك المليون درجة » .

«الروحي يتكلم عن سقوط أزهار مكللة بالندى وعن أثمار بل وعن كائنات حية أنفذت من خلال الحائط ، ولكن المنقب العلمي لا يطلب إلا وضع جزء من مليون من حبة على كفة ميزانه الحساس بينما يكون ذلك الميزان موضوعاً داخل وعائه الزجاجي المقفل ؛ والكيماوي لا يطلب الا إدخال جزء من ألف من حبة الزرنيخ في سائل موجود داخل أنبوبة محكمة القفل .

« الروحي يتكلم عن ظهور قوى تعادل ألوف من الأرطال بدون سبب مولد لها ، ولكن رجل العلم الذي يعتقد بأن القوة محفوظة وانه لا ينتج منها شيء في جهة الا بحدوث ما يقابلها في جهة أخرى ، لا يطلب من تلك القوى الظاهرة

إلا أن تحدث في معمله حيث يستطيع أن يزنها ويقيسها ويجري عليها الامتحانات اللازمة » .

وقال جبريل دولن عقب هذا مباشرة :

« من هنا يعلم بأي حذر واحتراس تقدم هذا العالم الكيماوي إلى بحث ما تصدى له من هذه المشاهدات . ولم يرد أن يجرب ما يجربه إلا في معمله الخاص حتى يكون واثقاً بأن لا غش ولا خداع في أقل حركة من حركات تجاربه العلمية ، وهذا هو العقل والحكمة .

« وكم بين هذا العلامة الجسور وبين علمائنا الفرنساويين من الفروق الجسيمة ، حيث أن هؤلاء الأخيرين ينكرون الاسبرتزم بدون دليل ولا برهان ! هذه الجملة التي نقلناها عن كروكس مكتوبة في سنة ١٨٧٠ ، ولكن هذا العالم بعد أن أمضى أربع سنوات متوالية دائباً وراء البحث والتجربة كتب سنة ١٨٧٦ يقول :

« أنا لا أقول أن هذا ممكن (يريد مشاهدات الاسبرتزم) ولكني أقول أنه ثابت محقق » .

وسترى بعد قليل ماهية التجارب التي أقنعت هذا العالم الإنجليزي .

«الجمعية الحديثة التي تكونت في لوندره سنة ١٨٦٧ تحت رياسة السير جون لبوك ــ هو الآن لورد افبري ــ والتي من وكلائها توما هنري هكسلي، وهو من أعلم علماء الإنجليز ، والمستر جورج هنري لويس الفسيولوجي الطائر الصيت ، قررت في جلستها المنعقدة في ٦ يناير سنة ١٨٩٦ بأن تتألف لجنة من أعضائها لدرس الحوادث الأسبريتية المزعومة وإعطاء الجمعية تقريراً عنها . فما حدث من الجدل والشغب لدى تقرير هذا العزم وإخراجه من القوة إلى الفعل يدل على أن أكثر الأعضاء كانوا مكذبين بالاسبرتزم ، وتلقت الجرائد الانجليزية هذا الخبر بالفرح والسرور ظانة أنها ستقضي على الاسبرتزم الحاضر القضاء الأخير . فلبثت هذه

اللجنة ثمانية عشر شهراً دائبة في فحص مشاهدات الاسبرتزم ثم قررت صحتها للملأ ، فلا تسل عن الدهشة التي عرت عموم الناس عند ذاك من سماع هذا الخبر.

« من بين الأعضاء الذين حضروا هذه التجارب العلامة الطبيعي الإنجليزي الشهير الفريد رسل ولاس، نديد داروين الشهير وزميله في أعماله، وقد كان قبل حضوره تلك الجلسة معتقداً بصحة الاسبرتزم .

« وقد ألف هذا العالم الكبير كتاباً شرح فيه اعتقاده وفكره في الاسبرتزم ولم يخش اللائمة، وسمى كتابه (عجائب العصر الحالي) كما فعل قبله الأستاذ مابس والاستاذ هار وكثيرون غيرهما.

« ومن ضمن الشهود الذين سمعت اللجنة أقوالهم في صالح الاسبرتزم الأستاذ اجوست دومرجان رئيس الجمعية الرياضية بلندره وسكرتير الجمعية الفلكية الملوكية . والمستر فارلي رئيس مهندسي قومبانيات التلغراف الدولي وما بعد المحيط الأتلانتيكي ، ومخترع مكثف كهربائي ، والذي توصل إلى حل غوامض مسألة التلغرافات البحرية .

«المستر دومرجان هذا قد أقر بعقيدته علناً بكتابه المسمى (فروم ماستر أوف سبريت) وسترى بعد قليل خطاباً من المستر فارلي المتقدم ذكره يشكر فيه الأرواح شكراً جهرياً .

« إن اجتماع آراء مثل هؤلاء الرجال المشاهير في صحة الاسبرتزم كاف في تقرير نظريته وتدعيمها تدعيماً ثابتاً ، ولكن في مثل هذه المواضيع العويصة يحسن بالإنسان أن يكثر من الشهادات عليها . فإليك شهادات أخرى :

«المستر أوكسون استاذ كلية « اكسفورد » درس في مدة خمس سنين مسألة الكتابة بلا واسطة ، أي الكتابة التي تحدث بنفسها بدون تداخل إنسان . وكتب في ذلك كتاباً سماه « سبريت ايدانتني» الذي سنستفيد منه في الجدليات التي ستلي هذا الموضوع .

- « ولننوه يضاً أباسم المستر باركاس ، عضو الجمعية الجيولوجية بنيوكاسل ، فلقد قص تجاربه الذاتية في كتاب مفيد جداً اسمه (اوتلينس أوف انفستيجيشن إنتو مودرن سبيريتواليزم) ، ولا يسعنا هنا إلا استلفات أنظار الذين يودون الاقتناع بصحة الاسبرتزم أن يقرأوا هذا الكتاب بامعان وروية .

« الحرب العوان التي قامت في إنجلتره من جراء المسائل الاسبريتية لم تكن بأقل حماسة وشدة منها في المالك المتحدة بأمريكا ، فلقد تألب أعداء الاسبرتزم هنالك أيضاً ، وجمعوا كل قواهم لهدم الأصول الجديدة، ولكن في تلك المملكة التي فيها حرية البحث محترمة مرعية ، والخوف من السخرية أقــــل تأثيراً على النفوس ، لم يتأخر الداخلون إلى مذهب الاسبرتزم من الاعتراف بعقائدهم علناً على رؤوس الأشهاد .

« من بين الشكاكين الجامدين جداً كان الدكتور جورج سكستون الخطيب الإنجليزي الشهير ، الذي كان شاهراً على الاسبرتزم حرباً عواناً ، ولكنه لما أكب على البحث خمس عشرة سنة رجع إليه واعتقده .

«وهناك عالم آخر الدكتور تشامبرس الذي عادى المذهب الجديد زماناً طويلاً رجع فأقر بصحة الاسبرتزم وكتب بذلك لمجلة (سبريتوال مجازين) .

«ولنضف إلى هؤلاء الدكتور جمس جللي مؤلف كتاب في الأمراض العصبية له شهرة فائقة، ومؤلف كتاب (قانون الصحة في الأمراض المزمنة) الذي يرحل إليه في انجلتره .

«مما مر بك ترى أن الاسبرتزم قد اجتذب من الناس العلماء الكبار . وقد أجرى هؤلاء العلماء على خوارق الاسبرتزم قانون العلم العملي وأسلوب الفلسفة الحسية ، فخرجت منه غالبة منصورة رغماً عن التجارب المتكررة التي أجريت في ذلك .

« منذ عشر سنين تألفت في إنجلتره جمعية إسمها (سوسيتي فور بسيشيكال روتشيرتش) غرضها توسيع دائرة البحث في الاسبرتزم على موضوع ظهـور

الأشباح . وقد نقلت بالترتيب في مجموعتها المساة (بروسيدنجس) حـــكاية مشاهداتها ، وكتبت كتاباً في ذلك إسمه (أشباح الأحياء) فيــه سرد مائتي حادثة ثابتة لا يشك فيها .

«وقد نسب هذه الحوادث (ميرو جورني وبودمور) مؤلفو هذا الكتاب إلى (التليباتيا) أي تأثير الروح الإنسانية على إنسان آخر عن بعد ، فالشبح الذي يظهر في تلك الحالة يسمى (خيال صادق) . وهذا كما لا يخفى محاولة علمية ، الغرض منها تسرية القوانين الطبيعية المعروفة على المشاهدات الاسبريتية .

«فاكتسب الاسبرتزم من هنا صبغة جديدة، وقد رأينا عالماً من كبار العلماء مثل لودج الملقب بداروِن علم الطبيعة ، يلح على الجمعية العلمية الإنجليزي لترقية العلوم بضرورة التقدم للأمام والالتفات لهذه المسائل الاسبريتية الآسرة الباهرة الجديرة بالدرس والفحص الواجبين .

«ويمكننا أن ننوه من بين سائر الجرائد الإنجليزية الكثيرة باسم مجلة (ذي ليت) التي يديرها المستر اكسون ومجلة « ذي مديوم نددبيريك » . لنمسك القلم هنا ولننظر فيما حصل في فرنسا .»

★

٢ ـــ الاسبرتزم في فرنسا

تابع ما قبله من تعريب مقالة جه دولن

«صدى صوت المشاهدات الخارقة للعادة التي كانت تحصل في أمريكا أحدثت في فرنسا ميلاً شديداً إلى الوقوف على أمرها ، ولم يمض غير قليل حتى أصبح أمر سؤال المادة منتشراً بين سائر الطبقات انتشاراً عجيبــاً . فكنت ترى « الموضة

الجديدة » في الصالات هي إلقاء الأسئلة التافهة جداً على الموائد المتحركة ، حتى صارت تلك المسألة تسلية في أوقات الفراغ ونشبت بالأذواق نشوباً جنونياً .

« مضت سنتا ١٨٥١ و ١٨٥٢ ولم يرَ أحداً في مسألة الاسبرتزم إلا ألعوبة ظريفة ، ولم يكن أحد ليسلك بها مسلك الجد والنظر العلمي ، ولما كان الناس يجهلون ما بذل فيها العلماء من العناية فيما وراء المحيط الأتلانتيكي زهدوا في استعمالها وهجروها ، لأنها لم تكن بالنسبة للجماهير إلا شيئاً جديداً فقط .

« ومع ذلك فقد كان بعض المنشئين مثل أوجين نو وبعض رجال المظاهر مثل الكونت دوريس والبارون دو جولدنستوبيه ، التفتوا إلى أن المائدة في أثناء حركتها إنما تتحرك بعقل وروية ، فكتب الأخير كتاباً سنة ١٨٥٧ سماه « صحة ظهور الأرواح ». وفي هذا الكتاب ترى التجارب الأولية التي أجريت في بلادنا على الكتابة بدون واسطة .

«هذا المؤلف لم يحدث أثراً كبيراً في عالم المطبوعات ، فقد قابلته الجرائد على عاداتها المذبوحة (تهكم) بالسخرية ببعض أولئك الرجال الذين ثبتوا في فحص هذه المسائل المفيدة ، وركد ريح المسألة الاسبريتية بعد ذلك حتى ظهر « كتاب الأرواح » لمؤلفه الشهير اللان كاردك ، فاشتعلت الحرب العوان بين رجال الأقلام ، ورأى الناس أجمعون وهم في غاية الدهشة والاستغراب أن ما كانوا يعتبرونه قبل قليل من الزمن ألعوبة مسلية قد أنتج أكبر النتائج الفلسفية ، وأنه قد نشأ من تحرك المائدة البرهان المحسوس على خلود الجزء المفكر من الإنسان ، وان النوع الإنساني بذلك أصبح أمام علم جديد بمستقبل الروح بعد الموت .

« هذه المسائل الكبرى لا يمكن أن يقبلها جمهور الناس بدون جدال ونزاع ، فقابل الناس هذا المؤلف المجازف بصيحات مزعجة من كل مكان . وواجهته الجرائد والمجامع العلمية بالاعتراض والتبكيت ، ولكن من حسن حظ بلدنا فرنسا ، لم يحصل للاسبرتزم ما حصل له في أمريكا من المشاهد الخشنة والمواقف القاسية .

« لم تكد تظهر مسألة الموائد المتحركة ثانية في فرنسا حتى انقسم أصحاب الفكر فيها إلى قسمين : قسم حكم بأن تلك المسألة أكذوبة محضة من أصلها ، وأن حركة المائدة نتيجة التدليس والغش ، أو نتيجة حركة غير اختيارية ناشئة من المجربين . وهذا كان رأي جمعية العلوم ، ورابينيه ، و شفرول ، وسندرس بعد قليل ما يحتويه هذا الرأي من صلاح أو فساد . والقسم الثاني قرر بأن حركة المائدة وإجابتها على الأسئلة المختلفة نتيجة فعل مغناطيسي ذي تأثير خاص لا يزال مجهولاً . ومن القائلين بهذا الرأي ، الكونت أجينور دوجا سباران الذي له الأبحاث الدقيقة في هذا الشأن وصاحب كتاب : « الموائد المتحركة — ما وراء الطبيعة والأرواح » .

« هذا التعليل الأخير قبله وجرى عليه عدد من الكتاب مثل شفيار ، أما الأستاذ توري من جنيف ، فقد علل هذه الحوادث بعامل خاص بها سماه « بسيكود » وهو سيال يخترق الأعصاب وكل المواد العضوية وغير العضوية مثله في تلك الخاصية كمثل الأثير الذي اخترعه العلماء . وعللها المستر روجرس ، وهو كاتب أمريكي ، بأنها نتيجة الحركة الذاتية للمراكز العصبية الخ ...

«كل هذه الأبحاث وكل هذه المجادلات أوصلت المشتغلين بهذه المسألة للجزم بأن هذه التعليلات غير كافية ، وأنه يوجد عامل آخر في حدوثها . فالتجأوا لقبول الرأي القائل بوجود القوة النفسية وإمكان تأثيرها على المادة في شروط مخصوصة . ولكن هنا أيضاً انقسم الناس إلى جزءين : حزب الفلاسفة الروحيين ، وهؤلاء حكموا بأن تلك الحوادث منشأها أرواح الموتى ؟ وحزب الكتاب الدينيين ، وقد قرروا بأن تلك الحوادث لا مصدر لها الا القوة السفلية ، قوة الشيطان نفسه . ومن بين القائلين بهذا الرأي الأخير كان المركيز أودد ومير فيل ، الذي سرد في كتابه « الأرواح وظهورها » عدداً عديداً من مشاهدات ونسبها لإبليس . وقال بهذا الرأي عينه الشفاليه جوجنو ديه موسو ، وسمى الاسبرتزم السحر الحاضر ، وبرهن هو والقس فنتورا من الكتاب المقدس على أن ظهور

الجنة للناس منصوصة في الإنجيل نفسه، وذكرها كثيرون من قسوس الكنيسة. وهنا يجمل بنا أن ننوه بكتب القس بوسان دونيس والقس مارسوا اللذين كانا يذهبان هذا المذهب .

« كل هذه الاختلافات المذهبية بإزاء هذه المسألة ليست بالأمر المستغرب ، فإن التخالف والنزاع أمام مسألة مجهولة كمسألة الاسبرتزم ، وذهاب كل حزب في تعليلها على مقتضى الأسلوب الفلسفي في مذهبه أمر طبيعي ، ولكن لا يخطر على فكر عاقل أن يتخيل تعليلاً عجيباً مضحكاً مثل التعليل الذي أتت به جمعية العلماء الفرنساوية بشأن تحرك الموائد في جلستها المنعقدة في سنة ١٨٥٩ . فقد اكتشفت جمعية العلوم الطبية وتراً في الفخذ يتحرك بصوت مرتفع في بعض الأحيان ونسبت إليه ما يظنه الروحيون في جلسات التحضير حوادث روحية آتية من العالم الآخر .

«وجد هذا التعليل الغريب جوبير دولمبال فلم يسع الجمعية العلمية إلا تحبيذه والإطراء به لوجدانه في شحم ساق الإنسان ، هذه الخاصية غير المنتظرة . ولكن جمهور الناس لم يعلق أدنى أهمية على هذا التعليل التافه . وليس علينا من حرج في إشهار اسماء كثير من العظماء الذين قبلوا الاسبرتزم في فرنسا قبولاً تامـاً .

« كتب أوجست فاكري في كتابه «فذلك من التاريخ» بلهجته الحادة الشجية ، التجارب التي جربها هو ومدام جيراردان في بيت الشاعر الكبير الفيلسوف فيكتور هوجو . وسترى بعد قليل حكاية تلك التجارب مكتوبة بقلم ذلك المنشىء الطائر الصيت الذي تؤثر عنه هذه الكلمة الجميلة : « أنا أصدق بوجود الأرواح التي ظهرت في أمريكا وأسمعت الناس قرعاتها لشهادة خمسة عشر ألفاً من الناس في صحة ظهورها » .

« أما أكبر شعرائنا العصريين فيكتور هوجو ، فقد قال في موضع آخر : « لقد استهزأ الناس كثيراً بالموائد التي تحركها الأرواح ، ولكن مما لا شبهة فيه

أن هذا الاستهزاء لا طائل تحته . — فإننا نعرف أن من واجب العلم سبر غور كل الحوادث الطبيعيـة من أي نوع كانت . وأرى أن تجريد الاسبرتزم من مزية استلفات الأنظار التي هو أهل لها ، يعادل في نظرنا تجريد الحقيقة من حقوقها». (انتهى كلام هوجو) .

« المسيو فيكتوريان ساردو[1] قد اعتقد بالاسبرتزم وصار هو نفسه واسطة تستعمل الأرواح يده في الرسم والتصوير على غير إرادة منه . وقد نشرت المجلة الروحية سلسلة رسوم جميلة رسمتها الأرواح بواسطته وهو مستسلم لهـا تمام الاستسلام ومعطل إرادته تمام التعطيل . وتلك الرسوم والتصاوير جاءت قطعاً باهرة الصنع من حيث الرقة والإتقان الروحاني الحقيقي .

«وقد كتب المؤرخ أوجين بونمير :

« لقد استهزأت بالاسبرتزم كما استهزأ به الناس أجمعون من قبـلي ، ولكن الأمر الغريب أن الاستهزاء الذي كنت أعده استهزاء « فولـتريا » لم يكن في الحقيقة إلا استهزاء المغفل الأبله ، وهذا الاستهزاء الأخير أكثر شيوعاً بـين الناس » .

« الحركة الاسبريتية اليوم هي أحيا وأنشط مما كانت عليه قبلاً في فرنسا . وقد تكونت في باريس جمعية المباحث النفسية التي تكونت في لوندره ، تدعى جمعية المباحث « البسيكيولوجية الفزيولوجية » أي النفسية التشريحية ، الغرض منها درس حوادث « التليباتيا » ، أي ظهور الأشباح . وعينت هـذه الجمعية لجنة منها لانتقاد الحوادث التي تقدم إليها من هـذا القبيل . إليك أسماء أعضاء تلك اللجنة :

١ — سللي برودوم « من الجمعية العلمية الفرنساوية » وهو رئيس اللجنة .

٢ — ج. باليه « أستاذ منتخب من جمعية العلوم الطبية » .

---

(١) فيكتوريان ساردو هذا من أشهر مشاهير كتاب الفرنساويين في القرن العشرين .

٣ – بوميه « أستاذ في الكلية الطبية بمدينة « ناسي » .
٤ – شارل ريشيه « أستاذ بالكلية الطبية » .
٥ – الكولونل دورروشاس « مدير المدرسة الهندسية الفرنساوية » .
٦ – ماريلليه « أستاذ بمدرسة العلوم العالية » ، وهو كاتم سر اللجنة ، وللجمعية مجلة شهرية تسمى « أنال بسيشيك » يديرها الدكتور داريكس ، أسست لنقل مباحث تلك الجمعية ونشرها .

«تكون هذه الجمعية من هؤلاء الأعضاء بمثابة الإقرار عليها من جهة العلم الرسمي» ، ولكن الاسبريتيون الفرنساويون لم ينتظروا هذه التشجيعات فكوّنوا من عهد بعيد لأنفسهم عدداً عديداً من الجمعيات في جميع أنحاء المملكة الفرنساوية .

يوجد في باريس عدد عظيم من جمعيات صغيرة يحضرون فيها الأرواح ،ولكن هناك جمعيتان عموميتان وهما « المجمع الروحي » نمرة ٥٥ بشارع ساتودو ، و « جمعية الاسبرتزم العلمي » نمرة ١٨٣ بشارع سان دونيس .

أما في أقاليم فرنسا ، فنستطيع أن ننوه من بينها باسم « المجمع الاسبريتي الليوني » ، ولهذه الجمعية مجلة تدعى « السلم العام » ، و « المجمع الاسبريتي بريمس » ، و « المجمع الاسبريتي برون » ، تظهر أعماله كل ثلاثة أشهر منشورة في مجلة « فكر الموتى » .

أما مدائن مارسيليا ، و أفينيون ، و تولوز ، و بوردو ، ونانت ، و تور ، ولومان ، وأورليان ، و لي ، و باولودوك ، ونانسي ، و رين ، و بيزانسون ، فلها مجتمعات مؤسسة على قواعد ثابتة وبواسطتها يزيد عدد الروحيين وينمو يوماً بعد يوم . أما أشهر المجلات الفرنساوية الأسبريتية فهي :

«١» المجلة الروحية «٢» المجلة العلمية الأدبية للاسبرتزم . «٣» الترقي الروحي . «٤» النور . «٥» الديانة بلا كنيسة . «٦» مجلة أتباع سويدا نبورغ . «٧» منار نورماندي .

«سبب انتشار هذه الحركة الروحية في فرنسا هو المؤتمر الاسبريتي الذي التئم في باريس سنة ١٨٨٩ . وقد كتب في خلاصة أبحاث هذا المؤتمر أن عدد أعضائه بلغ أربعين ألف عضو (٤٠٠٠٠) وكان فيه مندوبون من كافة المجامع الاسبريتية.

«سنرى بعد قليل أن الحركة الروحية التي نشأت تحت سماء أمريكا لم تبلغ أوربا فقط ، بل تعدتها إلى سائر أرجاء المعمور.»

★

٣ — الاسبرتزم في ألمانيا

تابع ما قبله من تعريب مقالة ج . دولن

«الدكتور كيرنير ، الذي هو أحد أراكين المعارف في ألمانيا الحالية ، شاهد في سنة ١٨٤٠ بعض حوادث روحية وهو يعالج مدام هوف التي تعرف «بعرافة بريفورست» ، وبريفورست هذه هي قرية من ورتامبرج التي ولدت فيها هذه المرأة في أوائل هذا القرن .

«يقول هذا الدكتور إن هذه المرأة كانت تشكو كثيراً من رؤيا أشباح بحيث لا يمكن عد حالتها هذه في عداد أحوال الخلل العقلي ، لأن من كان حاضراً معها كان يسمع بغاية الوضوح والصراحة قرعاً يحدث على حواجز الغرف ، أو يرى معها أن بعضاً من أثاثات البيت تنتقل أمامهم بدون فاعل منظور من مكان إلى مكان آخر .

«أما لقب «عرافة» التي ألصق إلى اسمها، فأتى إليها من كونها كانت تنذر أهلها بالأخطار التي تكاد تنزل بهم ، وكانت الحوادث تصدق دائماً ما تنذرهم به تمام التصديق .

«حوالي سنة ١٨٤٠ ظهرت أيضاً في موتنجن (ورتامبرج) حوادث روحية، ومن عهد هذا التاريخ أخذ الناس يشاهدون آنا بعد آن حوادث من هذا القبيل ،

كظهور أشباح أو سماع أصوات ، أو مكالمات تدل بلا شك أنها آتية من عـالم الأرواح . هذه المشاهدات على ما بها من الوضوح والبيان لم يكن لها أهمية حتى ظهرت تلك الحادث الأميريكية فأحدثت في ألمانيا مثل تلك الحركة التي أحدثتها في فرنسا وكونت لها تياراً خاصاً من الأفكار العمومية . نحن لا يمكننا أن ندرس هذه المشاهدات بالتفصيل،فلنكتف بسرد أسماء رجال العلم الذين اعتقدوا بها وأعلنوا أبحاثهم فيها .

« في مقدمة تلك الأسماء نضع الفلكي الشهير « زولنر » ، الأستاذ بكلية « ليبزيج » ، هذا العالم ألف كتاباً سماه « أوراق علمية » سرد فيه التجارب التي أجراها مع الواسطة « سلاد » وأقر بأنه واجه ذلك البحث وهو يائس من حقيقته غير مجوّز إمكان حصوله، ولكنه أرغم على الاعتقاد في صدقه بالتجارب الصادقة والحوادث الغالبة . وسنرى فيما يلي من هذا الكتاب أنه اكتشف على أمور جديدة في الروحيات ، كإمكان دخول المادة من خلال مادة أخرى بدون أن يستطيع الإنسان أن يرى أثر انحلال المادة التي حصل فيها التداخل. كتداخل حلقة ممتلئة في ساق مائدة بدون أن تشاهد أثراً من أي كسر كان .

«هذا الأستاذ من الذين يعتقدون أن هذه الأعمال منسوبة لتأثير أرواح الموتى على المادة ، ولأجل أن يعلل تأثيرهم هذا تخيل أن للمادة بعداً رابعاً .

شهادة هذا العالم على التجارب الروحية مستندة بشهادة ويبر، وهو الأستاذ التشريحي الكبير ، والأستاذ فيشنر الذي أصبحت أبحاثه على القوانين الحساسية الإنسانية عماداً يعتمد عليها في العالم العلمي، وبشهادة الاستاذ أولتريسي أيضاً .

هذه ثلة من رجال مشاهير وأساتذة أعاظم تثبت للناس علناً صحة هـذه الخوارق .

«هنا يجب علينا أن ننبه على أمر جدير بالتنبيه عليه وهو أن هذه الحوادث الروحية خاضعة من أول ظهورها لأسلوب البحث النقدي القاسي جـداً ، وبأشكال مختلفة وبواسطة مجربين متنورين وغاية في المهارة ، ومع ذلك فرغماً

عن أن هؤلاء المجربين من الذين لا يعتقدون بشيء في مبدأ أمرهم ، فقد استحال أمرهم إلى الاعتقاد بالاسبرتزم ، وصاروا حماة لبيضته ، وأنصاراً لحقائقــه . أليس هذا أعظم البراهين على أن الاسبرتزم حقيقة ثابتة في ذاته وأن المشاهدات التي يرتكز عليها غير قابلة للنقض ؟ .

أما مجلات ألمانيا ، ففي مقدمتها جرنال « الاسفنكس » ومجلة (بسيشيش ستوديان) » .

★

٤ ــ الاسبرتزم في أرجاء أوروبا

تابع ما قبله من تعريب مقالة جـ . دولن

« يجدر بنا أن نضع في مقدمة أسماء أنصار الاسبرتزم في الروسيا ، الأستاذ بوتليرو الذي كرر وأعاد تجارب الأستاذ كروكس الإنجليزي بواسطة الواسطة « هوم » . ونضيف إليه إسم المستشار ألكسندر اكزاكوف ، وهو من العلماء الذين برعوا في فحص مسألة تجسد الأرواح . وسيكون لنا مجال واسع لإيراد أبحاثــه التي تؤيد وتؤكد أبحاث الطبيعي الشهير الإنجليزي كروكس ، بالنسبة لحقيقة تلك الأرواح المتجسدة .

« ولقد حدث في الأيام الأخيرة مظاهرة كبرى في صالح التجارب الروحية ، فإن الأستاذ اركول كيابا من نابلي ، كرر بواسطة الواسطة الشهيرة « اوزابيــا بلادينو » كل المشاهدات العالية للاسبرتزم مثل جلب الأشياء من أماكنهــا ، وتجسد الأرواح ، وارتفاع الأجسام إلى مسافات في الهواء الخ .. ونشر أبحاثه فانتقدها عليه العلامة البحاث في الجرائم لومبروزو .

« فلم يسع الأستاذ كيابا أمام هذا الانتقاد إلا أن أعاد تجاربه كلها أمام الأستاذ لومبروزو نفسه ، ليكون برهانه أشد إفحاماً له . ثم توالت جلسات تحضيرية

كثيرة في أواخر سنة ١٨٩١ كانت نتيجتها كما كانت في أمريكا وإنجلترة وفرنسا – إثبات حقية المشاهدات الروحية –. ولقد استطاع الأستاذ لومبروزو أن يرى بالحس في جملة مرار ، هو والأساتذة تامبوريني وفيرجيليو وبيانكي وفيزيولي أن مشاهدات الاسبرتزم حقة لا غبار عليها . ولكنه لا يذهب في تعليلها مذهب الروحيين بنسبتها إلى أرواح الموتى ، بل عللها بتعليل آخر لا يفسر كل تلك الحوادث كما ستراه في هذا الكتاب .

« لا شك أن لومبروزو متى تعمق في هذه المسائل في مدة توازي المدة التي درسها فيها الأساتذة ولاس وكروكس أو فارلي ، يلتجىء لتغيير فكره عليها . فإن هؤلاء العلماء الأعلام الذين تقدموه كانوا في مبدإ أمرهم مثله ، يعتقدون حقية المشاهدات وصدقها ، ولكنهم لا يعزونها للأرواح بل إلى تأثير روح الواسطة ذاتها ، ولكنهم بعد شدة البحث والتحري رجعوا فاعتقدوا نسبتها إلى أرواح الموتى .

«في مقدمة الصحافة الإيطالية توجد مجلة «لوكس» وهي شهرية تنقل أبحاث المجمع العلمي الاسبريتي المغناطيسي في روما . ومجلة « لاسفنج » يديرها المسيو « انجر » و « فيسيو سبيريتيستا » التي يديرها المسيو فولبي .

أما في هولانده فالمجلة التي تدافع عن الاسبرتزم هي « أوب جريزن » وتنشر في مدينة لاهيه .

أما في بلجيكا ، فالحركة الاسبريتية في نشاط وحياة كتلك الحركة في فرنسا . فإن مدينتي « لييج » و « بروكسل » هما مركزان نشيطان لنشر لمبادىء الاسبريتية . ويوجد بها جمعيات مركزية تتركز فيها أعمال سائر لجمعيات الفرعية ، ولها مجلتان « لوميساجيه » و « لومونيتور سبريت » تنقل وتنشر الأبحاث والمشاهدات التي يتحصل عليها الباحثون . ويحدث في بلجيكا خطب كثيرة في صالح الاسبرتزم ، وتظهر كتب ورسائل توزع مجاناً كان من

نتائجها أن بلغت آثارها أحواض مناجم الفحم الحجري ، وأصبح المعتقدون بها من العمال يعدون بالألوف .

« أما في السويد ، فللاسبرتزم مجلة إسمها « مور جندو مرنجن » تنشر في كرستيانيا .

« أما في اسبانيا ، فالحركة الاسبريتية أنشط فيها مما هي في أي بلد من بلاد العالم ، وعدد الاسبريتيين أكثر إذا نسبوا لعدد السكان مما هم عليه في أي مملكة أخرى ، ففي كل مدينة من مدنها تجد جرائد ومجلات تابعة لجمعيات في غاية النظام . من بين تلك المجلات الشهيرة « مجلة الأبحاث النفسية » في برشلونه وعمرها الآن ٢٣ سنة . يديرها الآن الفيكونت توريسولانو ، وهو بحاث وعالم نزيه . ومجلة « الكريتيريو أسبيريتيستا » تطبع في مدريد. ومجلة « لوز ديل بروفنير » في ليريدا . مجلة « رفيلاسيون » اليكانت الخ ...

« أما في أستريا ، فقد كان الاسبرتزم قبل بضع سنوات ليس له أهمية فيها ، ولكن التجارب التي تمت على يد الارشيدوق رودولف مع باستيان،وهو واسطة للتجسيد، وجهت أنظار الناس أجمعين إلى تلك الحوادث، وإن كان قد اكتشف في أثناء تلك التجارب على شيء من الغش والتزوير، أما الآن فإن عدد الروحيين في أستريا قد ازداد زيادة عظمى ، ويمكننا أن نذكر من بين مجلاتها الاسبريتية مجلة « ريفورميدن يلاتير » التي تطبع في بودابست . أما في البرتغال فيشخص المذهب الاسبريتي فيها مجلة « أو بسييزمو » التي تطبع في ليسبون » .

★

٥ ــ الاسبرتزم في العالم كله

تابع ما قبله من تعريب مقالة جـ . دولن

« يمكننا أن نقول بلا أدنى خشية من التكذيب، أن للاسبرتزم اليوم أنصار وأعضاداً في كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية . ولأجل أن لا نطيل الكلا

في هذا الموضوع، لكيلا نخرج عن حد الاعتدال نكتفي بذكر الممالك التي يطبع فيها جرائد إسبريتية ، إذ لا يخفى أنه لولا وجود ناس يعتقدون وجود الأرواح ويصدقون بمذهبها لم تكن لتوجد تلك المجلات . فيمكن للمطالع أن يدرك كنه خطورة الحركة الاسبريتية في العالم بعدد المجلات التي تدافع عنها وأنشئت من أجلها منذ ٤٠ سنة[1] .

«في جمهورية ارجنتين يطبع فيعاصمتها ريودوجانيرو مجلة «لورو فورمادور».
وفي مملكة بارانا يطبع ثلاث مجـــلات . وفي لوز تطبع « أوريجينير أدور » و « ريفيستا اسبيريتستا » ، وفي مدينة سان بولص دولواندا تطبع مجلتا « فيردال » و « لوذ » .

وفي مملكة شيلي يطبع في مدينة سانتياجو مجلة « الباان ديل اسبريتو » .
وفي مملكة بيرو تطبع في ليما مجلة « السول » .

وفي جمهورية سان سلفادور تطبع مجلة « الاسبريتيزمو » في مدينة شالشوابا.
وفي مملكة فينزويلا تطبع مجلة « الاريفيسنا اسبريتيستا » .

وفي مملكة المكسيك يطبع في مدينة مكسيكو مجلة « لا ايللوستراسيون اسبيرتيا».وفي مدينة سيزيولا ومملكة مازالتان تطبع مجلة« ال بريكورسور».

وتطبع في جزيرة كوبا أربع مجلات ، « لا البورادا » في كوبا ، ومجلـة « لايونانويفا » في مدينـة بورتوريكو ، ومجلة « لاريفيستا اسبريتيستا » في مدينة هافانا ، ومجلة « لانويفااليانزا » في مدينة سينفويجوس .

وفي جزائر كناريا تطبع مجلة «لا كريداد» في مدينة سانتا كروذدوتنيرلف.
وفي استراليا يطبع في مدينة ملبورن مجلة « ذيهاررببنجراوف لايت » .

---

(١) إننا لن ننوه هنا إلا عن أشهر المجلات في كل مملكة لأنه من الممل اعطاء جـدول بأسماء سائر الجرائد التي تطبع في العالم فإنها كثيرة جداً . (المؤلف)

«ولنضف إلى ذيل هذا الفصل أن جريدة (المجلة العلمية الأدبية للإسبرتزم) التي ندبرها نحن،لها مراسلون من رؤساء جمعيات إسبريتية في كندا، و السويس ، والقاهرة ، وجزيرة موريس ، و بورينيو » .

★

موجز ما سبق

« لقد تقرر مما سردناه آنفاً ، أن ملايين من الناس يعتقدون الآن في صحة المذهب الروحي . وأن الحركة التي تولدت في أمريكا قد سرت إلى سواهـا من الممالك بسرعة لم يعهد لها شبيه . وأنه ليوجد اليوم نحو من مائة وخمسين جريدة أو مجلة تنشر للجمهور أخبار هذه النظريات الجديدة ، وأن أعمـال وتجارب العلماء الذين ذكرنا أسماءهم قد ترجمت إلى كل لغـات العالم على سطح البسيطة ، وقد كانت نتائجها أن نشرت في أرجاء العالم الأرضي هذا الخبر السار ، خبر خلود الجزء المفكر من الإنسان وعدم فنائه بالموت .

«ولقد أخفق مسعى العلم الرسمي ، ومجامع العلم في تآمرها على الصمت المطلق بإزاء هذه الحوادث ، فإن الحقيقة أقوى من كل المؤامرات . ولقد تغلغلت هذه الحوادث في الدنيا بأسرها ،واكتسبت أعضاداً وأنصاراً من كل قبيل، ولا تزال تكتسب للآن. فلا الجرائد بسخريتها واستهزائها، ولا الكهان بجلبتها وتذمرها ، ولا الماديون بتبكيتها وسبها ، يستطيعون صد هذه الدفعة الإنسانية التي تدفع الإنسان لاكتشاف معلومات حقة يؤكد بها عقيدته في حياته المستقبلة .

«رغماً عن سوء نوايا العلماء الرسميين ، وأمراء العلم الذين يهدم لهم الاسبرتزم نظرياتهم الظلمانية العدمية ، لا يرد على فكر عاقل بأن هذه الحوادث الاسبريتية الخارقة للعادة ، ليس فيها ما يستلفت النظر أو يوجه إليها العناية ، بل أن موضوعها الذي تبحث عنه هو من الخطارة والجلالة ، بحيث استلفت نظر الناس أجمعين في جميع أدوار التاريخ الإنساني .

«لقد صيغت النظريات؛ وبنيت المذاهب قديماً وحديثاً، ولم تكسب نظرية خلود النفس الدليل القاطع ، أما الآن فقد فتح علينا بالوسيلة لدرس مسألة بقاء الروح بعد الموت درساً علمياً ؟ ولم نكن لنحصل على هذا الفتح لولا تداخل الأرواح في شؤون هذا العالم ، وسترى أن الحوادث والمشاهدات التي يرتكز عليها المذهب الاسبريتي هي أوضح وأقوى الأدلة لإثبات خلود الروح الإنسانية بعد الموت .

« قبل أن نختتم الكلام نقول: من المستحيل أن تكون هذه الحوادث الاسبريتية نتيجة الغش والتزوير أو الضلال الفاحش ... :

أولاً — لأن هذه المشاهدات درسها وفحصها أعاظم رجال العلم ـ كما رأيت ـ وأن هؤلاء الكيماويين والطبيعيين هم أجدر الناس وأولاهم بمعرفة سلامة الدليل أو فساده فيما يتعلق بسببية الحوادث .

ثانياً — لأن هذه المشاهدات قد روقبت مراراً عديدة جداً بواسطة مجربين ومراقبين مستقلين ، وكانوا لا يصدقون بشيء في مبدأ أمرهم ، ولم يكن بينهم وبين المجربين أمثالهم أدنى علاقة من تعارف، وقد جاءت نتيجة كل تلك الأبحاث متشابهة متحدة في كل بلد من بلاد العالم .

ثالثاً — لأن كل هذه الحوادث في مظاهرها الرئيسية واحدة في جميع بلاد العالم ، الأمر الذي يدل على أن سببها كلها واحد .

رابعاً — أخيراً إنا نعتقد أن مجموع كل هذه الشهادات ومقامها وصحتها هي من الخطارة بحيث يستحيل دحضها مجاناً بدون بحث دقيق .

« هذا ما سنحاوله في هذا الكتاب، وذلك أننا سنستعرض حوادث الإسبرتزم أمام القارىء ، وسنوجه إليها مسبار البحث والتمحيص من كل جهاتها، وسنورد كل التعليلات التي عللت بها بغاية الحرية والصراحة ، ومع ذلك كله فأملنا وطيد

في أن القارىء سيرى التعليل الروحاني هو التعليل الشافي لرسيس الصدر الناقع الغلة النفس ، المفسر لكل تلك العجائب الخارقة للعادة» — (انتهى تعريب مقال ج . دولن) .

★

نقول : هذه مقالة طويلة الذيول افتتح بها الكاتب الاسبريتي الطائر الصيت جبريل دولن كتابه المسمى (الحادثة الاسبريتية) الذي طبع خمس مرات لغاية سنة ١٨٩٧ ، وغرضنا من نقل هـذه المقالة إقامة الأدلة الساطعة على أن قادة الاسبرتزم اليوم هم قـادة العلوم العصرية في أوربا ، وأن من الجسارة التي لاتخطر بالبال أن يتهم هؤلاء الرجال العظام الذين لهم أكبر الآثار في نهضة النوع الإنساني ، بالجنون والهوس وعدم الروية والطيش ، ولئن صح ذلـك على فرد أو فردين أو عشرين فرداً في بلد أو بلدين أو عشرين بلداً ، وراجت خزعبلاتهم على عقل أو عقلين أو ألفي عقل ، وضرب على وترهم مجلة أو مجلتان أو عشرون مجلة مثلاً ، فكيف يعقل أن يبلغ عـدد أولئك العلماء الألوف المؤلفة في جميع أنحاء الكرة الأرضية ، كما أريناك ذلك في هـــذه المقالة ، وكيف تروج خزعبلاتهم على نحو العشرين مليوناً من الرجال ، ما بين سياسيين وكتاب ومحامين وأطباء ومهندسين ، ومنهم غلادستون الإنجليزي وبالفور رئيس وزارة الانجليز الحالية ، وغـيرهم من أهل الفطن والذكاء ، وإذا أمكن أن يدعي الإنسان — وهو لم يقرأ في ذلـك الموضوع كتاباً ولم يجرب فيها تجربة بسيطة — أن ضلة من الضلات تنطلي على كل هـذه العقول القوية ، وتلين من تلك الشكائم الحديدية ، وترغم هاتيك المعاطس العتية ، فلا يبعد أن يدعي أنه لا عاقل في الوجود غيره وكفى بهـــذا الادعاء مسقطاً لقوله .

نحن نقول على رءوس الأشهـاد أننا لانعتقد بـأن الذي يظهر في أوروبا في جلسات التحضير من الاشباح المتجسدة وغيرها أرواح الموتى ، كما يقوله السواد الأعظم من الروحيين ، ولكننا نعتقد تمام الاعتقاد بظهور تلك الأشباح وبأنهـا

حقيقة لا يمكن إنكارهـا لتوالي الشهادات على صحتها من كل بلد ومن كل عقل وبكل لغة ، ونظن أنه لا يليق الاستهانة بشهادة العلماء في مثل هذا القرن على صحة وجود شيء يقولون أنهم رأوه ولمسوهبأيديهم وشاهدوه علىأشكال متعددة . وعقيدتنا في وجود ذلـك الشيء وحقيته لا تقضي علينا بالتسليم بكونـه روح الميت ، فلا يبعد أن يكون من عالم غـير عالم الإنسان ، والعوالم لايحصيها إلا خالقها ومبدعها .

هذه الأشباح التي تظهر لعلماء أوربا، وما تسبقها ويليها من المشاهدات الخارقة لكل نواميس الطبيعة ، تثبت بطريقة لاتقبل التأويل أن الإنسان عـاجز عن الإلمام بجميع المعلومات ، وأنه في وسط بحر كله مساتير وعجائب ، وأن العالم الحسي ليس هو وحده كل مافي هذا الكون البديـع ، بل وراءه عالم أبدع وأعظم ، مأهول بأرواح تسبح فيه سبحاً ، ولها فيه شؤون خاصة لا نحلم بها ولا نتخيلها .

لهذا ترى الماديين في كل أمة وفي كل بلد ، يعارضون هذه الحقائق ويسعون في هدمها ، لأنها تقصدهم مباشرة وتحط من كرامة مذاهبهم الظلمانية المؤيسة . ذلك لأنهم قالوا : لا موجود إلا المحسوس وليس وراء ما تدركه مشاعرنا مرمى ، فجاء الاسبرتزم يريهم قصور مداركهم وضلال أفكارهم ، ويفتح لهم عالماً لايحيط به الفكر القوي ، ولا التصور البشري .

وقالوا أن الإنسان حيوان من الحيوانات ، وإنما هو أرقى منهـا رتبة في سلم الوجود ، وأنه عبارة عن جسم مادي ليس غير ، وأن روحه هـذه ليست إلا خاصة ذلك التركيب المتناسب الأجزاء المتناسق الاعضاء ، فجاء الاسبرتزم ينعي عليهم ضيق تصورهم وحرج صدورهم وسوء نظرهم ، ويريهم أن الإنسان ليس بمادة مجردة وإنما تلك المادة فيه غلاف لسر مكنون وجوهر هي الروح التي تحركه ، وأن هذه الروح من عالم عال كله جمال وجلال ، وضياء ولألاء .. الخ..

لهذا غري الماديون بمقارعة الاسبرتزم هذا بكل حيلة وبكل سلاح ، ولاندري ما حظهم من ذلك ؟ وأي شيء ينالهم لو أثبتوا للعالم أن الإنسان حيوان ، وأنه متى مات تحلـل جسمه وفني وذهب كالهباء في الغبراء ، وإن العالم محـدود على مايدركه الحس وأن لا جمال فيه إلا ما تدركه المشاعر؟ ماذا ينالهم من بث هذه

التعاليم وأي فائدة منها للنوع الإنساني ، وهي طاعونه الفتاك وميكروب سرطانه المستأصل، وجرثومة بلائه المجتاح ؟.

لقد أضرت العلوم المادية بالعالم الأوروبي ضرراً بليغاً ، وأصبح الإلحاد في طبقات العامة جرحاً دامياً في فؤاد هذه المدنية المادية وبثرة غضنة في وجهها الوضاح ، ولقد كادت تلك القرحة الفؤادية تهوي بحياة تلك الأمم الغربية ، وتنزل بها أسفل سافلين لولا أن أرسل الله إليهم هذا البصيص من النور وما في الغيب أكثر ، فقاموا سراعاً ، واحتفوا حوله يتزاحمون بالمناكب شوقاً إلى النور ولهفاً على الخلاص فنالوا منه مانالوا ، وهاهم اليوم شخوص إليه ينتظرون مايأتي به الغد من آثار الرحمة الإلهية ، وقد نقلنا عنهم في ذلك أشياء كثيرة ، وسننقل إن شاء الله أكثر مما مر ، فلماذا لا ننوه بتلك الحركة للعالم الشرقي الذي بلي في هذه الأيام بمتابعة العالم الغربي في كل شأن من الشؤون ، ليطلع فيرى أن زمن الإلحاد ، وقد فات، وأن أوروبا وإن لم تتوصل إلى إثبات وجود الروح بطريق الحس فقد توصلت إلى إثبات وجود عالم وراء هذا العالم ، وإن الإنسان ليس بمادة محضة وكفى بهاتين العقيدتين مريحين للضمائر ، ومهدئين لجيشات السرائر .

نحن نتابع البحث في تلك الحركة الأوروبية لنثبت للناس أجمعين معنى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » . كيف لا وقد قام علماء أوربا في القرون الأخيرة بواسطة العلم الطبيعي مقاوم الجبابرة العتاة واتخذوا الفوائد المادية التي تنتج من أبحاثهم في عالم الصنائع والفنون أسلحة لهدم تعاليم الأديان ، وآلات لتيئيس الإنسان من حياة بعد هذه الحياة ، فكتبوا وخطبوا وأرغوا وأزبدوا ، وهدموا وبنوا ، وهزءوا وسخروا ، وتظاهروا بالعتو والجبروت كأنهم أصبحوا قادرين عليها . فبينما هم كذلك وإذا بهذه الآية المدهشة فأسقط في أيديهم ، وكتب كثيراً منهم مقراً بذنبه في كتبه ، كما نقلنا عنهم ذلك ، فنحن نورد عنهم أخبار خضوعهم للاسبرتزم إظهاراً لقهر الله على العاتين ، وإرغاماً لمعاطس المعاندين المقلدين من الشرقيين ، والله مع الصابرين ، وهو ولي المؤمنين .

الفصل الخامس عشر

تاريخ استحضار الأرواح

حادثة من مس الجن في صيدا
خوارق العادات على يد غير المسلم

كتب لنا حضرة الوجيه حسن أفندي نحولي من «صيدا» بسوريا[1]، خطاباً نلخصه لحضرات القراء ثم نجيب عليه إن شاء الله . قال حضرته :

عثرت في أثنـاء اشتغالي ببعض كتب الجدل الديني على قصة صموئيل الأول تشبه مسألة استحضار الأرواح،نأتي عليها إدلالاً على أن مسألة استحضار الأرواح معروفة قديماً لدى الأمم . وفحوى تلك القصة أنه اجتمع على شاول ملـك بني إسرائيل الفلسطينيون فجزع واشتد خوفه ، ولم يكن معه نبي من الأنبياء ليسأله عما يجب عليه عمله كما كانت عوائدهم في الأمور الجسام ، فلما أعيته الحيل أخـذ يسأل عن السحرة والعرافين فدله بعضهم على عرافة يقال لها « عين دور » فذهب إليها متنكراً لأنه كان مشهوراً بمطاردة أصحاب هذه الصناعة ، فلما انتهى إليها هو وخادمان معه ، سألها أن تجيبه عن مطلوبه فامتنعت خوفاً من الملك ، فـلم يزل بها حتى أقنعها بأن تصعد له روح صموئيل ، فجاءت بها له ، فأخـذ شاول يكلمها وهي تجيبه عن كل ما سألها عنه. وهذه القصة موجودة في «سفر صموئيل

(١) كانت صيدا إحدى مدن سوريا وقت تأليف الكتاب . حالياً إحدى مدن لبنان –(الناشر)

الأول – الإصحاح الثامن والعشرون من أوله إلى آخره ». ويظهر منها أن مسألة استحضار الأرواح كانت معروفة قبل التاريخ المسيحي بقرون عديـدة . فلعل القائلين بـأن مسألة استحضار الأرواح شعوذة ذهبوا هـذا المذهب لاستبعادهم استحضار أرواح الأنبياء . وإذا كانت مسألة استحضار الأرواح معلومـة كما قررنا من منذ ألفي سنة ، فكيف يدعي علماء أوروبا أن تاريخها يبتدىء من سنة ١٨٤٦ كما قررتم ذلك في مجلة الحياة ؟ فنرجوكم إجابتنا عما إذا كان من الممكن استحضار أرواح الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم ،والأصفياء والأولياء رضوان الله عليهم أيضاً،وما قول الروحيين في ذلك مع علمنا بأن هذا لدينا ممتنع شرعاً .

ثم قال حضرته أيضاً ماملخصه :

وقعت بصيداً حادثة بحضور بعض من أثق بهن من السيدات، أثناء زيارتهن لبعض العائلات ، أن ابنة لصواحبات البيت دخلت في دور عصبي شديـد اصفر لها لونها وانتفخت أوداجها ثم انصرعت إلى الأرض ، ، ثم تكلم من فمها متكلم قائلاً بلغة يهود صيداً « مسيكم بالخير » فرد عليه بعض النسوة لاعتيادهن على رؤية تلك الحالة في تلك الفتاة ، واعتقادهن بأن ذلك جني يهودي اعتـاد أن يتقمص بجسمها في بعض الأحيان ، فأحطن به وأخـذن يلقين عليه بعض الأسئلة وهو يجيبهن عنها ، حتى سأله من حدثتني ذلك الحديث عن بعض أقربائهن في الآستانة العلية ، فأجاب عن كل مسألة بما يقتضيه المقام طوراً بالسلب وآخر بالإيجاب . ولما اخبرت بتلك الحـادثة نسبتها للأمراض العصبية ورميتهم بسهولة الاعتقاد بدون توقف ، رغماً عن تحققي من وقوع بعض ما أخـبر به تماماً ، مـع شدة إنكاري لتلك المسألة وعددتها في عداد الأقاصيص .

ثم حدث بعد ذلك أن اجتمع أولئك النسوة من أقارب المصابة ، وصرن يتلون عليها (وِرْد) أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، المتضمن كثيراً من صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، عند ذاك اضطربت المريضة اضطراباً شديداً وصرخ الجني مستغيثاً ليسكتوا عن التلاوة متوعداً إياهم بإضرارها لو أصروا

عليها. فلم يصغوا لتهديده،بل مضوا في التلاوة فلم تمضِ برهة حتى هدأ اضطرابها وذهب الجني ولم يعد ، وأخـذت تلك الفتاة تقوى شيئاً فشيئاً حـتى استردت صحتها الأولى .

هذا ماحصل على مرأى ومسمع من أثق بهـن من السيدات . فهل يستطيع الجن على التقمص بأرواح الناس مع وجود الروح . وهل صدق الجني في إخباره بالمغيبات تعد من سلطة الروح على الجسم ؟ هل جميع ما تقدم من الروحانيات وما ينسب للقوة المغناطيسية وسلطة الروح على الجسم يستوي في أحداثها المسلم وغيره ممن ليسوا على دين حق . وهل يوجد في مصركم حوادث من هذا القبيل؛ نرجوكم الجواب ولكم الشكر .



تاريخ مذهب استحضار الأرواح[1]

أتينا في بعض كتاباتنا على موجز من تاريخ فن الاسبرتزم في أمريكا وأوروبا، وقلنا إنه حدثت أول حادثة منه في أمريكا سنة ١٨٤٧ وسرت منها إلى أوروبا ، بعد ذلك التاريخ ، فأوهم ذلك بعض حضرات قرائنا أن ذلك التاريخ هو مبدأ ظهوره في العالم، ونتج من ذلك أن فاضلاً من أولئك الأفاضل جاء يسألنا بكتاب عن رأينا فيما رآه مكتوبـاً في سفر صموئيل من قصة الملك شاول مـع العرافة « عين دور » . قـــال أن تلك القصة تدل على أن فن استحضار الأرواح كان معروفاً عند الأقدمين ، فكيف يتفق ذلك مع ما قلناه من أنه ابتدأ في أمريـكا سنة ١٨٤٧ ؟

---

(١) هذه المقالة جواب سؤال حضرة الوجيه المحترم حسن أفندي نحولي من صيدا ، وقدرأى حضرات قرائنا السؤال في الجزء المتقدم . (المؤلف)

نقول : أن ذلك التاريخ هو تاريخ ظهوره في العالم الغربي ، ولم يكن معروفاً قبلها بتلك الصفة التي هو عليها الآن . نعم ، كان يوجد في أطراف البلاد أفراد من الرجال والنساء لهم علم بذلك الموضوع وقدم في مجالاته ، ولكنهم كانوا مجهولين لدى السواد الأعظم من الناس ، وكانوا يتحرون أن يبقوا كذلك طول حياتهم ، لأن الأحزاب الدينية في تلك العصور كانت في غاية حماستها ، ومعمعان قساوتها وصرامتها ، فكانت إذا شامت في شخص بارقة من تلك البوارق التي تتخيل وراءها ضرراً على مركزها أسرعت إليه بالقبض عليه وزجته في أعماق السجون ، وتحقيق جنايته تحقيقاً ناقصاً كله تحامل وصرامة ، ثم ينتهي الأمر بالحكم عليه بالحرق بالنار حياً ؛ كما حصل لمئات الألوف من الناس .

لاجرم أن كل من كانت لديه أثارة من علم ماوراء الطبيعة كان يبالغ في كتمانها ، ويفرق في إنكاره خشية من الهلاك على أقبح صورة .

هذا كان شأن أوروبا قبل هذه القرون الأخيرة التي تمت فيها الغلبة لرجال العلم على رجال المذاهب الاعتقادية ، ودخل بذلك النوع الإنساني في دور التنور والبحث بعد تلك العماية الحماسية ، والغيابة التعصبية . ولا غرو بعد هذا إن ظهر تحت ذلك الجو الصاحي مذهب استحضار الأرواح وأصبح له من الأشياع الملايين الكثيرة ، فلا شيء هناك اليوم يمنع بحث الباحثين ، ولا أثر لتعصبات المتعصبين ، وسيرى النوع الإنساني من وراء هذه المسألة إن شاء الله العجب العجاب في قصم ظهور الملحدين ، وفصم عرى خزعبلات الماديين ، والله غالب على أمره ، ولا معقب لحكمه .

لكن قرب عهد ظهور فن استحضار الأرواح في أوروبا لايدل على عدم وجوده في العالم الشرقي قبل تلك المدة بمدد طويلة بل بألوف من السنين .

نعم ، إن مسألة خلود النفس بعد الموت ، وبروزها في عالم غير هذا العالم لتحيا فيه حياة أبدية كاملة ، عقيدة شائعة بين جميع أصناف النوع الإنساني كله شرقاً وغرباً . ومن العجيب أن مسألة استحضار الأرواح ومكالمتهم كانت ولم تزل

ملازمة لهذه العقيدة في بلاد الشرق كله ، وقد أصبح الغرب شريكه في ذلك أيضاً في هذا العصر . وإنما هناك فارق جسيم بين مظهري هذه المسألة المدهشة لدى الأمم الغربية والشرقية . فإنها لدى الأمم الشرقية قديماً كانت وقفاً على رؤساء الدين، ومستورة على غيرهم من الناس ، ولم يكن قصد أولئك الرؤساء من ذلك الحجر الكسب المادي ، أو إبقاء الناس في ظلمات العماية عما سينالهم بعد الموت ، وإنما كان ذلك منهم لحفظ مراكزهم العالية ، وصبغتهم الدينية محفوظة من الازدراء والابتذال ، ليستطيعوا أن يقودوا العامة بزمام الطاعة والانقياد .

هذا ما ينتج من أول وهلة لمن يعتني بدرس أساطير الأمم الماضية ، فلا يكاد يرى أمة منها إلا وفيها طائفة من الناس جعلوا ديدنهم هذه الوساطة بين عالم الأحياء وعالم الأموات ، وكان لهم بذلك في نظر عامة الأمم شأن لايقاس به غيره من سائر الشؤون العادية .

أقدم الكتب المقدسة الدينية التي تعرف الآن هي « الفيدا » كتب الهنود التي وجدت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعدة آلاف من السنين . ذكرت فيها مسألة استحضار الأرواح بنص صريح لايلتبس على أحد في مغزاه . فقد قال المشرع الهندي الكبير مانو في تلك الكتب بالحرف الواحد ما معناه :

« إن أرواح آبائنا الأقدمين يصحبون على حالة لاتراها أعين الناس بعض البراهمة الذين يدعون للاحتفال بعيد الأموات ، وأن هذه الأرواح لتتبعهم أينما ذهبوا وهم على حالة هوائية وتجلس بجانبهم إذا جلسوا » .

وقال مؤلف هندي آخر، وهو من الأقدمين أيضاً: «إن الأرواح التي لم تأتِ من الأعمال إلا الخير والبر،مثل أرواح العباد الأطهار والزهاد الأخيار، تكتسب خاصية مكالمة الأرواح التي سبقتها إلى العالم الآخر . وهذا دليل لتلك الأرواح على أن دورهم في التناسخ قد تم وانقضى . »

اعتاد كهنة الأديان الهندية على إعداد أشخاص يسمونهم «فاكير» ليستحضروا بواسطتهم أرواح الموتى ، ويحدثوا بهم أكبر المشاهدات في التنويم المغناطيسي .

نقل « لويز جاكيو » في كتابه « الاسبرتزم في العالم كله » نظرية الهنود على الأرواح السابحة في الفضاء بعد موت أجسادها . وينتج من مطالعة أبحاث ذلك المؤلف أن أسرار مسألة استحضار الأرواح ما كانت تودع إلا لمن يقضي أربعين سنة في بيوت الدين تحت النظامات الشديدة والاختبارات الدقيقة .

تلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يأتي :

الفرقة الأولى — كلهم من البراهمة أصحاب العبادات العامية ، وكهنة الهياكل المكلفين بقيادة العامة . وتعليم هذه الفرقة قاصر على شرح الثلاث كتب الأولى للفيدا ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية ، وأداء القرابين . وبراهمة هذه الفرقة يخالطون الأمة ويعاشرونها ، فهم قادتهم الأقربون ، ورؤساؤهم الأدنون .

الفرقة الثانية — تحتوي على طردة الشياطين من الأجسام ، والعرافين للمستقبل وأصحاب النبوات ، ومستحضري الأرواح ؛ وهؤلاء عليهم في بعض الظروف الحرجة أن يؤثروا على أذهان العامة بإحداث بعض خوارق الطبيعة . ويسمح لهم بقراءة وشرح « الاتارفا فيدا » وهو مجموعة رقيات سحرية .

الفرقة الثالثة — من البراهمة ليس لهم اختلاط ما بهذا العالم الإنساني ، وليس لهم من شغل في هذه الحياة إلا درس قوى هذا العالم المادي كله ، وإذا ظهروا للناس فلا يكون ذلك إلا لأمر جلل ، وخطب فادح ، ولا يتراءون لهم إلا عن بعد

أما في بلاد الصين ، فلا يعلم بالضبط تاريخ فن استحضار الأرواح ، والذي ينتج من الاطلاع على حالهم في تلك المسألة يتحقق أنها قديمة لديهم جداً .

نقل القس الداعي للدين هناك « هوك » أن الصينيين مولعين بمسائل الأرواح واستحضارها ، وسرد عنهم جملة تجارب في ذلك الشأن لم تزل مستعملة لديهم في كل صقع من أصقاع بلادهم الشاسعة الأكناف ، وفي كل طبقة من طبقات هيئتها الاجتماعية .

وقد امتدت هذه المسألة في جميع ممالك آسيا على طول الزمن وبواسطة هجرة

بعض الهنديين للاستعمار في بعض البلاد الأجنبية ، حتى وصلت إلى مصر وإلى العبرانيين ، كما ثبت ذلك من استقراء أساطير كل من هاتين الأمتين القديمتين .

اتحد المؤرخون جميعهم على أنه كان لدى المصريين الأقدمين اعتقاد في كثير من المسائل التي تعلو عن هذه الطبيعة المحسوسة ، كأعمال السحر والطلاسم وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، وقد ذكر كثير منها في التوراة ، وثبت أيضاً أنهم كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح ومكالمتها في الشؤون الهامة ، ووجه ثبوت ذلك آت من نهي موسى عليه السلام لقومه في التوراة ، عن عمل السحر وعن تحضير الأرواح وسؤالها عن المستقبل . وقد علم قراؤنا مما أورده حضرة الوجيه الذي عرض علينا هذا السؤال ، أن الملك شاول ذهب إلى « عين دور » العرافة ، واستحضر بواسطتها روح صموئيل ، وفي هذا دليل قاطع على أن بني إسرائيل كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح .

لم يقف بعض الناس عند الحد الذي رسمه موسى عليه السلام لقومه من النهي عن تحضير الأرواح ، بل تألبت بعض النفوس الشيقة إلى الإشراف على عجائب عالم ماوراءالطبيعة ،فألفوا فيما بينهم حزباً سرياً ومذهباً خصوصياً سموه « كبال » ، ولكن ما كانوا يبثونه لأحد حتى يأخذون عليه المواثيق والأقسام بأن لايذيعه ولو لحقه ما لحقه من الأضرار .

وقد جاء في التلمود ، وهو من كتب اليهود ، مامعناه : إن الذي يحفظ هذا السر ، سر استحضار الأرواح ، في فؤاد نقي طاهر له من الله الكرامة وحسن الزلفى ولدى الناس الفضيلة وحسن السمعة ، ويكون اسمه مقروناً بالإجلال وعلمه غير قابل للزوال ، ويرث بعد ذلك الحياتين وينال السعادتين في هذه الدار وما بعدها .

أما في بلاد اليونانيين ، فكانت مسألة استحضار أرواح الموتى معروفة وشائعة جداً . فقد كان في كل هيكل من هياكلهم نساء يقال لهم « العرافات »

أي اللاتي يعرفن المستقبل ، مكلفات بمكالمة أرواح الآلهة ، وكثيراً ما كان يود المستحضر أن يكلم الروح بنفسه،فكان يجاب طلبه ويكلم الروح المطلوبة بنفسه .

وقد ذكر الشاعر الكبير اليوناني هومير، الذي عاش قبل الميلاد العيسوي بأكثر من ستة قرون ، قصة استحضار البطل اليوناني الشهير (اوليس) روح (تيريزياس) العراف الشهير ، ومكالمته له ، وقد وصف هذا الشاعر المطبوع الصفة التي حضره بها والاحتفال الذي جرى لذلك وصفاً دقيقاً . وليست هذه الحادثة منفردة في بابها فقد كان من الشائع المعروف لدى اليونانيين أجمعين أن من يريد استحضار روح أحد من أقربائه أو ذوي خاصته ، أمكنه ذلك بغاية السهولة بواسطة الأشخاص المتمرنين على الاستحضار .

وقد نقل عن (أبوللونيوس دوتيان)، الفيلسوف الفيثاغوري المشهور، أنه كان يعتقد كل الاعتقاد بوجود الأرواح وبإمكان تحضيرها والمكالمة معها ، وكان يعمل من الخوارق للطبيعة ما يدهش الألباب ويحير المدارك ، وكان له اطلاع واسع في أمور ما وراء المادة .

أما عند الرومانيين ، فقد كانت مسألة استحضار الأرواح معروفة أيضاً ومنتشرة جداً ، وكان المكلف باستحضارها نساء يسمونهن « سيبيل » . كان قواد الرومانيين يقصدونهن ويسألونهن عن مستقبل الأمور العامة ، وكان رجال الحل والعقد لايبرمون أمراً ولا يشهرون حرباً ، أو يعقدون سلماً ، إلا بعد استشارة الأرواح بواسطة هاتيك النسوة .

أما لدينا معشر أهل الإسلام فمسألة ظهور الأرواح للأحياء من الأمور الشائعة للصالحين والمقربين ، وأظن أنه لايوجد واحد من المسلمين لم يقرأ في كتاب أو لم يسمع من قارىء أن روح فلان الصالح ظهرت لفلان التقي . وحصل بينهما كيت وكيت من المحادثات والمحاضرات. بل كثيراً ما تروي العامة في أساطيرها أموراً تدل على معرفتها بمسألة ظهور الأرواح للناس ، مثل روايتهم عن بعضهم أن فلاناً تاه في الصحراء وألمت بـه الحيرة من كل ذلك ولما أوشك ان يقع في اليأس

إذا برجل مرتد بثياب بيضاء ، وعليه جمال وبهاء جاء إليه فدله على الطريق ، وأزال عنه بوائق التعويق ، ثم يعقب قوله هذا بأن ذلك الشخص لاشك في أنه روح التقي فلان . الخ ... من أمثال هذه الحكايات التي تعوز النظر ولا يليق بنا إنكارها على عجل .

★

مسألة مسّ الجن

يجمل بنا للإجابة على هذا السؤال أن ننقل ماكتبناه في « الحياة » ببعض تصرف ففيه الكفاية ، وهو :

إن فكرة استيلاء الجن على جسم الإنسان والتأثير عليه بالمرض والأذى شائعة من مبدأ الخليقة ، فقد كان الناس عموماً ينسبون الأمراض ، أياً كانت ، إلى الأرواح الشريرة ، وكان لهم في ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل للآن منتشرة في كل البلاد المتوحشة . وقد كانت هذه الفكرة آخذة في التناقص شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تنتهي إلى الصفر ، خصوصاً في العالم العلمي . ولكنها قد حييت الآن حياة قوية ، وصار يستطيع المنتصر لها أن يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبحان مغير الشؤون . روت المجلة الروحية في هذا الشهر « قبل ثلاث سنوات تقريباً » عن جريدة « نيويورك ميل أند اكسبرس » أن الأستاذين الشهيرين ريشارهودسن، وجيمس هيزلوب، اللذين درسا الاسبرتزم بواسطة مدام بيير مدة ١٢ سنة ، قد نشرا نتيجة أبحاثها في كتاب جاء فيه هذه العبارة : «إن عدداً عديداً من المجانين الذين يحبسون في البيمارستانات ليسوا بمصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم » .

هذا ماينادي به أستاذان عظيمان بعد أن عدّت هذه من دلائل التوحش والهمجية . وفي أوربا وأمريكا ألوف من العلماء لايداخلهم الشك في هذه النظرية.

فلننظر كيف حصل لهم البرهان عليها فنقول : إن حل مسألة استيلاء الجن على جسم الإنسان تتبع حل مسألتين ، وهما : هل في الطبيعة قوة عاقلة مجردة عن المادة ؟ وهل لهذه القوة سلطان على المادة وعلى الجسم الإنساني ؟ . أما المسألة الأولى فمحلولة ومثبتة بأدلة حسية لاتدخل تحت حصر ، فإن كل تجارب الروحيين تثبتها . وقد وقف الاستاذ الشهير وليم كروكس أمام مئين من أعضاء الجمعية الملوكية الانجليزية ، حيث فوض إليه رئاستها في سنة ١٨٩٧ وفاه بخطبة مهمة جاء فيها هذه الجملة : « وليس في تاريخي العلمي ماهو أشهر من اشتغالي بالمباحث النفسية ، فإني نشرت منذ ثلاثين سنة وصف تجارب جربتها ، من مقتضاها أن وراء ماندركه علمياً قوة يتولاها عقل غير عقل الإنسان العادي » - (روت هذه الخطبة أكثر جرائد العلم وهذه الجملة ترجمة المقتطف) .

بقي علينا أن نسأل ، هل لهذه القوة تأثير على المادة وعلى الجسم الإنساني ؟ أما تأثيرها على جسم الإنسان ، فمما لايصح التردد فيه ، لأن حالة الوسطاء الذين يستعملهم علماء الروح في الاستحضاريثبت ذلك إثباتاً محسوساً. فإنا نرى الواسطة يدخل في دور تشنج هائل!وربما لطم صدغه وخمش وجهه ، ثم تتخشب أعضاؤه ويصير في حالة مؤلمة . فتارة تستولي الروح على يده فيكتب ما لايراه ولايعلمه ، وتارة تستولي على لسانه فيتكلم في شؤون لم تمر على مخيلته . لا شك أن كل هذا يكفي للدلالة على سلطة تلك القوة على جسم الإنسان في بعض الأحوال ، ولدينا أدلة محسوسة على هذه القضية نستنتجها مما تحدثه الأرواح عند تجسمها - عذراً على هذا التعبير - من الآثار السيئة على جسم الواسطة .

روى الأستاذ اكزاكوف الروسي في كتابه «المذهب الحيوي والاسبرتزم» ، أنه شاهد هو وعدة دكاترة معه أن الجزء الأسفل من جسم الواسطة ، وهي مدام ديسبرنس، قد تلاشى بالمرة بينما كانت الروح قد تجسمت من نصفها الأعلى. وقال : وقد فحصنا ذلك باللمس والنظر فلم نزدد إلا اقتناعاً، ولما ذهبت الروح عاد ثانياً . أما في سائر أحوال التجسيم فإن وزن جسم الوسيط يستحيل إلى النصف ، ولا

شك أن نقصان وزن الجسم أو تلاشي قطعة منه يدل على أن تلك القوة تستطيع أن تؤثر على الإنسان آثاراً سيئة . ومن أحسن الشواهد وأغربها على إمكان استيلاء تلك القوة على الجسم، مارواه الدكتور الألماني سيرياكس عن نفسه ، كما رواه عنه الكاتب الشهير جبريل دولن في كتابه « الظاهرة الروحية » . هذا الدكتور كان مراده درس الاسبرتزم بنفسه بدون واسطة ليكون اقتناعه ذاتياً ، وذلك لشدة تشككه . وجلس لتلك الغاية هو وامرأته وبعض إخوانه ، ١٩ مجلساً ، في غاية الخشوع ينتظر روحاً تطرق المائدة أو تظهر بأثر آخر كما يحصل بحضور الواسطة فلم يرَ شيئاً، ولكن لم تخر عزيمته . قال : « في الجلسة العشرين شعرت بإحساس خاص من برودة وحرارة متعاقبتين . ثم أحسست بمرور تيار هوائي بارد على وجهي ويدي . ثم شعرت بأن ذراعي الإيسر قد تخدر تماماً وصار مشلولاً . ثم شعرت بمن يحركها تحريكاً شديداً بحيث لم أستطع إيقافه . ولما كانت تلك الحركة بشبه حركة يد الكاتب أتت امرأتي بقلم وورقة فاستولت عليها يدي اليسرى وأخذت تتحرك في الهواء بسرعة عجيبة حتى خاف الجلوس أن تصيبهم في حركاتها. ثم لطمت هي المائدة فجأة وكسرت القلم . عند ذلك هدأت يدي فعلمت علماً يقيناً بأن لادخل لإرادتي في حركة يدي ، كما لادخل لها في سكونها. ثم لما بُري القلم أمسكته يدي اليسرى وأخذت ترسم في الورقة خطوطاً غير منتظمة ثم اخذت ترسم أحرفاً أولية كما يفعله الأطفال ، ثم شعرت بتيار هوائي كالمتقدم ازايل يدي كل ألم وكل تشنج . فرفعنا الجلسة وأنا مسرور لتحققي أن في الطبيعة قوة مستقلة عن إرادتي » . إلى أن قال : « ومن ذلك الحين أخذت الناصية الوساطة تنمو معي بنصائح إخواني الأمريكيين فابتدأت بالكتابة ثم حدث أنها رسمت « سبتاً » مملوءاً زهراً . هنا يجب علي أن أقول إني لاأستطيع حمل شيء بيدي اليسرى ، حتى ولا يمكنني أن آكل بها . أما الرسم فلست حسنه قط ولا بيدي اليمنى . فأنا الآن مقتنع تماماً بأن القوة التي ترسم أوتكتب بواسطتي مستقلة عني ، ولها عقل غير عقلي ، لأني في أثناء ظهورها أراني متمتعاً بكل قواي العقلية ولا أحس بأدنى حادث غير ما يحصل في يدي اليسرى التي

تظهر كأنها ليست بيدي طول مدة الجلسة وكأنها تحت تصرف غـيري . وإني أستطيع في أثناء هذا الأمر أن أكلم الذين حولي بكل حرية . فأراد أحدزملائي الدكاترة أن يوقف حركة يدي فضغط عليها بيديه بطريقة جعل ثقل جسمه كلـه عليها ، ولكنه لم ينجح ، واستمرت يدي تحت ضغطه تعمل بقوة ونظام ، مـع أني أستثقل بطبيعتي ضغط اليدين مجردتين » .

أليس في كل هذا مايدل على أن في الوجود قوة عاقلة لها على جسم الإنسان سلطان في بعض الأحوال ؟...

* * *

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي وفقنا لخدمة دينه القويم ، وهدانا بنوره العميم إلى صراطه المستقيم ، وأصلي وأسلم على رسوله الكريم ، وأمينه الصميم ، محمد خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإننا بحول الله وقوته أتممنا الجزء الأول من « الإسلام في عصر العلم » فلنبدأ في الجزء الثاني منه معتمدين على واهب القوى والقدر ، ومانح البصيرة والبصر راجين منه سبحانه وتعالى أن يأخذ بيدنا لإتمام هذا الصرح الفخيم ، الذي تصدينا لتشييده لدينه القويم ، خدمة لأنفسنا معشر أبناء هذا العصر الذي انصبت فيه العلوم المادية انصباباً مريعاً ، وبلغت فيه المدارك الإلحادية مبلغاً عجيباً ، ولعبت فيه الشبه بالعقول ، ولا لعب الشمول ، وهاجمت فيه الشكوك معاقد الإيمان من سرائر النفوس ، وضمائر القلوب ، هجوماً شعر به الإنسان شعوراً أزعجه إزعاجاً ، وبرح به تبريحاً ، وصاح كل منا صيحة دلت على قدر ألمه ، ومقدار وجعه . فمنا من استكان للعلة وظنها لازماً من لوازم العلم العصري فجعل الشك دينه ، وظن كما يظن اللاأدريون أن الوصول إلى صميم الحقيقة محال على الإنسان ، فقنعوا بهذا المركز المضطرب وخالوه نهاية مايبلغه العقل القوي

والفكر السليم ؛ ومنا من هاجمته تلك الشكوك هجوماً عنيفاً ولم تجد من فطرته ما يقاوم تياراتها ، فجلا الإيمان منها جلاء ، وحل محله غيهب الفكر المطبق ، فساق ذلك المسكين أمامه إلى أغراض الشهوات ، ومتاهات الأهواء ، يسلك به من مفازة فتنة ، إلى متاهة ريبة ، ويخرج به من مهواة شهوة إلى تيهور شراهة ، حتى ينتهي وجوده الدنيوي على حال لا يرضاه لنفسه فكيف يرضاه له غيره ؟

ومنا من توهم أنه سلم من أفاعيل هذا التيار الجارف ، تيار العلم الأوربي المادي ، بقطع علائقه به ، والتفاني في الهرب منه ، فهو كلما صادفه ذلك التيار من وجهة ، ارتد على عقبه ، وسلك طريقاً غير طريقه ، حتى إذا توسطه وكاد يجتازه لاحت له طلائع ذلك التيار عن بعد ، فرجع أدراجه ، وتلمس منهاجاً للحياة آخر. وهلم جرا؛ فهو يقضي حياته حائراً لايعرف له وجهة يتوجه إليها ، ولا يدري له غاية يتيممها ، فيقف ظاناً أن في الوقوف راحة له من بعض ذلك الهم الناصب ، ولكنه لايكاد يطمئن في نفسه حتى تغشاه غواشي ذلك التيار المتدافع من سائر جهاته ، فيضطرب طلباً للنجاة ، ويتخبط بحثاً عن منفذ ! وإلى أين ؟ لقد أحاط التيار به من كل جانب ، وقارب أن يحيق به من كافة أرجائه ، جزاء ما أصر على مجافاته ، فلا يرى له ملاذاً إلا إحدى جهتين : إما أن تغوص به الأرض فيأمن عادية ذلك البلاء المتواتر ، وإما أن يرفعه الهواء إلى مسارح الأطيار ، ومدارج الأفلاك ، فيرى أن الوجه الأخير أقرب للسلامة ، وأشفى للنفس اللوامة ، فيشرئب برأسه ، ويتطاول بعنقه ، وكلما أحس بشدة الخطر الذي هو فيه ، تبسم الأمل في وجهه ، ونفحه الرجاء بنسيمه ، فتوهم أن ذلك الاشرئباب قد رفعه إلى فوق ، وأمنه الخوض في اللجة ....

بينا يكون ذلك التيار المتدفق عليه من كل مكان قد أحاط به إحاطة القيد برجلي الأسير ، وفعل به عين مافعل بإخوانه المستسلمين ، ولا فرق بينهم وبينه إلا أنهم سلموا لعدوهم قبل أن يحيط بهم ، أما صاحبنا هذا فلم يزل يزوغ منه ويروغ حتى سد دونه المسالك ، وأخذه أخذاً عنيفاً أذهله عن نفسه ، وأوهمه ذلك الذهول أنه ارتفع عنه إلى مسابح الطيور ، ومسايح النور .

ومنا مَنْ مَنّ الله عليه بروح خاصة أقامته على الصراط السوي ، في وسط هذا الحال الردي ، وهم من قلة العدد بحيث لايعرفون ، ولا يتوهم اليائسون أنهم موجودون .

هذه أقسام أربعة لايخلو واحـد منا من أن يكون تابعاً لقسم منها في هـذا الجيل العجيب . فهو إما أن يكون ممن منحهـم الله روحاً من عنده ، ونفحهم بنفحة من رحمته ، فقاموا على طريق الصالحين الأولين ، والأولياء الطيبين ، على قدم الأنبياء المرسلين ، عليهم الصلاة والسلام أجمعين . فهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وخيره وشره ، إيماناً ذاتياً ذوقياً بغير تأويل ولاتصريف .

وإما أن يكون مكذباً بكل ذلك .

وإما أن يكون شاكاً في صحة كل ذلك .

وإما أن يكون موهماً نفسه أنه معتقد بكل ذلك .

لنا على كل صنف من هذه الأصناف كلام لايجوز لنا إغفاله في مقدمة الجزء الثاني للإسلام في عصر العلم، لأن ماسيجيء إن شاء الله في أثناء هذه السنة يقتضيه ويناسبه ، بل يجب علينا أن نقدمه أمام الكلام في هـذه المناسبة بياناً لوظيفة الإسلام في عصر العلم ، وإشارة للمهمة التي ندبناه لهـا خدمة لإخواننا الأعزاء فنقول :

حال المكذب منا بالعقائد

المكذبون بالعقائد في كل أمة وفي كل زمان ومكان ثلاثة أقسام : الأول : قسم كافر بفطرته خلق فؤاده مطموساً ، ونوره مطفئاً . والثاني : وقسم جامد بفطرته لاتهمه العقائد ، ولايهمه عدمها ، فهو كتلة مادية ذات صورة إنسانية ليس إلا ، وهـو يتقلب بتقلب الوسط الذي يعيش فيه ، فإن وجد المحيطين به مؤمنين فهو مؤمن

فيما بينهم ، وإن وجدهم على الضد من ذلك فهو معهم يفعل مايفعلون ، ويسلك من طرق الحياة ما يسلكون .

هذا القسم والذي قبله قد أشبعنا فيهما القول في فصل متقدم من كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فليرجع إليه من شاء .

بقي القسم الثالث من المكذبين، وهو من لايكون كافراً ولاجاحداً بفطرته، وإنما عرض له التكذيب بالعقائد من شُبه علقت بذهنه من مثافنته للمعارف الإلحادية ، ومجالسته لبعض حملتها ، فتشبع فكره بذلك السم القاتل وتمثل به فصار عسر العلاج جداً .

أفراد هذا القسم كانوا مؤمنين نشأوا تحت سماء الشرق ، ودرجوا من مهاده الوثيرة ، وهو كما لا يخفى في هذا الدور ، دور الانحطاط والقهقرى في الصنائع والعلوم ، وهي سنة الله في خلقه ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، ولقد كانت لنا الدولة على غيرنا كما هي اليوم لغيرنا على أكثرنا ، ولم تبلغ أمة منا مثل مابلغنا من سائرهم، وسيؤوب إلينا إن شاء الله مجدنا القديم ، على يد ديننا القويم، وسنكون في نهايتنا مثل ما كنا في بدايتنا خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونؤمن بالله ، ونحمل للعالم نور الحق ولألاء الفضيلة، ودرياق العقيدة، ومن يعش يَرَ العجب .

دعنا الآن من هذا ولنعد إلى ما كنا فيه . قلنا نشأ أفراد هذا القسم مؤمنين تحت سماء الشرق ، وهو في دور الانحطاط والقهقرى، فدعتهم دواعي الأحوال الاجتماعية إلى درس العلوم الأجنبية ، والسفر إلى بلادها القصية ، فماذا رأوا ؟ رأوا من زخارف الصناعات ، وبدائع المخترعات وعجائب الفنون ، وغرائب الشؤون مايذهل الناظر عن نفسه ، ويسلب العقل من رأسه ، مباني تسامر الكواكب وتناغي السحائب، ومعاهد طرب ولهو تأخذ الأفئدة من بين الجوانح، وتسترق النواظر من داخل المحاجر . وأشياء وأشياء يطول عدها ، ولا

يغيب عن قارئنا أمرها . فلما رآها أولئك الشبان وقارنوها بما عهدوه في بلادهم من المعاهد الساكنة الخاوية،والمشاهد المحزنة المتداعية، جال فكرهم واضطرب، وأتت لهم الهواجس بالعجب .

كانوا يتعلمون في مدارس بلادهم أن دينهم دين السعادتين ، وملاك الحياتين ، وأن متبعه فائز بالصفقتين ، ومتمتع بالنعمتين ، فرأوا رأي العين أن تلك الأمم أعلا من أمتهم في الحضارة كعباً ، وأرجح منها في الوجود وزنا ، وأفوز منها من السعادة سهماً .

كانوا يتعلمون أن الدين يدعو إلى الكمال ، ويحلي متبعه بشرائف الخصال ، وكرائم الخلال، فرأوا أن أمتهم من هذه الجهة ليس لها مركز خاص بين الأمم، بل رأوا أن آداب تلك الأمم في الجملة أرقى من آدابها .

كانوا يتلقون من آبائهم ومعلميهم أن أمتهم سيدة الأمم ، وصاحبة السيف والقلم ، ومكانها في العالم مكان القلب من الصدر أو العين من الرأس ، فرأوا هنالك أن لامحل لفرض ذلك القول ، وأن تلك الأمم أكثر من أمتهم جنوداً وسفيناً ، وأغزر منها مالاً وعيوناً ، وأقدر على استخدام قوى الطبيعة ، وأمهر منها في استعمال أسلحتها .

رغماً عن هذه المشاهد المدهشة كلها رأوا أن تلك الأمم تنابذ الأديان وتثبت بطلانها ، وتشاكس الكهان وتهدم معاهدها، وتراقب الرهبان وتوصد مدارسها، وتفتح لأفرادها مجالات الحرية في الطعن على موروثات العقائد ، ومقدسات الآباء في الأجيال الغوابر .

رأوا كل هذا بأعينهم ، وجال في تيار ضمائرهم ، ووقف بهم موقفاً ما أصعبه على الفؤاد الحساس! وجدوا أنفسهم من جهة مسوقين بل مرغمين على ترك العقائد ، لأن كل ماوقعوا فيه من ذلك الاضطراب الذي صورناه لك يستدعيه، ولكنهم من جهة أخرى عز عليهم أن يكشطوها من ضمائرهم ، وهي التي كانت

لهم أيام الشبوبية الأولى عـزاء في المصائب ، وتسلية في المتاعب ، ومعتصماً في المخاوف ! صعب عليهم أن يهجروها وهي التي طالما هاموا بنشيدها في المكاتب وطربوا بالترنم بها في المحافل .

هذا الحنين الذي طرأ عليهم من جراء هذا التناقض الذي أشرفوا عليه كان يكفي لأن يقودهم إلى طريق الوسط ، ويريهم وجـــه الحق فيما هم بصدده ؛ ولكن هيهات ! فإنهم لم يكادوا يثنون أنة أو أنتين حتى دهمهم تيار تلك المدنية الساحرة فداروا فيه مع الدائرين ، ولم يزالوا بين تلق ولهو ، يجذبهم العلم يوماً ، وتسحرهم السواحر يوماً ، حتى جازوا دور الشبوبية وشارفوا دور الكهولة ، فجمدوا على ماعلق بفكرهم وجزموا بصدق استدلالهم ، وانقطع عنهم ذلـك الحنين الأولي وعدوه من بقايا سن الطفولية ، وآثار الحياة المنزلية ، فآبوا وكأنهم أجـانب عن الوطن والدين ، لايتكلمون إلا بالفرنسية ، ولا يلبسون الطرابيش إلا في البلاد المصرية .

قلنا إن هؤلاء الناس ليسوا كافرين بالفطرة ، وإنمـا عرض لهم التكذيب من العوارض التي قصصتهـا عليك ، وهي عوارض تمكن إزالتها بالطرق العلميـة ، فإنهم متى عرفوا حقيقة الدين وحقيقة الإسلام ، لخفوا إليه سراعاً فكانوا أعـز أنصاره ، وأقوى أعوانه . ولكن كيف السبيل إليهم ؟ إنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أنه لايمكن أن يصل الشرقي إلى أكثر مما وصلوا إليه من العلم، ويستنتجون من ذلك أنه لايمكن أن يرجعهم واحد من أبناء جلدتهم عمـا هم فيه ، فكيف نطمع بعد هذا أن يؤوبوا إلينا وهم في جماحهم يهيمون ، وفي خيلائهم تائهون . اللهم إلا أن يكون لله فيهم شأن لانعرفه .

لهذا قلنا أن هذا القسم عسر الشفاء جداً مما هو فيه من داء الإلحاد، لالكونه كافراً بالفطرة، ولكن لكونه شديد الجموح عن السمع ، كثير الهرب من التأمل.

قسم الموهمين أنفسهم بالعقيدة :

أكثر أفراد هذا القسم من الذين لم يتعلموا العلوم الحديثة ولم يذوقوا حلوها ومرها ، لذلك يراهم أصحاب القسم المتقدم كأنهم من قوم غيرهم لمخالفتهم لهم عقلاً وعلماً ولبساً ، وأن كان منهم من هم آباء أو إخوان لكثير منهم .

أفراد هذا القسم لايعرفون من الخطر المحدق بهم وبأمتهم من جراء التيار الغربي إلا ما يرونه من بعض آثاره حولهم ككثرة معاهد اللهو ، وانصباب الشبان في الترف والقصف ، وخراب بيوتات الحسب القديم ، والنسب التالد ، وقلة المتمسكين بفضائل الدين ، وانتشار الفجور ، والفسق بين الطبقات العليا والوسطى ، وذهاب أكثر أطيان القطر المصري من يد أهله إلى طائفة من أصحاب البنوك ، وتبدل بيوتات المجد في بلاد الفلاحين إلى معاهد شراب ومقامرة ، وانتهاء الأمر بذهاب تلك الألوف المؤلفة من الأفدنة إلى من لايرحم أصحابها ولا يواسيهم بشربة ماء .

كل هذا يراه أصحاب هذا القسم ويحسبونه كل مافي المدنية الأوروبية فيسلقونها بألسنة حداد ، ويطعنون عليها في كل ناد ، وينبزونها بالألقاب . يعادون علومها وصنائعها ، ويكرهون زخارفها وبدائعها ، وماذا تفيد كل هذه الكراهة والعداوة ، وهم لايدرون جهات قوتها وضعفها ، ولا أمكنة حياتها وموتها . وهل نبعد في التشبيه لو قلنا أنهم كالذين رأوا ناراً تلتهم بيتهم فخرجوا منه ووقفوا بعيداً وأخذوا يسبونها ويشتمونها ، ويندددون بها ويزدرونها ، ولايزالون كذلك حتى تأكل النار بيتهم وتدعهم طعمة لقوارص الجو ، وأفاعيل الخلاء .

يعلم هؤلاء الناس أن في علوم تلك المدنية شبهاً أضرت بعقائد بعض الناس ، واستشكالات على الأديان تعوز حلاً دقيقاً فلا يخفون لمطالعتها ، ولايرضون أن يطلعهم أحد عليها ، خوفاً على عقائدهم ، وإبقاء على يقينهم ، ويكتفون بسب من قال بها وتكفير من يجاريهم في ذلك ، والادعاء بأنها ضلالات وأوهام ، وخرافات وأحلام ، لاحقيقة لها إلا في أدمغة قائليها مع أنها قد تكون حقائق

طبيعية ومشاهدات وجودية . يفعلون هذا ولا يدرون أنه أكبر جرم يرتكبونه ضد الناشئة الجديدة ، لأنها متى رأت أن عقلاء أمتها يكذبون بحقائق الكون الثابتة ، ويسلمون بأنها خطر على العقائد ، ويدعونها لها بدون حل غير التسفيه والتنديد ، علمت أنهم يعجزون عن دحضها، ولم لا تحل الشكوك بعد ذلك معاقد إيمانها ، وتختلط سموم الإلحاد بوجدانها ؟

أفراد هذا القسم يتوهمون أنهم خلصوا بهذا المسلك الاعتزالي من ضرر هذا التيار الجارف ، ويزعمون أنهم هم وحدهم الذين أقاموا على السنّة ، وقاوموا هجمات البدعة ، وهم في هذا الزعم واهمون ، فإن ذلك التيار قد استاقهم كما استاق غيرهم ، ونفث في ألبابهم من الشُبه والشكوك مانفثها في ألباب منعداهم من المعترضين لأفاعيله ، ولكن مع فارق صغير اقتضته الأحوال وأوجدته بعض الحواجز؛ على أن تلك الأحوال تتلاشى يوماً بعد يوم ، وتلك الحواجز ترق من آن لآخر ، وسينتهي الأمر بهم إلى مساواة غيرهم ، إن لم تدفعهم القوارع إلى أبعد مما عليه إخوانهم .

قسم الشاكين

أما الشاكون منا، فأكثرهم من طائفة المرتشفين لباب المعارف الجديدة، وقعوا من الحيرة بين العقائد الموروثة ، والمشاهد المحسوسة في مثل ما وقع فيه سابقوهم من المكذبين ، ولكنهم وجدوا من فطرتهم قوة قاومت تارات تلك الشبه ، وقاومت هجمات تلك التناقضات ، فلم ينزلوا إلى حضيض التكذيب المطلق، بل رجوا أن يكون لهم مما هم فيه مخلص ، فتراهم ينشدون الهداة في كل ناد ، ويترقبون المرشدين في كل آن ، رجاء أن يجدوا ضالتهم من العقيدة النقية ، ويوفقوا بين ما يميلون بفطرتهم إليه ، وما تهجم بهم الدواعي المعاشية عليه .

هذا القسم هو أحيانا فؤاداً ، وأسمانا عقلاً ، وأقربنا إلى الخير بعد القسم الأول . ذلك لأن شكه دل على شعوره بوجود التناقض بين أوهامه القديمة ، ومشاهداته الجديدة ، ووقوفه في مقام الشك بدل السقوط إلى هاوية التكذيب

المطلق ، أعرب عن كبر فؤاده ، وثبات جأشه ، ورباطة إحساساته ، لأن في التكذيب المطلق خفة وطيشاً ونزقاً يعلو عنها من له عقل راجح ، وتصور سليم.

كيف نحن بين هذه الاقسام ؟

تخيل أمة رابطتها الدين، وجامعتها الإيمان واليقين، تنقسم من حيث عقائدها إلى هذه الأقسام الأربعة ، ثم اسرد لي مايحل بها من فشل وخذلان ، وما يفشل فيها من خلل واضطراب ، وما يحتوشهـا من تشوش واختباط ، وما يعتري أفرادها من الدهشة والذهول عن أقدس واجباتهم ، وأمس الأشياء بحياتهم ؟

هذا الانقسام في العقائد لايضر في أمـة رابطتها غير الدين كإحدى الأمـم الأوربية مثلاً ، فـلا يضر فرنسا أن تنقسم إلى عشرين قسماً في الدين تكذيباً وتصديقاً ، ولا يضر انجلترا ذلك كذلك ، ولكن يضرهما أن ينشقا في الوطنية والجنسية ، أو ينقسما في شؤونها الحكومية، لأن رابطتها ليست دينية .

وبناء على هذا فكل طبيب يعالجنا من غير الوجهة الدينية التي هي رابطتنا الأصلية، فلا يصادف دواؤه المرض الحقيقي ، بل ولاأعراضه الحقيقية ، وينتهي أمره باتهام الآمة بالموت جهلاً منه بمرضها ، ويأساً من تطبيبه ما بها .

إذا تقرر هـذا كله فلا دواء لنا إلا جمعنا على عقائدنا ، وردنا إلى كتابنا . وكيف يتأتى لنا ذلـك وهذا التيار الغربي يساورنا من كل مكان تارة حـلاً لروابطنا ، وطوراً محواً لمعالمنا ، وآناً مزاحمة للغتنا ، وآخر تغييراً لأخلاقنا ، ويوماً سماً لفطرنا بلهوه وقصفه ، وحيناً سحراً لألبابنا بعلمه وبدعه ؟ إليك كلمة في هذا الاجمال :

كيف نقاوم هذا التيار ؟

التفاعل بين الكائنات سنة من سنن الوجود ، ومعنى هذا التفاعل التصارع بين

القوة والضعف، بين النظام والخلل، بين البسيط والمركب،بين الكامل والناقص؛ ونتيجة هذا التصارع قيام أمرهذه الحياة الكونية بمعناها الأعم ومغزاها الأكمل.

غرز في طبيعة كل كائن حي قوتان مختلفتان ، قوة التمثيل وقوة المقاومة . الأولى هي باعث يبعثه لتحليل كل ما يلائمه من الوسط الذي يحيط به وإضافة مايناسبه من عناصره إلى ذاته . والثانية روح أودعت في صميم كيانه تنهض به لدفع الغوائل عنه بكل مافي طبيعته من حول ومن حيلة . أغرس نباتين بجانب بعضهما ترَ أن الأقوى منهمايستولي بقوة التمثيل على المواد اللازمة لمجاوره الضعيف، فيمنعه من إتمام وظيفة التغذية ولايزال به حتى يضمر ثم يهلك ، ويا ليته يدعه بعد ذلك ، بل لايبرح يساوره حتى يحلل عناصره تحليلاً فيأخذ مايليق به منها ويدع الفضلة لسافيات العواصف. وضع حيوانين في حظيرة واحدة وأمدهما معاً بالغذاء تجد الأقوى لايدع للأضعف إلا الفضلات التافهة ولا ينفك عن منابذته في أمر حياته حتى يهزل ويموت ويترك الجو لخصمه .

هذه قوة التمثيل ، أمـا قوة المقاومة التي قلنا أنها روح أودعت في طبائع الكائنات الحية ، تدفع بها عن نفسها الغوائل فهي من المشاهدات المحسوسة ، فإن النبات الذي ضربناه مثلاً لم يستسلم لخصمه من أول وهلة،بل مابرح يحاول ويصاول حتى فنيت مادة حيله ، ولم يعد قادراً على شيء من الوسائل . وكذلك كان شأن الحيوان، فإنه ما انفك يستثير كوامن الحيل ، ويستجيش غرائب الأساليب حتى عجز واستسلم .

هذا بعينه يحصل بين أفراد الأمة الواحدة ويحصل بين الأمم المختلفة . أما حصوله بين أفراد الأمة الواحدة فتابع من حيث الشدة والضعف لعقائد الأمة ومبلغ علمها . فإن كانت ذات عقيدة تبعثها لاحترام الضعفاء ، وذات علم يريها أن الحياة يجب أن تكون بالتضامن، قلّ تأثير قوة تمثيل الأقوياء الضعفاء، وصار الكل يداً واحدة للحصول على مقومات الحياة مع امتيازات بين الأفراد لا بد منها.

أما ما يحصل بين الأمم المختلفة من هذا التفاعل ، فهو على أشد درجاته ،

فهي في الحقيقة فيا بينها في حرب مستمرة وإن كان السلم ناشراً أجنحته عليها في الظاهر ، بل ربما نالت الأمة من خصيمتها تحت ستار السلم ما لم تنله في مضمار الحرب ومواقف الطعن والضرب .

هذه الحرب المستمرة تظهر في الأجيال الإنسانية على حسب درجات الناس في العلم وسعة القوة الفكرية ، فبينا تراها بين القبائل المتبدية على أصرح حالاتها ، كالغارات والسلب والسبي ، تراها لدى الأمم الراقية تحصل بوسائل وأساليب غاية في الدقة والخفاء ، وان كانت نتائجها أنكى في الجسوم والعقول من نتائج الحديد والنار . والأمم المرتقية تعرف ذلك تمام المعرفة ، وتعمل عليه كل يوم ، رغماً عما يثرثر به كتابها من الألفاظ المعتادة « كالتقرب بين الأمتين » ، و « مظاهرات الحب والوداد » الخ ... من الجمل الطنانة الرنانة التي تكتب في جرائدها وتلوكها ألسنة خطبائها في أنديتهم ، أما الشرقي الذي هبط من أفق عظمته الأولية ، وحكم عليه أن يحمل نير سلطة غيره تأديباً له على ما فرط وأفرط ، فمركزه وسط هذا التفاعل الحيوي العام من أغرب المواقف وأحرجها ، ولو طال عليه أمد هذه الفتنة لذهبت به إلى مدى بعيد .

يتذكر أنه تريكة قوم ملكوا زمام المعمورة وأثروا فيها آثاراً لاتندثر ، وتركوا خلفهم ذكراً لاينمحي . ثم هو مع ذلك يشعر أنه ليس على سمتهم ، ولا من الحال على مثل حالهم ، يود أن يجد السلسلة التي تصله بهم ، فيعييه حتى يخيل له أنه ليس منهم لولا ما يجده في الآثار من الدلائل الناطقة . هذه الذكرى تولد فيه شيئاً من الشمم والعزة ، ولكنه لايكاد يطرب بأصالته حتى ترن أغلال الأسر في رجله ، وتضيق ربقة الصغار في عنقه فيتضاءل شممه ، وتضعف عزته ، ولايزال يخمد خموداً حتى يظن بنفسه الظنون ، وإذا بروح رجاء تهب عليه من كنوز حياته الكمينة ، يتلوها لافح من الغيرة يتلتل به ليواجه الآمال الجسام ، ويزعجه عن الوقوف والإحجام ، فلا يكاد يخطو خطوات حتى تقابله العقبات ، وتصدمه الصدمات ، وتختلط أمامه السبل وتشتبه عليه المسالك فيمروه مايعرو

الخابط من الدهشة والوحشة ، فينادي من حوله حتى إذا لم يسمع مجيباً ، رجع أدراجه وقنع من الغنيمة بالإياب . وهكذا شأنه كلما هزته نسمات الذكرى ورنحت أعطافه صور الماضي وخيال المستقبل .

يقولون سبب ذلك عدم اتحاده مع أبناء جنسه ، تخاذلهم وعدم تناصرهم ، تناكرهم وعدم تعارفهم ، جهلهم وعدم تهذيبهم الخ ... من العلل المصطلح عليها . ثم ماذا ؟ يقولون : فالواجب أن يكونوا متناصرين ، متعارفين، متهذبين الخ .. ومن العجب أن جميع الأفراد أصبحوا يقولون الآن هذا القول ، ولا نعلم أمة من الأمم يكثر على ألسنة عامتها وخاصتها لفظة اتحاد مثل هذه الأمة ، ومع ذلك فنحن من عدم الاتحاد على ماترى، مما يدل على ضلالنا في علاج أنفسنا أي ضلال.

نقول أن عدم اتحادنا وتخاذلنا وتناكرنا وعدم تهذبنا ، كل هذا ليس المرض بعينه وإنما هي أعراضه ، كما أن اتحادنا وتناصرنا وتعارفنا وتهذبنا ليست هي الضالة التي ننشدها ولكن مظاهرها . فالطبيب الذي لايحارب من المرض إلا أعراضه والمصلح الذي لاينشد من الحياة إلا مظاهرها ، لايجنيان غير الخيبة من وراء جهادهما. فالأول لا يلاشي عرضاً حتى يقوم في وجهه عرض غيره ، فلايزال يجاهد الأعراض وتجاهده ، حتى يعيا جهده ويعيل صبر مريضه . والثاني لاتزال تزدهيه مظاهر الحياة التي يتخيلها لأمته فيطلبها وهي تهرب منه ، حتى يبح صوته وتجمد أنامله على يراعته فلا يجد له غير اليأس محيصاً .

أما لو أضرب الطبيب عن أعراض المرض ولم يحفل بها إلا لتهديه إلى مكان العلة وطبيعتها ، وما زال يتتبع سير المرض حتى يصل إلى حقيقته ، ويصوب إليه أسلحة العلاج ، لاستأصل مادته وقطع بذلك سيول أعراضه المختلفة . وكذلك المصلح لو أدرع بالصبر والتؤدة ، وأتيح له أن يعلم أن غرامه بمظاهر الحياة واشتغاله بالبحث فيها وفي كيفية تطبيقها على أمته بدون التفاته للحياة نفسها ، مضيعة لوقته في غير طائل ، ومدعاة لتعبه من غير نائل ، لألهم بأن أولى المسائل بالعناية والاهتمام ، هو النظر في أمر حياة الأمة قبل كل شيء ،

ومتى استقامت قناتها تداعت إليها تلك المظاهر من تلقاء نفسها تداعياً طبيعياً يستبقي الحياة ويمدها ، لا أن تكون ثوباً تقليدياً يستغيض الحياة ويبددها . فالمسألة إذن استحالت إلى النظر في الحياة .. فهل نحن أمة حية ؟

نعم نحن أمة حية لأننا نحس ونتألم وكفى بهما دليلين قويين على الحياة . إذن ماهذه الأعراض المجتاحة التي تنازعنا من كل مكان ، وتكاد تغرس اليأس في كل جنان ؟ نعمل ولا نثبت ، نفكر ولا نعزم ، نؤمل ولا نهم ، نعرف الخير ولا نسعى إليه ، وندرك الشر ولا نتجنبه ، نسرد قوانين الحكمة ونعصيها ، ونعرف أسرار النجاح ونجافيها ، متعلمنا بائر ، وجاهلنا حائر ، وفقيرنا غير صابر ، وغنينا غير شاكر ، وكلنا يحس بهذا كله ويتألم منه أشد الألم ، وقد استوى في الشعور به الخاصة والعامة ، حتى أصبح الناس كلهم فلاسفة لاشغل لهم إلا ذكر الأمة وأعراضها ، وبسط الطريقة المثلى في علاجها ، ومع ذلك فلا تزداد العلة إلا نشوباً فينا ، وسرياناً في أجزاء هيئتنا ، فما سر هذا الأثر ؟

مادام المريض يحس ويتألم ويرى دواءه بعينيه بين يديه فما الذي يمنعه عن تعاطيه وما الذي يصده عن وجدان شفائه فيه ؟

أينتظر الناس أن نصل من الشعور لدرجة الإغماء أو أن نكون كلنا عمرانيين حكماء ، لنظهر ببعض ما للأمم الحية من مظاهر الحياة ؟

ولماذا نحن نخبط في تيه هذا التناقض من بين سائر الأمم ولسنا بأقلها علماً ولا شعوراً ، ولا بأكثرها شراً وفجوراً ؟

لابد لنا في تعليل مانحن فيه من الرجوع إلى الأصول الطبيعية التي قدمناها وهي قوة التمثيل في الأمم الحية المحيطة بنا ، وقوة المقاومة في الأمم الضعيفة .

لامشاحة في أننا أمة تساورنا مطامع الأمم القوية من كل مكان ، وتحاربنا في السلم بكل مايصل إليه الإمكان ، وماتهيئه أساليب العرفان ، ومعنى تلك المطامع باللسان الطبيعي قوة التمثيل والتحليل فينا ، ولسنا نذمها أو نشتمها من أجل

ذلك، كما لاندم ولا نشتم النبات الذي يتغلب على مجاوره فيمنعه من إتمام الغذاء، والحيوان الذي يصد شريكه في الحظيرة عن الحياة معه على السواء . تلك سنة طبيعية بين الأقوياء والضعفاء . فكل مانحن فيه من التناقض بين علمنا وعملنا ، وما نشعر به من البعد بين شعورنا وما يستدعيه من اتحادنا وتضافرنا، وبالاختصار كل مايجعلنا مسلوبي الإرادة فاقدي الاختيار هو لاشك أثر من آثار قوة التمثيل والتحليل المحيطة بنا من الأمم القوية. ولئن كنا لانشعر بها شعوراً خسيساً، فذلك كما قلنا لارتقاء قوة التمثيل على حسب العلم وسعة الفكر . فالأمم القوية المرتقية لاتحلل الأمم وتمثلها بسلاحها الحديدي فقط ، بـــل بعلمها وفلسفتها وصنائعها واختراعاتها ، وأنها لتنال بهذه الأسلحة الفكرية، ما لا تناله بحديدها ونارها . فترى الأمم الضعيفة بجانبها لا تزداد إلا خللاً وفشلاً وتناقضاً بين الشعور ومـا يستدعيه ، وبين القول والعمل ، حتى تظن بنفسها الظنون وتكون النتيجـة يأسها من القيام بذاتها ، وشعورها بالاحتياج إلى غيرها (تأمل) .

يقول قائل : وأين قوة المقاومة التي قلت إنها روح طبيعية مغروزة في جبلة الكائنات الحية تدفع بها الغوائل عن ذواتها ؟ نقول : تذهب إلى حيث تذهب كل قوة لاتجد منظماً ينظمها ويراقب حركتها ويوجهها إلى حيث يمكن اجتنـاء ثمرتها . ألا ترى إلى قوى تيارات الأنهار المهملة كيف تذهب هـدراً لدى الامم الجاهلة ، بينما هي عند الشعوب المدبرة تدير الآلات بدل البخار ، وتولد الحركة والكهرباء؟وهل قوة المقاومة في الأمم إلا شيء من هذا القبيل ، تحتاج لتصريف وتدبير ، بل هي أحوج إلى الفكر والعلم من أي قوة من قوى الوجود لدوام تغيرها وتموجها ، واستمرار مدها وجزرها ، على حسب الظروف المختلفـة والأحوال التي لا تكاد تحصى، لأن مثارها الكائنات العاقلة ذات الشعور والحركة بخلاف قوى الأنهار والرياح ، فإن لها نواميس معلومة الحدود يمكن ردها إليها في كل حالة من أحوالها .

من هنا يتبين أن الأمم في حاجة كبرى إلى قادة يقودون قواها المختلفة ،

وخصوصاً قوتي التمثيل والمقاومة . والناظر يرى بالحس أن الأمم القوية تختلف في قوة التمثيل اختلافاً بيناً على قدر مهارة قادتها ، فبينا ترى هـذه تلتهم الأمم واحدة بعـد أخرى بسهولة مدهشة ، ترى تلك لا تكاد تساور أمة أو أمتين حتى تغص في حلقها ، وتحتاج لوسائل كثيرة تسهل لها ازدراد غنيمتها ، وربمـا لا تهتدي لوجه الحيلة فتقف حيرى تربصاً للفرص .

أما قوة المقاومة فليست بأقل من قوة التمثيل في الاحتياج إلى القادة العرفاء، وما أقلهم في الأمم المستضعفة الآخذة في الانحلال ! نقول ما أقلهم مع ما يظهر من كثرتهم ، لأن الشروط التي يجب أن تتوفر في قادة الأمم المستضعفة ينـــدر أن تنطبق من الأمة ذات الملايين الكثيرة إلا على أفراد قلائل . فإنه فضلاً عمـا يلزم أن يتحلى به أولئك القادة من العلم الشامل ، والفكر الثاقب ، والبصر النافذ ، يجب أن يكونوا كبراء الأفئدة لا تلفتهم الثروة ، كـبراء النفوس لا تزدهيهم الألقـاب ، كبراء العقول لا تفتنهم المدنية الساحرة ، كبراء الهمم لا تلين الدنيا شكاتهم مهما حاولتهم . وما أقـل هؤلاء في الأمم القوية فما بالك بالضعيفة !

قلنا أن التصارع بين الأمم قانون طبيعي ، وقلنا أن الأمم القـوية تـساور الأمم الضعيفة وتسعى في تمثيلها بجسمها وهي مضطرة إلى ذلك بحكم ذلك القانون الطبيعي نفسه، وقلنا أن الأمم الضعيفة لا تملك بإزاء هذه القوة إلا قوة المقاومة على حسب ما يناسب حالها . من هنا ترى أن المسألة استحالت معنا إلى حقيقتها الطبيعية ، وهي أن بين الأمم القوية والضعيفة حرباً سلمية لا تفترق عن الحرب الحديدية النارية إلا بدقة أساليبها وخفاء أسلحتها ، فتكون وظيفة قادة أفكار أمثال هذه الأمم كوظيفة القائد الحربي ، لا تفترق عنهـا إلا في كون وظيفته فكرية أدبية محضة ، وبنـاء على هـذا التشبيه وجب على كل قائد معرفة جملة أمور مهمة :

أولا – قوة ناموس التمثيل في الأمم القوية وخطوط سيره .

ثانياً ـ قوة ناموس المقاومة في الأمة الضعيفة ووجه الاستفادة منه .

ثالثاً ـ مجال التصارع والنزاع بينهما .

رابعاً ـ كيفية إيقاظ شعور الأمة لإمداد قوة المقاومة فيها .

خامساً ـ طريقة وضع العقبات أمام القوى المحيطة بها لإضعاف قوة التمثيل عنها.

سادساً ـ وجه الاستفادة من هذا التصارع لإكساب الأمة الضعيفة من حياة الأمم المساورة لها بدون خطر على كيانها .

سابعاً ـ كيفية وضع الأمة في مراكز مختلفة بتوجيه عواطفها وأميالها ، لتروغ عن مواقع القوى المسلطة عليها .

هذه الأمور المهمة أهم ما يجب أن يتحلى بها كل قائد من قواد فكر الأمة ، وهي كما ترى من المسائل العويصة المعضلة ، ولِمَ لا تكون كذلك؟ أيظن الناس عندنا أن قيادة الأمم في الحرب الحيوية أسهل من قيادة الجيوش في المواقف النارية ؟ وإذا كان الناس يعرفون أن غلطة القائد في ترك مركز ، أو في احتلال نقطة ، يسبب له خسارة المعركة ، ويكسبه عار الهزيمة ، فكيف لا يتصور الناس أن خطأ القائد الفكري في الطعن على خلق من أخلاق الأمة أو في دعوتهم الى التحلي بعادة من عادات الأمم الأخرى ، يسبب لمتابعيه ضياع الأمر من أيديهم ويسمه وإياهم بوصمة القهقرى والخيبة ؟

كيف نحيا بلا وجهة ولا غاية

يستحيل على أي فرد من الأفراد أن يسلك مسلك الجد في أعماله ، والدأب وراء تحقيق آماله ، ما لم يحدد لنفسه غاية يجعلها مرمى عزائمه ، وملتقى أشعة همه ، ومجتمع تيارات قواه المودعة في تركيبه المادي والمعنوي . لأن تعين تلك الغاية أمامه يجبره بحكم الضرورة إلى جمع شتات كل مواهبه وملكاته إلى

وشيجة واحدة، وتوجيهها كلها إلى وجهة مشتركة، ليكون سيره وهو مستجمع قواه إلى ما يريد بلوغه أسرع خطواً وأيسر مجهوداً مما لو رامه وهو موزع القوى، غير منضم الأميال والعواطف.

ليست وظيفة الغاية إيجاد قوى جديدة للإنسان، أو تمتيعه بمواهب تزيد عما قدر له، ولكن نتيجتها الوحيدة ضم ما تشتت من أمياله، وجمع ما تشذر من عواطفه إلى سيال واحد، وناهيك بهذا التوجه من مؤثر على كيان الفرد من وجوه لا يكاد يحصيها الكاتب، وإذا أردت تمثيل فعل الغاية ونتيجتها بمثال محسوس قلت:

مثل الانسان في تفرق قوى ملكاته وتبعثر تيارات مواهبه، أي في حالة فقده لوجهة معلومة تؤديه إلى غاية معينة، كمثل مرجل (قزان) الآلة البخارية حينما يترك وشأنه مكشوفاً للجو يتصاعد بخاره ويذهب إلى حيث تميل به الرياح، تارة يميناً وطوراً شمالاً ومرة صاعداً وأخرى مضطرباً مشوشاً حتى ينتهي الماء، وتخمد النار، ولم يأت بفائدة غير ما نالك من تعب مجاورته وحرارة تنوره. ولكنك لو أخذت ذلك المرجل نفسه، وحصرت بخاره إلى تيار واحد، ووجهته وجهة معلومة تر أنه قد أتاك بقوة هائلة تستخدمها في أعظم ما يرجى من مثلها، كتحريك الآلات الضخمة وتوليد الكهرباء مما له أعظم دخل الآن في إظهار المدنية الإنسانية في شكلها الساحر المعلوم. كذلك حال الإنسان من حيث قوى مواهبه وملكاته لو وجهها إلى وجهة واحدة وضمها إلى وشيجة مشتركة. وليس الإنسان وهو العالم الأصغر أو النسخة التامة لصورة كل هذا الوجود، بأقل فائدة لو توجه وجهة الحق، وضم كل مواهبه إلى تيار واحد من ذلك المرجل الحديدي. كيف ذلك وهو صانع المرجل نفسه ومدرك سر ضغط البخار؟

هذا مثال محسوس يريك سر اتخاذ الوجهة وسر عدمها بما لا يمكن معه شك ولا يثبت معه تردد، وهو سر كبير عرفه أفراد من الأمم فارتفعوا بمواهب

عقولهم وقوى نفوسهم إلى حيث تتمنى الفراقد أن تكون مواطىء أقدامهم ، وصاروا لأممهم أدلاء إلى سبيل الخير ومرشدين لهم إلى طرائق الفلاح ، ومناهج السعادة .

هذا شأن الفرد الواحد من حيث تعين الغاية وتحدد وجهتها ، أما شأن الأمم فيها فأكبر من ذلك ، لأن أثر ذلك يكون فيها أشد وضوحاً ولألاء ، ونتائجه عليها أكثر دواماً وأكبر شأناً ، وناهيك بالأثر الحاصل من توجه الملايين من النفوس إلى غاية مشتركة ونقطة معينة ، تنتهي إليها سائر مراميهم ، وتلتقي فيها كل مطامحهم ، وترتكز عليها مجموع قواهم . قل لي بعيشك ماذا يكون مقدار تلك القوى الهائلة المركزة في نقطة واحدة ، وعلى أي وجه تتصور جسامة أثرها في تجلية حياة الأمة ؟ إذا كانت العدسة الزجاجية بتركيزها بعض أشعة الشمس في نقطة واحدة تتوصل إلى إحراق ما يعرض إليها من الأجسام ، فما تقول في تلك النقطة المدهشة التي يرتكز فيها أميال وعواطف ومشاعر الملايين الكثيرة من أمة حية لها فكر واختيار وإرادة ؟

نعم ، تختلف الغايات باختلاف الأمم ودرجات إدراكها ، ويختلف أثرها تبعاً لذلك قوة وضعفاً ، ثباتاً وذبذبة ، ولكنها مهما كانت أفضل من عدمها بما لا يقدر ، لأنها دليل الحياة والمؤدية إلى كمالها ، وأما عدمها فعلامة الموات ونذير التلاشي .

لتوحد الوجهة والغاية في الأمة أثر لا يقارن بغيره من آثار العوامل الاجتماعية الأخرى ، ولو قلت أنه الينبوع الذي ينفجر منه سلسبيل الحياة الاجتماعية للأمة ، وتتدفق منه أمواج النور عليها . لما كنت إلا مصيباً . ثم لو قلت إنه الناموس الأقدس الذي تحمله الأنبياء إلى أممهم ، فيحدثون فيهم بواسطته الأحداث التي تغير شكل الأرض من حال إلى حال آخر ، لما كنت إلا متكلماً عن الواقع . وليس السحر الذي يؤثر على المشاعر فيجعلها تحس بغير الحقيقة ، وتتأثر بسوى الواقع ، بأكثر فعلاً في إدهاش العقل من آثار وحدة الوجهة والغاية في الأمة .

ما الذي يأخذ بأكظام الهمم في الأمم، وينفخ في نفوس آحادها روح الثبات في قراع أعدائها ، وريح الحمية الحقة لذود الضيم عن حياضها ، غير وحدة الغاية والوجهة ؟ ما الذي يصيح في وجهها إن أصابتها مصيبة ، أو نزلت بها نازلة إلى التهيؤ للم شعثها ، وضم نشرها ؛ ورأب ما تصدع من أركانها ، غير وحدة الغاية والوجهة؟ ما الذي يزعجها إلى مسابقة الأمم في مفاخرها، ويبعثها إلى مساماتها في فعائلها ، ويخزها على تقاعدها عن مجاراتها والفوز عليها ، غير وحدة الغاية والوجهة .

إلا أن وحدة الغاية والوجهة سر عظيم ، وإكسير عجيب ، لو أصاب أمة ولو كانت متوحشة لنفخ في آحادها روحاً لا يدرك كنهها، ولا يعرف مستقرها، ولسمت بها في أقرب مدة إلى أعلى منصات المجد وأرفع دسوت السعادة .

وبالضدّ من ذلك يكون أثر عدم الغاية والوجهة في الأمم ، فإنه ما أصاب قوماً إلا وشعّب جمعهم ، وشتت ألفتهم ، وضرب عليهم الذل ، وسجل عليهم الشقاء والضراعة ، وجعل بأسهم بينهم شديداً ، وحكم في رقابهم الهوان والضعة ، وقادهم إلى حيث يفقدهم إرادتهم ويسلبهم شخصيتهم .

ترى أفراد أمثال هذه الأمة حيارى ، لا يدرون لهم غاية ينتهون إليها ، ولا يدركون لهم وسيلة يعتمدون عليها ، يظنون بأنفسهم العجز ، ويعتقدون بهممهم الكلال ، ويغالون فيحسبون أنهم أدنى من طوائف غيرهم من البشر ، فيرون في التقليد مخرجاً لهم عن ذلك ، فيهرعون إليه بكليتهم ، ويتساقون إليه بجميع قواهم ، ويخالون أنه لو كانت لهم قوة مرجوة فهي في التصاقهم بسواهم ، وتعلقهم بأذيال من عداهم . ترى الواحد منهم يظن أنه خرج عن أمته بتعلمه كلمتين يعوج بهما لسانه ، أو يحرك بكتابتهما بنانه ، ويستهتر في ذلك حتى لا يظهر سروره وموجدته إلا بما علقه ذهنه من لغة غير لغته ، لعلمه بأن لغته دليل على جنسيته وهو لا يريد أن يكون شرقياً .

إذا بليت الأمة بعدم الوجهة والغاية ، كانت كل شؤونها متعاكسة ، تنال

غير ما تتمنى ، ويأتيها غير الذي تشتهيه ، ولا يحصل لها إلا عكس ما تسعى إليه . ترى أفرادها لانقطاعهم إلى أشخاصهم ، وعدم تخطي أمانيهم لدائرة ذواتهم ، يطلبون الغنى بشره يبلغ حد الجنون ، ويبيعون في سبيله كل ما يعترضهم من شرف ذاتي ، أو مصلحة عمومية ، ولكنهم مع ذلك لا يزدادون إلا فقراً ، ولا يجنون من وراء تفانيهم في شرههم إلا متربة وعدماً . تراهم يتزاحمون إلى منصات الرئاسة ، ويتسابقون إلى رهان الزعامة ، فلا يزدادون إلا هبوطاً ، ولا يكسبون إلا هوياً . تراهم كلهم فلاسفة يتكلمون في ضرورة الاتحاد ولزوم الوئام لبلوغ المرام من النظام العام ، وكثير منهم يمضي أكثر عمره في سن قوانين العمران ، وتشريع أساليب المدنية والحضارة ، فلا يزدادون مع ذلك إلا تمزقاً وفرقة . ولا يجتنون إلا تشتتاً وبغضة . تراهم ينعون على بعضهم التقاعد عن معالي الأمور ، ويتعايرون بالإسفاف في دنايا الشؤون ، ويلقي كل منهم التبعة على غيره ، فلا يزدادون إلا تسفلاً ؛ ولا يكسبون من وراء ذلك إلا ضعة ومهانة .

كل هذه الآثار تابعة لأمراض اجتماعية شديدة الوطأة لها أسباب وعلل ظاهرة ، ولسيرها قوانين ونسب مضبوطة يعرفها أطباء الاجتماع ، ولكل منها علاج خاص ، ودواء لا يفيد فيه غيره ، إنما يجمع هذه العلل كلها عدم الوجهة والغاية ، ويلم سائر علاجاتها تحديد الوجهة وتعيين الغاية . فكيف نجعل لأنفسنا وجهة وغاية ؟

كيف نتخذ لأنفسنا غاية ووجهة :

كيف نجعل لنا غاية ترتكز فيها سائر عواطفنا ومرامينا ، ووجهة تؤدينا إليها ؟ هل يكون الإسلام وجهتنا كما كان وجهة آبائنا الأولين ؟ وهل يتأتى ذلك في عصر العلم الذي قرر بأن أزمنة الأديان قد انقضت ؟ وما الوسيلة إلى حل الشبهة التي رانت بالعقول من جراء قيام الأمم ورقيها مع مجاهرتها بنبذ الدين ومعاكسة أهله ؟

إن حل كل هذه المسائل متوقف على معرفة ماهية الدين وفي يقيننا أن معالجة البحث عن هذه الماهية على الأسلوب التحليلي العصري يكفي وحده لبلوغ النهاية مما تصدينا له ، ويفتح للباحثين في شؤون الأمـــة الإسلامية باباً جديداً للنفوذ منه إلى مـا يرجونه من بعثها من خمولها ، وتخليصها مما تورطت فيه من أحوالها .

ما هو الدين ؟ هذا السؤال وإن كان شائعاً بين الأمم ، وله عند كـل فرد منها جواب حاضر ، إلا أنه من أعوص المسائل الفلسفية ، وليست أجوبـة السواد الأعظم عليه إلا منتزعة من الخيال المحض . أما الحقيقة التي اهتدى إليها أساطين الباحثين في الأديان والعقائد ، فهي أنه شعور فطري في الإنسان بوجود قوة عظمى لا نهاية لها خلقت الكون ونظمته على مقتضى الحكمة والعلم ، وأن لها السلطان المطلق عليه ، ووجود روح للإنسان لها حياة أخرى في دار بعد هذه الدار ، وعلى حال غير هذه الحال ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليهـــا لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

هذا الشعور وحده هو الدين الفطري على أبسط أشكاله ، بل هو الشكل الوحيد الذي بعث الله المرسلين لحياطته والهيمنة عليه من تأثير الأهواء والخيالات ، ولإبانة ما ينبني عليه من عمل لنيل فضيلة ، أو جري لاكتساب كال ، ولإيضاح ما يلزم إيضاحه للنـــاس من الحدود التي يجب الوقوف عندها في وصف الإله وتعريفه ، وفي قانون الأخلاق الذي يجب أن يسوده كل إنسان على نفسه ويجري على سنته .

في الإنسان كثير من العواطف والإحساسات ولكل منها دخل في تكميل تركيبه الداخلي والخارجي ، وأثر في قيامه على منهاجه المعلوم من الاجتماع على مثله ، وتعمير الأرض واستثمارها ، وتسخير كائناتها لذاتـه ، وسعيه وراء كال يحس به ويتألم لفقده . فمن عواطفه مثلاً حب الاستقلال والحرية ، والدفاع عن

الذمار، والحصول على ما يقيم أوده، ونيل ما يرفعه على غيره من مزايا الوجود، والجري وراء الحامد . كل هذه العواطف مغروزة في جبلته على كيفية مطلقة ليس لها قانون فطري ، كما لأمثالها عند الحيوان ولذلك فهي محتاجة لقانون تسير عليه لتؤدي إلى الأغراض التي وجدت لأجلها ، وإلا فلا يأمن صاحبها من العقبات في سيره تكبه على وجهه تارة وتلقيه على قفاه أخرى .

ألهم البشر أن كل هذه العواطف تحتاج إلى نظامات وقوانين تسير عليها ، فأعد الله بعض أفراد من البشر للانقطاع إلى درسها مقهورين لا مختارين ، لما يجدونه من البواعث القاسرة لهم على ذلك بتأثير مراكزهم في الحياة ، فآب كل منها بنتائج من العلم تلائم حالة جيله ونقله إلى أخلافه ، ولم تزل نتائج المدارك تتهذب على توالي الأحقاب ، وتعاقب القرون حتى وصل الإنسان إلى مـــا هو عليه الآن .

فنشأت من عاطفتي الاستقلال والحرية مثلاً علماء الشرائع على اختلاف نزعاتهم وأزمنتهم يسنون للناس سنة الاعتدال في أداء مطالب تينك العاطفتين، ويرونهم الجادة الوسطى بين الاستقلال والحرية المطلقتين ، كما هي عند البهائم ، وبين الاستقلال والحرية المعتدلتين وكيفية أخذ النفوس للوصول إليها على وجه عادل . وأنتجت عاطفة الدفاع عن الذمار رجال القيادة العسكرية وغطاريف الحرب ، يعلمون الناس أوجه الهجوم والدفاع ، وتأثير المواقف المختلفة على الأولياء والأعداء صلاحاً أو فساداً . وأنتجت عاطفة الحصول على مادة الحياة رجال العلم من الزراع والمهندسين والطبيعيين الخ ... يعرفون الناس وجـــوه السير في استغلال الطبيعة واستخدام قوانينها في صالحهم ، وهكذا فعلت كل عاطفة من العواطف وولد كل إحساس من الإحساسات المغروزة في طبيعـة الانسان ، وهو لولا ما سيق إليه من تهذيب قواه وملكاته لبقي متوحشاً ، لا يستطيع البقاء على الأرض ولا على مثل ما يعيش الحيوان .

أما عاطفة الدين، فهي وإن كانت واحدة من تلك العواطف إلا أنها ملكتها

وسيدتها ، وفي يدها أزمّة جميعها ، لأن محلها أشرف محل في وجدان الإنسان ، وغايتها أخص الغايات بالنسبة إليه حتى أن الملحد الذي هتكت الشكوك فكرته ليتمنى من صميم فؤاده أن لو كان ما يقوله الدين صحيحاً ، وقد شهدت تواريخ العالم كله أن الأمم ما تدرجت في مدارج الحضارة، ولا اجتازت عقبات الحياة الوحشية ، إلا والدين قائدها ومرشدها ، والاعتقاد مسخرها ومصرفها ، كما شاهدت أيضاً بأن تهالك الإنسان في احترامه ، وتفانيه في حبه قد بلغ عنده حداً ضحّى معه النفس والولد والأهل والوطن في سبيل مرضاته.

ذلك لأن أعظم شيء يهم الإنسان في وجوده هي الطمأنينة على حياته ، لأنها أعز شيء عليه، بل هي رأس ماله الوحيد الذي في فقده فقد كل شيء، وفي وجوده وجود كل شيء ، وكلما ترقى في مراقي العقل ، وعرج في معارج العلم ، ومدارج الفهم ،وازداد نظره نفوذاً في أشياء الكون وموجوداته ، كثرت العلاقات بينها وبين الكائنات المحيطة به ، وتجلت له أهمية حياته في مظهرها الصحيح ، وازداد شغفاً بها وبمستقبلها ، وتحسساً عليها وعلى ما ستؤول إليه، وصارت هذه المسائل : « ماذا أنا ومن أين أنا وإلى أين أذهب » ، ملازمة له في كل تصرفاته وتوجهاته ، فينساق قهراً عنه إلى البحث عن أصل الوجود ومبدئه ، والتنقيب في وجود ذاته ومصيرها . ومن رحمة الله بهذا النوع الإنساني ، أن جعل هذا السبيل الفطري الذي يجد الإنسان نفسه مسوقاً إليه لنيل سعادته الروحية ، سبيلاً لسعادته المادية أيضاً ، فإن سيره فيه كما ينتج تنوره بأسرار الخليقة ، وتعرفه ما وراءها من القوة الفعالة ، كذلك ينتج له الوقوف على سر نواميس الكون وكيفية استخدام أشيائه لراحته وتسخير كائناته في صالحه. فمن سار في هذا الطريق طالباً سعادة الروح ، آب بلا شك وهو محصل سعادة الجسد معها ، كما حصل لأصحاب سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لأنهم في مبدإ الأمر ما كان نصب أعينهم إلا سعادة أرواحهم وبلوغ الغاية من كمالاتها ، فلم تلبث أن أتتهم المادة صاغرة لوحدة طريقها، وبالعكس من سار هذا الطريق نفسه طالباً سعادة الجسد رجع بلا شبهة حاصلاً على سعادة الروح أيضاً للسبب الأول عينه . وإلى

هذا يشير قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ولكن هذا الوله الذي يظهر به الإنسان بالنسبة لعاطفة الدين ، لم يحمها من إفراطاته وتفريطاته ، كما هو شأنه في كل حساساته ، بل رأيناه كما استخدم لها كلّ قواه الظاهرة استخدم لها أيضاً كل قواه الباطنة ، فجعل عقله وفكره وخياله وقفاً على إبلاغها كالها فيه ، فلم يقف به الجهد عند حد ولم ينته به الجد دون غاية . فسخر لها العقل والفكر حيناً ، والخيال أحياناً فشطح به إلى ما وراء ما ينتهي إليه علمه المحدود ، وحيث تقف دونه مواهبه المناسبة لوجوده ، فذهبت كل طائفة من الناس مذهباً يشذ عما ذهبت إليه سواها ، لأن مجال الخيال بعيد الأكناف شاسع الأرجاء ، له مسالك لا تتناهى ومناهج لا تحصى ، فنشأ الخلاف في مدركات الدين ، ونجمت شعبه المتعاكسة ، وأصرت كل فرقة من الناس على مجموع ما تخيلته وانتحلت له اسم الدين ، مدعية أنها صاحبة القول الفصل فيه ، ومدعمة قواعده ومبانيه ، وأنها على الحق وما عداها على الباطل ، وهي حالية بحلاه وسواها من الفرق عاطل ، ونسبت إلى رجالها القائمين على شرعتها ما شاء هواها من الاختصاصات والخصوصيات ، وقسمت أمورها إلى أقسام لاءمت بها الأهواء والنزغات ، فأصبح الدين بذلك مركباً صناعياً ، بعد أن كان بسيطاً فطرياً ، وصار إنسانياً خيالياً بعد أن كان إلهياً حقيقياً ، فلا جرم أنه أضحى بهذه الصفة داعية الخلاف بين البشر ، ومجلبة النزاع بين الأمم ، ومدعاة التفريق بين القبائل ، وموجب الحرب والحراب بين العشائر ، ومهب النزغات التي لا تلائم حياة الإنسان ، ولا تسير به على ما هو مدفوع إليه من سنن العمران . ولا غرابة بعد ذلك إن نبذته العلوم والمعارف ، وعادته الأبحاث والفلسفة ، وقاطعته الفنون والحكمة ، كما لا عجب إذا ارتقت الشعوب على نسبة تركه ، وصعدت في معارج الكمال على قدر جسارتها من نبذه ، وصلحت أحوالها وشؤونها على مقدار بثها روح التربية على ضده ، ولكن ما نتيجة هذه الحركة من تلك الأمم في معاداة الأديان والتفصي من شباكها ؟

هل النتيجة كشط ما فطرت قلوب البشر عليه من عاطفة الدين الفطري ، ومحو ما نقشته يد القدرة على ضمائرها من آثاره ؟ هل النتيجة أن تخلو يوماً من الأيام من أشرف عواطف الإنسانية وأجمل خصائصها من الاعتقاد بوجود القدرة العظمى التي وضعت هذا الكون البديع على هذا النمط المدهش ، ووجود روح للإنسان لها حياة بعد هذه الحياة ؟ يستحيل أن يكون ذلك ، فإن تغيير الفطر من المستحيلات التي لا يفكر في الحصول عليها مجنون ، فضلاً عن عاقل . ومـا دام الاستدلال العقلي ، والاستنتاج الفكري ، موجودين في الإنسان ومرتقيين فيه ، فلا سبيل مطلقاً إلى تلاشي هاتين العقيدتين من نفوس البشر .

ولكن الحقيقة المشاهدة بالعين أن هؤلاء الأقوام المرتقين ما فعلوا بكل هذه الجلبة والملاجة التي استمرت قروناً عديدة إلا أمرين اثنين ، ولكنهما عظيمان للدرجة القصوى وهما : أولاً : الخلاص من كل الخيالات التي انتحل الناس لهـا إسم الدين . وثانياً: الاستقامة على المنهج الطبيعي الأصل، وهو النظر في الكون والنفس نظراً صحيحاً مؤسساً على العقل والتجربة .

هذه الأمم فعلت ما فعلته بإسم الإلحاد وعدم التدين ولكنها وافقت بذلك مطلبي الدين الفطري نفسه ،وهما تخليص النفس من الخيالات والأوهام ،والاستقامة على طريق البحث في الكون والنفس ، فكيف لا ترتقي تلك الأمم إلى منصات السعادة المـادية ، وتأخذ من الوجود قسطاً أسمى مما لأصحاب الأديان أنفسهم ؟ ماذا أضر هؤلاء سيرهم طريق الدين بالفعل بإسم العلم ، مع نكران ذات الدين طيشاً منهم (لأنهم لم ينتهوا بعد إليه ولم يعرفوه) ، وماذا نفعنا نحن اعترافنـا بالدين وسيرنا طريقاً غير طريقه ؟ .

قلنا فيما سبق ، إن طريق سعادتي الدين والدنيا واحد ، وما سارت أمـة عليه للحصول على أحديهما إلا نالت الأخرى لارتباطهما ببعضهما . فهـل سرت تلك السنة على أوروبا من جريها وراء السعادة المادية ؟

نقول نعم . فإن تلك الحمى الهائلة التي أصابت جسمها في القرن السابع عشر

والثامن عشر ومقدمة القرن التاسع عشر ، وظهرت آثارهـــا بمظهر الهذيان (الهلوسة) بنكران أصل الدين والجحود بكل ما يؤدي إليه قد فثثت الآن لوعتها ، وانجلت ببروز ذلك الاعتقاد بأصالة الدين وفطريته ، وبوجود الروح والخلود بأحسن مظهر ينتظره صاحب الدين الفطري ، فإنه لم يحن النصف الأخير من القرن التاسع عشر حتى ظهرت تلك الحركة العجيبة حركـة (المانيتزم والاسبرتزم) التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح ، ونجمت في عالم المطبوعات مئتا مجلة لا شغل لها إلا إثبات الروح والمعاد ، وسينتهي بهـا الأمر إلى العدل التام بين مطالب أجسادها وأرواحها مصداقاً لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فما هو طريقنا الذي نسير عليه ، وما هو الحال الذي سنؤول إليه ؟ إننا لو كنا سائرين في طريق السعادة المادية سيراً حقيقياً ومتصفين بما يستدعيه من الجد في الأعمال ، والقصد في الأمور ، لكنا بشرنا أنفسنا بالوصول الى السعادة الروحية أيضاً ، ولو بعد حين ، لارتباطهما كما قلنا ببعضها ؛ ثم لو كنا ناهجين منهـاج الكمالات الروحية ، ومتحلين بمقتضياتها من الدأب في الطلب والتعطش لنيـل الغرض لكنا منينا أنفسنا بالحصول على الكمال في الأمور الجسدانية أيضاً ، كما حصل لآبائنا الأولين ، ولكنا الآن على غير طريق نخبط في الحياة خبطـاً ولا نسلك في مجالها إلا صدفة ، لا أساس لأمورنا ، ولا ضابط لتصرفاتنا ، ولا قاعدة نرد إليها محاولاتنا . مجال الحياة أمام أعيننا أضيق من رقعة الشطرنج لا يعوز تدقيقاً ، ولا يستوجب روية .. فهل سأل واحد منا نفسه ما هذا الوجود الذي نعيش فيه ؟ وما هي وظيفتنا في الحياة ؟ ما هو طريق الفلاح ؟ مـا هو منهاج النجاح ؟ ما هو قانون سعادة الأفراد والأمم ؟ ما هي مطالب الدين وما هي مطالب الدنيا ؟ وهل نستطيع أن نعيش بأحدهما دون الآخر وما وجه التوفيق بينهما ؟ وعلى أي طريق نحن نسير وإلى أي حالة سنؤول ؟ أما للحياة قانون ؟ أما لمقدمات أعمالنا نتائج ؟ إذا تكلف أحدنا وسأل نفسه هذه الاسئلة أخذته الحمية وتيقظت في نفسه عوامل الغيرة ، ومال لأن يأخذ نفسه بأحـــد هذين

القانونين : إما قانون آبائنا الأولين الذين بهروا بسرعة رقيهم العالمين ، وإما قانون معاصرينا المتمدنين الذي سحروا برونق مدنيتهم الناس أجمعين .

هذا موقف الحيرة ومزدلق الفتنة ومهب الشكوك وباب الإلحاد ، فلندع الفصل فيه لفصلنا الآتي إن شاء الله تعالى .

★

الإسلام دواؤنا الوحيد

« إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم »

أثبتنا أنه لا بد لكل أمة تود الحياة والبقاء من وجهة تسير عليها ، وغاية تسعى في الوصول إليها ، وبرهنا أننا قد ضللنا وجهتنا وتغابينا عن غايتنا ، وأننا لسنا على طريق يوصل إلى سعادة ما من أي نوع كانت ، وعلمنا تبعاً لذلك أنه لا بد لنا من غاية ووجهة ، فهل يمكن أن يكون الإسلام وجهتنا كما كان من قبل وجهة آبائنا ؟ وهل يصل بنا إلى أكمل الغايات كما وصل بأسلافنا ؟ لا نظن أن الجواب على هذه الاسئلة بالأمر الصعب المضلل للمدارك إذا دققنا النظر في التمهيد الآتي وهو :

الإنسان مسوق بدوافع طبيعية قهرية إلى سلوك مناهج الحياة على اختلاف سبلها ، وقد وضع الخالق الحكيم في جبلة الإنسان من العوامل المتباينة ، وفي الكون الخارجي المحيط به من النواميس والقوانين ما تلتئم ببعضها وتتكامل ، فتؤدي الإنسان بمجموعها إلى أحسن ما قدر له من رقي صوري ومعنوي ، وقد سمى علماء الإنسان هذه الافعال والانفعالات المتبادلة ونتيجتها بناموس الترقي . هذا الناموس ، وإن لم يظهر تمام الظهور في الأفراد ، فهو في الأمم جليّ لا يحتاج

إلى طويل استقراء . وإنك إن عنيت بالبحث عن الغاية الوحيدة التي رامهـــا الإنسان من جهاده الطويل وراء استكناه المجاهيل الوجودية ، فلا تجدها إلا ميل الإنسان بالفطرة إلى التوفيق والملاءمة بين العوامل الموجودة في طبيعتيه الروحية والجسدية ، وبـين العوامل الموجودة في الكون الذي خلق الإنسان مناسباً له موافقاً لنظامه ، وبناء على هذا فلا تتقدم أمة في شيء إلا على قدر نسبة توفيقها بين تلك العوامل الإنسانية والكونية ، كما أنها لا تتأخر إلا على قدر بعدها عن ذلك التوفيق .

إذا تقرر هذا،نقول : لقد قامت أمم في أدوار التاريخ وقعدت،واضطربت وسكنت ، وتقاتلت وتسالمت ، وعلت وسفلت ، وحييت وهلكت ، وذاقت من مرارة العيش وحلاوته ألواناً ، وحصلت من نتائج جهادها الطويل علمـــاً وعرفاناً ، وكونت لها من جراء السير على سمت الوحدة الفطرية عقائد وأدياناً ، ولم تزل تكتسحها الحوادث حتى جاء القرن السابع ، وإذا بمنادٍ ملكوتي دوت لصوته أرجاء الأرض يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنـا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمـــة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . فلم تكد تلتفت الأمم إلى مهبط ذلك الصوت السماوي ، حتى رأوا أن ذلك المنادي قد التف حوله رجال صدقوا مـا عاهدوا الله عليه تالين على أنفسهم : « وعد الله الذين آمنـــوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ، فـاستهزأت أمم وأعرضت أخرى وإذا بذلك الوعـد الإلهي قد تحقق ، ولم يمر على تلك العصابة القليلة العَدد والعُدد ثمانون سنة حتى صارت القابضة على الصوالجة التسع : صوالجة الدين ، والعلم ، والسياسة ، والتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والحرية ، والعدل ، والمساواة ، من بين كل الأمم العريقة في المجد . هذه قضية تاريخية لا ينكرهـا أحد ، فما سبب هذا الحادث الجلل ، وما علة هذا الانقلاب المدهش الذي لم يحصل مثله في تاريخ النوع الإنساني ؟ إما أن نقول أنه حصل صدفة على حد قول الجهال في دعواهم ، بأن الكون كله وجد بالصدفة ؛ وإما أن نقول كما

يقول العقلاء من الناس ، أنه لا بد من أن يكون قد ابتني على أسس وقواعد ، وقام على أصول ودعائم . إن كان هذا الأمر الأخير هو الجدير ببحث العقلاء ، فما هي تلك الأصول والقواعد ؟ هل لم تزل تلك الأصول والقواعد صالحة لإحياء الأمم وبعث الهمم ؟ ما هي أصول وقواعد المدنية الأوربية ، وهل تخالف أصول الإسلام أو توافقه؟ وهل سرعة تقدم المسلمين وسهولة تطورهم من حال إلى أخرى تدلان على فضل قواعد مدنية المسلمين على مدنية الأوربيين ، حيث أنهم لم يصلوا إلى ما هم فيه إلا بعد جهاد طويل وسفك دماء غزيرة استمرت قروناً كثيرة ، هذه كلها مباحث وإن كان كل واحد منها يحتاج إلى سفر ضخم ، إلا أنها مما يمكن الإشارة إليها بنوع من الإيجاز ، فنقول :

أثبتنا فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى قد جعل طريق الرقي المادي والروحاني واحداً ، وهو النظر في الكون والنفس نظراً صحيحاً ، وأن الناس لم يتنكبوا هذا الطريق إلا طاعة لأهوائهم وخيالاتهم المنافية للعلم ، قال تعالى : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » ، وبرهنا أن الذي يسلك ذلك الطريق طلباً لإحدى السعادتين لا يؤوب إلا والأخرى معه رغم أنفه لارتباطها ببعضها في النتيجة . وقلنا إن نيل أصحاب سيد الأنام صلى الله عليه وسلم لسعادة الدنيا مع أنه لم يكن نصب أعينهم في مبدإ الأمر إلا سعادة أرواحهم ، وإن اقتراب المتمدنين العصريين من الحصول على السعادة الروحية ، مع أنهم قاموا في أول الأمر باسم الإلحاد لنيل سعادة المادة ، ظاهرتان اجتماعيتان اكتشفنا بهما ذلك الطريق الفطري الجامع لشتات القوى الإنسانية كلها الذي أشار الله تعالى إليه بقوله : « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، وقوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » ، ولم يقل في آية من الآيات مع كثرة حثه على الأخذ من الدنيا اتبعوا هذين السبيلين سبيل السعادة المادية وسبيل السعادة الروحانية ، بل قال جامعاً بين تينك السعادتين : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ، وقال : « فآتاهم الله

ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » ، أي لما ساروا على سبيله الوحيد الفطري الذي يقول عنه تعالى : « إنا هديناه السبيل » .

وقد وصلنا بالتحليل العلمي بعد ذلك إلى أن أوروبا لم ترتق في الماديات إلا لما هدتها حوادثها وأجبرتها كوارثها على سلوك ذلك السبيل ، فنهجته باسم العلم مع أنه المنهاج الوحيد الذي يوصل إلى السعادة المطلقة ، وهي ، وإن لم تنته بعد إليها ، إلا أن ما تصادفه وستصادفه من نوازل وملمات ستجبرها رغم أنفها إلى تكميل نقصها الروحاني أو تسحقها كما سحقت سواها من الأمم ، والله عزيز ذو انتقام .

فلننظر الآن إلى السبيل الذي سلكته أوروبا لتحصيل مدنيتها المادية لنثبت للناس أنه مقدمة ذلك السبيل المهيع الذي أرشدنا إليه الكتاب العزيز قبل ثلاثة عشر قرناً . وإليك البيان :

قامت مدنية أوروبا على أركان ، وثبتت على أصول لا يوجد منها أصل ولا ركن إلا وهو موجود في كتاب الله بالنص ، فلنشر إلى أهم تلك الأصول ، واضعين بإزاء كل أصل الآية التي تقابله ، لنؤدي بذلك غرضين عظيمين: أولهما — أن مدنية المسلمين لم تقم جزافاً ولكنها كانت مستندة على أكمل الأسس الممدنة الملائمة لسنن الكون وطبيعة الإنسان ، وأنها بذلك سبقت المدنية الأوربية بعشرة قرون في تقرير القواعد العالية ، ليظهر للناس كلهم أن المسلمين لا يحتاجون لتقليد سواهم في أي شأن من الشؤون الإنسانية غير الصناعة التي هي ميراث العالم كله ، تنقلها أمة إلى الأخرى ، وقد نقلناها نحن إلى الغربيين كما نقلها إلينا غيرنا ، وسيرى القارىء في نتيجة هذا البحث أن أوروبا هي التي سترغم يوماً من الأيام لأن تقتدي بكتابنا في تتميم مدنيتها ، لتستطيع أن تستقيم على الصراط الذي دفعت إليه ، كما قلدتنا في كثير من الأصول ، أما أصول المدنية الأوروبية كما تقر عليه علومهم وعلماؤهم فهي :

١ ـ الإنسان أشرف الكائنات الأرضية . قال الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

٢ ـ الإنسان مخلوق لاستخدام الطبيعة وتحسينها والاستفادة منها . قال الله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » .

٣ ـ الإنسان بصفته أشرف الكائنات يجب عليه أن يأخذ بأحسن الأشياء . قال تعالى : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ، « قل لا يستوي الخبيث والطيب » .

٤ ـ لا يتم للإنسان كمال إلا بالعلم . قال الله تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، « لا يستوي الأعمى والبصير » .

٥ ـ لا يجدر بالإنسان أن ينساق مع الأوهام والظنون وأن يصدق ما لم تحققه الشواهد والبراهين ، قال تعالى : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون الا الظن وإن هم إلا يخرصون » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

٦ ـ في الكون نواميس ثابتة ونسب للأشياء المضبوطة مرتبط رقي الإنسان بمعرفتها وتطبيق مساعيه عليها . قال تعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ، « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

٧ ـ تقرير الحكم الشوري الذي تتفجر منه كل الحريات الضرورية للإنسان ، قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، « وشاورهم في الأمر » .

٨ ـ إختلاف المشارب ضروري لبقاء صرح المدنية ، قال تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

٩ ـ إبطال الحقد الديني ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم إن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

١٠ — الاعتدال رأس كل فلاح ، قال تعالى : « إن الله لا يحب المعتدين » .

١١ — الثبات سر النجاح في الأعمال ، قال تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله » ، «إن الله مع الصابرين » .

١٢ — تقرير العدالة الكاملة ، قال تعالى : «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ، « اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

١٣ المساواة ، قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

١٤ — الإخاء ، قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » .

١٥ — التمايز لا يكون إلا بالمزايا الفاضلة ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

١٦ — السياحة وتعرف سنن الصعود والهبوط في الأمم ، قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل » .

١٧ — العلم غير محدود ولم ينل منه الإنسان إلا جزءاً يسيراً وما خبىء عنه أكثر ، قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، « وقل رب زدني علماً ».

هذه الأصول هي أهم أصول المدنية الجديدة ، وقد رأيت أنه لا يوجد أصل منها إلا وهو مذكور بالنص في الكلام القديم ، فاعجب لهؤلاء الذين كانوا يعارضون دعوة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام بكل حجة ووسيلة ، بالافتراء تارة وبالسلاح أخرى . كيف أبوا إلى ما كان يدعوهم إليه ، ولكن بعد ما رأوا العذاب الأليم من أحداث كبرى ، وفتن كقطع الليل المظلم سالت فيها المهج ، وتفطرت لها القلوب ، وانشقت منها المرائر ، ولكنك لم تزل ترى أن تلك المدنية ناقصة من جهتها الروحية كل النقص ، وليست كل تلك الضوضاء التي ملأت ارجاء أوروبا الآن من مسألة استحضار الأرواح وتجارب المانيتزم(التنويم

المغناطيسي) ودخول العلماء ألوفاً في تلك المذاهب العجيبة ، وتحريرهم الكتب الضخمة فيها ، إلا حركة ستدفعهم كلهم إلى اعتقـاد ما كانوا ينكرونه ، ومن يكن منا قد اطلع على عالمهم إما بالسياحة أو بواسطة كتبهم ومجلاتهم ، يعلم كما قلنا في مقالاتنا السابقة أن هنالك مائتي مجلة لا شغل لها إلا إثبـات الروح والمعاد ونقل أبحاث العلماء في استحضار الأرواح وتجسدهم والمكالمة معهم (هكذا يقولون) وقد كنا أتينا على جدول فيه عشرات من أساطين علماء العصر الذين يعتقدون هذا المذهب ، ممن لهم الكتب الضخمة في ذلك ، ليعرف القراء أن الذين يقودون تلك الحركة ليسوا بضعاف العقول ولا بقليلي المادة العلميـة ولكنهم أساطين النهضة الأوروبية وأركان العلوم الطبيعية .

هذه الحركة التي لم تصل إلى علم المصريين للآن تعد أكبر حركة في القرن التاسع عشر ، كما يقول الأوروبيون أنفسهم عنها، ولا غرض منها إلا تقرير العقائد التي غرزها الله في نفوس البشر ، وهي الاعتقاد به تعالى اعتقاداً صحيحاً نزيهاً عن الشرك والاعتقاد بالروح والخلود . إذا تم للمدنية الأوروبيـة ذلك ، فإن مبادئها ستتقابل في سيرها مع مبادىء مدنيتنا الكامـلة ، وسيكون القرآن الشريف رسول السلام والوئام بينهما ، والدستور الوحيد لسائر الأمم المتمدنة بعدله بـين مطلب الروح والجسد ، وتوفيقه بين مرامي العقول والعواطف ، ومؤاخاته بين الطبيعة والإنسان ، وتوحيده طريق الرقي المـادي والمعنوي « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

*

وظيفة الإسلام في عصر العلم

تبين لقارئنا ممـا تقدم أننا أمـة قامت بالدين ، واعتزت بالإيمـان ، وأننا ما أضعنا مجدنا القديم إلا لتنكبنا عن الصراط المستقيم ؛ وأننا لم نحد عن

ذلك الصراط المستقيم إلا بعوامل قاهرة ، وفواعل قاسرة ، مثارها مزاحمة العالم الغربي لنا في شؤوننا الحيوية ، على مقتضى النواميس الاجتماعية ، والقوانين العمرانية ، وأننا ما دمنا جاهلين ذلك التأثير السحري المنصب علينا من سائر جهاتنا ، فلا ينجح في معالجتنا طب ولا طبيب ، ولا يفيد في بعثنا ترغيب ولا ترهيب ، ويكون مجهودنا في علاج أنفسنا ضائعاً سدى ، وذاهباً عبثاً ، وأن دواءنا الوحيد هو تقوية تلك الحياة فينا من طريقها المثلى ، ووجهتها الحقة ، وأن تلك التقوية لا تتأتى إلا برفع ذلك التأثير الغربي عنها ، وإن رفعه يستلزم محاربته بأسلحة من جنس أسلحته ، وأن وظيفة القائد الفكري في الأمة لا تفترق في الخطارة عن وظيفة القائد الحربي فيها من حيث استعمال أدق الأساليب في إشراب الأفئدة روح الأمل والحياة ، والوقوف بالأمة مواقف تكسبها فضيلة الإحساس والشعور .. الخ ..

قلنا ذلك كله في فصولنا السابقة وهو ما أنشأنا كتابنا هذا من أجله ، وقد رأى قراؤنا في الجزء الأول أننا قد سلكنا لهم من العلم مسالك لم يقم عليها المؤلفون قبلنا ، فلقد سبكنا تلك الفصول العمرانية المسئمة ، وهاتيك المقالات النفسية المملة وتيك المباحث الفلسفية المضجرة ، في قوالب من الإنشاء الهين اللين ، وأساليب من البيان الرقيق ، جعلتها سهلة التناول قريبة المآخذ ، جذابة المطالع ، يخيل للقارىء أنه يطالع قطعة شعرية أو مقامة خيالية ، بينما يكون بيده مقالة عمرانية عويصة المقدمات ، بعيدة النتائج ، كثيرة التشعبات والوشائج ، بحيث لو جئناه بها على حالتها الفطرية ، وفي حلتها الفنية لما قوي على مطالعتها إلا الأقلون . بهذه الوسيلة أمكننا بحول الله وقوته أن نذيع أخفى أسرار الفلسفة العالية ، وأغلى مكنونات العلم العصري البعيد التناول بين أمتنا المحبوبة مشفوعاً بما يقابله من آيات الكتاب الإلهي والحكمة المحمدية العلية ، مما رأينا له بأعيننا والحمد لله أثراً باهراً في العقول والمدارك ، ودلائل واضحة في الأميال والعواطف . حتى صار قارئنا متى ذكر تيار السحر الأوروباوي أحس

بخفة وطأته على نفسه ، وتفاهة خطره من فؤاده ، ومتى حدثه محدث بالمدنية المادية ، وجد من نفسه استخفافاً بكل ذلك ، وثقة في قوته تميل به لنسف كل ما يقال له من أباطيلها . هذا فيما أرجح ، ما يحس به كل قارىء لكتاباتنا: وهو الدواء الذي ننشده من كل محاولاتنا ، فلو سرت هذه الكهرباء في سائر النفوس ، وارتفع من المدارك صنم الوهم من سحر العالم الغربي ومدنيته وإلحاده ، خلصت حياتنا الملية والقومية من الخطر الذي يتهددها ، والبلاء الذي لا يزال يتوعدها .

فوظيفة الإسلام في عصر العلم من أدق الوظائف الإسلامية في هذا العصر ، ألا وهي حماية حياتنا الدينية التي هي حياتنا الاجتماعية القومية من خطر مزاحمة العالم الغربي ، ولما كانت تلك المزاحمة أدبية محضة ولولاها لم تكن المزاحمة المادية ، فقد عولنا إن شاء الله أن نقارعها من جهات هجماتها ، ومحلات توثباتها . وسيكون لقرائنا من إتمامنا للخطة التي رسمناها لهذا الكتاب دائرة معارف فلسفية كبرى ، يجد فيها الشرقي إن شاء الله من المباحث الإسلامية والمدنية والفلسفية في كل مطلب وكل مجال في أجمل القوالب وأغربها ، ما يبل له شوق الاطلاع على خفيات المعارف ، ومستورات المعلومات . وقد أوشكنا أن نتمم في جزئنا الأول الكلام على فلسفة الأقدمين ، وسيكون من حظ الجزء الثاني إن شاء الله الكلام على العلم عند العرب وعند الأوروبيين . أما عند العرب فسنوفيه إن شاء الله حقاً لم يزل يطالبنا به العلم لليوم ، فإننا سنفحصه أولاً من الجهة العلمية المحضة ، ثم نطبقه على مقررات العلم الإلهي ، لنرى مقدار الشطط الذي حدث بواسطته في بعض الشئون ، وهو بحث لم يطرقه كاتب عصري لليوم ، نرجو الله أن يعيننا عليه. أما درس العلم عند الاوروبيين ، فسيكون إن شاء الله بتطويل وإسهاب يقتضيهما الموضوع . فسنسرد المذاهب المختلفة في الفلسفة والأخلاق والطبيعة والدين والشريعة الخ ... وسنلم بأقوال رؤساء كل مذهب من تلك المذاهب الهائلة مع محاكمتها بخصوص الكتاب الإلهي الكريم ، دالين

على وجوه قوتها وضعفهـا ، مشيرين إلى الجهات التي أثرت علينا منهـا حتى نستوعبها بحثاً وتمحيصاً ، إن شاء الله تعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد عبـــده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم . آمين .

تنبيـــه

نوجه نظر قارئنا إلى العلاقة الأكيدة الموجودة بـين كتاب [1] الإنسان ، وكتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فإننا نذكر في كتاب الإنسان من المباحث الدينية والفلسفية والمدنية والشرعية والسياسية على حسب ما يستدعيه ما نحن بصدده من المباحث ، على طريقة البسط والنقـل الخالي من النقـد ، أما كتاب (خاتم النبيين) فوظيفته محاكمة ما جـاء في (كتاب الإنسان) إلى كتاب الله الحكيم ، ونقده نقداً فلسفياً على الأسلوب القرآني الأقدس ، وبهذه الكيفية سيكون لنا إن شاء الله في كتاب خاتم النبيـين مورد روحـاني ترده القلوب الظمأى لسلسبيل الحكمة الإلهية فتجد فيه بحول الله ما ينقع غلة العقل ، ويشفي رسيس الصدر ، ويسمو بالروح إلى عالمها ، ويعلو بالحياة إلى آفاقهـا ، والله يهدينا إلى سواء السبيل .

★

(١) باب (معرفة الانسان نفسه) — وباب (حياة خاتم النبيين) من أبواب الجزء الأول.
(الناشر)

الفصل الاول

مبلغ مدارك الفلاسفة
اليونانيين بالمسألة النفسية

تمهيد

الإنسان شديد الحرص على حياته ، كبير الكلف بذاته ، لا يقنعه غير أن أن يكون مخلداً لا يموت . ومدركاً لا يعتريه الخمود . وهو شعور فطري غرزه الخالق في طبيعة الإنسان كما غرز فيه سائر العواطف الأخرى ، لاتمحوه من جوهره شدائد الشيخوخة ، ولا تؤثر عليه تارات المحن ؛ بل ربما زادته شرهاً على شره ، وأكسبته نهماً على نهم ، طلباً للعوض في المستقبل عما فقده في الماضي ، ويفقده في زمانه الحاضر من مال وولد ، أو صحة وشرف .

يرى الإنسان نفسه حياً مدركاً ، تتلألأ في معناه الإنساني أشعة الشعور والحياة ، وتسطع في وجدانه أنوار المدركات والأفكار ، وهو بهذه الصفة سلطان الطبيعة يصرفها بفكره وقائد الخليقة يقودها إلى مصالحها ، ثم تحين منه التفاتة فيرى سكان المقابر في سكوت وبهوت ، قد زجوا إلى شقوق من الأرض كانوا يعافون النظر إليها وهم أحياء ، ويتشاءمون من المرور بها وهم أصحاء ، فتأخذه قشعريرة باطنية ، تليها اضطرابات نفسية ، وثورات عقلية ، فيسأل

نفسه هل هذا نتيجة الحياة ؟ هل هذا آخر التعب والجهاد ؟ هل هذا غاية ما كنا فيه من الجدال والجلاد ، والقراع والنضـال ؟ هل الإنسان كالحيوان ، كيف يستويان وهما عالمان ؟ أين يذهب العقل النقي ؟ أين يذهب الفكر السني ؟ أين يذهب التصور العلي ؟ أين يذهب الفؤاد التقي ؟ أين تذهب الإرادة القوية ؟ أين تذهب الأخلاق الرضية ؟ أين تذهب الشجاعة والسماحة ؟ أين تذهب الوداعة والصباحة ؟.. بل أين يذهب ذلك الشعور الذي كان يسبر الأغوار، ويسري في في صميم الكون سريان الأنوار ؟ أيذهب كل ذلك ويتلاشى ، ويستوي الخبيث الذي تعافه الأرض أن يمشي عليها ، والطيب الذي يشرف الثريا لو نظر إليها . هل يستوي العالم الذي يملأ طباق الأرض علماً ، والجاهل الذي شوه وجـه الإنسانية إثماً ؟ إذن فالحيوان أهنأ من الإنسان بالاً ، وأروح منه حالاً ، فإنه يعيش في هناء وسرور ، ولهو وحبور ، فإذا جاء يومه اضطجع وأنّ أنينه ، وذهب غير مأسوف عليه ، ولا منظور إليه ، ولم يأسَ على ترك ولد ، ولم يحزن لفراق بلد ، ولا ندبه أهل تركهم أشتاتاً ، وشعب جمعهم أنكاثاً .

نظر الإنسان في أمره هذا النظر، فثارت في ضميره حرب عوان ، واشتعلت في فؤاده نيران وأي نيران ، ولم يهنأ له عيش ، ولم يقر له بال على حـال ، حتى كرر النظر ، وأعمل الفكر ، وآب وفي طي ضميره عقيدة الخلود في دار بعد هذه الدار ، وعلى حال غير هذه الأحوال ، وأن بينه وبين الحيوانات فرقـاً شاسعـاً ، وامتيازاً كبيراً، فهي تأكل وتتناسل ثم تتلاشى وتفنى فناء لا نشور بعده . أما هو فيحيا هذه الحياة القصـيرة الأمد في أي نوع من أنواع الجهاد الحيوي ، ثم يفارق هذا العالم إلى عالم أرقى منه ، فبنى على هذه الفكرة أخلاقه وآدابه ، وأسس على دعائمها شرائعه وقوانينه ، وسعى في كل أعماله أن يبتعد في أحواله وشؤونه عن عالم الحيوان الذي ثبت لديه أنه من عالم أرقى من عالمه، وأنه ممتاز عنه في خصيصة الخلود والتنعم بجزاء أعماله ، أو المحاسبة والشقاء بسيئات آثامه . ولو لم تثبت للإنسان هذه العقيدة من مبدإ أمره ، لشاكل الحمر

الوحشية في سفالتها ، والبهم المهملة في ضراوتها ، كما هو الشأن عند بعض المتوحشين الذين لم يستعد وجدانهم لشروق نور العقيدة في ضمائرهم ، ولم يزالوا في عالم وسط بين الحيوانية والإنسانية [1] فإنهم من النقص والخسة بحيث لا يعرفون الكمال ، ولا يدركون العار .

هنا يمكن أن يعترض علينا الروحيون ، ويشمت بنا الماديون . يقول الروحيون : «إن تفصيلك هذا في منشأ الاعتقاد بالدار الآخرة والخلود، يشير إلى أن هذه العقيدة حصلت للإنسان بالاستدلال لا بالفطرة ، ولو تساهلنا في أصولنا لهذا الحد بلغ منا خصومنا الماديون مناهم ، وحاربونا بنفس مقرراتنا ، وأثبتوا لنا أن الدين مبدؤه إنساني لا إلهي . فما تقول ؟ » . ويقول لنا الماديون : « لقد رجعتم إلى أصولنا الصحيحة المستندة على الحقائق الثابتة ، وقلتم أن الدين نشأ للإنسان بالاستدلال والنظر في الكون ، وبذلك فقد أثبتم ما قلناه في كتبنا من أن الدين ليس بفطري طبيعي ، وإنما هو إنساني صناعي ، وها أنتم رجعتم إلى هذا الأصل الخطير ، ونؤمل في رجوعكم إلى سائر أصولنا الأخرى من نفس هذا الطريق » .

نقول : إنا لا نريد من فطرية الدين أنه مطبوع في وجدان الإنسان على شكل خاص، وإنما نريد من ذلك أنه مستعد له بالفطرة . أي أنه إذا كان سليم الفطرة، صحيح الفؤاد ، حاصلاً على شروط الإنسانية توصل بمحض قواه ومواهبه الذاتية إلى الدين المطلق الحق ، وهو الخضوع لقيوم السموات والأرض ، ولكنه قد يكون سقيم الفطرة، مريض الفؤاد بالشهوات والسفاسف ، فيميل بتلك الخاصية الدينية فيه إلى اعتقاد الأوهام والأباطيل ، وما يحس من نفسه بالباعث إليه ،

---

(١) لا نريد من هذا أن نقول أن الإنسان مرتق عن الحيوان ، وإنما نريد أنهم ليسوا بحيوانات فتسري عليهم حكم الحيوانية ، ولم يستكملوا شروط الإنسانية الكاملة حتى نصعد بهم إلى مستوى هذا النوع ، فهم عالم وسط يستدل بهم المتقدمون بترقي الإنسان عن القردة على صحة مذهب (داروين) ولنا عليهم كلام كثير يأتي إن شاء الله .

كإرغام أكثر المتدينين أنفسهم على اعتقـــاد ما لا يقر عليه العقل ، ولا يوافقه الحس ، بل قد يعتقدون بالوراثة ما يخجلون من حكايته ، ويبكون من شدة تناقضه . فلو كان قولنا الدين فطري في النفس ، معناه الدين على شكل خاص لما اختلف كلهم فيه ، ولكان دين البشر واحداً ، ولكنا نريد من قولنـا الدين فطري في النفس ، أنها مستعدة له بالفطرة ، لا تتكلفه بالصناعة ، إذ لا فرق بين ذلك القول وقولنا البصر فطري في الانسان. ولا يلزم من قولنا البصر فطري في الإنسان أنه لايبصر إلا أشكالاً خاصة من المرئيات ، وإنمـا هو يقتضي أنه مستعد للبصر والرؤية ، وله أن يستعمل هذه الخصيصة فيما شاء بلا حجر عليه ، فإن كان سليم الفطرة سليم العقل استعمله فيما ينبغي أن ينظر إليه ، وإن كان غير ذلك استعمله فيما لا ينبغي أن ينظر إليه .

قلنا ، معنى قولنا الإنسان مفطور على الدين ، أنه مستأهل للتدين وقابل له بالفطرة ، ومعنى قبوله له أن في طبيعته بواعث تبعثه له ، وتؤديه إليه . فهب أنك ربيت طفلاً بمعزل عن الناس ، فـلم يسمع أقوالهم ، ولم يتأثر بعقائدهم ولم يحصل خبراً ما عما هم عليه من حيث الدين بالمرة . فلا يلزم من قولنا أن الإنسان مفطور على الدين أنك ترى ذلك الطفل متى بلغ سن التمييز ناطقاً بحقيقة الدين الكبرى بلا مقدمات ولا نتائج . كلا ، بل قولنا ذلك يقتضي أن قواه ومواهبه الفطرية لاتزال به حتى تؤديه إلى الدين ولو بعد حين ، وذلك أنه متى بلغ سن التمييز أخذ ينظر في الأشيـاء المحيطة به نظر المميز المستخبر ، يرفع بصره إلى السماء فيستعرض تلك النقط اللامعة في وسط ذلك الأديم الأزرق ، ثم يرمي به إلى الأرض ويستجلي بدائع الأشجار وغرائب الأزهـار وعجائب الأطيار ؛ ثم يؤوب إلى ذاته فيسائل نفسه عن منشئها وأصلها ، وكيفية نموهـــا وتكونها ، وهكذا ، ثم يترقى في النظر والاستدلال بترقي سنه وتوالي المناظر والمشاهد على مخيلته ، ويؤوب بشيء من العـلم في كل مرة ، حتى ينتهي به النظـر إلى أصل الكون ومبدئه ، وكيفية تصريفه وتدبيره ، فلا يتمالك نفسه من الحـكم الثابت الذي لا يعتريه شك ، ولا يشوبه تردد ، بأن له مصرفاً قوياً ، ومدبراً عـالياً ،

يهيمن عليه ، ويقوم بشؤونه ، وبما أنه جزء من الكون يرى أنه هو أيضاً صنع ذلك القوي القادر قيوم السموات والأرض ، فترى صاحبنا إن أصابه ألم ، أو مسه برد ، أو ألمت به مخافة ، وجد نفسه مفطورة على الشكوى لخالقه وخالق الكون ، ومفاتحته بما يجيش في سريرته ، ويجول في سويداء ضميره ، فإذا اتفق ومرت بصاحبنا هذا جنازة ميت اضطربت نفسه ، وجاشت هواجسه، ومادت به حواسه ، واعترته خشية ورعدة وسأل نفسه عن مصيره ونهايته ، وألمّ به من الأرق والتململ ما بسطناه في مقدمة هذه المقالة ، وذهب بفكره في مناحي هذا الكون مفكراً مستدلاً ، ثم عاد والعقيدة بالخلود ألصق به من نفسه .

هذه أمور لا يمكن الشك فيها بوجه من الوجوه ، فإن الدين عام بين كل أمم الأرض ، ولا يشذ عنه إلا أفراد متوحشون لا يعدون من الإنسانية ، لأن فيهم نقصاً فطرياً ، وقد ثبت أنهم غير قابلين للترقي أيضاً . فكون الدين عاماً في كل الأمم بعقيدتيه الرئيستين ، الاعتقاد بالخالق والاعتقاد بالمعاد ، أكبر دليل حسي على التفصيل الذي ذكرناه وهو ما يحس به كل فرد منا في نفسه .

أما ما ذكرناه من شماتة الماديين بنا، وادعائهم أننا أبنا إلى أصل من أصولهم، فهو ادعاء باطل ، ومغالطة محضة بناء على ما قررناه في هذا الشرح ، ولا ندري كيف يسوغ لهم أن يقرروا عـدم فطرية الدين ، وهم يرون بأعينهم أن الفكر والاستدلال اللذين ساقا الإنسان رغم أنفه إلى الدين ، هما فطريان طبيعيـان ، لا يزولان ولا يحولان ؟ فإذا كان الفكر والاستدلال في الإنسان فطريين فكيف لا يكون ما يؤديان إليه على وجه التعميم طبيعياً ضرورياً . إذا كان أمر التدين خاصاً بأمم دون أمم ، لقيل بأنه من الأمـور الخيالية التابعة لنزغات النفس ، ومنازع الأهواء ، ولكن شيوعه إلى هذه الدرجة في كل زمان ومكان ، وعند كل طائفة من طوائف الإنسان ، مع اختلافهـا في درجات العرفان ، وأساليب البيان ، يدل تمام الدلالة على أنه مرتكز على عواطف فطرية تؤدي إليه ، وعلى أنه حاجة كبيرة من حاجات النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا انتهت إليه .

عود إلى موضوعنا الأصلي

يظهر من استقراء مدركات الإنسان في خلال القرون المتنائية ، أن العقيدة بوجود الروح قديمة كقدم العقيدة بوجود الخالق جل وعز . وقد كان الأقدمون يزعمون أن للحيوانات روحاً حساسة فقط لا عاقلة . وقد قرر فلاسفة اليونانيين القدماء بأن للكون كله روحاً سارية في صميم كل ذرة من ذراته ، وقد وضعت فيه لتقوم بتحريك أجزائه وتصوير كائناته ، بمعنى أنها جعلت لتهب المادة الحركة والصورة . وقد كان فيثاغورس الفيلسوف اليوناني ، وأفلاطون الشهير ، والفلاسفة الإسكندريون ، يعتقدون بأن روح الوجود مادة متوسطة بين الخالق الأقدس والكون المادي . أما أتباع زينون فقد اكتفوا بهذه الروح الوجودية عن العقيدة بالخالق وبنوا على ذلك فلسفتهم الإلحادية .

يظهر أن الأقدمين كانوا لا يعرفون الروح إلا مـــادة لطيفة ، وما كانوا يدركون المعاني الملكوتية القدسية ، ولذلك لما أرادوا تعريف الروح بحد قالوا أنها من جوهر لطيف هوائي ، وإن مثلها في هذا الغلاف الجسداني ، كمثل الفراش يظل مسجوناً في غشائه حتى يتم له تكون جناحيه فيمزق ذلك الغشاء ويطير . والنفس بعد خروجها من الجسد تصعد إلى عالم الأثـير حول الكواكب الزاهرة في قبة السماء ، وكان أفلاطون يدعي أنها محتد الأرواح قبل نزولها إلى الاجساد.

ولاعتقاد قدماء اليونان مادية الروح كانوا يرمزون لها بالصور المادية . فكانوا يصورونها على شكل آدمية ذات أجنحة كأجنحة الفراش . وهذا الرمز يشاهد كثيراً فوق التماثيل والأنصاب القديمة . وتارة كانوا يصورونها بامـــرأة محجبة متزوجة جديداً وفي صدرها صورة فراش .

كان الرومانيون في هـــذا الشأن مثل اليونانيين ، يذهب قدماؤهم إلى مادية الروح وإن كانوا يعتقدونها خـــالدة . يظهر ذلك من نقوشهم على الأوسمة التي كانوا يسبكونها تذكاراً لجلائل وقائعهم ، وعظائم حروبهم . فكانوا يصورون

نسراً وطاووساً طائرين في الهواء وهما رمزان للإلهين (جوبتير وجوتون) ، وبين كل منهما نصف صورة إنسان ، وهي رمز إلى روح الإمبراطور والإمبراطورة ، صاعدين بها إلى السماء مقر الأرواح العالية ، ومجتمع النفوس الطيبة .

وكانت عقيدة تناسخ الأرواح ، أي انتقالها من جسد إلى جسد آخر شائعة عند أكثر الأقدمين، ولم تزل منتشرة عند أكثر شعوب المسكونة ، وقد صار لها اليوم في أوروبا أنصاراً كثيري العدد ، كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلاً مع بسط أسبابه التي دعت إليه عند الكلام على العلم عند الأوربيين .

كان الأقدمون يعتقدون بالتناسخ على وجهين ، تناسخ الروح الإنسانية في جسد إنسان يولد جديداً ، أو تناسخ الروح الإنسانية في جسد حيوان أعجم . وإلى هذا كان يذهب فيثاغورس كما نقله عنه تلامذته . قالوا : إنه كان يعتقد بالتناسخ وأن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل ، وبخلاف ذلك ، لو كانت شقية ، فإنها تتقمص جسم حيوان قذر . وكان يقول أنه يتذكر الحالات التي كان فيها هو نفسه في أجساد مختلفة .

أما أفلاطون ، فكان له مذهب خاص في مسألة الروح وأصلها ، فقد كان يعتقد بأن أصل الكون صور عقلية معنوية أزلية ، كوّن الخالق على حسبها جميع الكائنات الحية والجامدة . وكان يقرر أن للعقل ثلاث خصائص ، وهي : الإحساسات ، والمدركات ، والمعقولات . فالإحساسات تقابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة ، والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها ، أما المعقولات فتقابل الأشياء الثابتة ، والحقائق العامة . وعنده أنه المعقولات في ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ولكنها أصول الأشياء وحقائقها ، بمعنى أنها كل ما في الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول أنها عالم قائم بذاته فوق عالم الكون والفساد ، وهي واصلة إلينا من الله مباشرة وهي القوالب التي شيأ الله تعالى عليها الأشياء .

لما كانت المعقولات على رأي أفلاطون ، هي الأشكال الحقيقية السرمدية لكل ما هو موجود فقد سماها (بالنموذجات) .

قال أفلاطون : يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء موجود بذاته هو هذه المادة العمياء الصماء التي لا شكل لها ولا صورة ، فبأثر من الله تعالى أوقعه عليها ازدوجت هذه النموذجات التي هي المعقولات المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل على درجات مناسبة ، منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر هو روح العالم . فروح العالم هذه بتشخيصها وانقسامها إلى أرواح مختلفة تكوّن الآلهة التي يعبدها العامة ، وتولد الناس ، وهم الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وفي رأيه أن الكون المادي مكون من عنصرين متضادين : التراب وهو أصل لجمود العالم وصيرورته محسوساً ، والنار وهي سبب كونه مرئياً . هذان العنصران الترابي والناري ملتئمان ببعضها بواسطة عنصرين وسطين بينهما ، هما : الهواء والماء . وهما من جهة متشابهان في صفة مشتركة هي السيالية ، ومن جهة أخرى كل منهما مشابه للطرفين الآخرين ، فالهواء يشبه النار والماء يشبه التراب .

أما روح الإنسان في نظر الفيلسوف ، فهي حياة غير قابلة للفناء محصورة في سجن فانٍ هو جسد الإنسان ، وهي متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الإدراك أي العقل ، والقلب أي الشجاعة ، والرغبة أي الشهوة . فأما الجزء السامي من النفس التي هي حية بالمعقولات والمطالب التي توافقها وتلائمها فمحلها الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وما سفل من قوى النفس فموضعه الأمعاء .

أما مذهب أرسطو في النفس فلا يمكن الوقوف عليه بالدقة لتناقض تلامذته في أصوله الأولية التي نقلوها عنه . فقد قالوا أن مبدأ فلسفته هذه القاعدة « لا يصل إلى العقل إلا ما يمر أولاً بالحواس الخمس » وهي قاعدة كما قلنا عند كلامنا على فلسفته ، تجعل الحواس أصلاً للمعقولات ، ومنبعاً للمدركات . .

كان أرسطو يرجو أن يؤسس مذهباً وسطاً بين المذهب العقلي الفكري ،

والمذهب المادي الحسي ، وهو مسعى عظيم لو استطاع إليه سبيلاً ، ولكن غاب عنا الآن شكل ذلك التوسط الذي أتى به هذا الفيلسوف ، وقد وقع فيما وقعنا فيه من الحيرة كثير من أتباعه فوقعوا في المذهب الحسي المطلق .

والذي يمكن استخلاصه من الأقوال الكثيرة ، أن مذهب أرسطو يفرض للعقل الإنساني جزأين متميزين عن بعضهما تمام التمايز ، وهما الأشكال العقلية والأصول التي تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الأشكال الأصلية فيه ، يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصي بصبغة الضروري العام ، كإدراكه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ، ولكن هذه الأشكال العقلية التي تصدر منها ، تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الإحساس والتجربة .

إذا تقرر هذا ، يعلم من أول وهلة أن مذهب أرسطو يوافق من بعض الجهات مذهب أفلاطون ، ويلائم مذهب أبيقور من جهات أخرى . ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما .

أما موافقته لمذهب أفلاطون ، فذهابه إلى وجود عنصر في العقل الإنساني يتميز تمام التميز عن الإحساس ، وأما موافقته لمذهب أبيقور فلتسليمه بأنه لولا الإحساس لما أمكن الإنسان أن يعلم عن الوجود شيئاً ، ولا أن يحصل عنه خبراً . أما كونه مع ذلك حافظاً لشخصيته صائناً لاستقلاله فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعداً شاسعاً في بقية مستلزمات هذه المبادىء ، فإن أفلاطون يذهب إلى أن (المعقولات) التي هي منابع الأحكام المطلقة ، هي حقائق أبدية ، مستقلة عن العقل ، وخارجة عنه ، ومشرقة عليه فقط ، ويذهب أبيقور إلى أن أحكام العقل ليست إلا تعميماً لإحساس الحواس . أما في مذهب أرسطو فالأمر بخلاف هذا ، فإن الأشكال العقلية في فلسفته وإن لم تستطع أن تنطبق إلا على الحواس فقط ، إلا أنها تضيف إليها عنصراً خارجياً مستفاداً من التجربة ليتم أمر الإدراك والعلم .

وقد اختلف الناس في تقرير مبادىء مذهب أرسطو ، فعده بعضهم مادياً حسياً ، وعده البعض الآخر خيالياً فكرياً ، وهو تناقض لم يهيئه إلا اختلاف درجات العقول في فهم كلام هذا الفيلسوف الكبير الذي يعد من أكبر القرائح التي ظهرت في العالم الإنساني .

هذه أشهر مذاهب الفلاسفة اليونانيين في مسألة الروح ، وقد بقي مذهبا أبيقور وزينون ، وهما حسيان ماديان يجعلان الحواس مصدراً للمعقولات ، وكانا كما يقولون لا يعتقدان بالخلود . فقد كان أبيقور يقول إن الروح جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه وجد في هذا الجسد أمداً محدوداً ، حتى إذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل ، خرج منه وتحلل هو أيضاً (أي الروح) وتلاشى في الوجود .



محاكمة مدارك الفلاسفة

في مسألة النفس

لما كانت مسألة الحياة كما قدمنا أكبر ما يشغل الإنسان في هذا العالم الفاني ، فقد أولع الفلاسفة والباحثون في الخوض فيها ، من أول عهد الإنسان إلى الآن .

ظل الإنسان بين يدي كهان الهياكل ، وسدنة المعابد [١] والقائمين على عقائده وتقاليده آماداً طويلة ، وهو لاه بما يوحونه إليه من بنات أفكارهم ، ورشحات أقلامهم ، قانع بما يجسمونه له من الخيالات والأوهام ، وما يهيئونه له من التصورات والأحلام ، حاسب كل ذلك إفاضات سكان الملأ الأعلى على

(١) سدنة : جمع سادن أي خادم المعبد .

أرواح أولئك القادة الأعلين ، معتقداً أنه نفحات عالم القدس على أفئدة أولئك المسيطرين ، وما زال كذلك يسبح في سراب المدركات الوهمية ، ويسرح في آل [1] التصورات الخرافية . حتى جاء دور العلم والفلسفة ، وساق الله تعالى الأمة اليونانية لتكون طليعة ذلك الدور العظيم ، ومقدمة تلك الدولة الفخيمة ، وكان من أمرها ما كان مما درسناه تفصيلاً في (باب الإنسان) من الجزء الأول ، فجاءت الفلسفة العقلية تضع حداً لتلك التصورات التضليلية ، وقام العقل يناضل الخيال حقوقه ، وينازعه اختصاصه ، فتصارعا ملياً ، وانتهى الأمر بغلبة العقل وتأيد سلطانه ، وانخذال الخيال وتقوض أركانه ، ولم يزل العقل وحده صاحب السيطرة والسطوة ، ورب السلطة والشوكة ، حتى جاء دور العلم العملي والفلسفة الحسية في القرن الماضي ، فتنازل لها العقل عن عرشه ، وسلمها قياد النوع الإنساني بدون لجاج ولا حجاج[2] . ولا عجب إن عرف العقل الفضل لأهله ، وأعطى الحق لمستحقه ، فقام العلم بالأمر خير قيام ولم يزل قائماً لليوم ، وليس بعد دولة العلم دولة ، ولا بعد صولته صولة ؛ ودولته مقدمة دولة الإسلام ، وطليعة حقائق القرآن ، وسترى في تفصيل هذا الإجمال العجب ، إن شاء الله .

لو أردنا أن نستقصي مدارك الناس على الروح في عصر الخيال ، للزمنا سفر كبير نسرد فيه أساطير الأولين ، ومزاعم المتقدمين ، وليس في ذلك كبير فائدة لحضرات القارئين. وإنما نجمل شيئاً من ذلك ، فنقول : إن أكثر الأقدمين ، ومعظم الوثنيين المصريين ، يعتقدون أن الروح تصعد إلى السماء محمولة على أجنحة الطيور ، ويربط أهالي الصين أمام بيوتهم ساعة احتضار الميت ثلاث حمامات ثم يطلقونها إذا خرجت روحه ، لتأخذها تلك الحمامات وتصعد بها إلى السماء ، وكان يدعي بعض الأقدمين أن الأرواح لا تصعد إلا محمولة على طائر ، ولذلك كانوا يأتون للمحتضر بحمامة كأهالي الصين ويطلقونها بعد موته لتحمل روحه إلى

---

(١) (آل) بمعنى سراب

(٢) (حجاج) أي جدال . يقال له : حاجه يحاجه محاجة وحجاجاً أي جادله

الصفيح[1] الأعلى . وللأقدمين غير ذلك وهميات تشبه أحلام الأطفال ، كانوا ينظمونها في أشعارهم ، وينشدونها في أعراسهم وحفلاتهم ، ويتعزون بما جاء فيها أمام كوارث الحياة وشجونها ، ويتسلون بها في أتراح الدنيا وغمومها . ويدافعون بها حقائق الوحي وأرباب المعارف النبوية ، لمناسبة تلك النزغات لطبيعتهم الحسية ، وأمزجتهم الطفلية ، فما كان يؤمن منهم بالأنبياء إلا العدد القليل ، يقيمون أمر الله ويسيرون على صراطه ، ثم لا يلبث أعقابهم أن يبدلوا ويحرفوا ما ورثوه عنهم ، ولا يزالون كذلك حتى يوفقوا بينهم وبين خرافاتهم البلدية ، وسفسطاتهم القومية ، ويسمون أنفسهم أتباع الأنبياء ، وحفظة الكتب المقدسة ، وهم في الحقيقة أتباع أوهامهم وحفظة أضاليلهم ، ولله في ذلك حكمة.

جاء فلاسفة اليونان يحاكمون العقائد العمومية للعقل ، ويناقشونها مناقشة المنتقد ، فثار دونهم أراكين السفسطة[2] وأساطين الوهم وحفظة الخيال ، وكان في مقدمة جيش العقل وحامل لوائه العالي الفيلسوف الكبير سقراط ، فلم يزل يجادلهم ويجادلونه ويقارعهم ويقارعونه ، حتى فاز عليهم بالانتصار ، وسجل عليهم الخذلان والبوار ، فخاف هؤلاء على مراكزهم ولم يغلبوا حب الحق على حب مصالحهم ،فدسوا به إلى الحكومة ،وناهيك بحكومة تلك الأزمان — القرن السادس قبل المسيح — فألقت القبض عليه وزجّته[3] إلى أعماق السجون وظلمات الحبس ، ولم يزالوا يوغرون صدر الحكومة عليه ويؤثرون على نفوس القضاة والحاكمين بالتمويهات والبهتان ، حتى حكموا بسمّه ، وهي عادة اليونانيين القدماء في قتل بعض الناس ، فسقوه السم ، وهو ساكن الجأش ، رابط الجنان، غير هياب ولا جبان ، وهو وسط طائفة من تلامذته كان يقرر لهم خلود النفس بعد الموت. فخرجت نفسه إلى عالمها ، وهو راض عن قسمه ، مؤدٍ ما طولب به.

---

(١) (الصفيح) اسم من أسماء السماء .
(٢) (السفسطة) بفتح السينين وكسرها قياس منطقي مركب من الوهميات أصله يوناني .
(٣) زجه يزجه . رماه .

أما أعداؤه السفسطائية فظنوا أنهم بقتل سقراط ، منعوا دولة العقل أن تتأيد ، وحجزوا تيار الفكر أن يتسرب ، ولم يعلموا أن موت سقراط زاد أتباعه حماسة وغيرة ، وأكسب أشياعه حياة وانضماماً ، وهذا شأن كل حرب تقوم بين الحق والباطل، لا يسقط من أنصار الحق كوكب ، إلا ويصعد في أفقه ألف كوكب ، ولا تعذب في سبيل نصرته نفس واحدة ، إلا وتحيا بجانبها نفوس لا تعد ولا تحصى . أمنا رأيت كيف أن تلك الاضطهادات القاسية ، والمظالم الشنيعة ، التي كان صناديد قريش يعاملون بها ضعاف المسلمين في مكة ، فضلاً عن أنها لم تكن سبباً في نكث فتل جمعيتهم ، وباعثاً لنقض بناء ألفتهم ، كانت بالعكس داعية لانضمامهم وتلاصقهم ، وموجبة لكثرة عددهم ومددهم ؟ لقد بلغ بهم العتو الوحشي الى حد أنهم كانوا يربطون المسلم الضعيف على رمضاء مكة في حين الهاجرة حيث الشمس لا تطاق ولا تحتمل ، وفي الوقت الذي يكون فيه الرمل وصغار الحصى كقطع الجمر ؛ ثم كانوا لا يكتفون بذلك ، بل كانوا يحمون الحديد في النار حتى يصل لدرجة الاحمرار ويكوون به أولئك الضعفاء ، حتى تظهر أعصاب أجسامهم ، ومع ذلك فكانوا لا يزدادون إلا إيماناً ويقيناً، ولا يكسبون من وراء هذا العذاب الأليم إلا حباً في رسول الله وتمكيناً، ثم لما أعياهم الأمر جداً وعجز أولئك العتاة عن إرجاع هؤلاء الأطهار عن دينهم ، تألبوا عليهم بقضهم وقضيضهم[1] وناهيك بقريش سيدة العرب حين تنادي فرسانها ، وتحشد أقيالها وأبطالها ، وفيهم من إذا ركب زلزل الأرض بحوافر جواده ، وأشاب الأطفال بإبراقه وإرعاده ، ومنهم من إذا هز الحسام في يمينه تناثرت الفرسان عن شماله ، ومنهم غطاريف الخدع الحربية وشياطين الأساليب الهجومية والدفاعية ، ولم يكتفوا بأنفسهم بل دعوا معهم حلفاءهم من سكان البوادي ، وهم أبناء الطعن والضرب ، وإخوان الكر والفر ، كل ذلك إرهاباً لطائفة لا تكاد تزيد عن ثلاثمائة مسلم من قبائل مختلفة وبيوت كانت غير

(١) يقال جاؤوا بقضهم وقضيضهم أي بصغارهم وكبارهم .

مؤتلفة ، ناقصي العدد والأهب (المعدات) ، قليلي الزاد والنشب (المـال) ، ولكنهم في مقابل ذلك كبار الأفئدة ، صحاح العقول ، أحياء الشعور ، أعلياء النفوس ، قد استوعب الإيمان أرواحهم وملأ اليقين صدورهم ، لا يرون غير الله نافعاً ولا ضاراً ، ولا سواه معزاً ولا مذلاً ، فخاضوا غمرات[١] تلك الحرب بأفئدة تعمرها الملائكة ، وأرواح متعلقة بالملأ الأعلى ، ونفوس ترتع في حظائر[٢] القدس ، وتسبح في سبحات[٣] الأنس ، فلم لا تشاركهم الملائكـــة في سحق أعدائهم ، وتشاطرهم في أداء وظيفتهم . نعم ، كان ذلك كما حكاه الله عنهم في كلامه العزيز ، ولم يمض إلا طائفة من النهار حتى تركوا صناديدهم يعجون[٤] في نجيعهم[٥] ، ويتخبطون في مهجاتهم[٦] « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وإن الكافرين لا مولى لهم » ، « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل » .

قلنا أن هذه الحوادث المدهشة سنة من سنن الله في خلقه ، تظهر عنـد كل تصارع يحصل بين الحق والباطل ، وقد حصلت في أوروبا قبل ثلاثمائـة سنة حينما سئم الناس تحمل نير[٧] رؤساء الأديان واحتمال تكاليفهم الشاقة ، وظهرت شمس العلم من خلال تلك الحجب المتلبدة ، والغيوم المتكاثفة . هناك صاح أولئك القـادة صيحات دوت لها أرجاء المعمورة ، واهتزت من هولها عروش الجبابرة والقياصرة ، وتنادوا بأن هلموا إلى كبح جماح هـذه النفوس الجامحة ، وكسر شوكة هذه العقول الطامحة « يعنون بذلك نفوس العلماء الذين ظهروا ونبغوا في

---

(١) الغمرات : غمرة الشيء شدته ومزدحمه .
(٢) الحظيرة : هي القطعة من الأرض يحيطونها بحاجز (وحظيرة القدس) الجنة .
(٣) السبحات : الأنوار ، جمع سبحة بالضم .
(٤) عج يعج ويعج : صاح – بضم العين وكسرها .
(٥) النجيع : الدم الأسود . وقيل دم الجوف خاصة .
(٦) مهجاتهم : المهجة الدم ، وقيل دم القلب خاصة .
(٧) النير : الخشبة التي توضع على عاتق الثور .

العلوم الطبيعية ، وأرادوا وضع حد لأوهام أولئك القادة »، ولما لم تجد صيحتهم نفعاً ، ولم تحدث أثراً، أقاموا الحكومة وأقعدوها، واستعانوا بقوتها على أولئك العلماء الضعفاء ، فلبتهم طوعاً ، وكيف لا تلبيهم وبيدهم حلها ونقضها ، وطوع شفاههم قصمها وفصمها[1]؟فجعلوا عقوبة المتكلم بما لا يوحونه إلى الناس من العلم، ولا يقرون عليه من المدركات ، الحرق بالنار حياً، والتعذيب بالقطران الغالي ، والقضبان المحماة على الجمر ، وفتكوا بهذه الوسائل بأكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، فلم يوقفوا تيار العلم ، ولم يدفعوا سيال الشكوك، ولم يزالوا بهوتاً صموتاً أمام هذا الحادث الجلل ، حتى انتهى الأمر إلى ما تراه اليوم ، وهو تأيد دولة العلم وتمكن سلطانه ، وخفوق علمه ، وكثرة أنصاره وأعوانه ، وهو مقدمة دولة الإسلام ، وطليعة عصر القرآن ، وسنثبت لك ذلك إن شاء الله .

لنعد إلى ما كنا فيه من الكلام على مسألة الروح ، فنقول : انقضى عصر الخيال بما كان فيه من أوهام وأحلام ، وجاء دور الفلسفة اليونانية ، فتناول الناس هذه المباحث بالعقل ، وجعلوها من بعض أعمال الفكر ، فقرر كل متكلم مذهباً اتبعته فيه تلامذته ؛ وصار عدد ماهيات الروح على قدر عدد الفلاسفة المتكلمين فيها ، ولا يخفى أن مجرد الفكر في أمر هذا الخلاف يحمل الإنسان على الجزم بفساد مذاهبهم جميعاً ، فإن الحقيقة الواضحة لا يختلف فيها اثنان ، وإن اختلفا فلعناد أو لجاج؛ أما ذهاب الناس في أمر تصور ماهية الروح هذه المذاهب الشاسعة، فمما يدل واضح الدلالة على أنهم إنما اغترفوا مداركهم من بحار الخيال، وإن كانوا كسوها بحلة منطقية ، وحلوها بحلية جدلية .

رأينا في كتاب الإنسان أن الفيلسوف أفلاطون جعل مبادىء الكائنات صوراً أزلية أبدية شيأ الله عليها الأشياء ، وأنها من عالم قائم بذاته مستقل عن المادة تمام الاستقلال ، وسماها « النموذجات » . قال : وأنه يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء ، موجود بذاته ، هو المادة العمياء الصماء

---

(١) قصمه يقصمه ، وفصمه يفصمه : كسره ، كلاهما من باب ضرب .

التي لا شكل لها ولا صورة . فبأمر الله تعالى الذي أحدثـــه عليها ازدوجت النموذجات التي هي المعقولات المجردة بالمادة عديمـة الشكـل والصورة على درجات مناسبة ، فنشأ منهـــا جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتـين الطبيعتين ، هذا الجوهر هو روح العالم . فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها إلى أرواح مختلفة ، تكون الآلهة التي يعبدها العامة وتولد الناس أيضاً وهم الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وقال أن محتد هذه الأرواح قبل نزولها إلى الأجساد الكواكب ، وهي مصيرها بعد خروجها من الجسد . وقال عنهـا أنها حياة غير قابلة للفناء محصورة في سجن فانٍ هو جسد الإنسان، وهي متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الإدراك أي العقل ، والقلب أي الشجاعة ، والرغبة أي الشهوة . فالجزء السامي من النفس التي هى حية بالأفكار والمطالب التي توافقها وتلائمها فمحله الرأس ، أما الشجاعة فموطنها القلب، وما سفل من قوى النفس فموضعه الأمعاء .

أما تلميذه أرسطو ، فقد خالف أستاذه في أكثر ما ذهب إليه كأنه وجـد ليناقضه ، فقال عن النفس كلاماً موجزه : أنه قسم النفس جملة أقسام ، فجعل في الإنسان نفساً غاذية[1] ونفساً شاعرة، وهما مما يشترك فيه الإنسان والحيوان، ونفساً عاقلة أو ناطقة وهي التي بها يمتاز الإنسان عن الحيوان ويتصل بهـا إلى عالم الملكوت . وقسمها أيضاً قسمين ، نفس منفعلة ونفس فاعلة ، فالمنفعلة تموت بموت الجسد ، وأما الفاعلة فتخلد أبد الآبدين ودهر الداهرين[2] .

وقال أبيقور : الروح الإنسانية جوهر لطيف له خصائص عالية، وأنه وجد في هذا الجسد أمداً محدوداً ، واستخدمه حتى إذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل نظامه خرج منه وتحلل هو أيضاً — أي الروح —وتلاشى في الوجود .

---

(١) النفس الغاذية : يريد بها المسيطرة على التغذية والهضم والتوليد .

(٢) الأبد: الدهر. جمعه آباد وأبود . يقال:(لا أفعله أبد الأبدية.وأبد الأبد وأبد الآباد وأبد الدهر . وأبد الأبيد ، وأبد الآبدين) . وفي معناه دهر الداهرين .

وقـال ذينون : أما الروح ، فهي شعاع من الشمس الحيوية التي هي الأصل العام لجميع الكائنات ، وهي تنتقل كالحرارة من فرد إلى فرد وتنتهي بأن ترجع ثانياً إلى محتدها العام التي جاءت منه ، وبناء عليه فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال ، ولكن الاجتماع والانضمام ، على أنه ليس لدينا إلا معلومات صغيرة عن هـذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه ، ومن الأمور المضادة للفلسفة الحقة أن يدأب الإنسان للبحث عن أصول الأسباب . فالواجب القنوع بدرس الحوادث في ذاتها . ومما يجب علينا وضعه نصب أعيننا هو أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المطلقة مهما حاولها وتطلع إليها. وأن الثمرة النهائية لمجهودات الإنسان وراء اكتناه أسرار المادة ، هي تأكـده بأنه لا يصلح للإلمام بكل شيء. وأننا على فرض وصولنا إلى حقيقة من الحقائق، لا نزال نشعر بالحاجة إلى دليل على أنها حقيقة .

هذه أشهر أقوال فلاسفة اليونانيين التي سادت في العالم بعد انقراض أصحابها قروناً عديدة ، ولم يزل لها أشياع في كافة أرجاء العالم ممن يحبون كل قديم ، ويتشاءمون من كل جديد ، وكلها كما قدمنا مغترفة من بحار الخيال ، وإن كانت مكسوة بحلة منطقية ، ومحلاة بحلية جدلية .

سل الفيلسوف أفلاطون قائلاً : من أين جاءك العلم بأن هنالك صوراً عقلية أزلية خلق الله على قوالبها الأشياء ، وأنها من عالم مستقل قائم بذاته ؟ وسله : من أين أتاك بأن ازدواج تلك الصور العقلية المجردة بالمادة أنتج جوهراً متوسطاً مشتركاً بين خصائص المادة وخصائص العالم السماوي هو روح الوجود ، وهـذه الروح الوجودية بتشخصها وانقسامها تكونت أرواح الآلهة وأرواح الناس؟ وعلى أي صفة كان ذلك الازدواج ، وبأي كيفية نشأت تلك الروح العامة ، ثم كيف تشخصت وانقسمت ، بأي هيئة وعلى أي كيفية ؟ ومن أين جاءك أن محتد هذه الأرواح الإنسانية قبل تلبسها بالأجساد هو آفاق الكواكب ، حتى إذا أدت وظيفتها وخرجت من البدن عادت إلى عالمها هنالك ؟ أظن لو صح هذا الكلام

عن أفلاطون ، وسئل هذه الاسئلة ، لما وجد جواباً مقنعاً يرد به على السائل ، ولا نستكبر عليه أن يقر لمستفتيه بالعجز التام أمام هذا السر المدهش، والطلسم العجيب .

ثم إن تركته وواجهت أرسطو قائلا : أيها الفيلسوف الكبير الذي جمل التجارب والحوادث والمشاهدات أركان مذهبه ، ودعائم فلسفته، من أين حصل لك العلم بانقسام النفس إلى ثلاث : غاذية وشاعرة وناطقة ، وبانقسام الناطقة إلى منفعلة وفاعلة ، وانتهاء الأمر بموت المنفعلة وبقاء الفاعلة ؟ إن قلت أن هـذا التقسيم جئت به من مشاهدة حال الإنسان ومراقبة حركاته وأطواره ، قلنا : هب أنك استندت على المشاهدة فيما يختص بالنفس الغاذية والنفس الشاعرة والنفس العاقلة – وإن كان هذا التقسيم في نفسه عجيب وغير معقول – فعلى أي مشاهدة استندت في قولك أن النفس العاقلة تنقسم قسمين : منفعلة وفاعلـة ، الأولى تموت بموت الجسد ، والثانية تبقى أبد الأبد ؟

الإنسان لا يجسر بالتقسيم والتجزيء إلا على شيء معروف الكنه والتركيب ، فهل عرفنا كنه الروح وتركيبها حتى نقول بانقسامها وموت بعض أجزائها ؟

وكذلك نقول لأبيقور الذي علم بـأن الإنسان جوهر لطيف له خصائص عالية، وأنه متى خرج عن البدن تحلل وتلاشى في الوجود، نقول له : بم حكمت عليه بالجوهرية واللطافة، وبأي وسيلة أدركت أنه سيؤول إلى التحلل والتلاشي؟ هل رأيت ذلك ؟

أما ذينون فمذهبه مادي محض؛ زعم أن الروح شعاع من شمس الحياة العامة التي هي أصل جميع الكائنات ، فإذا مات الإنسان عادت حياته إلى تلك الحياة العامة ، أي فقدت شخصيتها وتلاشت أنانيتها ، ويكون مثل الإنسان بعـد الموت كمثل سائر المواد المتحللة. هذه النظرية توهم أنه رأى ذلك بعينه، ولذلك فهو يحكم ويجزم ، ولم يدر كيف لم يلاحظ أنه ناقض نفسه بنفسه ، فإنه لم يكد يقرر هذا الحكم ويدعمه حتى قال بعده (على أنه ليس لدينا إلا معلومات صغيرة

على هذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه الخ ..)
فلو كان الفيلسوف تدبر جيداً في هذه الجملة الجليلة ، ولو بعد أن كتب الجملة الأولى لاستحسن إبدالها بما هو أليق بهذا التواضع الفلسفي ، وأجدر بهذه الساحة العلمية .

هذه التعاليم الفلسفية اليونانية كانت موضوع اشتغال الناس وعنايتهم قروناً متطاولة ، اقتصروا بها عما سواها ، وقنعوا بها عن عناء البحث ، وكد التنقيب ، وصار أمثلهم أحفظهم لها وأضبطهم لشروحها ، أو أجمعهم لكتبها ، ودام الأمر كذلك حتى جاء الفلاسفة المسلمون فنقلوا فلسفة اليونان كما هو معلوم وزادوها تهذيباً ، وحسنوها شرحاً وترتيباً ، وغرموا[1] بالكلام على الإلهيات والنفس غراماً شديداً ، وخرجوا بذلك عن الدائرة الحكيمة التي حددها الله للعقل البشري في كتابه العزيز ، كما سنبينه تفصيلاً عند الكلام على (العلم عند المسلمين) إن شاء الله تعالى ، ولم يزالوا كذلك حتى قامت أوروبا تحذو حذوهم ، وتحيا بحياتهم العلمية ، إلى أن جاء دور العلم العملي الذي هو مقدمة الإسلام ، وطليعة القرآن ، فصاح بالناس : أن سقطت دولة الخرافات ، وثلت عروش الخزعبلات ، وخلص الانسان من أسر الأوهام ، ونجا من أحابيل الأحلام ، وآن للعقول أن تتطهر من أرجاس ما ورثته عن آبائها من الأباطيل وللأفكار أن تنشط من قيود ما تحملته تقليداً من الأضاليل ، وحان للنفس أن تستنشق نسيم الحرية ، وتخلع نير العبودية . فأنكر الناس هذه الصيحة أولاً ثم لما ذاقوا حلاوتها ، ورأوا ثمرتها ، خفوا إلى دعاتها سراعاً ، وهرعوا إلى قادتها خفافاً ، ولولا أن أعقب ذلك الحال شيء من الغلو والجور ، لكانت أوروبا اليوم تتلألأ في أنوار الدين الفطري الحق ، وتحمل لواء الإسلام إلى الشرق ، ولكن هذه سنة الخالق في خلقه ، فلا يؤوب الضال إلى الهدى حتى يجوز المدى ، ثم لا يزال يضطرب حتى يقوم على المنهاج الوسط ، ويزول عنه الشطط .

---

(١) غرموا : غرم بالشيء يغرم به ، أي كلف به وشغف .

جاء العلم الأوروبي يضع للأوهام حداً لا تتعداه ، ويرسم للعقول مجالاً لا تجوزه إلى سواه ، ويقرر للمدارك دستوراً تسير على مقتضاه ، وحكم بأن كل فكر لا يسنده دليل حسي وشاهد وجودي ، وجب إلقاؤه إلى عالم الفروض والظنون ؛ حتى يقر عليه الوجود أو ينفيه ، وقضى بأن العلم غير محدود بحد ولا مقصور على شخص ، وأن الإنسان مسوق إليه سوقا قهرياً ، محفوز إليه حفزاً فطرياً ؛ فمشكلة اليوم قد تكون بديهة الغد ، وما يحكم عليه اليوم جزافاً بالاستحالة ، قد يكون بعد غد من الممكنات السهلة . وقد جرى أماثلهم وأعاظمهم على هذا الأسلوب حتى وصلوا اليوم إلى مدى بعيد من المعارف الطبيعية بواسطة علوم الطبيعة ، وإلى غاية عالية من المعلومات الروحية بواسطة علوم ما وراء المادة ، كما ننقله عنهم تباعاً . أما غلاتهم وكفارهم فقد تصدع ركنهم ، وتداعى للسقوط حصنهم ، وسيؤوبون للحقيقة وإن عاندوها ، والله غالب على أمره .

إذا علمت أن هذا الأدب العلمي لم ينشأ إلا في القرن التاسع عشر ، وأن هذا الدستور لم يتقرر إلا في هذا العصر الحاضر ، وأن هذه المناهج العالية لم ترسم إلا بعد أن هتكت الخرافات عقل النوع الإنساني ، وامتصت دم حياته ، أفلا يكون من المدهش المحير للفكر الجاحد أن ينزل القرآن في القرن السابع من الميلاد ، أي في العصر الذي لم يعرف فيه للعلم دستور ، ولا للفكر حد ، قائلاً : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » أنظر كيف أوقف العقل عند حده ، وأتى عن الروح بحد لا يمكن نقضه مهما بلغ العلم من حقائق الوجود ومساتير الكون ؟ وضمن الآية مبلغ الرقي الذي بسطناه لك تفصيلاً ، ولمح فيها بتبكيت أولئك الذين ملؤوا الأسفار كلاماً عنها كأنهم بلغوا من العلم غايته ، ومن الفهم أقصاه ونهايته . إن لم يكن هذا من دلائل النبوة ، فأي دليل أصدق ، وأي برهان في النفس أوقع ؟

*

جهة إعجاز القرآن

كتب لنا حضرة العالم المحترم موسى أفندي جاد الله من بلدة (روستوف دودون) من بلاد الروسيا ، يسألنا عن رأينا في جهة إعجاز القرآن . قال حضرته : إن في جهة إعجاز القرآن أقوالاً ، ولكنا إذا لاحظنا أن الإعجاز موجود في كل سورة وآية وأن وجه الإعجاز يجب أن يكون زمن التحدي وظاهراً عند جميع المرسل إليهم ، يشكل علينا تسليم قول من هذه الأقوال . فما رأيكم ؟

الجواب — القرآن روح من أمر الله استعد لقبولها الفؤاد المحمدي، فأشرقت فيه شيئاً فشيئاً بواسطة الروح الأمين ؛ حتى تم إشراقها فجاءت هذا القرآن المجيد « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

هذا التحديد وحده كاف في إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وهدايتنا إلى وجه قصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله وبقائه لليوم معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي ، وتتألق في جمالها القدسي، ذلك لأن القرآن لما كان روحاً من أمر الله فلا جرم كانت له (روحانية) خاصة هي عندنا جهة إعجازه والسبب الوحيد في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهي .

نعم ، إن جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك (الروحانية العالية) التي قلبت شكل العالم ، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه ، وأرغمت لهم معاطس الجبابرة والأكاسرة ، ووطأت لهم عروش التبابعة والقياصرة ، حتى صاروا ملوك الملوك وإخوان الملائكة ، في مدة لا يصعب عد سنيها على الأصابع « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ».

لا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة ، وسادات القوافي ، وملوك البيان . وهو حكيم ، بهر سماسرة الحكمة والفلسفة ، وأدهش أساطين القانون والشريعة ، وحير أراكين النظام والدستور. وهو حق ، ألزم كل غال الحجة ، ودل كل باحث على المحجة ، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وهو هدى ورحمة ونور ، وشفاء لما في الصدور. كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والإحساس والعواطف والأميال ، فتتحكم فيها تحكم المالك في ملكه ؛ ولكنه فوق ذلك كله « روح من أمر الله » تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسري من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر . هذه الروحانية تنفذ إلى سر سريرة الإنسان وسويداء ضميره ، وتستولي منها على أصل حياته ، ومهب عواطفه وإحساساته، وتخلقه خلقاً جديداً ، وتصوره صورة لا يتخيلها ، ولو قيلت له لما أدركها . ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحولون عنها ، ولا يسأمون منها، فنفحتهم بروح عالية قاموا بواسطتها يحملون الملوك سلطتهم ، ويطوقون القياصرة بطوق نفوذهم وسطوتهم ، ولم يتموا جولتهم هذه حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها إلى أقصاها .

أي برهان على تبدل أرواحهم أكبر من هذا ؟ قوم كانوا بالأمس ممزقين مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية ولا قومية بل ولا دينية ، في أخشن مواقع الأرض وأجدبها ، وأبعدها عن النظام والحكمة والآمال العظيمة والفتوحات ، يقومون بعد سنين قليلة من بعثة نبيهم ينشرون الفضل والفضيلة والكمال في أرجاء هذا العالم المضطرب ، ووسط هذه الفتن المزعجة .

أي حجة أكبر من هذه على أن القرآن روح إلهي ، وأمر سماوي ، وأي وجه من وجوه إعجازه بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم أوقع في النفس ، وأنفى للشك وأولى بالقبول من وجه (روحانيته) ؟

إن القرآن فوق الفصاحة والعذوبة والحكمة والدستور (روحانية) يدركها من لاحظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك الدستور . ألا ترى أن الطفل والعامي كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن ، حتى أنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد التالي أن يغشهما .

هـذه الروحانية تظهر ظهوراً جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد أو الاقتباس في صحيفة كبيرة، فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور ، وخلال التراكيب كأنها الشمس في رابعة النهار ، مهما كانت درجة تلك الصحيفة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ . هـذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها . أما ظهورها للعارف فبيِّن لا يحتاج لبيان ، وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبأثرها ونتيجتها .

أي إنسان يرى أن العربي الذي كان بالأمس جزاراً أو تاجراً أو راعياً ، وهو من الجاهلية وعدم احترام الدستور على ما كان يعلم الناس منه . جاء اليوم يقود جيشاً يرغم به معاطس أكبر قواد العالم من غطاريف الحرب ، ثم يدخل إلى أحشاء تلك الأمة المغلوبة فيؤمنها على دينها وشريعتها وأموالها وأعراضها ، ويكون عليها أشفق من رؤسائها وأحنى عليها من نفس حكومتها، فينشر بينهم العدل والإحسان ويغمرهم بالأفضال والأنعام ، قلنا من ينظر إلى هـذا الأمر المدهش ولا يقر بأن هذا العربي قد اكتسب (روحاً جديدة) لم تكن فيه من قبل ، وليست من جنس الأرواح الموجودة في أعلياء النفوس وأصحاب الفضيلة من الأفراد ؟ كيف لا يستدل هذا الإنسان بالحس على تلك (الروحانية) وقد أصبح يرجو من كان يخافه ، ويتعلم ممن كان لا يرى أجهل منه ، ويتخلق بأخلاق من كان لا يعده إلا وحشاً كاسراً ؟

أفلا يدل هذا التبدل العجيب أعظم دلالة على سمو دين ذلك الفاتح و (روحانية) كتابه الذي أنزل إليه ؟ نعم يستدل على ذلك استدلالاً يوجب الإيمان، ويستدعي غاية الاطمئنان ، ويدل على ذلك أنه لم تكد تنتشر تلك الطائفة الطاهرة في

العــالم ، ولم تجل فيه هذه الجولة السريعة ، حتى دخل إلى الدين الإسلامي في عشرات من السنين ، عشرات من الملايين طوعــاً بلا دعوة ، وعفواً بلا إرهاق بحجة ، غير ما رأوه بأعينهم من هذة الروح الغريبة والحياة الطيبة .

هذا رأينا في جهة إعجاز القرآن ، وهو فيما نعلم يحل كل صعوبات هذا البحث ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع ، والله يهدينا إلى سواء السبيل .

أرسلنا هذا الجواب أو ما يقرب منه إلى حضرة الأستاذ الموما إليــه على حسب طلبه ، ليجعله رأياً لنــا في كتاب يؤلفه في بعض علوم القرآن ، ونريد أن نزيد عليه هنا أن هذا الذي أتينا به في جهة إعجاز القرآن هو المطابق لحكم الله فيــه ، وهو أليق الوجوه بالكلام الإلهي الأقدس ، أما ما ولع به الناس من أن القرآن معجز لبلاغته وتجاوزه حدود الإمكان ، حتى وقف ذلك الإعجاز منهم ببلاغته دون وجوه إعجازه الأخرى ، فلم نقف له على أثر من ذات كتاب الله ؛ ولا نعلم من أين جاء لبعض الناس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدى الناس ببلاغة القرآن ، مع أنه قد ورد ذكر القرآن في القرآن في آيات عدة ، فلم نرَ في واحدة منها ما يوافق ما يذهب إليه الآن الكثيرون . وصف الله تعالى كتابه في كتابه فقال : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات » ، « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » ، « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ، « ولقد جاءكم بصائر من ربكم » ، « ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، « وننزل من القرآن مــا هو شفاء ورحمة » ، « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » ، « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » ، « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثــــلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » ، « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ، « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » ، « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميــد » ، « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . وصف الله كتابه في هذه الآيات الكريمة بأوصاف عــدة ،

وليس من بينها واحد يشير إلى بلاغته اللفظية ، ذلك لأن البلاغة صفة ثانوية للكلام الإلهي لا مشاحة فيها ولا ريب ، ولا يصح أن يرحل إلى الاستدلال بها على كونه كتاباً سماوياً مع ترك ما في القرآن من المعجزات الأخرى المحسوسة التي لا يمكن فيهما المكابرة والجدل ، وترى لاقتصار المسلمين في الاستدلال على كون كتابهم سماوياً بمحض بلاغته اللفظية وقع كثير منهم في الغلو في التنقيب عن تناسب عباراته وتناسق كلماته ، والإغراق في تفتيش تراكيبه ، وبحث مبانيه من جهة الصناعة والصياغة ، حتى خرجت البلاغة عن معناها الحقيقي وعما كان يفهمه أصحاب البلاغة من العرب في مدة البعثة النبوية وقبلها ، وتمادى الحال حتى ظن الناس أن البلاغة هي محض تناسب الكلمات وتوافق السجعات ، وتناسق التراكيب ، وذهلوا عن روح البلاغة الحقيقية ، وجوهرها الذاتي .

لو كانت البلاغة هي كما يفهمه الناس اليوم في تناسب التركيب ، وتناسق الألفاظ ، وترادف العبارات ، بصرف النظر عن معناها الحقيقي ، لاستحال أمر البلاغة إلى صناعة من الصناعات لا روح من الأرواح ، ولأمكن أغبى الأغبياء أن ينتقد على أبلغ البلغاء ، ويدعي أنه غير بليغ لخروج بعض عباراته عن الأقيسة والقواعد التي حفظها في مخيلته ، وظن أن كل خارج عنها ساقط عن مرتبة البلاغة ، وما الذي يمنعه من ذلك ؟ أليست البلاغة في نظره صناعة من الصناعات ؟ وبما أن لكل صناعة حدود وقوانين محفوظة فكل كلام شذ عنها فهو خارج عن حدود البلاغة . فانظر إلى أي مدى وقف الجمود ببعض القرائح. أنظر كيف غفلت عن أن تلك الحدود مقتبسة من تلك البلاغة وناشئة منها ، وقابلة للزيادة على قدر ما يفتح للناس من أساليبها ، فقامت تحكم على الأصل بفرعه ، وتقضي على النص بشرحه .

نرجو أن نوفق في الجزء المقبل لكتابة مقالة في كنه البلاغة وماهيتها ، كما يفهمه البلغاء أنفسهم ، وكما يؤخذ من صفتها الجوهرية ، لندرك كيف أن القرآن في منتهى درجات البلاغة ، وفي أعلا قمة الفصاحة ، ونرجو أن يكون كلامنا

على البلاغة كميزان توزن به جميع أنواع البلاغات ، أو دستوراً يمكن الحكم به عليها بدون شطط .

هذا وإنا نرجو ، وقد فككنا القيود عن أنفسنا ، بتوحيد نمر كتاب الإسلام ، أن نوالي البحث في أنواع معجزات القرآن من كل وجهة ، فقد صارت في هذا العصر أكثر من أن تعد ، ونرجو أن يكون كلامنا كله على الأسلوب المعروف عنا في الاستدلال بالحس والواقع، والحكم على الشيء بنتائجه وآثاره .

* * *

الفصل الثاني

باب المسائل الاجتماعية

مجلس نواب للأمة المصرية

كتب إلينا أخ مهذب من موظفي الحكومة ، ورغب إلينا كتمان اسمه ، يقول : « لابد من أنكم اطلعتم على ما تناولته بعض الصحف سلباً وإيجاباً من موضوع إنشاء مجلس نواب مصري ، فنرجوكم أن تشرحوا لنا هذا الموضوع شرحاً جلياً ، وتبينوا لنا هذا النقص الحاضر في نظامنا القانوني ، وهل طبيعة المصري وصفته الحاضرة تسمحان له بأن يكون له مجلس نواب بمعناه الصحيح ؟ وإذا فرضنا تشكل المجلس فماذا تكون آثاره ، وما هي مضاره ومحاسنه ، وهل يرى بين الأمة المصرية أفراد يقومون بهذا العبء الحيوي وتكاليفه الضرورية ؟.

« إنا عندما درسنا القانون النظامي الفرنساوي ، أخذتنا الدهشة وبلغ منا العجب مبلغه ، عندما شاهدنا ذلك الاختلاف في النظامات بيننا وبين الأمم المتمدنة ، ولا عجب بعد هذا الخلاف الجوهري أن تقدموا وتأخرنا ، ونهضوا وقعدنا .

« لدي مسائل عمرانية أخرى ، أهمها ما يختص بالتربية والتعليم على الوجه الحديث المناسب للمصري ، وهو بين هذا المعترك الحيوي الهائل ، سأخاطبكم عنها حينما تفرغون من هذا الموضوع إن سمحتم بذلك » .

(الجواب) : لقد ألقى علينا حضرة الأخ المحترم سؤالاً عويصاً لمن يريد

الوصول إلى لبابه ، بعيد الغور لمن لا تقنعه قشور المسائل ، كثير التشعب لمن لا يحب الاندفاع بغير علم ، ولكننا لا نجد مناصاً من إجابة دعوة داعينا المهذب لاسيما وجوابنا هذا ، كما يقول حضرته ، ينتظره كل من يعرفنا بمصر ، فنقول والله المستعان :

موضوعنا يختصر في كليات بسيطة ، وهي : هل المصري مستأهل لمجلس نواب ، وما هي آثاره عليه صلاحاً أو فساداً ، وهل في الأمة رجال ينهضون بتكاليفه ، ويضطلعون بأعبائه ؟ يمكن الإجابة على هذه الكليات البسيطة بكلمات مثلها بسيطة ، فنقول مثلاً : أنه مستأهل أو غير مستأهل ، ونسرد بعض البراهين السطحية على ما نقول ، ننتزعها : إما من الخيال المحض ، وإما من النظر إلى بعض الأمم التي تستفيد من مجالسها ، ثم نختم القول بحث الحكومة والأمة على الإسراع .... بتأسيس ذلك المجلس المحيي للآمال ، المعيد للمجد والعظمة .

ولكننا لا نستطيع ارتكاب خطأ هذا الاندفاع ، ولا تحمل عهدة هذه الخسارة ، ولكننا قبل أن نحدث نفسنا ببسط الكلام على هذه المسألة العويصة ، نسعى أولاً في تشريح السؤال في أبعد أجزائه ، وتحليله إلى أبسط عناصره ، كأن نقول مثلاً : ما هو المصري في أصله ، وفي ماضيه البعيد ، وفي استقلاله ، وفي عبوديته ، وفي ملكاته الأصلية ، وأخلاقه التي أورثتها له العبودية للأمم المتغلبة ، ما تأصل فيه من تلك الخلال ، ولا يمكن زواله ، وما تشبث به منها سطحياً ، ويمكن زواله بالتربية ؟ ما هو المصري في دينه ، مركزه من جامعته ، علاقته بالجمعية الإسلامية العامة . هل هو مصاب بما أصيب به المسلمون ، قاطبة في هذه العصور ، أم له أمراض خاصة به ؟ ما هي تلك الأمراض ، وما مقدار خطارتها ، وما هي علاجاتها ، وهل هناك موانع تمنع تعاطي العلاج ؟ هل تلك الموانع ذاتية أو خارجية ، هل هي مما تزول أولاً ؟ هل هو عامل على إزالتها ، هل هي زائلة من طبيعتها ؟

ما هو مركز ألمصري أمام التيار المدني السحري الأوروباوي؟ ماكنه إصابته بميكروبات المفاسد الغربية ؟ ما مقدار قوة مقاومته لتلك المكاريب الجتاحة ؟ ما هي القوة المدخرة في طبيعته لمغالبة تلك المحن المنصبة عليه ؟

نحن إذا حللنا هذه المسائل كلها على الأسلوب العلمي التحليلي ، عرفنا ما هو المصري ومركزه الحقيقي من المرض والصحة ، من الحياة والضعف ، من الشعور والخدر الخ ... وإذا وصلنا إلى هذه النقطة غيرنا وجهة الموضوع وتركنا المصري جانباً ، وأخذنا نبحث عن ماهية مجلس النـواب في ذاته ، وعند الأمم أجمع ، وطفقنا ندرسه من جميع جهاته ، لنعلم هل يوافق دين المصري أو يخـالفه . هل يلائم طبعه أو يجافيه ، هل وصل استعداد المصري إليه أم لا ، وهـل يحفظه ويقوم به إذا وصل إليه ، أم لا يلبث أن يضيعه ، ويرتكس إلى أسوإ حالة ؟.

نحن إن لم نحل كل هذه المسائل حلاً علمياً عمرانياً ، فكيف نصل إلى حقيقة المسألة، وكيف يقام لحكمنا عليها وزن، وكيف يكون لقولنا أثر في موضوعها ، وتأثير على أذهان قرائنا ؟

نعم ، إن هذا الموضوع يلزم له مجلد خاص ، وكنا ننتدب أنفسنا لوضعه لو كان في البلاد قوة لتحمل مثل هذه المواضيـع ، وصبر على تتبـع المسائل الاجتماعية الكبرى، ولكنا من جهة أخرى لانحب أن نضن على ذلك العدد القليل من النشأة الحية بما تنتظره منا ولو بالايجاز المناسب ، فإذا رأى منا بعض قرائنا إغماضاً في أمر أو تشهى أن يستبين خفية من الموضوع ، فعليه أن يطلب إلينا ذلك، ونحن نمده إن شاء الله بما يناسب المقام والله وحده ولي الأمر كله .

أصل المصري

المصري أسيوي الجنس ، يقرب من الجنس السامي بلغته وصفاته الطبيعية ، أغار على القطر المصري من طريق العريش ، وأجلى عنه سكانه الأصليين ، وكانوا من الزنج ، وحل بالبلاد مكانهم في عهد قديم جداً يبلغ نحو الستة آلاف سنة قبل

الميلاد المسيحي ، ولا يعلم عنه شيء كبير وهو في مبدإ أمره ، إلا أنه كان تحت قيادة رؤساء ديانته الوثنية ، وبناء على هذا ، فالمصري أسيوي الأصل من الجنس الأصفر الذي هو دون الجنس الأبيض في الصفات الطبيعية الجسمية والعقلية على قول جمهور علماء الإنسان .

تاريخ المصري القديم

لايكاد يعلم للمصري تاريخ إلا بعد أن تكونت له دولة مستقلة رأسها (مينا) الذي تولى الملك قبل المسيح بنحو ٥٧٠٠ سنة ، ثم أعقبه أولاده حتى انقرضت عائلته وخلفتها عائلة أخرى ، وهكذا إلى أن انتهت إلى العائلة السابعة والعشرين سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، ثم انقطع استقلال البلاد بوقوعها تحت سلطة الأعجام مدة ، ثم انتهز المصريون فرصة سنحت لهم وألهبوا نيران الثورة واستقلوا ببلادهم سنة ٤٠٨ قبل الميلاد ، وكوّنوا العائلة الثامنة والعشرين ، لأن الأعجام عدوا عائلة حاكمة على البلاد ، ثم جاءت العائلة التاسعة والعشرون ، ثم أعقبتها العائلة الثلاثون سنة ٣٧٨ قبل الميلاد ، وفي أثناء حكم هذه العائلة هاجم الفرس البلاد وامتلكوها وصار (دارا) ملك الفرس أول العائلة الحادية والثلاثين ، وهو صاحب الحروب الشهيرة مع الإسكندر ، ولما دارت الدائرة عليه ، وقعت بلاده كلها ومنها مصر ، تحت حكم اليونانيين المقدونيين ، وابتدأت فيها عائلة البطالسة من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٠ ق. م. ، ثم امتلكها الرومان لغاية سنة ٦٣٩ بعد الميلاد ، ثم افتتحها منهم العرب إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، ثم امتلكها الأتراك في مدة السلطان السليم ، ثم أخذها الفرنسيون منهم في نهاية القرن السابع عشر ، ثم استردها الأتراك ثانية حتى احتلها الانجليز .

المصري في استقلاله

بلغ المصري وهو مستقل ، أقصى درجة معروفة إذ ذاك من المدنية الفكرية والصناعية ، بل هو أقدم رجل متمدن عرف في العالم الإنساني من أول الخليقة ،

ومن يزور دار الآثار المصرية القديمة يقف على مبلغ ما وصل إليه من إتقان الصناعة ، ورفعة الشأن ، ولكنه في كل مدة استقلاله لم يغير شكل حكومته ، ولم تحدثه نفسه بذلك يوماً من الأيام ، فقد كان خاضعاً للحكم الاستبدادي المطلق في أقسى أشكاله ، إذ كان الملوك في نظره آلهة يُعبَدون في حياتهم وبعد مماتهم ، لأنه كان يعتقد أنهم أولاد الخالق – تعالى عما يقولون علواً كبيراً – ، ولهذا حفظ التاريخ عنهم خضوعاً متناهياً لملوكهم ، ومراعاة خارقة للعادة لأوامرهم وأحكامهم ، فما كانوا يعتبرون أنفسهم بإزاء ملوكهم إلا عبيداً أذلاء لا إرادة لهم ولاحرية ، وإنك لتصادف فوق الأحجار ما يدلك تمام الدلالة على هذا الاستدلال التاريخي ، فقد نقشوا على الصخور أصغر الأعمال الملوكية وأحقرها ، وجسموها لدرجة أنهم حسبوها من أقصى غايات المجد وأعظم معالم السؤدد .

كانت إدارة البلاد بين أيدي رتب متعاقبة من الموظفين ، كما هو الشأن اليوم في البلاد المتمدنة ، وكان الناس ينقسمون في نظر شريعتهم إلى خمسة أقسام : (١) رؤساء الدين . (٢) ورجال الحرب . (٣) والزارعون . (٤) والصناع . (٥) والرعاة . وكان أشد هذه الفرق صولة وأوسعها اختصاصاً القسوس ، فكان لكل منهم إله ، ولكل معبد عدد عديد . يقومون بخدمته ، وتعتبرهم العامة اعتباراً ليس له حد ، وكان للكهان زيادة عن هذه الوظائف الدينية وظائف إدارية أخرى ، فكانوا يشغلون مراكز القضاء والإدارة ، وكان لهم أحسن أراضي القطر المصري لا يدفعون عليها شيئاً . وكان يلي هذه الفرقة في النفوذ والسطوة طائفة الحربيين ، وكانت دون الأولين امتلاكاً للأراضي وخيرات البلاد. والخلاصة ، أن أراضي القطر المصري كله كانت موزعة على الملك والكهان والجنود ، أما الرعاة والزارعون فكانوا لا يملكون شيئاً وهم تبع لأراضيهم التي يحرثونها ، أي أن مقامهم كان لا يجاوز مقام مواشيهم في نظر القانون إلا بشيء ضئيل ، ويدلنا على ذلك ما كان يأتيه فراعنة المصريين من الأعمال الجسيمة ، كإقامة الأهرام والمعابد ، ونقل الأحجار إليها من الجبال ، وما كان ينتج من توالي الأعمال الهوائية من الذهاب بنفوس الألوف المؤلفة من الرجال .

كل هذا ، ولم يرو لنا التاريخ أن المصري أنف من تحمل هذا النير الثقيل ، أو تململ تحت هذا الكلكل القاسي ، فحدث نفسه بوضع حد للحكم الاستبدادي المطلق ، أو بإيقاف سلطة الكهان والجنود عند نقطة معينة ، أو عصفت في وجدانه عواصف الحمية ، فقام يثبت لنفسه شخصية أمام ساداته الأقوياء ، وكيف يتأتى له ذلك وهو يعتقد أن مليكه إله وابن إله ، وأن تلك قد ثارت في البلاد ثائر من فتنة داخلية ، فذلك قد كان من تحزب عائلة ملوكية على عائلة ملوكية أخرى تنازعها صولجان الملك ، وتتقاضاها قسطها من الزعامة .

المصري في عبوديته للأمم الغالبة :

موقع القطر المصري الجغرافي ، وشهرته العلمية والصناعية أوجبا عليه منذ القدم من المحن والإحن ، وجرّ عليه من شهوات الملوك والقادة ، ما لا يعطيك فكرة صحيحة عليه إلا ما تراه من أنه غنيمة الغالب وفريسة السابق دائماً .

خرج المصري من أسر ملوكه السابقين وعبوديتهم إلى عبودية الفرس،فتجرع كأس الذل مريراً ؛ وحمل نير الاسترقاق ثقيلاً ، ولقي من مظالم ساداته الأجانب ما لا كان يتخيله إلا في ما يطالعه من عقوبات الكافرين في مستقر الشياطين ؛ ومستودع آلهته السفليين ؛ فماذا يعمل وهو مغلوب على أمره؛ ومأخوذ على يده؟ جاشت نفسه من توالي تلك المظالم عليه ، واضطربت عواطفه اضطراباً قاده إلى طلب الاستقلال بسيفه ، ولم يزل يجاهد عدوه بتلك الروح العالية حتى أجلاه عن بلاده ، وذاق طعم الاستقلال كما كان أول مرة ، ولكنها كانت حركة كحركة المذبوح لم تلبث أن همدت، وتبين للملأ ضعفه، فساوره (دارا) فأخضعه لسلطانه، ثم انتقل من ملك الأعجام إلى ملك المقدونيين ، كما ينتقل السلب إلى السالب ، فتوالى عليه ملوك مقدونيون يدعون البطالسة (لأن اسم كل منهم بطليموس) فسار الأول سيرة العدل ، وأحل البلاد محلة الأمن ، وتبعه ابنه في سبيله ، وحذا حذوه حفيده ، ثم انقلب الحال وتبدل الشأن ، ورجع العسف إلى مجراه ، وآب

الجور إلى نصابه ، وتلاقت البلاد فتن كقطع الليل المظـلم ، ولم تزل كذلك إلى سنة ٣٠ ق. م. ، ثم جـاء الرومان فكانت مصر في مدتهم مرسى للاضطرابات والفتن ، تارة تعصباً للدين، وأخرى تحزباً للملك، وكان أكثر الولاة الذين يرسلهم أباطرة الرومان حكاماً على مصر غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، منهومين بشرب الدماء ، وكانت البلاد تلاقي منهم من أشـكال الحيف والعسف ، ما لا يصح إلا لقطاع الطرق ، وأصحاب الدعارة .

ظل المصري تحت تأثير هذا الجو الوبيء نحواً من سبعمائة سنة ، حتى افتتحها المسلمون سنة ٦٣٩ ، فدخلوا وبيدهم الدستور القرآني ، والقسطاس الإسلامي ، يسكنون أرواعاً جائشة ويهدئون نفوساً مضطربة ، ويضمدون جراحاً دامية .

جاء المسلمون إلى أمة مزقت أحشاءها العتاة الجبارون ؛ وأطاشت حلومها القساة الظالمون ، مصابة بخدر يشبه الموت ، وضعف يضارع الخمود ، أضاعت معنى الاستقلال والحياة والعزيمة والغيرة والحمية ، وكيف يفكر في هذه الخلال من تلقيه الحوادث بين مدىهذه القلاقل المفقدة للرشاد، المضيعة للسداد، الذاهبة بحياة الفـؤاد ؟ تدارك المسلمون هذه الأمة وهي على هذه الحـال ، فأمنوها على عرضها ومالها ودينها ، وأقروا بينهم على الدستور القرآني ، يخفق على الرؤوس على حد سواء ، لا فرق بين مصري وعـــربي ، فدبت في نفس المصري غرائزه الطبيعية الكمينة ، تحت ظل هذا العدل الإسلامي الوارف ، وسمت نفوسهم عن صفات النقص واحتمال الذل ، لدرجـة أن المصري كان يتجشم خطر السفر إلى الحجاز ليشكو ابن عمرو بن العاص لإهانة لحقته منه ، بعد أن كان بالأمس طعمة لصغار الرومان وهدفاً لأقزام اليونان .

استمرت هذه الحكومة العادلة ردحاً من الزمن ، فامتزج حبها بدم المصري ومهجة فؤاده حتى نسي في حبهـا لغته ودينه ، وأصبح مسلماً إلا القليل منهم مكثوا على دينهم ، آمنين على أرواحهم تحت هذا العلم الوارف الظلال. ومن هذا

الحين اختلط تاريخ المصري بتاريخ الإسلام العام ونالته كل الإصابات التي نالت جسم الهيئة العامة مع بقاء أمراضه الأولى كامنة فيه أيضاً .

المصري في خلاله الأصلية وعيوبه المكتسبة :

قلنا أن المصري من جنس آسيوي يقرب من السامي ، وهو ككل أفراد النوع الإنساني متمتع بمواهب وملكات وأميال وإحساسات وعواطف ، وقابل للترقي والتدلي ، وأهل للانطباع بتأثيرات الوسط الذي يعيش فيه ، وشكل الحياة التي يحياها ، بمعنى أنه ليس جباناً بالفطرة ، ولا فيه عيب عنصري يفصله عن بقية النوع الإنساني ، وإنما نشأت فيه عيوب كثيرة من جراء الأدوار التي وقع فيها ، ولو وضعت أرقى أمم الأرض مكانه ، وسلطت عليها ما تسلط عليه لأصبحت مثله ، فنحن هنا إن ذكرنا عيب المصري لا نريد أن نشتمه أو نجرح إحساسه ، وإنما نذكرها من باب تشخيص أدوائه ، لنستطيع أن نصف له دواءاً ناجعاً إن شاء الله ، وما سنذكره هو نتيجة طبيعية لما عملناه من هذا الموجز التاريخي ، وخلاصة فلسفية لهذا التحليل العلمي . (لها بقية)

★

كيفية استحضار الأرواح :

جاءنا من حضرة المحترم خليل أفندي فهمي المهندس بمصر ، خطاب يطلب الينا فيه أن نبسط له الطرق المعروفة في أوروبا لاستحضار أرواح الموتى .

قال حضرته ما نصه : « وحيث تعلمون أن هذا الأمر مما تتشوف اليه النفوس ، وتصبوا إلى معرفته العقول ، فنرجوكم بسطه بشرح واف في الجزء الآتي وبذلك تكسبون ثناء مشتركيكم وخصوصاً هذا المخلص » .

الجواب — إن غرضنا الوحيد من كثرة الكلام في أمور ما وراء المادة ،على الأسلوب العصري الذي يسمونه في أوروبا وأمريكا بالماتييتزم (التنويم المغناطيسي) والاسبيريتزم أو الاسبيريتواليزم (استحضار الأرواح) ، هو

مطاردة الإلحاد المتفشي الآن في كثير من أفراد النشء الجديد ، المفترين بالعلوم المادية التي تعلموا شيئاً منها ، وكثير من خاصة الدور السابق الذي سحرتهم موهات المدنية الأوربية وفتنتهم مظاهرها .

إننا لليوم لم نحصّل البرهان النهائي على أن ما يظهر في أوروبا للمشتغلين بمسائل ما وراء المادة هي أرواح الموتى حقيقة، ولكنا نعتقد ولا نتردد بأن شيئاً يظهر لهم من وراء هذا العالم ، فلا ندري إن كان هو روح من عالم الأرواح أو عالم الجن أو عالم آخر لا يعلمه « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، وسبب عقيدتنا في صحة ظهور شيء من هذا القبيل ، هو إجماع كل الباحثين من العلماء الثقاة في كل بلد وبكل لغة على صحة ذلك ، وإعادة بعضهم لتجارب بعض على اختلاف بلادهم ولغاتهم ، مما يدل المطلع من أول وهلة على استحالة اجتماع هؤلاء الألوف المؤلفة من أكابر علماء الأرض على ضلة عقلية ، أو ألعوبة سحرية ، ولو توهمنا أن يضل عامة علماء فرنسا المشتغلين بهذه المسألة ، فلا يسهل علينا أن نزعم أن يضل مثلهم علماء إنكلتره ، ولو توهمنا ذلك بطريقة فوق التصور ، لما استطعنا أن نتوهم أن يضل مثلهم علماء إيطاليا أيضاً وألمانيا والنمسا والروسيا وبلجيكا وسويسره وهولانده وكافة ممالك أمريكا الشمالية والجنوبية . ثم لو تسنى لنا أن نتهم علماء إيطاليا مثلاً أنهم وهموا في جلسة من جلسات التحضير ، وانخدعوا للمحضر أو اغتروا بما ليس بموجود ، فلا يتسنى لنا أن نتهم سائر علماء الأرض بأنهم وقعوا كلهم في أحابيل الخداع والتدليس ، لا سيما وأن ما يجربه العالم الفرنسي يعيده العالم الأمريكي والإنجليزي وغيره ، ويكرره في كل حين ما دام حاصلاً على سائر الشروط الضرورية لحصوله .

هذا هو سبب اعتقادنا في صحة ظهور تلك الخوارق في جلسات التحضير . أما كون تلك الخوارق منسوبة لأرواح الموتى أو للجن أو لعالم آخر ، فلم نحصل لليوم على البرهان النهائي الذي يقف بنا عند فرض من هذه الفروض الثلاثة . وسواء صح كونها منسوبة لأرواح الموتى أو للجن ، فنتيجتها البرهان المحسوس

على وجود عالم وراء عالم المادة ، له شؤون غير شؤون هذا العالم ، وأنه أرقى من هذا العالم بما لا يقدر ، وأنه مسيطر على هذه المادة تكويناً وإفساداً وغير ذلك . وبناء عليه فمذهب الإلحاد الذي كان يتبجح بنفسه أصبح وهماً باطلاً ، وضلالاً ظاهراً ، وقد انهزم هزيمة لن تقوم له بعدها قائمة أبد الآبدين ودهر الداهرين . أما ما تراه من بقاء بعض الرؤوس الملحدة للآن ، فسببه جهـل السواد الأعظم من الأمم بهذه الخوارق ، ومتى انتشرت بين العالم وأصبحت تجاربها بدائه علمية كتجارب علوم الطبيعة ، قبع كل ملحد قبوع القنفذ ، وأطرق بعينيه إلى الأرض ، فإما يسلم وجهه لله وإما يقاوم الحس ، ويكاوح المشاهدات ، وكفـاه بذلك خزياً وألماً .

ينقل بعض الناس عندنا مخترعات الصناعة ومكتشفات العلمـاء في علوم الطبيعة ، حتى أنهم ليملأون بذلك أسفاراً في كل شهر ، ولا نرى أحداً يطلب أن يبينوا كيفية العمل . لماذا ؟ يقال لاقتناع الناس عموماً بعدم الاستعداد لإعادة تجارب الأوربيين وتقليد مخترعاتهم ، لما تستدعيه من المعامل والأدوات والآلات ! نقول : إذا كان لا استعداد لدينا لإعادة أعمالهم في العلوم المـادية ، فبالأولى لا استعداد عندنا كذلك لإعادة تجاربهم في علومهم الروحية . ولو علم حضرات قرائنا أن الأستاذ (كروكس) الإنجليزي الشهير ، صرف سنين عديدة في درس بعض ظواهر الاسبرتزم ثم وقف سنة ١٨٩٧ لما أسندت إليه رئاسة الجمعية الملوكية الإنجليزية ، أي بعد مضي نحو ثلاثين سنة ، يقول لقومه أنه ليس في تاريخه العلمي ما هو أشهر من اشتغاله بالمسائل الروحية ، وأنه لم يزل يشتغل بها ، قلنا : لو علم حضرات قرائنا أن مثل هذا الأستـاذ ، على سعة معارفه وتوفر شروط العمل لديه ، يلبث ثلاثين سنة مشتغلاً بهذا الفن ثم يصرح بأنه لم يزل يعمل فيه ، لأدركوا أن هذا موضوع شاق لمن يريد التعمق فيه والوقوف على كبريات مسائله .

هذا الأمر يعوز أولاً إنساناً ذا تركيب خاص ، فيه مزية الإشراف على سكان العالم الروحاني ، ليكون واسطة بين الأحيـاء وعالم الأرواح ، وبدونه لا يمكن الحصول على شيء ، ثم أن هذا الواسطة يحتاج لتدريب وتهيىء لهذا العمل بطرق

يعرفها علماء الإنسان المشتغلون بهذه المسائل . فإن في التحضير خطراً على حياته وصحته ، وكم حصلت في أوروبا وأمريكا أمور ساقت إلى المحاكمات الشديدة والعقوبات الصارمة . ومما يدلك على أن الاشتغال بهذا الأمر الروحاني ليس من الأمور الهينة ، أنه حدث مرة أن خمسين شخصاً أصيبوا بالجنون دفعة واحدة في إحدى جلسات التحضير .

نقول هذا ، ولا ننكر أن في البلاد الأوروبية رجالاً ونساء معرضين أنفسهم لإدهاش زائريهم ببعض المشاهدات الروحية ، ويستطيع من يزورهم في مقابل بضعة فرنكات أن يستحضر روح أحد أقربائه ، ولكن هؤلاء الأشخاص يعدهم علماء الفن جائحة على مذهبهم ، فإنهم كثيراً ما يستعملون الغش والتدليس سعياً لأكل الأموال بغير حق ، فيبعدون الناس عن الدخول إلى ذلك المذهب لما يرتكبونه باسمه من الخدع والتزوير .

إذا تقرر هذا، فليس من الممكن مجاراة الأوربيين في تجارب ما وراء المادة ، كما ليس من الممكن مجاراتهم في تجارب المادة ، وليس من المعقول أن نصل إلى المستوى الذي هم فيه بالنسبة لفن خاص، في الوقت الذي نحن دونهم فيه في سائر الفنون الأخرى، فإن المشاهد أن الأمة لا ترتقي إلا ترقياً متناسباً في كل شيء . فلا يمكن أن يكون عندنا طبيعي كبير يفيد البلاد إلا إذا وجد عندنا مثله في كل فرع من فروع العلوم. وربما يتذكر الناس أنه قد كان وجد عندنا فلكي كبير في وقت لم يكن أحد يقابله في فروع العلوم الأخرى، فوقف حيث هو ولم يفد البلاد شيئاً.

فنحن نكتب في الإسبرتزم من قبيل ما تكتبه المجلات في أبواب المكتشفات الحديثة ، والأخبار العلمية ، وغرضنا من هذا النقل كسر حدة أولئك المقلدين الذين يزعمون أن العالم الأوربي أكبر من أن يعتقد بشيء ، ويصورونه بصورة العتاة الجبارين مع أن أرفعهم رأساً قد خضع أمام آية الاسبرتزم وأناب ، وفي تتبع أقوالهم العجب العجاب . فسبحان القاهر فوق عباده .

الفصل الثالث

العلم عند المسلمين

تكلمنا في مقالاتنا السابقة على بدء تكون العلم عند الأمة اليونانية ، ثم ألمعنا لى طرف من تاريخ جـامعة الإسكندرية التي أسسها بطليموس الأول وابنه ، وحشرا إليهـا من العلماء اليونانيين في سائر فروع العـلم ، وأودعاها من نفائس الكتب ، وذخائر المدارك ، وكنوز المعارف ، ما لا يمكن حصره إلا في مجلد ضخم ، ثم استعرضنا نبذاً من معلومات أولئك القادة المتقدمين في كبريات المسائل الإنسانية ، جرياً على أسلوبنا الذي توخيناه في هذا المبحث . وقد انتهى بنا الكلام اليوم إلى العلم عند المسلمين .

علم الخاص والعام أن الأمة التي ورثت العلوم الكونية من الأمة اليونانية هي الأمة الإسلامية ، فقامت بحقوق الوراثة خير قيام ، وجعلت من بغداد عاصمة علمية فاقت في الشهرة والنفع والفخامة ثغر الإسكندرية الذي اتخذه اليونانيون نقطتهم الجامعة أيام كانت السطوة العلمية لهم .

علم الناس هذا ، وتعدى من الشرق للغرب فأصبح اليوم علماء أوروبا يقرون بهذا الفضل لأهله ، ويعترفون علناً بأن المسلمين أساتذتهم ومعلموهم ، ولا يزالون يكتشفون من كنوز علومهم وأسرار معارفهم مـا يستفيدون منه في تحسين

أمورهم، وزيادة مادة عرفانهم، وقد شاع وذاع أمر هذا الإقرار من الأوروبيين بفضل آبائنا الأولين، حتى قنع أكثرنا بمحض ذكره بدون بحث عن تفصيله، فمتى ذكر المؤلف عن عالم من علماء الفرنجة نبذة من كلامه في ذلك الموضوع، فقد قام لقرائه بكل ما ينتظر منه، وكفاه أن يقول أن المسلمين الأول بلغوا من علوم الهيئة والطبيعة والكيمياء والرياضة أقصى الغايات، وزادوا على معلومات اليونانيين فيها زيادات خلدت لهم الذكر العاطر إلى اليوم، أما تفصيل تلك العلوم وذكر رجالها واحداً بعد واحد، والتحسس من مصادرها ومناشئها، وتتبع سيرها في رقيها على يد رجالها وفحولها، وذكر نبذ تاريخ مشخصيها، ونقل فذلكات شافية من أمهات كتبهم إدلالاً على مكانتهم، فلم يطرق هذا البحث طارق لليوم، مع أنه يجمع إلى اللذة العقلية الفائدة العلمية التي لا تقدر، ويسوءنا أن يسبقنا الأوربيون إلى هذا المجال الواسع، فيسجلون بذلك علينا موات العزيمة، وفقدان الحمية ولا يرضاها لنفسه إلا من اتصف بها، والتاث برجسها.

لذلك رأينا إن شاء الله أن نسد هذا الفراغ الهائل بأبحاث مستفيضة نكتبها على التوالي في كتاب الإسلام كل شهر على قدر الطاقة، ثم متى حان وقت زيادة صفحاته كما وعدنا، تخصص لهذه الأبحاث عشرات من الصحف إشباعاً للقول، وتوفية لحق الموضوع، وسيكون ترتيب كلامنا إن شاء الله تابعاً للنمو الطبيعي الذي ظهر به العلم في هذه الأمة، متتبعاً السلسلة من أولها في عصر الصحابة رضي الله عنهم، ثم التابعين وتابعيهم حتى نصل إلى طرفها الذي اتصل بالأوربيين

سيكون كلامنا إن شاء الله في هذا الباب الكبير بالغاً النهاية في التفصيل والبسط، فإن الموضوع كما قدمنا محتاج لذلك، خصوصاً في عصرنا هذا، وسيكون على الأسلوب العصري في النقد والتمحيص والتحليل، فلا يفرحنا مثلاً أن نقرأ في كتب العلامة (درابر) مثلاً أن العلماء الإسلاميين كانوا متبعين في أبحاثهم الأسلوب العملي التجريبي، وهو أسلوب الفلسفة العصرية، حتى نبحث على سبب تولد هذا الأسلوب فيهم وكيفية منشئه، مع علمنا بأنه أسلوب خشن

لا يحبه أصحاب الأديان ، ولا يرضاه الموابذة والكهان ، لمـــا فيه من الأحكام الصادرة على ثمرات الخيال، وبنات الأفكار، ونجتهد في استنباط ذلك من القرآن الكريم والسّنة النبوية .

لا مشاحة في أن أول حركة علمية تولدت في المسلمين هي نزول القـــرآن وحفظهم بعض آياته . كما أن أول معلم فتح لهم باب التعلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فسنجتهد إن شاء الله في درس تلك الأحـــوال في أدق مظاهرها ، فربما استهان الإنسان بأمر صغير يجد فيه لو احتفل به سراً كبيراً ، وعندنا أن كل الفخامة العلمية والحركة العظمى التي ظهر بها العرب في عصرهم الزاهر ، هي عائدة للنبي صلى الله عليه وسلم ، لا لكونه فقط أول من حثهم على التعلم وبعثهم للرقي بما أودع فيهم من الحيـــاة ، بل لكونه أول من رسم لهم الأسلوب الذي يسيرون عليه بسيره معهم في دروسه الأولية ، ولا يخفى أن صلاح التعلم وفساده مبني على سلامة أسلوبه أو اعتلاله ، فمتى كان الأسلوب قويـاً تيقظت ملكات الطفل ، وحييت مواهبه وتهيأت لتحصيل المعـارف واختزانها ، وبالعكس فيما لو كان الأسلوب معوجاً فإنه لا يوقظ من الطفل ملكة حتى يميت فيه ملكات ويقتل عواطف ويخدر إحساسات لامحل لأن نعطي عنها مثلاً في هذه المقدمة .

لهذا نرى أن تدقيق النظر في الأسلوب المحمدي المستمد من الدستور القرآني في التعليم والتلقين ، أصبح في نظرنا من الأمـــور الكلية التي تحل لنا كثيراً من أسرار رقي العرب ، هذا الرقي السريع في مدة لا تتجاوز الجيل الواحد ، مما لم يشاهد مثله في تاريخ العالم للآن .

درس هذه الحركة القرآنية لا يقف بنا عند هذا الحد، بل يتعدى إلى معرفة كيفية تدارسهم للقـــرآن ، وكيفية تفهمه ، وسؤالهم عما عـــلا عن فهمهم منه وأسلوبهم في جمعه ، ثم يلي هذا المباحث المتسلسلة الكبرى في درس حركة العلوم النحوية واللغوية والأدبية والعلمية على اختـــلاف أنواعها ، من طبيعية وفلكيات ورياضيات . كل ذلك بالتفصيل الشافي وذلك بإمساك السلسلة من طرفها الأول

وتتبع حلقات رقي كل عـــلم حلقة حلقة ، مع درس سير رجـالـه وحفاظه ، وما يروى عنهم من الفضل والمكانة في العلم ، مع ذكر تواريخ حياتهم بشيء من التفصيل والبسط . ولا نشك في أن هذا الموضوع على قدر مـــا فيه من الفائدة والجدة ، فيه أيضاً من اللذة العقلية والرياضة الفكرية ما يدركه كل إنسان بمجرد ذكره .

هذا البحث يحتاج لجملة مجلدات على حدتها ، وربما يستحسن أن نجعلها مستقلة عن (الإسلام في عصر العـلم) ، ولكنا نرى أن كتابتها تباعاً في هذا الكتـاب الجامع أولى لنا من جملة وجوه ، ثم إن لاح لنا لزوم طبعها على حدتهـا فعلنا ، والله ولي المؤمنين .

قبل الدخول في موضوعنا هذا ، يحسن بنا أن نورد أمام الكلام نبذة مما كتبه الأستاذ الأمريكي الشهير درابر في كتابه (التنازع بين العلم والدين) وفي إمكاننا أن ننقل كثيراً من أقاويل علماء أوربا في هذا الشأن ، ولكنا رأينا أن نكتفي بقول درابر إيذاناً لمن يجهل فضل آبائه من المسلمين ، بأننا سنخوض به بحـــراً خضماً بعيد الغور والساحل . قد شهد له الأجنبي البعيد ، فكيف يجحد فضـله الولي القريب .. قال :

« بعد انتقال محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى الدار الباقية ، ترجمت إلى اللغة العربية أهم المؤلفات اليونانية ، وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة (كالإلياذة ، والأوديسية) إلى اللغة السريانية ليطلع عليها العلماء دون العامة ، لما رأوه فيها من الأقاصيص الخرافية عن آلهة اليونانيين ممـا يخشى منه على عقائدهم . ولما ولي الخلافة أبو جعفر المنصور ، من سنة ٧٥٣ إلى ٧٧٥ ، نقل تخت الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخيمة . فلم يألُ جهداً من بذل الوسع في درس العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة ، ولما جلس حفيده هرون الرشيد على عرش الملك سنة ٧٨٦، اتبع أثر جده في هذه الفتوحات العلمية . وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد في جميع أرجـــاء ملكه ، ولكن عصر العلم الزاهر في القارة

الآسيوية لم يشرق إلا في خلافة المأمون ، الذي تولى الخلافة من سنة ٨١٣ إلى ٨٣٢ ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع كتباً لا تحصى ، وقرب إليه العلماء ، وبالغ في الحفاوة بهم .

« هذا المركز الذي اكتسبه العرب ، وهذا الذوق السليم في العلم ، استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت المملكة إلى ثلاثة أقسام : حتى أن العباسيين في آسيا والفاطميين في مصر والأمويين في أسبانيا ، لم يكونوا متنـــاظرين متغايرين على الحكومة فقط ، بل كانوا كذلك على الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب في الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحـــة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقـدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة . أما في العلوم فقد كان فوقانهم فيها ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في المباحث . وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الاسكندريين ، لا عن اليونان الأوروبيين ، فانهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ، وأن الأمل في وجدان الحقيقـة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحسي . وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والإيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتهـــا) ، ونظريات الضوء والإبصـــار ، بأنهم قد اهتدوا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعـــين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لجملة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد) والتصفية الخ ... وهذا بعينه أيضاً ، هو الذي جعلهم يستعملون في أبحـاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلمة والاسطرلابات (هي آلات لقيـاس أبعاد الكواكب) ؛ وهو أيضاً الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو أيضاً الذي أرشدهم لعمل الجداول عن

الأوزان النوعية للأجسام ، والأزياج الفلكية (هي جداول تعرف منها حركات الكواكب) ،مثل التي كانت في بغداد، وقرطبة وسمرقند، وهو أيضاً الذي أوجب لهم هذا الترقي الباهر في الهندسة ، وحساب المثلثات ، وهو أيضاً الذي هم بهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية . هذا هو ثمرة تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالي على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصلوا إلى تكوين الكتبيات التي تكلمت عنها ، وقد قيل أن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب ، وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الإمبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكاتب القسطنطينية التي كان فيها بين الذخائر العلمية الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية ، فأمر المأمون بترجمته للعربية وسماه المجسطي . وقد حصلت العناية بأمر هذه المكاتب حتى أن مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة ألف كتاب معتنى بكتابتها وتجليدها غاية الاعتناء . وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف وخمسمائة مجلد في الطب والعلوم الفلكية فقط . وكان من نظام هذه المكتبة أنها تعير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة . وكان بتلك المكتبة كرتان أرضيتان إحداهما من الفضة والأخرى من البرنز . قيل أن الأولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه ، وأنها تكلفت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب . وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد، وكان جدول أسمائها وحده محوياً في أربعة وأربعين جزءاً .. وغير هذا ، فقد كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكاتب الخاصة . ومما يحكى أن أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان بخارى له ، محتجاً بأن كتبه لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير .

« ولقد كان يوجد في كل مكتبة كبرى محل خاص للنسخ والترجمة . وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فإن هونيان الطبيب النسطوري كان له محل من هذا

القبيـــل ببغداد سنة ٨٥٠ ترجم فيه كتباً لأرسطو وأفلاطون وهيبوكرات وغاليان ألخ .. أما المؤلفات الحديثة ، فقد كان من عادة أساتذة هذه الجامعة أن يؤلفوا كتباً في الفروع العلمية التي تطلب منهم . وكان لكل خليفـة مؤرخ خاص يكتب تاريخه . ومن ينظر إلى تلك الأقاصيص والحكايات التي هي مثل ألف ليلة وليلة ، يعرف مقـــدار التصور الشعري الذي كان لدى العرب . ولم يقف بحث العرب عند حد فقد كتبوا في كل فن وفي كل علم ، كالتـــاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة ، وتراجم الرجال وتراجم الخيول والإبل ، وكل هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجر ، وما يعلم من المراقبـــة على الكتب اللاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لأن تتخذ مادة في المعلومات كثيرة جداً في الجغرافيـــة والإحصـــاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . وكان لديهم دائرة معارف علمية ألفها محمد أبو عبد الله . وكان للعرب ذوق دقيق في صنع الورق النظيف الناصع البياض ، وفي إعطاء الحبر الألوان المختلفة ، وفي زخرفـة وجوه الكتب بتشبيك تلك الألوان المختلفة من الحبر ، والإبداع في تنميقها وتذهيبهـا على صفات شتى .

وكان الملك الإسلامي العربي مـلوءاً بالمدارس والكليات ، وكانت بـلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها . وكان في طرف من أطراف هذه المملكة الواسعة التي فاقت المملكة الرومانية بكثير مرصد في سمرقند لرصد الكواكب ، وكان يقابله في الطرف الآخر مرصد جيرالده في الأندلس . قال جيبون — عند ذكر الحماية والرعاية التي بذلها المسلمون للعلوم —: (كان أمراء المسلمين في الأقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد . وأوقف عليهـا خمسة عشر

ألف دينار سنوياً . وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غني وفقير . فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكفون التلامذة الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة ، وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سداً لحاجة أهل العلم وشهوة الأغنياء في جمع الكتب) — انتهى كلام جبون —. ثم قال درابر: « وكانت قيادة المدارس مودعة لذوي المدارك الواسعة فكانت إما بيد النسطوريين أو اليهود ، لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنسية العالم وديانته ، وما كانوا يزنون قدره إلا من أعماله . ولقد فاه الخليفة الكبير المأمون بفكره على حقيقة العلماء ، فقال : إن صفوة خليفة الله وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية ، وإن الذين يعلمون العلم والحكمة للناس هم مصابيح العالم ، ولولاهم لارتكس الخلق في عماية الجهالة وغياهب البربرية » . ثم قال درابر : « وقد اتبعت المدارس الطبية عموماً مثال مدرسة الطب في القاهرة في اختبار الطلبة قبل إخراجهم نهائياً ، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة التطبيب إلا بهذا الشرط .

« وأول مدرسة أنشئت من هذا القبيل في أوروبا هي المدرسة التي أسسها العرب في (سالرن) من إيطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون في إشبيلية بإسبانيا .

« ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة رقياً كبيراً جداً ، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن معروفة من قبلهم . »

ثم تكلم المؤلف على براعتهم في العلوم الرياضية ، وعلى التسهيلات التي أدخلوها عليها ، وعلى فوقانهم في حساب المثلثات والعلوم الفلكية ، وما ألفوه فيها من كتب وما سطروه من الجداول والتقاويم ، ثم قال — : « العلماء الفلكيون من العرب اهتموا أيضاً بتحسين آلات الإرصاد وتهذيبها ، وبحساب

الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال ، والساعات المائيـــة ، والسطوح المدرجة الشمسية ، وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض .

« أما في عالم العلوم التجريبية فقـــد اكتشفوا الكيمياء وبعضاً من محللاتها الشهيرة مثـــل حمض الكبريتيك وحمض النيتريك والكحول (الاسبرتو) . واستخدم العرب علم الكيمياء في الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية . أما في علم الميكانكا ، فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام ، وعرفوا تقريبـاً ناموس الجذب في الأجسام ، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة . أما في الأيدروستاتيك ، وهو عـــلم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها ، فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثاً على الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء . أما في نظريات الضوء والإبصار ، فقـــد غيروا الفرض اليوناني الذي مقتضاه أن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي . وقالوا بعكس ذلك ، أي أن الإبصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلى العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها ؛ وقـــد اكتشف الحسن الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو ، وأثبت بذلك أننـــا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق ، وكذلك في الغروب نراهما قليلا بعد أن يغيبا .

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً بالتقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم : فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظامات الزراعية الحكيمة وإدخـال زراعة الأرز والسكر والبن ، وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن ، وكانوا يذيبون المعادن وكانوا يجرون في عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها .

«وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر وقد وهبوهما وقتاً كبيراً وحبوهما

مكانة من أفئدتهم . وهم الذين علـّموا الأوروبيين لعب الشطرنج ، وبثوا فيهم ذوق مطالعة الأقاصيص . وكان للعرب لذات روحية حتى في المجالات الزاهدة للأدبيات الفلسفية ،فكان لديهم مؤلفات عالية جداً في تقلب الأحوال الإنسانية ، وعلى نتائج عدم التدين ، وعلى زوال النعم ، وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته ، وإنا نندهش أحياناً حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنـــا نظنه من نتائج العلم في هـــذا العصر . من ذلك أن مذهب النشوء والانتقال للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس في مدارسهم ، وقد كانوا جروا به إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة والمعدنية أيضاً . فإن النظرية التي انبنى عليها عـــلم الكيمياء (كمياء استخراج الذهب) هي زعمهم أن المعادن تكونت تكوناً تدريجياً . قال الخازني : إذا سمع الجهال قول العلماء بأن الذهب جسم تكون بالتدريج على طريق الترقي يفهمون من هذا بأنه استحال أولاً إلى معادن أخرى بمعنى أنـــه كان في مبدئه رصاصاً ، ثم صار خارصيناً ، ثم صار برنزاً ، ثم صار فضة ، ثم استحال إلى ذهب . ولم يعلموا أن الفلاسفة يقولون ما يقولون عن الذهب كما يقولون عن الإنسان . أي أنه ما صار إنساناً إلا من طريق الترقي التدريجي ، وهذا لا يستلزم أن يكون قد استحال إلى استحالات نهائية كأن كان أولا ثوراً ، ثم صار حمـاراً ، ثم صار قرداً ، ثم انتهى أخيراً بأن صار إنساناً . »

هذه مقدمة نقدمها لحضرات قرائنا أمام الكلام على العلم عند العرب ، ولا قصد لنا من إيرادها منقولة عن عالم من علماء الغرب إلا دلالة القارىء على فضل المسلمين الأولين على العالم أجمع من جهة العلم والعرفان ، وقد اتضح له مما نقلناه أن المسلمين قد سبقوا الأوروبيين إلى كل مجال عقلي وباحة فلسفية ، وأنهم قــد وضعوا علوماً جديدة لم تكن من قبل ، وقد نشروا الصنائع والفنون في جميع أرجاء العالم ،حتى كانوا أينما حلوا ـ كما يقول المؤرخ الفرنساوي دروي ـ يحل العلم والتقدم والحياة ، وإذا كان الغربي الذي لا يهمه عن المسلمين شيء ، يقول فيهم

هذا القول ، ويؤدي لهم هذه الشهادة ، ويعترف لهم هذا الاعتراف ، فلا شك أن أمر العرب كان أكبر من هذا بكثير ، وأن الشرقي الذي أصبح يتهم آباءه ويظن أن الأوروبيين هم مفاتيح كنوز العلوم، ومقاليد أسرار الفلسفة والحكمة، وأنهم مكتشفوا المعارف الإنسانية كلها . وأصحاب الفضل الوحيد فيها ، وأن لا حيـــاة إلا إذا استمدت منهم وجاءت من عندهم ، وهبت على الأرواح من جهتهم وبلغتهم ووو... يجب عليه أن يتئد ويجيد الروية ويرجع إلى صوابه ، ولا ييـــأس من أن تحل به روح خاصة غير مستمدة إلا من ينبوع كل حياة ، ومصدر كل حركة ، فيهب من نومه ويعيد عصور آبائـــه الأولين في أرقى مظاهرهـــا ، وأشرف مجاليهـا ، ويكتفي مؤونة الاحتكاك بالغير والتملق إليهم . إن قيل كيف هذا ؟ تلونا عليه قوله تعالى : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

بعد ما كتبنا هذا الفصل جاءتنا في بريد المساء (مجلة عرفات) الفرنساوية التي يديجها يراع صديقنا المبجل محمود سالم بك ، فرأينا فيها جمـلة جميلة مقتطفة من كتاب (تمدن العرب) للدكتور الشهير (جوستاف لوبون). قال الدكتور الموما إليه :

« العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع ، فقـد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة بعيدة جداً . وأننا وإن كنـــا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التي سلكوها في ذلك ، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها . فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منهـــا الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . وأنهم قد برعوا جداً في صناعة الصباغة ، وأنهم مهروا في سقي الفولاذ مهارة بعيدة المـــدى ، حتى أن صفاح طليطلة أصدق البراهين على ذلك . ونعرف أيضاً أنـــه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود ولورقهم شهرة عامة ، وأنهم في كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن .» (تأمل).

« من بين المكتشفات المعزوة للعرب، أشياء ذات شأن كبير كالبارود مثلاً، وهذه المكتشفات لا يحمل بنا أن نسردها سرداً بل يجب علينـا أن نهبها شيئاً من التفصيل » ... إلى أن قال : « مما مر يتجلى للقارىء أن ديوان المكتشفات العربية في العلوم الطبيعية لا تقل في الخطارة والقدر عما لهم منهـا في العلوم الرياضية والفلكية . وما نسرده عليك هنا يعرب لك عن تلك الخطارة، وذلك أنـه كانت لهم معلومات عالية في الطبيعة النظرية خصوصاً في نظريات الضوء والإبصار ، وقد حفظ عنهم اختراعهم لأجهزة ميكانيكية من أدق ما يعرف من نوعها ، واكتشافهم للجواهر التي تعـد من أعظم أراكين علم الكيمياء مثل الكحول وحمض النيتريك وحمض الكبريتيك ، وقد سجلت لهم أكبر العمليات الأساسية مثل التقطير مثـلا ، وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة والصناعة وخصوصاً لاستخراج المعادن وصنع الفولاذ والصبغ الخ... وعرف عنهم عمل الورق من الخرق ، ويرجح أنهم طبقوا البوصلة على فن الملاحـة وأدخلوا هذا الاكتشاف الأساسي إلى أوروبا » .

* * *

الفصل الرابع

كلمة عمرانية

العوامل الاجتماعية في رقي الأمة اليابانية

- ١ -

تاريخ اليابانيين : إنا نراقب حركات الأمة اليابانية عن بعد، ونعجب مثل كل شرقي بما تظهره للعالم من مظاهر البراعة والحذق في علومها وصنائعها. ولكنا مع إعجابنا هذا ، لم نتخيل يوماً من الأيام أن في ظهور هذه الأمة الشرقية بهذا المظهر الفخم الزاهر ما يستوجب الدهشة والتعجب ، أو يستدعي نسبته إلى أسباب تعلو عن متناول العلم وتسمو عن مهاب الفكر ومسارح الروية مما يحسن إضافته إلى الأمور الخارقة للعادة . وإنا لم نكن ننتظر أن نكتب في تاريخ هذه الأمة على هذه الصورة لولا أن رأينا من بعض الكاتبين في الجرائد شيئاً من الغلو في تعليل رقي هذه الأمة، وشممنا منهم الصعود في إطرائها لحد تصوير أن ما نالته في مدى الأربعين سنة الأخيرة يعد من المعجزات المحيرة للمدارك وخوارق العادات التي تعلو عن عالم الأسباب الطبيعية ، ولم تسمح به الفواعل الاجتماعيه العامة والخاصة لأمة من الأمم سواها في مدى تاريخ العالم الإنساني. لا نشك أن في مثل هذا الغلو في المسائل الاجتماعية الحيوية شيئاً من التأثير على قتل جراثيم اليأس من النفوس المنحطة ، لأنه يفتح الأفئدة نوافذ إلى باحات الأمل والرجاء . ولكنا من جهة أخرى نعتقد أن في أمثال هذه الأغلاط العمرانية أضراراً بالغة جداً

تربو عما ينتج عنها من الفائدة الشعرية . ولو كانت تلك الأضرار تقف حيث تقف أضرار الأقاصيص لكنا أغضينا عنها وتسامحنا فيها كما يغضى عن غلواء الشعر وخيالات القصص . ولكنا نرى أن في توهم قيام الأمة اليابانية طفرة بدون أسباب طبيعية ولا عمرانية تولت أمر ذلك الرقي في خلال القرون ضرراً لا حد له في أحوالنا الأدبية والاجتماعية. لذلك رأينا أن نكتب في هذا الموضوع كلمة عمرانية نهديها للأمة بلسان المؤيد نرجو أن نقوم لها عقيدتها في أمر رقي الأمة اليابانية . وإني هنا أرجوها المعذرة عما ستراه مني في هذه العجالة ، مما لا يناسب تحمسها لهذه الآثار المدنية المدهشة،فإن العلم لا يتأثر بالظواهر ولا يزدهيه ما يزدهي الخيال من الصبغ الباهرة ، فهو لا يبحث إلا عن اللباب ، فإن وصل إليـــه ازداد سكوناً وتهيباً ، وربما ازداد ألماً وحرقاً ، لما يرى أن في اللباب ألف مجهول تطلب بحثاً وتوجب عليه تعباً جديداً .

أنا لا أنكر أن أمة اليابان أصبحت في الصف الأول من الأمم المتمدنة، وأنها برهنت للعالم كله على حصولها على مواهب وملكات سامية جداً هي أعظم ضمان لحياة الأمم وتمدنها. ولكني أنكر كل الانكار أن يكون ما تتمتع به تلك الأمة من مجـالي المدينة الساحرة جاءها طفرة بدون فواعل طبيعية هيأته لها وهيأتها له في قرون عديدة بواسطة الحوادث المهذبة والوقائع الممهدة . أعني أني أنكر أن يكون هذا الرقي من اليابان جاء خارقـاً لنواميس الكون فوق أسبابه المعقولة معجزة تخر لها الأعناق اندهاشاً والنفوس حيرة واضطراباً . وإني شارع الآن في سرد تاريخ اليابان طبيعياً واجتماعياً في نبذة موجزة ، فليتبعني القارىء بفكره ليرى بعينيه من استشراف الأحوال الطبيعية والظروف الاجتماعية التي وجدت فيها الأمة اليابانية إنها لم تترقَّ بدون تدريج ولا بحادث غير معقول ، وانما هي علل طبيعية متسلسلة أخذت بيدهامن دور الى دور ومن حال إلى حال حتى أوصلتها لما هي فيه اليوم.لا أقول بطريق الإعجاز، ولكن أقول بالعكس، ببطء شديد جداً دعا علماء الإنسان لأن يتهموا الجنس الاصفر بعدم الاستعداد لبلوغ شأو الجنس الأبيض في شيء . أريد من بسط موجز التاريخ الطبيعي

والاجتماعي الياباني ، أن يتحول ذهن القارىء من الاندهاش بطفرة اليابان لقمة المدنية إلى الاندهاش والعجب من إبطائها عن سبق الأوربيين إلى أرقى مظاهر التقدم الصناعي والأدبي بقرون عديدة ، لوجودها في شروط الحيـاة وأسباب التقدم منذ أكـثر من ألفي سنة ، أي قبـل أن يعرف الأوربيون معنى الحياة والحضارة .

جغرافية اليابان
الطبيعية والاقتصادية والصناعية والعلمية

المملكة اليابانية مكونة من ٣٨٥٠ جزيرة، تختلف في الصغر والكبر، يسكنها أكثر من ٤٠ مليوناً من النفوس . وهي في غاية الخصوبة ، تتخلل مجاريها الأنهار الجارية والعيون الفائرة والبحيرات البعيدة السواحل مما يجعل لبلاد اليابان أكبر قسط من جمال الطبيعة وبهائهـا . أضف إلى هذا أنها من أعـدل البلاد هواء وأجودها مناخاً .

الحيوانات في البلاد كثيرة الأشكال جداً ، بحيث لا تُلجئها الضرورة لجلب شيء من الخارج . وأما نباتاتها فأكثر أشكالاً وأبدع أنواعاً حتى أن أراضي اليابان في فصل الربيع لتلبس حلة زهرية لا يمكن تصورها إلا بمشاهدتها . وقد يعتني علمـاء أوربا بجلب بعض أنواع تلك الأزهار النادرة لفحص بدائعهـا في معاملهم .

أما من جهة المعادن فإن اليابان من أكبر البلدان سهماً فيها . إذ يوجد فيها مناجم حافلة جداً للذهب والفضة والنحـاس والحديد والرصاص والكبريت والفحم الحجري ، وغير ذلك من المواد الأولية ذات الشأن الكبير في إتقان الصناعة . ولا عجب بعد هذا إن قلنا للقارىء أن بلاد اليابان أبرع البلاد في أنواع الصناعات منذ أكثر من عشرين قرناً . وليس فينا من يجهـل الإبداع المدهش الذي يودعه اليابانيون في مصنوعاتهم الخزفية والحريرية والصوفية مما تغص

به أسواق العالم أجمع؛ بل الذي يذهب إلى بلاد اليابان ويشرف على الهياكل المشيدة منذ أكثر من خمسة عشر قرناً على أبدع الأشكال الهندسية ، مزخرفة بأبهى الألوان وأجمل التصاوير، يدرك من أول وهلة أن اليابانيين أنداد الصينيين في الصنائع ، بل يزيدون عنهم في الإتقان والذوق لحد لا يتصوره إلا من يراه بعينه ، ولقد برع اليابانيون في صناعة الزخرف وأنواع الزينة براعة لم تنلها أمة سواهم للآن . ولقد يروي عنهم الرحالات غرائب تشبه الأحلام من كل وجه.

أما من جهة العلم فهي عريقة فيه بعد الأمة الصينية ، ويحفظ لنا التاريخ العلمي من أسماء علمائها وفلاسفتها وأطبائها وشعرائها عدداً يليق أن تفخر به الأمة اليابانية على سائر الأمم القديمة . بل إن إلقاء نظرة بسيطة على الصناعة اليابانية يدل واضح الدلالة على درجة العلم فيها من قديم الزمان ، فإن الصنائع أكبر مظاهر العلم وأثر من أصدق آثاره .

الرجل الياباني

اليابانيون قصار الأجسام سمر الألوان ، يمتازون عن الصينيين بميل السمرة فيهم إلى اللون الزيتوني . وهم أقوياء الجسوم أذكياء العقول ميالون للاجتماع والإنضمام بطبعهم ، محبون للعمل والدأب ويؤثر عنهم نزوع إلى الخلاعة واللهو ، وشيء من عدم الاحتفاء بعقائدهم وإن كانت بلادهم ملأى بالهياكل والأنصاب ، ومن صفاتهم الغريزية حب الحركة ومجافاة الخمول والراحة وكراهة الحياة المنزلية كل الكراهة ، حتى أن الياباني لا يمكث في بيته إلا لضرورة قاسرة فإن لم تكن ألقى بنفسه إلى حيث يطيب له السمر أو العمل . ومن خلالهم الفطرية إباء الذل والضيم ، فليس للحياة عندهم في سبيل الدفاع عن العرض والشرف قيمة .

تاريخ اليابان الاجتماعي

تاريخ اليابانيين قبل سبعة وعشرين قرناً مملوء بالخرافات والأضاليل ، ولم يدخل إلى نطاق التحقيق إلا منذ سنة ٦٦٠ ق . م . حيث تولى ملك البلاد

اليابانية بأمرها أمير إسمه (ذينمو) كان حاكماً على جزء من جزيرة (كيوزيو) ، هذا الملك أول من اتخذ لقب (ميكادو) شعاراً له ومعناه (العادل) ، استمرت عائلته حاكمة على البلاد قروناً مستطيلة تجللتها اضطرابات لا حد لها ولا ضابط لتاريخها ، سببها انقسام البلاد إلى إمارات متعددة وراثية ، وغلبـــة حزب الأشراف عليها على حد ما حصل بأوربا في القرون الوسطى ، ولا يخفى ما ينبني على هذا الإنقسام من التزاحم ، ولم يكن الميكادو إلا كواحد من أولئك الأشراف المستقلين ، وإن كان له شيء من أبهة فرسمية محضة وإسمية بحتة .

لما جاء القرن الثاني عشر قام أحد أولئك القادة وإسمه (يوريتومو) بتنظيم جيش ياباني عامل للقيام بالدفاع عن حياض البلاد وصد الأطماع عنها من الخارج ، وفي تلك المدة قصد فتح البلاد اليابانية ذلك الفاتح المغولي الشهير مدوخ بـــلاد الصين (كوبلاي خان) ، فقصد اليابان بأربعة آلاف سفينة تحمل ٢٤٠و٠٠٠ جندي ، فقام بزعامة الدفاع عن البلاد متولي الشؤون السياسية والحربية إذ ذاك ، فدحر المغوليين دحوراً وأقصاهم عن البلاد إلى حيث لا يعودون ، فاجتمعت القلوب على محبته وأطبقت على الغبطة به فحسده الميكادو والحاكم فتنابذا ، فتظاهر لكل منهما حزب ، وتقاتلا طول حياتهما وورث عنهما العداوة أخلافهما إلى نحو مائتي سنة .

وفي سنة ١٥٤٢ يممها البورتغاليون فقوبـــلوا بالإكرام وأنزلوا على الرحب والسعة ، فزحفت على أثرهم جيوش الدعاة والمبعوثين ، فلقوا في مبدإ أمرهم عطفاً وهشاشة حتى أدخلوا إلى عقائدهم ألوفاً كثيرة من اليابانيين ، ولكن تيقظت في الأمة عوامل الأنفة فقاموا ضدهم بثورة فظيعة قتلوا فيها ألوفاً مؤلفة من الأبرياء ، وأحبطوا بذلك ما شاده أولئــك الداعون إحباطاً نهائياً .

وفي سنة ١٦٠٩ جاءها الهولانديون للتجارة ، فأنزلوهم في جزيرة فرياندو ولم يقابلوهم إلا بالإحسان لملازمتهم لآداب الضيافة وحقوق الجوار . وفي سنة

١٨٥٨ سمح اليابانيون للفرنساويين والإنكليز والروس بسكنى بعض المـــواني للاتجار ، ولكنهم لم يلبثوا أن دب إلى نفوسهم دبيب الحقد على الأجانب ، فقاموا ضدهم بمذبحة هائلة أرعدت لهـــا البلاد الأوروبية وأبرقت ، فجاءها الإنكليز بأسطولهم واصطلحوا مع حكومة اليابان على أداء التعويضات لأهالي المقتولين وأبرموا معهم معاهدة لا يدل ظاهرها على باطنها . وفي سنة ١٨٦٣ تولى دست الحكومة السياسية والحربية رجل حازم بصير بأعقاب الأمور ، فرجا الميكادو أن يجمع جمعية عامة من سادات البلاد وعظمائها للاتحاد على وضع قاعدة ثابتة يقوم عليها أمر حكومة البـــلاد قطعاً لألسنة المشاغب والفتن ، وكبحاً لجماح أولئك القادة زعماء البلاد . ففعل ما أشار به عليه وجمع أولئك الأعيان ، ففهموا ما يراد بهم ، فأجـــبروا الإمبراطور على الانضمام إلى حزبهم ، وأعلنوا حزب الإصلاح الذي يرأسه ذلك الرجل الحازم بالعداء ، وأصلوها حرباً دموية تأييداً لمراكزهم وتثبيتاً لنفوذهم . ولم يشعروا أنهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم ، فـــإن هذه الحركة أيقظت عواطف الحمية والأنفة في الأمة ، فقامت ضد زعمائها بحركة عدائية هائلة صادرتهم بها في أمـــلاكهم ومحقت آثارهم وتخلصت من سلطتهم ، وبذلك أصبح الميكادو خالصاً من شرهم آمناً من ثقل سيطرتهم . ولكن زعماء هذه الثورة الأهلية لم يـــدعوا الميكادو يتمتع بالنفوذ المطلق على الطريقة الاستبدادية ، بل أجبروه على قبول تشكيل مجلس نواب يتولى أمر حكومة البلاد على الصفة التي يتولاها كل مجلس من هذا القبيل في الأمم المتمدنة . وتم ذلك في سنة ١٨٧١ .

هذه صورة مصغرة جداً من التاريخ الاجتماعي للأمة اليابـــانية ، سردناه للقارىء سرداً واتبعنا الحوادث فيه بالحوادث اتباعـاً سريعاً متسلسلا ، ليرى بعينيه سير نواميس الترقي كيف بعثت الأمة اليابانية من دور إلى دور وأفاعيل الحوادث كيف مهدت أمامها السبل ، وذللت دونها الصعاب تذليلاً طبيعيـــاً معقولاً ، كما حصل نظيره في كل أمة من الأمم الأوروبية . ولكن مع هذا الفارق

الهائل وهو أن تلك الوقائع الممهدة للرقي أنتجت في الأمم الأوروبية نتائجها بسرعة وانتظام بخلافها في الأمة اليابانية فقد كانت أدوارها بطيئة جداً حتى أن المقدمة التي كانت تضعها الحوادث في قرن من القرون لا تنتج نتيجتها إلا بعد ثلاثة أو أربعة قرون، ولهذا البطء في السير أسباب اجتماعية ليس هنا محل بسطها.

* * *

نظرة على ما سبق

إذا تدبر القارىء فيما كتبناه في مقالتنا السابقة عن موجز جغرافية اليابان الطبيعية والاقتصادية والعلمية والصناعية وعن ملخص تاريخ حياتها السياسية، يتحقق أن الأمة اليابانية كانت حاصلة منذ ألفين وخمسمائة سنة على سائر الشروط الحيوية الموصلة للمدنية بأخص معانيها، والمؤدية إلى الحضارة الكاملة تأدية طبيعية معلومة المقدمات والنتائج، بل نشعر بأن قارئنا يعجب كيف أن هذه الأمة وجارتها الضخمة الأمة الصينية، الحاصلتين على هذه الوسائل الحيوية والموجودتين بين هذه العوامل العمرانية، لم تصلا من المدنية إلى مدى أبعد مما وصلت إليه الأمم الأوروبية، ولم تسبقانها إلى أقصى غايات الإبداعات الصورية بقرون عديدة فتكونا اليوم أستاذتين لجميع طوائف الجنس الأبيض المعجب بذاته الفخور بأصالته.

لا جرم أن هذا البطء في سير تلك الأمم وتلكؤها في تدرجها هو الذي حدا بعلماء الإنسان لأن يقرروا حكمهم الصارم بأن الجنس الأصفر أدنى من الجنس الأبيض رتبة، وأنه ليس مستأهلاً لأن يلحق شأو مناظره في شيء، وأن النفوذ والسيطرة ستكونان للثاني على الأول في سائر الأدوار المستقبلة.

قلنا أن من يتمعن في الأحوال الطبيعية الموجودة فيها الأمة اليابانية لا يندهش

من تمدنها وتحضرها ، بل يندهش بالعكس من تأخرها في المدنية عن الأوروبيين والتجائها إلى تقليدهم واحتذاء مثالهم ، مع أن العوامل العمرانية التي توفرت لها لم تتوفر جميعها لأي أمة من أمم الغرب المتمدنة . .

تأمل معي في خطارة هذه العوامل ، ثم قل لي بعد ذلك أي مانع يمنع مثل هذه الأمة من أن تنال من الرقي الأدبي والمادي القسط الأكبر والنصيب الأعظم ، بل أي مانع يمنعها من أن تكون في مقدمة سائر أمم الأرض حضارة وصناعة . ؟

أمة تعد بعشرات الملايين ، أقوياء الأجسام والأحلام ، في بقعة من الأرض كثيرة الخصب والريف ، غزيرة الأنهار والجداول ، ثرارة العيون والبحيرات ، صالحة لأن تنبت كل أنواع النباتات وتقيت كل صنوف الحيوانات ، معتدلة الهواء جيدة المناخ ، كثيرة المعادن والمواد الأولية الباعثة لأرقى الصناعات اليدوية والآلات الميكانيكية ، يكتنفها البحر الخضم من جميع جهاتها ، بينها وبين أكبر أمم الأرض وأقدمها مدنية وهي الأمة الصينية أواصر من القرابة ووشائج من الصلات السياسية جرّت كثيراً من الأحيان إلى حروب دموية بقصد استعمار بعض البلاد الساحلية لترويج تجارتها الوطنية . أمة توجد في مثل هذه الشروط الطبيعية والاجتماعية ، كيف لا تزهر فيها المدنية ، ولا تشرق عليها شموس الحضارة من أزمنة قصية ؟ .

الإنسان مسوق بطبعه إلى الترقي سوقاً طبيعياً ، فهو الكائن الراقي الوحيد على سطح الأرض ، وهو لا يتأخر عن متابعة سبيله إلا لحوائل طبيعية ، أو حواجز أدبية قهرية ، أما الحوائل الطبيعية فهي أن لا يجد ما يساعده على الترقي ، كأن يوجد في أرض جدباء تجبره على استيعاب كل قواه في في طلب قوته الوقتي ، والرحلة من محلة إلى محلة للتحسس منه . أو لا تكون أرضه خصبة ، ولا حاصلة على المواد الأولية الضرورية للصناعة ، كالحديد والنحاس وغيرهما . وأما الحواجز الأدبية القهرية ، فكأن يكون تحت سيطرة حكومة باغية جائرة ، أو مضغوطاً عليه من طائفة جاهلة بسلطة عقائد باطلة

ومع هذا كله ترى بواعث المدنية المتسلطة على عواطفه القلبية لا تزال تعمل في فؤاده وتغلي مراجلها في صدره حتى تلجئه إلى كسر جميع السداد التي أمامه . واقتحام كل تلك العقبات التي بين يديه . فإن كان تأخره لنقص شيء من مقومات المدنية في بلاده ،ألقى بنفسه إلى خارج أرضه وسعى في الحصول على تلك المقومات بطريق المعاوضة والمبادلة ، بأن يعطي ما يفضل عنه من مزايا بلاده ، ويأخذ بدله ما لا بد له منه في تقويم أمر حياته ، فلا تلبث أن تراه متلألئاً في أنوار المدينة ، ساحباً ذيول الحضارة في أبهى مظاهرها .

وأما إن كانت تلك الحواجز أنظمة أو عقائد ضالة فقد شوهد في تاريخه أنه ينوء تحت كلا كلها حيناً ، ثم يثور ضدها ويكسر كل ما يقوم أمامه من جهتها ويطغى عليها على قدر ما رضخ لها ، ثم يسلك من طرق الحياة ما ينطبق على استعداده ويلائم أميال طبيعته . ومن يتدبر في أحوال مدنيات الأمم القديمة والحديثة يعلم تفصيل ما أجملناه في هذه الكلمات .

إذا تقرر هذا ، فالإنسان لا يصده عن المدنية شيء إلا أن يكون في بقعة محرومة من كل مزية طبيعية ، وليس فيها ما يصلح للمعارضة أو يكفي لتكاليف المبادلة . أو يكون قاصر المواهب الطبيعية ناقص القوى الأدبية ، فيظل كا وجد ألوفاً من السنين حتى يفنى ، أو يأتيه داع للحياة غير منتظر ، أو يبقى في تلك الحالة بقاء غير محدود .

أما الأمة اليابانية ، فلم تكن محرومة قط من شيء من هذه المزايا من أية جهة من الجهاة ، بل كانت من سائرها في بحبوحة لم توجد فيها أكثر أمم الأرض . فأي عجب في أنها ترتقي وتدهش العالم بمدنيتها . لا عجب في ذلك أبداً وقد ارتقت من منذ ألفي سنة رقياً طبيعياً تدريجياً ، ولكنها وقفت في دائرة جازها الأوروبيون وسبقوها فيها بعد أن كانوا دونها بمراحل ، بل إن اليابانيين أيام كانوا يدحرون جيش كوبلاي خان فاتح الصين ، الذي داهمهم بأربعة آلاف سفينة تحمل ربع مليون من الضراغم ، كان الروسيون حاملين نير حكومة

كبتشاه المغولية محرومين من نعمة الحياة الاستقلالية . بل إن العهد الذي كان فيه الأوروبيون لا يعرفون معنى المدنية، كان لدى اليابانيين فلاسفة يضعون أصول الشرائع ويبحثون في أسرار العلوم والصنائع، فهل من العجيب بعد هذا أن تساوي اليابان في تمدنها أمة أوربية ؟ أم العجيب أن لا تكون أرقى من أرقى أمة أوروبية ، وأستاذة كل من يشرئب للحياة المدنية ؟

إن كان لا بد لنا من أن نندهش ونتعجب من معجزة اجتماعية تحصل بغير الفواعل الطبيعية ، فهاهي الأمة العربية نهضت في القرن السابع نهضة فجائية بغير أسباب عمرانية وجودية ، بل بالروح الإلهية التي جاءها بها النبي ﷺ ، وماذا عساك أن تجد من الفواعل الاجتماعية في أمة جاهلية بدوية ظلت آلافاً من السنين محافظة على بداوتها وجاهليتها في بقعة من أجدب البقاع تربة وأشحها نباتاً وأنزرها ماء . لا أنهار تتخلل صحاريها الرملية ، ولا عيون تعوض لها بعض ما حرمته من تلك المزية ، ولا معادن تسد باستخراجها خلة فاقتها ، وتجبر بالمعاوضة بها مفاقرها . ولا أهمية جغرافية تميل بأعناق الفاتحين إليها ، وتحنو بعواطف عشاق الملك عليها، حتى كانت تستفيد من تلك المجاورة والمزاحمة ما تقوم به أمرها ، أو تصلح به من شأنها . لا جرم دامت هذه الأمة آلافاً من السنين على هذه الحالة الجاهلية البدوية ، قد استوعب عواطفها وملكاتها الفطرية آلام تنازع البقاء والبحث عن الغذاء ، فلم تفرغ طرفة عين للفكر في ذاتها والبحث عن شؤونها . وقد استغرقت حاجاتها الضرورية سائر أوقاتها ، فلم تجد فرصة ترجع فيها إلى نفسها ، وتتأمل في مصير أمرها . وناهيك بأمة لبثت ألوفاً من السنين عائشة على هيئة قبائل متنافرة ، وفصائل متغايرة ، لم تصعد بها عوامل الرقي لم شعثها ، وجمع كلمتها ، وكيف يفكر في الحياة الاجتماعية من لم يأمن على نفسه وولده غائلة الهلاك جوعاً طرفة عين ؟ أو كيف تبحث عن مستقبلها السياسي أمة لا تدري إن أبطأ عنها الغيث سنة كيف تعمل ، وإلى أي البقاع ترحل ؟ لا جرم بقيت هذه الأمة ملازمة لأبسط أحوال البداوة

ترعى الإبل وترود مسارح العشب والكلأ ، ومن كان منهم في معزل عن أنياب الفاقة لامتلاكه عدداً محدوداً من الإبل، كان يذهب إلى الشام ببعض صنوف التجارة التافهة ويعود بشيء لا يعطيه من رونق المدنية وبهاء الحضارة قدر ما لأفقر رجل من الأمم المتمدنة في ذلك العهد .

أنظر إلى هذه الأمة في هذه الحال المؤيسة في فقرها وجاهليتها ، وبعدها عن حركة العلوم والمعارف ، ونأيها عن ساحات المنازعات والمزاحمات السياسية ، وانقسامها ، وتشتتها ، وعدم حصول أرضها على أي شرط من شروط تحسين المعيشة ، الباعث إلى نوع من أنواع المدنيات . ثم انظرها وهي ناهضة تلك النهضة الفجائية في أقل من ربع قرن ، تحمل للعالمين صولاً للحياة جديدة ، ونواميس للسعادة سديدة . ومن أعجب العجب أن هذه الأمة لم تقم بتقليد أمة من أمم المسكونة ، أو باحتذاء أمثال مدنية من المدنيات الحية ، كما فعلت أمة اليابان ، ولكن قامت بذاتها مستقلة عن جاراتها ، لم تستعر حياتها من أحد ، ولم تتحرك بحركة أمة من الأمم . ومما يزيد على هذا في العجب ويحير الفكر ويوجب غاية الدهشة ، أنها لم تقم قومتها تلك مطالبة بمجرد حق الحياة بين الأمم قانعة بمزية الانحشار في زمرتها ، مكتفية بشرف القيام في صفها ، كما هي حال الأمة اليابانية اليوم مع الأمم الأوروبية . بل قامت مطالبة بحق السيطرة على جميع الشعوب الحية ، رامية إلى غرض التربع في دست الزعامة العامة على سائرها . معطية نفسها حق تهذيبها وتقويمها ، نائطة بذاتها وظيفة تأديبها وتعديلها . ثم لم يكن هذا بمجرد جعجعة أو محض ثرثرة ، بل لم تجل في الأرض جولة سريعة حتى دان لها الكل ، وأذعن لإشاراتها الجميع ، وأصبح الكافة معجبين متعجبين من أن يظهر أهل البادية بهذا المظهر الفخيم والملك العظيم .

وأي عجب أكبر من هذا : أمة لا عهد لها باجتماع ولا ملك ولا نظام ولا تهذيب ولا تعليم ولا مدنية من أي نوع كانت ، ولا ولا مما يعرف من مزايا الأمم المتحضرة ، بل بالعكس ، في جاهلية جهلاء وغيهبة عمياء تقوم فجأة فتبرهن

للعالمين أجمعين بأنها أحق الأمم بالسيادة وأجدرها بالسياسة وأولاهـا بتهذيب الطاغين وتأديب العاتين وكبح الظالمين وتعليم الجاهلين وتعديل المعوجين . أليس هذا أولى بالعجب وأجدر بأن يكتب بنور العيون لا الذهب .

أللهم صلّ على مشرق هذه الروح العالية ، ومطـلع هذه النفحة الساميـة وسلم عليه وعلى آله وصحابته وتابعي طريقته .آمين .

* * *

الأمة اليـــابانية

- ٢ -

ما كان لنا أن نذكر الأمة اليابانية في مباحثنا،ولاأن نهب البحث في شؤونها ساعة من زماننا لولا أن بعضاً من كتابنا غلوا في إطرائها وتقريظها، وأغرقوا في التنويه بها وبمدنيتها،حتى وصل بهم الأمر لأن يدّعوا أنها خرجت من العدم إلى الوجود في أقل من نصف قرن، وهي فرية علمية لا تنطبق على الحقائق التاريخية ولا على المقررات الاجتماعية . وهي بهذه الصبغة المجردة لا تغتفر لقائلها مهما كان قصده حسناً، فما بالك وهي فرية مضرة بحالتنا الاجتماعية والدينية ضرراً لا حد له كما نوهنا بذلك في مقالاتنا السابقة ؟

أما ضررها بحالتنا الاجتماعية فلأن أولئك الكتاب يقررون أن تلك الأمة كانت عدماً محضاً، ثم لما فتحت أبوابها للمدنية الأوروبية والعلوم العصرية هبطت عليها روح عالية فأخرجتها من حيز الرمم إلى مصاف الأمم،فنهضت في أقل من نصف قرن بفضل تلك الروح الأوروبية والمدنية الغربية،إلى أن استعدت لمقارعة دولة من الدول الأوروبية وقهرها. هذا ما يقرره أكثر كتابنا، ولا يدرون كنه ما فيه من السموم الناقعة ، فإن تصور المصري وهو في هذا الدور الحرج ، دور

الافتنان بسحر التمدن الغربي ، بأن محض تقليد الأوربيين في مظاهر مدنيتهم يرفع من شأن الأمم لهذه الدرجة التي تشاهد عليها الأمة اليابانية ، يحدث فيها أموراً جساماً ، ويكون في أحشائها جراثيم مضرة ، أكثرها مميت لعواطفها الذاتية مجتاح لعناصرها الحيوية ، لأنها بذلك تلقي بنفسها بين يدي مظاهر المدنية الساحرة بدون حساب ولا روية ، وتتوهم بأن التقليد على إطلاقه سبب حياة الأمة وسر تقدمها ، فتنهمك بصورة علنية في التقليد الشائن الذي هو عرض من أعراض مرضها الاجتماعي الشديد الوطأة ، ثم لما تأنس من نفسها الضعف والانحلال كلما تمادت في التقليد والمحاكاة ظنت بنفسها الظنون ، ووقر في قلبها أنها أمة ميتة لا محالة ، ولولا ذلك لأفادها العلاج الذي أفاد غيرها ، ومتى سكن ميكروب اليأس في فؤاد أمة تناسل وتكاثر ، وأنتج من صنوف الأمراض الاجتماعية والأدبية ما لو نزل بعضه بأمة لنكث فتل إلفتها ونقض حبل رابطتها ونخر عظام تماسكها وجعلها أثراً بعد عين . والله يشهد أن الأمة اليابانية أمة حية من منذ ٢٥٠٠ سنة ، أدتها حياتها لأن تختلط بالأمم الغربية بدون أن تفقد شخصيتها واستقلالها ، وناهيك بهذا دليلاً محسوساً على سابق حياتها. ثم لما شارفت العلوم الجديدة والمكتشفات الصناعية الحديثة التهمتها بهمة الأحياء وغيرة الأقوياء ، فبرعت فيها وكادت تفوق الأوروبيين ، وستفوقهم لا محالة إن شاء الله . هذا هو الحق الصراح ، ولكن بعض كتّابنا أبوا إلا أن يتحمسوا لهذه الأمة بدون حق ، ولقد غالوا حتى جعلوها أعجوبة العالم مما لو رآه الياباني نفسه لأنكره وضحك منه وعده شيئاً فرياً ، كما غالوا قبل سنين بإطراء البوير والتمدح بشجاعتهم حتى زعموا أنهم أشجع أمة ظهرت في الوجود من لدن آدم عليه السلام لليوم ، مع أنهم لم يقفوا للعالم موقفاً كموقف بدر وحنين واليرموك والقادسية وغيرها مما يتلألأ بذكره التاريخ العام وصار آية باهرة للأنام .

هذا هو الضرر الاجتماعي ، أما الضرر الديني فهو أن هؤلاء الكتّاب بزعمهم أن الأمة اليابانية حييت هذه الحياة المدهشة في أقل من نصف قرن ، قللوا من أهمية معجزات الأنبياء ، وخصوصاً معجزة إمامهم سيدنا محمد ﷺ ، فإن المسلم

متى تخيل أن الميكادو وبعض الزعماء رقوا الأمة اليابانية بعد أن أحيوها في أقل من نصف قرن فلا يجد فرقاً كبيراً بين هذه الحادثة وحادثة إحياء رسول الله ﷺ للأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة ، فيخرج الإيمان من صدره رغم أنفه لما يراه من التشابه بين الحادثتين والتشاكل بين النتيجتين ، فيستعد فؤاده بذلك لقبول كل الأفكار الإلحادية بدون نقد ولا روية . والله يشهد أن هذه جريمة لم يقصدها كاتبوها ، ولكنهم مدينون على كل حال كما يدان كل إنسان يتكلم في الشؤون الاجتماعية والأمور الحيوية ، ويعطي نفسه وظيفة الإرشاد والتقويم قبل أن يتخذ العدة الكافية التي تقيه شر السقوط بالأمة في أمثال هذه المخاطر الاجتماعية والأدبية ، فهو كالرجل الذي لم يتقن صناعة الطب وإنما حفظ شيئاً من اصطلاحاتها وبعضاً من تراكيب علاجاتها ، فهو يعالج كل مرض يعرض له، ويقيس النظير على نظيره ، ولا يدري أنه قد يتشابه الأمران في ظواهرهما ويتخالفان كل التخالف في طبيعتهما وعلاجيهما ، حتى أنه لو عولج أحدهما بما يعالج به الآخر لاستشرى أمره وتفاقم خطبه وصار داء مميتاً لا محالة بعد أن كان قد يرجى علاجه .

هؤلاء الكتّاب كتبوا في هذا الموضوع كثيراً ولا يزالون يكتبون ، ولا ندري إلى أين ينتهون بالأمة ، كما لا ندري إلى أي درجة تروج مغالاتهم بعد أن كتبنا في(المؤيد)كلمتنا تلك،التي نقلناها في مباحثنا في فصل تقدم ،ونحن بالعود الى الكتابة في هذا الموضوع نرجو بأن يؤوبوا إلى الاعتدال في مقالاتهم ، وأن يتحروا المسائل الإجتماعية ويستنتجوا نتائج كل ما سيكتبونه قبل أن يخطوا حرفاً واحداً فيه ، فإن وظيفة إرشاد الأمة وظيفة عظمى ، يتهيبها العالم ولا يكاد يتولاها إلا مرتعد الفرائص ، مرتعش اليد واللسان ، لتحققه من خطرها . فكيف لا يكون غير العالم أولى بذلك التهيب وأجدر بأكثر من هذا التخوف ، ولكن هو الشعور وعدم الشعور ، فمن شعر بخطر المركز وحرج الموقف تأدب وتهيب ، ومن لم يشعر بشيء من ذلك أقدم غير هياب ولا متلكيء . ومما يزيد الأمر استعصاء ويكسب هؤلاء المتهجمين على ما لم يحسنوا إقداماً وتهجماً هو أن

الأمة ضعيفة النقد ، خصوصاً فيا يختص بالمسائل العلمية لقلة المشتغلين بها في بلادنا ولاحتقار من يشتغل بها بأمثال أولئك المتهجمين احتقاراً لا يجاوز أفئدتهم ، ولكن لو كان في الأمة روح انتقادية شديدة تطالب كل قائل بإقامة الدليل على ما يكتب ونصب الحجة على ما يقول ، لقلّ خطر أولئك المعطين أنفسهم رئاسة الأمة الفكرية بغير حق .

هذا ما حدا بنا لكتابة ما كتبناه عن الأمة اليابانية ، ويحدو بنا لموالاة الكتابة في هذا الموضوع، لنستطيع بحول الله أن نلاشي الخطر الذي تنتجه تلك المقالات الغلوائية على أحوالنا الاجتماعية والأدبية . ونبدأ اليوم بترجمة مقالة كتبها الأستاذ الفسيلوجي الشهير (شارل ريشيه) في (المجلة) الفرنساوية ، ثم نتبع مقالته بما كتبه الفيلسوف (جان فينو) مدير المجلة المذكورة رداً عليه ، ليقف المسلمون من خلال المحاورة بين قائدين عظيمين من قادة النهضة الأوربية على حكم العلم وحكم الفلسفة على الشرق والشرقيين، لا سيا وأن هذه المقالات تجمع إلى الحقيقة العلمية اللذة العقلية ، مما يحسن بنا أن نجعل لها محلاً من مباحثنا ، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال الأستاذ شارل ريشيه ، (المجلة — مجلد ٤٩) :

حضرة المدير المحبوب

« إسمح لي أن أستلفت نظر حضرات قرائك إلى نقطة يلوح لي أنها جديرة بالبحث الدقيق ولو أنها مهملة كل الإهمال ،ألا وهي مسألة الحرب بين الروسية واليابان . ولست في حاجة لأن أقول أن هذه الحرب في نظري فاضحة ككل حرب تقدمتها، لأنها حلقة من حلقات سلسلة الفظائع الانسانية المستمرة ،وأظن أن كل إنسان متمدن يشعر بشيء من الخجل حينما يرى أن الوحشية والبربرية لم تزل موجودة قوية في العالم،رغماً عن مساعي العقول السامية الكاملة في محوها.

لا شك عندنا في هذه النقطة فخلّنا منها ..

أما طلب بعض الناس لتدخل فرنسا في حسم هذه المحنة، فضلال لا يستحق أن ندحضه فخلنا منه أيضاً .

ولكن مما يصعب تفسيره أنه يوجد شيء من التردد في الإحساسات العامة من جراء حدوث هذه الحرب .

نعم ، إن هذه الحرب هي أول حرب فعلية حدثت بين عنصر وعنصر آخر، وقد تقدمتها حروب أخرى بين البيض والسود وبين البيض والصفر ولكنها لم تكن حروباً في الحقيقة ، فإن مقارعة السود أو الحمر أو الصينيين للبيض لم تكن صورة حرب ، فإنها فارت ثم هدأت بسرعة وبصفة حاسمة . أما هذه الحرب الحاضرة فعلى الضد من ذلك ، فإن الأسلحة فيها متساوية أو تكاد تكون كذلك فهي فيما أعلم أول حرب عنصرية محزنة هبت في تاريخ العالم .

متى كانت أمتان أوربيتان مشتبكتين في حرب فتلك حرب أهلية حقيقية ، لأن كل الأمم الأوروبية مرتبطة ببعضها بروابط القرابة . فإن سكان الممالك المتحدة بأمريكا هم خليط من كل الأمم الأوروبية ، والإيطاليــون وسكان جنوب فرنسا هم من القرابة القريبة بحيث يستحيل عليك أن تميز بعضهم عن البعض الآخر، وإن الإنجليز والالمان والبلجيكيين والفلمنك قد اختلطوا بعائلتنا بروابط أكيدة، بحيث أنه لو صح أن يقال أن هناك أمة فرنساوية وأمة إنجليزية وأمة إيطالية فلا يمكن أن يقال جنس فرنساوي وجنس إيطالي وجنس إنجليزي . هذا من الحقائق الواضحة التي لا يمكن المراء فيها . من هنا صارت كل حرب بين الأوروبيين فيما بينهم مستفظعة غير شرعية مثل كل حرب تقع بين الإخوان .

أما الاختلافات الحاصلة بين هذه الأمم في أشكال حكوماتها ولغاتها وطبائعها ودياناتها، فليست إلا اختلافات سطحية شأنها شأن التخوم والحدود التي يقيمها محصلو الجمارك . أما الذات الإنسانية بالنسبة لكل الأوروبيين فهي واحدة لا تتغير . إن أردت الدليل فربّ شاباً فرنسياً في روما وآخر في أدمبورج ، يصعب عليك

بعد أن يشبا أن تميز الأول من الإيطاليين الذين عاش بينهم ، وأن تميز الثاني من الأيكوسيين الذين أخذ أخذهم في اللغة والعوائد .

ولكن هذا ما لا يشاهد له أثر إذا قارنت بين رجال الأوربيين ورجال من الجنس الأصفر ، ويكون الخلاف أشد لو كانت المقارنة بينهم وبين رجـــال من الجنس الأسود . فإذا ربيت طفلاً يابانياً في روما أو لندرة أو مدريد أو برلين ، فلا تراه إلا يابانياً دائماً متميزاً عن كل أفراد الجنس الأبيض الذين عاش بينهم ، ولم يختلط بهم . وإذا غفرت لي هذا التشبيه الهزلي ، قلت إن ذلك الياباني يمكن تمييزه بين الأوربيين كما يمكن تمييز الكلب الصغير ذي الشعر المجعد عن الكلب الإسبانيولي الكبير ذي الوبر الطويل ، فالغلط في تمييز الياباني عن البيض غير ممكن بوجه من الوجوه . لأن الخلافات بين الجنسين ليست غاشة سطحية تصورية تجلبها العادة واللغة والتربية ، بل هي اختلافات حقيقية متأصلة لا شيء يقلل من ظهورها أو يمحو أثرها . فإن الجمجمة اليابانية يعرفها رائيهـا عن بعد ، بينما لا أظن أن أكبر عالم بالإنسان يستطيع أن يميز بين جمجمة أحد سكان أتينا وكومبانهاج أو نيويورك .

وبناء عليه ، فيوجد بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر خلاف ظاهر . وهذه دعواي الثانية التي لا تفترق في الجلاء والظهور عن سابقتها .

وبما أنه وجد الخلاف فلا بد من أحد أمرين : فإما هنالك تساوٍ في الإدراك أو فوقان أمة على أمة فيه . وهذه قضية لا أتصور أحداً يتردد فيها ، وهي أن الجنس الأبيض هو الأعلا مكانة والأسمى منزلة ، وهذا أمر واضح لا يحتاج لدليل ، فإن قيل لي أن دعواك سمو الجنس الأبيض على غيره تجرئة على استحلال الخديعة والكذب والسلب والقسوة والوحشية ، قلت إني ما أبحث له ذلك ولا استحسن وقوعه منه ، ولا غرض لي من قولي هذا إلا إثبــات سموه على الجنس الأصفر ، وسأحاول أن أثبت ذلك له الآن بالبرهان .

لأبدأ موضوعي بإبداء دليل يمس مصلحة مناظري الذاتية فأقول : إني أظن

أنه لو كلف أحد المعجبين باليابانيين بالتزوج بامرأة يابانية زواجاً شرعياً، لقطب وجهه وأبدى من ذلك أنفة واشمئزازاً. ولا يرتاح أبداً أولئك اللوردات الإنجليز المتشيعين لسياسة المعاهدة اليابانية لورأوا يوماً من الأيام أن بناتهم يملن إلى أولئك الأعيان اليابانيين ، القصار المضحكين الماشين مشية العجب والخيلاء في شوارع طوكيو ، وإن كانت ألبستهم محلاة بأشرطة الذهب والفضة . وأرجح أن أحقر عامل في جريدة التيمس تلوح عليه علامات الغضب الحق إذا علم أن ابنه تزوج بامرأة من سروات اليابانيات ، ولا شيء من هذا الزواج يخشى منه ، ولكني لا أظن أنه يمكن أن يسرد لي منه حوادث عديدة وقعت فعلاً. وهذه مدام كريزانتيم ليست إلا حيواناً صغيراً من مقتنيات أهل البذخ ، ظريفة طائعة ، بل ذليلة رقيقة تصلح لأن تكون في البيت بجانب الببغاء والقرد تسلية في أويقات النفي والانعزال .

هل هذا الاحتقار الذي يظهره الجنس الأبيض بإزاء الجنس الأصفر مشروعاً حقيقياً ؟ نعم ، وهذا هو التاريخ يجيبنا عن ذلك وهذه كل فتوحات المدنية ، وإن لم تكن للآن شيئاً كبيراً ، تثبت وتشهد بأن الجنس الأبيض هو الذي عمل كل شيء .

هذا (هومير) و (نميدياس) و (أرسطو) و (تاسيت) و (كبلر) و (كنت) و (ليبنيز) و (شيكسبير) و (نيوتن) و (فولتير) و (لافوازييه) و (باسكال) و (فيكتور هوجو) و (باستور) و (بتوين) و (جوث) لم يكونوا لا مليزيين ولا صينيين ولا يابانيين ، ولم يكن في دمائهم قطرة واحدة أجنبية . فالعالم يرتقي مقوداً بالجنس الأبيض وحده ، وهذه حقيقة لا يجسر على نكرانها إلا من كان عديم الذمة . وإذا قص علينا قاص بدون دليل ولا حجة بأن الصينيين هم الذين اخترعوا الطباعة قبلنا والبارود ، فلا نندهش من ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يستفيدوا منها. ترى لهم ألف باء تدل على بهالة أهلها وأدبيات مضحكة. أما من جهة صناعتهم التي ضربوا بها المثل ، فليسوا هم الذين نحتوا تمثال

فينوس بميلوا ولا (المصارع المحتضر) من عمل صناع طوكيو . وليسوا هم أيضاً الذين كتبوا قصتي « دون جوان » و « لوهانجرين » . وليس لديهم ما يشبه أقاصيص فوست وهامليه والبؤساء. والعلماء فولتا وجالفاني وأمبير وفاراديه لم يستعينوا بعلماء تلك الأصقاع في مباحثهم الكهربائية ،والحساب والهندسة التحليلية وقانون حفظ القوة ونظرية الميكروبات لا دخل لعلماء الصينيين في حدوثها . وهذه الخطوط الحديدية والتلغراف الكهربائي والفتوغرافيا ، وكل صنائعنا بدون استثناء من فتوحات الجنس الأبيض دون غيره .

ومن يضع بجانب كل فتوحاتنا العقلية الجليلة تلك الأواني الصينية والحواجز والأشياء الصناعية التافهة ، وتلك الصور المضحكة المقطبة المعروضة في المعارض العمومية ، فقد صنع ما يمثل المزاح في أقصى درجاته .

فلنعلن إذن على رؤوس الأشهاد بغاية الصراحة ، ما يفتكره كل واحد منا في ضميره ،ولنكن جسورين في إبداء رأينا ، ولنقل أن اليابانيين هم من مهرة المقلدين ليس إلا . فقد أريناهم كيف يعملون مدرعة فعملوها (في إنجلترة) ،وعلمناهم مزية الدستور النيابي فأحدثوه ، حتى أن لهم مجلسين عموميين . وقد قلدونا حتى في الخدمة المتنقلة مما نسميه جمعية الصليب الأحمر التي تسعى أن تتلافى بالليل شيئاً من المصائب التي حصلت بالنهار . ومما يدل على أنهم يقلدوننا تقليداً أعمى هو أن لديهم صحافة وطنية تطعن في الأجانب على شاكلة الصحافة الوطنية في باريس ولوندرة . فاليابانيون إذن مقلدون ، بل من أمهر المقلدين ، ولا نبخل عليهم بهذه الصفة ، ولكن العالم لا يقوده المقلدون ، وقد دل التاريخ العام في مدى الخمسين قرناً التي حييها الجنس الأصفر بأنه غير أهل للاكتشاف والاختراع .

هنا ربما يعترض عليّ بذكر كونفشيوس . فأقول أن كونفشيوس هذا الذي لم يقرأ عنه أحدنا شيئاً ، ولم نتكلم عنه إلا سماعاً ، والذي ربما كان صورة ذهنية محضة هو من قبيل المستثنيات الظاهرة على خلاف العادة ، أو الظواهر المناقضة للعاديات ، فلم يكن نصيبها إلا أن تكون مقصورة على المكاتب . وإذا

وضعنا كونفشيوس في جهة وفي الجهة الأخرى سقراط وأفـــلاطون وسينيك والمسيح ومارك أوريل وأرسطو وسان أجوستان وكونت وتلستوي وليبنيز وباسكال وديكارت وكانت، وكل فلاسفتنا الأخلاقيين، فلا يمكنك أن تتمالك نفسك من الضحك إذا أردت المقارنة » نقول هكذا فليكن التعصب الذميم » .

إن انحطاط الجنس الأصفر عن رتبة الجنس الأبيض لا تستنتج من حوادث التاريخ فقط بل ممكن إثباتها علمياً أيضاً .

النوع الإنساني قائم بذاته لا يشتبه بغيره ، فلا يمكن التردد في تحديد فرد من أفراده حتى لو قارنت واحداً من أحط المتوحشين بقرد من أرقى رتب القرود ، لأنه لا يوجد شك في الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان . ومع ذلك فإنه يوجد على كل من الحدين الفاصلين لهذين المملكتين الإنسانية والحيوانية بعض ظواهر مبهمة من القرابة، فإن أبعاد الزوايا الوجهية وحجم المخ ونسيج بعض العضلات، وبالاختصار فإن التشريح الذي لا تأول نصوصه يقرر هذه القرابة بـين إنسان الجنس الأسود وبين القرود . ولكن التشابه يقل في الجنس الأصفر . هذا أدريه ولا أجهله ، ولكن مما لا شبهة فيه أن في هذا الجنس علامات تشريحيـة تقرب أفراده من القردة أكثر مما لدى الإنسان الأبيض منها .

هذه حقيقة مشاهدة ، فلا يعنينا إن أفرحت بعضاً وكدرت البعض الآخر، لأنها حقيقةعلمية يجب الرضوخ لهاولما ينتج منها،نقول هذا بكل تحفظواحتراس. وما على المتردد في هذه القضية إلا أن يزور داراً من دور تشريح المقارنة ليتحقق مما نقوله بالدليل المحسوس . وكل ما يقوله محبو النوع الإنساني ممـا يخفف هذه الأحكام العلمية لا يساوي تأثيره على العقول تأثير وزن مخ أو أخذ مساحـة جمجمة أو قياس زاوية وجهية ، ومما قرره العلم وأصبح من بداهته هو أن الفرق بين القرد والإنسان الأبيض أكبر بكثير من الفرق بينه وبين جنس من الأجناس الأخرى .

من هنا لا يتضح فقط أن بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر اختلافاً بيناً ،

ولكن يتضح أيضاً أن سمو الأول على الثاني من المقررات البديهية علمياً وتاريخياً ، وبإجماع العالم سواء كان هذا الإجماع إستنتاجياً أو نصاً بين سائر البيض حتى بين الصفر والسود معاً .

نعم ، إن هؤلاء الرجال أمثالنا في الإنسانية وهم إخواننا. هذا أمر لا مرية فيه ، ولكن مما لا مرية فيه أيضاً أنهم إخواننا الأحطون .

إذا تقرر هذا فما هي النتيجة التي أستنتجها من هذا البحث ؟

إنها بسيطة جداً ، ويمكن اختصارها في كلمة واحدة ألا وهي : العدالة . فإنه ما دمنا نعامل إنساناً مثلنا ، سواء كان أحط منا أو مساوياً لنا ، فله علينا مراعاة العدالة الحقة . وإن نقض العهد حرام في ذاته ، سواء كان بإزاء زنجي أو أبيض. واتصاف إنسان بالوحشية والقسوة أمام أي كان لا يخليه من وصمة الوحشية والقسوة . ومن يسرق صينياً شيئاً أو يخون يابانياً أو يضرب زنجياً أو يكذب على ماليزي ، فقد ارتكب آثاماً فظيعة ولا عذر له على سرقته وخيانته وكذبه .

وإني لأدعي بأن صفاتنا من السمو على الجنس الأصفر توجب علينا أن يكون لنا أخلاق أسمى من أخلاقه ، ولكنا في غالب الأحيان نرى الجنود الأوربية بأسلحتها المتقنة ونظامها العسكري المخيف تظن أنها مطلقة التصرف في حياة المغلوبين لهم ، ولا يدري أولئك الغفل أن سيرتهم هذه بهذا الإجحاف والسلب تسقطهم إلى حضيض أدنى من الحضيض الذي فيه مغلوبيهم . إذ لا شيء أجدر بالتحقير والإزراء من الإفراط في استعمال القوة .

كلا ثم كلا ، إن انتساب الإنسان لجنس أرقى من جنس آخر لا يعطيه حق العسف والإجحاف مطلقاً .

ولكننا إذا كنا مدينين لهؤلاء الأجانب ولهؤلاء البرابرة بالعدالة ، فلسنا مدينين لهم بشيء آخر . ومتى ادعوا لأنفسهم ، كما هي الحالة الراهنة ، حق الصعود إلى

الدور المكروه ، دور الفتح والغارة على الأمم ؛ وجب علينا أن نرفض عليهم كل ادعاءاتهم وأن نردهم إلى العدل .

يجب على كل إنسان أن يعنى بمستقبل النوع الإنساني . فإن حدث في تاريخ الإنسان هذا الحادث المستحيل ، وهو فناء الجنس الأبيض أو خضوعه للجنس الأصفر ، فتلك حادثة أكثر خطراً على العالم من أنكأ الحوادث الجوية التي يمكن أن تسقط من السماء على هذا الكوكب الأرضي . لأنه بهذا الحادث الجلل يكون مستقبل الإنسان مهدداً للغاية ، إذ تحل تلك الهياكل الصينية وتلك الصور المضحكة وتلك اللغة المركبة من مقاطيع فردية محل مدنيتنا هذه الفخيمة الآرية ، ويكون هذا الانقلاب مبدأً لرجوع النوع الإنساني للحيوانية » .

* * *

الفصل الخامس

ما وراء المادة

نحن ننقل تحت هذا العنوان ما نطلع عليه في مؤلفات أوروبا وجرائدها ومجلاتها ، مكتوباً تحت إمضاء الأساتذة والدكاترة وكبار المؤلفين . مضربين عما يكتبه كل من عداهم ، ليكون تعجب القارىء أعظم واندهاشه أكبر ؛ ولا نريد من هذا إلا إقامة الأدلة المحسوسة على أن زعماء العلم الأوروبي من الاسبرتزم ومدهشاته في أمر مريج ، وأنهم قد خضعوا لخوارقه رغم أنفهم بعد غطرستهم السابقة وتشددهم الماضي،وأن الذين يقلدونهم منا في تعاليهم عن النظر وتشامخهم عن الرضوخ لعقيدة ، وهماً منهم أن علماء أوروبا لم يزالوا كذلك ، إنما يقلدون جيلاً مضى ، وقوماً بادوا . فليرجعوا من قريب خيراً لهم ، وإلا « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين » .

كتب الأستاذ (موتلييه) الفرنساوي — والأستاذية عندهم رتبة علمية لا ينالها إلا أفراد نابغون في بعض الفروع العلمية — كتب في المجلة الروحية الصادرة في شهر مايو سنة ١٩٠٤ تحت عنوان (الاسبرتزم مثبوت علمياً بواسطة الكتابة بدون واسطة ولا عرافة) ثم ذكر (مقدمة) يقارع فيها بعض الكتاب الذين يكذبون بالاسبرتزم ولم يشاهدوه، قال فيها : « وهل عرف المسيو جاستون مري كل الحوادث النفسية ؟ هل رآها كلها واختبرها اختبار الباحث النزيه

الصبور الخالي من الهوى ؟ إن قال لا ، فقد حكم على نفسه وانحسمت المشكلة ، وإن قال أنه خبير بهذا الموضوع ويستطيع أن يتكلم فيه كلام الأستاذ فيه ، فأنا أعرض عليه مسألة نفسية بسيطة ، راجياً فضله في أن يحلها ويفسرها . أنا لا أريد أن أسترهبه ، ومع ذلك فلا أستطيع أن أخفي عنه أن من كل الفروض التي تخيلت في تعليل خوارق الاسبرتزم لم يفلح إلا الفرض القائل بنسبتها إلى أرواح الموتى . وإليك المسألة :

« أخذت خمس صحف بيضاء وكتبت على كل منها سؤالاً ، ثم طويت كلاً من هذه الصحائف أربع طيات ، وأضفت إليها خمس صحف أخرى بيضاء لأخذ الأجوبة عليها ، وطويتها كما طويت أخواتها ، ووضعت الصحف كلها في مظروف ولصقته لصقاً محكماً . ثم جئت بإردوازين جديدين اشتريتهما للتجربة التي عزمت على عملها خاصة ، ثم وضعت هذا المظروف مع قطعة من الرصاص بين ذينك الإردوازين ، وأطبقتهما على بعضهما إطباقاً شديداً ، وربطتهما بحبلين متقاطعين . لمّا أعددت لنفسي هذه العدة ، ذهبت إلى الواسطة وكانت امرأة مشهورة في البلدة بنزاهتها وسمو خصيصتها في الوساطة بين الأحياء والأموات ، وبحدوث الكتابة من الأرواح بحضرتها . فقوبلت وأدخلت إلى حجرة في الطبقة الأولى من البيت وسط في الاتساع قد أعدت للتحضيرات الروحية ، وهي محلاة بأثاثات بسيطة ولكن متينة . وصادفت في وسط تلك القاعة مائدة مربعة عليها غطاء . فما كان مني إلا أن رفعت الغطاء لأتحقق من عدم وجود أي آلة ميكانيكية تحتها ، ثم فتشت كل شيء بعناية تامة ، وبعد أن تحققت من عدم وجود شيء يشك فيه في الغرفة ، جلست بجانب تلك المائدة ووضعت عليها إردوازيّ ، ولم أفقدهما من بصري ولا لحظة صغيرة من عهد دخولي دار الواسطة . وكانت الساعة إذ ذاك (٣) ، فانتهت الجلسة في الساعة (٣٠ و٣) ، أي لم تمكث أكثر من ثلاثين دقيقة .

« الواسطة إمرأة شقراء لم يتجاوز عمرها الثلاثين سنة ، طيبة البنية باشة ،

وذات معارف عادية ، وهيئتها بسيطة طبيعية ، وتشنجها لا يكاد يكون محسوساً ، وكانت ذاهبة آيبة في الغرفة تحدثني بما تراه ، ثم أخذت قطعة من الورق الأبيض وكتبت ألقاب الأشخاص الذين ذكرتهم أنا في أسئلتي المظروفة ، وكنت ألاحظ يديها وهي تكتب فوق المائدة. وبعد ربع ساعة آذنتني بأن الجلسة انتهت . فأخذت إردوازيّ اللذين لم يتحركا قط من مكانها ، وفككت الحبل عنهما ، فوجدت المظروف لم يمس مطلقاً ، ولكن القطعة الرصاصية لم أجد لها أثراً ، ففضضت المظروف وأخرجت منه الورق المكتوب عليه المسائل ، ثم الورق الذي كنت أعددته للأجوبة ، فوجدته مملوءاً كتابة بالقلم الرصاص (تلك الأوراق موجودة تحت تصرف من يريد فحصها) .

« وجدت من نص الإجابة ، أن شخصية مستقلة هي التي أجابت تلك الأجوبة بطريقة لا يشك في حقيتها . وغير ذلك فإن بين خط الأجوبة وخط الإنسان الميت من التشابه بحيث أن أهل بيته عموماً أدركوه وقضوا منه بالعجب .

« لأجل أن أري المسيو جامري كنه الاحتياطات التي اتخذتها ضد أي غش أو تزوير من قبل الواسطة ، ولأجل أن أتقي من قبل حضرته بعض الاعتراضات عديمة الجدوى . أضيف إلى ما سبق :

« أولاً — بأن تلك الواسطة تجهلني كل الجهل ،وإني غريب في تلك البلدة .

« ثانياً — أن تلك المقابلة مع الواسطة كانت باكورة تعارفي بها وأنها لم تكن تقدر على معرفة شيء مني ولا من عائلتي .

« ثالثاً — أنه لم يحصل بيني وبينها قبل التحضير ي محادثة تمهيدية ما كان يمكن أن تستفيد منها بعض فوائد تدلها على ما أنا بصدده .

« رابعاً — الجلسة حصلت في ضوء النهار الناصع في الساعة الثالثة بعد الزوال.

« خامساً — لم يدخل جلسة التحضير شخص ثالث في أثناء الجلسة .

« سادساً – ظلت أبواب الحجرة مقفلة طول مدة التحضير ، ولم يوجد فيـ
لا حواجز ولا أجهزة من أي نوع كان يمكن أن تسهل التزوير .

« سابعاً – لم تمس الواسطة الاردوازين بيديها .

« ثامناً – لم يكن في جيبي لا خطابات ولا مكاتيب أخرى آتية من قبـ
الأشخاص المكتوبة أسماؤهم في الأسئلة، مما يمكن أن تعرف منه الواسطة الأسـ
التي أمضت على الأجوبة التي تحصلت عليها » .

ثم قال : « وإني قد اتبعت هذه الجلسة بجلسة أخرى بعد ثلاثة أيام ، فكا
نجاحها كنجاح سابقتها ، لأني توخيت لها الشروط التي توخيتها للأولى .

« هل يجسر المسيو غاستون مري بأن يدعي أن هذه الألوف المؤلفـة
الذين شاهدوا هذه الخوارق مغشوشون مغرورون ؟ وهل يجسر بأن يزعم بأ
البارون (غولدنستوب) الذي عمل أكثر من ألفي تجربة روحية من سنة ١٤٦
إلى سنة ١٨٦٩ ، أمام شهود من أعلم علماء الأوروبيين والأمريكانيين وأجدر
بالثقة كان مخرفاً ، مصـاباً بالهوس ؟ وأن (ولاس) و(زولنر) و (فيشت
و (اكسون) و(هار) و (دال) و (أوين) و (أكزاكوف) كلهم كذابو
خراصون ؟ » .

إلى أن قال: « يظهر مما تقدم بيانه بأن الاسبريتوالزم أصبح مثبوتاً بالبراه
العلمية، لأن المعلومات التي تأتي من قبل الأموات، والعرافة التي يتمتع بها الوسط
تثبت بطريقة لايمكن دحضها بأن المشاهدات التي تنتج من هذين الفنين الروحيـ
آتية من جهة عقل أعلا من العقل المتلبس بالمـادة ، أي من عقل يسمو على عق
الإنسان ، مثبوت وجوده ثبوتاً علمياً ، ويمكن مشاهدته في كل حين تتوفر فـ
الشرائط الضرورية ، ومن هنا صارت الاعتراضات التي وجهها المسيو جاستو
مري لا تحتمل النقد ، وبما أنه لا يستطيع أن يحل المسألة التي عرضناها عليه
مقدمة هذا الفصل إلا بفرض تدخل الأرواح، فنؤكد بأن هذا الفرض هو وحـ
الذي يمكن قبوله والاعتماد عليه في حل أمثال تلك المسائل .

« فاظلب النور ، ثم اظلب النور يا مسيو غاستون مري ، وإن كنت صاحب الحقيقة ، فتكرم بإعلامنا بها ، فإنها مرمى أغراضنا ومنتهى آمالنا » ا. هـ.

الإمضاء
(البروفسور موتلينه)

★

نحن نجشم أنفسنا كل حين ترجمة مثل هـــذه الحوادث ليرى المسلم بعينيه ، أن العالم أصبح على خلاف ما كان عليه في مقدمة القرن التاسع عشر والذي قبله من جهة الاعتقاد بالعالم الروحاني ، وإذا كان العالم الأوروباوي الذي كان مادياً بالأمس أصبح يعترف (دعك من استحضار الأرواح) بأن في الإنسان سراً مكنوناً ، ومعنى علوياً مصوناً ، وأن جسمه هذا غلاف مؤقت لهذا السر السماوي يضمه حيناً ، ثم ينفرج عنه ، فيصعد ذلك السر إلى عـالمه النوراني ، يسبح في سبحات الإفاضات الرحمانية مع الأرواح الملكوتية ، قلنا إذا كان العالم الذي كان مادياً بالأمس ، أصبح يقول هذا القول: أليس الأولى به منه المسلم الذي بعثه الله لإعطاء الروح حقوقهـا ، وتأمين العواطف الإنسانية على مطلوبها ، وإذا كان صرعى المدنية الجديدة يقارعون أنصار العقائد الحقة بالعـلم الأوروبي ، فها هو العلم الأوروبي وهاهم قادته وأراكينه ، حيارى أمام آية من آيات الحق جل شأنه ، أرسلها إرغاماً لمعاطس الكفر ، وكسراً من شرة العناد ، والله غالب على أمره .

★ ★ ★

كروية الأرض ودورانها

كتب لنا حضرة الوجيه السيد علي بن أحمد بن شهاب من مدينة بويتنزورغ بجزيرة جاوه ، يسألنا هذين السؤالين : هل الأرض كروية ؟ هل الأرض تدور ؟ فنجيب حضرته :

كروية الأرض معروفة منذ القدم ، من أول تكون الجرثومة الأولية للعلم تقريباً. وقد استدل آباؤنا الأولون على ذلك باختلاف شكل السماء بالنسبة للسائر على وجه الأرض ، فإنه لو كانت الأرض سطحاً مستوياً ، لحفظت السماء شكلها دائماً للرائي مهما تنقل على ظهرها . ومما جعل مسألة كروية الأرض حقيقة علمية بالنسبة للأقدمين ما رأوه عند كسوف القمر من ظل الأرض عليه ، فقد رأوا ذلك الظل مستديراً مما يدل واضح الدلالة على أن الأرض كرة مستديرة، كالشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب . ويمكن أحدنا أن يستدل بنفسه على كروية الأرض بدليل محسوس ، بأن يقف على شاطىء البحر ، مراقباً إقبال سفينة من بعد بواسطة المنظار . ذلك أنه لا يرى أولاً إلا أطراف سواريها، ثم كلما تقدمت السفينة نحوه علت تلك السواري عن سطح البحر رويداً رويداً، حتى يظهر مقدم تلك الفلك (أي السفينة) ، ثم إذا أدمنت في السير علا سطحها على سطح البحر قليلاً قليلاً على نسبة سيرها ، حتى ترى السفينة بأكملها طافية على وجه الماء . وإليك دليلاً محسوساً غير ما سبق على كروية الأرض ، وأشد منه إقناعاً للعقل وإزهاقاً للشك ، وهو ما حدث من تطواف الأرض ، فقد طافها كثيرون في شهور قليلة ، خرجوا من بلدة شرقاً ثم عادوا إليها من جهة الغرب . ومما يشبه هذا الدليل في الإقناع اختلاف ساعات الليل والنهار بالنسبة للممالك المختلفة ، فإن في الوقت الذي يكون فيه النهار مشرقاً في جاوه ، يكون الليل ضارباً أطنابه في بلاد المغرب وما يليها، وبالعكس . وقد جرى علماء الهيئة من المسلمين على هذه النظرية من عهد دخول العلم اليوناني إلى بلادهم ، بواسطة الخليفة المنصور العباسي . ولم يرَ علماء الدين في ذلك ما يضر بالعقيدة . أما ما ورد في كلام الله تعالى ، مما يؤخذ منه انبساط الأرض ودحوها ، فالمستند عليه لم يحسن فهم كلام الله .

قال الإمام الرازي في تفسيره قوله تعالى : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً » الآية. قال: واستدل بها على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جداً. لأن الكرة إذا عظمت

جداً كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه ، والذي يزيده تقريراً أن الجبال أوتاد الأرض ، ثم يمكن الاستقرار عليها ، فهذا أولى والله أعلم .

أما دوران الأرض ، فهنا موضع الخلاف والنزاع ليس بين أبناء الأعصر الأول فقط ، بل بين أبناء هذا العصر أيضاً ، وإن كان العلم الرسمي الأوروبي ، والأغلبية العظمى في جانب دورانها على نفسها وحول الشمس معاً .

مسألة دوران الأرض على ذاتها يظهر أنها كانت معلومة من القدم لتلامذة الفيلسوف فيثاغورس ، قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ، ولكن لم يشع هذا الأمر ولم يدخل إلى العلم الرسمي إلا بظهور الفلكي الشهير (كوبرنيك) البولوني ، في القرن السادس عشر (١٤٧٣ — ١٥٤٣) فإنه أثبت بالدلائل القوية المقنعة أن الأرض متمتعة بحركتين في آن واحد . حركة رحوية على ذاتها ، وبها يتكون الليل والنهار ، وحركة محيطية حول الشمس لتكوين الفصول المختلفة من برد وحر واعتدال .

الأدلة على دوران الأرض حول الشمس غير حاصلة على صفة الأدلة المحسوسة ، حتى لايمكن الخوض فيها كمسألة كرويتها ، ولذلك ترى نفراً من العلماء والرياضيين لايزالون يتشككون في ذلك ويشككون غيرهم .

كتب المسيو درومون في جريدة (ليبربارول) الباريسية في ٩ يناير الماضي ، يقول : « لم يقم الدليل للآن على صحة دوران الأرض ، كما كان يزعم جاليليه (هو ناشر تعاليم كوبرنيك) ، ولا على أنها مركز العالم الشمسي ، وهذا المسيو هـ. بوانكاريه أكبر علماء الهندسة والطبيعة الفرنساويين لم يجزم للآن بدوران الأرض ، لأنه يقول : « يقولون أن الأرض تدور وأنا لا أرى مانعاً من دورانها ، فإن فرض دورانها سهل القبول ، ويمكن به فهم كيفية تكوّن ونمو الدنياوات ، ولكنه فرض لا يمكن إثباته ولا نفيه بالأدلة المحسوسة ، هذا الفضاء المطلق أي الحيز الذي يلزم نسبة الأرض إليه للتحقق من دورانها أو عدم دورانها ليس له وجود في ذاته . من هنا ترى أن قولهم الأرض دائرة لا معنى له البتة لأنه ليس في

وسع أية تجربة إثباته لنا بالحس . هاتان الجملتان (الأرض دائرة) و (الأسهل فرض أن الأرض دائرة) لا تعنيان إلا شيئاً واحداً ، ولا تمتـــاز إحداهما عن الأخرى في معنى جديد » .

وجاء في جريدة (اكلير) الفرنساوية في ١٧ فـبراير الماضي ، تحت امضاء بعض الكاتبين قوله: « ليس من المحقق الثابت أن الأرض دائرة، ومع ذلك فهذه نظرية شائعة ذائعة وعقيدة علمية كبرى لا يحسبون لها سقوطاً . هذا وإنك ترى أن نظرية الجـاذبية العامة قد عادت لمجال المناقشة وأن قوانـين كبلر اشتهرت بكونها فروض ظنية ليس إلا . » (يريد الكاتب أن يقول إذا كانت نظرية الجاذبية العامة وقوانين (كبلر) تعتبر فروضاً قابلة للبحث فلم لا يكون الأمـر كذلك بالنسبة لنظرية دوران الأرض ؟!).

سرد العلامة الفلكي الشهير هذه الأقاويل في (المجلة) الفرنساوية في المجلد التاسع والأربعين ، ورد عليها بحجج فلكية منها :

« لايشك أحد في أنه يرى كل يوم الشمس والقمر والكواكب والنجوم تشرق من جهة الشرق ، ثم تستوي في كبد السماء وتبلغ أوجها الأعلى ثم تهبط غاربة نحو الغرب ، وتظهر في اليوم التـالي في أفق الشرق بعد أن تكون سرت من تحت الأرض .

« ليس للإنسان في تعليل وتفسير هذه المشاهدة العامة إلا أن يفرض أحد فرضين : فإما أن يقول بأن السماء هي التي تدور من الشرق إلى الغرب ، أو أن أرضنا هذه هي التي تدور أمام السماء من الغرب إلى الشرق .

« إذا فرضنا الفرض الأول ، وجب علينا أن نعزو للأجرام العلوية سرعة في الدوران مناسبة لأبعادها عنا . مثال ذلك أن الشمس التي تبعد عنا بمسافة تقدر بقطر الكرة الأرضية ٢٣٠٠٠ ضعف ، يجب أن تسري في الأربعـة وعشرين ساعة محيطاً أكبر من محيط الأرض ٢٣٠٠٠ ضعف أي بسرعة ١٠٦٩٥ كيلومتر

في الثانيـــة الواحدة . والمشتري الذي هو أبعد من الشمس عنا بخمسة أضعاف يجب أن يكون سيره بسرعة ٥٣٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحـدة . ونبتون الذي يبعد عنا أكـثر من الشمس بثلاثين ضعفاً يلزم أن يتحـلى بسرعة تقـدر بـ ٣٢٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية. وأقرب نجم إلينـا المسمى الفادوسانتور الذي يبعد عنا أكثر من بعد الشمس بـ ٧٥٠٠٠ ضعف ، يجب أن يجري في الجوبسرعة ٢،٤٩١،٠٠٠،٠٠٠ كيلو متر في الثـانية الواحدة . وكل النجوم أعلا منا بمـا لا يمكن حسبانه كما لا يخفى . فـإن كانت الأرض هي الثابتة والكواكب هي الدائرة، وجب أن تكون كل هذه الدورانات المدهشة من تلك الأجرام الكبيرة حاصلة حول نقطة صغيرة هي الكرة الارضية . عرض هذه المسألة الفلكية بهذه الصفة هو بمثابة حلها ، أللهم إلا أن يجحد بالأقيسة الفلكية والعمليات الهندسية المتوافقة تمام التوافق ودوران الأرض الليلي ، وهي حقيقة مثبتة بالواقع .

«إن فرض دوران الكواكب هو بمثابة فرض دوران الكانون والمطبخ والبيت والبلدة بأجمعها حول قطعة من اللحم تشوى بالنار ، كما تخيل ذلك أحد المؤلفين الأخلاقيين » .

هذا ما يقوله (كاميل فلا مريون) ، فإن تركته جانباً ونظرت إلى ما يقوله الأستاذ الفلكي الطائر الصيت الذي يعد أول رياضي الآن في البلاد الفرنساوية ، كما جاء في (المجلة) الفرنساوية، رأيته يقول: «إذا فرضنا أن السماء مغطاة بالسحب دائماً ، وأن لا وسيلة لدينا مطلقاً لرؤية الكواكب ، كان يمكننا مع ذلك أن نستنتج دوران الأرض بانبعاجها ، وبالأولى بتجربة (فوكلت)[1] ، ومع ذلك لو قلنا في هذه الحالة أن الأرض دائرة ، فهل يكون لهذا القول معنى ؟ وإذا كان ليس هنالك فضاء مطلق، فهل يمكن الدوران إلا إذا كان منسوباً لشيء موجود؟

(١) هو طبيعي فرنساوي أثبت دوران الأرض الليلي بواسطة البندول (الرقـــاص) توفي سنة ١٨٦٨ .

ومن جهة أخرى كيف يسوغ لنا أن نقبل استنتاج (نيوتن) والتصديق بوجود الفضاء المطلق ؟

« لنرجع إلى الفرض الذي فرصناه أولاً ، وهو أن هنـالك سحباً كثيفة تحجب الكواكب عن أعين الناس، فلا يرونها بل ولا يتوهمون وجودها، فكيف يعلم أولئك الناس حينئذ أن الأرض تدور ؟ كانوا بلا شك يعتقدون أكـثر من أسلافهم بأن الأرض التي تحملهم ثابتة غير متحركة، وكانوا ينتظرون آماداً طويلة حتى يأتيهم (كوبرنيك) . ثم ينتهي الأمر بمجيئه ، فكيف يجيء ؟.

«قبل مجيء كوبرنيك يكون العلماء قد اخترعوا شيئاً من موالاة الجد والتنقيب ليس بأعجب من كرات (بطليموس) الزجاجية، ويكونون قد جمعوا الفروض على الفروض، وزادوا المسائل تعقيداً وإشكالاً حتى يأتي (كوبرنيك) المنتظر ، فيكنسها كلها دفعة واحدة وهو يقول : (من الأسهل أن يفرض الإنسان أن الأرض تدور) .

« وكما أن (كوبرنيكنا) جاءنا يقول : (من الأسهل أن نفرض أن الأرض تدور لأن قوانين علم الفلك تدخل بهذا الشكل في قالب أسهل)، كذلك يأتيهم (كوبرنيكهم) وهو يقول : (من الأسهل أن نفرض أن الأرض تدور لأن علم الميكانيكا يصبح بذلك في قالب أسهل) ، وهذا لا يمنع من أن يكون الفضاء المطلق غير موجود ، أعني أن العـلامة التي يجب عزو الأرض إليها للتحقق من دورانها ، ليس لها وجود حقيقي . ومن هنـا ترى تأكيدهم بأن الأرض تدور لا معنى له ، لأنه لا يوجد ما يثبته بالتجربة . الخ » .

يرى قارئنا من تضارب هذه الأفكار بين أكبر علماء الأرض أن أمر دوران الأرض غير حاصل على ما يجعله من العلوم البديهية ، فإن مثل العلامة (بوانكاريه) لم يكن يتجاسر على مثل هذا القول وهو أكـبر رياضي فرنساوي اليوم ، إن لم نقل أكبر رياضي فلكي في العالم ، إذا لم يكن على ثقة تامة مما يقول وعلى بينة مما يرمي إليه . ولو كان المعلمون في أثناء تدريسهم للعلوم الطبيعية يسلكون مسلك

العلماء في الإقرار بالجهل ، فيرون تلامذتهم وجه الضعف في المعلومات الطبيعية لأدوا لتلامذتهم أكبر خدمة ، لأنهم بهذا يعودونهم على الأدب النفسي ، فتنشأ نفوسهم معتادة على التواضع أمام فخامة الكون وجلالته والسجود أمام مبدعه ومصوره . ولكن أكثرهم يدرسون لهم العلوم المشكوك فيها والفروض الطبيعية الظنية بصفة حقائق ثابتة ، فيتذرع بها أولئك التلامذة الأغرار متى كبروا إلى الإلحاد ونفي الروح والخلود ، ولا يدرون أنهم يتمسكون بالظنون « وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

*

استشكالات على دوران الأرض

كتب لنا حضرة المحترم سلامة أفندي محمد بنظارة الأشغال العمومية كتاباً يقول فيه :

أولاً — هل ورد في القرآن الكريم ما يفيد دوران الأرض ، إن كان ورد ذلك ففي أي آية ؟

ثانياً — إذا كان القرآن أفاد أن الشمس والقمر يسبحان في فلكهما ، وهـذا محسوس بحاسة البصر ، فما فائدة دوران الأرض ؟

ثالثاً — إذا قيل أن دوران الأرض يوجد الليل والنهار،فما معنى قوله تعالى: « فالق الإصباح » ، وقوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار » . إن قيل أنـه لحصول الفصول ، فما معنى قوله تعالى : « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » ؟

رابعاً — إذا كانت الأرض دائرة فلِمَ لم يرد ذلك في القرآن ، مع ما ذكر فيه من تسخير الشمس والقمر والنجوم والسحاب والفلك في البحر؟. هل دوران الأرض شيء صغير في جانب تسخير السحاب ؟

خامساً — ما البراهين الحسية التي يرتكز عليها الفلكيون والجغرافيون في القول بدوران الأرض ؟

هل انفصلوا عنها إلى الفراغ وشاهدوها مستقلة عنهم كما يشاهد الواقف على الشاطىء السفينة جارية ، ولو كان فيها ينظر البحر سائراً ؟

سادساً - هل قال أحد من مفسري القرآن أن الأرض دائرة حول الشمس؟ إن قيل نعم ، فمن هو من الأئمة ؟ وما رأي حضرتكم في كلام الفخر الرازي في هذا الموضوع ، وما الأوجه المفندة لكلامه ؟

نقول : إن ما كتبناه في هذا الفصل كاف في الإجابة على أسئلة حضرة الكاتب المحترم ، ولا ينقصه إلا بيان محظورية الاستدلال بآيات الكتاب الكريم على تقرير ورفض العلوم الطبيعية ، ويحسن بنا أن نعيد له هنا ما كتبناه في هذا الصدد سنة ١٣١٧ في مجلة « الحياة » : قلنا :

إن علم الفلك مثل سائر العلوم الطبيعية خاضع لناموس الترقي والتدرج ، فلو قارنت بين نظرياته التي كانت لدى المصريين والآشوريين قبل أربعة آلاف عام ،وبين نظرياته عند علماء الإسلام في القرن الثالث والرابع الهجري ، وجدت اختلافاً عظيماً ورقياً محسوساً ، على أن سائر نظرياته رغماً عن تقدم العلم في هذا العصر لم تزل ظنية . ولا يخفاكم أن أقرب الظنيات للحقيقة هو أسهلها انطباقاً على الظواهر المحسوسة وأكثرها حلا للمعاضل المجهولة . فلو كنا الآن نقبل نظرية دوران الأرض حول الشمس ، ونطرح رأي المتقدمين من ثبوتها فما ذلك إلا لكون النظرية الأولى تحل لنا من المسائل الفلكية ما تعجز النظرية الأخيرة عن حلها ، ولكن إذا ظهر رجل وأثبت لنا ثبوتها وقرر لنا نظرية علمية تحل لنا من غوامض المسائل العلوية أكثر مما تحل تلك النظرية ، ولا تعارض أحكام النواميس المحسوسة ، قبلنا رأيه واعتمدناه إلى ما شاء الله . ثم قلنا هنالك : وإن قوله تعالى : « ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » ، يرينا بطريقة جلية أن كل ما ذكر في الكتاب الشريف من أمر الكواكب والسموات لم يقصد به تعليم علم الفلك ، بل القصد منه لفتنا إلى التدبر في جلائل مصنوعات الله وتنور أسرارها ليس إلا ، وعندنا أن تطبيق علم الفلك الحديث والقديم على ما جاء في القرآن المجيد ، يعتبر تهجماً غير محمود على كلام الله تعالى ، ذلك لأن

القرآن الكريم إنما جاء بالقواعد العامة والنواميس الكلية التي لا يعتريها تبديل ولا تحوير ، والتي هي لسان حال الوجود ومطلوب الحياة الإنسانية من جهتيها المادية والمعنوية . فالساعي في تطبيق العلوم الفلكية على آياته الكريمة ، يكون ملوماً لأمرين : أولهما — أن القرآن العظيم إنما جاء لتربية الإنسان وتهذيب خصائصه ، تلك التربية وذلك التهذيب اللذين يفكان أغلال المدارك النفسية ، ويكسران مقاطر المواهب البشرية ، ويستخرجان أنوار الحقائق الملكية من كثافات تلك الطبيعة الطينية ، ليتجلى الإنسان في الوجود إنساناً صالحاً لأن يلم بأسرار عالم الشهادة بحواسه الظاهرة ومساتير عوالم الغيب بمشاعره الباطنة ، كما حصل ذلك في الأمة العربية الأولى ، فقد جاءها هذا الدين وهي على حالة البساطة الخاوية ، فهذب نفوسها وربى ملكاتها ، فانبجست ينابيع مواهبها الإنسانية من صخور حياتها الوحشية ، فتجلت بعد بضع عشرات من السنين أمة طمست لألاء مدنيتها الحقة سائر المدنيات البهيمية ، وأمسكت بيمينها صولجان العظمة الدنيوية ، ونشرت في الخافقين روح الحرية والعلم ، لدرجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشر .

لإحداث مثل هذا الأثر التهذيبي ، جاء القرآن المجيد: « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، إلى أن قلنا هنالك : إذا تقرر هذا كله نقول : نحن معاشر المسلمين الذين أنزل الله علينا: « وقل ربّ زدني علماً » ، والذين كان لآبائنا اليد الطولى في ترقية العلوم وعدم الوقوف بها عند حد ، والذين سنّ لنا عليه الصلاة والسلام خير سنة في الأخذ بما صلح من تجارب الغير ، يجب علينا أن نسابق الأمم في ميادين العلوم الجديدة ، ونسعى في زيادة مادتها لا سيا وقد ظهر أنها أقرب إلى الحقيقة مما عداها . وبناء على هذا يجب علينا وجوباً حتماً أن نلفظ آراء المتقدمين في علم الهيئة ، ونتمسك بآراء المتأخرين منهم لكونها تحل لنا من معاضل الظواهر الفلكية ما لا تحله لنا تلك ، منتظرين ما يهدينا الله إليه في المستقبل بمزيد التواضع . وكيف لا يتواضع للعلم قوم أنزل عليهم ربهم : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . » .

ما وراء المادة – العلاج النفسي بالتنويم المغنطيسي :

كتب الكاتب الفرنسي الطائر الصيت (جول بوا) في جريدة (الطان) الباريزية الشهيرة ، الصادرة في ٢١ يونيو من هذه السنة يقول :

« إن أحدث المخترعات العلمية من أول التلغراف اللاسلكي وأشعة رنتجن إلى خصائص الراديوم والأشعة المعتمة ، وموت صاحب الخوارق المدهشة الدكتور ليبولت حديثاً ، تستلفت أنظار العالم دائماً إلى التنويم المغناطسي والسحر والعلوم السرية والحوادث الروحية لمذهب استحضار الأرواح . »

ثم قال : « إن ما حدث من أنواع الشفاء بالتنويم المغناطيسي مما يكاد يعد معجزة ، وما حصل من الفوائد من فن التلقين بالاستهواء ، وما يشاهد من فوائد الاعتقاد وثبات الإرادة ، والمحاورات المدهشة بواسطة التليباتيا ، ومسائل الإحساس بالمستقبل وقراءة الأفكار ، وظهور شبح الإنسان في مكان بينما يكون هو في محله لم يتحرك ، واستخراج القوة الحيوية من الجسد (وقد توصلوا إلى رسمها وقياسها) ، وما يراه الإنسان من الغيوب في النوم والإنباء بالامور المستقبلة ، والخوارق الحاصلة من الوسطاء والفقراء الهنود التي هي في الغالب صحيحة صادقة ؛ كل ذلك يتكون منه مجموع هائل من حوادث ومشاهدات يستحيل على الإنسان أن يزدريها وأن لا يعبأ بها ، بل إن من أوجب الواجبات بحثها وفحصها من قرب ، ثم نشر نتائج هذه المباحث بين العالم جميعه ، وعدم تركها في أيدي سماسرة الاحتيال والحمقى » .

ثم استأنس الكاتب لكلامه بجملة كان نشرها الشاعر الشهير (فيكتور هوجو) في هذا المعنى ، ثم قال :

« وقد عمل الناس بهذه النصيحة ، فإن جمعيات المباحث النفسية في لوندره ونيويورك وألمانيا وإيطاليا وروسيا مؤلفة من طبيعيين وأطباء وكيماويين وعمرانيين وفلاسفة ، والكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه المسائل الجذابة التي طالما هزىء بها

الهازئون وزرى عليها الزارون ، وقد تأسست في باريس نوادٍ مخصصة للمباحث النفسية والمباحث النفسية الفزيولوجية ، حصلت من علماء النفس الرسميين على مساعدين مثل (دارسونفال) و (بوشار) و (ميزيير) و (بويسون) و (متسكينكوف) و (وبيريه) و (جيار) و(سوللي برودوم) الخ.، وبذلك فقد أصبح مستقبل هذه المباحث بملاحظة هذه العقول الكبيرة سائراً على دستور علمي ومأموناً عليه من الخطأ . وبناء عليه فهؤلاء العلماء الأعلام والمفكرون العظام سائرون في تحقيق أمنية الشاعر ولكن ببطء ونظام . »

من هنا يرى القارىء أمرين : أولهما أن هذه المدهشات أصبحت شغلاً شاغلاً لكبار العلماء في العالم المتمدن كله ، خلافاً لما يذهب إليه بعض الكتّاب عندنا ، وليس بعد ما نقلناه عن جريدة الطان ، وهي من أشهر الجرائد الأوروبية ، بقلم كاتب من أشهر كتّاب الفرنساويين مقال لقائل في هذا الموضوع . ثانيهما أن شرة الإلحاد الأوربي قد انكسرت وأصبح عباد المادة لا يحيرون جواباً أمام هذا السيل العرم من الخوارق للعادة ، الذي لم يدع مكناً إلا وتسرب إليه وأشرف عليه . حتى أصبحنا ننتظر من علماء المدنية الإجهاز على البقية الباقية من صنم الإلحاد والجمود ، وكان ذلك أولى بنا وأوجب علينا . وياليتنا نسير مع السائرين ولكن متطوروننا وقفوا مع الواقفين ، كأنهم أحفاد أولئك الماديين ، ويا ليتهم وقفوا ساكتين بل جمدوا متبطين صادين ، كأنه يضرهم أن يثبت فيما وراء المادة عالم آخر ، ويؤذيهم أن يكون الإنسان ذا روح تحيا حياة أبدية ، فليقفوا أو ليمشوا ، إن الله ناصر رسله ومؤيد دينه ومحقق وعده والسلام على من اتبع الهدى.

إليك ترجمة بعض تجارب نفسية أجراها الكولونل العلامة (دوروشاس) ناظر مدارس الهندسة في باريز ، وهو من كبار المشتغلين بفن التنويم المغناطيسي في العالم ، وله فيه تجارب بعيدة الغايات بديعة النتائج . نقلت هذه التجارب المجلة الروحية الصادرة في هذا الشهر (سبتمبر سنة ١٩٠٤) ، تحت عنوان : « قهقرة الذاكرة وخاصية معرفة المستقبل » قال :

« علم الناس من زمان مديد أن خاصية تذكر الحوادث الماضية في الإنسان تقوى وتنضبط جداً في بعض أحوال خاصة ، لاسيا في أخريات لحظات الحياة ، وقد شاهدت أخيراً أن من الممكن الحصول على هذه الخاصية بالتجربة بتنويم الشخص بواسطة الإشارات الطولية . بهذه الوسيلة يمكن التطواف بالشخص على كل أدوار حياته السابقة . ومتى أثر عليه المنوم بالإشارات الغرضية وصل به إلى حالته العادية ، ماراً على حوادثه الماضية بالترتيب حتى يصل إلى السن الذي هو فيه ، فإن أمعن في العمل أوصله إلى سن الشيخوخة ، وبلغ به عكس ما بلغ أولاً ، أي أنه بالفعل الأول يصل به إلى سن الطفولة تدريجاً ، وبالفعل الثاني يصل به إلى ما سيصل إليه من سن الهرم .

« إذا كان الشخص صاحياً وأثر المنوم عليه بالإشارات العرضية أي بالإشارات المهرّمة ، هرم الشخص شيئاً فشيئاً وتغلغل في حوادثه المستقبلة ، فلأجل إرجاعه إلى سنه الأصلي يجب التأثير عليه بالإشارات الطولية التي تلاشي آثار الإشارات الأولى .

« قد تحصلت على هذه التجارب بطريقة واضحة جداً على شخصين ، وها أنا مورد بعض تلك المشاهدات من سجل التجارب الخاصة بها . ولزيادة البيان أذكر القارىء بأن الحوادث المغناطيسية تولد عند أكثر الناس سلسلة من أدوار ليتارجية (الليتارجيا حالة شبيهة بالموت) ، تتعاقب مع أدوار الانتقالات النومية كما يتعاقب النوم واليقظة في الحياة العادية ، وفي حالة الليتارجيا كما في حالة النوم العادي ، يسمع الشخص بقوة أو بضعف ولكن لا يستطيع الكلام ، وهو في حالة الانتقال النومي من جهة الحالة الطبيعية كما هو في حالة اليقظة ، غير أنه لا يحس إحساساً جلدياً » .

الحالة الاولى مع مدام لمبير

ذكر أنه بدأ تجاربه مع مدام لمبير ، ونجح في قهقرة ذاكرتها تدريجاً حتى مر بها على جميع أدوار حياتها السابقة إلى أن أوصلها إلى الحين الذي كانت فيه

جنيناً في بطن أمها، ثم أصعد ذاكرتها حتى تذكرت نفسها لما كانت روحاً مجردة على هيئة كرة من نور سابحة في الفضاء ، ثم عكس الأمر ، فأثر عليها بالإشارات العرضية بقصد التغلغل بروحها في حوادثها المستقبلة ، فما زالت روحها تتنقل بها من دور إلى دور حتى وصلت إلى سن الهرم ، وشعرت بما ستكون عليه قبل أن تصل إليه. فطلب إليها الأستاذ أن يهرمها ، حتى تصل لدور الموت المنتظر لترى كيف يكون حالها فيه ، فأبت .

الحالة الثانية مع جوزفين

وصف الأستاذ (جوزفين) بأنها خادمة عمرها ١٨ سنة في بيت أحد معامليه ممن يعتقدون بالأسبرتزم، وأن لها حساسية شديدة ، وأن صحتها جيدة الخ.. ثم قال : « لما رجعت إلى (فوارون) عدت إلى التجارب ذاتها مع (جوزفين) بدون أن أكاشف أحداً بأعمالي في باريس .

الجلسة الاولى: أنمتها بواسطة الإشارات الطولية للحصول على قهقرة ذاكرتها، ثم أيقظتها بإشارات عرضية ، فلما عادت إلى حالتها العادية ورجعت إليها مداركها ، أدمت التأثير عليها بالإشارات العرضية بحجة إيقاظها كلية . فلم يمر إلا دقيقة أو دقيقتان حتى قالت لي أني شارع في تنويمها بدل إيقاظها ، فكلفتها أن تترك نفسها بدون أن تخشى شيئاً ، فاعتراها دور ليتارجيا مكث مدة ، ثم استيقظت منه في دور انتقال نومي ، فسألتها عما إذا كانت لم تزل عند المسيو س.— هو سيدها الحالي — فأجابت بالسلب، قائلة أنها تركته من منذ ثلاث سنين لترجع إلى بلدها في م... وأنها الآن لدى أهلها ولها من العمر ٢٥ سنة — مع أنها الآن لا تجاوز ١٨ سنة ولكنها ترى مستقبلها — .

فأثرت عليها ثانياً بإشارات عرضية ، فاعتراها دور ليتارجيا كانت في أثنائه في غاية السكون، ولكن لم يمض إلا قليل حتى لاح عليها ألم شديد جداً. فأدارت وجهها وخبأته بيديها ، وبكت بكاء مراً حتى أن مدام س . تأثرت من فعلها

غاية التأثر وانسحبت إلى غرفة أخرى ، فلما وصلت إلى الدور التالي ، وهو دوز الانتقال النومي ، ظهرت حزينة كئيبة كما كانت ، فسألتها عما أصابها ، فلم تجب ولفتت وجهها كأن بها حياء من شيء ، فأعملت الظن والحدس في سبب آلامها ، وقلت لها : لعلك تزوجت الآن. فقالت : « لا ، إنه لم يرد مع أنه وعدني التزوج بي وعداً صريحاً » ، فقلت لها أخبريني عن إسمه وأنا أجتهد في التأثير عليه وإقناعه ، فأجابتني قائلة : « إنك لن تصل إلى غاية معه ، وإنى قد بذلت استطاعتي فلم أنجح » . فعلمت منها أنها لم تزل في بلدتها ، وأن سنها بلغ ٣٢ سنة ، وأنها أصيبت بما أصيبت من منذ سنتين ، ولم أنجح في معرفة إسم الذي تيمها .

لما رأيت حالتها من الكرب الذي أثر علينا جميعاً لشدة وقعه وظهور فداحته ، أعدتها إلى حالتها العادية بالإشارات الطولية وهي مارة على الأدوار المتعاقبة من الليتارجيا والانتقال النومي .

الجلسة الثانية : أعدت أعمالي السابقة ، فقهقرت ذاكرتها أولاً بالإشارات الطولية ، ثم سرت بها نحو المستقبل بواسطة الإشارات العرضية ، فاعتراها بعد الحالة الاعتيادية دور من الليتارجيا فيه هدوء ، ثم استيقظت وهي في سن ٢٥ سنة في بلدتها ، ثم اعتراها دور ثانٍ من الليتارجيا بآلام وخجل كما مر ، ثم استيقظت ثانياً في سن ٣٢ سنة فذكرتها بعلاقاتنا السابقة في (فوارون) وأقنعتها بأن تثق بي ، فلفظت إسم متيمها بارتباك ، وإذا به شاب من الزراع في بلدتها إسمه (أوجين ف .) وأنها قد جاءت منه بولد[1] ، فزدت التأثير عليها ، فاعترتها ليتارجيا ثم أعقبه انتقال نومي ثم استيقظت في سن ٤٠ سنة ، ساكنة بلدتها م . . . وهي في غاية الحزن ، وعلمت منها أن ابنها مات قبل قليل ، وأن أوجين ف . تزوج بأخرى .

---

(١) بحثت في تلك البلدة فوجدت أن هذا الشاب موجود بها الآن ، ولد سنة ١٨٥٨ من عائلة فلاحة مثرية .

فزدتها تأثيراً فاعتراها دور رابع من الليتارجيا أعقبه دور رابع من الانتقال النومي ، وإذا بها في سن ٤٥ سنة ، معاشها خياطة القبعات لأحد الخياطين ، وجدتها مكتئبة جداً وليس لديها علم بسادتها الأولين ، وعلمت منها أن لويزه أصدق صديقاتها في (فوارون) قد كتبت لها ثلاث خطابات ثم قطعت المكاتبة .

فزدتها تنوعاً بالإشارات العرضية المهرّمة وكنت قد تعبت فسألتها بعد جملة دقائق من دور ليتارجيا ظاهرية عما إذا كانت قد تقدمت أدواراً عديدة إلى الأمام ، فأجابت بأنها الآن في غاية الهرم والشيخوخة ، وأنها عائشة بجهد جهيد بفضل خياطتها ، ولكن الآن نسيت شيئاً من آلامها السابقة ، فكلمتها عن الموت ، وسألتها عما إذا كانت تود أن تعرف ما سينالها متى تركت هذه الحياة. فأجابت بالإيجاب ، فقلت : إذن يلزمني أن أزيدك هرماً ، فقاومت كثيراً ، ثم لما أكدت لها أني سأعيدها إلى حالتها الراهنة رضيت ورضخت . عند ذاك زدتها إشارات عرضية ، فلم تمر إلا دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى رأيتها انقلبت على ظهر كرسيها بآلام شديدة جداً ، ثم خرت إلى الأرض واعتراها النزع وسكرات الموت ، فزدتها مغطسة لأجاوز بها هذا الدور الشديد ولكي أسألها ، فماتت ، فرأيتها غير متألمة ، بل ولم ترَ أرواحاً ، وأمكنتها أن تتبع جنازتها ودفنها ، وتسمع ما صار يقوله الناس عنها ، كقولهم : « الموت أولى بهذه المرأة المسكينة فليس لديها ما تقيت به نفسها » . ورأت أن دعوات القس لم تفدها فائدة تذكر ، ولكن دورانه حول تابوتها كان يمنع احتفاف الأرواح الشريرة ، وشاهدت أن الأفكار الاسبريتية التي تعلمتها عند سيدها القديم قد نفعتها جداً لأنها أعلمتها بحقيقة حالها .

فلما وصلت بها إلى هنا ، لم أرَ حسناً أن أبعدها عما وصلت إليه ، فأعدتها إلى حالتها الأصليه بالإشارات الطولية ، فأحدثت الظواهر التي مضت ، ولكن بطريقة عكسية ، فإنها تقهقرت حتى مرت إلى دور النزع ، ثم منه إلى علاقتها بذلك الرجل .

* * *

الفصل السادس

ما هو الإسلام

*

زيادة بيان

لو أدرك الناس كافة معنى الإسلام ، وفقهوا كنه ما يرمي إليه ، لما بقي على وجه الأرض من يدين بدين آخر ، لأنــه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية ، وأنشودة كل استعداد، ومطمأن كل إحساس ، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والإيمان ، وهذا سر قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولولا أن الإسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ، ويلائم كل عاطفة وإحساس ، لما كلف الخالق به عموم خلقه من إنس وجن ، وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

هذا إجمال يستدعي شيئاً من البسط ، وإنا موجزون الآن بحثاً في هذا الموضوع ، نفصل به للقارىء معنى تكليف الخلق كافة بهذا الدين، ونفسر له ما يقوله علماء المسلمين من أن هذا الدين سيرث عموم الأديان ، وسيسود على جميع نوع الإنسان ، وأنه منطبق على كل قابلية وصالح لكل جيل من البرية . وهو بحث جليل الفائدة يجلي لنا الحقيقة الإسلامية في أجلى مظاهرها وأكمل معانيها.

الناس أمام الأديان

الناس ثلاثة أقسام: فهم إما جهلة لا يدرون من معنى الوجود والحياة والعالم ما علمه بعضهم من أفواه بعض علماً ناقصاً مشوشاً ، وإما علماء وقفوا من غايات العلم على قدر ما فتح الله على الناس من حقائق طبيعية وأسرار كونية ونواميس وجودية ، وإما أوساط لم ينحطوا إلى حضيض الجهال ولم يصعدوا إلى منصات العلماء ، فهم وسط بين ذلك. هذه أقسام ثلاثة كلية بينها أقسام ثانوية قد لا تعد ولا تدخل ضمن حد . فإن الجهال أصناف شتى وطبقات عدة ، وكذلك العلماء والأوساط ، إلا أن صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا في موضوعنا هذا يقف بنا عند هذه الأقسام الكلية ، فإنا إنما نريد أن نعطي قارئنا صورة جميلة عامة ، لها صور تفصيلية لا تستقصى ، تتغير بتغير الأحوال والظروف ولا يمكن إدخالها إلى قاعدة . فلندرس الآن كلاً من هذه الأقسام من حيثية علاقته بالدين ، ليرى قارئنا تفصيل ما أجملناه له في مقدمة هذه المقالة ببيان جلي وشرح كافٍ ، فنقول :

حظ الجاهل من الدين

قلنا الجهال أقسام لا يمكن حصرها بالضبط ، ولا فائدة لنا هنا من التقيد بها والسعي في حصرها ، فإنه يكفينا أن نعرف مقدار الجاهل في العرف فقط .

لا نريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط ، فقد يكون الرجل قارئاً كاتباً وهو من الجهل بحيث لا يدري أنه جاهل .

إذا كان يمكننا أن نشبه حياة العالم بحالة الإنسان في اليقظة في وضوح مجال الوجود أمامه ، ونصوع أشيائه في نظره ، وإدراكه اطراد علله في إنتاج معلولاتها . وارتباط أسبابه بمسبباتها ، وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا أن نشبه حياة الجاهل بحياة الإنسان في الحلم ، فهو يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ما هو من خصائص الحس ولكن إحساساً ناقصاً غير مرتبط ولا متسق. يرى العلل

ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ، ويرى المعلولات ولا يرى عللها ، فيخلط بينها خلطاً وربما علل وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث تترى وتمر فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتلفظها الشؤون بغير ضابط ، لا حظ له من تتاليها إلا الإشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها .

الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على أخص معانيه لأنه لا يعرف النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، دنيء الحظ من اللذة من حيث هي ، لأنه محروم من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة إلا ما يشعر به جسده ، وهو مما يشاركه فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها .

كل منا علم الجهل علماً ذاتياً وذاقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلا من بعد السنة السابعة إلى السنة الثانية عشرة تقريباً ، وقد يزيد هذا التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب الأحوال ، وهو أمر لا يغير جوهر الموضوع ، فكلنا ذاق الجهل وعلمه ويستطيع أن يعطي نفسه منه صورة على قدر طاقته في تصوير المعاني ومكانه من حسن المذاكرة .

هذا الجاهل لا حظ له من الدين إلا على قدر ما يخفف عنه من ألم في مصيبة ، ويجفف له من دمعة في نازلة ، من وعد بأجر ونعيم ، وإيعاد على معاقبة عدو لئيم ، أما فيما يسمو على ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له أضعف ، لذلك ترى شيعة الباطل من الأديان جهالاً كلهم ، وقد يكون معهم أفراد من الأوساط المتأثرين بآثار العادة والألف ، لأنهم لا ينتظرون من الدين إلا التعزية في وقت الشدة ، والعدة بالتعويض في دار بعد هـذه الدار . وهذه الخاصية موجودة في سائر الأديان على خلاف بينها في وجوه تلك التعزية ووسائل ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل في أن يثور على دينه بشك أو يقاومه بريبة ، وإن كان يتألم من تناقض يجده في بعض قواعده واختلاف تصادفه في أمهات

مسائله ، إلا أنه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة وسطوة التقليد الأعمى ، فتراه لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تغشاه غاشيات الوراثة من كل فج،فيعتري ضميره نوعاً من الإغماء ، فلا يفيق إلا وهو في وادٍ آخر من أمور حياته وشؤون جهاده،مع كل هذا فالجاهل المسلم أحسن حالاً وأوسع صدراً وأقل هواجس وأروح روحاً من أي جاهل من جهلة الأديان الأخرى، لأنه لم يكلف باعتقاد ما لا يعقل ، ولا بتصديق ما لا يدرك ، ولا بعمل ما يشق عليه،ولا بقتل عاطفة من عواطفه، فهو يحس من نفسه الحرية ، ويأنس من روحه الغبطة والسرور دائماً، فتراه في صلاته وصومه ونسكه وتسبيحه ، حتى في سلامه ودعائه فرحاً مسروراً مطمئناً مرتاحاً، يكرر الحمد مراراً في يومه على أن خُلق مسلماً ، ولا يرى فوق ذلك نعمة، ولا يجيش في صدره أن يرتد عن دينه لأي سبب يمكن تصوره ، بينما ترى جهال الأمم الأخرى يسلمون كثيراً ، ولو عنيت صحف الأخبار في بلادنا وفي غيرها باستقصاء عدد الذين يسلمون يومياً لبلغ في السنة مئات الألوف . وقد سمع عن أهل الملل الأخرى من يهدد أهله بإسلامه إذا لم يسعفوه بمطلوبه ، ولم يسمع عن أجهل المسلمين مثل هذا التهديد مطلقاً ، ولو بلغ ألمه وكدره أقصى مبلغه ، وفي هذا دليل محسوس على الطمأنينة السائدة على نفسه والهدوء المستفيض على روحه .

الأوساط والدين

قلنا أن بين الجهال من الأمم والعلماء طائفة وسطى لم تنحط إلى حضيض الجهل ولم تصعد إلى قمة العلم ، فهي في عالم وسط في الحياة ، ويمكن تشبيه حالها في الوجود، بالنسبة لشعورها به وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الإنسان بين النوم واليقظة ، يشعر شعور الصاحي ويدرك مداركه ، وليس كالصاحي في ضبط علاقات ما يقع على حسه من الحوادث وإدراك النسب الموجودة بينها ، وهو لا يعنى بذلك ولو عني به وسعى وراء تحصيله خانته وسائله فيحصل منها مايشبه الحقيقة وليس بها . ولو كلفت نفسك باستشراف أفكار هذه الطائفة ، وهي

الشق الأعظم من متنوري الأمم ، لرأيت لكل من أفرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الإنسانية ، فله فلسفة في الدين والعلم والمدنية والعمران والأخلاق على قدر وسائله ، تعطيك شكلاً فلسفياً كاملاً ، وإن كان ناقصاً من جهة الإستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ، ولكنها على أي حالة فلسفة يقنع بها أهل طبقتها ، ويقف معها ذووها من أهل درجتها .

قلنا أن هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها، فتتطلب ديناً ينطبق على مقررات العقل ولا ينافي بدائه الحس .

ديناً يحببها في الحياة ولا يزهدها فيها .

ديناً ينشطها للعمل ويحرضها على استصلاح المعيشة .

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره .

ديناً يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر .

ديناً يسمح لها بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ولا يحرم عليها إلا الإفراط فيها.

ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويبث في أفئدتها حرارة الشمم والحمية .

ديناً يفضي بالروح إلى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينهما .

ديناً يرحمها في ضعفها ولا يطلب منها فوق طاقتها ، ويتنزل معها إلى حيث هي ويعلو بها ولا يعلو عنها .

ديناً يراعي بها أدوار الطبيعة ، ويلاحظ لها أطوار الحياة فيعطي لكل دور ما يناسبه ، ويقابل كل حال بما يلائمه .

هذا هو الدين الذي يتطلبه الأوساط من الأمم ، ولا نجد فيما نراه من صور الأديان الموجودة للآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامي. لذلك ترى الأوساط من هذه الأمة أغير الناس على دينهم وأحماهم قلباً على كرامة ملتهم، حتى أنه ليوجد بين أوساط هذه الأمة نهضة دينية تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضات التاريخية ، وقد سرى تيار هذه الحماسة الدينية في الأفئدة كافة ،

وصار من مقررات الرأي العام اليوم أن تأخر المسلمين سببه ترك الدين وهجر تعاليمه ، وهو إجماع عجيب في عصر هجر الدين فيه كل الأمم الراقية. والإسلام وإن يكن حقيقاً بهذا الإجماع وزيادة ، إلا أننا نعجب من أن فتنة المدنية التي اجتاحت كل عاطفة فينا كيف أبقت على هذه العاطفة الدينية مع معـارضة المدنية لها جملة وتفصيلاً .

هذا عجيب في ذاته ، ولا علة له إلا أن الإسلام أنشودة روحية غاليـة جداً لا تسطو عليها فتنة مهما عمت وطمت ، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس إليها وتأخذ بأكظام العواطف لهفاً عليها .

كيف لا يكون التفاف أوساطنا حول الإسلام عجيباً وكل شيء في الشرق الإسلامي اليوم منفر من الدين ومبعد عن الإيمان واليقين ؟ أمامهم مدنية قامت بلا دين ، بل بنت عظمتها من أنقاض مجد أشياعه ، وهي للآن تعمل على إسقاطهم وإراحة العالم منهم ، وبين أيديهم جرائد ومجلات تدس لهم السم في الدسم ، وتصور لهم العلم الأوروبي في صورة وحش كاسر سطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الإنسانة فهدمها ، وعلى كل قديم فأوهى أساسه ، وتركه خاوياً على عروشه ؛ وزيادة عن ذلك فبين أيديهم نفر من شذاذ الآفاق أتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالمكان الأسفل ، وكفى بهم مثالاً سيئاً لأمة أصابتها مموهات سحر هذه المدنية إصابة أفقدتها التمييز والرشد . أليس إصرار أوساط المسلمين الآن، رغماً عن كل هذه الحوائل على الدعوة إلى الدين والحماسة به، أمراً عجيباً مدهشاً ؟ نعم ، والذي هو أعجب من هذا وأدعى للبحث ، هو ذلك السر الكبير الذي أودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والإنسان من تلك القوة الطائلة التي تسمح له أن يقارع بها كل هذه الحوائل الصورية والسواحر المعنوية والفتن الاجتماعية والفردية ويتغلب عليها ، ونكون في القرن الرابع عشر الهجري أو القرن العشرين الميلادي على الصفة التي نحن عليها ننتظر روحاً إسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا إلى مثل ما كان عليه آباؤنا صلاحاً وكمالاً .

لا يمكن أن يكون هذا كله إلا لأن الإسلام حاصل على الخصائص التي ذكرناها وزيادة، ولو لم يكن كذلك لما أمكن أن يكون هذا أثره على العقول والعواطف في عصر أصبح فخار أهله، فضلاً عن شعارهم، الطعن في الأديان والإقرار بتخلصهم من سلطة سائرها .

هذه الطائفة الوسطى تعتري أفرادها شكوك في بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بعاطفة من الغيرة والحب ، فترى الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم فؤاده أن يرزق بمن يزيل له شكه ، أكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من أن يفصله ذلك الشك عن أنشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الإسلام . وقد رأينا بأعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كأنهم يعترفون في سويداء أفئدتهم بفساد شكهم وحقيقة الدين في ذاته، وإن كان عقلهم يتطلب برهاناً من عالم العلم يزدادون به قوة في عالم الاعتقاد ، وهذه سلطة على النفوس قد لا تصادف في متبعي دين غير هذا الدين .

يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، وأثر من آثار قوة العادة ؛ ويغيب عنهم أن لقانون الوراثة حداً محدوداً ولسلطة الأوهام العادية نفوذاً معلوماً ، فإن الحقائق الساطعة ، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف أمام قانون الوراثة حيناً أو أحياناً ، ثم تحمل عليه حملة منكرة فتبدد آثاره تبديداً ، وتصل في اندفاعها إلى أبعد ما تصل إليه لو كان الطريق أمامها خالياً، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح أشد وطأة من فجور من نشأ على الفجور من أول مرة .

على أن هذا القانون الشديد البطش ، لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ ها هي شعوب أوروبا لم تقوَ فيها الوراثة الدينية على صد كتائب الشبه والشكوك، فجنحت إلى الإلحاد عامتها وخاصتها ، وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء. بل هذه أمم الشرق الأقصى من الهند إلى الصين ، إلى سائر الأمم الأخرى، سواء كانت أسيوية أو أفريقية مما يستوي في الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين

على دينهم ، مستبشرين بعقائدهم، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين يدخلون إلى ملتهم أفواجاً أفواجاً بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة، فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين؟ أليس لكون سلطان الإسلام على العقول والأرواح قوياً جداً يصعب ، إن لم نقل يستحيل ، زحزحته عن مكانه ؟

هذا الأثر بعينه ظاهر في الطبقة الوسطى من المسلمين إذا قورنوا بأمثالهم من الأمم الأخرى، وهو دليل محسوس على ما نقول من أن الإسلام مطلب كل روح وأنشودة كل استعداد وقابلية .

كما أن هذه الطبقة الوسطى لا تتنزه عن شك في الدين ، كذلك هي عرضة لنفثات المشككين، ولكن لا نتيجة لهذه النفثات إلا تثبيتهم في دينهم وإن كان ذلك خلاف المتبادر للذهن .

ذلك لأن المشككين إنما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعي إليه تصيداً، ويتعسفون في صوغها تعسفاً بيناً ، وفوق هذا كله فإنهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً ، فإذا تشبع أحد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الأسلحة الانتقادية في نقد ما يقدمونه إليه من تعاليم ديانتهم التي يدعون إليها ، كر راجعاً إلى الاسلام رغم أنفه لما يجده أمامه من التناقضات والتعاكسات التي لا تدخل تحت حصر ، فيرجع للإسلام لا رجوع المفضل له على غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس له ، تالياً على نفسه قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

ثم إن هذا التشكيك على دين الإسلام من أولئك المشككين يفيد الإسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً ، ذلك أنا قلنا أنهم في تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ، ويستعملون سلاحاً انتقادياً حاداً جداً ، فيطلع أهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة ، سواء كانت في الحوادث التاريخية أو في الأمور الاعتقادية أو في المعاملات، فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة

به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فإذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادي الصارم وأشرف عليها ، وهي على ما يعلم الناس من التنـاقض والمجافاة لبدائه العقل في أكثر جهاتها ، رجع والشك ألصق به من ظله، فلا يجد له محيصاً إلا السكوت على مضض ، وإلى متى ؟

بهذه الصفة ترى أن هؤلاء المشككين يخدمون الدين الإسلامي أجلّ خدمة وإن كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب في خيالهم. ولو كان في بلادنا إحصاءات لرأينا أن عدد الداخلين في الدين الإسلامي في هذه الأيام الأخيرة التي انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوماً بعد يوم ، وهو وإن كان لانتشار العلم أثر كبير في إحداثه ، لأن العلم يبعث الإنسان نحو الحقيقة دائما ، إلا أن لأولئك المشككين أثراً يذكر أيضاً ، فإنهم بتشكيكهم يوقظون العواطف النائمة ، ويبعثون الشبه الكامنة ، ويجعلون المسألة الدينية في مجال البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرضاً للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعزعة يقينهم .

قلنا أن هؤلاءالمشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئاً غير تثبيت المسلم في دينه ، ونصبه مناظراً لدوداً لهم ينقض بنيانهم ويفض حبائلهم ، لأن المسلم إن شك في دينه لجأ إلى النظر والاستدلال واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها ، فهل يسمح له أهل دين آخر بأن ينظر ويستـدل أو يستشهد بالعلم والبرهان على أصل من أصول العقائد .

إذا تقرر هذا، علمنا أن الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها أن تصبأ عن دينها إلى دين آخر ، وأنها أشبث بدينها عن نظيراتها لدى الأمم الأخرى ، وهذا ما قدمناه من أن الإسلام أنشودة كل فطرة ، ومطمأن كل عاطفة ، ومطلوب كل استعداد وقابلية .

* * *

العلماء والدين

أريد بالعالم هنا : العالم العصري الذي تركزت في مداركه صورة مصغرة من معلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها . تلك المعارك القلمية الصارمة التي حدثت بين حفظة القديم ، وأنصار الجديد في القرن الماضي ، والذي سبقه .

أريد من صنف العلماء المومــا إليهم من سلمت فطرهم من الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبلية . فإنا في بعض كتبنا قسمنا الفطر إلى ثلاث : فطرة مؤمنة ؛ وفطرة كافرة ؛ وفطرة جامدة . لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء . فأريد هنا من العالم : العالم السليم الفطرة المتلألىء الوجدان ، فهو الذي أقصده ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخيم بأخص معانيه ، بل هو الذي يصدق عليه أنه صورة حية من حال القرن الذي يعيش فيه . أما غيره فلا يريك تلك الصورة إلا ناقصة مشوهة .

الدين روح كلية مستولية على سائر الأرواح الجزئية استيلاء البحر على أحيائه السابحة فيه ، لكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شعورها، ويلائم استعدادها ، ومن أنكر الدين في ذاته ، فقد أنكر أكبر أرواح الوجود تأثيراً ، وأقواها على العالم تسلطاً ؛ وكان كالعلقة الصغيرة.. تسبح في القطرة، وتنكر البحر الذي يشملها ، أو كالبعوضة ، تمرح في جو الحجرة ، وتجحد الجو الذي يحملها .

قلنا الدين روح شاملة تأخذ منها كل روح على قدر حالها ، وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه في الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه .

أخص صفة من صفات العالم العصري (الإقرار بالجهل) حتى حدد الاستاذ إيزوليه المدرس بـ(مدرسة فرنسا)، العلم بقوله : (إن علومنا هي الجهل المرتب)،

وقد حلل الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر العلم الإنساني في كتابه (الأصول الأولية) ،فأحاله إلى درجة العجز المطلق أمام ادراك كنه أصغر ذرة من ذرات الوجود، وقرر أنه لايكسبنا في الإلمام بأشياء الوجود إلا إدراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها .

إذا تقرر أن الإقرار بالجهل هي صفة العالم العصري ، وأن العلم الحالي قد بث هذه الروح في نفوس أهله ، قلنا أن كل دين لا يكون من أوليات أصوله ومبنى قواعده ما يلائم هذه الروح التي اكتسبها العالم العصري من العلم الحاضر ، فلا يصلح أن يكون له ديناً . بل أن كل دين لا يقول للإنسان: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ولا يعترف له بقانون الترقي بالنص ، قائلا له : « وقل ربّ زدني علماً » ، ولا يريه أن المعلومات غير قابلة للانتهاء ، وأن الإنسان بإزائها شيء صغير ، كقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » ، قلنا كل دين لا يواتي الإنسان من جهة هذا الميل لا يصلح أن يكون ديناً للعالم العصري بوجه من الوجوه .

أكبر مسألة متسلطة على الفؤاد الإنساني هي مسألة العقيدة بوجود الخالق . مسألة تتولى الانسان من أول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده أوكأن فؤاده قطعة منها. فلا يزال يترقى في الشعور بها حتى ينتهي لأن يعجب من نفسه في عدم استقرارها من هذه المسألة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهي مسألة الخالق جل جلاله الذي ليس كمثله شيء .

قد كشف العلم العصري لذويه من أحوال الأمم البائدة أو العصرية الجاهلة في درجات مداركها من هذه العقيدة ، ما يريك بالحس كيف يعبد الإنسان خياله وكيف يجسم وهمه . صورت كل أمة الخالق ، تقدست صفاته، على قدر عقولها وعلى حسب قوة خيالها، حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس في هذه العقيدة للزمنا أن نفرد لها مجلداً كبيراً ثم لا نستطيع حصرها بالضبط . أفلا يعذر العالم العصري أمام هذه الأفكار بل الأوهام المختلفة ، إن لفظها كلها إلى عالم

الخرافات والأضاليل،وحكم عليها حكمه الصارم الذي يرهبه اتباع الأديان الباطلة في كافة البلدان ؟ إذا كان العلم العصري قد كشف لذويه بالدلائل العيانية أن الإنسان قاصر عن إدراك ذات المادة ، وأنه جاهل جهلاً مطلقاً حتى فيما يدعي معرفته ، فكيف يشرئب إلى زعم تصوير الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى إلى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؟ لا جرم أن كل دين لا يقرر في أوليات أصوله عجز الإنسان عن إدراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده، كقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » ، لا يصلح لأن يكون ديناً للعالم العصري مطلقاً . بل لا يريح بال العالم العصري ويقطع هواجسه إلا دين ينص له ما نصه له العلم من أن كل تلك العقائد أوهام وظنون ، وأن الحق وراء ذلك ، كقوله تعالى : «إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » ، « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ، « وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

وكما أن العالم العصري يرى من العلم أن يقر بعجزه عن إدراك خالق الكون ، كذلك يرى من العلم أن يقر بقصوره عن إدراك كيفية خلق الكون وإن لم يكن ذلك الإدراك من المستحيلات عليه . وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود ما لا كان يحلم به، ويرى بعينيه أن مجال البحث بعيد الأكناف، ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب ، وتبرهن له المكتشفات كل حين بأنه كان جاهلاً وأنه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشيء من الفتح لا يضطرب في خياله ؟ .

من هنا يرى العالم العصري أن العلم متبع ناموس الارتقاء وهي حقيقة لا يمتري فيها إنسان ، فلا يحب أن يكون دينه الذي يدين الله به واقفاً بالعلم عند حد ، أو حاكماً عليه بحكم . بل يرى أن الدين أجل من أن يتبع العلم في دور من أدواره السابقة أو اللاحقة ، لأنها كلها ناقصة باعتراف الحس والمشاهدة . فكل دين من هذا القبيل لا يصلح أن يكون دين العالم العصري ، فهو لا يرضخ

إلا لدين يقول له : « ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » ، اشارة إلى أن ليس من وظيفة الدين إلا الحقائق الأولية لا المعلومات الناقصة الجزئية ، ويقول له : « قال فما بال القرون الأولى قال » أي موسى « علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » ، إشارة إلى أن ذلك ليس من وظيفة الأنبياء حتى يسألوا عنه ، بل هو مما يفتح الله به على بعض المشتغلين به .

تُري العلوم التاريخية للعالم العصري حال أهل الأديان كلها في اختلاف وشقاق واقفين مع مفاهيم الألفاظ متشاكسين في مضامين الكلمات ، منقسمين فرقاً وأحزاباً، يكفرون بعضهم بعضاً ويمزق بعضهم أحشاء بعض . يرون هذا شائعاً في أهل كل دين على حد سواء، غير مقصور على قوم دون قوم، فيرون أن ذلك كله ليس من الدين وإنما هو من الأهواء والنزعات ، فلا يرضى العالم العصري أن يدين لله إلا بدين يقول له : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء».

تُري الفلسفة الانتقادية التاريخية للعالم العصري أن كتباً قد كتبت لدى أهل كل دين على حد سواء ، وملئت بالمقالات الطويلة الذيول في الكلام على الخالق وصفاته وأحواله ، وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة ويستدعي الجادلات العنيفة في مواضيع يستوي الجميع في جهلها ، ولا يفضل بعضهم بعضاً في العجز عن إدراكها ، فيرى العالم العصري أن كل ذلك ليس من الدين في شيء ، وأن هؤلاء الناس إنما يتناقشون فيما وصلوا إليه من العلم، وانتهت مداركهم إليه من الفهم ، ولا إثم عليهم في شيء من الجدل ، لولا أنه جدل في الدين أقاموه باسمه وروجوه بسطوته ، فلا يرضى العالم العصري إلا دين يقول لأهله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

دين يقف صاحبه على الناموس الطبيعي في اختلاف المدارك وتباين القابليات لإدراك الحقائق ، كقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .

يرى العالم العصري من استقراء التاريخ أن حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحربية هائلة، حصلت على أثر ظهور رجال حفظ التاريخ أسماءهم للآن، ظهروا في أمم مختلفة، وأزمنة متعاقبة متحدين في الوجهة متوافقين في الغاية، يظهر أمرهم أولاً ضعيفاً هيناً ثم يقوى ويشتد، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بإزائهم ضعفاً وكل مقاومة استسلاماً، وهم في زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الأفئدة لا تستخفهم المموهات الأرضية واللذات الوهمية، أحرار لم تأسرهم فواتن الدنيا ولا سواحر الحياة، مسلمين وجوههم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم، داعون إلى سبيل الله لا يفترون ولا يملون ولا يضعفون ولا يجبنون، جسوم آدمية وأخلاق ملكية، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم، واتسع للكل صدرهم ووجههم، فقراء ولكن تستخذي الملوك أمامهم، حلماء ولكن ترتعد العتاة بحضرتهم. هؤلاء القادة العظماء الذين برهنت أفعالهم على صدق أقوالهم، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم، اتحدوا كلهم على القول بأنهم رسل الله إلى خلقه، وأمنته على أسرار وحيه، وأن بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة، ومدداً لا ينقطع، وأنهم جاءوا للأرواح بنورها وللعقول بريحانها، وللأفئدة بمطلوبها، وللصدور بشفائها. رأى العالم العصري هذه الحوادث الكبرى في التاريخ يتلو بعضها بعضاً كأنها سلسلة متجانسة الحلقات، فلم يسعه إلا الاعتراف لأولئك الرسل الفخام بوظيفتهم، وكيف لا يعترف لهم بها وقد ادعوها وأقاموا الدليل المحسوس على أنهم رجالها وأصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو أمر جلل، وعمل دونه كل عمل.

يرى العالم العصري نفسه مرغماً على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم، لأنهم قالوا نحن أنبياء وجاءوا لمن بين ظهرانيهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم، وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الأعلام الواضحة على صدق مدعاهم، قالوا من آمن بنا نجا، ومن أعرض عما جئنا به هلك، فكان ما قالوه رغماً عن تألب أعدائهم عليهم وتمالئهم على إحباط سعيهم، قال كل منهم إني جئت بشريعة ناسخة

لشريعة من كان قبلي أو مكملة لها ، وفعل كما قال وأيده الله رغماً عن كل معارضة ومنابذة .

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الإنساني للعالم العصري ، ويجليها له بالأسلوب النقدي التحليلي تجلية لا تدع للناظر شكاً بأن لهذه الطائفة الطاهرة شأناً في الوجود غير شأن الإنسان العادي ، وأن لا مشاحة في وجوب التسليم لهم بما يعزونه لأنفسهم من أنهم في عالم وسط بين العالمين الإنساني والملكوتي ، وأنهم يشرفون على ما في الحضرة الروحانية بخاصية وهبهم الله إياها بالفطرة ، فيرون من أمر الملأ الأعلى ما لا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات يقصر العلم أن يتوهمها توهماً فضلاً على أن يطلع على شيء منها .

يرى العالم العصري السليم الفطرة أن لا مناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل ما عزوه لأنفسهم من المكانات الروحانية والمقامات الملكوتية لأنهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا وأقاموا الدليل المحسوس .

نعم ، يرى العالم العصري أن يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم على بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستغرب ؟ كيف يسوغ لمن ينظر في تاريخ الإنسان هذا النظر المجرد عن الغرض المضل ، أن يؤمن بجميع الأنبياء ويكفر بواحد منهم أو باثنين مع أن مثل الكل واحد ، والناموس الذي ساروا عليه في وظيفتهم واحد ؟ .

إذا كان هذا التعصب في ذاته عجيباً ، فأعجب منه الهوى الذي يحمل بعض الناس على التكذيب بنبوة خاتمهم وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنه أقرب منهم إلينا عهداً وأفعاله وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة في الصدور والسطور ، تناقلتها الأمم عن الأمم من عهد مبعثه إلى اليوم ، وهي حاصلة على كل الشروط التي تسمح لأقسى أساليب الفلسفة الانتقادية أن تتناولها بحثاً وتنقيباً ، وقد بدأ أمره صلى الله عليه وسلم عجيباً غريباً ، كما بدأ أمر كل رسول ، ثم انتهى إلى أن أفرع وانتشر نوره شرقاً وغرباً ، وأحدث في الوجود تغييراً لم يحدثه أي

رسول آخر ممن يحفظ التاريخ أسماءهم ، فهل يليق بالعاقل أن يسلم برسالة كافة الرسل إلا خاتمهم وهو على ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ ألا يخجل المكذب برسالته من أن يتهم نواميس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الإنسانية بهذه التهمة الباطلة ؟ هل عهد الناس أن الحكمة الإلهية تؤيد المبطلين ، وتعلو برأسهم فوق الرؤوس أجمعين ؟ هل عهد الناس أن العدالة الإلهية تنصر المدعين للرسالة، وترفع من شأنهم حتى يسود دينهم على سائر الأديان ويبقى حجة قائمة للآن ؟

الله أكبر ! إذا تشكك الإنسان في رسالة محمد ﷺ فبأي رسالة بعدها يصدق وبأي رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول أيدته الحوادث وشهدت له الوقائع، وأقام الوجود له من دلائل الشهود ما لا يسع العقل إنكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأي حيلة يجحده الجاحد وبأي جسارة يكذب به المكابر ؟

هذه مسألة حلها العلم العصري ، ولئن كان في الشرق والغرب للآن رجال لا يزالون جامدين على موروثات آبائهم ، وواقفين من أمر الإنسان والإنسانية عموماً على ما وجدوا عليه أهل بلادهم، فقد قضى العلم بأن هذا تعصب لا يطول أمده ، وقد انقطع مدده ، وان العلم قد وصل بالعالم إلى نقطة عرفه بها أن العالم الإنساني عائلة واحدة يجمعها أصل واحد، وهي وإن كثر أفرادها حتى توزعت في أقطار شاسعة وأصقاع متنائية إلا أنها لا تزال يجمعها ناموس واحد .

هذه الأمم التي تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قروناً مستطيلة ، فظنت كل منها أنها قائمة بذاتها فكونت لنفسها أدياناً خاصة سينتهي أمرها كلها لأن تتصل ببعضها اتصالاً أخوياً بضرورة الأحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية. وقد ظهر أمر هذا الاتصال ولاحت بوادره ، فإن الآلات البخارية والأجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن أحوال أقصى بلاد الله في الساعة الواحدة ما لا كان يحلم آباؤنا أن يعرفوه في سنة، بل نحن الآن مرتبطون ببلاد لم تكن معروفة للعالم قبل خمسمائة سنة .

هذا الاتصال بين شعوب الأرض سينتهي أمره شيئاً فشيئاً لأن يمحو اختلافات الجنسية والقومية والوطنية الذي فرقت العالم الإنساني اليوم، وكانت سبباً لكل المنابذات التي حصلت بين جميع أفراده .

هذا الاتصال يستدعي أن تقوم جميع الامم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس أجمعون، ولا تكون سبباً لأن يتشاكس عليها المتعاملون. هذا ما لا مناص منه ، لأن حالة التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليداً طبيعياً حتى أنه لو لم يكن في العالم دين فيه هذه الخاصية لأسس العالم ديناً من هذا القبيل، فما بالك وهو موجود وقد شهد له الوجود ؟

قلنا أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة في ربط الأمم وإيصالها ببعضها ، وهل يمكن إنكار هذه الحقيقة أحد بعد ما يرى بعينيه أن التجارة وهي أخص مظاهر الأحوال الاقتصادية ، أصبحت أكبر أسباب التعارف بين الأمم شرقيها وغربيها متمدنها ومتوحشها ؟ وهل يتجاهل الناظر في الأحوال السياسية العصرية ما أحدثته من اختلاط الأمم ببعضها إن لم يكن طوعاً فكرها؟وهل يجحد إنسان حق العلم في مساعدة تيسير هذه الغاية البعيدة، وقد أصبح بمعلوماته الحقة في التاريخ والعمران والفلسفة أكبر صقال للأذهان العصرية يزيل عنها تلك الأغشية التعصبية التي ركمها على مدارك البشر أولئك القادة الذين تسلطوا على الشعوب آماداً طويلة، فصوروا لهم الحياة بغير صورتها، ومثلوا لهم الجمعية البشرية تمثيلاً ساقهم إليه الحقد وحب الأثرة والتفريق .

نعم،جاء العلم فأرى الناس عموماً معنى قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فبات محبو الخير العام ينظرون ذلك اليوم الذي يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثية التي أقامها القادة في الأجيال الماضية بين الأمم وأخواتها . في ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس أجمعون معنى(الإسلام) ومعنى(خاتم النبيين)،ويظهر من أمر هذا الدين الإلهي ما يشاء الله أن يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين،ولله في خلقه شؤون.

قلنا أن الأمم كلها مسوقة بعوامل الأمور الاقتصادية والسياسية والعلمية إلى الوحدة سوقاً قسرياً لا يمكن إيقافه، وقلنا أن هذه الحالة تولد فيها الشعور بوحدة العقيدة توليداً طبيعياً كما تشاهد بوادره الآن، وقلنا أن ذلك الدين العام لو لم يكن موجوداً لأوجده الشعور العام بحكم الضرورة، ثم قلنا أن ذلك الدين موجود وهو الدين الإسلامي، فما برهاننا على ذلك ؟

نحن لأجل البرهنة على أن الإسلام جاء لتوحيد الأديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والغشاوات الخرافية، لا نتكلف أن نسلك مسالك الجدل، ونعمد إلى أساليب الفلسفة، لأننا نرى أن مجرد تذكر وظيفة النبي ﷺ، كما وصف به نفسه ودعا الناس إليه، يكفينا مؤونة كل جدل، ويرينا رأي العين أن ديننا هو ذلك الدين الذي يساق البشر إليه سوقاً طبيعياً، وسينتهي أمرهم إليه لا محالة «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد».

جاء النبي ﷺ داعياً الثقلين إلى دين الله الأقوم وناموسه الأعظم، وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الإلهية عند الحد الذي حدها اللهَ به في المعنى الإنساني، فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الإنسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص، فهي مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق في شيء، لأنها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها إلى النقطة الجامعة، ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم. أليس افتراق العالم إلى مئات من المذاهب في صور هذه العقيدة يدل على أن الجميع إنما يغترفون مقالاتهم من عالم الخيال والظن ؟ أليس يكفي مجرد هذا الافتراق على اعتقاد أن الداعي إليه (وهو توق العقل لتصوير الخالق وتكييفه في الذهن) ليس من الدين العام في شيء ؟ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم في العقائد عامل أكبر منه .

لو وقف الإنسان من العقيدة بالخالق في الحد الذي يشعر به في معناه الإنساني،

وهو اعتقاده أن لهذا الكون خالقاً عظيماً قوياً حكيماً عليماً،ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك، لما رأيت فرقاً بين الأبيض والأسود من الناس في شيء، بل لرأيت عقيدة أعلم العلماء لا تفرق عن عقيدة أجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقاً.

جاء النبي ﷺ يدعو إلى هذه العقيدة الفطرية ، ويطالب العقول بأن تتخلص من الغواشي الوهمية التي غشاها بها قادة الأديان، وهي الأساس الأول لتوحيد دين النوع الإنساني، لأن النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التي اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا أنها وحي من الله إليهم ، استحال الناس إلى تلك العقيدة الأولية الفطرية التي هي واحدة عند جميع أفراد النوع الإنساني . ومتى استحالوا إلى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الأخرى ،واعتدلت جميع إفراطاتهم وتفريطاتهم من ذاتها، كأن التوحيد حصن الروح، وموئل العواطف، ومطمأن العقل متى وصل إليه الإنسان تأدت قواه ومواهبه إلى جانب الأمان الإلهي، والسلام الصمداني.

ألم ترَ أن العرب لم يكن بينهم وهم في الجاهلية الجهلاء والفتن الصماء ، وبين ما آلوا إليه بعد إسلامهم من المكانات العلى والمقامات الكريمة ، إلا أن يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الأسلوب القرآني والتعليم المحمدي ؟ لا غرابة إن رأينا هذا الانتقال الفجائي الباهر من جاهلية جهلاء إلى ملكية علياء ، فقلنا لا بد من أن يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية في إحداثه ، ولا عجب بعد ذلك إن بذلنا الجهد في التحسس من هـذا السر الكبير والاكسير الشافي ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

نعم إن عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الإنسانية روحاً من الأدب لا يقدر على الإتيان بمثلها غيرها مما يتخيله البشر ، ذلك لأن هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيراً مناسباً لها من الجهة الخاصة بها،فتقيمها على صراطها العدل إقامة تحير شيوخ الفلسفة وتعجز أساة الأخلاق ، وأن تصغ إلي أحدثك بطرفة من هذا الباب تهديك لشيء من عجائب هذا السر .

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التي تولدت بالفطرة في نفس الإنسان ، فإن شئت فقل أنها لازم من لوازم معناه ، وإن شئت فقل أنها شعور روحاني حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هي أعطف شيء عليه في مصائبه ، وأحنى آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجىء إليها في معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحاً قرير العين ، لتيقنه أن يداً تنتظره لتحمله إلى عالم أرقى من هذا العالم وقدرة تحتف به تحفظه من عاديات الفناء وجائحات العدم . تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص جهة من جهات حياة الإنسان، وتدبر بإمعان في شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء في أسلاكها والأشعة على ذرات أثيرها ، ثم دع هذا العالم الباطني واستجلِ هيكل الإنسان الظاهري ترَ قوى النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة أيضاً ، فما مناظر هذا الجمال التكويني وبدائع هذا العالم الحسي مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها إلا مثيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور بها . تأمل هذا بإمعان ثم تيقن أن كل تغير يحصل في العقيدة بالله مهما كان صغيراً ، يقع من هذه المشاعر البـاطنة والظاهرة موقعاً يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائمه ، فإن كان هذا التغير في الجهة التي تقويها قويت كل قوى نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وإن كان في الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفاً مناسباً . ونحن لا نعني هنا بالقوة والضعف ما يعطيهما اللفظان على إطلاقهما ، وإنما هما قوة وضعف معنويان يدريهما كل من يشعر بقوى ذاته .

علمنا مما مرَّ أن العقيدة بالخالق جل شأنه مستولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً ، بحيث أنها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلائمها، وعلمنا تبعاً لهذا أن كل تغير وتحور يحصل في تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيراً خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد .

ونحن هنا قبل أن ندرس الأدب الإلهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه

لنفس الإنسان وجميع قواها، يحسن بنا أن نورد هنا صورة موجزة من الآثار التي تحدثها عقيدةوجود الخالقعلى عواطف الإنسان لنعرف بالحس كنه تسلطها عليها جميعها ، ترشيحاً لإدراك كنه ذلك الأدب الإلهي الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها ، فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع أقامه علىهذا السمت المدهش، فتهتز في العقل عاطفة تعطفه لأن يتعقله ويدركه ، فيستعين بالفكر في إيتائه تلك الأنشودة ، فيجول صاحبنا الفكر في فيافي التصورات ميعتضد بالخيال في شطحاته،فيلبيه الخيال بنشاط بعد أن يعد كافة جنوده المعنوية،فتثور في داخلية الإنسان ثورة تتيقظ لها سائر عواطف النفس وقواها ، لأن الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فتهب الحواس الخارجة أيضاً من سباتها ، فتنظر العين إلى أبعد مدى تصل إليه ، فإذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لجياد التصور والفكر ، فإذا عجزا دعوا الخيال لينفذ إلى حيث لم يصلا إليه ، وهكذا حتى يصل الإنسان لتصوير خالقه بأكمل صورة يشعرها، ويهبه من الصفات أكمل ما يدرك أنه كمال ، فإذا ارتقى عقله درجة أدرك أنه وصف إلهه وصوره بما لا يحسن فيصلح من خطأه، ثم يرتقي عن ذلك أيضاً فيرجع للتغيير والتحوير.وهذا ما تريناهفلسفة التاريخ في جميعأطوار النوع الإنساني.وليس هذا موضوع بحثنا، فإنا إنما نريدأن نصور لقارئناصورةموجزة منصور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق ، توطئة لإدراك كنه ذلك الأدب الإلهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والعواطف .

★

اعتذار وعـــدة (١)

طرأعلينا في هذين الشهرين ماحال بيننا وبين طبع الملازم الشهرية « للإسلام في عصر العلم » . فنعتذر إلى حضرات قرائنا عن هذا التأخير ، ونرجو الله أن يقدرنا على تنظيم مواعيده بعد الآن ، لا سيا وقد أعددنا له مطبعة خاصة أمام نظرنا ، وأصبح بذلك تحت رقابتنا وملاحظتنا ، وإنا في هذا المقام نقدم جزيل الشكر والامتنان لحضرات القراء الغيورين الذين ساءهم هذا التأخير فكتبوا لنا يستنبئونا عن السبب ، فجزاهم الله خيراً ، وإنا نعدهم تلقاء هذه الأريحية ببذل غاية الجهد في تكميل موضوعنا وتحسينه ، وسيرون بعد اليوم إن شاء الله مـا يسرهم حساً ومعنى .

(١) لم نحذف هـذا الاعتذار الذي أورده المؤلف ، حتى يدرك القـارىء كيف أتم المؤلف مواد هـذا الكتاب بجزئيه خـلال نيّف وعشرين شهراً متعاقبة ، والجهد الذي بذله فيـه في ظروف الطباعة التي كانت سائدة منذ أكثر من ثلاثين عامـاً ، فقد كان المؤلف يتابع نشر أبواب وفصول كتابه على مراحل وفي صورة مقالات وردود على أسئلة القراء في الصحف ، أو محاضرات ، ثم يطبعها في ملازم متفرقـة متتالية ، يضطر في بعضها إلى العودة الى موضوع سبق له أن تحدث عنه . ثم أخيراً جمع كل ما طبع في الكتاب بجزءيه. وقدعدلنا من أماكن بعض أجزاء الموضوعات وألحقناها بعضها ببعض، تسهيلاً للقراءة واتماماً لفائدة هذا الكتاب القيّم (الناشر) .

الفصل السابع

التوحيد والتنزيه وأثرهما على المسلم

الأدب الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم :

لا ينكر علينا اليوم أحد أن العرب بعد أن كانوا من الجاهلية على حال من الخلل الاجتماعي والخلقي، لم يمكنهم من الصعود في مراقي العمران درجة واحدة، أصبحوا فجأة بواسطة الروح التي بعث الله بها رسوله محمداً ﷺ، أمة دانت لها الأمم طوعاً وكرهاً، وآلت إليها خلافة الله في الارض قروناً طويلة، كانت في خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة، والرقي الصوري والمعنوي بأخص معانيها .

إذا تقرر هذا، فلا مناص من التسليم بأن لهذا الرقي الفجائي سراً كبيراً أتاهم من تلك الروح الكاملة العالية التي تنزلت عليهم، وما تنزلت عليهم تلك الروح إلا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال . من هنا كان البحث في أسرار عقائد الإسلام، هو الطريق الصحيح المؤدي إلى إدراك تركيب ذلك الإكسير المحمدي الطاهر، ولما كان التوحيد والتنزيه هو أكبر ما جاء النبي ﷺ لتقريره للعالم الإنساني، فلا شك في أنه القانون الجامع لأسرار ذلك الإكسير

كله ، او انه العنصر الفعال فيه من بين سائر عناصره الأخرى التي هي بمثـابة المساعدات لفعله ، العاملات على أثره . وها نحن شارعون في بحث هذا الموضوع الجلل على الأسلوب التحليلي ، والله ولي المؤمنين .

التوحيد هو أن توحد الله في ذاته وصفاته وأفعاله ، ومعنى ذلك في اصطلاح المتكلمين كما جاء في كليات أبي البقاء : « إن للتوحيد ثلاث مراتب : مرتبـة (توحيد الذات) وهو مقام الإستهلاك والفنـاء في الله ، فلا موجود إلا الله . ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة متفرقة في قدرته الشاملة ، وكل علم مضمحلاً في علمه الكامل ،بل يرى كل كال لمعة من عكوس أنوار كاله . و (مرتبة توحيد الأفعال) وهو أن يتحقق بعلم اليقين أو بحق اليقين أن لا مؤثر في الوجود إلا الله . » .

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق ، وأن تتبرأ من كل ما يجيش بصدرك من الميل إلى تكييفه وتصويره ، وأن تسد نافذة الخيال في مجال التفكير فيه ، وأن تعتقد قلباً وقالبـاً بأنه الحي القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثله شيء » ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » ، « لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصـار » ، وأن كل سعي تبذله في تصوره بصورة ، وكل جهد تعمله في الوقوف له على ماهية أو كيفية أو كمية ، ضائع سدى وذاهب عبثاً ، وأن تجزم جزماً لا تردد فيه أن « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

لهاتين العقيدتين أثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفساني والتكميل الخلقي ، لا يدرك خطارته إلا من أشرقت عليه لمعة من نوره وحفت به نفحة من جلاله . فهما إكسيران إلهيان ، وروحان سماويتان ، تنزلان من النفس الإنسانية منزلة الشمس من سمائها ، فتطرد من دياجير الرعونات البشرية وتزيل من أدران المقتضيات السفلية ،ما لا تستقل بوصفه الأقلام ولا تتطلع لمداه الأفهام ، كما سترى له شيئاً من التفصيل .

قلت إن لهاتين العقيدتين أثراً على نفس المعتقد بهما ، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح، لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادعاها، فإن أصل معنى (اعتقد الشيء) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره ، وقد تسامح الناس في هذا المعنى حتى اطلقوه على الذين يتوهمون أنهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع، وما هم إلا قوم ورثوا عن آبائهم تينك العقيدتين بعد أن طال على آبائهم الأمد ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، فأخذوهما عنهم لفظاً مجرداً ، وحشروا أنفسهم بذلك في مصاف أهل التوحيد والتنزيه إسماً ، ثم تركوا أنفسهم عملاً وفعلاً لأهوائهم وأهواء آبائهم من قبلهم ، مما ينافي تينك العقيدتين ويجافيهما ، وسموا ذلك ديناً لهم جروا عليه أحقاباً وقروناً ، فجمدوا عليها جمود الإنسان على صفاتــــه الموروثة وعاداته المألوفة ؛ فإن نبههم إلى ذلك مستشكل قابلوه بحشو من التأويلات ، وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهـات حتى يفحموه أو يهجروه ، وليس هذا ببدع في أصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد ، وجهة ضعفهم التي يتسرب منها إليهم التشتيت والتبديد «وما ربك بظلام للعبيد » .

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد عليهما قلبه ، ووقف عليهما عقله ولبه ، فسرت أنوارهما في أعماق سرائره ، ونفذت سيالاتهما الحيية إلى طويات ضمائره ، وبات وهما أدخل في نفسه من نفسه ، وألصق بمعناه من سائر همه .

لا جرم أن المعتقد على هذه الصورة يحس في نفسه آداباً عظاماً ، ويأنس من ذاته سجايا فخاماً ، تنشأ فيه نشوءاً طبيعياً ، وتنبع من جوهره نبوعاً ذاتياً ، فلا يلبث أن يكون فاضلاً وهو لا يدري معنى الفاضل في عرف الحكمة الاخلاقية، ويصبح حكيماً وهو لا يدرك تحديد الحكمة في الاصطلاحات الفلسفية ؛ وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث أن يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء إلى المدنية الأدبية العلياء في أقل من ربع قرن، وهي مدة لو كانوا قلبوا فيها البيوت مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس ، لما كانوا يستطيعون أن يبطلوا ما كانوا مغرمين به من شرب الخمر ، وهو أقـل

مصائبهم خطراً، فما بالك بتلك القوة التي كرّهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثأر، وحب الانتقام والغارات والانقسامات، والتفاخر بالآباء وعدم المساواة، وهضم حقوق النساء ودفن البنات أحياء الخ..من المصائب الاجتماعية والبلايا الأخلاقية ، ثم إن أضفت لهذا ما تلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله في الأرض قياماً أدهش الحكماء وحير العرفاء وأرغم معاطس العتاة وطأطأ جباه المتألهين الجفاة ، وهم شرذمة معدودة وآحاد محدودة ، لعلمت أن هذه قوة القوى،وأن الباعث لها من العقائد لا بد من أن يكون ناموسها الأكبر وملاكها الأعظم .

أنا هنا لا أريد أن أسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما يشاكل مخلوقاته ، وعلوه على كل ما يخطر ببال أحد من عباده ، فإن الكون بجملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لا تحتاج لإجالة نظر ، وإعمال فكر ، إنما الذي أريده هو أن أشرح ذلك الأدب الإلهي الذي تفيضه تانك العقيدتان على المعنى الإنساني، فتقلبه إنساناً سوياً على مقتضى القالب الفطري والنموذج الإلهي بدون علاج من كتب الأخلاق ، ولا رياضة من قانون الفلسفة . ولو كنت واثقاً من صحة وجود إكسير الكيمياء الذي يقال أنه يقلب المعادن ذهباً، لقلت أن هاتين العقيدتين تشابهانه من حيث استيلائها على جوهر الإنسان ونفي التلونات العارضة عنه ، وسبكه سبكاً جديداً على مقتضى قانون ليس في قدرة العقل الحوم حول تفاصيله .

من وحّد الله فقد اعتقد أن « لا إله إلا الله » ، ومن اعتقد ذلك رسخت في ضميره عقائد تتبعها ، وانجلت عنه أوهام لا تتفق معها . أما ما يرسخ في ضميره من العقائد التي تتبعها، فتيقنه بأن لا معبود إلا الله، ولا محيي إلا الله ، ولا مميت إلا الله ، ولا رازق إلا الله ، ولا حارم إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأن لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينالوا أحداً بخير فلن يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله وتقدير الله ، وإن أجمعوا على أن

يصيبوه بشر فلن يطيقوه إلا بقضاء الله وحكم الله ، وأن كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من أفعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر إليهم ، فهي نسبة مجازية وأمور اصطلاحية . أما هم في الحقيقة فآلات منفعلة وحوادث متصرفة ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا كسباً ، ولا يستطيعون لغيرهم شراً ولا ضراً ، مملوكون لقدرة لا تحد بحد ، ولا تقاس بِعَدّ ، فما مثل الملوك في أبهتها وتعاظمها ، والقادة في تكبرها وتغشمرها أمام هذه القدرة المحيطة بالأكوان ، التي لا تحدها الأذهان إلا كمثل الضعفاء في مسكنتها ، والبسطاء في خمالتها وعجزها .

لو عقد الإنسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وأبعد عنه شياطين التأويلات وأبالسة التحريفات ، تنزلت على فؤاده من عالم الكمال الإلهي صفات عالية وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التي آل إليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء كما يستدعي الملزوم لازمه ، وكما يطلب الموصوف صفته ، وأول ما يهب عليه من عالم النفحات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية ، تتنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاد أن لا معبود ولا نافع ولا ضار ولا رازق إلا الله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيحس أنه والكل سواء ، فما الملوك في قصورها ، والكبراء في ثروتها ورياشها إلا مثله مربون مملوكون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذي يخيفه منهم ، ويدعوه للتحكك بهم ، لثقته أنهم آلات منفعلة لقوة الله وتأثيره ، وأشباح تروح وتجيء بأمر الله وتسخيره ، فيرى أنه حر ، ليس لأحد عليه سلطان في أي أمر كان ، وأنه والعالمين في مستوى واحد من حق الوجود ، ليس لأحد عليه ميزة في الحقوق الإنسانية ، وأن القانون الذي يجب أن يشمله هو وجميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحاباة ، ويتحقق أن ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين هو نتيجة تسامح الناس في حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تريهم أن قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقاً سوقاً اضطرارياً لأن لا يسلم بتحكم روح على روحه ، ولا بعدوان أحد على حقوقه ،

فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخيره في أهوائه ، وتصريفه في شهواته . هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بني نوعه، سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، الملتصقين بالوظائف الدينية ، أو من الذين يريدون اغتصاب السلطة الدنيوية وصرف الأمة إلى أحكامهم الاستبدادية ؛ فهو من هذه الجهة من ألد أعداء المتألهين وأشد أضداد المستبدين ، من أي قبيل كانوا وبأي صبغة ظهروا ، فلا يذله ما يبذله الملوك من كواذب الألقاب وجواذب الوسامات ، ولا يأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فواتن الأوهـام ، وخوادع الأحلام ، لما يرى فيها من العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله.

تخيل أمة يكثر بين آحادها الموحدون الصادقون ، ثم انظر كيف تعدم فيها تانك السلطتان الضارتان : سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطتان اللتان نخرتا عظم الإنسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها إلى زعم أن لا وجود لها مع وجود رؤسائها ، وأن حياتها فانية في حياتهم .

نعم ، تنعدم هاتان السلطتان وينعدم معهما ما يتبعهما من نقص في نظامات الحكومة ، وجور في قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية مدعية حق الهيمنة على أرواحها وعقائدها ، مما دعـا ويدعو إلى أمور تستفز العواطف الساكنة وتوقظ الفتن النائمة ، وتجر إلى كراهية السلطة ومجافاة التدين بالكلية هرباً من أولئك المغتصبين... وحالة العالم كله شاهد بما نقول .

هذا وحده أثر عاطفة الاستقلال التي يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به من أثر . أما ما ينشأ عن التوحيد من عواطف أخرى فمما لا يستقل باستيفائه كتاب، كعاطفة الشمم وكبر الفؤاد التي تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بأن لا رزاق ولا حارم إلا الله ، فتراه أبيّ الفؤاد عزوف النفس ، لا يداهن الملوك والأمراء ، ولا يتقرب إلى الأغنياء ، لتيقنه أن الذي أعطاهم قادر على أن يعطيه أضعاف ما عندهم ، إن أراده لذلك ووفقه له . فإن همّ به خاطر

رغبة إلى الصعود لتلك المراكز الدنيوية ، وجّه وجهه شطر من بيده الإعطاء والمنع ، راغباً إليه أن يهبه من القوة والأهلية ، وأن يوقظ في ذاته من عوامل النجح في مراميه القصية ما يذلل به صعاب الحوائل، ويسني له منال الوسائل ، فإن نال مناه وبلغ مداه ، زاد بالحق يقيناً ، وفي مذهبه تمكيناً ، وإن أخفق سعيه وأكدى جهده ، اتهم الوسائل التي استعملها ، واستقل القوى التي بذلها، فزاد في وسائله تكميلاً ، وأمد قواه تنشيطاً ، حتى يبلغ ما قدر له وهو عالي الهمة كبير الفؤاد ، لم يلق به الجهل إلى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع إلى مزالق الخسة .

★

حالة الأمم التي يكثر فيها الموحدون :

تخيل أمة يكثر فيها أمثال هؤلاء الافراد من الموحدين ترها أفخم مظهراً ، وأكرم مخبراً من أية أمة عصرية ممن وقرت في نفوس آحادها عاطفة الاعتماد على النفس ، والثقة بالذات ، كالإنجليز والألمان والأمريكان مثلاً ، فإن هذه الأمم استمدت هاته العاطفة من النظر في نواميس الحياة نظراً مقصوراً عليها ، أما أولئك الأفراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب الكمال الإلهي الأقدس ، فلا جرم إن التاثت هذه العاطفة لدى الأمم العصرية بشيء من النقص والجور والشره والمزاحمات الجنونية القاتلة لكثير من العواطف القلبية ، ولا غرو إن نشأ تحت سمائهم الفوضويون والعدميون وغيرهم . أما الأولون فتراهم مع تمتعهم بتلك العاطفة ، عاطفة الشمم وكبر الفؤاد ، متراحمين متعاطفين ، جمعتهم الحياة برباط من حب خالص ، وود وثيق العرى ، لاتحاد وجهتهم في طلب الكمال الإلهى ، لا لقيام أمرهم على النفع الدنيوي . هؤلاء لا يتنزهون عن أمراض المجتمعات الحية ، فتصيبهم لفحات من التنافس على أعراض الحياة ، ولكنك مع ذلك لا تعدم فيهم تلك الأريحية للرحمة وذلك الميل للتصافي والحب ، فلا يضيع

بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف ، وإن ضاع فقيرهم أو هضم حق ضعيفهم ، فهما ضياع وهضم يعدان رحمة إذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الأمم التي فيها عاطفة الاعتماد على الذات ، ومرتكزة على قوانين الحياة الحيوانية .

هذا كله ، ولا تنسَ عاطفة الشجاعة والعزة التي هي من أخص صفات الموحدين ، وهي تنبع في افئدتهم من اعتقادهم أن لا ينفع ولا يضر إلا الله . نعم ، متى اعتقد الإنسان أن الإنس والجن لن يصلوا إليه بأذى لو حماه الله ، وأنهم لن يصيبوه بحسنة إلا إذا بعثهم الله ، سقط من عينيه كل صنم يقيمه الوهم في ذهنه ، فتراه لا يخشى إلا الله ولا يرجو إلا الله ، ومن كان كذلك كانت الشجاعة ألصق به من ظله ، فمتى رأى خطراً أمر الله بغشيانه واقتحامه دفاعاً عن دين أو قتالاً في سبيل الحق ، ألقى بنفسه غير هياب ولا ملتكىء ، وكيف لا يلقي بنفسه وهو لا يخاف إلا الله ، ولن يموت إلا إذا أماته الله ، وهذا موقف قد أمر به الله ، فما الذي يؤخره عنه غير جيشات الوهم ، وسطوات الجن ؟ .

هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التي تنشأ من عقيدة التوحيد نشوءاً طبيعياً ، ولا أحيلك في نظر ذلك بالحس إلا على أصحاب رسول الله ﷺ ، فهم وحدهم المثال الكامل الذي يليق أن يتخذ حجة محسوسة على ما نقول .

من هنا ترى أن عقيدة التوحيد تهب على الإنسانية بأدب إلهي يقيم الشخص على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بعثاً ذاتياً ، ويحليه من الصفات الصالحة لعمارية الأرض وحماية الجماعة بخلائق تعجز عنها التربية وتعيا دونها أساليب التقويم والتهذيب المعروفة .

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الإنسان لأرقى مظاهر الكمال الدنيوي فقط ، بل يؤديه لأسمى منصات الرقي الروحاني أيضاً ، لأن الروح الإنسانية لا يحجبها عن مشارفة عالمها الذي تنزلت منه ، ولا يمنعها عن المتاع بجمال مشاهده ومعاهده ، إلا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية ولوازم الحياة البهيمية . هذه الصفات واللوازم التي اكتسبها الإنسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع

والبخل والشح ، والخوف والجبن ، والحسد والحقد ، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية أكثر الناس ، والمستولية على مجموع هممهم، والمانعة لهم عن السكون إلى ذاتهم ، والطمأنينة إلى أرواحهم ، سببها نقص إيمانهم بالخالق الحق،فإن الهلع والجزع صفتان معناهما إظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة. قيل هما بمعنى ، وقيل إن الهلع أفحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين ، قال تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً،إلا المصلين.. الآية ».وكذلك البخل والشح، والحقد والحسد، والخوف والجبن، صفات خسيسة لا تحل إلا قلوباً جاهلة خلت من الإيمان الكامل، لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة والأمور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله إيماناً كاملاً ، ويرى أنه الفاعل الحق والمؤثر الفرد، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يجبن ، ولا يشح ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان في هذه الصفات وما يلازمها ، ومتى خلا فكر الإنسان من الرتوع في قذر هذه الصفات الخسيسة وتوابعها التي يقضي فيها ناقصو الإيمان أعمارهم الثمينة،جال بطبعه في عالم الحقائق، وسلك من باحاتها طرقاً سلكها قبله الأنبياء الصالحون ، فيمر في أثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لا صناعية ، فتزداد علاقته بالعالم الروحاني متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه إحكاماً ، فيرتقي فيه ارتقاء تدريجياً كما يرتقي جسمه في عالم المادة ، فتكون روحه في عالم القدس تمرح وتتمتع ، وجسمه في عالم الحس يكافح ويجاهد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكافة المرسلين والصديقين ، مع اختلاف في الرتب وتباين في الهمم ، كما لا يخفى على القارىء .

من هنا يرى قارئنا أن (لا إله إلا الله مفتاح السموات والأرض) كما جاء في الخبر النبوي ، هي مفتاح السموات لأنها تؤدي الشخص إلى الكمال الروحاني في أبدع مجاليه ومعانيه، وهي مفتاح الأرض لأنها أقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته إلى أرقى مظهر من مظاهر الحياة الارضية .

أما عقيدة التنزيه ، وهي اعتقاد أن الخالق أعلا من أن يحد بحد أو يصور بصورة ذهنية ، فأثرها على النفس من أكبر الآثار وأعجبها أيضاً ، وإليك شيئاً من التفصيل .

قلنا إن الإنسان مفطور على العقيدة بالخالق عز وجل لمساسها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية . وقلنا أن هذه المسألة مستولية على سائر مشاعره وإحساساته استيلاء غير محدود ، فعقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها ، مشغولة بها شغلاً يعرف بعض آثاره من أحوال الأمم قديمها وحديثها ، وأن مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الإنسان لخليقة بأن تقف في مهب فكره ، وتكون دائماً حيال خياله ، ولا عجب بعد ذلك إن شطح الإنسان بمدركاته فيها شطحاً استنفد فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال ، ولا غرو بعد ذلك ايضاً إن أصبح لكل أمة في صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها ، ولماذا لا تكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل ، فيصلح اللاحق غلط السابق ، وينقح الأبناء ما تسامح في اعتقاد الآباء ، وينتهي الحال بالناس إلى النظر لأصحاب الأديان نظرهم للمحرفين المؤولين، المتذبذبين المتلاعبين، ولهم الحق في هذا النظر .

جاء الإسلام ساداً هذين البابين الهائلين، باب الفكر في ذات الله وباب إعمال الخيال في إدراكه ، مقرراً أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . منــذراً بالهلاك والثبور كل من يتجرأ على التطفــل على الحوم حول هــذا الحمى المنيــع ، أو التطلع لاكتشاف هذا السر العزيز، لأنه ليس من اختصاص هذا العقل العادي الوصول إليه، والإشراف عليه . ألا ترى أن هذا العقل يهدم اليوم ما بناه أمس، ويزري في هذا القرن بمــا كان يكبره في القرن السالف ، فلو أطلقنا للعقــل حريته في الفكر في ذات الله وشؤونه العالية ، وسمحنا للخيال أن يأخذ حظه من هذه المجالات السامية ، أصبحت عقائد الدين كعقائد العلم عرضة في كل جيل للتحوير والتغيير ، وكفى بهذا مسقطاً لمهابتها من نفوس الآخذين بها ، ولو تركت

بلا تحوير ولا تغيير لكانت بنفسها أدل الأدلة على أنها أفكار بشرية ، وخيالات ذهنية ، صورها الجهل ، وزينتها الأهواء ، ولأصبحت بذلك في واد وعقول أتباعها في وادٍ آخر ، إذ يستحيل على الإنسان أن يعتقد ما لا يعقل ، أو يحترم ما يجزم أنه وهم باطل ، وخيال من الحقيقة عاطل ، كما هو حال أتباع أكثر أصحاب الأديان اليوم .

قلنا أن عقيدة وجود الخالق أمس ما يمس حياة الإنسان الشخصية ، فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلباً للطمأنينة على ذاته ، وغيرة على حياته ، لأنه لا يستطيع أن يدرك له وجوداً أبدياً ، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ، ولا ناموساً عادلاً سائداً على الكون والكائنات حفيظاً عليها ومراقباً لحركاتها وسكناتها،ولا قدرة شاملة وحكمة كاملة وضعت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير ، إلا باعتقاد وجود ذات أولية متمتعة بكل الكمال ومتصفه بأقصى ما يمكن من صفات الجلال . ثم قلنا أن هذه العقيدة لما كانت أمس العقائد بحياة الإنسان ، فهي أكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه . ثم قلنا ، وأن مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الإنسان لخليقة بأن تقف في مهب فكره وتكون دائماً في مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك إن شطح الإنسان فيها بمدركاته شطحاً استنفذ فيه وسع الخيال، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك ، جاء الإسلام فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة،وحال بين شهوات العقل وبينها حيلولة لا يصح إسلامه إلا بها، فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين أكبر شيء يؤثر على فكره وخياله ؟

نقول إن الذي يصبره على ذلك ويثبته فيه : هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوي الحقيقي الذي ينبع في فؤاده ، والنور الذي يشرق على سرائره فيملأه سعادة وغبطة . والإنسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . وإذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة والسعادة وكيفية نشوئها فإليك :

الإنسان : ما انساق إلى الفكر في ذات الله والطيران في أجواء الخيال في صفاته وشؤونه ، إلا لما يجده من اللذة المعنوية في ذاته من جراء التحسس على علم

ما لم يعلم ولو وهماً . وقد عودنا أنه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وتلهى به ، وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره .

كل منا يشعر بلذة العلم الذي يمس مصلحته من أي جهة كانت فتراه يرتاح لسماعه أو لاستنباطه ، ومتى حصل له منه شيء طار به فرحاً وترنح له عجباً وأودعه في صميم فؤاده ، لا سيما لو كان ذلك العلم ماساً بما يشعره من الحاجة الدينية ، وما يرمي إليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بعض الناس على هجر أهله وبلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفضيلاً لها على كل مألوف .

ما منا أحد إلا وقد شعر بهذه اللذة العلمية ، سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية، أو بمراميه الدينية ومطالبه الروحية ، وهو أمر معقول لدى الكافة لا يتردد في حصوله أحد ، لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم . ولكن ادعاءنا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صد قوى الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف ، أمر لا يسلم لنا إلا بدليل منير .

نقول إذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم ، فإن عقيدة التنزيه أكبر درجة يمكن أن يبلغها الفكر البشري من درجات العلم ، فلا عجب إن كانت لذتها أكبر لذة معروفة عند البشر . أما كونها أكبر درجة من درجات العلم البشري فلأنها تتعلق بصفات الخالق الأقدس من جهة كونها صفات غير محدودة، وكمالات غير محصورة . وإن أردت أن تعرف كيف أن التنزيه أكبر العلم فإليك :

قلنا أن التنزيه هو أن تنزه الخالق عن كل ما يشاكل خلقه ، وأن تعتقد أن كل ما خطر ببالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر والخيال عاملين دائبين وراء استكناه المجاهيل واستنباط المساتير، باعثين للعقل على مجاراتها في تجوالهما فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول ويحثانك على اعتقاده ، فإن كنت

غير مسلم فرحت بنتيجة كدهما واعتقدت ما أتياك به من العلم ، حتى ينبهك منبه على ضلالك ، أو يرتقي فكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك ما بنيناه أولاً ويقيمان لك عقيدة جديدة وهكذا ، أو يجمدان بك على عقيدة راسخة رسمية من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع أن تتعداها وهماً وإن كنت قد فقتها فعلاً . وأما إن كنت مسلماً منزهاً عاملاً بواجب التوحيد والتنزيه ، واقفاً بقواك العقلية مواقفها الحقة على حسب التعليم القرآني ، يحصل بينك وبين تلك القوى الإدراكية فيك ثورة داخلية يكون نتيجتها من العلم العالي ما يحييك ويسعدك . ولأجل تجلية عقيدة التنزيه كما هي في جلالتها ، وتصوير ما يحدث في المعنى الإنساني من الأخذ والرد فيها حتى يطمئن الضمير على حقيقتها ، نصف لك هيئة المناظرة التي تحصل بين القوى النفسية في سر الانسان:

(العقل) : إنا نعتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى . ولكن ما هو وكيف صفته ؟

(الفكر) : لقد سألت ما يجب أن يسأل عنه ، وسأبذل لك أقصى قواي للإشراف بك على أحسن ما تتوق إليه . وسأعتضد بالخيال .

(الخيال) : لبيك وسعديك : إني معك حيثما تذهب ، فإن عجزت عن الطيران بمقتضى طبعك طرت وحدي وصدقتك فيما أحدث .

(عقيدة التنزيه) : كفوا عن هذا الجدل . فأنتم ومن في الأرض والسموات جميعاً أقل من أن تصلوا إلى الله من هذا الطريق ، طريق المشاعر الحسية والعوامل الجسدية ، فإن سلطانكم مقصور على عالم الشهادة وأشيائه ، وليس الله تعالى بما يشابهه أو يشاكله حتى تقدروا على الوصول إليه من هذا المسلك .

(العقل) : وما هو إذن وكيف الوصول إليه ؟

(عقيدة التنزيه) : هو أكبر من أن يحيط الوهم بسرادقات كماله وأعلا من أن يصعد التصور إلى معارج مجده وعلائه ، قدرة لا تحد بحد ، وحكمة لا تنتهي

لغاية ، ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهـــذا الفكر القاصر ، فلن تصل لشيء منها لأن فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرئية المحدودة ، وأقيسته منتزعة من عالم الحس المتناهي ، فمهما صعدت فأنت في عالمك هذا لا تتعداه، والله تعالى أعلا من أن يقاس بالحدود والهيئات، أو يدرك بالمعلومات والآلات .

(العقل) : إذن فكيف يعتقد الإنسان ما يجهل ؟

(عقيدة التنزيه) : إني أقول لك أن حقيقة الله أكبر من أن يصل إليها العلم ، وأجل من أن يصورها الفكر ، وأعز من أن تحوم حولها المدارك .وصفاته أعظم من أن تحصر أو تحد ، أليس هذا أكبر درجة من درجات العلم ، وأقصى غاية من غايات قوة الإدراك ؟

(العقل) : العلم في عرفنا أن نعلم حدود الشيء وصفاته وعلاقاته بغيره ، أما هذا النوع الذي تذكره فلم نصطلح على تسميته علماً .

(عقيدة التنزيه) : إن ما اصطلحتم على تسميته علماً ، أليس قابلاً للتحوير والتبديل والزيادة والنقصان ، حتى فيما تدعونه علوماً تجريبية ؟

(العقل) : نعم ، وهذا من أخص صفات العلم .

(عقيدة التنزيه) : أفتريدون أن يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحوير والتبديل على حسب درجات العقل ورقي المدارك ؟

(العقل) : لا ! لا يليق ذلك ، فإن فيه حطاً من كرامتها .

(العقيدة): إذن فليس لنا إلا أمران: إما تناولها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة ، وتعريضها للتحوير والتبديل على نحو ما عليه عقائد الأمم المبطلة ، وإما وقوف العقل عند حده والإقرار بعجزه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه ولم يؤتَ وسيلة الصعود إليه .

(العقل) : إذن كيف يثلج الصدر بالعقيدة وتطمئن الخواطر لها ؟

(العقيدة) : الاعتقاد على النحو الذي أرسمه له لا يكاد يخالفك فيه أكبر ملحد ، فضلاً عن أنه أحسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لأنه مستند على الحس .

(العقل) : كيف ذلك ؟

(العقيدة) : ألا تشعر بضرورة وجود قدرة أبدعت هذا العالم المدهش ، وتلك القدرة كبيرة للدرجة القصوى ؟

(العقل) : هذا أمر بديهي لا يحتاج لجدال .

(العقيدة) : ألا ترى أن هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها مواصلة الإمداد والتربية لها ؟

(العقل) : كيف ينكر الحس عاقل ؟ ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس طبيعية .

(العقيدة) : إذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لها نواميس طبيعية ، فلماذا تهتم أنت أيضاً بتقليدهم في تصورها على صورة ما ، والحكم على صفاتهـا بحكم يناسب حالك ؟ إذا كان الملحدة قد جاروا بتحديدهم تلك القوة فلماذا تريد أن تجور أنت أيضاً من جهة أخرى ؟ ألا ترى أنك لو اكتفيت بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لا تحد أبدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة والعدل، وأقلعت عن تحديدها وتصورها على قدر وسائلك القاصرة ، وكان اكتفى الملحد من جهة أخرى بشعوره الذي لا يمكنه أن يخالفك فيه مطلقاً لأنه شعار هذه الإنسانية أمام هذا الوجود المعجز ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يدعي مطلقاً وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية ؛ قلت لو كنت اكتفيت أنت بمـا تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة ، واكتفى هو أيضاً ولم يسمها نواميس ، أمـا كان ذلك داعياً لاتحادكما في العقيدة وتآخيكما عليها ؟ ولكنك لم ترضَ بالوقوف مع الشعور الفطري فقمت تصور وتحكم ، ولم يقف هو أيضاً في مركزه بل

أخذ يجمل ويفصل حتى سماها نواميس طبيعية . فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفتما عند حدكما ولزمتما مقامكما. أما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهي من لوازم التنزيه وصفاته . فإن شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم، وأنها كما تولتك وأنت نطفة وربتك تلك التربية الجنينية ثم هدت أمك لتربيتك وساقتها للعناية بك حتى كبرت وترعرعت ، هي نفسها التي تتولاك الآن ، وتبعثك بالدوافع التي وضعتها فيك إلى كال أنت مستأهل له وإن لم تنته بعد إليه ولم تشرف عليه . شعورك بأنــك مقود بتلك القدرة التي لا تحد ولا توصف والتي لا يستطيع أن ينكرها أحد ، يجعلك هادىء الضمير ثلج الصدر خالياً من جيشيات الشُبه وسطوات الشكوك. وهل الشُبه والشكوك تطرأ إلا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ؟ ولكن هذه العقيدة التي لا أسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص، وأريد منك أن تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

ألا ترى معي بعد هذا أن التنزيه أرقى درجة من درجات العلم وأنه أوجب لأن يطمئن إليه الخاطر وينشرح له الصدر، وأدعى لأن تجتمع الأمم كلها عليه وتتآخى فيه تآخياً خالصاً لتساوي الكل في الشعور بموضوعه شعوراً فطرياً ؟ وأنه أعدل طريق يسلكه الإنسان أمام حاجته للعقيدة وارتياحه لها ؟

أما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تفاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به، فلأن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في أكبر موضوع يؤثر عليهما، وإيقافهما عند حدهما دون الخوض في مسائله ، يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الإنسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية. فإنه بردع تينك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الإنسان ومسارب مداركه ، كما أثبتنا ذلك قبل قليل ، تنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلصق بالدين زوراً مادة البقاء ، فتنجلي عن النفس بحكم الضرورة ، وهذه

الشياطين كما لا يخفاك قوى تسويلية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لهـا ، كما ينجذب الميكروب إلى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى يخرج ذلك الشيء عن أصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامة المخرفة تنجذب إليها تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو أفتك بالحياة منها، ولا تزال بضمير الإنسان حتى تحلل فضائله أو تمسخها ، وتصرفه في شؤونها وأهوائها إلى أن ينتهي وجوده على حال من الاحوال . ولكن حلول التنزيه في الفؤاد من جهة العقيدة ، وهي الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس وأميالها ، يقف بالنفس موقف الطهر ، ويحميهـا من فواتك الصفات الخسيسة وخوانس القوى الشريرة ، فتدع الإنسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي أولى القوى بحق قيادته وأهدى الأدلة لإرشاده وهدايته .

عقيدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية ،وتعمرها من أرواح السكينة والحياة الصحيحة ما لا يفعله العلم الطبيعي الذي يزعم اليوم أنه يحل محل الدين في قيادة الإنسان، وتخليصه من أسر الخرافات الاعتقادية التي حملها لنفسه ومسخ بها فطرته . يقول علماء الطبيعة والإنسان أن الخالق تقدست صفاته وهب الإنسان مواهب جليلة ومنحه مزايا نبيلة ، وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة للترقي والتهذب ، ووضعه في وجود مناسب له من كل وجـــه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة ، ولكن الأديان وكهانها قـد كانت ولم تزل عقبة كؤوداً في سبيل رقيه بما تفتحه له من مجال الخيال والأوهام وما تلطخ به فطرته من الضلال والأحلام ، وما تصرفه فيه من الأعمال التي تفسد كيانه وتمسخ طبيعته ، فتجعله مملوكاً للأهواء مستعبداً للأساطير ، فجاء العلم الطبيعي بعد أن فاز على رؤساء الأديان ونجا من مخالبهم، لتخليص هذا الإنسان الضعيف من أيدي مستعبديه ومضليه ، بخلع كل تلك الكسف المتراكمة على فؤاده ولبه من عقائد باطلة وأوهام عاطلة ، وتجريد فطرته عما يقف بها في أوحال النقص، ويغمسها في أقذاء الرجس ، فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها ، ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذي يعطى له رقياً ورفعة .

هذا مـا يزعمه العلم الطبيعي العصري ويرجوه ويعمل عليه ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة تخليص الإنسان من أسر الأهواء حقيقة ، ولكنه جار فعراه من عاطفة الدين أيضاً ، فضج العالم منه ضجة لم يزل دويها يخترق الآفاق للآن ، يسمعها أصحاء الآذان والأفئدة وإن أنكرها الصم المفتونون . قـال فيرنس جيافرت في كتابه (الغمة الحاضرة) : « إن العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ، ووعدها بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسي جديد ، فلم يفِ بوعده لها . ولما آب للإنسانية رشدها ، وقد فقدت شعرياتهـا السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلاً . وفي الواقع، ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الإلحاد المتجدد المؤلم الذي يجرنا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة ؟ .

« إنهم ينصحون كل إنسان بأن يكوّن لنفسه دينه الخاص ، ولم يفطنوا إلى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوي على تناقض بيّن ، حيث أن المذهب الحسي لم يترك للإنسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضة .

«إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد ، وإن جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ ، وهذا الإلحاد الآخذ في النمو يسوق جماعاتنا بعاطفة المساواة إلى حالة ثوروية دائمة . واصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل أن يتشبح في بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين ، فكل ديموقراطي يتمنى أن يبلغ الرتب العلية . وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة ، وازدرى بذلك الدستور السياسي الذي يراه يتغير بسرعه جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية ، وصار يعتبر أن مـا له من حق المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن.

ولقد رجونا أن نداوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية التي ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان . كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمى . ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأي قانون أخلاقي يكفي لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة . لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شيء غير مدرك . لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ، فترى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات. وترى العقول المستنيرة بالعلم المحرومة من الدين تعذرهم في ارتكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد .

« إن تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر اختماراً بأشد مما كانت في أي زمن من الأزمان . فإن جرائم الفوضويين ، وإفلاس الماليين ، وانتحار الأسر بأجمعها ، والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس ، والجنون الذي لا ينتظر إلا سنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقي الشديد الوطأة البعيد القرار الذي عم أجناسنا ، ناشيء من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لإحداث الوحدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكد آخذة في الاسوداد كل يوم ، ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الإنسان في غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانشراح ، حتى صرنا وكل يوم لنا من طلب جديد ، وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعي لنفسه حقوقاً ليس لها حد تنتهي إليه ، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أي زمن من الأزمان ».

وقال العلامة كاميل فلامريون - ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين — :
« لا يجوز لنـــا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به ، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتيـة . أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلامبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ، والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟.
وأن من التناقص البيّن المؤلم أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمـت للإنسان في الطبيعة ، بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات . ومن الحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يومـاً بعد يوم ، تنطفىء حرارة قلوبنا ، وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامـع المادية والشهوات الجسدية » ا. هـ.

إذا علمت هذا ، رأيت أن الصراط الإلهي الأعدل والمخرج من كل هذه الفتن المزعجة المجتاحة هو الإسلام ، فإنه المنهاج الوسط بين إفراط الأديان المحرفة وتفريط العلم الطبيعي . أفرطت الأولى في أسر الإنسان ، وأطلق كهانها لأنفسهم عنان الحرية في أسر العالم وتسخيره بإرادتهم ، فثارت الإنسانية في وجوههم وقارعتهم بالحديد والنار حتى خلص العالم منهم ، فجاء العلم ولكنه في طرف التفريط ، فأزال عن النفوس أعز مطلوباتها وسعى في إقناعها بإمكان قيامها على الصراط الحيواني مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكراً لها الروح والخلود والثواب والعقاب وعالم ما وراء المادة ، فاستراحت إليه هنيـة واستنامت له برهـــة ، ثم أحست بما أفزعها وأزعجها فقامت تنشد مطلوباً عزيزاً وتطلب مفقوداً غالياً . وما هو ؟ هو الإسلام ... لأنه حاصل على أرقى ما تتوق إليه النفس من مطالب روحية وكمالات نورانية وعواطف قلبية ، وحالٍ بأقصى ما يتمناه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس موقف الطهر عن اعتقاد الأوهام واقتفاء أثر الخزعبلات ، وتسليم قيـاد النفس للقادة المضلين والهداة الغاوين.. الخ.. مما يطلبه العلم ويجهد نفسه في تقريره. لأن

عقيدة التوحيد وهي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله ، وعقيدة التنزيه وهي ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه ، وما يقتضي ذلك من الأدب النفساني الباهر ، وما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دليل الخ... مما هو من قواعد هذا الدين القيِّم ؛ كل ذلك يجعل المسلم أشد حيطة لنفسه من أي عالم أو متعلم على الأسلوب الحديث . فإن المسلم يعتقد أنه مسؤول عن كل شيء ، وعن أقل زيغ في الدنيا والآخرة لا في الدنيا وحدها كما هي عقيدة طلاب العلم الطبيعي ، فهو بالضرورة أكثر احتفاظاً منه بنفسه . لا تقُل فلِمَ لا نرى المسلمين كما تصف؟.. فإني أقرر ماهية الإسلام من أنه الصراط الإلهي الأعدل الذي سيرث العلم والأديان معاً . أما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

إذا تقرر هذا فقد ظهر لك بأجلى الأدلة أن الإسلام الذي عنوانه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وحليتاه التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما ، هو الدين الحق الذي سيؤوب إليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون من أصحاب الأديان فإنهم يلاقون من أنفسهم ومن الوجود كل يوم حرباً عواناً ، وقد رأيت وترى أنهم يقلون في كل صقع ويضؤلون في كل جهة ، وليس هذا الاضمحلال عرضاً يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء أديانهم لمخالفتها للعقل وللطبع معاً . وأما المفرطون من أصحاب العلم الطبيعي فلا يمكنهم الثبات في وقفتهم مع الحس ، وقد أريناك أنهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة . إذن فلا بد من دين يتفق عليه الطرفان ، ويكون وسطاً بين الإفراط والتفريط ، وكتابه محفوظاً من التحريف والتخليط ، وتاريخه معروف مشهور . ولا دين فيه هذه الصفة الإلهية غير الإسلام ، الذي جاء يدعو الناس إليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، الذي قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَ لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد » .

* * *

الفصل الثامن

المحاضرات

لاحظنا أننا كثيراً ما نسأل في نوادينا الخاصة أسئلة كبيرة الخطر جليلة الفائدة ، فنجيب عنها شفهياً إجابات لا يحسن إغفالها عن قرائنا المحترمين ، لا سيا وقد تسبقها محاورة بديعة تجعل لتلك الإجابات من الوقع في النفس ما يثلج الصدر ويرضى بـه العقل . وقد كنت أود أن أجعل لتلك المحاضرات مكاناً من «الإسلام في عصر العلم »حرصاً على ما يجيء فيها من أفكار جديدة،ومدركات ثمينة ، أخشى عليها الضياع من الذاكرة مع طول الترك، واستحسنت أن أكتب كل محاضرة تحت عنوان خاص ، وأعقد لها مقالة أنقلها فيها من لسان المخاطبة إلى لهجة العلم ، إلا أني رأيت فيا بعد أن في ذلك من التعب ما لا يحتمل لاستلزام كتابتها إلى الزمان الطويل ، واستيعاب كل واحـدة منها جزءاً من أجزاء « الإسلام في عصر العلم » الشهرية، فضربت الصفح عن ذلك، وعولت على طريقة أحسن لنا ولقرائنا وأكفل للإتيان بما نرمي إليه وزيادة ، وذلك بإنشاء باب جديد في « الإسلام في عصر العلم » نجعل إسمه (المحاضرات) نودعه أكثر ما سئلنا عنه وما أجبنا به ، ونزيده ما يحتمله المقام مما لم نسأل عنه من الخواطر التي تخطر بالقلوب وتدب في الضمائر ، ويميل صاحبها لأن يجد لها حلاً ، أو يسمع عنها تفصيلاً شافياً .

لذلك رأينا أن نسلك لها مسلكاً منتظماً ، فنبدأه بالكلام على الإلهيات وما يتعلق بها من معارف وحقائق أو شكوك وشُبه ، ثم نتبعه بالنبوات وما يمسه من الكلام على الوحي وإمكانه ، والأنبياء وأحوالهم ، وخصوصاً حال خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ ، ثم يتلو ذلك الكلام على الروح والخلود والعقل والنفس والإدراك والعلم والمدنية ، وجميع ما يرتبط بالمسائل العمرانية الكبرى التي تشغل فؤاد العالم العلمي اليوم .

كل هذه المعارف ستأتي على أسلوب المحاورة بين اثنين، ولنا من ذلك غرضان: أولهما – أننا بهذا الأسلوب نتغلب على أشد النفوس استعصاء على المطالعة ، ونجبرها على استيعاب كل ما يكتب في هذا الباب ، لأن شكل المحاورة وما سنودعه فيها من الجواذب البيانية والكلامية يقهر الإنسان على المطالعة ، ويجعله يتمنى لو طال الموضوع إلى ما لا نهاية ، وكفانا ذلك نشراً لمبادئنا ، وإلفاتاً إلى نظرياتنا ، ودحضاً للشُبه المستعصية التي تلم بالقلوب وتنشب فيها . والغرض الثاني لنا من الشروع في هذه المحاضرات هو محاولة الوصول إلى سرائر النفوس ، والنفوذ إلى ضمائر القلوب للتنقيب فيها على ما أشربته من لفحات الشُبه الهائلة ، وما تأثرت به جيشات الشكوك الفادحة التي تستلزمها قشور العلوم العصرية ، وتسلك من النفوس مسالك الخفاء والبطون حتى يكون صاحبها بالعمل على أشد المذاهب إلحاداً وفتوناً ، وهو بقوله يظن أنه على الحنيفية السمحة . وربما ظن في نفسه أنه أحد الأبدال، وقطب من الأقطاب، هذه الشكوك والشُبه التي تدق حتى لا تدرك، وترق حتى لا تتوهم، لا يمكننا أن ننالها في صميم الأفئدة إلا بهذا الأسلوب التحليلي الذي عقد وسميناه بالمحاضرات ، فإننا به نتوصل إن شاء الله لمناجاة السرائر ، ومناغاة الضمائر ، ومكاشفة النفس بأدوائها بحيث لا نحرجها ولا نجرحها ، والله نسأل أن يوفقنا لتوفية هذا الموضوع حقه ، فإنه من أصعب ما تصدينا لكتابته ، وهو ولي المؤمنين .

★

نحن لأجل البدء في موضوعنا نتخيل أن فيلسوفاً عصرياً ممن تركزت في مداركهم صورة كاملة من صور العلم بجميع مسائله ومعاضله ، يقـــابل رجلاً مسلمـــاً وقف من أحوال العالم على كل ما يعني الإنسان صاحب الشعور الحي والفؤاد الصاحي ، ونتخيل أيضاً أنهما تعارفا وترافقا وتعاشرا أياماً وليالٍ ، وعرف كل منهما من أحوال صاحبه ما يعرفه الأخ من أخيه ، وسنشير إلى المسلم بحرف (م) وإلى الفيلسوف بحرف (ف) :

(م) — أظن أننا قد وصلنا من صلة المعرفة والمرافقة إلى حد يسمح لنـــا بتبادل النصيحة ، فما من أحد إلا وهو في حاجة إلى الإرشاد ممن هو فوقه أو مثله أو دونه ، وأراك قد عاشرتني وزاملتني وعرفت من أخلاقي وصفـــاتي وعاداتي ما لا يكاد يطلع عليه غيرك،ولا أشك في أنك رضيت من أموري أشياء وسخطت أشياء، كما سرتني أنا أيضاً منـــك أحوال دون أحوال ، فهل لك في مساجلتي البحث فيما يحيك بصدرينا مما لم يرضه أحدنا للآخر ، لنؤدي لأنفسنا واجباً إنسانياً جليلاً في هذا الدور ، دور الحياة الأرضية ، والفتنة الجثمانية .

(ف)ـ لقد كاشفتني بما كنت أحدث به نفسي، نعم قد لاحظت عليك أموراً لا يقر عليها عقلي ، ولكنك قد أثرت عليّ بلطفك وحسن مراعاتك لدرجة أحب معها أن تبدأني بما تلاحظه عليّ .

(م) — أشكرك على هذا الأدب ، ولولا أني أرى في امتثـــال الدعوة معنى لا يقل عن الأدب قدراً ، لنازعتك شيئاً من حقي في هذا الجمال الخلقي .

أول شيء ألاحظه عليك عدم ذكرك للخالق الذي فطرك وصورك، فأراك تقوم وتنام وتكد وتعمل ، وأنت لاهٍ عن حقوق العبودية ، ساهٍ عن أنشودتك الروحية ، كأنك ممن لا يرضخ لعقيدة ، ولا يدين لله بطريقة رشيدة ، وهو أمر لا يتفق مع ما أراه فيك من سمو الفطرة ، وسلامة الشعور ، وسعة المدارك .

(ف) — إني لأعجب من اتفاق الضميرين لهذا الحد . وأنا أول شيء أنتقده

غليك مع ما أراك عليه من غزارة المادة العلمية، والتبسط في المدركات الفلسفية ، والنفوذ لسرائر المذاهب العصرية ، أن تكون كما أنت مسبحاً مصلياً ، تقوم لا همّ لك إلا الركوع والسجود ، وتنام ذاكراً الملك المعبود ، وهكذا يتخلل كل حركاتك وسكناتك لهف وشغف يتغيران بتغير الأوقات والمشاهد ، فلمَ هذا الشغل الشاغل والكد المتواصل، وأي فائدة تعود على جسمك وعقلك منه؟

(م) — ألا تعتقد بوجود الصانع جل وعز ؟

(ف) — هب أني أعتقد وجوده ، فما فائدة تكرير ذكره ، وما فائدة الصلاة له ركوعاً وسجوداً ، هل هو في حاجة لذلك منك ، أو أن مدده ينقطع عمن لا يفعل مثل فعلك ؟

(م) — الآن تبيّن لي أنك لا تعتقد وجوده ، إذ لو اعتقدت وجوده لما آل بك الحال لقطع الصلة التي تربط المخلوقات به وهو خالقها وقيومها . وبما أن المقام مقام تناصح فأرجوك أن تصدقني . هل تعتقد بوجود الصانع أم لا ؟

(ف) — ماذا تعني بقولك الصانع ؟ . إن كنت تعني به ذاتاً متشخصة ، لها أنصار وأعوان من الملائكة على شكل الملوك الأرضيين، يأمر وينهي ويصرف الأمور ويدبرها على أسلوب السلاطين المطلقين والقادة الأعلين ، فتلك عقيدة لا تحتاج لدليل على أنها بقية من بقايا الأولين. وأما إن كنت تعني بالصانع مجموع النواميس الطبيعية التي يقوم عليها الكون البديع ، فذلك مما لا تجد من يخالفك فيه .

(م) — أما نحن معشر المسلمين فلا نعني بالصانع ما وصفته من شكل الملوك والقادة ، بل تلك أمور صرفنا ديننا عن تخيلها تخيلاً فضلاً عن اعتقادها اعتقاداً ، ولكني قبل أن أجلي لك ما عليه أهل ملتنا من هذه العقيدة الرئيسية أحب أن أسألك عما أردته بقولك نواميس الطبيعة التي جعلتها قيومة لهذا الكون البديع .

(ف) – وهل مثلك يجهل معنى نواميس الطبيعة ؟

(م) – أنا لا أجهل معناها العلمي ومغزاها من حيث تقريب المعلومات إلى الذهن ، فهي في نظري آلات تعبيرية ، ووسائل علمية ليس إلا . مثال ذلك : رأينا أن الأجسام الثقيلة متى تركت ونفسها في الفراغ سقطت إلى الأرض ، فقلنا لا شك في أن في الأرض قوة تجذب الأجسام إليها وتتجه بها نحو مركزها ، وسمينا تلك الظاهرة الطبيعية ناموساً طبيعياً . ورأينا أن الكواكب السماوية معلقة في الفضاء بدون سناد لا يختل لها نظام ولا يعتري وحدتها انفصام . فقلنا لا مناص من فرض أن هذه الأجرام مجذوبة إلى الشمس بقوة اصطلحنا على تسميتها بالجاذبة العامة ، وسمينا ذلك ناموساً طبيعياً أيضاً . من هنا يتضح لك أن ما نسميه نواميس هي قضايا ذهنية استنتجها العقل من نسبة بعض الكائنات إلى بعضها وعلاقة الأجزاء فيما بينها ، فهي صفات الموجودات وخواصها . ولوازم المركبات وأحوالها ، فهل يسلم العقل بأن تكون صفات الشيء سبب وجوده وقيوم بقائه ؟ ومن يدعي أن نواميس الطبيعة هي سبب إيجاد الكائنات وبقائها بعد ما اتضح لنا أنها صفات الأجسام وخواصها ، كان كمن رأى الإنسان وهو حي مدرك عاقل حكيم ، فادعى أن حياته وعقله وحكمته نواميس طبيعية وأنها هي التي صورته وأبدعته .

(ف) – هذا تمثيل لا ينطبق على الواقع .

(م) – أنا لا أرى فرقاً بين الأمرين . فإن من يستجلي الطبيعة وقواها ، ويستعرض كائناتها وممالكها ، ويشاهد علاقاتها ببعضها ويسمي تلك العلاقات نواميس طبيعية ، ثم يدعي أنها هي التي صنعت الكون بما فيه ، لا يفترق في نظري عمن يجعل صفات الإنسان سبب إيجاده ؛ على أن صفات الإنسان من حيث الإدراك والعلم والشعور والإرادة والاختيار ، أكمل بما لا يقدر من نواميس الطبيعة . إذ ليس بين تلك النواميس ما يسمى ناموس الشعور ولا ناموس الإدراك ، وهما كما لا يخفى أكمل صفة موجودة في الكائنات .

(ف) – إنكم معشر الاعتقاديين لا تفارقكم الحماسة كيفما كنتم وحيثما وجدتم ، وإنك لتكلمني ويخيل لي أنك تتهيأ لحرب دينية على مثال ما حدث في القرون الوسطى . وإني لا أزال أؤكد أني لفي غاية الاندهاش من رؤية سطوة العقيدة بفؤاد عالم متضلع مثلك . ولعل هذه أول مشاهدة لي من هذا القبيل ، وهي تؤكد لي ما سمعته من أن العلم الأوربي الذي جرف أمامه عقائد العالم الغربي أحدث في المسلمين حركة من الحماسة الدينية تشبه ما كان لآبائهم منها قبل عشرة قرون . ولعل هذه الحماسة هي التي جعلتك تنظر للقضايا العلمية بهذا النظر المزري المستخف، ولا غرو بعد ذلك إن رأيت العلم حقيراً ونتائجه أحقر منه ، وضربت بقضاياه عرض الحائط كما تفعل الآن .

(م) – حاش لله أن يحقر المسلم العلم الحق وهو قوام عقيدته وملاك يقينه ودعامة إيمانه ، وإنما هو يحقر الظنون والآراء الخالية التي الصقت به زوراً وغروراً ويرى نفسه مسوقاً لمحاربتها أنى وجدها ، لأنها هي التي أضرت بعقول البشر وغشتهم وسممت فطرهم بما نفثته فيها من سموم الإلحاد الذي لا موجب له البتة ، وها أنا أراك تتكلم باسم العلم ولا تتأخر عن القول بأن الصانع هو نواميس الطبيعة ، فهل نواميس الطبيعة هي غير ما وصفت لك ؟ وهل العلم يبيح لك هذا القول ؟

(ف) – يرينا العلم بالمشاهدة والحس أن الحوادث الطبيعية مقودة في حصولها بقوانين ثابتة معينة ، فلا تسقط ذرة ولا ترتفع شعرة إلا بسبب معقول تابع لسبب أرقى منه ومرتبط بسائر الأسباب ارتباطاً رياضياً منتظماً . وكلما ارتقى الإنسان في العلم واستشرف من مساتير الكون ما كان محجوباً عنه ، أدرك نواميس جديدة وأشرف على علاقاتها الأكيدة ببعضها ، فهو أمام هذه المشاهدات المحسوسة لا يتمالك نفسه من أن يستنتج أن قوى الكون كله نواميس مرتبط بعضها ببعض تتنزل عنها الحوادث تنزلاً ميكانيكياً اضطرارياً ، هذا كل ما في الموضوع ، فإن ثلمت حدة هذه الحماسة قليلاً رأيت الأمر كما أراه جلياً لا يحتاج لجدال ولا نزاع .

(م) — إن ما قلته لك آنفاً يكفيني مؤونة الرد على ما تقول الآن ، ذلك أنك مهما ارتقيت في استجلاء الإبداع الطبيعي وسموت في استعراض مساتيره وأسراره ، وأشرفت على نواميس لهـــا أعلا وأعم ، فإنك لا تزال تشرف على صفاتها وخواصها لا على أسباب إيجادها . ومن العجيب أن يغيب عن مثلك وجه التفرقة بين صفات الشيء وعلة وجوده مع الفرق الشاسع بينهما . فإن كنت تراني مغلوباً للحماسة الدينية ، فألتمس لنفسي بها عذراً ، أما أنت فلا أُرى لك عذراً في هذا الخلط ، ولعله من الحماسة الفلسفية .

(ف) — أنا ما قلت لك أن هذه النواميس المشاهدة: هيَ التي أبدعت هذا الإبداع كله ؛ بل قلت لك أنك كلما ارتقيت في علم الكون وجدت نواميس أعلى وأرقى ، مما يدلك على أن مصرف الكون هي قوانينه ، ومتى ثبت أنها المصرفة له المدبرة لشؤونه ، فلا يبعد عن العاقل أن يستنتج بالبداهة أنها هي أو نواميس أرقى منها قد صورته على هذا الشكل المدهش ، ولا موجب لفرض قوى وراء الطبيعة . على أني أعجب كيف تنكر أن صفـات الشيء هي سبب وجوده ، مع أنك تشاهد أن مبدأ الإنسان عـــلقة صغيرة كونتها النواميس الجسمية في صلب أبيه ، ثم تولت تلك العلقة نواميسها ونواميس الرحم وما يتبع ذلك مما له علاقة بتكوينه ، وما زال ينمو ويتصور حتى صار كامل الخـــلق ، فأثرت عليه نواميس فاندفع من بطن أمه إلى هذا العالم ، وما زالت به القوانين الوجودية حتى بلغ أشده واكتمل عقلاً وجسداً .. أليس في هذه المشاهدة مـــا يجعلك تعتقد بالحس أن صفات الشيء هي سبب تكوينه وتصويره ، وقس على ذلك سائر الكائنات علويها وسفليها ، جليلها وحقيرها .

(م) — أنا أعجب غاية العجب من هذا النظر القصير ، لا تؤاخذني في هذا التعبير ، لا جرم أن من يعتقد ما تقول كان كالذي رأى تلك الآلة الكبـــيرة البديعة التي يلقى إليها دقيق وماء فتخرجه بعد قليل خبزاً ، فاعتقد أن الخبز نتج بقوى عدد تلك الآلة بدون دخل لمصرف ولا مدبر آخر ، وغفل عن ذلك

العقل الكبير الذي اخترع تلك الصناعة المدهشة وأودعها تلك القوى المختلفة ، وأضرب عن ذلك العامل الذي يمدها بالحرارة التي تدير حركاتها وبالشحم الذي يسهل دورانها . ألا ترى أن هذا التشبيه منطبق على من يعتقد ما تقوله تمام الانطباق ؟. فإنك إن قلت أن النواميس الطبيعية تتولى الأشياء وتربّها من أول ما تكون خلايا ميكروسكوبية إلى أن تصير كائناً من أبدع الكائنات الأرضية ، ووقفت عند ذلك الحد ولم ترد أن تصعد بفكرك إلى ما بعد هذا المدى القصير ، كنت كمن يظن أن قوى تلك الآلة نواميس فاعلة مستقلة ، ويدعي أن الآلة قائمة بذاتها لا تحتاج لمن يمدها ويحركها مع أن المشاهدة تدل على خلاف ذلك ، إذ قد تبين أن تلك الآلة محتاجة في كل لحظة لعقل المدبر وعنايته . وهل هذا الوجود بنواميسه المختلفة ، وفواعله الكثيرة التي تراها تحدث وتربي وتلاشي ، إلا كمثل تلك الآلة الضخمة بما فيها من عدد ولوالب ومحركات وضواغط الخ .. وهذه الآلة كما احتاجت لفكر المخترع وعقله وعناية المدبر ورعايته ، كذلك الكون احتاج إلى مبدع يبدعه ويحتاج دائماً إلى مصرف يصرفه ومدبر يدبره . هل بعد هذا يمكنك الوقوف مع نواميس الطبيعة المجردة ؟

(ف) — إنكم معشر العلماء الاعتقاديين برعتم جداً في العلوم الجدلية ، لأنها أسلحتكم الوحيدة التي تحفظون بها مراكزكم أمام العامة والخاصة ، ولكن الوجود يا أخي غير متبع في تركبه وتشكله وبقائه أو تلاشيه قوانين العلم المنطقية وقواعد الفلسفة الكلامية ، ولو كانت عويصات المسائل تحل بمثل هذه الوسائل لصحت جميع الديانات الوثنية الموجودة على سطح الكرة الأرضية ، لأن رؤساءها كلها من أبرع الناس في الكلاميات ولم يؤسسوا مذاهبهم إلا على قوانين منطقية معقولة لديهم ، ولو ظللنا في مبحثنا جارين على هذا الأسلوب الجدلي لأفنينا أعمارنا ولم نصل لنتيجة .

(م) — أنا ما جادلتك إلا للوصول إلى فهم ما ادعيته من أن الصانع جل وعز هو نواميس الطبيعة ، وأظن أن لي الحق في استيضاحك ما يبهم عليّ من

كلامك ، وإلا فتكون أنت واقع فيما تنعيه على غيرك ، وإذا كنتم معشر أنصار الفلسفة الحسية تقولون ما لا يمكنكم شرحه ، وتستندون على مجاهيل يقف العقل أمامها خاسئاً حسيراً ، فما فضلكم على من يعتقد ما لا يعقل ويسجد لما لا يوجد؟.

(ف) — أنا إن كنت عجزت كما تقول عن شرح ما أبديته لك ، فذلك لأنه من قبيل ما لا نعلم ولم يصل العلم البشري إليه لمساسه بمبدأ الخلق وأصل التكوين ، وليس بعار على الفيلسوف أن يقف حيث انتهى إليه علمه ، ووصل إليه فهمه ، منتظراً ما يفتح عليه من مساتير الخليقة فيوالي السير للأمـــام ولكن ببطء وتحفظ لكيلا يرتطم بما يضلله ، أو يتيه فيما يجهله . أما أنتم معشر الاعتقاديين فتتهجمون على المجاهيل الكبرى تهجم العارف بها المحيط بسرائرها ، وتتحكمون عليها نقضاً وإبراماً وسلباً وإيجاباً كأنكم أمنتم شر الخطأ ، أو تنزهتم عن الخلط والخبط ، هذا ما جعل مذاهبكم تعد بالألوف وكلهـــا في تشاكس وتنابذ لا ينقطع مددها ولا تغيض مادتها ، بخلاف أنصار العلم وأتباع الفلسفة الحسية ، فكلهم على طريق واحد على اختلاف البلدان واللغات وتعدد المناحي والاتجاهات . ألا تتخذون لكم من ذلك عبرة ؟

(م) — هذه النغمة لا تفارق أنصار الفلسفة الحسية في كل محاولاتهم ، وقد جعلوها حصنهم الحصين في الهروب من وجه الحجج المفحمة والدلائل الملزمة ، فما نقرأ لهم كتاباً علمياً في أي موضوع كان إلا ونجد فيه هذا الدرس في كثير من أبوابه ، كأنه رقية سحرية ينفثونها في أذهان أضدادهم فتقلبهم إلى جهتهم ، وقد رأينا كثيراً من الناس متى أصغوا إلى هذه المقالة التي تختلف لفظاً على حسب أساليب الكتاب وتتحد معنى ومغزى ، قطبوا وجوههم واهمين أنها أصابت منهم المقتل ، وبلغت بهم المقطع مع أنها قضية كلامية ، الماديون أحق بها من غيرهم .

إنهم يزعمون أننا نتهجم على مبدإ الوجود وأصل التكوين ، ثم نتحكم عليها فنصدر أحكاماً جائرة لا تتفق مع الحقيقة تنزع بنا إلى التخالف والمنابذة ،

وهو ليس بصحيح ، فإننـا ما عصينا أحكام الحس والمشاهدة في شيء مما ذهبنا إليه . وذلك أننا رأينا وجوداً محسوساً فقلنا لا بد له من موجد ، ورأينا ذلك الوجود حياً مترقياً محكم الصنع مدهش التركيب فقلنا لا بد من أن يكون موجده حياً عالماً قادراً حكيماً.. الخ ، وهذه الأحكام كلها مستندة على الحس والواقع . أما ما نشأ من الخـلاف فهو في تحديد هذا الخالق وتكييفه وهو من شهوات العامة وأهوائهم . إذن لسنا في شيء من التهجم ولا التحكم . أما أنصار الفلسفة الحسية فقد تهجموا وتحكموا . أما تهجمهم فلزعمهم أن الكون قديم لا لا أول له وادعائهم قيامه بنواميسه المجردة ، وأما تحكمهم فلادعائهم قيـام هذا الوجود المدهش بنفسه وبمحض فعل تلك النواميس الميكانيكية ، وذهابهم مذاهب السفسطة والخيال في تعليل وجود الحياة من نواميس ميتة ، والعقل من فواعل مجردة منه ، والإبداع التكويني من عوامل لا تدرك الجمال ولا معناه. ألا يعد هذا من التحكم الشائن الذي يجب أن يتنزه عنه العاقل ؟

(ف) — إن الذي يسوقنا لمـا تسميه تهجماً وتحكماً هو اندفاعكم أنتم ، فإنكم بمقالاتكم وكتاباتكم في هذه الامور وطنطنتكم بنتائجها ، تلجئوننا إلجاء لأن نقف لكم في الجهة المضادة لجهتكم لنستدرجكم إلى التأمل والاعتبار . أما لو كان أمر العالم لنا وحدنا لما وجدتم لهذه المسألة ذكراً في كتبنا البتة ، لأنها مما لم نصل بعد إليه .

(م) — لماذا ؟ أليس في فطرتكم الإنسانية ما يدفعكم للوقوف على أخص ما يمس حياتكم الشخصية ؟ .

(ف) — ألا حبذا ! ولكن من لنا بذا. إن أفئدتنا لتتلهب ناراً للوصول إلى أصل الخلقة والعلة الأولى في التكوين ، ولكن كيف السبيل والمجاهيل تحتوشنا في كل مكان ، والمساتير تدهش منا الأذهان ؟

(م) — إذن أنتم أشوق الناس للوصول إلى ذلك السر ، ولكنكم تستوعرون الطريق وتتوقعون التعويق .

(ف) — هذا أمر لا يحتاج لتأكيد .

(م) — إذن أنتم من هذه الوجهة مسلمون مع فارق لا يكاد يكون ولكنكم لا تشعرون .

(ف) — وكيف ذلك وقد حدثت مبادئنا بعد ظهور الإسلام بأكثر من ألف ومائتي عام ، وما هو كنه ذلك الدين الذي يأخذ ذويه بهذا الأدب العلمي الصارم ؟ بل كيف يسمى ذلك الدين ديناً مع علمنا بأن الأديان تعطي لنفسها حق حل سائر رموز الكون ، فهي لا تدع مسألة من المسائل إلا وتبدي عليها أحكاماً نهائية لا يجوز لها النقد ولا يحسن فيها الأخذ والرد .

(م) — أين أنت من الأدب الإسلامي الذي أفاضه الله على فؤاد الآخذ بهذا القرآن الكريم .

... لم ينته المسلم مما قاله للفيلسوف حتى غشي مجلسها ثلاث رجال ذوي صبغ مختلفة ، يجمعهم والمسلم رحم اللغة والدين والمعرفة ، فانقبض الفيلسوف عند ذاك عن الاسترسال في المحاضرة وارتأى أن تؤجل الجلسة الى الغد . فقال له المسلم : لا داعية للتأجيل ، فإنك لو علمت صفات الثلاثة لرأيت أن وجودهم من متممات بحثنا ومكملات موضوعنا . ولو لم يكن فيهم إلا ما يريك اتجـاه الأفكار المختلفة في الشرق لكفى ذلك محبباً لك لمعاشرتهم ولو أمد المناظرة .

(الفيلسوف) — أنا ما انقبضت عن الاسترسال فيما كنت بصدده إلا لعدم الإثقال عليهم ،أما وقد علمت أنهم مشخصو بعض المذاهب الشرقية العصرية فمن أوجب الواجبات عليّ الآن أن أرحب بهم وأعد وجودهم مكملاً لما نحن فيه . فحبذا لو تكرمت بتعريفي بمراكزهم من الحركة الفكرية عندكم .

(المسلم) — حباً وكرامة ، أما الأول فاسمه (المحافظ) وما سمي كذلك إلا لأنه زعيم حزب المحافظين عندنا ، ولا أعني بالمحافظين زعماء السياسة ، فإنا لم نتمتع بعد بالحكم النيابي وإنما المحافظون عندنا هم الواقفون مع كل قديم لا يرون

الخير إلا فيه ولا يرجون الحياة إلا به ، ولديهم أن كل جديد سواء في العلوم العقلية أو الصناعية فصورة مأخوذة عن القديم بعد تشويه أحدثوه فيها ، ومسخ أوقعوه عليها ، فهم هذه الروح الخاصة بهم لا ينظرون لمدنية أوروبا إلا بنظر الساخر المستحقر، ولو جاءت بالعجب ، وأخذت بأكظام الشرق من كل سبب.

وأما الثاني فاسمه (المتمدن) وهو زعيم الحزب المضاد للحزب المتقدم. يرى أتباع هذه النحلة أن مدنية أوروبا هي أكمل وأجمل مظهر إنساني ظهر للعالم بمعنييه الصوري والأدبي ، ووجهيه الكلي والجزئي ، فهم عشاق المدنية في كل مجلى من مجاليها مستسلمين لأفاعيلها ، مستنيمين إلى دوافعها ، منقادين لتياراتها، إن وردت بهم مورد لهو يعدو على الكيس والكيس ، أو يسطو على النفس والنفيس ، فلا يعدون ذلك نقيصة فيها بل أحوالاً تقتضيها طبيعة الشؤون ، وتستدعيها حالة الارتقاء ، ولديهم أن كل ما عارض المدنية من نقل أو حكمة أو أثر فلا محل له عندهم من أفئدتهم ، لأنهم يعدونه معارضاً الطبيعة وكل ما عارض الطبيعة فزائل لا محالة .

وأما صاحبنا الثالث ، فإسمه (المستفيد) وهو غريم الفائدة يأخذها حيثما صادفها ، وطالب الحكمة يلتقطها أنى وجدها ؛ وقف على شيء من آثار الجديد الساحر ، وذاق جرعاً من إناء هذا البدع الباهر ، ولكنه مع ذلك مغرم بالقديم الآسر ، مجل لمعهده الزاهر ، معتقد أن المآل إليه وإن كابر المكابر وسخر الساخر ، ولكنه مع ذلك لا ينكر فداحة الشُبه الجديدة وخطارة الشكوك الحديثة ، فهو يرى من تمام متاعه أن يحول دونه ودون عبث العابث وعيث العائث ، فهو لذلك شاهد كل مجال ، وأذن لكل حكمة تقال .

(الفيلسوف) — نعم المجلس مجلسنا. لعمري أن الحكمة لا تتجلي في مجلاها الكامل . والفلسفة لا تتحلى بحلاهـا الشامل ، الا باحتكاك العقول بالعقول ، وتلاقي الأفكار بالأفكار ، وتجاول المدارك بالمدارك ، ما دام الحق أنشودة الجميع وضالتهم فلنأخذ فيما كنا فيه :

قلت لي أين أنا من الأدب الاسلامي الذي يفيضه الله على الآخذ بهذا القرآن الكريم، نعم أنا بعيد عن إدراك كنه ذلك الأدب، ولكن هل يخلو ذلك الأدب عن كونه أدباً دينياً جاء به دين ؟

(المسلم) – نعم ، هو أدب جاء به دين .

(الفيلسوف) – هذا خط الانفصال بيننا وبينكم،فإن الدين يبتدىء حيث ينتهي العلم ، لأن مبناه كشف أحوال ما وراء الطبيعة والتغلغل في علم ما بعد المحسوسات ، والعلم كما لا يخفاكم لا يخول لنفسه حق الذهاب بالفكر عن عالم الحس فهو مع المحسوسات حيث هي ، يوسعها فحصاً وتنقيباً ، ويجهد وراء نواميسها فلياً وفحصاً ، لا يتعدى دائرة العيان والتجربة قيد شبر ، خوفاً من الوقوع في ما وقع فيه الأقدمون والجهلاء العصريون من تجسيم مرائي الخيال والاستعباد لبنات الوهم. وما دام الدين يبتدىء حيث ينتهي العلم فما معنى قولك أكاد أكون مسلماً لولا فارق ضعيف ، وما هو هذا الفارق الضعيف بعد ما أريتك هذا الخلاف الجوهري ؟

(المسلم) – أنا قلت لك تكاد تكون مسلماً لولا ذلك الفارق مع علمي بكل ما قدمته ، ولم أزل مصراً على قولي ، وأزيدك بأني سأبرهن لك إن شاء الله على أن أصولكم العلمية التي تفتخرون بها علينا ، والتي أدتكم إلى الذهاب بالإبداع الصوري كل مذهب ، موجودة كلها في ذلك الأدب الإسلامي بأسلوب أكمل، ورواء أجمل ، ويصاحبها أدب روحاني مدنيتكم وعلومكم عارية عنه بالمرة ، وهما أصلان لا تكمل الإنسانية إلا بهما ، ونراكم مدفوعين إليهما من حيث تشعرون ولا تشعرون ، ولكني الآن لو ساجلتك فيما هو الإسلام وما هو كنه ذلك الأدب القرآني ، وروح دينك الأصلين المادي والروحاني ، خرجنا عن موضوعنا الأصلي ، وطوحتنا الاستطرادات إلى مطارح بعيدة من البحث ، فلنسلك لموضوعنا طريق الترتيب ، ولندع الكلام في الإسلام إلى موضعه .

(الفيلسوف) – النظام أدعى لعدم الخطل ، فنعم ما رأيت .

هنا عرضت للفيلسوف جلسة في الغرفة المجاورة مع زائر جاءه فقام بعد أن استأذن ، فقال (المستفيد) :

— لقد كنت أتمنى أن يشهدني الله مثل هذا المشهد الفلسفي الحافل بالعلم والحكمة ، لأبل هياماً في صدري ،وأشفي علة في فؤادي ، فأحمده على أن وفقني لوجدانه ، وأجلسني بين أقرانه ، وكيف لا أمتلىء سروراً وغبطة وأنا أتوقع أن تستعرض أمامي سائر الأصول الفلسفية والعلمية في معرض جدل خال من التعصب ، وحوار نزيه عن الغرض ؟

(المحافظ) — رويدك أيها الأخ الصالح ، فما هي الفائدة التي تتوقعها من نفثات صدر هذا الملحد المظلم الفؤاد ، وما أغنى عقلك عن الالتياث بما يقذفه من فيه من الشُبه والتشكيلات والإشكالات ؟

(المستفيد) — إن تلك الشُبه التي تخافها عليّ موجودة في ذهن من هو أقل إدراكاً مني ، وقد نفثتها في الأذهان ألسنة الحال ، لا ألسنة المقال ، وإلا فما سبب انصراف الخاصة والعامة عن الدين ، والانسحار بباطل هذا البدع المشين؟ وإني أرجو في جلستي هذه أن أعرف صور هذه الشبه بلسان المقال ، وأسمع الردود الدامغة عليها من صديقنا المسلم .

(المتمدن) — أنا كما يعهدني كل من يعرفني أحب الحرية والتصريح بكل ما يجيش بصدري ، لهذا أرجو أن ما سأقوله لا يقع من صديقنا صاحب هذه المناظرة موقع المشارة والحط من كرامته ، وكفاكم دليلاً على الإخلاص أني معتقد ما أقول . أنا أرتأي أن نفض هذه المناظرة ونتخلص منها بالتي هي أحسن ، لئلا نستهدف لاستصغار ذلك الفيلسوف بنا وامتهانه لنا حين يقذفنا بحججه العلمية الدامغة ويرشقنا بسهام أدلته النافذة ، ويستظهر علينا بسطوة العلم الأوروبي وبطشه فلا نحير جواباً ولا نطيق خطاباً . فمن ذا الذي يتصور أن يفوز أنصار الدين على زعماء الفلسفة الأوروبية ، وقد شهد الوجود على أن

ذلك محال .. تلك سنة مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . ونحن الآن في عصر العلم ، فمن رضخ لسلطانه نجا ومن عرض له صفحته وقاوم أحكامه هلك .

(المستفيد) — إن شأنكم معشر أنصار المدنية الأوروبية عجيب لا يكفيه التعجب ، لقد غلوتم في إكبـار سطوة العلم والرهبة من صولته ، حتى تصورتموه أسـداً كاسراً بحيث لا يقركم على فكرتكم هذه أهله أنفسهم ، فإن العالم الأوروبي ذاته يجعل أكبر مفخرة للعلم العصري أنه متواضع يقر بالإقـلال ، ومخلص يرجو الكمال .

لم يكد يتم المستفيد جملته حتى دخل (الفيلسوف) فقال :

— هلم ، فقد أديت ما وجب .

(المسلم) — تبين لي ممـا مر أنكم وقفتم مجهوداتكم وقيدتم مداركم على عالم الحس ، لا تتعدونه إلى ما وراءه ، وما أضيق هذا المجال على الوجدان الدائم الجولان ، الذي لا يرضيه حد فيلتزمه ، ولا يقنعه مرمى فيسكن إليه .

(الفيلسوف) — نعم هو مجال ضيق ولكن بالنسبة لشطحات الخيـال وجولات الأوهام ، التي لا تتقيد بقيد ولا تطالب بدليل ، أما بالنسبة للعقل الذي طبع على أن يحاسب ويحاسب فهو ميدان لا يتناهى ، وباحة يضيق عنها ذرعه ، وأن هذا العقل كلما تذكر أنه بعد جهاده في عالم الحس ألوفاً من الأعوام لم يحصل منه إلا ما لا يجمل به أن يفتخر به ، علم أنه في وسط بحر خضم حافل بالمجاهيل والأسرار زاخر بالبدائع والآثار ، وهذه الذكرى تثنيه عن طلب المزيد ؛ وهل يطلب المزيد إلا من بلغ المدى ، وأشرف على الغاية ؟

(المسلم) — في الإنسان قوى مختلفة ، وقابليات عديدة تستدعي كل منها بلوغ الغاية مما خلقت لأجله ، وطبعت على تطلبه ، ولا شك في أن هذا العـالم الحسي يواتي مطالب كثيرة لبعض تلك القوى والقابليات الإنسانية بما أودع فيه مما يناسبها ويلائم فطرتها ، ولكن مما لا مشاحة فيه أن البعض الآخر من تلك

القوى والقابليات يبقى أمام هذا العالم الحسي ولهاناً مضطرباً يطلب أنشودته فلا يجدها ، ويبحث عن رغيبته فلا يصادفها، فهل يعقل أن الطبيعة تواتي حاجة بعض القوى دون البعض الآخر ؟

(المستفيد) — إسمحوا لي أن أقترح عليكم اقتراحاً تدعوني إليه سماحتكم ، وذلك أنكم معشر العلماء لما منحتموه من بسطة المدارك ، وسمو القرائح ، تعلو عباراتكم عن أفهام الناس ، حتى أن العربي منها قد يكون أعجمياً عند أهل اللغة وأرباب البيان، لكثرة ما تودعونها من الإشارات الخفية والمرامي الفلسفية، فأرجو أن تأذنوا لي في استيضاحكم كل ما يغم عليّ من أقوالكم ، فأرجو الآن مثالاً محسوساً على ما قاله حضرة الأخ المسلم .

(المسلم) — في الإنسان مطالب جسدية كالمأكل والمشرب وغيرهما ، ولكل منها من عالم الحس مرتع هنيء وميدان وسيع ، وفيه رغائب عقلية كميله إلى إدراك المجهولات واستنباط الخفيات ، والوقوف على الأسباب والمسببات ، وهذه الرغائب لها أيضاً من الإبداع الوجودي والنظام العالمي مسرح باهر ، ومرتاض زاهر ؛ ولكن في الإنسان غير هذين النوعين من المطالب أنشودات روحية وضالات نفسية ، مثل غرامه بمعرفة سر حياته ، وبما يؤول إليه بعد مماته . هب أن رجلاً نال من نعيم الجسد ما لا يرجو معه مزيداً ، ومن شهوات العقل ما لا يبلغ شأوه مزاحم ، غرق في الخيرات المادية ومملوء من النظريات البداءة العلمية ، ثم أدركه الهرم وقارب أن يفارق أهله وولده ويغادر معارفه وبلده ، ويدس إلى حفرة يستقذر أن يمر بها ، ويستوبيء الإشراف عليها . فهل تغني عنه وهو في تلك الحالة حالة السماح بحياته المحبوبة ، والبكاء على ما سينتهي إليه أمره بعد قليل ، فهل يتصور أن الطبيعة — في اصطلاح الفلسفة — تهب لأميال الإنسان المادية والعقلية مطالبها بهذا السخاء العظيم ، ولا تهبه ما يهدىء اضطرابه على أحب محبوب لديه ، وأكرم موجود عليه ، وهي حياته الشخصية وما يتعلق بها ؟

(الفيلسوف) — إن الإنسان بميله إلى معرفة حظه بعد انتهاء حياته يريد أن يدرك ما وراء الطبيعة المحسوسة ، ولما لم يكن له وسائل تمكنه من ذلك فهو يسلط عليه فكره وخياله ، ولا يزال عائماً بين سرابي تينك القوتين حتى ينتهي وجوده على حالة من الأحوال ، فهل تود أن نطلق لأنفسنا عنان الخيال فيما لم نوهب آلة الوصول إليه ، ونكون كآحاد الملل والنحل التي كونت كل منها عن عالم ما وراء المادة سفراً ضخماً بل أسفاراً كلها كلام في كلام وأوهام في أوهام ، وهل ذلك يقنع العقلاء ويليق بالعلماء ؟

(المسلم) — أنا لا أطلب منك إلا أمراً واحداً وهو أن تعترف لي بتلك المطالب الروحية ، فإذا أقررت بوجودها كان لي كلام آخر في شأن وجود عالمها أو عدم وجوده .

(الفيلسوف) — ماذا تعني بالمطالب الروحية ؟

(المسلم) أعني بها تعطش الإنسان لمعرفة سر حياته ، وما يناله بعد مماته ، وغرامه بالخلود بأخص حالاته .

(الفيلسوف) — إذا كان حب الإنسان لكشف الأسرار الكونية ، ورفع الحجب الوجودية أمراً لا يحتاج لدليل ، فهو من باب أولى أكثر حباً لكشف سر ذاته ، والإشراف على ما سيناله بعد مماته ، أما غرامه بالخلود فهو أمر مشاهد لا يحتاج لبيان ، ولكن هل كل ما يحبه الإنسان داخل في حدود الإمكان ؟ إذن لصحت سائر الأديان على ما فيها من بطلان ، ولتحققت سائر الأهواء الإنسانية وأصبح الهوى برهاناً يستدل به الفيلسوف ويتوكأ عليه المتجادلون.

(المسلم) — لا تعجل بالاستنتاج ، فإني ما طلبت إليك إلا الإعتراف بغرام الإنسان بمعرفة سر ذاته وحظه بعد حياته ، وقد اعترفت بها . الآن أسألك كيف أن الطبيعة التي لم يعهد الجزاف في عملها وصنعتها قد وهبت الإنسان هذا الشغف الهائل بذاته ، ولم تهبه ما يطفىء لهيبه ويبل من غلته ، مع أنه أكبر شيء يهمه في وجوده ، وأخص ما يعنيه من شؤونه ؟

(الفيلسوف) — إن الطبيعة لم تهمله من تلك الجهة ، فقد دلته بأطوارها وأدوارها ونواميسها على أن تلك الطلبة من المشتهيات الهوائية غير ممكنة ، ومتى علم الإنسان أن مطلوبه مستحيل أقلع عنه .

(المسلم) — إن جوابك هذا غير وجيه ، إذ لا يتصور أن الطبيعة تشعر كائناً من كائناتها بحاجة شديدة جداً ثم تريه بعد مضي آلاف من السنين بواسطة علم النواميس أن تلك الحاجة غير موجودة . إذا أجعت إنساناً حتى اشتدت به سورة السغب ثم عرفته بأن الغذاء مستحيل وجوده ، فهل يقلع عن طلب الغذاء بمحض تلك المعرفة ، وهل يستطيع أن يقاوم تارات ألم الحاجة زمناً مديداً ؟

(الفيلسوف) - قد شبهت الحاجات النفسية الأدبية بالحاجات الجسدية المادية، واستفدت من ذلك التشبيه فائدة التأثير على الأذهان القريبة المدى السهلة التأثر، فلأسلم لك جدلاً لأطالبك بالبينة الواضحة على ما تقول ، فإنك لم تسمح لنفسك بالإتيان بهذا التشبيه ، والانتصار لما أنت بصدده هذا الانتصار الحماسي إلا وأنت عارف بسبيل الوصول لإشباع تلك الحاجة النفسية. فتكرم بها غير مأمور ، فكلنا طالبها وهائم بها .

(المسلم) — يظهر لي من لحن كلامك وروح إلقائك أنك لم تكلف نفسك عناء البحث عن هذه الطلبة الروحية قط .

(الفيلسوف) — أؤكد لك أني مررت في أثناء نظري في الفلسفة على أكثر ما كتبه فلاسفة اليونان الأقدمون وعلماء الدين في القرون الوسطى ، وعلى ما كتب في عصرنا الحاضر أيضاً من هذا القبيل بواسطة اللاهوتيين المحدثين ، فما ثلج صدري ولا اطمأنت خواطري لشيء من ذلك، بل الذي لاحظته أن كلام الجميع يقبل النقد ولا يستعصي على التعقب، والسبب في ذلك ظاهر ، وهو أنهم بعقولهم المحدودة يودون حصر حقيقة الحقائق في دائرة التعبير ، والوصول للسبب الأول

بوسائل الفكر القاصر ، فلا جرم إن أخفق سعي الجميع وذهب تعبهم أدراج الرياح .

(المسلم) – هل تعتقد أن وراء هذه الحقائق الوجودية لحقيقة كلية ، وأن وراء هذه الأسباب الثانوية سبباً أولياً ؟

(الفيلسوف) – أرجوك أن لا تأخذني بظواهر ألفاظي ، فأنا إن قلت حقيقة الحقائق والسبب الأول،فلا أطلقها على ما يطلقها عليه أصحاب التعبير وسماسرة المنطق والفلسفة الكلامية ، بل أريد بها كنه ما نراه من الظواهر ، ومهب ما نشاهده من تلاطم هذه القوى الكونية بأفاعيلها المدهشة .

(المسلم) – عبر بما استطعت من ألفاظ ، فلا أخالك تنكر أن وراء هذه المشاهد الباهرة المتغيرة ، وخلف هذه الأفاعيل الإبداعية المدهشة ، وبعد هذه الحركة التكوينية الهائلة ، قوة تمدها ومنظماً ينظمها ، وحكمة تهيمن عليها ، ودستوراً يدفعها عن الإنحراف ويزغها عن الزيغ ؟

(الفيلسوف) – نعم وراء ذلك النواميس الوجودية ، والقوانين الكونية .

(المسلم) – إنك عبت أهل التعبير وسماسرة المنطق بالجمود مع الألفاظ ، والاستراحة للكلام ، فلا تقع فيما عبتهم من أجله . فإنك مهما حاولت في إعلاء شأن النواميس فلا تستطيع أن تنكر أنها من مكتشفات العقل القاصر والفكر الناقص ، فهي من قبيل الأمور الفكرية والقضايا الذهنية، وإن علوت بها وقلت أنها من باب الأمور الطبيعية والمشاهدات الحسية ، فسيان عندي ، ولا يخرجها هذا الاعتبار عن كونها من القوى الطبيعية والمؤثرات الوجودية، وقد قلنا وقلتم أنه لا بد من أن يكون وراء هذه المشاهد المادية والقوى الوجودية حقيقة كلية، هي أصل الحقائق وقيوم الكائنات . وإن أصررت على أن النواميس هي غاية الغايات ونهاية النهايات ، فقد حاكيت الواقفين مع أفكارهم ، المستعبدين

لخيالهم ، المؤلهين لأهوائهم ، الحاضرين الوجود غير المحدود في فكرهم المحدود ، والحاكمين على غير المتناهي بهذا النظر القصير المتناهي .

(الفيلسوف) - لا شك في أن وراء هذا الطاسم الكوني، وخلف هذا الغطاء الصوري كوناً آخر يعلو عن هذا العقل العادي ، وقد علمنا اكتشاف أشعة رنتجن التي تخترق الحجب الكثيفة ، والراديوم ذو الخصائص المدهشة ، أن الكون الذي نحن فيه مشحون ببدائع تحير المدارك ، وتدهش الألباب ، منها ما نحن مستأهلون لإدراكه ولكننا لم نصل إليه بعد لقصور وسائلنا ، ومنها ما يعلو عن متناول حواسنا وعقولنا فلن نصل إليه أبداً ، ومن كانت عقيدته في الكون هكذا ، فكيف يحصر الكون في فكره ، أو يدعي بلوغ الغاية من العلم به ؟

(المسلم) - هل تستطيع أن تتصور أن كل هذه الإبداعات المحيرة للعقول، وهذه الصنائع البالغة نهايات الدقة ، بل وهذه العوامل العاملة الجاهدة ، والدنياوات الذاهبة الآيبة ، وما حوته من جمادات ونباتات وحيوانات وأناس ، وما تدري وما لا ندري من أكوان ووجودات وعوالم ؛ هل تستطيع أن تتصور أن كل هذه الحركة الكونية حاصلة من نفسها غير مقودة بحكمة شاملة ، وقدرة كاملة ؟ .

(الفيلسوف) - أما حدوث حوادث هذا الكون على مقتضى الحكمة فذلك أمر لا ينكره مكابر مهما بلغت منه الرعونة ، بل محض النظر لأجهزة الحيوانات وأعضائها ودقة تركيبها على بعضها والأغراض التي وضعت من أجلها يدفع الإنسان رغم أنفه لأن يندهش من سعة سلطان هذه الحكمة ، فما بالك لو صعد الإنسان بفكره إلى استعراض سائر عوالم الكون مما يعلمه بالحس وما يدركه بالاستدلال ، أو ما يتوهمه بالحدس والتخمين .

(المسلم) - لقد قاربنا أن نتفق . إن إيماننا بالخالق تقدست صفاته ، هو

إيماننا بتلك الحكمة المهيمنة على الكون ، التي تقول أنهـا من المشاهدات التي لا تنكر ، وعبادتنا لها هو لإحداث الاتصال بيننا وبينها ، وقبول الإمـداد من جهتها . الفرق بين المؤمن وغيره هو هذا : المؤمن اعتقد أن حكمة إلهية أبدعته وربته ، ومتعته بأعضاء وأجهزة وركبت فيه عواطف وأميالاً صالحة لتكميله وإيصاله إلى غاية عالية من الرفعة الصورية والمعنوية ، وهي دائمـة العناية به في نومه ويقظته وذكره وغفلته، فلم يرَ من العقل أن يغفل عنها، وهي قيوم حياته والمهيمنة الدائمة على وجوده ، بل أدام ذكره لها ، وأخذ يفكر في وسائل زيادة الاستمداد منها ، فاهتدى لتلك الوسائل رجال ، فنالوا من مراكز الإنسانية شأواً بعيداً سنحدثك عنه إن شاء الله تعالى ، فعاشوا عيشة السعداء وماتوا ميتة الكبراء الشهداء . وأما غير المؤمن ، فهو مع رتوعه في خيرات هذه الحكمة الإلهية ، ومرحه في نعمها وإحسانها أعرض عن الفكر فيها ، ووقف مع لذات الحس وصوارف الشواغـل الماشية ، فهو يعيش معيشة البهائم وإن نال من المدنية الصناعية أقصى الغايات وبلغ من الملذات الجسدية منتهى النهايات . ترى المؤمن يموت بين خشن الفراش وأنياب الفاقة قرير العين ، واثقاً بأن تلك الحكمة الأزلية دائمة العناية به في سائر تطوراته الجسدية ، وأنها لن تنساه في أي حالة من أحواله ، فيسلم الروح باسماً راضياً يملأ مشاهديه إيماناً ويقيناً . وترى غـير المؤ ن في تلك الساعة الهائلة ملقياً على ناعم الحرير ، وبين يديه فاخر الرياش ، وعلى رأسه الثريات الكهربائية ؛ فلا تغنيه تلك المشاهد الباطلة شيئاً ، فتزهق روحه وهو على حال من الأسى والكمد من فقد الحياة والولد لا يمكن تخيلها .

ما انتهى المسلم إلى هنا حتى دقت ساعة الاستراحة ، فقام كل إلى منزله على أمل العودة . فخرج المسلم ومن معه من أصدقـائه ، وفيما هم سائرون تـال (المستفيد) :

— لله درك من حكيم ، لقد تركت خصمك في حرب ضميرية لن يهدأ لهيبها حتى يصافحك على الإيمان بالله . فلقد آنست علائم الاتعاظ بادية على وجهه .

(الحافظ) – دعنا من هذا ، فإني لاحظت أن رفيقنا المسلم يتسامح لخصمه في التعبير ويلين له في الكلام ، فيذكر له حكمة وقوة ويتلطف له فيجاريه في التسليم بمقررات الفلسفة الحديثة على ما بها من إفساد للعقائد ومجافاة لبداءة العقل . فهلا زجره وانتهره ، وأظهر له سطوة الإيمان ، وحماسة الدين ، ودعاه للعقيدة دعوة الأعلى للأدنى ، والمهتدي للضال .

(المسلم) – قال الله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ، وإني لأرجو أن أنال منه بهذه الروح الهادئة والنفس المطمئنة الساكنة عملاً بهذه الآية الكريمة مـا لا أناله بالإخشان ، والله المستعان .

* * *

الفصل التاسع

الولاية والكرامة والوسيلة والشفاعة

كتب لنا حضرتا الأستاذان المحترمان : الشيخ أحمد محمد الألفي ، والشيخ محمد بسيوني . الأول من علماء طوخ القراموص ، والثاني من علماء بني عامر بأبي الأخضر ، يسألاننا رأينا الخاص في هذه المسائل الهامة التي أصبحت اليوم شغلاً شاغلاً لأهل العلم وطلابه ، وأشار علينا بإفاضة القول على طريقتنا ، ونحن نقبل إشارتهما مع الشكر لهما على الثقة بشخصنا ، وإن كنا نظن أن الوقت المناسب لإثارة أمثال هذه المسائل لم يحن بعد ، وأن المتناظرين عندنا بإزاء أشباه هذه الأمور على طرفين متناقضين لا وسط بينهما ، فهم إما مستسلمون لكل ما ينقل وما يقال بدون نقد ولا تمحيص ، مستريحون لكل ما سطر في الكتب بلا نظر ولا تعديل ، وإما مستعصون على كل ما قيل في هذا الباب لا يقبلون فيه كلاماً ، ولا يتخيلون لما حكموا به عليه نقضاً ولا إبراماً . فالدين في نظر الأولين جملة وتفصيلاً هو هذه المسائل ، أو بالأقل لا يتم إيمان المسلم إلا إذا اتخذها متممة لعقائده وحلية لإيمانه ، وعند الآخرين الشرك معقود بأذيالها مرتبط بإرادتها ، والمسلم لا يتم له إيمان بل ولا تصح له عقيدة حتى يدع ذكرها جانباً ويطهر فؤاده من تخيلها . وعلامة مجيء الوقت المناسب للكلام فيها عندنا أن يتلاطم

هذان الحزبان حتى يبلغ كل منهما من خصمه ، وتكسر الحرب من خيلاء كل منهما حتى يحس بلزوم المخرج من ورطته والنجاة من هوته ، ويتضح له جهات ضعفه وقوته ومثار دائه وعلته ، هنالك يجأر إلى الله بطلب القول الفصل ، والحد العدل ، فإن جاءه قبله مرغماً ، ورضيه بدون تعلل ، أما الآن فلم يجيء بعد الوقت المناسب للقول . لأن الحزبين وإن تميزا فلم تثر بينهما تلك المعمعة الهائلة التي تفت في عضد كل منهما وتنال من شرته وغلوائه ، فنحن وإن كنا في الوسط اليوم ، فلن يكون نصيبنامنه إلامثل ما كان لنا من كتابة كتابنا (المرأة المسلمة) في الرد على القائلين بكشف الحجاب ، اعتبره مناظرونا رداً علمياً لا حلاً نهائياً ، وعده أصحابنا دحضاً فلسفياً ، واتخذوه سلاحاً قوياً ، واكتفوا بذلك عن تأمله ، والإشراف فيه على ضروب الحلول الفلسفية في مسائل المرأة المختلفة . كذلك كلامنا الآن في هذه المسائل قبل أن تأخذ الحرب فيها مأخذها وتبلغ حدها ، سيكون لكل من هذين الحزبين فيه اعتبار خاص ، ولن يبلغ ما نريد أن يبلغه من جوهر الموضوع . على أننا نرجو أن ينتفع بما نكتبه ناس يكثر بهم عديد الأمة المعتدلة وعلى الله قصد السبيل .

ليس فيما نقوله حط من كرامة حزب من الأحزاب ، فإن كلاً يعتقد الصواب فيما يذهب إليه ويتمسك به عن حسن نية ، لا مكابرة ولا مكايدة ، كما أنه ليس فيما قدمناه من إكبارنا لما سنقوله فخر ولا عجب ، فإنا نعتقد أن رأينا هو الرأي الأعدل الحاصل على مزية الانطباق على نصوص الكتاب وقضايا العلم الحق ، ولا هجنة على أحد من مثل هذه العقيدة ما دام مخلصاً فيها .

تمهيد

نحن نشرع في كتابة المقالة ونحن عالمون أن أصعب الأمور وأعصاها علاجاً إحالة الآراء عن مجاريها ، وإحادتها عن طرائقها التي ألفتها ومرنت عليها . ذلك لأن مجال الجدل بعيد الأطراف واسع الباحات لا سيما أن كان في العلوم

النظرية ، وفيما يمكن الخوض فيه بالاستنباط والتأويل ، لذلك لا يعـدم أحد الحزبين المتجادلين حجة يقارع بها خصمه ويحيره بها على اضاعة الزمن في دحضها وتزييفها ومقابلته بأشد منها ، وهكذا حتى يسأم الخصمان ويؤوبن للسكينة وهما على ما ابتدآ به المناظرة ، ومما يزيد المتناظرين طمساً في البصائر وضـلالاً في المشاعر مجاراتهما للسفهاء السفلة في التقاذف بالهجر من القول والبذيء من الألفاظ ، هنا يحط الشيطان بينهما بجرانه وتستحيل المناظرة العلمية إلى شاتمة سفليـة ، فيدخلها الباطل من هذا الباب الإبليسي الواسع الى مسارب ضلاله ، ومخـالج متاهاته ، ويرتد عنهما أشياعهما زارين عليهما متبرئين من أخذ الدين عنهما .

لهذا لا ينتفع من شهود المناظرات إلا طالبو الحقيقة المتحرقون على معرفتها ، الذين يعلمون أن كل عمل يعملونه غير متحرين وجه الحق فيه بـــاطل يعود عليهم وباله آجلاً وعاجلاً ، سواء كان عملهم ذلك أدبياً أو مادياً . وما أقل هؤلاء الرجال في الأمم القوية ، فما بالك بالأمم الضعيفة ؟ . .

إنا نكتب مقالنا هذا ونحن عالمون بأننا في عالم كله مجاهيل وأسرار ، إن علمنا منه شيئاً فقد غاب عنا منه أشياء وأشياء ، إن أشرفنا منـه على قشر ظاهر فقد خفيت عنا بواطن بواهر ، وإن تراءت لنا منه معالم فقد استترت عنا منـه أمور جسام لها بنا علاقات خفية وروابط سرية . ومن علم ذلك وتيقنه فأجدر به أن يتواضع في بحثه ويضؤل أمـــام الحقيقة لا أن يتكبر ويتغشمر ، حتى تنطمس طريقه وتندرس معالمه ، فيلتجىء لأن يضرب في دياجير وهمه ، ويخبط في عشواء نفسه . ونحن فوق ما ذكرنا نعرف أن في هذا الأمر عهدة كبيرة ، لأنها تمس عقائد ناس من أرق الجهات حتى أنه لو مسهم من قبلها طائف خفيف ذهب إيمانهم كله ، وأصبحوا لا يعرفون للدين معنى . لهذا كان من الواجب علينا أن نكون بالنسبة لما نحن بصدده كالطبيب الشفيق يجس برفق ، ويقطع برحمة . والله ولي الكفاية .

★

ما هي الولاية ومن هو الولي ؟

الولاية (بالفتح) القرابة،والولي معناه القريب والمحب والصديق والنصير،وفي الاصطلاح : الولي هو الرجل الصالح الذي أدى أوامر الله واجتنب محارمه ، وتقرب إليه بالفرائض والنوافل ، حتى أشرقت عليه أنوار التجليات الإلهية ، وعبقت عنه فوحات الأخلاق الملكية ، وأصبح مثالاً يحتذي طريقته من أراد الكمال الصوري والمعنوي ، كما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ . وقد ورد في الكتاب الكريم ما يشير إلى هذه المنزلة السامية . قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة . » وجاء في الكلام القديم ما يومىء إلى أن من نال هذه المنزلة الرفيعة من القوة النظرية وهي الإيمان ، ومن القوة العملية وهي التقوى ، فإن الله يتولى شأنه ، ويسدده في أموره ، وينصر حجته . قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا » ، « وهو يتولى الصالحين » ، « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » ، « وذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » ، «إنما وليكم الله ورسوله»،«إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين»، « أنت وليي في الدنيا والآخرة » . هذا كله يشعر بأن من تولى الله (أي اتخذه ولياً) تولاه الله وأفاض عليه من سبحات نوره ، وإشراقات أنسه ما يجعله مثالاً للكمال بمعنييه ، ونموذجاً للفضيلة ينسج الناس عليه .

هذا ما لا نتخيل أن ينكره أحد من أي قبيل كان من المسلمين ، إنما عضلة العقد ، ومهب اللدد هو مسألة الكرامة ، فالناس أمامها قسمان مثبت ونافٍ ، ولنا فيها رأي لا مناص لنا من إيراده .

★

مـــا هي الكرامة ؟

الكرامة في الاصطلاح هي ما يكرم الله به خاصة أوليائه من جلائل المزايا وشرائف العطايا مما تقتضيه حكمته العلية ، وتتفضل به رحمته الأزلية . هل في هذا ما يثير أعاصير الإنكار من منكر ، أو يهيج غبار الشك في صدر مسلم ؟

ولكن ماذا يريد القائل من قوله (جلائل المزايا وشرائف العطايا) ؟ . هنا محط رحال الحجاج والجدل ومهب عواصف القيل والقال ، لذهـــاب قوم في شرح تلك المزايا والعطـــايا مذهب التسامح والإطلاق ، ووقوف الآخرين من شرحها في الدائرة التي يعقلونها ويفهمونها ، وإنا موردون لك طرفاً مما يتحاج به كلا الفريقان لنستطيع أن نحاكمها إلى نصوص أقوالها ، والله ولي المؤمنين .

الكرامة في نظر أنصارهـــا

يظهر لنا من تتبع بعض أقوال مثبتي الكرامات أنهم لا يضعون لها حــداً تقف عنده ، وحجتهم أن الله قادر على كل شيء ، وله أن يجري على يد أي عبد من عبيده المختـــارين ما تتعلق به إرادته ، سواء في ذلك الأمور الأدبية أو المادية . ويقولون كل ما صحت معجزة لنبي صحت أن تكون كرامة لولي ، والفرق بينها أن النبي معجزته مقرونة بالتحدي ولكن كرامة الولي لا تحدي فيها من أي وجه كان . ويقولون ما دام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وقلب العصا ثعباناً ، ورد الأعضاء التالفة الى سيرتها الأولى ، وتكثير الطعام القليل حتى يكفي الجيش الكثير الخ ... وغير ذلك مما حصل لعيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام صحيحاً مثبوتاً بالنصوص المتواترة الأسانيد ، فأي مانع يمنع من أن يحبو الله رجلاً من خاصة عباده بمثل هذه المزية لأمر خـــاص ومصلحة خـــاصة ؟ لم يرد في الدين ما يشير إلى بُعد ذلك ، بل فيه نص على حصوله . قال تعـــالى في شأن مريم : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد

عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هـو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وما حصل لأصحاب الكهف ، وليسوا بأنبياء بل « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ، ويقولون ما دام هذا كما نقول مثبتاً بالنص القطعي الذي لا يخالفنا فيه واحد من أهل القبلة ، ولم يرد في الدين ما يشير إلى إنتهاء ذلك الأمر وذهاب وقتـــه ، وتبدل سنة الله فيه ، فما المانع إذن من استمراره وحصوله على يد أصحاب الأرواح العالية والنفوس الزاكية من خاصة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

يقولون : وكيف يجسر منكر على إنكار الخوارق ، وقد أثبت العـــلم الأوروبي نفسه أنها أمور حاصلة على يد أصحاب الرياضات النفسية من الأمم الشرقية كالهنود وسكان جزائر فيجي وغيرهم من أكثر الشعوب السحيقة وكلهم على دين غير حق ، بل وأثبت الأستاذ كروكس الإنجليزى وهو من أشهر كيماويي العصر ، أن النار لا تحرق من كان في حال من أحوال النوم المغناطيسي ، وقـد وضع بنفسه جذوة نار في يد امرأة وهي في تلك الحالة فلم تصبها بضرر مـا . يقول مثبتو الكرامات : إذا كانت الرياضات النفسية توصل غـير المؤمن إلى درجة من درجات القوة الروحية ، يكون معها على ما نصف من الاقتدار على إحداث الخوارق ، فما بالك بالمؤمن بالله وكتبه ورسله إيماناً حقاً خالصاً لا يشوبه شرك ظاهر ولا خفي ، وهو من تربية نفسه ورياضته لها على السمت الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون والصديقون والصالحون من أصحاب الأفئدة العامرة بنور الله ، والنفوس المشرقة بجمال قدسه ، فكيف لا يصدر من مثل هذا الإنسان أضعاف أضعاف ما يصدر ممن ليسوا على شاكلته في شيء من الكمالات الخلقية ؟

يعتمد أنصار الكرامات على هذه القواعد ثم يفسحون لأنفسهم مجال القول ، ويبسطون للناقلين مهاد القبول ، فإن أخبرهم مخبر بأنه رأى فلاناً الصالح أشار إلى الصخرة قائلاً لها كوني ذهباً بإذن الله فكانت . قالوا : إن الله قادر على كل شيء ، يكرم عباده الأصفياء بما يكرمهم به ، لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه ،

ثم ينقلها السامع لجاره وصاحبه ويجعلونها فاكهة مجالسهم ، ينشطون بها أنفسهم للعبادة ويزدادون بها حباً للصلاح والصالحين . ولو فرضنا أن قال لهم قائل : إن فلاناً التقي قال لكوكب الزهرة على مرأى من الناس اغرب بإذن الله فغرب ، ثم قال له أشرق بإذن الله فأشرق ، قالوا كما قالوا أولاً ، ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً من التصديق ولا ألماً من الشك ، لأنك لو ناقشتهم علقوا الفعل على قدرة الله وحوله لا على مهارة العبد وحيلته ، وما دام الأمر مسنداً لله فإن ربي قدير لما يشاء .

★

منكرو الكرامات أو محددوها

من الناس من ينكر الخوارق أصلاً وفرعاً زاعماً أن حصولها يقدح في المعجزات والنبوات والآيات القرآنية . أما قدحها في المعجزات على قولهم ، فلكون الله تعالى جعل المعجزات دلائل على النبوة ، فحصولها على يد غير النبي يخرجها عن كونها دليلاً على النبوة . وأما قدحها في النبوات على دعواهم فلأن من بين ما يعده النـــاس من تلك الخوارق انطواء الأرض للولي حتى يقطع منها في اللحظة ما لا يقطعه غيره في شهر . وقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة في أيام عديدة ولم يرو له في طي تلك الشقة البعيدة مثل ما روي لبعض الأوليـاء ، وهكذا حصل لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وأما قدحها في الآيات على رأيهم فهو أن الله سبحانه قال عن الدواب : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » ، فكيف يتفق هذا مع ادعاء أن الولي يقطع المسافات البعيدة بلا تعب ولا نصب .

لا يخفى أن مجرد النظر لهذه الاستشكالات يدل على أنها واهية تحتمل كبير جدل . فإن الكرامات لا تقدح في المعجزة التي هي دليل النبي لأن الولي

نفسه يؤمن بمعجزة ذلك النبي ويعترف له بوظيفته ، ويعتقد أن كرامته من ضمن معجزاته الدالة على صدق شرعه . ولا تقدح في النبوات أيضاً ، فإن لله مع خاصة أنبيائه وأوليائه شأناً لا يحوم حول معرفة العامة ، فإنه تعالى إن لم يطوِ لرسوله الأرض حين هجرته فقد طواها له حين إسرائه ، ولكل منهما حكمة يعلمها ربها . وأما عدم قدحها في الآيات القرآنية ، فلأن الكرامات لا توهب إلا للأفراد المجتبين لا لكافة المؤمنين ، فهي أمور نادرة والنادر لا حكم له .

هؤلاء المنكرون للخوارق يفسرون الكرامة بكونها كرامة أدبية روحانية محضة ، فيكون من أثرها على الولي أن يفيض الله عليه أنوار الصفات الجليلة والسجايا الشريفة ، ويسبل عليه رداء السكينة وبرد الوقار ، فيصبح انساناً فاضلاً يتخذ مثالاً على الحياة والكمال، ونموذجاً لغيره في التخلق بشريف الخلال، ولزوم جادة الاعتدال .

بين هذين الحزبين (حزب مثبتي الخوارق وحزب منكريها) حرب شعواء ومنازعات وضوضاء ، قامت فيها الحماسة على ساق وقدم ، وحمي فيها الوطيس من القدم ، تقاذف فيها الحزبان بالتكفير ، وتنابذا بالتشهير والتعيير . وقد خاض هذه المعمعة كثير من أئمتنا السابقين إيجاباً وسلباً ، فنال كل فريق من الآخر نيلاً وكانت الغلبة دائماً لا لأي الحزبين بل للعوائد البلدية والمصطلاحات القومية لأسباب شتى ، بعضها ناشىء من ضعف القوة العلمية الوازعة ، وبعضها من نقص دستور الحكومة ، وأكثر مصدرها جهل الأفراد ووهمهم في معنى الدين . وقد توالت على ذلك القرون وتعاقبت الشؤون حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم من موقفنا أمام أوربا المتمدنة ، معرضين لفتنها العلمية والدينية ، مستهدفين لسواحرها العادية والصناعية . ولا يستهين بهذا الموقف ولا يحقره إلا من لم يضرب في علم الأمم بسهم ولم يأخذ منه بقسط .

شارفتنا أوربا بجواذبها وفواتنها من صناعة وعلم ، وقابلتنا بقواهرها وقواسرها من قوة وبطش، ونحن في دور سبات عميق ، فهببنا من نومنا حيارى

طائشين، لم نكد نشعر بدهشة المداهمة والمباغتة حتى غشيتنا غاشيات الزخارف والمموهات الصناعية من كل فج ، فكان حالنا من العجب بمكان : نشعر بمرارة الأخذ وحرارة الأسر مشوبة بلذة الافتتان وسكر الاغترار ، لا جرم فنحن بين تلك المرارة وهذه اللذة في حال من الذبذبة القلبية تفقدنا من رشدنا كل يوم ، ولو استمرت هكذا أتت على البقية الباقيـــة من إرادتنا فأصبحنا نوّماً في زي إيقاظ ، وخشباً في هيئة رجال .

تلك المرارة تعطفنا على القديم بكل فخامته وجلالته ، فتمر بنا على ما كان لنا من عظمة وسؤدد ودولة ورجال ، فتكاد تلك الذكرى وان كانت معنوية ، تمتلخ القلوب من نياطها وتحرق الكبود في أحشائها ، فتثور فينا ثائرة القيـام على نهج آبائنا السابقين وأئمتنا المهديين ، استرداداً لمجد سابق ، وغيرة على شرف متداع ، فنقول ونكتب ، ونصخب ونخطب ، ونتحرك حركة يكاد رائيهـا يظنها حياة هبت من مكانها ، أو روحاً نزلت من مستقرها ، فإنـا لكذلك وإذا بتلك الفتنة المدنية قد ساورتنا من كل مكان : من جهة العقائد ، من جهة العلم ، من جهة العادات، من جهة اللغات ، من جهة الزي ، من جهة كل شيء. ساورتنا من جهة العقائد ببث الشُبه المستعصية ونفث الإشكالات النفسية . وساورفنا من جهة العلم بهدم مقرراتنا العقلية وإلغاء بداهتنا الفكرية،وساورتنا مما بقي من الجهات بما يناسبها . فماذا نتقي من هذه الأسنة ، وعن ماذا نروغ من هذه الشهب ؟

قابلتنا أوربا من جهـة العقائد بحشو رثٍّ من أفكار فلاسفة القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر ، فنفذت أصولهم المادية إلى أذهان الطبقة الملتصقة بها وبتقاليدها منـــا ، وسرى منهم إلى من دونهم وهي في كل دور تتطور وتتشكل على قـدر عقول الطائفة التي تحل فيها ، حتى وصلت إلى العامة لابسة ثوباً يظنه رائيه عامياً شرقياً وهو نسيج أوروبي ، وإنما صبغته الأفكار المنحطة

والمقتضيات البلدية الساذجة بصبغ مختلفة يظهر للرائي أنه منقطع العلاقة بأوروبا وهو منها أصلاً وإن كان يباينها فرعاً :

من هنا كان النـــاس أولى بالحماية من جهة أصول العقائد وأمهات المسائل ، ولهذا شعرنا بالحاجة الشديدة إلى مكافحة التيار الغربي من تلك الجهة المتسلطة على كل جهاتنا الأخرى . لأننـــا تحققنا أنه ما دامت رابطتنا الأصلية سليمة من الإنفصام وهي لا روح لها إلا الدين ، سلمت هيئتنا الكلية من فواعل التحلـــل ونجت من عوامل التفكك ، وصلحت الأمـــة للمكاوحة والمدافعة ، ولا يمضي عليها زمن ما حتى تفيق من غفوتها وتسترد شخصيتها . أمـــا مسائلنا الدينية الفرعية فما كنا نهبها مثل هـــذه العناية لتحققنا أن المحافظة على الأصول أولى بالابتداء وأجدر بالتقديم ، أما وقد انثالت علينا الأسئلة من كل فج وقطعت علينا خطوط الرجعة ، فلم نر إلا الانصياع لمطلوب الأمة منـــا وإن كان الكلام فيما تدعونا إليه سابقاً أوانه .

مما يزيدنا وجلاً من طرق باب هذا الموضوع هو ما نحن فيه من الافتتان بمدنية أوروبا وعلومها وإلحادها ، وليس لهـــذا الافتتان معنى في لسان العلم العمراني إلا تحلل عناصرنا بقوة مؤثرة علينا ، فكل ذبذبـــة تحدث فينا وكل حركة تلم بجسمنا الكلي ، ونحن تحت ذلك التأثير المحلل لا تكون نتيجتها حسنة إلا إذا كان قائدو تلك الحركة على حذر ويقظة ، لأن أجزاءنا التي تتناثر بتلك الحركة لا تكون منجذبة إلى أجزائها الأصلية فقط ، بل هناك قوة خارجية جذابة أيضاً مترصدة لاجتذاب كل جزء يشذ عن الجماعة لسبب من الأسباب . أعني بهذا الكلام أننا معشر المتكلمين في مسألة الكرامات بخوضنا في هـــذا الموضوع إيجاباً وسلباً ، نحدث حركة كبيرة في أخص جهة من معتقدات العامة والخاصة . ولا شك أن كلاً من الحزبين المتضادين سيؤثر على عقول ممن كانت تنكر عليه فتهم للخروج مما كانت عليه للالتحاق بالمذهب المضاد ، فيخشى أنه وهو في هدنة الانتقال من مذهب لمذهب آخر ينجذب إلى عالم الإباحة والإلحاد المؤثر علينا من فتنة

المدنيةالغربية من منذ مائة عام، فنخرج من هذه المناظرة وقد خسرنا خسارة لا تعوض وأحدثنا في أمورنا اضطراباً لا يغتفر لنا بوجه من الوجوه .

من هنا نرجو كل متكلم في هذا الموضوع أن يؤوب إلى رشاده ، وأن يهدىء من ثورته في مقارعة الحزب المضاد له ، حتى لا تكون النتيجة عليه سواء كان غالباً أو مغلوباً . هذه إشارة إلى موضوع خطير جداً جدير بالالتفات إليه والتعويل عليه .

آن لنا الآن بعد تقديم هذه المقدمة ، أن نشير إلى موضوع النزاع بين كلا هذين الحزبين المتناظرين من باب السرد المجرد عن الحكم الشخصي ، حتى إذا أتممناه عدنا إلى عقد فصل لمحاكمتهما على نصوص الكتاب ، والله ولي الكفاية .



موضوع النزاع بين مثبتي الكرامة ومنكريها

ليس سبب كل هذه الجلبة والضوضاء في هذا الموضوع إثبات الكرامة أو نفيها ، ولكن فيما يجر إليه ذلك الإثبات والنفي من العقائد والعادات والذهاب بآيات الكتاب الشريف مذاهب التأويل والمخالفة لما كان عليه أسلافنا الصالحون الخ ... ، وإنا موجزون لك النقط الأساسية التي يؤسس عليها كل من هذين الحزبين عقائده ويناقض بها نظيره ، نوجزها على أسلوب شارح فنقول :

يقول مثبتو الكرامات :

١ — إن لله تعالى من صفوة خلقه رجالاً يختارهم في كل زمان ومكان من عباده المخلصين ، يصعدهم إلى مقامات سامية من الكمال الروحاني ، ويحبوهم بهبات جليلة لا تخطر على بال من لا يكون على شاكلتهم ، ويحدث على أيديهم أموراً تخالف العادة ، ولا يمكن تعليلها بما نعرفه من قوانين الطبيعة .

٢ – هؤلاء الأولياء لسمو أرواحهم وكرامتهم عند الله يؤثرون على من دونهم بالإمداد الروحي ، ويكون لدعائهم أثر صالح في أحوال المحيطين بهم الراجين معونتهم .

٣ – هذا الإمداد لا ينقطع بعد موتهم وانتقالهم،بل يقوى ويتزايد على قدر درجة رقيهم في ذلك العالم النوراني الباهر.من هنا يجوز زيارة قبورهم والاستمداد من بركتهم وطلب النفحات منهم .

٤ – يجوز التوسل بهم إلى الله كأن يقول الداعي : أللهم إني أتوسل إليك بعبدك الصالح فلان أن توفقني وترشدني الخ ...

أما منكرو الكرامات أو محددوها فيقولون :

١ – إن لله أولياء يصطفيهم من خيرة عباده ولكن ذلك لا يخرجهم عن كونهم عباد الله الضعفاء ، مثلهم كمثل غيرهم من الناس أمام الله ، وأحسن مثال لهذا الصنف من النـاس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي واخوانهم ، وكل ولاية تقاس على غير ذلك المثال فليست بولاية ، وما يعزى لصاحبها من المقامات وما تقتضيها فتوليد الخيال وتصوير الأوهام مما ينطلي على عقول العوام ليس إلا .

٢ – هؤلاء الأولياء لا تأثير لهم بشيء بل التأثير كله لله ، والإنسان العاقل بدل أن يتمسح بهم ويتزلف إليهم يجب عليه أن يوجـه وجهه لله وحده ، فهو المعطي المطلق والواهب الذي لا معقب لحكمه .

٣ – الإنسان مهما كانت حـــاله من الصلاح والروحانية ، متى مات انقطع اتصاله ببني نوعه ، واتصل بعالم آخر له مقتضيات أخرى لا نعلمها . وإن زيارة قبورهم لا تفترق عن زيارة قبور إخوانهم المؤمنين الآخرين ، ولا ينالهم منهـا غير ما ينال الزائر من زيارة قبر ميته من الثواب الذي أعده الله للمعتبرين،ومن طلب إلى ميت شيئاً فقد أشركه بالله وحبط عمله .

٤ — لا يجوز التوسل إلى الله بوسيلة غير الأعمال الشخصية الصالحة، أما رفع اليد بالطلب من ولي، والقسم على الله بعبد من عبيده، فمحظور يكاد يكون شركاً.

هذه هي النقط الرئيسية التي تميز مثبتي الكرامات عن منكريها أو محدديها، ولا حاجة بنا لأن نقول أن كلاً من هذين الحزبين يدعي أنه يستند إلى كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ، ولكل منهم حجة عقلية فلسفية عدا عن الحجج النقلية، نوجز لك أشد تلك الحجج العقلية وقعاً على الطرفين، وندع الحجج النقلية لفصل المحاكمة بينهما.

يقول منكرو الكرامات أو محددوها: مما يدل على فساد مذهب خصومنا وأنهم ذهبوا بالإسلام مذهباً يوافق هواهم، جملة أمور مهمة وهي:

١ — حدوث مذهبهم بعد القرون الثلاثة الأولى من عهد النبي ﷺ. فلم تعرف في القرن الأول ولا الثالث مسألة زيارة قبور الصالحين والتطواف بها وسؤال الحاجات عندها، ولا غير ذلك مما يعملونه اليوم.

٢ — وجود أمثال هذه العادات عند كل أمة وهي عند الأمم المتوحشة أكثر. فما من أمة إلا ولها رجال مقدسون تقيم لهم الأعياد والموالد، وتقرب لهم القرابين والعوائد، وتبني على قبورهم النصب والشواهد، وتقصدهم في الملمات والشدائد، وتروي لهم من عجائب الخوارق وغرائب الكرامات ما لا يدخل تحت حصر ولا يضبطه استقصاء. أفلا يدل شيوع هذا الأمر بين طوائف الإنسان واتحادهم عليه معنى وغرضاً على أنه من مطالب الأهواء ومحسنات الخيالات، وأنه تريكة الوثنية ومظهر مموه من مظاهرها الأولية؟

٣ — إستواء الحالتين عند من يدعو الأولياء لمعونته ومن لا يدعوهم في شدته، بل المشاهد أن الذين لا يدعون الأولياء ممن يأخذون بالأسباب العادية ويتربصون للفرص الحيوية أحسن حالاً وأكثر مالاً وأفخم مظهراً وأكرم معشراً وأعلا

كعباً من الذين يدعونهم ويتوسلون إليهم . بل هذه وفود الأوروبيين الذين يأتون بلادنا للارتزاق لا يدعون ولياً ولا مقدساً ، ومع ذلك فقد احتكروا تجارة البلاد وثروتها وهم كل يوم يزدادون غنى واستيلاء ، ومناظروهم من تجار البلاد وسرواتها ممن لا يبدءون في عمل ولا يشرعون في أمر إلا بعد الاستغاثة بالأولياء واستنزال معونتهم قد أصبحوا عيالاً على أولئك الأجانب، ولا يمضي كبير زمن حتى تتلاشى ثروتهم وتذهب في خبر كان . وهذه الأمهات المصريات اللاتي يهملن الأخذ بالأسباب العادية والوسائل العلمية في تطبيب أولادهن ويكتفين متى أصاب أحد عيالهن مرض أن يزرن به الأولياء ويغسلن وجهه من بئر مساجدهم ، يفقدن من أولادهن أكثر من الثلثاي في الغالب ، بينا نرى الأمهات الأجنبيات اللاتي لا يعرفن غير الوسائل العادية لا يفقدن من بنيهن إلا الشاذ النادر ، والإحصائيات تريك العجب . ألا يدل ذلك كله على وهم الناس في مسألة الاستغاثة بالأولياء، بل ألا يشير ذلك بأدل دليل على فساد رأي الخاصة والعامة في ذلك الأمر ، وأنهم بذلك يحاربون سنة الله في خلقه ويستعينون بما لا ينفع ولا يضر من عباده ، ويكونون السبب في تسويد الأجانب عليهم ووصم دينهم بما هو براء منه ؟

٤ – لو كان ما يرويه أنصار هذه العادات من تأثير الأولياء في الأرض بعد موتهم وكرامتهم لمن يلوذ بهم صحيحاً لكان الأحق بذلك أهل الصدر الأول من المسلمين ، وهم أجلاء الصحابة من المهاجرين الأولين والأنصار المبجلين ، فلقد قامت بينهم فتن على عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما وحدث بسبب ذلك من الشغب والاضطراب ما شق عصا المسلمين وأوجب افتتانهم ، ومع ذلك فلم يجيء صاحبي جليل لأخيه في النوم فيرشده إلى الحزب الناجي أو يزعه عن مشايعة الفتنة ومتابعة العصبية ، فهل يعقل أن يحدث لمن بعدهم من أهل القرون المتأخرة ما لم يحدث لأولئك السابقين الأولين وهم أراكين الدين وأئمة الإيمان واليقين ؟ هل يتصور أن يتمثل ولي لأحد مترفي هذا العصر مبشراً إياه برتبة أو بنيشان ، ولا يأتي رسول سلام بين المسلمين ؟ ألا تدل هذه الملاحظات على أن

ما يروى وما ينقل من الكرامات والمبشرات الخ ... أمور أولدها الخيال وكبّرها الوهم فاعتقدها الناس وجعلوها جل دينهم والعقد الأول من إيمانهم؟

هذه هي الحجج العقلية الرئيسية التي يعتمد عليها منكرو الكرامات وما انبنى على اعتقادها من العادات ، ولخصومهم حجج عقلية خطيرة الشأن أيضاً يجب علينا سردها سرداً أمام نظر القارىء ، ليرى بعينيه جهتي ضعف كل من الحزبين وجهتي قوتها وليكون على بينة مما نصدره على كليهما من الأحكام الشرعية.

يقول مثبتو الكرامات :

١ - إذا كان مما لا يمكن إنكاره من مقررات الدين أن الموتى ينتفعون من دعاء الأحياء لهم وهم في هذا العالم عالم المادة ومقتضياتها ، فكيف لا ينتفع الأحياء من دعائهم وهم في عالم الجمال والتقديس حيث لا مقتضيات جسدية ولا مطالب سفلية ، بل تجرد لاستشراف الحق وسبحات وجهه واستشراق النور وتارات فيضه ؟ هل يتصور أن نكون نحن ونحن في هذا العالم مع شغلنا الشاغل وهمنا المتواصل نتذكر موتانا ونعطف عليهم بالدعاء والترحم ، ولا يتذكروننا هم وهم في عالم الروح والريحان ومشرق الإفضال والإحسان ، مع أنا أحوج إلى انعطافهم علينا منهم الى انعطافنا عليهم لتخلصهم من الجهاد الحيوي وبقائنا فيه ، ومن وقوفهم على حظهم من الحياة وجهلنا به ؟

٢ - إذا كان مما لا يستطاع جحوده أن الموتى يسمعون من يسلم عليهم عند زيارة قبورهم ، وقد خاطب النبي ﷺ قتلى بدر قائلاً: «هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً » ، ثم لما قال له أصحابه : كيف تخاطبهم يا رسول الله وهم موتى ؟. قال : « ما أنتم بأسمع منهم » ، أو كما قال ، فهل يستنكر على رجل ذهب إلى قبر رجل صالح وسلم عليه ثم خاطبه راجياً إليه أن يدعو الله له لتفريج همه وكشف ضره ؟ .

٣ - إذا كان الإنسان في هذا العالم لا يأثم من قوله للطبيب عالجني وللرئيس

أعطني أو وظفني ، ولأخيه احمني وانصرني ، وقد جاء هذا الاستعمال على ألسنة الأنبياء والصالحين ولم يجدوا فيه إثماً ولا حرجاً ما داموا يعتقدون أن خالق كل شيء ومحركه هو الله تعالى ، فكيف يأثم أو يشرك من يخاطب الميت قائلاً أريد وظيفة أو دواء أو نصراً أو حماية الخ ... مع عقيدته بأن ذلك الولي عبد الله الفقير إليه الذليل بين يديه . إن قيل هذا يشبه قول مشركي العرب عن آلهتهم ، فإنهم ما جعلوهم أرباباً إلا توسلاً إلى الله بهم ومع ذلك فقد سجل الله عليهم الكفر والشرك . قلنا بعيد ما بين الحالتين . فإن نص الآية هكذا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، والمسلم لا يعبد وليه وإنما هو يرجوه ، بل لو قلت لأجهل جاهل أنك تعبد هذا الولي لأنكر عليك وربما أهانك ، غيرة منه على التوحيد الذي امتزج بدمه وحياته ، وشتان بين العبادة التي أقر بها مشركو العرب وبين الرجاء الذي لا يجاوزه إلى ما فوقه أجهل المسلمين . إن قلت أن منهم من يسجد أمام الولي ، قلنا ليس ذلك بسجود عبادة ، بدليل أنك لو قلت للعامي أنك تسجد لهذا الولي كما تسجد لله لأنكر عليك قولك ولقال لك : إن هذا سجود تعظيم أعمله لهذا الصالح كما تعمله أنت أمام السلطان ، فهل كفرت بسجودك أمام السلطان حتى تكفرني بسجودي أمام هذا الولي العظيم ، ومع ذلك فإني ما سجدت له ولكني قبلت الأرض بين يديه ، كما تخر أنت أمام مليكك وتقبل قدميه في نعليه . وقد سجد الملائكة تعظيماً لآدم بأمر الله فهل تستطيع أن تلاحظ عليهم ؟.

٤ — إنكم معشر منكري الكرامات مفتونون بمدنية أوروبا، وتريدون أن تقلدوها حتى في ترك الدين ، ولما كنتم لا تستطيعون تركه لتبرئه من مطاعن العلم وتنزهه عن مآخذ الفلسفة ، فتريدون بالأقل أن لا يجافي الفلسفة المادية في شيء يلاحظ عليكم وتعيرون به ممن تقلدونهم . ولما كان الشكل الذي رسمتموه في مخيلاتكم عن مدنية أوروبا هو دفن الميت والانصراف عنه سراعاً إلى معاهد الأعمال واللهو ، وإسدال ثوب النسيان على ذلك الفقيد ومن تقدمه من الموتى ، وكيف لا تهمل الجيف المضرة بالصحة ؟ وتنسى العظام الرميم والأشلاء المبعثرة ؟

لما كان الشكل الذي تخيلتموه عن مدنية أوروبا هو هــذا فلا يرضيكم أن نكون متأخرين عنكم في ميدان المدنية لما يربطنا بكم من روابط الدين واللغة والوطن ... لذلك لا تألون جهداً من السعي في إبطال تلك العادات وعدهـا أمراً فرياً ، وقد غاب عنكم أن من وظائف الدين تعزية الإنسان في مصائبه وتسليته أمام أخطار الحياة وهوادمها، وتذكيره بالآخرة وأحوالها وما ينتظر العـاملين المجدين أو المقصرين المتثبطين من نعيم مقيم أو شقاء محدود أو غير محدود . ومن أخص ما يجلي هذه التعزية ويعطيها وزنها الحقيقي هي مـا ينبه الدين الإنسان إليه من أن الحاجز بين الموتى والأحياء رقيق ، وما يحجبنا عنهم إلا انصرافنا مع الشواغل البدنية واهتمامنا بالمطالب الجسدية وعدم عنايتنا بتربية نفوسنا وترقيقها . هذا من أخص صفات الدين وهو روح الهدو" الذي ينزله على فؤاد الأم الثاكل والأب الحزين والإبن الشفيق. فلو سعيتم في تغليظ ذلك الحاجز بيننـا وبين الأموات والذهاب بنا مذهب ماديي أوروبا يدفنون ميتهم ويرمون جثته أو يحرقونها ويذرونها في الهواء، وهماً منكم أنه أرقى مظهر مدني، فأنتم إذن تسعون في إبعاد الناس عن التدين ، لأن التدين إذا كان مطلوباً لمحض التخلق بمكارم الأخلاق والصفات الجليلة فتلك موجودة في كتب الماديـين أنفسهم ، ويمكن الاكتفـاء بها عن الأديان ، وإذن تصح حجة العلمـاء الماديين أن في العلم الأوروبي غناء عن كل دين . ومع ذلك فقد غـاب عنكم أنكم بينما تمثلون مدنية أوروبا المادية نرى علماء أوروبا شعروا بوخامة انصرافهم عن عالم الموتى ونسيانهم له وهو مآلهم ومصيرهم ، فقاموا يبحثون من المباحث لإثبات الروح والخلود ما لو سمعتوه لقلتم أنهم مخرفون مجنونون . فهل تريدون أن توقعونا في فتنة مادية ترجو أوروبا نفسها أن تتخلص منهـا وتهرب من مخالبها ؟ ...

★

المحاكمة بين هذين الحزبين

لقد سردنا أمام نظر القارىء أكبر ما يمكن أن يتسلح به الخصمان من الحجج العقلية ، فإن أردنا أن نسلك في إرجاعهم إلى خطة الوسط مسلك من تقدمنا بإفساد حجج الفريقين أو ردها إلى الصراط القيّم ، لم نستفد من عملنا شيئاً غير إثارة العواطف وتثبيت كل حزب في مقرراته ، وإقامته خصماً لدوداً لمناظره ينتظر به الدوائر . وهذا ليس من أسلوبنا الذي اختططناه لأنفسنا في شيء ، لذلك نريد أن نذهب في محاكمة هذين الفريقين المتضادين مذهباً يرضيهما جميعاً ، بل لا يجدان عن التخلف عنه عذراً ، فنقول :

تبين لنا من سرد أقوال الخصمين أن لكل منهما فيما يذهب إليه حجة قوية ، ولكنهما أعطيا حجتيهما من سعة السلطة ما ليس لهما فكان الإفراط لأحدهما والتفريط للآخر من حكم طبيعة الحال ، ونحن في حكمنا عليهما لا نستطيع مع هذا الوجه أن نخطىء أحدهما تخطئة مطلقة ، ونصوب مذهب الآخر تصويباً صرفاً ، ولكنا سنسعى في التوفيق بينهما من جهتيهما القويتين ليكون لمذهبهما المشترك قوة على قوة ، وليس للمسلم من كل محاولاته حظ غير الحق « وماذا بعد الحق إلا الضلال » .

إذا كان مما لا مشاحة فيه أن هذا الاحتفال بالقبور والمقاصير والتطواف حولها والطلب إلى أصحابها وإقامة الأعياد لهم لم يحدث إلا بعد القرن الثالث ، وهذا من حجج منكري الكرامات أو محدديها ، فمما لا مشاحة فيه كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزور القبور ويوصي بزيارتها للاتعاظ ، ويقرى سكانها السلام والتحية — وهذا من حجج مثبتي الكرامات. فكما لا يحسن بعاقل أن يقطع علاقاته بموتاه وموتى المسلمين ارتكاناً على الحجة الأولى حتى يكون بالماديين أشبه وإلى اليائسين من أصحاب القبور أقرب ، كذلك لا يجمل بذي فطنة أن يحلل كل مناهي الشرع ، ويؤول نصوص الآيات والأحاديث الواردة

في الزيارة والدعاء والتوسل ارتكازاً على قوة الحجة الثانية . وكما أن الحال الأول تفريط كذلك الحال الثاني إفراط ، وكلاهما ليس من العقل ولا من الدين .

وإذا كان مما لا جدال فيه أن الآخذين بالسنن العادية التي خلقها الله في الكون أحسن حالاً وأكثر مالاً وأعلا كعباً في كل شيء من الذين أهملوا تلك السنن ولجؤوا الى الصالحين في الطب والاستغاثة — وهذا من حجج منكري الكرامات أو محدديها — كذلك مما لا شك فيه ومما هو مقرر شرعاً ، أن الموتى يشعرون بالأحياء ويعنون بأمورهم ويهتمون لما يهمهم ، وإن لمن يترحم عليهم ويستغفر الله لهم ثواباً من الله وأجراً عظيماً — وهذا من حجج مثبتي الكرامات ومؤيديها — فكما لا يليق بالمتبصر المعتدل أن يتكيء على الحجة الأولى ويوجه وجهه شطر السنن الوجودية المجردة مهملاً ما يناله من زيارة القبور والدعاء لأصحابها والاستغفار لهم من الثواب الجزيل والأجر الجميل ، كذلك لا يجدر بالمسلم المحتاط لنفسه أن يتخذ الحجة الثانية مستنداً له يبيح لنفسه بها ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا تابعوهم ولا تابعو تابعيهم ، من الطلب إلى الصالحين الميتين والاستغاثة بهم والتطواف بقبورهم ورفع القباب عليهم ، وغير ذلك مما ورد النص بتحريمه صريحاً .

وإذا كان مما لا شبهة فيه أن الاعتماد على زيارة القبور ونداء الصالحين والاشتغال بالموتى قد أحدث في عامة الشرقيين نزوعاً إلى إهمال الأسباب العادية والسنن الكونية ، وأوجب عليهم بذلك خمولاً وقعوداً عن العظائم — وهذا من حجج منكري الكرامات أو محدديها — فكذلك مما لا مراء فيه أن من أخص وظائف الدين ترقيق الحجاب بين عالم الأحياء وعالم الأموات وتلطيف الحاجز الذي يفصلنا عنهم ، ولولا ذلك لما كان الدين بشير السلام للأرواح ، وسفير الرجاء للأفئدة ، وسبب الطمأنينة والسكينة ، ولقام مقامه كتاب في الأخلاق ورسالة في التربية النفسية ، وهذه من حجج مثبتي الكرامات ، وكما أن من الغلط الشائن الاعتماد على البرهان الأول في قطع كل علاقة بين هذا العالم والذي يليه ، وتغليظ

الحجاب الذي يفصل الأحياء عن أعزائهم الميتين ، لما في ذلك من غمط أخص حقوق الدين والغفلة عن أكبر عوامله تأثيراً على النفوس ، كذلك من الشطط البين التذرع بالحجة الثانية في إعطاء تلك العلاقة التي تربطنا بالأموات وذلك التأثير المتبادل بيننا وبينهم شكلاً لم يحصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على عهد أصحابه ، وتجعلنا من تلك الجهة محاكين للغلاة من أصحاب الأديان الأخرى التي جاء الإسلام عائباً عليهم سوء تصرفهـم وشدة خبطهم في أهوائهم .

إذا كنا غير أهل لأن نرفع من بيننا الخلاف ونحسم من أنفسنا مادة الشقاء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه رضي الله عنهم ، فقد عظمت فتنتنا وطمت بليتنا ، وبتنا هدفاً لفتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيرانا ،وها نحن موردون عليك نصوصاً من الكتاب تبين لك مذهب القرآن في هذا الشأن وهو صراط الله ودستور العلم السماوي ، فمن انحرف عنه فقد كفاه انحرافه دليلاً على خبطه وخلطه ، فإليك :

(١) إن لله أولياء من خاصة خلقه هم المؤمنون المتقون . قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

(٢) هؤلاء الأولياء لهم استمداد روحاني من جانب القدس الإلهي ،واستشراق من عالم الجمال العالي . قال تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ».

(٣) لهؤلاء الأرواح العلية سلطة على عالم المادة ، وهي سلطة طبيعية اقتضاها لهم سمو أرواحهم وعلو قواهم ، ولا ينكر سلطان النفس القوية الخالصة من أسر المادة البشرية إلا من لم يضرب في علم الإنسان بسهم ، هذه السلطة تظهـر أحياناً بإيقاف فعل النواميس العادية والتأثير على المادة تأثيراً خاصاً ، وهو ما يسمى بالكرامة وفي القرآن ما يدل على حدوثها للصالحين: كقصة أهل الكهف ، ولبثهم في الكهف ثلاثمائة سنة وتسع سنين لم يصبهم تحلل ولا تأثر. وكإتيان آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام بعرش بلقيس من سبأ في أقل من ارتداد الطرف ، كما قال تعالى : « فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » الخ ...

(٤) بيننا وبين الموتى علاقات خفية، فنحن نتذكرهم بالدعاء والترحم، والله يذكرنا بالمثوبة الحسنة عنهم .

(٥) لا يجوز اتخاذ القبور في المساجد ، وإعلاؤها ونصب الشواهد عليها ، ولا بناء المقاصير حولها ، ولا رفع القباب فوقها ، ولا إيقاد السرج لأجلها ، ولا الطلب إلى أصحابها ، ولا نذر النذور لها ، ولا ذبح الذبائح عندها . كل هـذا ورد في تحريمه النص شرعاً، ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا تابعوهم ، وشيء لم يفعله الرسول ولا أصحابه وورد النهي بالنص عما يحيط به ويلابسه، لجدير بأن ينصرف عنه المسلم خشية أن يكون فيه ما لا تحمد عقباه وتعظم بلواه .

المسلم يكفيه من الدين ما كان عليه الأنبياء صلوات الله عليهم ومن تبعهم بخير وإحسان ، أما ما نافى سمت الأنبياء أو خالفه أو استدعى شيئاً من التأويل لكتاب الله ، أو أوجب عملاً بالرأي ، أو كان مستنداً فيه إلى أقوال العامـة وغلوهم فما للمسلم وله ، وما أغنى فؤاده عن هذا كله ، وما أبعده عن الحاجـة إليه . ألا يكفيه أن يكون على طريقة رسول الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، يضعها نصب عينيه ويجاهد عليها نفسه وهواه ، ويحتذيها خطوة خطوة مدققاً متحرياً حتى يلقى ربه خالصاً مخلصاً . هل يحسب عاقل أن رسول الله مع شدة تحريه لمراضي ربه ومحابه ، وكثرة توخيه لاتباع أوامره ، يترك شيئاً يعود منه على روحه خير أو أثر نافع ؟ وهل يتمثل في تصور إنسان أنه مع محبته لقومه وشدة شغفه بفلاحهم يترك إرشادهم إلى أمر فيه لهم خير في الدين أو الدنيا ؟ أللهم لا ! إذن فكيف لا نرضى لأنفسنا من الدين والعادات بما رضيه رسوله لنفسه ولأصحابه ، ولماذا نعمل برأينا في أمور تعظم فيها العهدة وتشتد فيها الورطة ؟ ما الداعي لذلك ونحن مسلمون كتابنا القرآن ، ورسولنا محمد، وديننا الحق ، ومذهبنا الصراط المستقيم ، وغايتنا السعادتان ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة[1] ؟ ..

---

(١) بقيت مسألة الشفاعة والتوسل بجاه النبي (صلعم) في الدعاء وسترد بإذن الله في فصل لاحق ، مع بقية الاجوبة على أسئلة حضرات القراء وأصحاب الأسئلة – (المؤلف).

الفصل العاشر

خوارق العادات
والأسباب العادية

كتب لنا حضرة الأستاذ المحترم ، صاحب الامضاء ، مقالة بهذا العنوان ، فلم نر بداً من نشرها في مباحثنا واتباعها بما يعن لنا في هذا الصدد الخطير الذي أصبح الشغل الشاغل لكثير من الناس ، والله الموفق للصواب . قال حضرته : التوحيد هو إفراد المعبود بالعبادة ، واعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً . وتوحيد الأفعال : هو أنه لا تأثير لشيء من الكائنات في أثر ما ، وإلا لزم أن يستغني ذلك الأثر عن مولانا عز وجل ، سواء كان خوارق عادات أو أسباب عادية ، وهو محال . إذ أن سائر الأفعال لله تعالى وحده خلقاً وإيجاداً ، وما نسب لغيره فمن باب الكسب والمجاز ليس إلا ، والناس بهذا الاعتبار مخاطبون ومكلفون .

وكما أنه لا يقال لمن اتخذ الأسباب الكونية العادية واسطة في أحواله وشؤونه المعاشية كافر أو مشرك . كذلك لا يقال لمن اتخذ خوارق العادات واسطة مشرك أو كافر أيضاً ، لأن كلا الأمرين ممكن ، والفاعل المطلق فيهما هو الله وحده ، وإلا لزم عليه كون كِلا الأمرين المتساويين مساوياً لصاحبه ، راجحاً عليه بلا سبب وهو محال .

والبرهـــان على أن الله سبحانه وتعالى كما شرع الأسباب الكونية ، شرع الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والأولياء ما سنوضحه فيما يأتي ، وإليك البيان : الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبإخوانه النبيين والمرسلين وبالأوليـــاء والصالحين ، هي عبارة عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج ودفع النوائب وتفريج الكروب ، ولا ريب أن كل من يناديهم من المؤمنين ، فهو عالم أنه لا يعبد إلا الله ، ولا يفعل ما يريد ويمنح ما يطلب إلا الله ، وليس هؤلاء إلا شفعاء فقط ، وقد أرشدنا الله ورسوله للاستغاثة بعبـــــاد الله الصالحين من الأنبياء والأولياء. قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة» ، والوسيلة ما يتوسل به إلى الله تعالى من عمل صالح أو عبد صالح .

وجعل العبد الصالح وسيلة إلى الله تعالى ،إنما هو من إعظام جانب التوحيد ، لأن من شهد سوء حاله وكثرة ذنوبه لا يجد له وجهاً ولا سبيلاً للسؤال من ربه ، فتجتمع همته على التوسل لله تعالى بأوليائه وأحبابه اعترافاً بالذنب ، وانكساراً للرب ، وإعظاماً لجانب القدرة الإلهية ، وإيماناً بأن الله هو الفعال لما يريد .

وأحبابه المرضية شفاعتهم لم ينالوا ذلك إلا لاتباعهم لنبيهم الكريم ولوقوفهم عند أمره العظيم . قال في الكشاف عند هذه الآية المتقدمة : (ألا كل ذي لب إلى الله واسل) ، وقال تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » . دلت الآية على حث الأمة على المجيء إليه صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار عنده واستغفاره لهم ، وهذا لا ينقطع بموته وإن وردت الآية في قوم معينين في حال الحياة ، لكنها تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف في حال الحياة وبعد الممات ، ولذلك فهم العلماء منها العموم للجائين وذكرها المصنفون في المناسك من أهـــل المذاهب الأربعة ، ودلت أيضاً على أنه لا فرق على الجائين بين أن يكون مجيؤهم بسفر أو غيره لوقوع جاءوك في حيز الشرط الدال على العموم .

وقد صح صدور التوسل من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها ، أما صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم فقد صح في أحاديث كثيرة ، منهـا أنه كان من دعائه (أللهم إني أسألك بحق السائلين عليك) ، وصح في أحاديث كثيرة أنه كان يأمر أصحابه أن يدعوا به ، فمنها ما رواه ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال أللهم إني أسألك بحق السائلين عليك الخ ... أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك) ، وذكر هـذا الحديث الجلال السيوطي في الجامع الكبير وكثير من الأئمة في كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون ، حتى قال بعضهم ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهـذا الدعاء عند الخروج إلى الصلاة . فانظر إلى قوله : (بحق السائلين عليك) ، فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن ، وروى الحديث المذكور ابن السني بإسناد صحيح عن السيد بلال المؤذن رضي الله عنه ، ورواه الحافظ أبو نعيم في عمل اليوم والليلة ، ورواه البيهقي في كتاب الدعوات ، فعلم من هذا كله أن التوسل صدر من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر أصحابه أن يقولوه ، ولم يزل السلف من التابعين ومن بعدهم يستعملونه ولم ينكر عليهم أحد .

ومن التوسل أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في بعض أدعيته : (بحق نبيك والأنبيـاء الذين من قبلي) رواه الطبراني بسند جيد في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم ، وصححوه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه من حديث طويل يتعلق بالدعاء للسيدة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ، وروى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله تعالى عنه مثله ، وابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه ـ ذكر ذلك كله الجلال السيوطي في الجامع الكبير . ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في التوسل مـا رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح عن عثمان بن حنيف وهو صحابي مشهور : أن رجلا ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم الخ ... فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : (اللهم إني أسألك وأتوجه

إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى ، أللهم شفعه في) ، فعاد وقد أبصر . وليس لمنكر التوسل أن يقول إنما كان ذلك في حياته صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا الدعاء استعمله الصحابة والتابعون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم رضي الله عنهم . فقد روى الطبراني والبيهقي : (أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة لا يلتفت إليه ، فشكى ذلك إلى عثمان بن حنيف الراوي للحديث المذكور ، فأمره بالوضوء والصلاة والدعاء المذكور ، ثم أتى إلى عثمان بن عفان بعد ذلك فقضى له حاجته) . وروى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه حصل قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحرث رضي الله عنه إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب منه أن يستسقي لأمته فسقوا ، وفيه النداء والتوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم بعد الموت وهو من أعظم القرب وقد توسل به صلى الله عليه وسلم أبوه آدم عليه السلام قبل وجوده في الدنيا حين أكل من الشجرة ، وهذا الحديث رواه البيهقي بإسناد صحيح في كتابه المسمى دلائل النبوة عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ورواه الحاكم وصححه . وإلى هذا الحديث أشار مالك رضي الله عنه للمنصور حين سأله : أأستقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعو؟ فقال له ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى؟ ذكره القاضي عياض في الشفاء بإسناد صحيح، والسبكي في شفاء السقام ، والسهروردي في خلاصة الوفاء، والقسطلاني في المواهب اللدنية ، وابن حجر في الجوهر المنظم .

واستسقى عمر بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط ، فسقوا كما في صحيح البخاري ، وفيه رد على من منع التوسل مطلقاً وعلى من منعه بغير النبي صلى الله عليه وسلم ، واستسقاء عمر بالعباس دون النبي صلى الله عليه وسلم ليبين للناس جواز الاستسقاء بغيره كما يجوز الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم ، وإنما خص عمر العباس دون غيره لبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ، فإن

علياً رضي الله عنه كان موجوداً ، وهو أفضل من العباس رضي الله عنهما .
فيحصل مما تقدم أن مذهب أهل السُّنة والجماعة جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته ، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ، كما دلت عليه الأحاديث السابقة وغيرها مما يطول شرحه ، لأننا معشر أهل السُّنة لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضراً إلا لله وحده . والأنبياء والأولياء لا تأثير لهم في شيء ، وإنما يتبرك بهم ويستشفع بمقامهم لكونهم أحباء الله تعالى. والذين يفرقون بين الأحياء والأموات وبين الأسباب الكونية وخوارق العادات هم الذين يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات وللأسباب الكونية دون خوارق العادات، ونحن نقول : الله خالق كل شيء « والله خلقكم وما تعملون » ، فالمجيزون للتوسل بالأحياء دون الأموات هم المعتقدون تأثير غير الله وهم الذين دخل الشرك في توحيدهم ، فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الشرك ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .
فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد ، وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحباء الله تعالى ، على أن ذكر هؤلاء الأحباء سبب عادي في حصول ذلك التأثير من الله تعالى ، مثل الكسب العادي فإنه لا تأثير له أيضاً بنفسه . ونقل عن الخطيب البغدادي عن الحسن بن إبراهيم الخلال أنه قال : ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به ، إلا سهل الله سبحانه وتعالى إلي ما أحب . وذكر ابن الجوزي في صفوة الصفوة أن ابراهيم بن الحربي كان يقول : قبر معروف الكرخي الترياق المجرب . وذكر مثله الخطيب البغدادي في تاريخه . وصح أن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال : قبر موسى الكاظم ترياق مجرب . وقال سيدي أحمد الرفاعي الكبير في كثير من كتبه : إن التوسل بالأولياء إنما هو بمحبة الله تعالى لهم . ومحبته لهم صفة له تعالى ونعم الوسيلة له صفته جل وعلا ، وما بقي بعد هذا إلا العناد واختراع التأويلات الباطلة على غير مراده. وبالجملة فمن أفرط واعتقد أن الأنبياء الأولياء متصرفون مستبدون قادرون على الفعل والقطع والوصل من غير التجاء إلى الله تعالى ، فهو ممكور به

مبعود وقوله مردود . ومن فرط وقاس الأنبياء والأولياء بالأصنام والمسلمين المستمدين منهم الذين اتخذوهم شفعاء إلى الله تعالى كعبدة الأوثان ، فهم أقبح من أولئك وأسوأ حالاً وأضل سبيلاً .

والحق أنه لا معبود إلا الله ولا تأثير لغير الله ، وأن التوسل والاستمداد والاستعانة والاستغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء في قضاء الحوائج الدنيوية والأخروية جائز عقلاً وشرعاً ، وحاصل فعلاً بمحبة الله تعالى وكرامته لأنبيائه وأوليائه المنقولين ، وكرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسُّنة ، وواقعة بالفعل لهذه الأمة من زمن نبيها صلى الله عليه وسلم إلى اليوم .

وكما أوضحنا معنى الوسيلة والاستشفاع وغيرهما مما يرادفها ، وذكرنا الأحاديث الصحيحة الواردة في مشروعيتها وجواز فعلهـا عند أهل السنة والجماعة ، رأينا أن ذلك فضلاً عن كونه لا ينافي التوحيد فهو من كمال التوحيد وانكسار القلب إلى الرب جل وعلا .

نأتي هنا على بيان معنى الكرامة وجواز تنوعها ، وبطائفة من الكرامات الواقعة بالفعل لهـذه الأمة وثبتت في صحيح السُّنة ، يطلع عليها من لم يكن عالماً بها فنقول :

الكرامات جمع كرامة وهي أمر خالق للعادة غير مقرون بالتحدي ودعوى النبوة ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشرعته ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم .

ودليل جواز وقوعها أن ظهور الخارق أمر ممكن في نفسه ، وكل ما كان كذلك فهو صالح لشمول قدرة الله تعالى لإيجاده ، اذ لو لم نقل بجواز الوقوع للزم تعجيز قدرة الله تعالى التي تتعلق بالممكنات ، وللزم ترجيح بعض طرفي الممكن على بعض وكلاهما محال .

ودليل إمكان ذلك الأمر أنه لا يلزم من فرض وقوعه محال عقلاً ، ودليل الوقوع بالفعل لهذه الأمة ما سيأتي بيانه .

وقبل أن نأتي على ذكره نتكلم على بعض أنواع الكرامات فنقول :

من الكرامات مقام التصريف في الكون للأنبياء والأولياء المنقولين ، إذ معنى ذلك أنهم إذا توجهت نفوسهم إلى الله بطلب شيء من الأمور الدنيوية لعبد من المؤمنين ، وأذن لهم في الطلب أن يعطيهم ما سألوا من غير تحويل لإرادته تعالى ، بل ذلك يحصل بمشيئته تعالى وإرادته . ومن الكرامات الإخبار ببعض المغيبات والكشف وهو درجات تخرج عن حد الوصف، ولا يعارضه قوله تعالى: « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول »، لأن ما في الآية يجوز أن يختص بحال القيامة بقرينة السياق والمراد سلب العموم نحو لم يقم كل إنسان ، لا عموم السلب ، نحو كل إنسان لم يقم ولا يعارضه أيضاً قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » ، لأن علم الأولياء بالغيب إنما هو بإعلام الله تعالى لهم ، وعلمنا بذلك إنما هو بإعلامهم لنا وإعلام الله للأولياء ببعض المغيبات لا يستلزم محالاً عقلاً ، فإنكار وقوعه عناد ، واطلاع الأولياء على بعض الغيبيات ثابت عند جمهور أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ، فإنهم نصوا على وقوع ذلك للأولياء وأن الكرامات واقعة للأولياء بجميع أنواع خوارق العادات لا فرق بينها وبين المعجزات إلا التحدي ودعوى النبوة ، ومن الأخبار بالمغيبات أخبار الصديق الأكبر رضي الله عنه في مرض موته بولد يولد بعده ثم أنثى ، وقد كان .

ولم يثبت في شيء من كتب المذاهب الأربعة المتواترة أصولاً وفروعاً القول بانقطاع الكرامات بالموت .

وليس من شرط مسائل الإعتقاد الثبوت بالدليل القطعي بل متى كان الدليل حديثاً صحيحاً وهو من روايات الآحاد جاز أن يعتمد عليه في بعض تلك المسائل حيث لم يكن من مسائل الاعتقاد التي يشترط فيها القطع .

ولنأت على سرد بعض الكرامات الواقعة بالفعل لهذه الأمة فنقول :

الكرامات واقعـــة في الكتاب العزيز كما في قصة أصحاب الكهف والسيدة مريم ووزير السيد سليمان وغيرهم مما لو ذكرناه لطال المقال . وقد ذكر ابن تيمية الحنبلي المشهور بخلافه لمذهب أهل السنة والجماعة في بعض مسائل الإعتقاد ، في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ما نصه :

« وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً ، مثل ما كان (أسيد بن حضير) يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيهـا أمثال السرج هي الملائكة نزلت لقراءته . وكانت الملائكة تسلم على (عمران ابن حصين) . وكان (سلمان وأبو الدرداء) يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها . (وعباد بن بشر وأسيد بن حضير) خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهم نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معهما ، رواه البخاري وغيره . وقصة (الصديق) في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك الخ ... و (خبيب بن عدي) كان أسيراً عند المشركين بمكة وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنب. و (عامر بن فهيرة) قتـل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه ، وكان لما قتل رفع ، فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع . وقال عروة فيرون الملائكة رفعته . وحديث أم (أيمن) حين هاجرت وعطشت فرأت دلواً معلقاً في الهواء فشربت منـه وما عطشت بقية عمرها. و (سفينة) مولى الرسول ﷺ ضلّ طريقه ولقي أسداً فأخبره أنه مولى الرسول صلى الله عليه وسلم فسار معه حتى أوصله إلى مقصده . و (البراء بن مالك) كان إذا أقسم على الله أبر قسمه . و (خالد بن الوليد) حاصر حصناً فقالوا : لا نسلم لك حتى تشرب السم فشربه فلم يضره . و (سعد بن أبي وقاص) كان مجاب الدعوة ، وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق. و « عمر بن الخطاب » قال : يا سارية الجبل ، فسمعه وأمـــر أن يسند الجيش

ظهره إلى الجبل فهزم الله العدو . ولما عذبت « الزبيرة » في الإسلام وكفّ بصرها قال المشركون أصابها اللات والعزى ، فقالت : كلا والله ، فرد الله بصرها . و « العلاء بن الحضرمي » مشى مع الجيش على الماء فلم تبتل قدماه . وقد حصل مثله « لأبي مسلم الخولاني » الذي ألقي أيضاً في النار فلم تضره ، الخ . » . مما لو أتينا على جميعه لاحتجنا إلى التطويل .

فلنكتف الآن بما قدمناه ليعلم المنكرون للتوسل والكرامات ، المدعون أن أهل القرون الثلاثة لم يعملوا ولم يعلموا بها ، وأن الكتاب والسنة والتاريخ ليس فيها شيء من ذلك ، أن دعواهم لا تروج إلا على قليلي البضاعة وضعفاء العقول الذين لا قابلية لهم في أنوار التوحيد ولا استعداد عندهم للخير .

وهل يمكن لهؤلاء المانعين للتوسل والكرامات أن ينفوا لنا ما أثبتناه في هذا الباب من الكتاب والسنة الصحيحة .

ويجدر بنا في هذا المقام أن نستلفت أنظار سادتنا علماء الدين الحنيف إلى ما كتبناه في هذا المقام ، وإلى ما يجريه المبشرون بالدين الجديد في طول البلاد وعرضها من التشكيك للأمة في أمر دينها ، ولا يخفى على حضراتهم أن هؤلاء المبشرين لم يمكنهم أن يلبسوا على الناس ما زعموه في شكل إصلاح إلا بدعوى الاجتهاد المطلق الذي يتعذر وجوده في شخص في هذا العصر ، كأئمة السلف المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين. وهل في إمكان رجل في هذا العصر أن يحيط علماً بالكتاب والسنة لغة وشريعة بحيث تكون اللغة له ملكة وسليقة يدرك بها المعنى المراد ، كما كان البدوي في القرون الأولى يدرك ذلك بمجرد السماع ويعرف بهذه الملكة سر إعجاز القرآن ، وأن يعرف الخاص من العام والمطلق من المقيد والمفصل من المجمل والناسخ من المنسوخ والمتقدم من المتأخر وتواريخ الرواة والمعدل والمجروح ، وأن يكون له قدم ثابت في العدالة والورع والزهد في الدنيا ، فلا يرتكب كبيرة ولا يصر على صغيرة ، وأن يزن أعماله وأقواله بميزان الشرع ،وأن يترك شيئاً من الحلال خشية الوقوع في الشبه والحرام ،

وأن لا يأخذ من الدنيا فوق ما يكفيه من الحلال فضلاً عن الحرام ، إلى غير ذلك مما هو أندر من الكبريت الأحمر ويتعذر وجوده في شخص في هذا الزمان ، زمان أعاصير الفتن الغربية التي كادت أن تجرف العقائد والأديان ولولا نفحة من نفحات الحق تهب على قلوب المؤمنين فتكسح عنها ظلمات الوهم، لساءت العاقبة وعمت البلوى .

وهل العمل بما عليه الأئمة الأربعة المجتهدون الذين تواترت مذاهبهم إلينا بالنقل الصحيح ينافي شيئاً مما عليه الغربيون من الرقي المادي والمعنوي أو ما جاء به الكتاب والسنة من الهدى والإرشاد الصحيح ، حتى يحتاج الدين لمن يكمله باجتهاد جديد يدعيه من ليس أهلاً له فيتحول الدين عن صراطه ، الأمر الذي يستحيل وقوعه إلى آخـــر الدهر ، قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وهل نسيتم يا علماء الدين وحماة الشريعة ما ادعاه الجلال السيوطي من الاجتهاد المطلق ورجوعه عن هذا الادعاء مع سعة علمه وغزارة مادته عندما قام عليه علماء عصره يطالبون بالحجة والبرهان ؟

فما سبب هذا السكوت والبدع قد أحدقت بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من الجهات الست ؟ أعجز عن الدفاع عن الدين أم تفضيل لحطام الدنيا الفاني على تأييد وخدمة شريعة سيد المرسلين ؟

أناشدكم الله أيها السادة ، هل سكوتكم هذا يرضى به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ كلا ، بل هو إقرار لمـا يأتيه المرجفون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الإمضاء
(ا . م . ا .)

*

ملاحظاتنا على هذه المقالة

ربما كانت هـــذه المقالة من أبلغ وأجمع ما اعتضد به أنصار الكرامات والتوسل في تأييد مذهبهم ، وقـد كنا نوينا بعد أن كتبنا ما كتبناه في الجزء الماضي أن نقفل القوس على هذا الموضوع ، وعزمنا على الاعتذار لحضرة الأستاذ كاتبها عن نشرها في مباحثنا لولا أنا رأينا أن في إدراجها هنا والملاحظة عليها حلاً نهائياً للموضوع الذي نحن بصدده ، فأقول :

لم يضر المتدينين أكثر من توسعهم في عقائدهم شيء ، ولو علم المتدينون مقدار الخطر الذي يجرونه على أنفسهم وجامعتهم من قبل هذا التوسع الذي أداهم إليه تبسطهم في التأويل وتساهلهم في التخييل ، لوقفوا مع نصوص كتابهم وقفة الحذر اليقظان ولبذلوا كل جهدهم في حماية أصوله بما يسعه الإمكان . ثم لو درى المتدينون كم ينال الخيال من عقل الإنسان وعلمه ، وكم تتسرب الأوهام إلى عقيدته وحكمه ، وكم تأخذ الأحلام من كاله وفهمه ، وكم يتحكم الهوى على فؤاده ونفسه ، وكم يخف تبعاً لذلك في قسطاس الوجود وزنه ، ويطيش عن وجوه الفوائد سهمه ، وينحط إلى حضيض القصور قدره .. لو درى المتدينون ذلك لدافعوا الهوى دفاع العدو الباطش ، وقارعوا الخيال قراع الخصم الغاشم . ثم لو فقهوا أن كتاب الدين بأصوله وفروعه طب النفس ودواها ، وأن واضعه هو خالقها ومولاها ، وأنه أعلم بعللها وأدواها ، وأدرى بمواهبها وقواها ، وأقدر على ضبط قانونها الذي يربيها ويرعاها. وأن ذلك الطب فيه سر مكنون وعلم مصون ، لا يقبل الزيادة ولا النقصان ، ولا يليق أن يتوسع فيه إنسان . وأن ذلك الدواء إكسير مجرب ودرياق مقدر ، والدواء مركب على قوانين ، وعقاقيره مضبوطة بالموازين ، لو اختل وضع مركباته فسد مزاجه وتغيرت أمشاجه ، وخرج عن كونه الإكسير النافع وانقلب إلى سم ناقع ؛ لو فقه المتدينون إلى هـذا الحال لحرصوا على عدم التوسع في مقررات الدين حرص المحموم على ضبط مقدار الكينين ، وعلى مج دواء لم يقدره الاقرباذين .

ما هو الدين ؟ الدين اعتقاد بالخالق الأقدس الذي أقام الوجود على هـــذا الطراز الأنفس ، وتصديق بالحساب والجزاء والملائكة والنبيين والكتب والقضاء والقدر ، وإيمان بعدل الله ورحمته وحكمته ، وتحل بصفات النجدة والسخاء والرحمة والانعطاف على الضعيف وعـدم تهيب المتسلطين ، والنظر إلى الدنيا نظر المار بهـــا إلى دار أوسع وجناب ممرع الخ ... من عقائل المحامـــد وجلائل الخلائق التي لو تحلى بهـا الحيوان لســاد الإنسان . الدين هكذا ، فلماذا نرى المتدينين في هذا العصر في أي بـــلد كانوا ، وفي أي طبقة من طبقــات الهيئة الاجتماعية وجدوا « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم »، ضعفاء،جهلاء ، جبناء ، مأسورين للأهواء ، مسخرين للأقوياء ، مزدرين في أعين أنفسهم ، ومحتقرين في نظر ذواتهم ، كثرهم قل ، وقادتهم بهل، وقد ضعفوا حتى خفت صوتهم ، وخشوا الناس حتى أصبحوا يراؤون بعـــدم التدين ويتظاهرون أنهم من أنصار التمدن ، إن سبح أحدهم سبح وحده ، لا خشية الرياء ولكن خشية أن يعد من أحلاس القديم وأنصار الفكر الرميم .. وإن حج أحدهم أوهم من حوله أنها سياحة تفيده علماً وتكسبه فهماً ، وإن دعي إلى شرب خمر اعتل بصحته ولم يعتل بعقيدته ... إلى أين إلى أين ؟؟؟

أنظر إليهم في هذا العصر وهم مطعن كل طاعن ، وهدف كل نابل ، وغرض كل غامز ، ومطمح كل هامز ولامز ، ثم أنظر إلى آبائهم في ملكهم وسلطانهم ، وعزهم وسؤددهم ، وتبسطهم في الأرض ، يأكلون من رزق الله ويعبدونه ، ويهذبون العالم ويربونه ، خلفاء الله في أرضه ، وورثة النبي صلى الله عليه وسلم في علمه وحكمه . كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى . لماذا كانوا كذلك ونكون كما ترى ؟ نحن رجال أمثالهم ، ولدينا من القرآن وسيرة النبي ما كان لديهم ، وقد أرتنا الحوادث من مؤيدات الآيات ما لم ترهم ، ولسنا بأقل منهم حباً لأنفسنا ، ولا بأكثر منهم زهداً في الدنيا ، فما هذان الأثران المتعاكسان لعقيدة واحدة ؟ أليس في هذا الإشكال ما يأخذ بالعقل حيرة ، ويسطو على النفس قهراً وحسرة .

لِمَ هذا ؟ لكوننا غيرنا وبدّلنا ، وشرحنا وتوسعنا ، وخرجنا بذلك عن حقيقة الدين وما شعرنا أو وشعرنا . فأصبح الدين المبدل وأثره أخف وزناً من قواعد العلم الأوروبي ونتائجها ، فمال الناس إلى الراجح وتركوا المرجوح رغم أنوفهم .

نعم ! عندنا أن علم أوروبا أرقى من (دين العامة) ، لذلك يضعف ذلك الدين كل يوم ويقل المتمسك به من العامة والخاصة كل حين بدون انقطاع . وإلى أين يذهبون ؟ إلى التمسك بالأصول الأوربية ، لأنهم لا يدرون ما هو الإسلام ، ولو دروه لخفوا إليه سراعاً ولاعتصموا بحبله أجمعون . لأن علم أوروبا ومبانيه لو قيس بالإسلام الحق وقوانينه لما ظهر له رونق، ولشعر المقارن بينهما بفارق لا تسده العلوم الطبيعية ولو توصلت لإحياء الموتى وإطالة الحياة الإنسانية .

نشأت هذه النهضة العلمية في الغرب قبل ثلاثة قرون أو أكثر ، فصاولت هنالك الدين وكاوحته ، وكان المشهد رهيباً مهيباً ، اعتضد فيه القديم بهوى الدهماء والغوغاء ، وتظاهر فيه الجديد بقوة النفع والإفادة ومتاع الحياة الدنيا ، وما زالا كذلك حتى انتهى إلى اليوم الذي نسمع فيه خبر التضييق على حملته وحفظته.. وحرمانهم حتى من فتح المدارس في عقر دارهم.. عجباً عجباً! لقد اشتد مراس الفتنة وقوي زندها ، لدرجة أصبحوا يعدون دينهم الذي كم باعوا أرواحهم من أجله مضراً .... لا يصلح لأن ينفذ إلى ضمائر النشء الحديث لئلا يودعها ما لا يحسن أن تلتاث به . أفحسب الذين يعنون بأمر الدين عندنا أن تلك النهضة التي قلبت شكل العالم الفكري في أوروبا ، وكان من أمرها مع دينهم ما ترى ، تحابي لنا فتدعنا بمعزل عن شرورها ؟ كلا . إنها قد ساورتنا مساورة الليث الهصور فريسته ، وقد فعلت بنا في هذه الخمسين سنة الأخيرة فعلاً ليس وراءه إلا مثل ما نال أوروبا من قبلنا . وإلا فما سبب تظاهر كثير من فتياننا بالإلحاد ؟ ماسبب استشكالاتهم على مقررات الدين في كل ناد ؟ ما

سبب خفوفهم إلى تقليد الأوروبيين في الخلق والعاد ؟. أليس فتنة أوروبا العلمية التي يقال أنها بعثت لتخليص الناس من ورطة الأديان ، وإقامتهم على سمت العرفان ، ليتأدوا إلى أعـــلا درجات العمران ، وينجو من حبائل الأساطير والكهان ؟ . نعم هو كذلك ، وليس من الحسن أن نقف على المنابر وينادي منادينا : ضاع الدين ضاع الدين ، ولكن الواجب النظر كيف يضيع الدين ، وأي قوة تجليه عن قلوب المسلمين ، ومن أي جهة ضعيفة تتسرب إلينا الفتن ، وتصرفنا عن أقدس السنن . مما يطالبنا به الدين والوطن ؟ . .

لايقف بنا على هـــذا السر العجيب إلا درس ما حدث في غيرنا من الأمم الأوروبية ، فإن سنة الله في عباده واحدة ، فإن أوجزنا فعله في أوروبا واختزلنا حوادثه هنالك في صورة مصغرة ، علمنا موقفنا معه وجهة تعرضنا لبطشه . فنقول :

نشأ العلم الأوربي الحالي والناس من العقائد في دور الخبط ، ومن العلم العالمي في طور العماية . عقيدتهم ما يوجه إليه رؤساؤهم وإن كان ضلالاً ، وعلمهم ما يتفضل به قادتهم وإن كان خيالاً ، وحياتهم بين يدي ملوكهم يتصرفون بها كيف شاءوا ، وسياستهم في يد مواليهم يصرفونهم كما أرادوا ، غنيهم هائم في وديان غروره وفجوره ، وفقيرهم هاو في تيهور هلكه وصغاره ، لا إرادة لهم ولا نفس ، ولا ضمير ولا حس ، أمم تعد بالملايين يقودها أفراد من المتسلطين . جاء العلم الأوربي والأمم على هذه الصورة ضلال في العقائد ، عبودية للحكومة ، جهالة للمنافع ، عبادة للأهواء ، طاعة عميـاء للرؤساء ، وساوس لا تدع للحق سبيلا ، ولا للصدق مقبلا . جاء العلم فقال :

« أيهـــا الناس إن لكم نفوساً أماتهـا الجهل ، فتعهدوها بالعلم . ولكم عقولاً أفسدها الخيـال فتداركوها بالحق ، ولكم أفكاراً وجهها رؤساؤكم وجهة الوسواس فردوها شطر الحقائق ، ولكم حقوقاً على رعاتكم أضاعها الاستســلام فاطلبوها بقوة الإرادة وسطوة العزيمة . أيها الناس جاءكم العلم يخلصكم مما أنتم

فيه فأطيعوه ولا تنابذوه ، وأتاكم ينقذكم من مخالب المستبدين والمخرفين فآزروه وانصروه، وشارفكم يعلمكم كيف تحيون وكيف ترتقون فاسمعوا ما يرشدكم إليه وعوه . أيها الناس إن أحكامكم مظالم ، وإن عقائدكم وساوس ، وإن أحوالكم عوابس ، وإن مصائركم غياهب وحنادس ، فاخلعوا هذه الأثواب البالية ، التي لا يلبسها شعب إلا رم عظمه ، وهلكت نفسه » ، فلم يكد يتم العلم مقالته حتى رماه الخاصة والعامة بسهام الملام والتأنيب ، وغلا قوم فتولوا أشياعه بالتعذيب، ولم يزالوا كذلك وهو دائب على صراطه يكتشف المجاهيل ويستنبط الأسرار ، ويخترع المخترعات الكبــار ، فلم يلبث الناس أن رأوا مزايا الطب ، وفوائد علم الزراعة وخصائص عـلم الطبيعة والكيمياء ، وما أحدثا في الصناعة من الرقي الذي لم يكن يحلم به العالمون ، ثم شاهدوا أسرار علوم الهيئة والرياضيات والميكانيكيات وما أحدثتها من التسهيلات والمرافق في حاجيات الإنسان،وكان فوق هذا كله أولئك المؤلفون والكتاب والشعراء الذين تشبعوا بالروح الجديدة فقاموا ينفثون الحياة من أفواه أقلامهم ، وينشرون الحقائق بأسلات يراعهم ، فلم يلبث الناس بضعة عشرات من الأعوام ، حتى رأوا أنهم قد حيوا بحيــاة جديدة وشعروا بشعور غريب ؛ أحسوا بتناقض بين دينهم ودنياهم ، وأنسوا نزاعاً بين الماضي مسرح خيالاتهم وبين الجديد محط آمالهم . فدافعوا الجديد (بالقول) زمناً ثم آل أمرهم إلى اعتقاده قولاً وفعلاً . ثم شعروا بالتفريط الهائل من ترك التدين بالمـــرة فقاموا ينشدون الدين ولكن (بنور العلم) ، ويطلبون الروح ولكن (بإرشاد الحكمة) ، وها هم في هذا الدور لليوم .

أمــا نحن الذين منينا بفتنة العلم الأوروبي ، واستهدفنا لأفاعيله ، فسيرتنا معه ستكون بلا شبهة كسيرة الأمم التي تقدمتنا، وقد لعبت تلك الفتنة بعقولنا دوراً هائلاً لا ينكره متبصر . ولقد علمنا ، وليس بعد المشاهدة علم ، أن هذه الفتنة لا تزول بالكلام ولا بالحسام ، ولو كانت تزول بهما لزالت عن أفق أوربا وقد أحرق المسيطرون من أشياعها ما يقارب نصف مليون من النفوس الأوروبية ، لأن في هذه الفتنة حقاً وباطلاً وحقها أكثر من باطلها ، فلا يقاويها

إلا حق أكبر من حقها وأفعل على العقول منه ، وهى تؤثر على العقول من جهة ما فيها من حق أكثر مما تؤثر عليها من جهة ما فيها من باطل ، فإن يكن هنالك (دين حق محض) لا شائبة للباطل فيه فذلك هو الدين الذي يبقى ، ويكون العلم خادمه وممهد الطريق بين يديه . أما دين فيه خلط من أباطيل ، وشوب من أضاليل ، فلا يقوى عليه أبداً ، ولا يجتمع وإياه في قلب رجل ، ولا دليل بعد الواقع . نحن نقول أن ذلك الدين هو الإسلام ، ولذلك سمينا مباحثنا (الإسلام في عصر العلم) وإليك بعض التفصيل :

جاء العلم الأوروبي فأكسب الناس خصالاً نشأت من طبيعة العلم نفسه ، واقتضاها موضوعه . وإنا نوجزها فنقول :

١ ــ إقرار الإنسان بجهله أمام هــذا الوجود المدهش وعوالمه غير المتناهية . وهذا الجهل ليس بالنسبة لما يعلو عن مشاعرنا ويسمو على قوانا من الكائنات فقط، بل بالنسبة أيضاً لأصغر ذرة من ذرات المادة فقد دلنا العلم على غاية جهلنا بها ، فإنا إنمــا نحكم عليها بالمشاعر الظاهرة والحدس والتخمين ونحن بمعزل عن كنهها وطبيعتها ، ومن كان أمام الذرة البسيطة كذلك فأجدر به أن يكون بما وراءها من العوالم أجهل ، وعما يسموها من حقائق الكون أغفل .

٢ ــ عدم تصديق شيء إلا بدليل محسوس : ذلك لأن الإنسان كثيراً ما يشتبه عليه الحق والباطل لقصور وسائله العقلية وضعف قوته الإدراكية ، فيجب عليه بدل أن يترامى على الشيء بالتصديق ثم يرجع عنه منهزماً أن يتئد ويتأنى ويتردد في الحكم حتى يجــد من الحس ما يؤيد مطلبه . ولماذا يتعجل فيخطىء وهو لا ينشد إلا الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ .

٣ ــ الإنسان دائم الرقي لا يمنع رقيه شيء بل إن كل حوادث الكون وأهواله أسنة تحزه للتكمل وبلوغ غاية بعيدة في العــلم والعمل والفضيلة . ونوع هذا حاله من التقدم لا يتقيد بقيد ولا تصلح أن تحكمه قاعدة وإنما له أن يقيد

نفسه في كل جيل بمـــا يناسبه من المدركات والعقائد تحت رعاية نواميس الحق والعدل .

٤ ــ اعتقاد أن روح الكمال البشري الحرية والدستور. أما تسخير الألوف المؤلفة من النفوس لأهواء رجال معدودين فليس من الحق الطبيعي في شيء ، بل هو عقبة كؤود أمام قانون الإرتقاء العام .

٥ ــ الحقائق مادة البقــاء الإنساني وروح قوامه والأباطيل جراثيم الفساد وبواعث الفناء . فعلى الإنسان أن يلتمس الحقيقة النقية كما يلتمس الغريق وجــه المخلص ، وأن يهرب من الباطل هربــه من الأفعوان الحقود ، وأن لا يزوغ عن حق ولو هدم له عقائد عزيزة على نفسه أو هجن له عادات نفذت إلى صميم كيانه ، فإن الحق أحق دين بالاتباع ، وما فائدة عقيدة باطلة تورث صاحبها في الحيــاة ذلاً وفي المعيشة قلاً وتجعله عرضة لما لا يرضاه قولاً وفعلاً .

هذه أكبر الخصال التي ينقشها العلم في أذهان طلابه ، وقد سار عليها أقوام فتأدوا من علوم الكون إلى غايات بعيدة المدى جعلت أممهم أصحاب السلطان القولي والفعلي بما اكتشفوه لها من كنوز الوجود وسهلوه لها من وجوه الفوائد وابتكروه لصنائعها من ضروب التسهيلات وليس بعد الحس دليل. وقد واجهوا بهذا الأدب العالي والرواء الفاتن أصحاب الأديان فبكتوهم على جمودهم ، ونعوا عليهم سوء حالهم ، ثم قابلوهم بضروب من الجـــدل وأنواع من الإشكالات جعلت عقيدتهم بمعزل عن الحماية ، ولولا بقية من جمود الإنسان على ما يرث من آبائه لما بقي على سطح البسيطة (دين مبدل) .

هذه تعاليم العلم ، أما ديانات العامة في كل الأمم فتنحصر جميعها بلا استثناء كما ترينا الفلسفة التاريخية في :

١ ــ عقيدة بالخالق جلّ وعــلا على صورة الملوك الدنيويين ، ولذلك فهم يفرضون على أنفسهم من الآداب والواجباتّ مثل الذي على الرعية بإزاء سلطانها

المستبد الذي لا تتقرب إليـــه إلا بواسطة المقربين إليه ، ولا يدعوه الداعى مباشرة أدباً معه بل يتوسل بأولئك المقربين وهم يبلغونه حاجته في الفرص المناسبة . هذا الأصل عام في كل دين ، وإنما للوسطاء والمقربين أسماء تختلف باختلاف الأمم والأقطار .

٢ — عقيدة في القدماء من أنهم كانوا أهـــل فضل وورع وأنهم نالوا من الفضائل العلمية والعملية ما لا يمكن الوصول إليه ولا الحوم حوله .

٣ — وأن كتبهم تشتمل على ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وأن كل العلوم الحادثة أباطيل أو أنها أمور ظنية أو شيء مقتبس من تلك الكتب القويـمة .

٤ — الثقة التامة فيما ورد عن الأقدمين والوقوف عند ألفاظهم وأفكارهم ومصادمة الحقائق الكونية بها والمكابرة في الواقع من أجلها .

هذه أكبر أصول الأديان العامية لدى كل أمم الأرض قديماً وحديثاً لا تختلف فيما بينها إلا باختلاف الأسماء واللغات ، فتخيل رحمك الله أمماً متورطة في مثل هـــذه الأصول الحرجة ، ومغلولة العقول والمدارك بحبائلها ، ثم انظر كيف يكون الجمود لزيمها والخمود غريمها والضعف الخلقي والعقلي والنفسي صفة من صفاتها. ثم ضع هؤلاء جانبــاً وانظر للأمم التي حلت عن أعناقها هذه القيود الحديدية كيف ارتقت في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية ، فبينما ترى تلك الأمم من جهة الحكومات في أخس أشكال الاستبداد والأثرة ، ومن جهة العلوم والصنائع في أحط دركات القصور ، ومن جهة الأخلاق والمعاملات في أسوإ حالات الإفراط والتفريط ؛ ترى هذه قد قامت على قطب الدستور في حكوماتها وأنالت أفرادها حريتهم الكاملة ، وارتقت فيها العلوم والصنائع لدرجة يعدها ضعاف الأمم المتدينة معجزة تخر لها الأعناق خاضعة ، وصارت أفرادها في المعاملات والأخلاق أمثلة لإيقـــاظ الغافل وزجر المتلكىء ،

وأصبحت بذلك صاحبة النهي والأمر على الأمم المتدينة بالأديان العامية ، ولا سبيل لإنكار الحس .

نقول هذا لأنفسنا قبل أن يقوله لنا مستشكل عنيد من مشككي رجال العلم الأوروبي ، ثم نتبعه بالحل الشافي إظهاراً لفضل الإسلام ودليلاً محسوساً على أنه سيكون الدين العام لسائر الأنام .

جاء الإسلام للعالم والأمم من العقائد على سنة الأديان العامية التي تقدم شرحها من تشبيه الله بالملوك واحتياج العبد للوسطاء والشفعاء واحترام مفرط للقدماء ومعاداة للجديد وجمود على التقاليد، فواجه هذه العقائد الوراثية بدحض ما بنيت عليه من قواعد باطلة . فقرر أن الله أعلم العالمين وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، ليس كمثله شيء ، لا تدركه الأبصار ولا العقول ، لا معقّب لحكمه ، محيط بكل الكائنات ، رحمته مهيمنة على كافة المخلوقات، عنايته غنى عن الوزير والمشير ، بصير بالجليل والحقير يعلم السر وأخفى ، ولا تزر عنده وازرة وزر أخرى ، لا يشفع عنده الشافع إلا من بعد إذنه : « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ، ومن يتصفح كتاب الإسلام يجد فيه مئات من الآيات تشير إلى أن مالك الشفاعة هو الله وحده وأن النفس لا تغني عن النفس شيئاً : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، ثم أفضى بالإنسان إلى ربه يدعوه تضرعاً وخفية وخوفاً وطمعاً وقائماً وقاعداً وعلى جنبه حر الفكر والإرادة معتقداً أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولو أرادوا أن يضروه بشيء لم يقضه الله عليه لرجعوا عاجزين عنه . غير متوسع في كلام الله ولا مضيفاً إليه ما ليس منه : « قل أتعلمون الله بدينكم » ، ولا متبعاً برأيه واستحسانه الجاهيل التي لم ترد على لسان نبي مرسل ولا خطت في كتاب منزل . وما الأنبياء إلا عبيداً مثلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا حياة ولا نشوراً ، وإنما هم رجال منّ الله عليهم برداء الكرامة ، وحباهم بنعمة الزلفى

منه ، مبلغين إلى النـــاس كلام بارئهم ، منذرين ومبشرين غير مسيطرين ولا متحكمين : « لست عليهم بوكيل » ، « لست عليهم بمسيطر » ،« إنما أنت منذر» « وما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، « فإنمـا عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، وقد يسلط الله من رسله من يشاء على من يشاء .

حمـل الإسلام للناس بهذا الأصل دستور الحرية وافتك الأعناق من أصفاد العبودية ، ثم خاطب الفؤاد وناجى العقل وسرد له من الحكم وروادع المواعظ مع ضرب الأمثال والإحالة على المحسوسات ما ينقش في فؤاده أدباً لا يساميه أدب ، فأراه أنه ضعيف المدارك يحتوشه الجهل من كل جانب : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، وأن قوامه العلم وحياته في الحكمة : « لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» ، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» ، ثم سرد له ما لحق الأمم الجاهلة من ضروب الخزي والخسران ودفعه للعلم دفعاً: «وقل ربَّ زدني علماً » وأشار عليه ببذل الوسع في طلب العلم والنظر في الملكوت: « قل سيروا في الأرض ثم انظروا» ،وكرر ذلك حتى عده بعضهم فرضاً . ثم نهانا أن نقول على الله ما لا نعلم وأن نحكم في دستوره ونتحكم : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وحذرنا من ذلك حتى أخبرنا أنه سيسألنا عن ميلات المسامع ولمحات اللواحظ وخطرات الفؤاد ، فقال تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » ، ثم دعانا لطلب الحق حيث كان وانشاد الصدق أنى وجـــد ، لأنها روح حياتنا وسبب بقائنا وعماد هدايتنا : « وماذا بعد الحق إلا الضلال . » ، ونهانا عن الإصغـــاء للأهواء والأخذ بالظنون والحكم بالحديث والتخمين : « ولا تتبع الهوى فيضلك » ، « وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . ثم أخبرنا عن الأمم الماضية وحكى لنـا من حوادثها في تحريف كتبها وصرفها عن معانيها والتوسع فيها والتأويل لأصولها ما خرج بها عن حقائقها وبعُد بها عن مواضعها ، وحذرنا من أن نسير سيرتهم أو نحتذي مثالهم ، وقال لنا ما معناه : قد أنزلت عليكم قرآناً فيه ذكركم وذكر من كان قبلكم، وقد ضمنته دواء أدوائكم وطب قلوبكم وهو تام

لا عوج فيه ، فإياكم واتباع الآراء والحكم بالأهواء وإياكم ومحاكاة الأمم المفسدة التي حرفت عقائدها واتبعت أوهامها ، وإنكم تعلون وترتقون ما دمتم متمسكين بكتابه المبين ، وتنحطون وتغلبون إن انفرطتم من سلكه المتين .

هذا الأدب رفع أمة العرب ومن هي أمة العرب ، وجعلها تاجاً على رؤوس العالم كله وقد أنهضت نهضة فجائية في كل ضرب من ضروب المجالات الإنسانية حتى صارت مفخرة التاريخ لليوم . وهذا الأدب عينه أرقى من أرقى تعليم للعلم وأعلا من أعلا فلسفة عصرية ، وفي التفصيل العجب العجاب مما سنأتي عليه إن شاء الله . وهذا الأدب هو الذي نتمنى أن يسود على مقررات العلم ويحيينا بنفحته حتى نؤثر بحالنا على مدنية الغرب فنكملها كما كمل آباؤنا مدنية الرومان والفرس . ولكننا لو صغنا ديننا على قالب الأديان العامية وجعلنا التوسل والتشفع ومـــا أوجبته العوائد البلدية وخلقته المقتضيات الوسطية قاعدة له أو أصلاً من أصوله فقد استهدفنا لفتنة العلم وعرضنا أنفسنا لنقد فلسفي لا نقوى عليه أبداً ، ولو قاومنا بالمدافع والذوابل وجعلنا حججنا ديناميت وقنابل .

هذه جملة نرجو من مطالعنا إمعان النظر فيها وتأمل مغازيها ومراميها ، ومجيئها من مسلم يعرف دينه ويحميه خير من مجيئها من ملحد ينابذ ديننا ويناويه ، ويجعلها فتنة على قارئيه وسامعيه .

هـــذا كله تمهيد لما سيأتي إن شاء الله بيانه عند مناقشة الأستاذ الكاتب فيما كتب من الخطر الكبير الذي يجره المتدينون على أنفسهم من توسعهم في مقررات الدين ، وذهابهم في بسطها كل مذهب حتى أن أهل الدين الواحد لينقسمون إلى أكثر من سبعين فرقة متنابذة متعادية تدعي كل منها أنها على الحق ، وتستند في دعواها على الكتاب والسنة ، وما سبب ذلك كله إلا سماحهم لأنفسهم بالتوسع في الدين والتحكم على قضاياه بالعلم . والدين متى تحكم عليه بالعلم صار علماً ومتى صار علماً صار موضعاً للخلاف والتفاوت . فلا عجب بعد ذلك إن كان لكـــل أهل قطر دين خاص وتقاليد خاصة . ونحن في مقالتنا الآتية سنري قارئنا أن

الدين فوق العلم والأهواء لا بمعنى أنه معارض للعلم والميل الإنساني ، ولكن بمعنى أنه من النقاء وظهور الحجة والإشفاق على الإنسان بحيث يرى العلم نفسه أمامه صغيراً ناقصاً متحولاً ، وترى الأهواء القلبية أن تسلم قيادها إليه فهو أرحم بها منها وأجلب لمناها من هواها، وهذا بحث جديد جليل نرجو أن نوفق إليه ، والله ولي الكفاية .

★

الإسلام في عصر العلم[1]

صدر الجزء السادس في هذا الشهر زائداً ستة عشر صحيفة اضطرنا إلى زيادتها اتساع الموضوع معنا في الملاحظة على حضرة كاتب المقالة السابقة ونعتذر من إرجاء بقيتها .

* * *

(١) تركنا هذه الملحوظة ، احتفاظاً بما ورد في الأصل ، وللدلالة على ظروف طبع الكتاب في أول مرة ، كما أشرنا الى ذلك في حاشية سابقة – (الناشر) .

الفصل الحادي عشر

الدين والمتدينون

(تتمة الملاحظة على مبحث الخوارق والأسباب العادية)[1]

الدين لغة واصطلاحاً هو ما يدين الإنسان له من العقائد التي تنشأ في وجدانه نشوءاً طبيعياً أو يأتيه بها وحي إلهي أو يستنتجه من النظر والتأمل في الكون. من هنا صار للدين ثلاث مصادر مختلفة لكل منها حال يجب الإلمام به للوصول إلى الحقيقة من هذا البحث .

أما العقائد التي تنشأ في وجدان الإنسان نشوءاً طبيعياً فهي ما يجده كل إنسان في نفسه من الإيمان بأن لهذا الكون صانعاً حكيماً قديراً . وهذا الإيمان ينشأ في الضمير وينمو على الناموس الذي ينشأ عليه العقل الطبيعي ذاته . فكما ينشأ الإنسان مفطوراً على التصديق بأن الجزء أكبر من الكل وأن الشيء لا يوجد في مكانين في آن واحد وأن المصنوع لا بد له من صانع ، كذلك ينشأ مفطوراً على اعتقاد أن له ولهذا الكون الكبير صانعاً حكيماً لأنه من بدائه

(١) انظر في الفصل السابق ، البحث في الخوارق والاسباب العادية ، ثم (انظر ملاحظاتنا على هذه المقالة) . ص ٥٩٦

العقل وضروريات النظر ومما لا يعوز الروية والتأمل . ولكن من هو هذا الإله وكيف هو وأين هو وممّ هو؟ هذا مما لم يفطر على معرفته الإنسان، ولذلك حصل الاختلاف فيه بين سائر أمم الأرض بخلاف العقيدة الأولى الفطرية فلم يختلف فيها اثنان إلا بعد ظهور الفلسفة كما ستراه إن شاء الله .

أما العقائد التي تأتي عن طريق الوحي الإلهي فهي ما يجيء بها الأنبياء والمرسلون من وجود عالم الملائكة وعالم الأرواح المجردة وخلود النفس والنعيم والشقاء الأخرويين إلى غير ذلك مما هو مكمل لتلك العقيدة الفطرية ، وقد اتحد جميع الأنبياء على تقرير دين واحد ولم يبطل اللاحق مما قرره السابق إلا شيئاً من قواعد الشرع السياسي الذي يجب أن يتغير بتغير حال الأمة واتساع دائرة معاملاتها وشؤونها ، أما العقائد الدينية الرئيسية فكلهم فيها سواء لا فرق بين أبعدهم عنا وأقربهم منا في شيء : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » ، أما ما تظهر به الأديان من الخلاف فيما بينها فأمره واقع على اتباع أولئك الرسل ، فإنهم هم الذين غيروا وبدلوا وتوسعوا فأصبح كل دين يدعو إلى ما لا يدعو إليه الآخر ، وسترى السبب في ذلك إن شاء الله .

أما العقائد التي تحصل من النظر والتأمل فهي كالأصول المستنتجة من النظريات الفلسفية : كدعوى الأقدمين منهم أن للكواكب أرواحاً وأن مقر النفوس محيطات الكواكب ، أو أن الإنسان متى مات تقمصت روحه جسد حيوان أو إنسان آخر . وكدعوى محدثيهم أن ليس في الكون إلا المادة وحدها وأن ما يقال من وجود روح وخلود وعالم روحاني وغيره هو من توليدات الخيال وتجسيم الأماني والمشتهيات ، وقد استند الأولون في تقرير أصولهم على ما تهوى نفوسهم وتشتاقه أميالهم ، واعتمد الآخرون على الحس والتجربة زاعمين أن كل ما لا يحس ليس بموجود ، فإن زعمت أن لك روحاً قالوا لك أرناها ، وإن قلت أن هنالك عالماً آخر قالوا هل رأيته .. الخ ... مما نحاربه دائماً بكتاباتنا .

فالدين الأول الفطري هو الدين الحق الناشىء في الوجدان الإنساني على مقتضى الناموس الطبيعي الذي نشأت به عواطفه وأمياله وملكاته الأخرى ، ولكن هيهات أن يقنع الإنسان بعقيدة ضميرية وهو الكائن المغرم باكتشاف المجاهيل واستشفاف المساتير والنفوذ لكل سريرة والسريان في كل دخيلة . إذا كان الإنسان يخاطر بنفسه لرؤية ما فوق الجبال وما تحت البحار وما في بطون الغيران وما في أحناء الغابات والأحراش ، وقد رأى ويرى كل يوم من المعاطب في هذا السبيل ما يشيب النواصي ويرعد الفرائص ، فكيف يقنع بالظاهر مما هو أمس شيء بحياته وأعلق أمر بفؤاده وآسر معقول للبه وأغلا محبوب لنفسه ؟ فلا غرو إن بذل في سبيل إدراك خالقه كل مجهود وتعدى لتصويره لفكره غاية حدوده ، ولا عجب إن لعب به الخيال في كل ملعب وذهب به هواه في كل مذهب ، ثم لا غرابة بعد ذلك إن رأيت لكل أمة مذهباً خاصاً وتصويراً خاصاً . من هنا كانت الحاجة للرسل والأنبياء صلوات الله عليهم شديدة ، فأرسل الله المرسلين بدين الفطرة والحق فأهابوا بالناس عن التمادي في الأهواء وزجروهم عن الجري في أعقاب الخيالات وأقاموهم على سنة الله المنزهة عن العوج فمكث كل واحد ما شاء الله أن يمكث ، حتى إذا ما اختار الله له جواره رجعت كل أمة لهواها في التوسع بدينها والخروج بعقائدها عن حدودها فنقضت وأبرمت ، وقوت ووهنت ، وانقسمت وافترقت ، وزعمت في كل ما فعلت أنها تستمد من روح الدين وتستقي من ينبوعه حتى أن الأمة الواحدة لتنقسم إلى عشرات كثيرة من المذاهب المتشاكسة المتعاكسة فترى كل مذهب يدعي أنه على حق وأنه مستند في أصوله على صحيح الكتاب ، ويسرد لك فعلاً من الآيات والنقليات ما يؤيد به مذهبه ويقوي به فلسفته. إن قلت ولِمَ ذلك ؟ قلنا من سماح كل فريق لنفسه بشرح الكتاب على طريقته والتوسع في أصوله على قدر مداركه وتسرية أسلوبه العلمي عليه ، فينقلب الدين علماً ، ومتى انقلب علماً صار عرضة للخلاف فيه ومحلاً للتنازع في أصوله وفروعه وخرج عن كونه مهب الطمأنينة على النفوس ، ورسول السلام والوئام بين الأفئدة ، ومتنسم الحب والإخلاص بين أهله ، وأصبح

مثار التنابذ والتخالف ومهب التخاصم والتشاكس وآلة لتسخير النفوس وإذلال العباد ، وواسطة لبز الأموال وانتهاك الأعراض والتسلط على الرقاب ، وتكون نتيجة ذلك كله ثورة العالم ضده ثورة لا أناة فيهـا ، كما حصل من أوروبا ضد أديانها حتى أصبحت لا تسمع لنصراء دينها ركزاً .

وأما العقائد التي تنشأ من النظريات الفلسفية والتأملات التصورية فقد فات زمانها وانقضى دورها ، وإن كان لها من دهماء الشعوب الشرقية نصراء إلى اليـــوم .

هذا حال الناس قديماً وحديثاً أمام أديانهم وعقائدهم . تأملهم رحمك الله في تنابذهم وتشاكسهم وتدابرهم وتعاكسهم ، وافتراقهم على فرق شتى ومذاهب لا ضابط لها ولا حصر ، ثم تدبر في موضوع افتراقهم ومحـل تنازعهم ومهب تخاصمهم ، وابحث عنه جهدك فإن وجدته فأنت في حل من أن تذهب مذهب ملاحدة الفلسفة الحسية في الدين وفي أهله ، وإن لم تجده فاعلم أن الدين فوق ذلك كله فاطلبه في كتاب الله وسنن رسله بفؤاد طهره الإخلاص من الوساوس وعمرته التقوى بروح التواضع .

قلنا الدين ميل فطري في الإنسان ، يشرق على القلب فيلفته إلى النظر في الوجود والتأمل في الملكوت ، ويهيب به إلى مسارح الجمال والجلال من عـالم الشهادة فيمتلىء عواطف تعطفه على أمر جلل وشؤون ليست من طبيعة هـذا الجسد ، ثم تفيض عليه تاراته وأحواله فيخر الإنسان ساجداً يناجي قدرة صورته من العدم وقضت له بهذه القيم ، ثم يلتفت حوله فيرى الكل مثله ساجداً يناجي مثله تلك القدرة بلسان حاله وقاله لا فرق بين جماد ولا حيوان وعلى كل منهم في الطلب إليه والتعويل عليه طابع العبودية وميسم الافتقار والمربوبية ، وليس ذلك الطابع على الصلد الأصم بأظهر منه على الإنسان الأكمل .

هذا هو الدين في أصله ، وكل كتب الله تعمل على تجلية تلك العاطفـــة

وتكميلها ، وكل رسل الله دعوا بقالهم وحالهم إلى إحيائها وتجميلها ، فمن أين يتسرب التنابذ إلى الناس فيما هم فيه سواء وحاجتهم إليه عامة ؟

لا جرم أن التخالف لا يتأتى من الدين ، وإنما يتأتى من أهله بغياً بينهم : « إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » ، « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » .

جاء الإسلام والناس من أمر الدين على مثل الليل الأليل ظلمات بعضها فوق بعض . سيطرة من القائمين به ، واستبداد منهم بأمره ، وأوهام وخيالات في صورة شروح وتأويلات ، وكسف من الظلمات في ثوب وحي وإلهامات؛ لكل أمة أديان ومذاهب ، ولكل مذهب طرائق ومسارب، والعامة من جور قادتهم بين أنياب حادة ومخالب خشنة ، لا يصان لهم عرض ، ولا يحفظ لهم عهد، ولا يهدأ لهم روع ، ولا يسكن لهم جأش، ولا تطلق لهم حرية في نظر واستدلال، ولا يؤذن لهم فيتفكرون في حال ومآل ، محصورون في دوائر حددها لهم قادتهم ، فهم يموجون فيها موجاً ، ويترددون في أرجائها فوجاً فوجاً . بهذا السبب انقرضت أمم بأسرها وصارت أحاديث وعبر ، ولبثت أوروبا ألف سنة في حالة جمود وخمود ، لا ينبض لهم عرق بعمل نافع ، ولا يسمع لهم صوت بما يشعر بأثر من حياة . وجاء الإسلام، والناس هكذا، فقال : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً». ثم شرع يقرر لهم أصول الحق بذلك البرهان وينير عليهم مسالك الحياة بذلك النور ، حتى تكونت للإسلام دولة محكمة الأراكين في أقل من ربع قرن ، قامت بما عهد إليها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام، وجعلت لها أثراً لا يمحى على مر الأيام والأعوام. دعا الإسلام إلى الله وحده، ولفت العقول إلى تنور أسراره ، وحكمه في مصنوعاته، وحذرها من أن يطوح بها الهوى إلى البحث عن ذاته أو التفكر في ماهيته مقرراً أنه أعلى من أن يدرك بصورة ،

وأسمى من أن تقف له الأوهام على كيفية . ثم قرر للناس قانون الاعتـدال في الأقوال والأفعال والحركة والسكون، فقال «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون»

وبعبارة أخرى شرح صدور العالم للايمان بالله، والتبرؤ اليه من كل ما عداه، ثم وجهها للاحسان في كل شيء على موجب ما تقتضي به الفطرة لا مـا تزينه الاهواء وتقتضيه الشهوات ، فقال : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن» ثم التفت لما بين يدي الأمم من تلك الشروح والمقالات التي جعلها أصحاب كل دين عمدة حجاجهم ومرائهم ، ومستقى جدالهم وخصامهم ، مما جعلوه شرحا لكتب الإلهية ، وزعموه بيانا للأسرار الروحانية ، فبين لهم أنها من توليدات الخيال ، وتمويهات الضلال ، وأن المعتمد عليها معتمد على الأوهام ، ومرتكن على الأحلام ، ومستند على الظنون والبطلان ، ومستنيم الى التخرصات والبهتان. ثم نعى عليهم غفلتهم في تصديقها ، وغباوتهم في الايمان بها ، وعمايتهم عن رؤية سوئها وضلتهم عن إدراك فسادها . فطالبهم بالدليل تعجيزاً وتبكيتا ، وكلفهم بالبرهان تقريعاً وتضعيفاً ، فقال « قل هل عندكم من علم ، فتخرجوه لنـا » ، « قل أتعلمون الله بدينكم » ، « أتقولون على الله ما لا تعلمون » ، « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . ومن يكن يتلو القرآن حق تلاوته يجده لم يدع أسلوبا من أساليب الزجر عن الخروج بالدين عن جادته ، ولا فناً من فنون الردع عن التوسع في معناه إلا وأتى به على أبين طريقة وأوضح حجة ، وأمر رسوله أن يكون للأمة المثال الكامل في إسلام الوجه لله والتبرؤ اليه من سائر الوراثات والتقاليد التي جمد عليها الناس جموداً وسنوها دينا تعصباً وضلالا فقال تعـالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . فعز على أسراء الوهم وعباد الخيال أن يتبرؤا مما جمدوا عليه من الظنون المتوارثة ، والمقالات المقدسة في نظرهم ، وكبر عليهم أن يخلعوا هذه الأثواب البالية ، ويلقوا بأنفسهم في حيـاض الاسلام المطهرة ليخرجوا طاهرين من دنس الأضاليل ، طيبين تتلقاهم ملائكة الرحمة بالتهليل ،

فنابذوا رسول الله وجادلوه وحاربوه وكافحوه ، ولم يتركوا أسلوبا من أساليب الغش والخداع الا أتوا به لاحباط سعيه وإبطال دعوتـــه . فقال له ربه ، وهو أعلم بحاله وحال عباده: « قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فانك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل. واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»، « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، «قل لا أملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، « قل مـا أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » ، « قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب. قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » ، « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ، « قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » .

نحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا أمام القرآن الكريم وآياته إلا أحد موقفين: فإما أن نعلم أنا مخاطبون بها ومكلفون بالجري على سنتها وأن ما فيها مما نعي على أهله، وأوخذ به ذووه من الأخذ بالظن وعبادة الهوى والانحراف عن جادة المؤمنين وشرح كلام الله بالفلسفة الخيالية والجمود على التقاليد الموروثة الخ ... يجب علينا أن نحترز منه ونهرب عنه ونكون عباد الله على طريقة رسوله وأصحابه ؛ وإما أن ندعي أننا غير مكلفين بها وأنها إنمـــا جاءت للكفرة

والمشركين ، ووجهت للمسرفين والملحدين ؛ أما نحن معشر المسلمين ، فصالحنا مأجور ، ومذنبنا مغفور له ، والمنحرف منا مشفوع فيه ؛ فنكون كالأمة التي قال الله فيها « يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » .

أما الموقف الأول فهو موقف المؤمنين حقاً الذين يتلون القرآن حق تلاوته ويفهمونه كافهمه الذين أنزله الله اليهم من قبل فيؤمنون بقوله تعالى مخاطباً لأصحاب رسوله : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزَ به » ، « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » ، « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » ، « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » .

من كان من أهل هذا الموقف قرأ القرآن قراءة المتهم نفسه ، المقر بالتقصير والاساءة ، المعترف بالافراط والتفريط ، فيقف مع كل آية ينظر في نفسه وعيوبها ، ويبحث في أدوائه وشعوبها ، ويفحص في ثنيات أهوائه وفنونها ، ويسبر غور سرائره منقباً عن جراثيم الباطل ومكاريب الغي والضلال حتى يجدها فيطهر ذاته منها بكلام الله الشافي وإكسيره الإلهي « وننزل من القرآن مـــا هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ؛ فلا يزالون يقرؤون القرآن ويتفهمونه ويبحثون عن دائهم ويجالدونه حتى يشفيهم الله ويقيمهم على طريقته المثلى ويجعلهم خلفاً لتلك الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس ، أو يموتون وهم على هذا الصراط فيكون رجاؤهم في النجاة عظيماً ، وطمعهم فيما عند الله من الكرامة مؤسساً على أمر معقول . ويكونون جرثومة صالحة لمن يأتي بعدهم .

أما أصحاب الموقف الثاني فهم يقرأون القرآن تبركاً وتيمناً فيمرون بمـــا يُشعر بنعيم أهل الجنة فيضعون أنفسهم بأنفسهم في الصف الأول من داخليها ، ويمرون بما يدل على العذاب فيتبرؤون منه وينزهون أنفسهم عنه ، وينتهون الى

الآيات التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيظنون أنهم مؤتمرون بها وأنهم من الجري على سنتها في المقـام الأول ، ويشارفون الآيات التي تأمر بالصبر عند اليأس والتذمم للجار والعشيرة والجامعة فيدعون أنهم من المستضعفين في الأرض وأنهم غير مكلفين بشيء من ذلك ، ويقرأون الآيات التي تنعي على المفسدين في الأرض وتلقي التبعة على عرفة الكتاب وقرائه وتحثه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدع بالحق ، فيزعمون أن ذلك من واجبات الحكومة وأنها هي وحدها المؤاخذة بكل ما يقع من صغير وكبير . وهكذا ترى لهم أمام كل زجر حجة ، وحيال كل أمـــر حيلة ، وإزاء كل تقريـع مَخْلصاً ، والنتيجة أنهم يريدون أن يعيشوا كما وجدوا أنفسهم وآباءهم منغمسين في الكسل ، مشتغلين بالأماني ، قانعين بالدون من الحيـاة ، راضين بالذل ما داموا شباعاً كاسين . وما وظيفة القرآن لديهم إذن ؟ وظيفته أن يقرأ منه كل يوم ورد ، أو يحفظ من أوله إلى آخـره عن ظهر قلب ، وأن يترنم به في الولائم والمآتم ؛ وأن يحشد له الناس كما يحشدون لسماع الآلات المطربة ، وأن يقرأ بعض سوره لقضاء الحاجات أو نيل رتبة أو وسام أو للدخول على الحكام الخ !!.. هذا هو حال أهـــل الموقف الثاني ثم هم يدعون أنهم مسلمون وأكثرهم ممن يصلون الفرائض ويتنقلون ويبتهجون ! بخ بخ !

إذا كان محض الفطرة السليمة والنظر المجرد يشعرك بأن هذا الحال ليس بدين ولا هو من الدين وإنما هو الهوى بجميع أشكاله ، يتسرب إلى كيان الانسان فيقلب معناه ويسلط عليه قوى الوهم والخيال ويجعله من أسرهما في أضيق من القفص ، فيخيل له الدين والدنيا والحياة والممات والوجود والخلود وما يتعلق بها كما يريد الهوى لا كما هو الشأن في الواقع ، ومـا هو الا الضعف تمكن من النفس فقيدها ، وسطا على العقل فأسره في خدمته وصرفه عن وجهته .

الهوى : هذا هو الداء الذي تسرب إلى أهل الأديان فأخرجهم عن صراطها وضللهم عن سبيلها . وجعلهم عرضة لفتنة العلم في هذا العصر وهيهات أن

يسترجعوا دولتهم ويستردوا صولتهم إلا بالتغلب على هواهم « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

كان زمان الانسان فيه يرسف في قيود العبودية للحكام والمسيطرين ، وكان التعلم بيد طائفة الرؤساء الدينيين لا يسمحون منه لجمهور العالم الا ما لا يضر بنفوذهم ولا يؤثر على مراكزهم ، وقد لبث النوع الإنساني في هذا الدور ألوفاً من الأعوام ، جـــاء في أثنائها الاسلام فخلص منهم أقواماً ووهبهم حقوقهم المسلوبة ، ورد لهم حريتهم المغصوبة ، فعاشوا طائفة من الزمن في جناب هـذا الحال الهنيء ، فخلف من بعدهم خلف ردوا الحال لأصله واتخذوا الشعوب خولا وعبيداً. وكان ذلك الارتكاس مما أعلم به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بعض خاصته ، وشفع ذلك بأنه سيجيء زمان ترجع للاسلام دولته ، وتعلو في كل صقع كلمته ، ويتقرر في الأرض الاصلاح الذي جاء به رحمة لهذا العالم الضعيف. ولعل عصر الاسلام هو هذا العصر رغماً عن قول قادة أوروبا أنه عصر العلم .

نحن اليوم في زمان ، الشعوب فيه خلصت من نير الاستعباد ، والحرية فيه أطلقت من الأصفاد ، وصار الإنسان بشراً سوياً ، يعرف أن له نفساً مستقلة وإرادة خاصة ، وأميالا جسدية ومعنوية ، وأنـــه حر في تصرفه مستقل في شؤونه ، وأن له الخيرة التامة في أمور حياته وتعلمه وتعيشه واعتقاده ووجهته. والأمم أصبحت كذلك لا تعتقد عبثاً ولا تدين لباطل ، ولا تقف مواهبهـا في سبيل وراثة. فالدين الذي سيكون الدين العام بعد هذا الإباء كله هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الدين الذي لا يحتاج في إثبات حقيته إلى دليل . الدين الذي تنساق اليه العواطف بلا دعوة ، بل الدين الذي يقتضيه حال الإنسان اقتضاء طبيعياً ، وينشأ فيه نشوءاً ذاتيا ، ذلك الدين هو الدين الفطري أو الطبيعي بلسان أهل العصر ، وهو الإسلام بمعناه الخاص .

ذلك الدين الفطري ينشأ في القلب وينمو فيـــه فيفيض منه على الجوارح والأعضاء روح السكينة والفضيلة أو أثر الكمال والنزاهة ، لا يقبل التأويل ولا

التوسع فيه ولا التخالف في أصوله ولا التشعب في معناه . أعني بذلك أنه فوق العلم وفوق الفلسفة ، لا بمعنى أنه ينافيهما أو يخالف أصولهما . لا ولكن بمعنى أنه بطبيعته أسمى منهما . فالدين ميل فطري عام مالك لسائر أهواء الانسان وحاكم على جميع ملكاته. وأما العلم والفلسفة فأمران وضعيان ، قابلان للتكمل في كل آن . وكل أمة تتجارى على إخضاع الدين للعلم تكون قد قلبت دينها علماً ، ومتى صار الدين علماً صار قابلاً للأخذ والرد ، ومحلاً للتنابذ والتخاصم . لأن لكل حزب ولكل أمة ولكل جيل علماً خاصاً ومدارك متخالفة فكيف يجمع الكل على علم واحد . ثم أن الأمة التي تجعل دينها علماً تعرضه للتبدل والتغير على مر الأجيال وترقي المدارك ، ومن العبث أن نحاول حمل الناس في القرن الخامس والسبعين مثلاً على تقديس علمنا الحالي ونحن في القرن الرابع عشر.

ليس بين يدى العالم اليوم كتاب سماوي حافظ لصبغته الإلهية الأصلية وصائن للدين مركزه السامي ونقاءه الفطري ونزاهته عن العلم والتاريخ والخيالات ، إلا هذا الكتاب الكريم القرآن الذي أوحاه الله الى رسوله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . والأمة التي تدعي أنها أمة هذا الكتاب وشيعة هذا الرسول الكريم يجب عليها أن تقوم على الصراط الذي نهجه لها ذلك الكتاب وعلى السنة التي خطها لها ذلك الرسول الأعظم . أما الجمود على العوائد البلدية والتقاليد القومية وتأويل الكتاب أو السنة في سبيلها وصرف معانيها لتنطبق عليها فليس من الدين في شيء بل هو مما يجب أن يتنزه عنه كل منتسب إلى هذا النور المبين .

مذهب التأويل والمحاولة يسمح للانسان أن يثبت وجود الشيء في ضده ويبرهن على عدمه في مصدر وجوده . أما رأيت أن القدري يثبت لك مذهبه من القرآن فيأتي الجبري فينفي له مذهبه ثم يستدل له على صحة مذهبه هو من ذات القرآن . وهكذا فعل التناسخي والمشبه والمجسم الخ .. هل بعد هذا كله يصح أن نترك صريح الكتاب والسنة وظاهر حال صدر هذه الأمة ثم نرمي بأنفسنا في بحار التأويلات والمحاولات لنثبت لأنفسنا صحة ما ألفناه في بلدنا وتعودناه في قومنا ؟ وما معنى إسلامنا إذن ؟

الإسلام أن تبرأ إلى الله من علمك وحولك ومورو ثاتك وما قلت وما عملت وما تخيلت وما أملت ، مسلماً وجهك إليه مجرداً روحك له ، محازيا بروحك وهي على هذه الصورة النقية وجه مبدع الكون وقيومه ليمدك من نوره بما ينير عليك أمر الحياة وأمر الممات ، ويهبك من روحه بما يهديك إلى أعدل صراط . الاسلام لله أن تدع العلم وأصوله والفلسفة ومسائلها والعادات ومآخذها والأديان وتخالفها والأمم وتنابذها وأهواءك ومواطنها والوجود وما فيه ، ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية إلى قيوم السموات والأرض ، فاراً اليه من الأغيار ، ملتجأً إلى جنابه من دعوى الانانية والاستقلال ، معتصماً بحضرته من التلونات البشرية والأحوال، راغباً اليه أن يوفقك لتعلم ويهديك فيما تعلم حتى تستوجب رضاه وتستحق كرامته في دنيـاك وأخراك . هذا هو الإسلام ولا معنى له إلا هـذا وهو دين سائر الأنبياء ، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام بعد أن نظر في النجوم واستعرضها وقال عن بعض أجرامها « هـذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين » الآيات . قال ابراهيم عليه السلام عقب ذلك كله «إني وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين»، « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بهـا ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، « إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعـد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » ، « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . وقال نوح عليـه السلام كما حكاه الله عنه وهو قبل ابراهيم عليه السلام : « فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » وقال سليمان كما نقله الله عنه « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » وقال الحواريون : « آمنـا واشهد بأنا مسلمون » وأمر خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فيما حكاه الله عنه أن يقول: « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين » ، « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » .

هذا هو الدين الذي أمر الله به سائر النبيين والمرسلين ولم يزل يوحيه الله إلى صفوة خلقه جيلاً فجيلا حتى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي آمن به أصحابه صلى الله عليه وسلم بلا تأويل ولا تحويل . وإن مجرد اسمه ليدل على ما قلنا بلا تردد ولا شبهة .

هذا الدين الذي هو الإسلام إلى الله أي الاستسلام له والتجرد اليه والتبرؤ أمامه من الحول والقوة والعلم والأديان والأغراض والأعراض والتلونات والأوهام والآمال ، مع محق كل دعوى والتخلي عن كل أنانية ، هو الدين بمعناه الخاص وهو الحال الذي سينتهي اليه العالم بعد أن يسأموا مما هم فيه من الخلاف في العقائد والتنابذ في المذاهب والتماري في الأصول ، وسيكونون عباد الله إخوانا ، دينهم الحق ، وديدنهم الصدق ، وقبلتهم وجه مولاهم الذي لا يكيف بكيف ولا يدرك بصورة ، وشغلهم الرقي في كل شيء . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » .

إذا أردت أن تعرف معنى الإسلام بمثال محسوس فإليك : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس كما هم اليوم مذاهب في الدين ، وأحزاب في الملل ، لكل منهم أصول خاصة جعلوها معتمد مذهبهم ، وقواعد اصطلحوا عليها اتخذوها مرجع ملتهم ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما فحواه ووجزه : أيها الناس ما هذا الاختلاف في فطرة أنتم فيها سواء ؟ ما هذا التجادل في الخالق وهو رب العالمين أجمعين ؟ ما هذا التفرق في العقائد وكلكم سواء في قصور

المدارك ؟ ما هذا التماري في الكتب السماوية وهي كتب الله إلى الناس كافة ؟ ما هذا التحاسد ما هذا التحاقد ما هذا التعصب ما هذا الجمود على الباطل ؟ ما هذا التقديس للآباء ما هذا الاستبسال في الدفاع عن التقاليد الفاسدة ؟ فِرُّوا الى الله أيها الناس مما أنتم فيه من هذه الأوحال المورطة والأحوال المهلكة . هلموا إلى النور الالهي وخلصوا أنفسكم من هـــذه الظلمات المتكاثفة . والغياهب المتراكبة . إليَّ عباد الله فقد اشتد بكم كلب الفتنة ، واستشرى فيكم داء العماية فقد أوحى الله إليَّ اكسير شفائكم ، وطب أدوائكم .

— إلى أين ..؟

— الى الله وحده. أما يرضيكم أن تصلوا الى الله وتعتصموا بجنابه وترتقوا في نعيم كرامته ورحابه ؟

— كيف ذلك .. وأين نحن من هذه الحظوة العليا والشرف الصحيح ؟

— اخلعوا عنكم هذه الآصار الوراثية . ألقوا عن ظهوركم هذه الأحمال المردية. نقوا أفكاركم من هذه المذاهب المتناقضة والأوهام المتعارضة . فإنها كلها أحلام في أحـلام وكلام في كلام والله من وراء ذلك كله « وإذ سألك عبادي عني فإني قريب » فلا تجعلوا هذه الكسف المضلة بينكم وبين ما هو أقرب اليكم من حبل الوريد .

— وما هو الدين الذي تأمرنا به؟.. — هو الإسلام اليه والتجرد له وكفى بهذا دينا قيما . ألا يكفيكم من الدين أن تسلموا لله نفوسكم وأرواحكم وعقولكم وأهواءكم وهممكم وهو خالقها ومصرفها ؟ بدل أن تسلموها لـيـــد أوهامكم وأحلامكم ورؤسائكم فيضلونكم بالأباطيل ويغشونكم بالأضاليل وينشئون لكم خيالات وجهالات ويوهمونكم أنهـا دين وما هي إلا وساوس اقتضاها لهم قصور علمهم وضعف إدراكهم . ومما يدلكم على أنها بهتان في بهتان ، وشيء ما أنزل الله بـه من سلطان ، أن لكل أمة دينا خاصاً ووساوس خاصة تدعي أنها هي الحق وما عداها الباطل . فبدل أن تسلموا أرواحكم لكهانكم وأهوائكم سلموها

لبارئكم وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين . – وما هي العقائد التي تأمرنا بهـا ؟ – « قولوا آمنـــا بالله وما أنزل الينـــا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون». تؤمنون بجميع ما أرسل الله من رسول وما أنزل عليهم من كتاب إيماناً إجمالياً ، أما التفصيل فلم تكلفوا به لأنه ممـا لا يفيدكم ، لا سيما وقد جالت أيدي التحريف بنصوص الكتب القديمة فأدخل اليها ما ليس منها ، وقد تدارك الله ذلك بتضمينها في هذا القرآن فهو الكتاب الجامع لسائر كتب الله المحفوظ من التبديل والتحريف بأمـــره سبحانه وتعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

– « فما بال القرون الأولى » ؟

– « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » ، « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

– وماذا تأمرنا به من مكارم الأخلاق ورياضة النفس ؟

– « إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « وذروا ظاهر الإثم وباطنــه » ، « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها » . « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ».

– ماذا تأذن لنا أن نأخذ من الدنيا ؟

– « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك» ، «قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحيـاة الدنيا خالصة يوم القيامة » ، « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ...

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » .

— ماذا لنا لو آمنا بك ؟

— « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» ، « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

— ماذا علينا لو لم نعمل بما تقول ؟

— « إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ » .

— إن في العالم أمما تكذب بالأديان ، ولا تؤمن بالرحمن وتزعم أن العلم كاف في قيادة الانسان ، وإيصاله لأعلا درجات العمران ، فما بال هؤلاء ؟

— « فإذا مس الإنسان ضرٌ دعانا ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته (على علم) بل هي فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

— إن الغفل منهم يدعون أنهم آمنون مطمئنون ، راقون متدرجون لم يأتهم العذاب الموعود ، ولا اليوم المشهود .

— « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » ، « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

هذا هو الإسلام في نقائه ، والإيمان في صفائه ، وهو كما ترى التجرد لله من

كل ما سواه والتوجه اليه بقلب نقي خال من كل آثار العلم والوراثات والخواطر كأنه قذف به لهذا الكون من ساعته ، لكيلا يكون بينه وبين خالقه حجاب من هـــذا العالم الناقص . لأن الإنسان لو ادعى أنه مسلم وتوجه إلى الله وهو مشحون الذاكرة بعلم تعلّمه أو بمعتقدات جمد عليها أو بوراثات قدسها واستنام اليها، فيكون قد أقام كل تلك الأشياء حوائل بينه وبين الله فلا يخلص فؤاده لله أبداً ما دام كذلك . ولن يرى عمره إلا تلك الاشياء التي جمـــد عليها فيعيش ويموت وهو لم يتغير ، وليس هـذا معنى الإسلام الذي هو دين كافة الأنبياء ، بل معناه كما يدل عليه اللفظ ونص الكتاب الفرار إلى الله من كل علم وعقيـدة وراثية ، ومن كل خاطر وهمسة ضمير ، حتى يخلو ما بين الله وعبده فيفيض الله على عبده ما يشاء من علم وحكمة. وبهذا الاعتبار فالإسلام نهاية ضرورية للإنسان المستقبل لا بالبرهان والاستقراء ولكن بالغريزة الطبيعية . فإن الإنسان متى اعتقد الشيء وجمد عليه ثم لاقى من جرائه مايكشف له أنه مغرور به مغشوش فيه، ثم اعتقد غيره فلاقى كما لاقى أولاً ، سئم الظنون كلها وعاداها وتكون نتيجة ذلك كله الترفع عن التظني والاقبال على المبدع الأقدس خالي الذهن من كل شيء مقهور على حاله هـذا بالدافع الطبيعي الصحيح . من يتأمل في حال أمم أوروبا اليوم يجدهم يعادون الأديان وينابذونها ويكتبون ضدها ولهم في كل يوم عمل على تخليص العالم منها .. يرى المتأمل هذا فيظن أن أوروبا تتسفل وتتدلى والحقيقة أنهـا سائرة نحو الاسلام بدافع الطبيعة ذاتها ، وكلما أوغلت في معاداة العقائد الوراثية تقدمت خطوة إلى أمام نحو الإسلام مقهورة على أمرها . وهذا معنى قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَ لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد » .

اذا فهمت أن معنى الاسلام هو هذا ، فهمت معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة وإنمـا أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) . ومعناه أن كل مولود يولد خالي الذهن من كل عقيدة وراثيـة ومن كل أثر من آثار التعصب لشيء دون شيء ، أي نقي الوجدان طاهر الذاكرة من كل أثر ،

ولما كان ديننا دين الفطرة وهو الاسلام ، كان معنى الاسلام كما قدمنا أن يتوجه الانسان لمولاه خالي الذهن من كل أثر من آثار الوراثات والجمود كأنه خلق من ساعته لكيلا يكون بينه وبين الله حجاب . هـذا ما قلناه وهو معنى الحديث الصريح . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وانما أبواه يهودانه .) الخ .. أي أن الطفل يولد مسلماً على فطرة وإنمـــا يأتي أبواه بعد ذلك فيلقنانه دينهما وقواعده وشروطه الخ .. فيخرجانه عن الفطرة وينشئان به نزوعاً إلى الجمود والتعصب من صغره فيشب بينه وبين الله تلك الحجب التي أقامها أبواه بأيديهما .

هذا هو معنى الاسلام الذي كان رسل الله كلهم عليه والذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأداه للعالمين بلا تأويل ولا تبديل ، وهذا هو الدين الذي قام به أصحـــاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وملكوا به الأرض وسادوا الملوك والقياصرة ، إذن فما بال الفرق الـتي نشأت في الاسلام وكانت سبباً في تشتيت أهله؟ الجواب ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلها في النار إلا واحدة) وما تلك الواحدة ؟ (هي ما أنا عليه وأصحابي) . وما تلك الطريقة التي كان عليها صلى الله عليـه وسلم وأصحابه ؟ هي الاسلام بالمعنى الذي قررناه لك هنا مستندين فيه على القرآن ، وهي ما فهمه أوائلنا من قبل .

هذا هو الإسلام الذي جعله الله دين رسله وأصفيائه ومقدمة لإفاضة أنوار علمه عليهم ، وهـذا هو الأصل الذي نرجو أن يرجع اليه العالم كله لأن الفطرة السليمة تتأدى اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصوره بلا تردد .فالإسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا للتأويل ولا للتحريف ، فلا يمكن أن تتفرق فيه أمة إلا إذا خرجت عنـــه إلى غيره وزعمت أن ما هي فيه هو الإسلام ظلما وزورا .

إن قيل فما ذلك الذي طولبنا بالتصديق به في الكتاب الشريف من الرسل والكتب والملائكة والنبيين والآخرة والقضاء والقدر . قلنا هذا هو الإيمان ، وما رأيته هو الفرق بين الايمان والاسلام ، وقد عبر الله تعالى عن هـذا الفارق

بأجلى عبارة فقال تعالى : « قالت الأعراب (آمنا) قل لم تؤمنوا . ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الايمان في قلوبكم » . وذلك أن نفراً من بني أسد قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جدبة فقالوا آمنا، فرد الله عليهم دعوتهم بقوله تعالى : « لم تؤمنوا » لأن الايمان اعتقاد بالقلب لم يحصل لكم بعد « ولكن قولوا أسلمنا » أي وجهنا وجهنا لله وتركنا التعصب لأصنامنا وكهاننا وموروثاتنا وتوجهنا اليك فاهدنا .

هذا هو الفرق بين الإسلام والإيمان على الطريقة القرآنية والاسلوب المحمدي، فكتاب الله يدعونا دعوتين : دعوة للاسلام أولا ، وهي أن نخلع عن أعناقنا تلك الربق الوراثية ، ونرمي عن أكتافنا تلك الآصار التقليدية ، وأن نرفع عن عقولنا وأفئدتنا تلك المضاغط الوسواسية الخرافية، وأن نتوجه لله بالقلب والروح طاهرين من كل خاطر عقيدة أو أثر وراثة أو همس تعصب ، لتتحقق عبوديتنا وتتميز حريتنا ليفاض علينا ما نحن أهله من روح وليصادف الفيض نفساً نقية وفؤاداً طاهراً. لأنا لو توجهنا إلى الله تعالى بغير هذه الطريقة من التجرد والتطهر فنحن إنما نتوجه لأفكارنا وعقائدنا وخيالاتنا فنزداد فيها جموداً وعليها رسوخاً، ولا ينفذ إلينا من النور الالهي الذي توجهنا اليه بزعمنا شيء . لأننا لم نتوجه اليه إلا وهماً ، وقد توجهنا في الحقيقة لتلك العقائد الوراثية « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

هذا من بعض أسباب تأخرنا عن آبائنا وعدم انتفاعنا من الدين بما كان ينفعهم ويحييهم. جاء الإسلام لآبائنا وقد كانوا من الوحشية والجهالة والتشتت والفوضى في أنزل المواطن فخلعهم عن هذه التقاليد الوراثية كلها وجعلهم يتوجهون لله توجهاً صادقاً، فحظوا من النور والامداد بما جعلهم مثالا يضرب في تاريخ العالم، ونحن مع وراثتنا للإسلام ودعوانا أننا من أهله ومن العريقين فيه أصبحنا لا ننتفع من عوامله المرقية عشر ما كان ينتفع منه آباؤنا . وما ذلك إلا لأننا غفلنا عن معنى الإسلام وصار الرجل منا يصلي لأنه عرف أن الصلاة فرض على كل

مسلم ، فيصلي الركعـات كما يجيء لا كما يجب وينصرف إلى لهوه ولغوه منتظراً أن يعود لأمته مجدها وسؤددها . وما درى هذا المسكين أن هـذه الصلاة هي أقوى باعث بعث العرب إلى الظهور بمـا ظهروا به من الجلالة والفخامة بما كانت السبب في دوام المدد عليهم من قبـــل خالقهم جل وعز . لأنهم كانوا إذا صلوا صلوا مسلمين وجوههم لله ، مجردين أرواحهم وقلوبهم له ، قياماً أمامه كيوم ولدوا على الفطرة لا متعصبين لشيء ولا جامدين على وراثـــة ، ولا واقفين مع هوى ، بل مستسلمين له مقرين بالعجز والقصور والجهل والفقر ، عاملين جهدهم على أن يظهروا بمظهر المربوب أمام الرب ، والمخلوق أمام الخالق ، والموجود أمام قيومه . فكانوا يتلقون وهم على هذه الكيفية من إفاضات نوره وإشراقات وجهه وآثار علمه وهدايته ما يعجز عن تصويره القلم ، ولا يكاد يدركه العقل ، ولولا أن أمر انتقال العرب فجأة من حالتهم الأولى إلى حالتهم التالية محسوس مشاهد لعدّ بعض الناس ما نقوله عنهم شعراً . ومن كان يقرأ القرآن حق قراءته ويستعرض أمام عينيه الآيات الكريمة الحاثة على اقامة الصلاة[1] حتى في مواطن الحرب والضرب يعلم أنها عماد الدين وروح الإسلام وسبب من الأسباب الأولية لسرعة رقي المسلمين الأولين . وليس هذا موطن التفصيل .

أنظر لهذه الصلاة التي كان يقيمها آباؤنا الأولون بهذه الروح العالية ، مستسلمين فيها لله من كل حول وقوة وعلم وتقليد ووراثة ، ثم أنظر اليوم للرجل منا يصلي وهو غير عالم من أمر هـــذه الصلاة إلا أنها فرض على كل مسلم ، فيتوجه بها لله وهو محشو الفكر والذاكرة والقلب بكل ما رآه وما قرأه وما سمعه وما علمه وما عمله ويعمله وسيعمله ، مملوء النفس بالدعاوى والمزاعم والأنانية ؛ ثم يزعم أنه صلى ! ويصلي هكذا سبعين سنة ولا يذوق من صلاته شيئاً ، لأنه صلى على طريقة الأديان المحرفة لا على طريقة الاسلام ، التي هي التوجه لله كيوم ولدتك

---

(١) معنى اقامة الصلاة تقويم اركانها واتقان الاتيان بها . لا مجرد الصلاة كما يتوهم بعض الناس فان لفظ (إقامة) مأخوذ من أقام الامر أي عدله وأتى به على حقيقته .

أمك متجرداً من كل جمود وتعصب وهوى وعلم معترفاً بالقصور طالباً للهداية ، راجياً للكمال بطرف منكسر ، وقلب منفطر ، ونفس يتصعد ، ومهجة تتوقد حتى يصح أن يقال أنك عبد معبود ، وحتى تكون عرضة للرحمة والعطف . أما لو دخلت المحراب وأنت ظان بعلمك الظنون ، ودائر في محيط مداركك القاصرة ، وحابس نفسك في دوائر معلوماتك وموروثاتك الضيقـــة ، وموهم نفسك أنك على شيء ، فماذا ترجي أن تنــال ؟ لا جرم يكلك الله إلى نفسك ، ويتركك لعلمك ويرقيك على قــدر اشتغالك به ، ولكن ليس هذا من الإسلام في شيء .

قلنا أن الذي قررناه هو الفرق بين الاسلام والايمان. والآن نقول أن الامور الإيمانية الستة وهي الإيمـان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، ليست خاصة بدين الاسلام فقط ، بل هي أسس كل دين وقاعدة كل فلسفة قديمة ومحدثة فهي مسائل العالم كله ، وللإنسان في الإيمان بها طريقان : طريق الاسلام وهو طريق الانبياء والمرسلين وطريق الفلسفة والكلام ، أمـــا طريقة الاسلام فهي أن تؤمن بها كما جاءت في القرآن المبين على لسان خاتم النبيين بلا تأويل ولا تحريف ولا زيادة ولا تكلف ولا تعسف ، واثقـاً بصدق ناقلها وأمانة مؤديها فتكون من « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا »، أي على طريقة أصحاب رسول الله مكتفياً بنص الكتاب وصحيح السنة ، معتقداً أن الزيادة والنقص في أوامر الله ونواهيه خروج عن جادة الإسلام وتورط في الضلال ، ملتفتاً لأسرار روحك ومستودع مواهبك ، عاملا على إعلاء كلمة ربك وإشادة صرح دينك بلا تفهيق ولا ثرثرة ، ولا خوض في مجاهيل، ولا إفاضة في مساتير.

وأما طريقة الفلسفة والكلام فأن تستورد على عقلك الشكوك والشبه ، وتهم بالرد عليها ثم تنشىء مـا يفسد ردودك وتستأنف الكرة عليها ، ثم تجمع تلك الشكوك وأجوبتها والمسائل وحلولها في كتب ضخمة وتزعم أنها الاسلام ، وتكون بذلك قد فتحت الباب لكل متكلم ولكل صاحب مقالة فتكثر المذاهب

والأقاويل والشروح وينتهي الحال لكثرة الخلافات باسم الدين بل باسم الإسلام، فتروج سنة الكلام والثرثرة وتضعف سنة العمل لأنهما ضدان لا يجتمعان، فيستحيل الدين إلى كلام في كلام ... وما بليت أمة بالكلام وتركت العمل إلا انحلت قواها وتحللت عناصرها وتراخت أواخيها وصارت طعمة لغيرها .

يقول قائل وهل تريد أن نعتقد تلك المسائل الست بلا دليل على سنة رؤساء الأديان المبدلة؟ نقول أوَ تظن أن الله تعالى الذي قال « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » أتاك بتلك المسائل وأمرك بطلب الدليل عليها ولم يأتك بالأدلة عليها فتريد أن تستعين بالفلسفة والكلام على إيجادها وهو سبحانه القائل « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد بعث لك الدين كاملا وأقام لك على أصوله من الأدلة أقصى ما يمكن الوصول اليه بوسائل هذا العقل، فإن جاش في صدرك بعدها شيء فذلك من ذبذبة النفس واضطرابها بتسلط قوة من قوى الشيطان عليها فلا تبحث عن دوائه في الفلسفة فليس فيها وراء برهان الله مرمى، بل ابحث عنه في القرآن ذاته تجد دواءك فيه بالنص الصريح كقوله تعالى « ومن يوثق بالله يهد قلبه »، « ألا بذكر الله تطمئن القلوب »، « ومن يعشَ عن ذكر الرحمن نُقيّض له شيطاناً فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .. هذا طريق مداواة الشكوك والشبه، وما سلك طريق الفلسفة شاك إلا وازداد عماية في شكوكه وتوغلا في شبهه « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

لهذا السبب استاء أئمتنا الكرام في عهد المأمون من دخول الفلسفة اليونانية إلى معاهدهم العلمية فقد رأوا رضي الله عنهم الخطر وهو بعيد، ولكن لم يغن استياؤهم شيئاً فجاءت الفلسفة بخيالاتها وخرافاتها لابسة ثوباً منطقياً جدلياً فتاناً فهام بها الناس ومزجوها بالدين، فأصبح دينهم فلسفة خيالية فصار مثلها عرضة للأخذ والرد والشُبه والشكوك والقوة والضعف، ولم يزل الحال هكذا حتى ضعف أمر الدين بضعف أهله فوصلنا لليوم وهو عصر المدنية الغربية والشبه

الطبيعية والعلوم التجريبية الحسية ، فلم نلبث إلا قليلا حتى رأينا حزب الدين أسفل سافلين وأتباعهم طعمة للآكلين : ينقصون ولا يزدادون ، يلحدون ولا يهتدون ، يؤخذون ولا يرجعون ، حتى انتهى بهم الحال لأن يظنوا بالدين الظنون ، بل حتى قال قائلهم : ضل المتدينون ، إنهم لمفتونون ، أما يعلمون أن زمن الأديان فات ، وأن الجامد عليها جاهل مفتات ..

هذا كله حاصل ومحبو الدين في حيرة ، وأكثرهم قد أباس حسرة ، ليأسه من النصرة ، وعودة الكرة ، ومنهم من طلب الدواء لهذا الحان المريع ، بوسائل الزجر والتقريع . وكل ذلك ضاع سدى ، لأنــه كائن على غير هدى . فإن ما نحن فيه أثر مدنية الغرب وعلومه على أحوالنا الاقتصادية وقوانا العقلية ، وقــد توغلت تلك المدنية وعلومها في أحشاء بلادنا وتشبعت بعقولنا وصارت عمـــدة أعمالنا وأمورنا لدرجة أصبحت كل محاولة في صدها عبثاً وكل جهد يصرف في قطع الطريق عليها باطلا.ولما كانت تلك المدنية قامت بمنابذة الأديان المحرفة ، ومعاداة العقائد المبدلة ، فلا مناص لنــا من التأثر بآثارها والالتياث بأقذائها ، فلا ينجينا من شرورها والعبودية لأهلها إلا مقارعة أصولها المضللة بأصول أقوى منها كما هو شأن قانون المغالبة في عالم الطبيعة والنواميس ، ولا يقوى على ذلك إلا الإسلام كما جاء به القرآن وبلغه محمد صلى الله عليه وسلم وهو ما قررناه لك في هذه العجالة .

من كان دينه الاسلام كما قررناه هنــا من القرآن فلا يؤمل فقط في مقاومة التعاليم الإلحادية الأوربية بل يطمع أيضاً في إحالة أمم الغرب كلها إلى الاسلام بمجرد معرفتها إياه .

هنا يقول قائل : بماذا نحكم على مقالة حضرة كاتب مبحث الخوارق ؟ بصفتي مسلماً على الطريقة المحمدية ، أقول انها رأي من الآراء وقول من الأقوال ، لا علاقة لها بالدين أصلا ، ولئن كان حضرة الكاتب كتب ذلك وقرره ، ففي الكتاب من هم وإياه على طرفي نقيض ، وربما استدلوا على صدق مذهبهم بأكثر مما استدل

ووجدوا من الأخبار ما يكون على دعواهم أدل، ولكن هل هذا من الاسلام ؟ هل فعله نبي الاسلام ؟ هل ذكره كتاب الاسلام ؟ هل قوله شرط في الاسلام ؟ هل فعله قاعدة من قواعد الاسلام ؟ لا بل هذه كلها أقوال متعارضة ، وأقوال متناقضة اختلف فيها الناس قديماً وحديثاً وفي كل ملة ، وكان سبب اختلافهم في المدارك والمشارب ، سبباً لاختلافهم في المدركات والمذاهب ، ولكن الدين وراء ذلك كله . الدين أن نعتقد بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر والقضاء والقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، أما ما زاد على هذا من الأقوال والدعاوى ، فآراء لا يكلف بها مسلم ، ولم تقم لها دعوة في دين الله ، وليست هي من الأمور التي تقام لها دعوة مستقلة ، بل هي من الأمور التي لك أن تعتقد صحتها وعليك عهدتها ومسؤوليتها، ولك أن لا تصدقها ،وليس عليك سؤال فيها يوم الحساب ، وليس لأحد بوجه من الوجوه أن يقرر أنها من الدين أو أن اعتقادها شرط من شروط اليقين ، وإنما الدين : هو ما جاء في القرآن وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ملاحظاتنا على مقالة حضرة الكاتب(١)

نحن لا نقصد بهذه الملاحظات الجدل ، وإنما نقصد زيادة بيان معنى الاسلام على الطريقة القرآنية والأسلوب المحمدي ، وليعلم الناس معنى قولنا . إن الدين الذي كلفنا الله به ، هو ما بين دفتي المصحف الذي عمل به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أما ما زاد عنـــه من باب التوسع والتأويل ، فآراء وأقوال ليست من الاسلام ، وانما هي آراء الناس عورضت بمثلها وحصل الأخذ والرد فيها قروناً طويلة ، ولم تزل لليوم عرضة للقيل والقـــال وكثرة الجدال . لا نقول لمن عمل به كافر أو مشرك ، لأن هذا الحكم من حق الرب سبحانه وتعالى ، فهو عالم بالسرائر ، وإنمـــا نقول أن من يعمل بها بعد ما يثبت له أنها زيادات وآراء ، فعليه تبعتها وهو وحده يسأل عنها ، ولا ينجيه قوله إني رأيتها في كتاب أو سمعتها من أستاذ ، فإن الله لا يقبل هذه الدعوى من أحد ، فليختر المسلم لنفسه خير السبل « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

أنا هنا أنبه قارئي بأني ممن يعتقد أن لله أولياء منحهم من مواهب الكرامة مقاوم لا يحوم حولها الخاطر ، ولا يتوهمها إلا من وصل إليها ، وأعتقد أنه قد يصدر عنهم من خوارق العادات ما يحير المدارك ويدهش الفكر ، ولكني من جهة أخرى أعتقد أن هؤلاء الأفراد ما نالوا مراكزهم هذه إلا بسيرهم على خطة رسول الله خطوة بخطوة ، وبعملهم بكتاب الله على قدر جهدهم . لا أرفعهم عن مستوى البشرية ، ولا أغالي في وصفهم بما لم يصفهم الله به فهم لا يدعون ولا يستغـــاث بهم ولا يتخذون واسطة بين الله وعباده ، وكل ما لهم علينا أن نعتبرهم قدوة صالحـة وأسوة حسنة . هذه عقيدتي فيهم . أما ما يعمله العامة

(١) انظر الفصل الخاص بخوارق العادات والأسباب العادية .

من رفع القباب على صلحائهم وإيقاد السرج على قبورهم والتوسل والاستشفاع بهم وهم في قبورهم ، فليس من الإسلام ولا مما وصى به نبي الاسلام ولا مما كان يتوهمه الناس توهما في صدر الاسلام . لا أقول لمن عمله أنه كافر أو مشرك فتلك ألقاب ليس لي أن أصم الناس بها ، وإنما أقول أن من يفعل ذلك فهو على غير صراط محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى غير طريقة القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ، وأنها آراء ناس على من يقلدهم فيهـــا العهدة والتبعة والمسؤولية « كل نفس بما كسبت رهينة » .

إن كنا نعتقد أنـّا أهل الاسلام وحزب الرحمن ، ومخاطبون بهذا القرآن وأن ما فيه مما بكـّت الله عليه أهله وعاب لهم فعله ، يقع علينا مثل وزرهم إن فعلناه ؛ فما هو القرآن بازاء ما قاله حضرة الكاتب .. :

قال حضرته : « وكما أنه لا يقال لمن اتخذ الأسباب الكونية العادية واسطة في أحواله وشؤونه المعاشية كافر أو مشرك كذلك لا يقال لمن اتخذ (خوارق العادات) واسطة مشرك أو كافر أيضاً » . نقول أمـا اتخاذ الأسباب الكونية العادية واسطة في الأحوال المعاشية فمنصوص عليه في القرآن والأحاديث ، قال تعالى: « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة »،«فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ، « فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» ، « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » . وقـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سافروا تصحوا وتغنموا) ،(ما أعال من اقتصد) . ولكن ما قاله حضرة الكاتب من قوله — اتخاذ خوارق العادات أسباباً — فلم يأت في الكتاب ولا في السنة . فهل يستطيع أحد أن يقول أنه من الدين بعد هذا ؟ لا ! إنه ليس من الدين ولكنه رأي لك أن تعتقده وتحتمل تبعته وعهدته ، ولك أن تقول كما قال الملائكة « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

قال حضرة الاستاذ : « الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبإخوانه النبيين والمرسلين وبالأولياء الصالحين هي عبارة عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج

ورفع النوائب وتفريج الكروب ، ولا ريب أن كل من يناديهم من المؤمنين قد علم أنه لا يعبد إلا الله ، ولا يفعل ما يريد ويمنح ما يطلب إلا الله وليس هؤلاء إلا شفعاء فقط . »

نقول: أما قوله الاستغاثة بالنبيين والأولياء الصالحين ، فلم يسمع مثل هـذه اللهجة في صدر الإسلام ولا في عصر التابعين ولا من بعدهم . أما القرآن فخلو منها بالمرة وكله دعوة لتمحيض الاستغاثة به وحده ، وزجر عمن يدعو لكشف الضر غيره ، قال تعالى : « فلا تدعوا مع الله أحداً » ، « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » ولو كانت الاستغاثة بالانبياء والمرسلين من الدين لجاءت ولو آية واحدة تشير إلى ذلك ، وقـــد حكى الله دعوات النبيين والصالحين وتوبة التائبين من عباده المقربين واستغاثات المنيبين من أوليائه الطيبين، فلم يأت في خلال دعوة من تلك الدعوات ما يشم منه أن نبياً أو صالحاً أو تائباً استغاث بغير الله في كشف ضره وتفريج همـــه وقضاء حوائجه ، وقد أمر الله بالدعاء والتوبة في مواطن كثيرة فلم يشر إلى الاستغاثة بغيره أبداً ، وهذه سنة رسول الله من أولها إلى آخرها لا يوجد فيها ما يشير الى أن الاستغاثة بغير الله جائزة لأحـــد من الموحدين ، ولم يسمع في كلام أحد الصحابة من الأنصار والمهاجرين ولا في كلام التابعين ولا من تبعهم حدوث الاستغاثة بأحد من الناس دون الله. وهذه كتبهم بين أيدينا ومقالاتهم وخطبهم في أشد المواقف وأحرجها ولم نسمع بأن القائد فلاناً المحصور صاح أغثني يا فلان أو أدركني أو ساعدني أو أمدني ، بل كان طلبهم كله موجهـــاً لخالق الكل وحاكم الكل ، إنما غاية ما ورد من طريق الآحـــاد جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم كقول القائل : «اللهم إني أسألك برسولك محمد أن تكملني وتهديني » ، وأنت ترى التوسل غير الاستغاثة إذ الاستغاثة تقتضي نداء المستغاث به والترامي بين يديه ، أما التوسل فلا يستدعي دعوة المتوسل به .

قال الأستاذ: ــوليس هؤلاء إلا شفعاء فقطــ وهي لهجة حادثة لا توجد في

كتاب الله ولا سنة رسوله ولا كتب المؤلفين من الأئمـــة المجتهدين فليست هي وكلمة الاستغاثة من الدين ، ولو تسامحنا في قبول الألفاظ التي لم ترد في القرآن وهو أفصح كلام ، ولا في حديث رسول الله وهو أبين الحديث ، جرّ ذلك إلى اعتقاد مدلولاتها والتوسع فيها وسرى عليها ما يسري على الدخيل من الكلام ، وفهمت منها الأفهام على قدر محصولها ، وخرج بذلك الناس عن دينهم من حيث لا يشعرون . وهذا سبب تحريف كل ملة .

قال الأستاذ في تفسير قوله تعالى « وابتغوا إليـــه الوسيلة » : الوسيلة ما يتوسل به إلى الله تعالى من عمل صالح أو عبد صالح .

نقول : أما قوله (من عمل صالح) فقد وردت في كثير من آيات القرآن ، أما قوله أو عبد صالح فـــلم ترد في القرآن ولا في الحديث ولا في التفاسير التي كتبت في عصر التابعين ومن تبعهم . ولم ترد إلا في كتب بعض المتأخرين . ولا يخفى أن المتقدمين أعلم باللغة وبالدين من المتأخرين ، وإن أضفت إلى ذلك أن الصحابة وتابعيهم لم يفهموا من الآية إلا التوسل بالأعمـــال الصالحة فجدوا واجتهدوا ، ولم يتوسل بعضهم ببعض ، بل ولم يرد لذلك أثر من ذكر في كل خطبهم وكتبهم ، علمت أن هذه كلمة حادثة ليست من الدين ولا نقبلها فيه .

قال الأستاذ : (وجعل العبد الصالح وسيلة إلى الله تعالى إنما هو من إعظام جانب التوحيد لأن من شهد سوء حاله وكثرة ذنوبه لا يجد له وجهاً ولا سبيلا للسؤال من ربه ، فتجتمع همته على التوسل لله تعالى بأوليائه وأحبابه اعترافـــاً بالذنب وانكساراً للرب وإعظاماً لجانب القدرة الالهية وايماناً بأن الله هوْ الفعال لما يريد) .

نقول : الله أعلم بمصلحة عباده ودينه ، وقد خاطب الله الكافرين والمترفين ووجه اليهم القول وطالبهم في كتابه المبين بالتوبة وعلمهم كيف يتوبون فقـــال تعالى « استغفروا ربكم إنه كان غفاراً » ، ولم يقل ولا في آية واحدة أن الكافر

الملتاث بالذنوب السيء الحال الذي لا يجد له وجهاً للسؤال من ربه عليه أن يتوسل إليه بأحد من عبيده، وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش وغيرهم ودعاهم للتوبة والإنابة ولم يشرط لهم أن ذلك لا يقبـــل منهم إلا إذا توسلوا له بوسيلة. اللهم إن هذا ليس من الدين. أما ما استدل به الاستاذ من استغفار الرسول للتائبين فذلك ليس من التوسل ولا الإستغاثة وإنما هو من قبيل مساعدتهم في الطلب، وهذا جائز لنا بعضنا مع بعض.

قال الأستاذ: وقد صح صدور التوسل من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الامة وخلفها ، أما صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم فقـــد صح في أحاديث كثيرة: منها أنه كان من دعائه (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك)، ثم قال الأستاذ أنه صلى الله عليه وسلم دعا بهذا الدعاء وأمر به أصحابه حتى ما كان أحد من السلف إلا كان يدعو به .

نقول : القاعدة عند أئمتنا المجتهدين (إن صح الحديث فهو مذهبي) ، فـلو صح هذا الحديث جاز للمسلم أن يقول : (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك) دون أن يزيد عليه منعنده أسماء وألقابا كأنه شهد توزيع المواهب في عالمالقدس وما وراء هذا العالم . نعم ، إن صح الحديث جاز أن يدعو بهذا الدعاء دون أن يزيدعليه لأن رسول الله صلىالله عليه وسلم أعلم بالله وأفصح لسانا وأطلب لمراضي الله ومحابه وأوثق برحمة الله وحسن ثوابه من كل من يميل للزيادة على ما قال . أما لو تذرع أحدنا بهذا الحديث فزعم أنه يجوز للمسلم أن يقول (بحق فـلان وفلان) فعليه التبعة والعهدة . لا نقول أنه مشرك أو كافر ولكن نقول أنه زاد على ما قاله رسول الله وتعدى الحد الذي رسمه له . ولكن المسلم المتتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعتقد أنه جاء بطب القلوب ودوائها ، وكما أنه لا يجوز الزيادة في تعاليم الطبيب أو التوسع في أوامره والاستبداد بالرأي في زيادة أو نقص مقادير العلاجات التي يصفها ، كذلك لا يجوز لمؤمن أن يزيد على ما ورد من أوامر النبي صلى الله عليه وسلم وهو الطبيب الروحاني الأكبر ، ولا أن ينقص

شيئاً منها إن أراد أن يتأدى إلى الكمال الذي وصل اليه صدور هذه الأمة . وكما أنه لا يجوز لغير أهل صناعة الطب والصيدلة والباحثين في خواص العقاقير أن يزيد في مواد القانون الصيدلي مادة مستنداً في إيرادها على رأيه الخاص ، كذلك لا يجوز لغير النبي صلى الله عليه وسلم أن يزيد برأيه شيئاً مهما كانت الزيادة صغيرة فإن الصغيرة تجر الصغيرة ، والتوسع يستدعي التوسع ، فينتهي الحال بخروج الناس عن صراط الدين باسم الدين وقد حصل ذلك في كل ملة ، بل لا طريق لتحريف الأديان إلا هذا ، ولو ثبت كل أهل دين على ما وجدوا عليه نبيهم ، وقنعوا من الدين بما علمه لهم بالحرف الواحد ، وتشددوا في حفظ مبانيه ومعانيه كما هي ، لما وجدت على سطح الأرض إلا دينا واحداً ، لأن مبنى دين الأنبياء كلهم واحد ، ولكنك ترى مئات من الأديان في كل دين عشرات من الفرق ، ولا سبب لهذا كله إلا عدم الوقوف عند النص وتناولها بالرأي. ولما كانت الآراء تختلف قديماً وحديثاً كان الخلاف من شأن أهل الأديان وهلم جرا ! .. ولكن إلى أين ؟ .. قد جاء العلم بسطوته ، والإلحاد بخيله ورجله يهددنا ويهدد العالم بأسره ، فلعمرك إن لم نعتصم بكتاب الله تهنا وضللنا ثم لا يفيدنا انتصارنا لرأي فلان ولا لفكر غيره .

قال الأستاذ : « حصل قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحارث رضي الله عنه الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يستسقي لأمته فسقوا ، وفيه النداء والتوسل والتشفع والاستغاثة . الخ » .

نقول: هب أن هذا الأثر ليس بصحيح فقط بل متواتر أيضاً لا يمكن الشك فيه . فهل كل رأي يراه أحد الصحابة يعد من الدين؟ الدين كمل بالقرآن والسنة النبوية وما يجيء بعد ذلك من الأقوال والأعمال فآراء يجوز أن تكون حقاً وأن تكون غيره ، لأنه لم يقل أحد بعصمة غير الأنبياء فمن شاء أن يقلد ذلك الرائي في رأيه فليفعل وعليه العهدة . ولكن لا تنس أنه قد حصل في خلافات الخلفاء الراشدين فتن كادت بها الدولة تتزعزع من أساسها ، ولم يسمع

أن أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليا ولا أحداً من كبار الأصحاب رضي الله عنهم فعل كافعل بلال بن حارث، مما يدلك على أن هذا رأي رآه لنفسه ففعله وهو مسؤول عما فعل ، ولو كان للصدر الأول أقل رأي في نداء النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به على الطريقة المعروفة الآن لدى العامة بالنسبة للصالحين لما وجد زائره مخلصاً إلى ضريحه من كثرة المحيطين به والمطيفين حوله ، ولكانت الكتب مشحونة بأنواع الاستغاثات المؤثرة مما تسمح به بلاغة الصحابة ، ولكن الأمر بالعكس فلا يكاديصادف الباحث من أمثال ما أورده الأستاذ إلا حوادث فردية يتصيدها الانسان تصيداً .

إن قيل ألا ترضى أن تكون على مذهب أحد الصحابة ؟ — أقول : للمسلم إمام واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مرجع الكل وقدوتهم فلا يقتدى إلا بفعله ، ولا يحتذى إلا مثاله . هذا أصل جميع الأئمة في أمثال هذه الأحوال .

يقال : وكيف توفق بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » — أقول : لم يقل أحد بأخذ الحديث على إطلاقه بل في الحديث تفصيل لا يخفى على ذي فطنة . وإلا ففي الصحابة من أمر بقتل عثمان رضي الله عنه فهل يؤخذ برأيه في ذلك ؟ وفيهم من خرج على عليّ رضي الله عنه وحاربه بالسيف فهل يقتدى به في خروجه ؟

هب أن الإنسان له أن يقتدي بما فعله بلال بن الحارث رضي الله عنه من الاستسقاء للناس وهي مصلحة عامة، فهل ذلك يسمح لنا أن نقيس عليه ماعليه الناس اليوم من الذهاب الى القبور والتطواف بها وإيقاد السرج ورفع القباب عليها ، والباسها العمائم وإعلائها فوق الحد الشرعي وإدخالها في المساجد والطلب إلى أصحابها كل صنوف المطالب الشخصية مما يبعثه الطمع والحقد والفخفخة .. الخ .. مما ترى عليه الناس رجالاً ونساء ؟ هل ما فعله ذلك الصحابي من طلب

الاستسقاء للمصلحة العامة يبيح للمسلم أن يقر العامـة فيما يفعلون من ضروب الجهالات التي يأباها الشرع والعقل والذوق ؟

قال الأستاذ : « والحق أنه لا معبود إلا الله ولا تأثير لغير الله، وأن التوسل والاستمداد والاستغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء في قضاء الحوائج الدنيوية والأخروية جائز عقلاً وشرعاً وحاصل فعلاً بمحبة الله تعالى وكرامته لأنبيائه وأوليائه المنقولين،وكرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة وواقعة بالفعل لهذه الأمة من زمن نبيها صلى الله عليه وسلم الى اليوم » .

نقول : أما التوسل فقد ورد في بعض الأحاديث المروية عن الآحاد ما يدل عليه ، وقد رأينا في باب الدعاء من (إحياء علوم الدين) لحجة الاسلام الغزالي رحمه الله دعاءً منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه (اللهم اني أسألك بنبيك محمد. الخ ..) ولا ينقل مثل الغزالي أمثال هذا إلا إذا رآه جائزاً . أما قوله : (والاستمداد) فلفظ محدث لم يرد في قرآن ولا حديث ولا أثر قـديم ولا على لسان إمام مجتهد من أئمتنا فيما نرجو . وقد قرن الله تعالى الإمداد بذاته العلية في كل موضع ذكر هذا اللفظ ، فلا يجوز إطلاقه على غير الله في الدين لا لغـة ولا مجازاً، لأنه من باب الزيادات في الدين التي تقبل التأويل والتوسع وتستدعي نظائرها من الألفاظ المحدثة فنخرج عن صراط الدين من حيث لا نشعر والعياذ بالله.ولماذايستمد الانسان من غير الله؟ أليس من ورد البحر استقل السواقيا ..؟ أما قوله (الاستعانة): فلم ترد أيضاً في لغة الدين الرسمية وهي لفظة محدثة وقد ورد في الحديث (وان استعنت فاستعن بالله) ، فلا يجوز في الدين أن يستعين أحد بأحد غير الله . – أما قوله (والاستغاثة) : فمثل سابقيتها اصطلاح محدث بعيد عن صبغة الدين وقد ورد في الحديث ولا أدري أرأيته في الجامع الصغير أم كنوز الحقائق (لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله عز وجل) – أمـــا قوله (والاستشفاع) : فلم يرد في القرآن بالمعنى الذي يريده الأستاذ إلا مسنداً إلى إذن الله . قال تعالى « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من

بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . فالشفاعة واردة ولكن على أن الله هو الذي يأمر بها ، قال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » فطالب الشفاعة والحالة هذه لا يليق أن يطلبها من نبي ولا رسول بل من الله تعالى كأن يقول ـ اللهم شفّع فيَّ رسولك ـ كما أورده الأستاذ من حديث عثمان بن حنيف في قوله (اللهم شفعه فيّ) ، فصار طلب الشفاعة من غير الله غير وارد في الدين .

يقول قائل : ما هذا الوقوف مع النصوص ؟ هل على الرجل من حرج إن قال لأخيه في الدنيا أمدني من قوتك ، أعنّي بحولك ، أغثني بجاهك ومالك ، اشفع في عند الأمير .. الخ .. مما اعتاده الناس في لغاتهم ؟ إن قلتم لا حرج فلماذا لا يجوز له أن يقول ذلك لأخيه الميت وهو يعتقد أن فيه قوة وقدرة على ذلك » .

نقول : اصطلح أهل الملل على أن العالم عالمان : عالم الجسد وله شؤون وعلاقات وأحوال مادية كلها محسوسة اصطلح الناس على تسميتها باسم جامع وهو (الدنيا) ، وعالم غير محسوس فوق هذا العالم يعلو عن مشاعرنا وعقولنا وله شؤون وأحوال لا نسبة بينها وبين هذا العالم المادي اصطلحوا على تسمية شؤونه وما يتعلق بها من عقائد باسم جامع وهو (الدين)، وقد كلف الانسان قديماً وحديثاً بالخلط بين شؤون الدنيا وشؤون الدين لميله للمحسوسات، فكوّن القدماء أديانهم على هذه القاعدة وفرضوا لهم آلهة لهم وجوه وأيدٍ وأعين وعواطف وانفعالات فجاءت الأنبياء بالتوحيد والتنزيه فدحضت حجة المشبهين وأقامت أمما على صراط الحق المبين ، ولكن كانت تلك الأمم لا تلبث بعد موتهم أن تعود لما كانت عليه من تشبيه شؤون هذا العالم بشؤون ذلك العالم مع ما بينهما من المنافاة الشديدة والفارق الجسيم ، ولكن لما ارتقى العقل الانساني وتوسعت المدارك في المعرفة ، أنف الناس تشبيه الخالق بالجسمانيات فقدسوه عن ذلك ، ولكن صعب عليهم أن يتركوا ما جمدوا عليه بالوراثة فكونوا لهم أديانا على قدر ما يعرفون من أمور الدنيا ، وعندهم أن كل جائز عقلاً جائز دينا أيضاً ،

ولم يعلموا أن هذا العقل ابن هذا العالم الجسماني ، وللعالم الروحاني (عقل أسمى منه) وهو ما يوهب للأنبياء والمرسلين بلا كسب فيدركون به ما لا يدركه الناس ويرون به ما لا يرون ، مما يوجب على كل (عاقل) أن يسلم عقله لرسول الله مع اليقين التام بأنه لو اتبع عقله الخاص لأصبح دينه على قدر عقله ، وأين هذا العقل مما خفي عنا علمه من عوالم الغيب والمعاني المجردة . ولو أردت أن تعرف تخالف شؤون العوالم بمثال محسوس فإليك : هب أن الأجنة في بطون أمهاتها يكون لها عقول تناسبها وقد جاءها ما أشعرها بأن وراء عالم الأرحام عالماً يقال له عالم الدنيا سينتهي الجنين اليه بعد أن يمضي في سجنه المظلم وقرارته الحرجة زمنا ما ، وعلمت أن الأجنة التي كانت قبلها موجودة في ذلك العالم الواسع الزاهر (عالم الدنيا) وأنهم فيه متمتعون بما لا يخطر على بالهم من حرية وانطلاق ومدارك ولذات حسية ومعنوية وأن لهم من الحول والحيل والسلطان في الطبيعة ما لا يتخيله وهو في سجنه المعتم ، هذه الأجنة ان علمت ذلك عنا فهل كل ما يجوزه لها عقلها يكون له ندسيب من التحقق ؟ هب أن جنينا منها قال : بما أن أبي في عالم الدنيا ؛ ذلك العالم الواسع الطلق ، وهو متمتع فيه من الحول والقوة والوسائل بما أعجز عن تصوره وبما أنه يود أن أقضي مدة وجودي في عالمي هذا ، عالم الارحام، الزمن المقدر ثم أنتهي اليه بسلام لأعيش معه في صفاء ونعيم ، وبما أن رأسي قد انحرفت عن موطنها الطبيعي الأمر الذي يجر لو دام إلى تشوه في العنق وفي الجبهة أو عسر في الولادة ، وبما أن سماعه صوتي وإمكانه تقويم عوجي بوسائله أمر يجوز عقلا فهو ممكن فعلاً ، فيدعو والده ويسلك في أمر معتقداته هذا المسلك فيجمد على كل ما جوزه عقله حتى يكون لنفسه جوا موبوءاً من أمثال هذه المعقولات الوهمية؟ ومن يقتنع بالوهم يوشك أن يتردى في مهاويه فيهلك .

لا مشاحة في أن عالم الأجنة أدنى من عالم الدنيا في كل حيثية وان الانسان في العالم الأول ضعيف ضئيل محتاج عرضة للاخطار والمهالك بضنوفها ، وانه في الثاني على شيء من القوة والحول والغنى وأقل عرضة للاخطار والموبقات ،

وزيادة عن ذلك فهو حي حياة انسانية ومتمتع بالمدركات العالية والمعلومات النظرية ، ولكنك تراه مع ذلك لا يتسلط على عالم الأرحام الا من جهات عامة كتأثيره على الأمهات بالتربية والهداية أو الافساد والغواية، ولم تزل قواه العقلية ومواهبه الجسمية أعجز من أن تسعف الجنين بشيء من قبيل ما يفيده خاصة ، ولم تنفك مشاعره قاصرة عن إدراك حاجة ذلك الجنين منه مباشرة ، فانظر كيف أن تخالف العالمين أحدث بين شؤونهما من التباين ما يجعل المعقول لدى أبناء أحدهما غير ممكن لدى أبناء الآخر مع سمو أحدهما على الآخر سمواً لاحد له . فاذا أراد أحدنا أن يجعل كل جائز بعقله لمكتسب من هذا العالم ممكنا في ذلك العالم ثم يرتقي من فرضه أنه ممكن إلى ضمه إلى عقائده وجعله ركنـا من أركانها ، ثم يتدرج من ذلك إلى عده من الدين ووصم كل من لا يرضخ له بأنه مبتدع على غير مذهب أهل السنة، فذلك ممن لا يرى نعقائده حداً يقف عنده، لأن الجائزات التي يجوزها هذا العقل الدنيوي لا تحصر ، كما أن الخطأ في المعقولات لا يحصر أيضاً فيكون أمر المتدينين على هذه الصورة خطراً عليهم جداً . ولكن أين هذا من الاسلام الذي قانونه القرآن وأين هذا من السنة التي هي ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم لا غير ؟ أين هـذا من دين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والأصحاب الكرام والأنصار العظام الذين أصبحوا مفخرة ملوك الأرض وآية ملائكة السماء ؟ .

الدين الحق الذي جـاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو أن نقف بعقائدنا في الحد الذي رسمه القرآن وأن لا نحاكي الأمم التي اتبعت أهواءها وظنونها التي يقول الله عنها « إن هم إلا يظنون » « إن هم إلا يخرصون » « واتبعوا أهواءهم ولقد جاءهم من ربهم الهدى » واذا كنا نستسلم لظنوننا ونستنيم لأهوائنا وكل ما يحسنه خيالنا ونرضخ لكل مـا رواه من قبلنا بلا محاكمة ولا مناقشة ، فما معنى أننا مسلمون إذن ؟ ما معنى نعينا على الامم التي اتبعت أهواءها سوء حالها وشر منقلبها وقد حاكيناهم في اتباع الأهواء والاستنامة لسلطان الخيال ؟ وإذا كنا نزيد في ديننا كل ما هو جائز بعقلنا هـذا القاصر فاذا تركنا للأمم

التي سبقتنا وأبادها الله لغوايتها ؟ وهل غوت تلك الأمم وخرجت عما حده الله لها في كتبها وعلى لسان رسلها إلا بمتابعة أهوائها ومحسنات ظنونهـا والرضوخ لعوائدها ؟ واذا كنا على هذا المثال في ديننا فما معنى الاسلام الذي نقول انـه الدين العام ، الدين الحق الذي سيرضخ له الناس أجمعون ؟ أليس هو الدين العام لأنه الواقف بالعقائد مواقفها الفطرية ، الآتي بها في بساطتها الالهية خالية من كل صبغة بشرية ، وآثار قومية ، وعوائد بلدية ، ولأنه مما يرضخ لاصوله بالفطرة ، ويخضع لسلطانه بالطبع[1] ؟ إذن فكيف نزيد عليه بما نجوزه عقلاً، ونستحسنه فكراً ، ونتصيده بالقياس ، ونتناوله بالتكلف والتعسف ، لعمرك أن لكـل أمة فلسفة دينية متينة الأساس مستندة على قوانـين المنطق أي استناد ، فلا يحسبن أحدنا أن أحقر وثني في العالم فقير من فلسفة عقلية في غاية الاتقان ، فان قابلنا الوثني بمعقولاتنا قابلنا بمعقولاته ، وان جادلناه بجائزاتنا جادلنا بجائزاته وصرنا وإياه في كفتي ميزان واحد ، وهل هذا هـو الاسلام الذي أعرض عن الصبغ الخاصة وجاء بالفطرة العامة ، الذي أضرب عن التقاليد المخترعة وجاء بالعقيدة الأولية في حلتها الالهية ؟ ولو كان من شروط الاسلام تمييز شعب على شعب أو تقديس رجال قوم دون رجال قوم آخرين ، أو اعلاء معقولات على معقولات،لما كان الاسلام هو الدين العام ولما كان لآبائنا حق في عرضه على الناس بهذه الصبغة ، لأن لكل شعب أنانية وعجباً بنفسه لمفاخر سابقة، ومحامد مؤثلة، وما من قوم إلا ولهم اجلال واحترام لرجال منهم غلوا فيهم فرفعوهم الى مقاوم الملائكة ، ودونوا لهم من الفضائل والخلائق ما لا يتوفر مثله الا لملك مقرب أو نبي مكرم ، ثم ما من طائفة إلا ولها معقولات مناسبة لدرجتها في العلم وحالتها من التربية فلا يتصور الانسان أن يكـون هنالك دين عام يرضخ للشعوب عن طيب خاطر ، ويليق أن يسمى دين الفطرة حقيقة إلا اذا علا بطبيعته عن كل

(١) انظر ما قررناه عنه في مقدمة هذه المقالة .

هذه الخصوصيات القومية التي لا يمتاز شعب عن شعب فيها والتي هي سبب تنافر الامم وتحاقدها من قديم الزمان إلى اليوم .

أما من جهة تميز شعب على شعب فقد وضع الاسلام له حداً لا يتعداه إلا من ظلم نفسه فقال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . بهذه الآية أصبح لا فخر لأمة على أمة ما دام الكل مخلوقين من أب وأم واحد . من هنا تنمحي الاثانيــة التي تسوق الأمم للتنافر والتفاخر ويحل محلها ميل عام للاتحاد والتقرب كما حصل بين سائر قبائل العرب التي كان بينها من الإحن ما ليس بين الأمم المتخالفة في الجنس والمذهب .

وأما من جهة تقديس رجال قوم دون رجال قوم آخرين فقد حكم الله فيه بحكمه الفاصل ، فقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولكن كل قــوم يزعمون أن رجالهم أتقى فهم أكرم فردّ الله على أمثال هؤلاء بقوله تعالى « ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ، وهو أمر من الخالق بترك الكلام على أقدار الناس ومراكزهم من الكرامة والتقوى له سبحانه وتعالى ، فهو الحكم العدل ومن عصى هذا الأمر فقد افتات على الله وتعرض لمقته .

وأما من جهة المعقولات في الدين فليست من الدين وإنما هي علم والعلم تابع لقانون الترقي في كل أطواره ، ومتى عرفت الأمــة معقولاتها وكذلك معقولات غيرها أطفأت من نار التعصب لها وسعت في تقريرها من بابها بأن تحاكمها بقانون النقد والتمحيص فما قوّاه الحس حفظته وما عارض الواقع تركته .



خلاصة ما تقدم

يجب علينا بعد أن وفينا هذا الموضوع قسطاً من البيان أن نوجز الأصول التي قررناها هنا لتكون بمثابة الصورة المصغرة يحيط بها الطرف من أول نظرة متنزعة عن شكل كبير يتوه البصر في أنحائه ولا يكاد يضبطه إلا النظر الطويل ، فنقول :

١ - معنى الاسلام أن تسلم وجهك لله مجرداً نفسك من علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليدك كلها، الفقر شعارك والخشوع دثارك والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك، متجرداً له كيوم ولدتك أمك على الفطرة لتتحقق عبوديتك، ولتمحى أنانيتك وليصح الاتصال بينك وبينه بلا حجاب من عرض عقلي أو أثر وراثي ، أما لو اتجهت له وأنت مملوء دعاوى ومزاعم ، وفاهم أنك على شيء فأنت إنما تتجه لمعلوماتك ومعقولاتك وليس هذا من الاسلام في شيء .

٢ - الاسلام بالمعنى المتقدم هو دين الأنبياء ومقدمة الفتح عليهم وهو الدين العام الذي يرضاه كل من أدركه ممن يكون قد سئم الجمود وعرف مضاره.

٣ - الإيمان أن تؤمن بالأمور الستّ المبينة في القرآن ، بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وقضائه وقدره ، كما جاءت في القرآن الكريم بالأدلة التي نص عليها الخالق العظيم بإزاء كل واحد منها .

٤ - الزيادة على ما جاء في القرآن من الأدلة هو من خلط الفلسفة بالدين ، ومتى اختلطت الفلسفة بالدين تحول الدين إلى فلسفة وصار قابلاً مثلها للأخذ والرد وهو ما يعلو الاسلام عنه لأن الإسلام لا يمكن التفرق فيه .

٥ - دواء الشكوك في أمور الايمان مبين في كتاب الله وهو الذكر وكثرة الطلب من الله للهداية .

٦ ــ ما طرأ الفساد على الأديان إلا من خلط أهلها العلم بها والذهاب بها مذهب معقولاتهم فيصبح الدين صورة علم الأمة وشكل معقولاتها ، فاذا ترقت في العلم لاحظت فرقاً بين علمها ودينها ، فان تمسكت بدينها تأثراً بالوراثة جيلاً فلا تلبث على ذلك جيلين أو ثلاثة فيثور حزب العلم على حزب الدين فتصبح الغلبة للأقوى ، وحالة أوروبا شاهدة بما نقول ، وكل حوادث التاريخ تدل عليه .

٧ ــ الدين كمل بقوله تعالى : « أليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » . وقد أقامه صلى الله عليه وسلم على الصراط الذي لا ينحرف عنه إلا منحرف ، فلا يجوز أن يزاد فيه بالرأي ولا بالعقل شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً فان آراءنا ومعقولاتنا تابعة لدرجة معلوماتنا المتغيرة المتحولة وهي ليست من الدين في شيء ، وكل ما جاء به أئمتنا الأربعة وغيرهم لم يجيئوا به بصفة وحي أو بطريقة إجبارية كما فعل زعماء الملل الأخرى . بل قالوا كلهم هذا غاية ما فهمناه والله أعلم . وكانت صلاة بعضهم خلف بعض وتحابهم وتراحمهم مع اختلافهم أكبر دليل على علمهم بأنهم لم يختلفوا فى الدين ولكن في العلم ، والاختلاف في العلم سنة العالم كله ولا حق لأحد أن يكفر أحداً بدعوى أنه يذهب غير مذهبه .

٨ - العقل الإنساني في هذا العالم خاص بأشياء هذا العالم ولكن مدركات العالم الروحاني لها عقل أرقى من هذا العقل ، يوهب هبة للأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء الأنبياء والمرسلون لم يؤدوا لنا إلا ما نستطيع إدراكه بهذا العقل ، وما خفي عنا أكثر مما لا يعبر عنه بلسان ولا يتخيل بجنان ، فالدين يقضي بأن لا نحكم بما نتعقله في عالمنا هذا على ذلك العالم الروحاني الذي له شؤون وأحوال خاصة ، فيلزمنا والحالة هذه أن نتتبع ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لا نزيد فيه حرفا ولا ننقص منه حرفاً ، فهو أعلم بمصلحة أمته من أكبر إنسان فيها ، وأدرى بما يجوز أن يفشى لها من الشؤون العلية .

٩ ــ ما نحن فيه من اللوث والخبط في العقائد والعواطف وما عرانا من

الضعف والفتور في الحياة والروابط الاجتماعية ، سببه فتنة المدنية الغربية بما حملته لنا من غث وسمين وحق وباطل ، وهي تقارع عالمنا الشرقي كله بكل سلاح، وهي فتنة لا يمكن مقارعتها إلا بأصول أقوى من أصولها وأبعد مرمى، كما هو شأن التغالب في قانون الحياة ، ولا يقوى على هذه الفتنة من هذه الجهة إلا الاسلام النقي الخالص ، فإن تدرعنا به فزنا ونجونا ، وصرنا خلفاء أمة عظيمة دعت إلى أكبر إصلاح في العالم ، وإن تركناه وتدرعنا بمعقولاتنا ومدركاتنا وبلدياتنا ، فقد استهدفنا لفعل تلك الفتنة من أرق مقاتلنا وأصبحنا كما نحن ننقص ولا نزداد ، حتى ينتهي الأمر بهروب كافة حزبنا إلى الجهة المضادة لنا ، فيتدهورون في تيهور الفتنة ونكون نحن الجانين على أنفسنا ، والمؤاخذين بجرائرنا وجرائر من كنا سبب هروبهم عنا .

١٠ — هذا هو الإسلام في أصرح معانيه وأخص مراميه ، فالقرآن والسنة ، وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحال أتباعه المهديين دليل حسي عليه ، وهذا مذهب السلف كلهم وأئمتنا شائرهم وقد دلت عليه كتبهم تلميحاً وتصريحاً ؛ ومع ذلك كله فلا نقول أننا أتينا بشيء لا يمكن الجدل فيه ، لأن الذي يود الجدال لا يوقفه شيء ولا يبعد أن يتخذ بعض الناس ما نشر في كتب بعض المتأخرين من الآراء والأقوال ، دليلاً على أن ما عليه العامة اليوم من البدع في الزيارات ، وإقامة المقاصير على القبور وإيقاد السرج عليها ، ورفع القباب فوقها ونذر النذور لها، وإدخالها في المساجد .. الخ .. من الدين بدليل تحليلها في تلك الكتب الحدثة ، فيقولون أن ذلك مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل بمجرد نسبة قائله إلى أحد أولئك الأئمة الكرام، وهم براء مما يقولون بأفواههم . على أن أولئك الأفراد العظام أتوا بما أتوا به، ثم قالوا إن صح الحديث ، فهو مذهبنا ، واضربوا بما قلناه عرض الحائط . أنظر إلى هذا الأدب الاسلامي الباهر ، ثم التفت للذين يؤولون الأحاديث والآيات لتنطبق على ما ألفوه في بلادهم ، وما وجدوا عليه أقوامهم .. « لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

خاتمة

يتخيل من يطلع على ما كتبناه هنا أننا من الذين يتشددون مع الظواهر ويجمدون على الألفاظ، وممن ليس لهم نصيب من جمال الباطن وبدائع الأسرار، كلا ! إننا ممن يعتقدون أن عالمنا الحسي هذا مهما بلغ من الفخامة والجلالة فلا يقارن بما في العالم الروحاني من آثار الفيض الالهي والاشراق القدسي ، ولنا مباحث خصوصية في الولاية والأولياء والكرامة والالهام والكشف وقد رأينا من ذلك ما يدهش العقل ويحير المشاعر ، ولنا مجالس ونواد نسمر فيها بذكر اللطائف الروحانية والرقائق الصوفية ولذائذ الذكر وأنوار الخلوة الخ.. ولكننا لا نعتقد أن هذا هو الدين بل الدين في القرآن بلا زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تأويل ، وأما ما نميل اليه بطبعنا مما ذكرناه فمن قبيل العلم يجوز علينا فيه الخطأ والقصور والتناقض ، ثم هو عرضة للزيادة والنقصان والأخذ والرد . وما كان كذلك فليس بالدين الذي يقول الله عنه أنه لا يصح الاختلاف فيه ، فالذي لا يصح الاختلاف فيه هو الفطرة العامة التي يشترك فيها الناس كافة وهو الإسلام الذي قررناه من القرآن. أما معقولاتنا وأميالنا وتجاربنا الخاصة فمما تقبل الجدال والقيل والقال ، إذن فليست هي من الدين بل من العلم . ولا بأس أن يختلف المسلمون في العلم بل ولا مناص لهم من ذلك . أما في الدين فلا ! قال الله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » ، وقال تعالى« أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » .

الإسلام بالمعنى الذي قررناه مستندين فيه على القرآن ومستضيئين له بجمال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر مرمى من مرامي الرقي العقلي والروحاني، وأبعد غاية يمكن أن يتخيلها الخيال الانساني من باحات الكمال النفساني ، فكل مسلم في نفسه يجب أن يكون حادثاً جللاً وأمراً عظيماً ، وأثراً رحمانياً بديعاً ،

وناهيك بإنسان خلص نفسه من أثر كل تعصب وشائبة كل جمود ، ونصب ذاته عبداً لله مخلصاً له الدين ، متجرداً اليه من الحول والحيلة والعلم والخيال وكل ما يتخيل أن يكون قاطعاً عن الله وعن قبول فيضه واستشراق نوره . لا جرم أن كل مسلم حادث جلل وآية إلهية باهرة ينشر الكمال والجمال والفضيلة والعدالة أينما ذهب وحيثما تحول ، ويؤيد بكل ما وهب من قوة وما منح من وسيلة دولة الحق وصولة الصدق محارباً الباطل أينما وجده وبأي صورة ثقفه ، يفعل ذلك مقهوراً بقوة مبدعه مدفوعاً بروح مصوره لا يجبن ولا يكسل ولا يخيب ولا يفشل ، كأنه ناموس طبيعي لا يرجع عن متوجهه حتى يؤدي ما سبق اليه على الوجه الذي رسم له. ألم ترَ كيف ظهر المسلمون الأولون بذلك المظهر الذي حير الأمم وأدهشها ، لم تمنعهم فاقتهم والسخرية المحيطة بهم والعادات والتقاليد التي تساورهم وتحتوشهم والصيحات التي تزعج الجبال الشم المتوجهة اليهم من كافة الأمم التي حولهم من أن يثبتوا على الحق ويؤيدوا الصدق وينابذوا البدع ويصدوا الباطل ، ثم لم يمنعهم ذلك عن بسط سيادتهم وسلطانهم على أعظم الأمم مدنية واستعداداً كأمة الرومان والفرس . ما هذا إن لم يكن كل مسلم في نفسه أمراً جللا؟ ما هذا إن لم يكن كل مسلم في الوجود حادثاً خطيراً بل قوة إلهية فعالة؟ نعم إن المسلم لما تجرد من نفسه لله كان الله لسانه وسمعه وبصره ويده الخ .. كما ورد في الحديث الكريم . فهل بعد هذا نسعى في أن نجعل الاسلام على مثال الأديان المحرفة بكثرة الخلافات والمقالات التي تقذف بنا عن إدراك كنه معناه وتطوحنا إلى البعد عن مغزاه « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

* * *

الفصل الثالث عشر

تعليقات وأبحاث ومقالات

(١)
رجال أمام رجال

يتذكر حضرات قرائنا أننا جمعنا في فصل سابق مقالة كتبت في (المجلة) الباريسية تحت عنوان (البيض ضد الصفر) دبجها يراع الاستاذ الفزيولوجي الطائر الصيت (شارل ريشيه) الفرنسي ، وأثبت فيها بالأدلة التشريحية التاريخية سمو الجنس الأبيض على الأصفر ونقص من قدر اليابان وغض من كرامتها ما شاء. ويتذكر القراء أننا قلنا أن (جان فينو) مدير المجلة رد عليه رداً علمياً بديعاً وعدنا بإيراده ليتضح للمطالع من خلال تحاورهما مرمى العلم ومرمى التعصب . والآن لاحت لنا فرصة إيراد تلك المقالة التي هي رد مدير المجلة على الاستاذ (ريشيه) . قال :

« لقد شرفني الأستاذ الفزيولوجي المبجل بإهدائي مقالته على شكل خطاب ، وإني أبادر بالرد عليه والفضل في هذا الرد راجع إليه ، ليس فقط لأن الموضوع الذي أثاره وأحمى وطيسه يستحق العناية والالتفات ولكن بالنسبة للمركز الخاص الذي يشغله المسيو ريشيه. فإن حضرته برئاسته جمعية التحكيم بين الأمم

أصبح قولاً وعملاً واحداً من أقوى أنصار السلام والإخـــاء العام . وإذا كانت عقيدة المسيو ريشيه فيا يرى تخضع أمـــام تلك المسألة العتيقة – مسألة اختلاف الاجناس – فماذا يكون إذن موقف العقول الأخرى التي ليس لها مثل علو نظره ولا سمو عواطفه ؟

« ومـــا لا يجب أن يغيب عن الأذهان أنه لو رسخ الاعتقاد بوجود أجناس من البشر كريمة عالية تستأهل انعطافنا وحبنا،ووجود أخرى منحطة تستدعي مقتنا لها واحتقارنا إياها وعدم العناية بها أو تستدعي ما هو أسوأ من ذلك منـــا وهو ما يسمونه العدل الاوربي ، لوصل الانحطاط بنا لأن نغضي ونصفح عن جميع صنوف الجرائم المضادة للإنسانية التي يرتكبها الأوربي ضد شعب من تلك الشعوب المنحطة في زعمنا ».. إلى أن قال :

« إذا قيل أنه يوجد اختلافات بين الأجناس البشرية لا مناص منها فقـــد أنكروا قانون الترقي وجحدوا بتلك الأصول الأنتربولوجية وجعلوها نسياً منسياً ، وينتج من ذلك تناقضات مخيفة مزعجة . فإننا لو فرضنا أن هنالك أمماً واقفة لا تتغير من جهة التشريح والعقل والأخلاق استدعى منـــا ذلك الفرض الإقرار بجملة أمور :

(١) أن العلم والزمن عاجزان عن إحداث أقل التغييرات في أجسامنا وعقولنا .

(٢) وبينا نعتقد بتأثير قانون التدرج في الكمال الذي كوّن هذه الكائنات المنتظمة نرانا ننكر عليه إحداث أقل تغيير في الصفات الثانوية التي تخالف بين أجناس النوع الإنساني . ولكن ما هي طبيعة هـــذه الاختلافات ؟. يقول قائل أنها اختلافات تشريحية وعقلية وأدبية . لا شك أن بحث كل هذه النقطة تفصيلاً يستدعي بلا أقل شبهة عشرين سفراً ، فلنكتف بتحليل أصل تلك النقط وهي التي سمحت لهم بترتيب العـــالم في رتبتين متضادتين : رتبة الكائنات الممتازة ، ورتبة الكائنات التي يجب أن تستسلم لها . ونحن لأجل تمزيق هـــذه الكسف

المتلبدة من الغيوم الوهمية حول هذه العقيدة الراسخة التي تعد نصف علمية فسنقارعها بالأدلة التي تأتينا عفواً لأن ضيق المقـــام لا يسمح لنا بإيراد فذلكة أصولية مدعمة .

« لنلاحظ قبل كل شيء أنه لم يقم دليل على أن هذه الاختلافات التشريحية تحدث أثراً لا علاج له على فكر وشعور تلك الكائنات البشرية . ومما يجب أن يلتفت اليه لأهميته هو أن تلك الاختلافات في ذاتها ليست بشيء سوى نتائج الوسط العائشة فيه تلك الخلائق ، فهي تتغير وتتحول تبعاً لتغير وتحول مئات من الأسباب المكونة لذلك الوسط المؤثر. وهذا (بوفون) المؤرخ الطبيعي أثبت لنا أن الجنس يبقى جنساً قائماً بذاته متى كان الوسط الذي كوّنه موجوداً بذاته لم يتغير ويزول متى تغير ذلك الوسط . (انظر تاريخه مجلد ٥) .

« لنبدأ بذكر اللون الذي يجمع كل الصفات التي يصم البيض بها من لم يكن منهم . هل اللون علامـــة أبدية ضرورية غير قابلة للتحول ؟ ها هم العرب ذوو اللون الناصع يأتون إلى مكة فيكتسبون لوناً أصفر معتماً ويفقدون مع شكل أنوفهم المستقيمة الصفات الفخمية البدوية . وقد يصادف الإنسان في بلاد النوبة عرباً سوداً مع أنهم لم يختلطوا قط بزنوج تلك الجهات (أنظر بريشار مجلد ٤) . وأطفال الزنوج الذين يولدون في بلاد يتمع فيهـــا آباؤهم بالحرية والإطلاق يجيئون بيض العيون ويكتسبون صفات تقربهم إلى البيض شيئاً فشيئاً . وقـــد نقل دوربيني ، ولويس ، وديه .. الخ .. بأن أغنياء الزنوج المستقلين يقربون منذ الجيل الثاني من اليهود السمر . وفي غينا ترى الزنوج المتمدنين يقربون من البيض ويحدث في شكل أدمغتهم مثل ذلك الترقي بعينه (عن : الدكتور هنكوك) . وقال (فيركو) أن الوسط الذي يعيش فيـــه الانسان يجعله أسمر أو أشقر على حسب الأحوال ولقد سبق كل هؤلاء القائلين هيرودوت وأرسطو وأثبتا تأثير الوسط في تلوين الناس . نعم إن الوسط بعوامله الكثيرة المتشعبة ، مثـــل الضغط الجوي والرطوبة والغذاء والضغط الكهربائي ومقدار الأزوت الموجود

في الهواء وشفافية وصفاء السماء وطبيعة الأرض .. الخ .. هي الأسباب التي تؤثر على تلوين المادة الجلدية تأثيراً حقيقياً ، وليست بمجهولة علينا تلك التجارب التي عملها (بول برت) على ديدان أكسولوتل حيث أثبت إثباتاً قطعياً بأن النور له فعل كبير على تلوين المادة الملونة لا سيما بواسطة سرعة ذبذبة تياراته . وتلك الحيوانات الثديية المجتلبة من الأراضي البائرة الأسيوية بواسطة (برجوالسكي) كانت ذات وبر أشقر أو أصفر باهت متجانس فأصبحت غير ملونة بوجودها في أراض لا ظل للأشجار فيها .

« وفي بلاد الحبشة يأخذ لون الأهالي في القتامة كلما صعدت على الهضاب أو ينجلي كلما هبطت السهول في (عبادي) . وهنالك مناخ جزائر الاتحاد له فعل عجيب في التلوين ، وذلك أنه يجعل الألوان شقرا ولا يسودها حتى أنك لترى الذين يولدون في تلك المستعمرات من الأوربيين شقراً جداً .

« لنخط خطوة للأمام فنقول : التجارب أثبتت أن الشمس لها تأثير كبير جداً في إحداث الألوان على الحيوانات والنباتات . وشوهد أنه لو أخذ طلع الزهر المسمى (بيتونيا) قبل نضجه وعرض لشيء من الحرارة أنتج أزهاراً ذات ألوان ليست لأصولها المأخوذة هي منها .

« وهؤلاء هم الصينيون الذين يولدون في كاليفورنيا بأمريكا يفقدون في جيلهم الثاني شدة اصفرار ألوانهم ، وهيئة جلودهم تقرب شيئاً فشيئاً من جلود البيض المجاورين لهم .

« وليس بنا حاجة للكلام على القصر والطول فإنه بينما نرى قصر اليابانيين نرى أن في الصين شعوباً ممتازة بطول القامات وارتفاعها . ولا مشاحة أن في هذه المسألة أيضاً للعوامل الوسطية تأثيراً لا يصح التردد فيه . فلنستعر أمثلة على ذلك من القطر الفرنسي نفسه الذي يسهل تحقيق ما نرويه عنه بسهولة ، كما أبانه « دوران دوجرو » بفصاحته المدفقة عن أهالي مقاطعة « أفيرون » ، قال : بينما نرى الرجل من « كوس » وهي تلك الجهة الكلسية يتغذى من الخبز

الخشن المصنوع من الشعير والشوفان ويشرب من المياه الصافية فيكتسب نمواً كبيراً في مجموعه العظمي ويصل لمنتهى الطول البشري ، تجد الأفيروني نفسه ساكن الأراضي المشجية التي تنبت الجاودار والكستنة والنبق يعرف بقصره المتناهي في بعض تلك الاقاليم .

« وقد أوضح مثل هذه المشاهدة « ماني » في كتابه « الزراعة العملية » فقال : الإنسان يرى مثل ذلك الخلاف في الوادي الواحد بالنسبة لاختلاف طبيعة ضفتيه ، فهذا مكون من أراض سليسية وآخر من أراض كلسية ولا يفصل بينهما إلا غدير صغير . فيرى في الجانب الثاني الغنم القوية المربعة والثيران البادنة ويرى في الأول الحيوانات النشيطة الشديدة الحيوية ولكنها قصيرة قنوع خفيفة . ومتى جلبت ثيران « أوبراك » إلى ريف « أفيرون » بمقاطعة (فارن) تبلغ طولاً لم يكن لها في مراعيها البركانية في بلادها الأصلية ، فتصبح طويلة ضخمة ثخينة .

« وأثبت « كولينيون » في « مذكرات الجمعية الانتروبولوجية . في السلسلة الثالثة من المجلد الأول » أن طول الفرنسيين تابع مباشرة لخواص الأراضي التي يسكنونها . قال إن سكان «بلوك ولو فاللون و كنتان» من مقاطعة « سانبريوك» العائشين في الأراضي الطفلية الرطبة القاحلة الممنونة بالقطع البائرة ، لا يبلغ طولهم في المتوسط أكثر من ١٫٥٤٤ متر وكذلك حال سكان إقليم « مون دومارسان » الذين لا يجدون من الغذاء إلا دون الكفاف بخلاف أهالي الجهات الخصبة الجيدة الهواء فيبلغ هنالك الطول المتوسط ١٫٦٤٠ متر .

« وذكر « ديلبون » في « تاريخ مقاطعة لو ، مجلد ١ » أن أهالي إقليم « فيجاك » أقوياء أشداء متوسط طولهم ١٫٦٣٠ متر ، بخلاف أهل اقليم « لا تروكيير » الساكنين في الأراضي الجرانيتية المجدبة الذين لا ينالون من الغذاء القدر الكافي فإن متوسط طولهم ١٫٥٧٩ متر .

« وأثبت « كوستا » في كتابه « تجنيد أهالي كورسا » بأن القصر في الجنود المقترعة يظهر بأخص مظاهره في الأقاليم الملحة مثـــل « ساليس وركونيانو وسيرا ، الخ » .

« لأجل معرفة مقدار ما يؤثر به الفقر وطريقة الحياة على الطول الإنساني يكفي درس حالة سكان باريس »

« أثبت « مانومريه » في « مجلة الجمعية الانتروبولوجية في السلسلة الثالثة من المجلد ١١ – بالنسبة لطول الباريسيين » وقرر « توبينار » في « إحصاء مدينة باريس » ، بأن شبان الأقسام الفقيرة أقصر من شبان الأحيـــاء المثرية . وأثبت « شامبويون » في « مقتطف عن المذكرات الطبيـــة العسكرية ، مجلد ٢٢ » بأنه لا يوجد الآن أحد من الجيل الخامس من الباريسيين لأن الغدد الخنازيرية والقصر وأشياء أخرى من موجبات الانحطاط والضعف قضت بزوالهم وانقراضهم .

« هذا الوسط الذي له هـــذا التأثير المحسوس في تشويه وتسفيل الشكل الإنساني له مثل ذلك التأثير في تغييره أو تحسينه ..

«هذا هو الجيل الأمريكاني يتكون أمام أنظارنا تحت تأثير الوسط في ممالكهم المتحدة فإن التغير الطارىء مشاهد محسوس . وذلك أن الأمريكاني المعاصر لنا يقرب تدريجاً من الأمريكاني الأصلي ويتجلى ذلك التقرب بميل الشق الأسفل من وجهه إلى أخذ الشكل الرباعي بخلاف ما عليه تلك الجهة عند الإنجليز فإنها ذات شكل بيضاوي (انظر : موري وتودس) . وأثبت (بروتيربي) أن الأمريكي يقرب من أول جيله الثاني من ذوي الجلود الحمراء وابتدأت تظهر فيــه تقاطيع مشابهة لتقاطيع أشخاص قبائل (لبيني لينابس والايروكوا أو الشيروكيس) . وأن بشرته أصبحت خشنة كالجلد وأخـــذت في التلون بلون الطمي وأصبحت المرأة هنالك ذات لون باهت قليل الجاذبية . وأخذت الرأس في الضعف والرخاوة ، والشعر في الملاسة والقتامة ، والعنق في الطول والأناقة ، وصارت العظام تطول جهة الأطراف العليا أكثر من طولها الى الأطراف السفلى

حتى أن مصانع فرنسا وانجلتره تعمل للأمريكيين قفازات ذات أصابع مستطيلة جداً ، وأخذت جهة الحوض في المرأة تشابه نظيرها عنـد الرجل . وفي زعم (كرينتر) أن الأمريكي المتروك ونفسه سينقلب إلى أن يكون مثـل قبائل ذوي الجلد الأحمر سكان أمريكا الاصليين . فماذا يكون إذن في الجيل العاشر ؟ نقول الجيل لأن التغيرات التي تطرأ على أجسام البشر يجب أن تعـد بالأجيال كما نفعله لنسبة الحيوانات والنباتات لا بالسنين . ومن جهة أخرى إلى أي شكل يستحيل الشكل الأمريكي مع الزمن تبعاً لقانون الموازنة العضوية ؟ إذا كانت كل هذه الأعضاء آخذة لدى الأمريكاني في التغير فلا شك بأن شكله العام بما فيه هيئة جمجمته سيتغير أيضاً تبعاً لذلك . إذن فسيكون أمامنا جنساً جديداً .. مرتقياً أو منحطاً على الأرجح ... يجب مجالدته وملاشاته !! » (لاحظ ما في الكلام من تهكم — المؤلف) .

* * *

(٢)

فتنة المدنية الغربية

(أو النيشرية الهندية)[١]

قرأت في مؤيد الخميس الماضي ما كتبه حضرة مكاتبه المحترم في كلكتا عن النيشريين الهنديين وما اندفعوا إليه من الدعوة إلى أصولهم مما رآه خطراً على كيان الأمة وفتنة يخشى على وحدتها منها . فدعتني غيرته أن أكتب للمؤيد هذه الجملة :

الشرق بإزاء الغرب في هذا العصر على حال لا يدركها مجرد النظر السطحي والتأمل القشري والذهاب بالفكر في تصويرها مذاهب التخيل. لأن تلك الحال نتيجة طبيعية أنتجتها فواعل وجودية كثيرة ذات آثار شتى وأفاعيل عـــدة تستدعي تحليلا علمياً دقيقـاً وتشريحاً عمرانياً متقناً حتى يأمن الباحث الإغترار بالعلل الثانوية وحسبانها عللا رئيسية ، بل حتى لا يطيش من تزاحم الظواهر على عقله فيعد الأعراض عللا . وهـــذا عيب كبير من كتاب الشرق الذين أخذوا على عهدتهم معالجته في هذا العصر ، فإن الأمر لدى هؤلاء الكتاب سهل جداً لا يستوجب من الشرقيين إلا اطراح بعض عاداتهم القديمـــة والتمسك بشيء من العادات الجديدة ، فلا يمضي كبير زمن حتى يشق على المتأمل أن يميز الشرق عن الغرب في مظاهر الحضارة ورواء المدنية ... ولكن الأمـــر بخلاف ذلك لدى سماسرة العلم العمراني لأنهم يعلمون أن الشرق الآن بإزاء الغرب في موقف الضعف

---

(١) هذا بحث عمراني كتبته في المؤيد تباعاً ورأيت نقله هنا بالترتيب ـ المؤلف .

أمام القوة ، وما داما كذلك فبينهما حرب سلمية مستمرة سلاحها النواميس الطبيعية ونقطة النزاع فيها الامور الحيوية . فإن التنازع والتزاحم سنة عامة بين جميع الكائنات الأرضية وهما في النوع الانساني أكثر صراحة ووضوحاً وأقسى أسلحة وأصعب مراساً . وبناء عليه فقواد فكر الامة يجب أن يكونوا من المهارة في أساليب الدفاع الحيوي والهجوم المعيشي وقيادة العواطف الى مظان الغلبة أو الاحتماء على مثل ما يكون عليه أحسن القواد العسكريين دربة وحنكة . ولو صح أن كل ضارب بسيف أو مصيب برصاص يليق أن يقود فيلقاً قليل العَدد والعُدد ضعيف المركز والمدد أمام خصم شديد الشكيمة حديد الشوكة ، لصح أن يقود الحرب الحيوية العامة في أمة كل من يستطيع أن يمسك قلماً أو يسود قرطاساً . وكما أن جهل القواد العسكريين يقود الجيش مهما كان كثيفاً مدرباً إلى مواقف للتلف ومراكز الفشل ، كذلك نزق قواد الفكر يقود الأمة إلى مزالق البوار ومزال الدمار ويجعلها في الحرب الحيوية العامة طعمة باردة وغنيمة سائغة . وقد تكلمنا على شيء من هذه الحرب الحيوية في المؤيد قبل عام . وتحديد حال الشرق أمام الغرب ووصف تلك الحرب الحيوية وصفاً دقيقاً وتحديد مركز كل منها أمام مناظره يخرجنا عن الدائرة المحدودة التي رسمناها لهذه العجالة . فنكتفي هنا بأن نقول أن هذه الحرب الحيوية لا تفترق في شيء من نتائج الغلبة والقهر عن تلك الحرب الدموية إلا أن لأشيائها أسماء مختلفة في لغة التخاطب لا في لغة العلم . فلا يقال مثلاً دفاع وهجوم وهزيمة وانسحاب وقائد وجندي بل لكل هذه المعاني أسماء خاصة لا تشير إلى مدلولاتها الصحيحة إلا من بعد على قدر بعد لغة الناس عن حقائق العلم . من هنا يختلط الأمر على العامة وأكثر الخاصة ويستطيع الثرثار الفارغ أن يظهر بمظهر الكاتب المحقق بتقليده في بعض الألفاظ التي تدل على مدلولات تقبل التأويل ولا تأبى الشرح الطويل .

عنوان هذه المقالة (فتنة المدنية الغربية) ، وأعني بتلك الفتنة الأثر الذي يحدثه على النفوس رواؤها وزخرفها . هذا الأثر يفعل في كل نفس فعلاً يناسب

قابليتها فيحدث عند بعض الناس يأساً لما يرونه من البعد الشاسع بين ما هم فيه وبينها ، فيحملهم ذلك اليأس على وقف عواطفهم وقواهم على منافعهم الذاتية وترك الأمور العامة على غواربها ؛ ويولد عند الآخرين حركة تدفعهم لبلوغ شأوها والجري معها في ميدان واحد . هؤلاء أسلم فطرة وأحيا فؤاداً من الأولين ولكن سلامة الفطرة وحياة الفؤاد لا تغنيان شيئاً إذا لم يرشدهما علم لوجوه السير وبصيرة نافذة في أحناء الأمور ومشتبهات الشؤون ، كما لا تغني الشجاعة في الحروب عن ذويها شيئاً ما لم تصحبها القيادة الحسنة والتدبير الدقيق ، أما وحدها فربما قادت أصحابها إلى موقف جعلتهم فيه عرضة لنيران العدو الجتاحة فذهبوا كلهم قتلى اندفاعهم وصرعى تهورهم واستبسالهم .

في الشرق فرقة كبيرة لم يصبها داء اليأس من لحاق الغربيين لا سيا بعد رؤيتهم فخامة مظهر الأمة اليابانية الشرقية . ذلك المظهر كسر صنماً كبيراً من أذهان الكثيرين حيث كانوا يعتقدون أنهم أحط من الأوربيين وأنه لا مناص لهم من أن يكونوا مقودين بهم أبد الآبدين ، فجاءت هذه الأمة الشرقية مكذبة لهذه الفرية الخطرة تكذيباً فعلياً فأصبح حزب الراجين عظيم السواد ولكن هذا الرجاء كما قدمنا لا يفيدنا شيئاً بغير العلم بوجوه السير وربما كان أدعى لفسادنا وأوجب لازدياد مصائبنا الاجتماعية .

يرى كثير من أنصار النهضة الجديدة أن مساواتنا للغرب لا تتأتى إلا بتقليده تقليداً أطلقوه ولم يضعوا له حداً . وغفلوا عن أن للأمم أمزجة مختلفة كما للأفراد ، وأن بين الغربيين والشرقيين من التباين في القابليات ووجوه الاستفادة ما لا يمكن لأحدهما أن يأخذ معه عن الآخر شيئا إلا بعد قلب كيانه وسبكه على صورة تناسبه وتلائم طبيعته الخاصة .

لا أنكر أن أمامنا أموراً رئيسية يجب أخذها عن الغرب بطريق التقليد . ولكن أقول أنه لا يتأتى أخذها إلا بعد إعطائها شكلاً شرقيا يناسب المزاج الشرقي ويتفق مع الطبيعة الشرقية . وإلا فما بالنا اختلطنا بالغربيين قرناً ولم

نأخذ عنهم غير ترتيب نضائد البيت وتنظيم أدوات المائدة ؟ ولا نسمي هـــذا أخذاً فإنك لو أبعدت الغربي عن إشرافه على تلك النضائد وتلك الأدوات لما استطاعت أن تحفظ صفتها الغربية سنة أو سنتين . بل إن هذه الخلطة كلهـا لم تعد الشرقيين لمجاراة الغربيين في إتقان ملهى مع شدة تفاني العامة في تقليدهم من تلك الجهة . أليس ذلك لتباين المزاجين وتخالف القابليتين ؟. إن شئت فقل مثل هذا في التعليم والتربية وكل ضروب المحاولات الإنسانية .

كثير من أنصار النهضة الجديدة يتعجلون في أحكامهم فينسبون لبعض الظواهر المدنية من الآثار والنتائج ما ليس لها. وربما كانت تلك الظواهر في نظر علماء المدنية من الجوائح القاسية على الهيئة الاجتماعية فيمهدون بذلك للأمراض التي ينوء بهـــا الغرب طريق التسرب الينا ، ويكونون علينا في الحرب الحيوية العامة أشد من مساورينا من الأمم المزاحمة .

هذه الظواهر المدنية التي يخيل للناظر إليها سطحياً أنها أخص مميزات الغرب عن الشرق ، هي مسائل : وحدة الزوجة وعدم الطلاق (كان ؟) ، وتكشف النساء ، واستحلال الربا . هذه العادات الغربية يحسبها بعض المتحمسين للمدنية أسباباً أولية لرقي الأمم الأوروبية ، وفواعل باعثة لنهوضهم وصعودهم ، لأنهم يرون تلك الأمم لا تمتـــاز عن الشرقيين امتيازاً حقيقياً في شيء من العادات والأميال العامة إلا فيها فيخالون أنهـــا مستودع سر رقيهم ، ومهب حياتهم وقوتهم . وتراهم يتعجلون في اتخاذها عللاً رئيسية كما يتعجلون في استنتاج نتائجها . فيبنون على وحدة الزوجة وعدم جواز الطلاق ، وكل ما يمكن تخيله من وحدة العائلة واتساقها واستتباب أمورها ، ومتى تكونت الأمة من عائلات منتظمة كان النظام لزيم هيئتها العامة ، والتضام صفة من صفاتها . ويعلقون على تكشف المرأة إمكانها بلوغ شأو الرجل في العلم والحكمـة . ومشاركتها له في الأمور الجسدية والأدبية فتصبح أمّاً كاملة تربي أشبالاً ينفعون البلاد ، وترقى بهم الأمة الى أوجهـــا الأعلى . وينيطون باستحلال الربا انتظام سائر الشؤون

التجارية ، وارتقاء نسبة الثروة العمومية ارتقاء لا حد له . ماذا يعوز الأمـــة بعد ذلك (على قولهم) وقد توفرت فيها سائر الشروط المرقية للامم ؟ نظام في العائلة . نظام في الإجتماع . أدب في الأفراد . نماء في الثروة العامة ... أليس هذا كل ما يتمناه الغيور على أمته الهائم برقي بلاده ؟... ها هو معقود بأهداب هذه العادات التي تعدّ على الأصابع ؟ فما المانع من الأخـــذ بها غير التعصب للعادات الموروثة ؟... يقولون هذا ويغفلون عن أن هذه العادات بعينها كانت في أوربا طول القرون الوسطى وما قبلها ، ولكنها رغماً عنها لبثت في ظلمات الفساد الفردي والاجتماعي ألف سنة لم تتقدم للأمام خطوة واحدة وكانت أمامها دولة الشرق العظمى الجاثية لكل هذه العادات في رفعة وفخامة لم تصل إليها دولة من دول العالم .

ربما كان لهؤلاء المتعجلين شبه عذر في هذه العجلة في الحكم ، فإن لمظهر كل مدنية فخيمة أثراً على أفئدة مشارفيها من الضعفاء يشبه أثر السحر بل يفوقه . وقد أثر حال آبائنـا أيام كانت لهم الدولة العظمى والصولة الكبرى على أفئدة الأمم ، فخلعتهم عن معتقداتهم التي جمدوا عليها قروناً متتابعة وصاروا من أشد أشياعها ، وأنستهم لغتهم التي نشؤوا عليهـا بلا إجبار ولا إكراه ، حتى كانوا من أفصح الناطقين بالعربية ومن حفظة قوانينها وقواعدها . فلا عجب بعد هذا أن يندهش أناس عندنا من فخامة هذه المدنية الغربية ، فيعللون رقيها بأمراضها ، ويعزون رفعتها لجراثيم أدوائها ، وقوفـاً منهم مع الظواهر الفتانة ، واكتفاء بالقشور الجذابة . كما لا عجب لو كان قام رجال من تلك الأمم الغربية أيام فساد أحوالها واضطرابها في شؤونها أمام المدنية الشرقية الباهرة في القرون الوسطى ، فكتب لبني جلدته أن سبب تأخرهم وانفصام وحدتهم هـــو انحلال عائلاتهم ، واختلال نظامها الناشيء من قانون وحـــدة الزوجة وعدم جواز الطلاق . وأن علة فساد تربية نسائهم : هي عدم تحجبهن عن أنظار الرجـــال . وأن داعية اختلال أحوالهم الاقتصادية ، وانتشار الفاقة والفقر بين الأفراد ، واحتكار آحاد

قلائل الثروة العمومية ، هو تسامحهم في تجويز الربا . نعم ، لا عجب لو كان قام قائم منهم بهذه المقالة ، ولعله كان يجـد من الحوادث ما يؤيد قوله ومن المصغين من ينصر حزبه .

نكتفي بهـذا القدر في هذه العجالة ونتبعها غداً بدرس هذه العادات من وجهتها العامـة بقصد إقامة البراهين المحسوسة على أنها أمراض هذه المدنية وجراثيم تلاشيها مما يجب أن يهرب منه ويبتعد عنه ، لا أن يدعى اليه ويعلق صلاح الشرق عليه .

* * *

أ- وحدة الزوجة وعدم الطلاق

الإنسان بين خياله وهواه على مثل حال الريشة بـين الأعاصير المتعاكسة والعواطف المتقابلة بينما يجذبها تيار بقوة سريانه يصدمها آخر بشدة اندفاعه ، وفيما هي نقطة النزاع بينهما إذ اختلسهـا منهما ثالث عن اليمين أو عن الشمال . كذلك الانسـان بين تيارات هواه وخياله تتنازعه وتتقاذفـه حتى يراه مضطراً للتنازل عن إرادته فيستسلم ولكن إلى ماذا ؟ ... إلى ما يجهله ، وإن كان يحس به . ولماذا ؟ ... لما لا يدري وإن سيق اليه . وإلى متى ؟ ... إلى أن تمتد إليه أيدي الموت الطبيعي في حده المحدود أو تنزل به جائحة في أثنـاء سباحته في تلك الأعاصير المضطربة فيودع الحياة على حال من الأحوال .

جسم نحيل وطرف كليل وعقل ضئيل وحواس قاصرة ، ومع ذلك فؤاد ملؤه مطامع وحشو إهابه مطالب، ونفس تواقة لمجاوزة الحدود وتعدي التخوم، وفكر جواب جوال لا يرتد عن غاية ولا ينتهي الى نهاية، وخيال يجسم المستحيل وينفذ لما بعد دوائر الإمكان . أليس هذا هو الانسان في جملته ؟ .. نعم ، وهو

بتلك الصفات المتضاربة في وجود كله مجاهيل وكون كلما فيه أسرار ومساتير، ولا نهاية تقصر عنها عزمات الفكر وتنحل دونها آمال الخيال. وجود كل ما فيه جواذب لهذا الانسان وأواسر لفؤاده الولهان . ولكنه يهم بدون وسيلة فتخونه الحيلة ، ويشرئب بغير آلة فتقعده الكلالة وضؤولة الحالة ، فيثـور على نفسه يوسعها ذماً ثم ينبري لبني نوعه فيسلقهم شتما ثم يلتفت للوجود فيعزو إليه من النقص والقصور ما هو به أولى . كل ذلك جهلا منه بالحقائق وحدودها . وعماية عن القوانين ومجـودها . وخفة سجلها عليه الخيال ولطخه بها الهوى والضلال . وربما لحظ هو ذلك من طرف خفي ولكنه عتي عنيد يريد أن يجعل هواه دستوراً للوجود وخياله قسطاساً تقوم عليه الحدود .

الناس رجلان : رجل استسلم لعوامله الذاتية والمؤثرات الكونية استسلاماً سلبه إرادته فعاش عيشة آلية لا يفترق عن آلة الطحن أو السقي إلا في زعمه الحرية وإن كان من أسر الهوى والجهل في أوثاق أي أوثاق . ورجل لم يرد أن يستسلم لما ذكر أو أنف أن يكون آلة لما هو أحط رتبة منه فطلب المفر وتحسس من المخرج فتمسك بأهداب الحقيقة فأوى إلى حصنها واطمأن إلى كنفها وإن كانت لا تواتي هواه في كل حين ولا تتملق لعواطفه بالتسويل والتزيين ، بل هام بهـا لعلمه أنها قوام حياته وبقائه وعليها مدار فلاحه وكماله وإن كلفته المشاق والمتاعب وصبت عليه أنواع المعاطب .

لكل من هذين الرجلين نظر في نفسه وفي الوجود وعمل فيهما وحكم عليهما ونصيب منهما . أما الأول فيعتقد في نفسه الكمال والجمال وفي خـلاله الفضيلة والاعتدال . فلم لا يواتيه الوجود بمطلوبه وتكون حوادثه على وفق مرغوبه؟؟؟ فهو بهذه الفكرة يعمل عمل المغرور ويحكم حكم النزق فلا غرو أن لم يصب من كده وكدحه غير النصب والوصب . ولا عجب إن قلنا أنه يعيش معيشة الآلة مقوداً بنواميس الكون الميكانيكية وإن أراه خياله أنه حر مطلق ، ودلس عليه هواه بأنه ذو إرادة واستقلال ؟ هذا الرجل تناله الجوائح وتغتاله النوازل

فيتهم الوجود ولا يتهم نفسه ويذم الحوادث ولا يكمل نقصه . وكيف يطلب المزيد من يعتقد أنه كامل أو يتهذب من يرى أنه حال بكل الفضائل ؟

وأما الرجل الثاني فيعتقد في نفسه النقص وفي خلائقه الافراط والتفريط وفي أدبه الحاجة إلى الصقل وفي ملكاته الداعية إلى التهذب ، فإن حزبه الوجود بمصيبة أو رمته الحوادث بملمة رنا الى نفسه فبحث عن مثار دائه واستفاد من وقع المصيبة فنقب عن سر قوته وجهات ضعفه ، لا يخطر بباله يوماً أن يستسلم لخياله فيبني قوانين الوجود على مقتضى أوهامه ويسن للكائنات دستوراً بعقل أقر بقصوره وتحقق من وهن وسائله . فلا غرابة إن ازداد هذا الرجل كل يوم تخلصاً من أسر الطبيعة وأوقع في أسره منها قوات تفيده في تقويم أمره وتعديل معوجه ، ولا عجب إن جاءت الحوادث على وفق مطالبه ، لأنه لم يطلب مستحيلاً ولم يجاوز في التمني مقدوره .

ذكرنا أن الناس أحد هذين الرجلين ، أما ما بينهما فلا يدخل تحت حصر ولا يطمع في ضبطه عاقل . فكن ما شئت فالمقدمة معلومة والنتيجة غير مجهولة .

تعدد الزوجات والطلاق مسألتان اجتماعيتان تناولهما سماسرة الخيال وأحلاس الهوى من كتاب الأقاصيص في أوروبا بما قدروا عليه من ضروب السخرية في القرن الماضي ولا يزال لهم بقية ، حتى صارت عنوان الطعن على الشرق ومقدمة لكل ما يكتب ضد الشرقيين سواء في المعتقدات أو السياسة . وربما كان الكاتب الأوروبي الطاعن على إباحة تعدد الزوجات له عشر صواحبات متزوجات يغريهن بماله تارة ويجاهه أخرى ويهتك من عرضهن ما يجب أن يكون مصوناً ، فيخونهن في أخص صفاتهن ويعتدي على شرف أزواجهن جبناً وخسة ويكون سبباً في خلط الأنساب وتنجيس الأعراق ، ثم تراه لا يخجل مما هو فيه فيستملي من هواه ما يستملي في التشنير على ما يقطع جرثومة الدنايا ويقف بالأغراض في حظائر الطهر ويحمي الأنساب من دنس الريبة . ثم يأتي أخونا الشرقي المفتون بمدنية الغرب المأسور لزبارجها وزخارفها المعجب بلغاتها وآدابها فيقرأ ما سوّده

أولئك الكتاب في تلك الأقاصيص ، فتنتقش تلك الشبهة في ذهنه انتقاش الرسم في الحجر الصلد. فلماذا لا يثور عليها وهو يريد أن نكون كالغرب رقياً ومدنية. ولماذا لا يسعى في بثها في بني جنسه وهو لا يعتقدها من المصائب الاجتماعية ؟

إذا طالع الانسان قصة حسنة الأداء ، الخيال فيها ظاهر بمظهره الفاتن وكان موضوعها شرح حال عائلتين : أولاهما للزوج فيها زوجة واحـدة . وثانيتهما للرجل فيها زوجتان له من كليهما أولاد . فأبدع الكاتب ما شاء في إطرا . نظام العائلة الاولى واتساق أمورها وسريان الود والحب بين سائر أجزائها . وأطلق لقلمه العنان في تقبيح نظام العائلة الثانية ووصف تلك البغضاء الملتهبة بين الضرتين وذلك التنغيص المتصل منهما الى الزوج ، وصوّر لك حال تلك الإخوة من الجفاء والتعادي وأعطى كل ذلك صقلة من الإبداع الشعري وبريقاً من الاحسان الكتابي يريك الأمر مجسماً . فماذا يشعر المطالع في نفسه ؟ .. لا شك يجـد في نفسه من ألم ذلك الخيال ما يحمله على الطعن في تعدد الزوجات بكل قواه . وماذا عليه من تغيير مذهبه وهو ملآن البطن والكيس ومتكىء على أسرة الديباج يطل على حديقة بيته ؟ ماذا عليه لو طعن على تلك العادة لكل من يراه وسعى جهده في تغييرها ما دام هو قرير العين من حالته الشخصية ؟

يكتب القصصي الأوربي مثل هذه الخيالات ويتابعه مطالعه الغربي والشرقي من الذين يكتفون بالخيال ويخافون بطش الأوهام . بينما يكون العـالم العمراني الذي خلع ربقة الهوى والخيال من عنقه ينظر لتلك الملايين العديدة من النساء اللاتي لم يجدن أزواجاً يحموهن شر الفاقة ، فرمين أنفسهن وأجسامهن الرقيقـة بين لهيب التنانير في المعامل ودخان المواقد في المصانع لينلن قوتهن، فيبكي على حالهن أسى ويندب حظهن أسفاً ويصيح في أوجه الناس لوضع حد لتلك الحالة التعيسة . فيقول كما يقول الفيلسوف (فوريبه) « ما هي حالة المرأة اليـوم ؟ إنها لا تعيش إلا في الحرمان حتى في عالم الصناعة الذي ألم الرجل بجميع أنحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخياطة والريش . أما المرأة فيراها الناس منكبة على

أشق الأعمال في الخلاء . فما هي إذن مصادر الحياة للنساء المحرومات من المال ؟ آلمغزل أم جمالهن إذا كان لهن جمال ؟ نعم إن حيلتهن الوحيدة هي السفاد العلني أو السري ليس إلا وهي الحيلة التي تنازعهن الفلسفة إياها للآن . » اهـ .

وبينا يكتب أسرى الخيالات في أوروبا أخبار تقدم النساء في الصنائع والفنون ويلتقطها عنهم المقلدون بالبشر والارتياح فيتفكهون بها في المنتديات ، ويظهرون بها سمو طالع المرأة الغربية ، ويتأففون من حال المرأة الشرقية وهم جالسون على نضائد الحرير والاستبرق. ينادي العلامة الاقتصادي (جول سيمون) في أوروبا قائلاً : « النساء قد صرن الآن نساجات وطباعات .. الخ .. وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم عائلاتهن تقويضاً . نعم إن الرجل صار يستفيد من كسب امرأته ولكنه بإزاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاحمتها له في عمله . » ثم قال: « وهناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر وفي محلات التجارات ويستخدمن في الحكومة بصفة معلمات وبينهن عدد عديد في التلغرافات والبوسطة والسكك الحديدية وبنك فرنسا والكريدي ليونيه ولكن هذه الوظائف سلختهن من عائلاتهن سلخاً » .

يقول جون سيمون في فرنسا هذا فيجيبه زميله في انكلترا العلامة (ساموبل سمايلس) في كتابه المسمى الاخلاق : « إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في الفابريقات مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة البيتية لأنه هاجم هيكل الدار وقوض أركان العائلة ومزق الروابط الاجتماعية. فإنه بسلبه للزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم صار بنوع خاص لا نتيجة له إلا تسفيل أخلاق المرأة ، لأن وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات البيتية مثل ترتيب مسكنها وتربية عائلتها والاقتصاد في وسائل معيشتها مع القيام بالاحتياجات العائلية ، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات ، بحيث أصبحت المنازل غير منازل وأضحت الأولاد تشب على عدم التربية وتلقي

في زوايا الاهمال ، وانطفأت المحبة الزوجية وخرجت المرأة عن كونها الزوجة المحبوبة والقرينة الغيور على الرجل ، وصارت زميلته في العمل والمشاق وباتت معرضة للتأثيرات التي تمحو غالباً التواضع الفكري والأخلاقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة » .

مِمّ كل هذه الشكاوى المرة وأي سبب لإلقاء النساء أنفسهن بين أنياب هذه النيران المستعرة ؟ أليس لعدم وجود من يحميهن في الحياة من الأزواج ؟ قل لأولئك الغيورين من الشرقيين أي الحالتين أحب للنفس الشفيقة وإهداء للعواطف الثائرة : أوجود ملايين النساء في تلك الحالة التعيسة طول حياتهن هلكى في الجسوم والأعراض ؛ أم إيواء كل أربعة منهن الى بيت رجل واحد يسعى طول نهاره لإقاتتهن ويكدّ بجسمه في سبيل راحتهن ؟ .

لا جرم أن أنصار المدنية الأوربية لم يضعوا الشفقة في محلها ولم يستعملوا المرحمة في حقيقتها . واذا كان غاية مرمى شفقتهم ومنتهى منال مرحمتهم هي إدخال النساء في هذا الدور الذي ينتحب منه العالم الغربي فإنهن براء من أنصارهن راضون بما هم فيه من حالتهن .

ليس هذا كل العجب . بل العجب كله أن يتخيل قوم أن بين وحدة الزوجة وعدم الطلاق علاقة بالتمدن الأوربي وقد علموا أن أوروبا لبثت ألف عام لم تترق عما كانت عليه خطوة واحدة ، رغما عن وحدة الزوجة وعدم جواز الطلاق في قوانينها ، وكانت أمامهم مدنية آبائنا الأولين المعددين للزوجات والمجوزين للطلاق تحير مداركهم وتدهش أبصارهم وتجعلهم يظنون بأنفسهم الظنون . وها هي أوروبا اليوم قد أحست بسوء مغبة عدم جواز الطلاق فقررته في قوانينها ولعلها على مقربة من تقرير جواز تعدد الزوجات تخليصاً للمرأة من أنياب الفاقة وإبقاء على جسمها اللين الشديد التأثر من نيران المعامل ودخان التنانير المستعرة ، وقد بدءوا يتكلمون في ذلك كما بدءوا في التكلم في الطلاق قبل تقريره بمائة عام . ومن يعش يرَ العجب فيا صاح لا تقنع بأنك صاح .

* * *

ب - تكشف النساء

ليس العجب أن يقوم قائمون منا يشيرون علينا بإلقاء الحجب عن النساء وتخليصهن من أعباء الأزر والبراقع ، وإنما كان العجب أن لا يقوم بتلك الدعوة داع ونحن تحت تأثير فتنة المدنية الغربية التي أخذت بمتنفسنا في كل مكان.

نحن بإزاء هذه المدنية الباهرة ومظاهرها الساحرة كالفقير المعدم أمام المثري المكثر. فكما أن ذلك الفقير يكون مفتوناً بكل ما يراه في أخيه المثري ومعجباً به وذاهباً في تقدير قدره وتفسير فخامته مذاهب الخيال والوهم . كذلك نحن بإزاء مدنية أوروبا مستهدفين للفتنة بها ومرغمين للإعجاب بكل مظاهرها وظواهرها ومجبرين على الأخذ في تصويرها وتكييفها مآخذ التخيل والتوهم . فلا غرو إن جعلنا حبتها قبة ودرهمها قنطاراً وحكمنا عليها حكم المفتون على الفاتن .

كنت قبل اليوم أعجب من قيام داع بالذهاب مذهب الاوربيين في عادة من عاداتهم الخاصة ، فصرت اليوم أعجب كيف أننا لم نكن كلنا دعاة إلى الأخذ بسائر عاداتها مع ما نحن عليه من التعرض لسائر مؤثراتها الصارمة . وكنت أستكبر ظهور بعض الناس بمظهر الغربيين في الأمور التافهة كنظام المأكل والملبس ، فصرت الآن استكبر عدم سريان هذا التقليد فيما هو أخص من ذلك وأمس منه بحياتنا الشخصية والعمومية ، مع ما نحن عليه من الانكشاف لفواعل تلك المدنية وعواملها القاسرة. فلم يسعني إلا إبدال التعجب بالإعجاب ، وأصبحت أستدل بقلة هذا الانفعال لتلك المؤثرات القوية على مقدار قوة المقاومة التي أودعتها فطرتنا ، وصرت كلما رأيت سرعة تأثر بعض الطوائف الشرقية المختلطة بنا ممن كانت آخذة أخذنا في العوائد ازددت اعجاباً بقوة مقاومتنا ورجوت خيراً في المستقبل . وإن استدل كتاب تلك الطوائف وبعض السطحيين من كتابنا بسرعة تأثرها على جودة قابليتها للترقي وباستعصائنا أمام تلك العوامل

على نقص قابليتنا له ؛ دعهم يعيرونا بذلك فإن لهم نظراً في أنفسهم يخالف نظرنا في أنفسنا وهم إن فرحوا بسرعة تأثرهم وبنوا على ذلك آمالاً فنحن أفرح منهم بسلامة شخصيتنا وقوة مقاومتنا وإن جرت علينا أهوالاً . ولكل أمة قدر في نظر نفسها وليس هنا مجال تفصيل .

شبّهنا أنفسنا أمام الغرب بفقير معدم حيال مثر مكاثر ولا يكون هذا التشبيه مطابقاً للواقع إلا إذا وصمنا ذلك الفقير المعدم بصفة الجهل ، ووسمنا ذلك المثري المكاثر بسمة العلم . هنا تستقيم أجزاء المشبه والمشبه به ويكون التطبيق مشخصاً لصورة الواقع . فلنستمر من هذا التشبيه أمثلة في تصوير مركزنا وفتنتنا ، فنقول :

الفقير المعدم الجاهل يفتتن بكل شيء في المثري الموسع المتعلم ويراه حسناً وإن كان قبيحاً . لأنه يرى من جلال وجهه صورة هواه ومسرح مناه ومطمئن همه وضالة حسه وهي الثروة ، فيتوهم أن كل ما في ذلك المثري متنزل إليه من أفقها ومستفيض عليه من ينبوعها . حتى لو سعل لرأى لسعلته نغمة يحب أن يتعلمها ليتمثلها ولا يزال بحنجرته يوسعها قبضاً وبسطاً حتى يحاكيها أو يكاد . وهكذا تكون كل حركات المثري وسكناته فتنة لمن دونه من الفقراء الجاهلين . يروى في تعليل رفع الساعد عن الإبط في التسليم الذي انتشر بين شباننا وكهولنا في هذه السنين الأخيرة أن أميرة من أميرات أوروبا من اللاتي لهن المـيزة في المحافل دعيت مرة إلى ناد جمع صفوة القوم وعليتهم ، وكانت مصابة بدمل في إبطها الأيمن فاحتاجت عند المصافحة الى رفع ساعدها عن موطن تلك البثرة تحامياً من الألم ، فظن ذلك بعض الناظرين نوعاً مبتكراً في التسليم فشاع وذاع حتى أتى هذه البلاد فرسخ بها عند بعض المحبين للجديد .

يرى الفقير قصور الموسع وبساتينه ومركباته وما يسحبه من الوشي والحبر وما يحتاط به من الغاشية والخدم وما يجمل مجلسه من البنين والصحب وما ينهال عليه من البيض والصفر ، وما يعده في بعض لياليه من معالم اللهو والقصف ما

بنين وتر برن وشاد يفتن وخوان يوضع وصحاف تصف ، وثريات من الكهرباء تشملهم من أنوارها بما يزيد مجلسهم بهجة وناديهم فخامة . يرى الفقير ذلك فلا يتخيل أن فوقه مزيداً ويظن أن السعادة بأخص معانيها قد ألقت بجرانها في هذا البيت وأن هذه الحال هي ما يجب أن تشحذ له العزائم وتشد له الرواحل وإن عابها الفيلسوف وزري عليها المخشوشن . هات لهذا الفقير المفتون ما استطعت من مقررات الفلسفة ونوابغ الكلم المأثورة وما كتبه العلماء على السعادة ومواطنها والراحة ومعادنها والثروة وهمومها فلا تراه يأبه بما تقول ، لأنك تود أن تهدم له بالقول ما يدعي أنه شارفه بالعين ، وتفسد له بالكلام ما يزعم أنه ذاقه بالحس . إن قلت له ألا ترى من خلائق ذلك المثري الذي فتنتك حاله : المقامرة وهي مدعاة للفاقة مجلبة للاملاق ، والمعاقرة وهي متلفة للصحة مذهبة للمروءة ، واللهو وهو مضيعة للفضيلة معجزة للهمم ، والقصف وهو مدحرة للذكاء مكسلة عن العظائم . أجابك أن كل ذلك من لوازم ذلك النعيم ومتمماته ولن نجد ثروة تخلو من تلك الآفات قط . ومهما كان من أثرها على صاحبها ففي وسائله ما يعوض عليه ما يخسره بسببها . ثم يتحرك تحفزاً للانصراف رغبة عن قولك وسأما من محاضرتك ، من شدة ورطته في فتنته وتشبث عقيدته بمخيلته.
فان استلفته إلى أن ذلك المثري مدين لكثير من المصارف المالية وأن ثروته على شفا التلاشي إن لم يؤب للاعتدال ويرجع للكمال أغرق في الضحك منك وقال : ماذا تقول ؟ ! .. أين تذهب تلك الألوف المؤلفة من الفدادين التي ريعها السنوي كذا وكذا من الدنانير ؟ .. أليس في ذلك العقل المنير الذي اقتدر على جمع تلك الثروة من الوسائل ما يمنع عنه غائلة الافلاس ؟ .. وهل يعقل أنك وأنت أحط منه قدراً تنتقد عليه ما لا يدركه في نفسه ، وتتخوف عليه ما لم يعد له ألف حيلة ؟ .. فإن ضربت له المثل بفلان وفلان ممن كانوا أضرابه في الثروة وأملقوا ، هز كتفه صلفا وقال : تلك كانت عقول قديمة وأفكار عتيقة أما صاحبنا فحديث النشأة مصوغ على الطراز الجديد . ثم يسرع بالتسليم عليك ويهرول هرباً من ثقل محاورتك .

هذا المثل ينطبق تمام الانطباق على ما نحن فيه من الافتتان بمدنية الغرب : نراناا مجبرين مرغمين على الاعجاب بكل شيء فيها واهمين في تقديره ذاهبين في تصويره مذاهب الشطح. وكيف لا نكون كذلك وكل ما فيها يصور لنا النعيم في أبدع صوره ويشخص لنا السعادة في أخص صفاتها ؟ وكما أن الفقير الجاهل لا يتخيل أن يكون للمثري أدنى شاغل يشغل باله أو أقل عوج يهدد مستقبل أمره ، وإن كان له شيء من ذلك فهو على مقتضى فلسفته عرض يزول وملة لا تلبث أن تتلاشى ، كذلك ضعفاؤنا بإزاء هذه المدنية يكبر عليهم أن نتخيل أن فيها مرضاً يهدد كيانها أو بها عوجاً يخشى أن يعدو على حياتهـا . ولهم في تعليل ذلك فلسفة تنطلي على أكثر العقول وتقف بها موقف الحيرة والذهول . إن عددت لهم من آفاتها في النفس والعقل والعرض والجسد والمال ما يرهب الجسور مجرد سماعه ويدهش الجامد محض ذكره . قالوا : ماذا يغني الكلام إذا كان الواقع ضد ما تقولون ؟ تقولون إن هنالك خلطاً وخبطاً وحياة مهددة وسقوطا وشيكا و و والخ .. ولا نرى نحن بل ولا ترون أنتم إلا نظامـاً وكمالاً وقوة وعلاء . فهل يقنعكم أن تنكروا الحس في سبيل الكلام أو تبيعوا الحقيقة بالأوهام ؟

إن قلت لهم : إن ذلك النظام والجمال لا ينافي أن يكون بجانبها مرض يمتص الحياة ويحلل عناصرها . كما قد يكون المثري المسرف في أبهة وفخامة تأخذ بالعين والقلب ، وهو من مهاجمة الدائنين في أضيق من قفص ببغائه . قالوا : هذه أحلام تنطلي على النائمين والمهومين ، أما الأيقاظ الصاحون فلا يطربهم الضرب على هذا الوتر الخيالي وإن كان حسن الوقع على النفس والسمع.. ثم ينصرفون عنك قانعين بما هم فيه .... وأي شيء هم فيه ؟ هـل حفظوا موجوداً ؟ هل استردوا مفقوداً ؟ هل أرشدوا تائها ؟ هل قلدوا فنجحوا ؟

أنا لا أغالي ، فأقول أن المدنية الأوربية واهية الدعائم ، وشيكة الانهيار والتلاشي . كيف أقول ذلك وقد كتبت هنا وفي مباحثي ما يشير إلى قيـام

هذه المدنية على أصول ثابتة مأخوذة منا ومنقولة عنا بشهادة واضعيها . ولكن قلت وأقول أن من العبث وعدم التروي أن نأخذ بضاعتنا مطبوعة بطـــابع أجنبي ومصبوغــة بصبغة غير صبغتنا الأصلية لأمرين : (أولهما) — أن ذلك يقدح في الحمية ويحقرنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا . (وثانيهما) — لأنه لا يتأتى أن تصح أمة بعلاج أمة أخرى مباينة لها جنساً ولغة ومزاجاً إلا إذا ركبت ذلك العلاج على نسبة مزاجها وقابليتها كما فعلت أوروبا فيما أخذته عنا قبل قرون . وهـــذا هو سر عدم فائدة التربية والتعليم لدى المصريين الذين يتعلمون على الأسلوب الغربي كما سنبينه في مقالاتنا المستقبلة مواتاة لاقتراح أحد محرري هذه الجريدة المحترمين .

قلت أن أوروبا قائمة من جهة مدنيتها على دعائم ركينة ، ولكني لا أنكر أنها مصابة بإصابات خطرة على كيانها ماسة بحياتهـا . لتلك الإصابات أشكال وصور شتى يجمعها أصول ثلاثة : العقيدة والمرأة والمال ، ولكني مهما كتبت وكتب غيري في تلك الاصابات وخطارتها فلا يكون لكتاباتنا كبير أثر على أذهان المفتونين بمظاهرها . وما أقل الخاضعين لسلطان العلم في هذه البلاد .

تخيل رجلاً من الشرقيين يرى سرباً من النساء الأوربيات يتلألأن في الحرير والوشي وبجانبهن رجـــالهن وأولادهن ، والكل يروح ويغدو بين الحدائق الناضرة والغدران الجارية تلوح على وجوههم ظواهر السعادة ، وتنم أساريرهم عن الصفو والهناء . تخيل رجلاً من الشرقيين الضعفاء يرى هذا المنظر ، ثم تعالَ فقل له إن جسرت عليه : لا يغرنك هذا المظهر الباهر ولا تَقِس عليه ما خفي عليك ، فإن في أوروبا مسألة يقال لها (مسألة النساء) يزعم العلماء أنها مسألة خطيرة تهدد مدنيتهم بسقوط سريع .. تراه يتهمك بالغلو والخشونة ، ويزعم أن بك جموداً على الموروثات وتعصباً للعادات . فلو قلت له إن أهل تلك المدنية أنفسهم يشكون من جهة تكشف النساء وما جر إليه من البذخ والترف ، حتى لقد كتب العلامة (لويز برول) في مجلة المجلات الفرنساوية (مجلد ١١) تحت

عنوان (الفساد السياسي) يقول : « إن فساد الأسس السياسية وجد في كل زمان ومكان »، ومن الغريب المدهش أن مظاهره في الزمن السابق مشابهة تماماً لمظاهره في الزمن الحاضر بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة » ثم قال : « لقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون بصحبة النساء ذوات الطباع الخفيفة اللاتي كان عددهن بالغاً حد الكثرة . فصار الحال اليوم كما كان في ذلك العهد ، ترى النساء اندفعن في تيار الحب البالغ حد الجنون وراء البذخ واللذات » . .

إن تلوت عليه ذلك قال تلك آراء الأفراد ، وقد بليت كل مدنية بالمتطرفين ممن لا يجوز الحكم بأقوالهم عليها . ألا ترى أن في أوروبا فوضويين ؟ فهل تستطيع أن تستدل بقول واحد منهم أن أوروبا على وشك ملاشاة الحكومة والقوانين والجيوش بحجة أن الفوضويين ينادون بذلك ؟

فإن قلت إليك فكر الأمة في دائرة معارفها المتداولة بين آحادها . وقد جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر عقب ذكرها خطبة (كاتون) الروماني في مجلس النواب ضد ابتذال النساء قالت : « وفي هيآتنا الاجتماعية الحاضرة التي فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة نرى دناءة ذوقهن وميلهن الشديد للزينة يحملهن دائماً على الاشتغال بجمالهن وبكل ما يزيد حسنهن . كل ذلك أكثر خطراً وهولاً مما كانت عليه الحالة في روما » .

هنا تبدو على صاحبنا علائم التبرم من فداحة الحجة وصرامتها . ولكنه ربما تغلبت الشبهة ، فقال أن الكاتب يقول : (أكثر خطراً وهولاً) وهي لهجة الكتاب وديدنهم فيما ينتقدون ، فبأي حجة تصرفها على حياة المدنية ، وتستنتج من ذلك أنها على شفا الدمار ؟

فان قلت له مكانك فسأنقل لك ما لا مجال لتأويله ، ثم تلوت عليه ما جاء في تلك الدائرة في ذلك الفصل بعينه وهو قولها : « نعم إنا لسنا أول من لحظ

هذا الأثر السيء الذي يحدثه حب النساء للزينة يوماً فيوماً على أخلاقنا ، فان أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الهام ، وكثير من أقاصيصنا التي قوبلت بالاستحسان العـــام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذي يجره على العائلات الشغف الجنوني بالتزين والتبرج . فكيف النجاة (تأمل) من هذا الداء الذي يقرض مدنيتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جداً وإن شئت فقـل بانحطاط لا دواء له » .

هنا يشعر صاحبنا بحرج الموقف . فإن كان ممن شوهت الفتنة الغربية فطرته انصرف عنك مصراً على ما في رأسه وإن لم يجد له دليلاً غير الأماني . وأما إن كان فيه بقية من خير رجع الى نفسه وتحقق أن مسألة المرأة لا يحلها خلع عذار واطراح برقع وإزار . وإنما هي مسألة تحتاج لنظر طويل وبحث دقيق وجدال تتحطم فيه الاقلام وتجأر منه المحابر .

* * *

جـ ـ استحلال الربا

الربا في الاصطلاح أجر المال وربحه ، والكلام عليه من الوجهة العـــلمية الاقتصادية أمر خطير يعوز منا عقد فصل خاص في بيان أحوال المال من حيث وجوده ونمائه ووظيفته عند الأحاد والامم ومكانه من الأسلحة الاجتماعية على قدر ما تسعه المعلومات الاقتصادية . ولا نبلغ الغرض المقصود مما نرمي اليه من ذلك إلا بتقديم فذلكة اجتماعية عن الحرب الحيوية العامة وأسلحتها نودعهـا تمهيداً موجزاً فنقول :

تمهيـــد

قلنا أن الأمم حيال بعضها في حرب سلمية مستمرة لها قواد وجنود وفيها انتصار وانهزام وهجوم وانسحاب . وقلنا أن قواد هذه الحرب السلمية هم قادة

أفكار الأمم ومدبرو شؤونها. وقلنا أن غلبة الامة في هذه الحرب الحيوية العامة أو انخذالها مرتبط بمهارة قوادها وحذقهم أو جهلهم وقلة خبرتهم بخدع الحرب وأساليبها . قلنا كل هذا وهو قول يخاله بعض البعيدين عن الحقائق العلمية شعراً وما هو إلا صورة الوقائع ونسخة الحوادث . وربما كان لهؤلاء الظانين شبه عذر فيما خالوه فإنهم يصورون لأنفسهم حالات الحياة وشؤونها حوادث غير مرتبطة ببعضها ولا حاصلة على مقتضى قانون ثابت يهب النتيجة على قدر المقدمة. بل شؤون تقذفها المصادفات وتهيئها على غير قاعدة ، ومن كان منتهى علمه بمجال الحياة هكذا فأجدر به أن يجهل من أحوال الحرب الحيوية العامة ما كان يجب أن يعلمه لو أراد أن يكون جندياً مقداماً في أمة غالبة .

تعال لأحد هؤلاء الغافلين عن هذه الحرب الحيوية العامة وقل له : إن الامة المصرية قد فقدت في الخمسين سنة الأخيرة جزءاً عظيما من أراضيها الزراعية وهي في أكثر الجزء الباقي مغلولة الأيدي عن التصرف فيه تصرف المالك في ملكه ، واسرد له ما اندرس بسبب ذلك من بيوتات المجد وما هوى من معاهد الشرف القومي والفخار الاهلي وما تعطل من صنائع البلاد وتخرب من مصانعها ومعاملها وما انتقل من تجارتها الى يد سواهم من الأجانب ، وما استدعاه كل ذلك من ادعاء كل أمة صالحاً خاصاً لها في هذه البلاد وغل أيدي حكومتها عن التصرف في مالها لما وضعت عليه من المراقبة . قل له هذا إجمالا ودعه هنيهة يفصل ما أجملته له على قدر ما رأى وما سمع ، وأنا زعيم بأنه لا يخرج من جولته الفكرية هذه إلا وهو متعلق بك يستميحك أن تصف له شأن هذه الحرب السلمية الصارمة التي جرّت على البلاد ما لا تجره الحرب الدموية في أقسى أشكالها وأخشن صورها .

لا جرم أن هذه الخسائر الهائلة التي تكبدتها الأمة المصرية التي ضربناها لك مثلاً من بين سائر الامم الشرقية ،تدل على هزائم متوالية تكبدتها في هذه الحرب العامة وأجبرتها الظروف في كل هزيمة منها على ترك مقادير كبيرة من ذخائرها

وأسلحتها ، والرضاء من شرائط الصلح بما يمس شرفها ويحط من قدرها ويزيدها استسلاماً على استسلامها ولينا على لينها . ولا شبهة في أن القواد الذين تولوا قيادة هذه الأمة في تلك المدة الماضية كانوا جهالاً غير مدربين . لأن مجموع ما أصيب به المصريون في هذه الخمسين سنة ينبىء بارتكاب القادة لأغلاط فاضحة سببت من الخسائر ما زاد عن الحد المعقول فيما لو كانت هزائمنا اتبعت قانونـــاً طبيعياً منتظماً .

أمر تصور هذه الحرب الاجتماعية العـــامة التي وقف عليها علماء الإنسان أعمارهم وأعمالهم لا يحتاج لكثير إمعان لو أراد الكاتب تصويرها على أسلوب خال من المصطلحات الفنية . وها نحن شارعون في ذلك توطئة لما نحن بصدده .

فهم هذه الحرب العامة وإدراك ما يطرأ فيها من غلبة وانخذال ومن هجوم ونكوص الخ . . مرتبط بفهم الحرب الخاصة بآحاد كل أمة فيما بينهم ،لأن الأولى صورة من الثانية ومتبعة قانونها وإن خالفتها من جهات عامة ، لذلك فنحن نبدأ بتصوير تلك الحرب الخاصة المستعرة بين آحاد كل أمة ، ثم نعقبهـــا بتصوير الحرب العامة الشاغلة لكل الأمم لنمهد لأنفسنا سبيل الكلام لموضوعنا الأصلي .

هب أن عدداً من النـــاس رحلوا عن بلادهم لسبب من الأسباب وأناخوا ركائبهم بقطعة من الأرض حاصلة على شروط الاستعمار وأجمعوا على اتخاذهـــا وطناً لهم . لو تأملت فيما يحصل بينهم من شؤون وفيما يؤول إليه حال كل فرد منهم بعد أمد محدود ودققت النظر في تلك النواميس الطبيعية التي اقتضت تلك الحال وتتبعت كل أثر من خلال علله المتعاقبة حتى وصلت لعـــلته الأولى ، أشرفت على جملة نواميس اجتماعية عامة لو تتبعتها في الأمم لرأيت لها من الآثار والأحوال ما يشابه أحوالها وآثارها على تلك الأمة الصغيرة بصرف النظر عن اختلاف الأسماء وتباين المسميات .

فرضنا نزول هذه الفئة في تلك الأرض بقصد استعمارها والقيام عليهـــا .

فتأمل فيما يحصل بينهم وما يصطلحون عليه أو ما يرغم بعضهم بعضاً على اعتباره. لكل هؤلاء الأفراد حاجات تطالبه طبيعته بإيفائها وله في مقابل ذلك قوى جسدية ومعنوية تمكنه من العمل على سد تلك الحاجات. فيتسابقون كلهم للعمل فيعود كل منهم بجملة ما حصله ولكنهم لما كانوا يختلفون من جهة قواهم الجسدية والمعنوية كان التفاوت بين مقادير محصولاتهم أمراً مقضياً، فمن كان جسده أقوى على المشاق وأقدر على مكافحة الصعوبات وكانت قواه المعنوية من مدارك وأخلاق أسرع في تصيد وجوه الاستفادة وأصبر على خشونة المقدمات في سبيل حسن النتيجة، كان بلا شك أكبر محصولاً وأوفر نصيباً وأفوز سهماً. فإذا تكرر العمل وتوالى الكدر والكدح ظهرت مواهب أولئك الآحاد وتجلت قواهم وتلألأت ملكاتهم. فلا يلبث أولئك الأقوياء جسداً ومعنى حتى يجتمع لديهم ما زاد عن حاجاتهم ويتراكم عندهم ما يصرفهم عن بذل أعمارهم في محض الأعمال المادية فيلتفتون لاستصلاح قواهم الأدبية واستثمارها، فيزدادون علماً بنواميس الكون وطرق استغلالها وتسخيرها فيرتقون عن إخوانهم الضعفاء درجات فتحصل لديهم قوة رابعة هي قوة المال. تأمل في هذين الصنفين من هذه الأمة الصغيرة. صنف الأقوياء أجساداً وعقولاً وأخلاقاً وما أدتهم اليه مواهبهم من رغد العيش وما دعاهم ذلك إليه من تحسين أجوالهم الأدبية حتى ارتقوا عما كانوا عليه درجات واكتسبوا قوة رابعة هي المال. وصنف الضعفاء الذين بقوا حيث هم لضعف أجسادهم عن مواصلة العمل أو عقولهم عن إدراك وجوه الاستفادة أو أخلاقهم عن الصبر على المكاره. تأمل هذين الصنفين بإمعان وانظر ماذا يكون بينهما. تر أن الصنف الأول دعته طبيعة الاحوال إلى ادعاء السيادة على القسم الثاني وتخويل نفسه حقوقاً عدة وطالب خصمه بالاعتراف بها إن لم يكن طوعاً فكرهاً: أهمها أولويته بحكومته وسياسة أموره وسَنّ النظامات له وتربيته وتهذيبه على مقتضى أسلوبه وحمايته واستخدامه وتصريفه على مقتضى إرادته واعتباره أحط درجة منه.. الخ.

يطالب القسم الغالب خصمه بهذه المطالب فلا يسعه إلا الرضوخ لها لأنه

ضعيف من جهـة أو جهات من تلك الأربع جهات التي ذكرناها وهي الجسد والعقل والأخلاق والمال . فإن شرع في مقاومة خصمه بجسمه خانه عقـله من خطئـة في تخير أخصر سبل المقاومة ولأنه أحط عقلاً منه . وإن واتاه عقله أقعدته أخلاقه من الجبن وعدم الصبر أو الافتتان بمظهر الأقوياء وزخرفهم . وإن وافته أخلاقه هاضت جناحه الفاقة وكسر قوادمه الإملاق فلم يسعه إلا التسليم بشروط أو بغير شروط . فيسلم بشروط إن كان فيه بقية من حيـاة فيرضخ ولكن باستقلال وحرية وأنفة وشعور . أو يسلم بغير شروط إن كان الضعف بلغ منه حده الأقصى فيصبح عبد الأقوياء فيرى كل ما فيهم حسناً وإن كان قبيحاً وكل ما فعلوه عدلاً وإن كان جوراً وكل ما قالوه علماً وإن كان جهلاً وكل ما عملوه شرفاً وإن كان خسة .

إذا أدركت سر هذه الحرب الخاصة المستعرة بين آحاد كل أمة أمكنك أن تدرك سر هذه الحرب السلمية بين سائر الامم . وذلك أن كل أمة في حد ذاتها تشبه الفرد الواحد ونقطة النزاع بينها جميعاً هي هذه الكرة الارضية ومرافقها . وكما أن سلاح الافراد هو الجسد والعقل والأخلاق والمال، كذلك سلاح الأمم هو مجموع مظاهر هذه القوى الأربع في الأفراد .

درس هذه الأنواع الأربعة من الأسلحة الاجتماعية من جهاتها المختلفة على قدر ما تسعه العلوم العمرانية والفلسفية والاقتصادية يخرجنا عن الدائرة التي رسمناها لهذه العجالة . فلنكتف هنا بأن نقول إجمالا أن هذه الأنواع الأربعـة من الأسلحة هي التي تهاجم بها الأمم بعضها بعضاً . وعلى قدر ما تكون في أمة أمضى حداً وأصفى جوهراً بلغت تلك الأمة من السبق إلى غايات المجد والتقدم إلى منابع المنافع أقصى ما يرمي اليه قائدو حركتها في ميدان تلك المعمعـة الحيوية العامة .

تفسير تقدم الأمم وغلبتهم بهذه الأسلحة الأربعة ليس بموقوف على العلماء بل هي مرئية لكل متأمل في أحوال الأمم ، وما من جاهل في الأمم المغلوبة إلا

ويدري أن تلك الأمم الغـــالبة ما تسلطت على أمته إلا باستعمال قوى جسدية وعقلية وأخلاقية ومالية تفوق ما لدى أمته منها . ولكن مما يختص به العالم الاجتماعي معرفة مواطن تلك القوى وطرق إنمائها وتربيتها وجهات ضعفها عند الأمم الضعيفة وجهات قوتها عند الأمم القوية ووجوه استخدامها والمقارعة بها وحمايتها من الطوارىء . . الخ .

ليس لعامة الأمم سواء كانت غالبة أو مغلوبة حظ من معرفة مجموع الحركة العامة التي تجريها الأمم بازاء خصومها في مجال التنازع الحيوي . ولا تسهل عليه تلك المعرفة لو أرادها كما لا تسهل على الجندي البسيط رؤية حركات الجيشين المتقابلين رؤية جلية ، لهذا ترى العامي لا حظ له من هذه المعارك الحيوية إلا تأمل ظواهرها ، فيعلل الغلبة والانهزام بما يؤثر على تصوره قبل غيره من مظــاهر المشاهدات فيضل الطريق ويضل غيره. وتكون النتيجة ضلالا عاماً يستفيد منه العدو المساور ما لا يستفيد من قوته الذاتية .

لمـــا كان أظهر مظهر لهذه الأسلحة الأربعة وهي القوى الجسدية والعقلية والاخلاقية والمالية هي الجيوش المدربة والأساطيل المصفحة والمعامل العامرة والصنائع الفاخرة والآلات الباهرة والنظــام المستفيض على الأفراد والآداب المسبغة على الطباع والعزائم القوية والإرادات الثابتة والأموال الصالحة للاستغلال وإحداث جلائل الأعمال ، فالناظر اليها نظراً سطحياً يرجو أن يكون لأمته مثل ذلك لتستطيع أن تحفظ كرامتها بين الأمم فيدعوها إليه بلسانه وقــلمه ويتذرع لاقناعها بكل ما يستطيعه من ضروب الحث والحض لا يميل له لسان ولا تخفى له براعة . ولكنه لا يرى فائدة لندائه لأنه يدعو إلى الظواهر ويغفل عن أسرارها وطرق الوصول إليها فهو كمن يجيء لفقير فيؤنبه ويلومـــه على تقصيره عن تشييد قصر يحاكي قصر جاره ويتلتل به للاسراع في العمل ، وكأنه يجهل أن ذلك الفقير قد رأى ذلك القصر قبله ورجا أن يكون له مثله ولكنه لما لم يجد إليه سبيلا رضي بحاله مرغماً . ولكن صاحبنا الذي يدعوه متى رأى

منه عدم الانصياع لإشارته رماه بالموت والجبن وعدم الشعور وتفنن في أساليب تبكيته والنعي عليه ما شاء وتكون النتيجة من هذه الضوضاء تضليل المدعو ويأس الداعي وذهابها طعمة سائغة لمن ينازعها الحياة .

هؤلاء الدعـــاة السطحيون كما تستخفهم هذه المظاهر المؤثرة لهذه القوى الاجتماعية الأربع كذلك تستخفهم أعراضها المتحولة وصبغها المتغيرة ، ولم يؤتوا قوة علم تزعهم عن الوقوف مع القشور ، فتراهم مرغمين على تصيد أقرب تلك المظاهر إليهم وأشدها تأثيراً عليهم وأكثرها شبهاً بالعلل الفعالة فيدعون إليه سنين بلا سأم ولا ملل لعدهم أن انتظام الجيوش وحنكتها وبناء الأساطيل وتصفيحها هو نتيجة فتح المدارس الحربية على الطراز الجديد وإيصاء المعامل بمد عشرات من المدرعات والنسافات وهي نتيجة صحيحة المقدمة سليمة ، فما المانع عندهم من إدمان الدعوة إليها ؟ ويغيب عنهم أن الاحوال الاجتماعيـــة ليست مقودة بقوانين المنطق وأن فتح المدارس الحربية التي تعتبر مقدمـــة للجيوش المنتظمة هي أيضاً نتيجه المقدمة سابقة وتلك المقدمة السابقة نتيجة لمقدمة أسبق يلزم الالتفات اليها والتعويل في البحث أو في الدعوة عليهـــا . وهكذا ترى لهم لكل نوع من الأسلحة الاجتماعية سبباً قريباً وربما كان السبب الذي أثر عليهم مظهره هو في الحقيقة سبب ممرض يغر الرائي ظـــاهره ويهوله باطنه ، كوهمهم في أمر الربا وظنه مدار المعاملات وسبب زيادة الثروة العمومية ويغيب عنهم أن الثروة العمومية تابعة في حصولها ونموها لقوانين اقتصـــادية طبيعية ليس الربا منهـــا في شيء بل هو عرض خبيث عن أعراض الثروة كما ستراه .

لا مشاحة في أن الذي أوهم البعض منا بضرورة استحلال الربا وخيل لهم أنه مدار الثروة هو إشرافهم على خطارة الدور الذي تلعبـــه بنوك أوربا في مرسح الشؤون العامة . وهي نزعة من نزعات النزق في الاستدلال والعجلة في إصدار الاحكام وأثر من آثار الخبط في تقدير أوزان الحوادث والخلط بـــين

ظواهرها وحقائقها . فلا لوم علينا لو قلنا أنا لم نر مظهراً من أكبر مظاهر الرقي الاجتماعي الأورباوي نسب إلى عرض من أحقر أعراضه كما نسب انتظام أمر الثروة العمومية إلى قاعدة الربا . لم لا تكون هذه النسبة صحيحة في نظر العامة وهم يخالون أن لفظي بنك وربا مترادفتان وما داموا يسمعون عن بنوك أوروبا وأمريكا وعمالها من الآثار الهائلة في الشؤون العامة أموراً تشبه الشعر أو السحر، وبما أن بنكا وربا في نظرهم كما قلنـا شيء واحد فيستنتجون من ذلك أن الربا هو دعامة تلك الثروة وينبوعها ، ويغيب عنهم أن إيراد تلك البنوك واطراد نماء ثروتها مصدره تجاراتها الواسعة ومشروعاتها الكبرى من استخراج معادن وحفر مناجم وتمهيد سبل .. الخ ، وما حظ الربا فيها إلا شيئاً حقيراً بجانب أرباحها الاخرى .

نحن نكتفي هنا بإيراد شواهد عامة تريك أن الربا عرض اصطلاحي اتحـد عليه أصحاب الثروة من المتعاملين لا أنـه الأس المولد للغنى والقاعدة التي عليها نظام المعاملات أو أنه دعامة من دعائم العمران .

من أعظم الأدلة المحسوسة قيام دولة آبائنا الأولين ولم يكن الربا من أصولهم ، وقد دلت الآثار والتواريخ على أن أولئك الرجال بلغوا من العمران وسعة التجارات وبعد مدى المعاملات الغاية القصوى ، وقد كانت المبادلات التجارية حاصلة بين الأطراف المترامية من مملكتهم المدهشة بدون أن يحدث ما يعرقل سيرها بل كانت ثروتهم في نماء مستمر والأموال في تضاعف دائم متبعة في ذلك قانونها الطبيعي ، وكان الغرب أمامها إذ ذاك رغما عن أن الربا قاعدة من قواعد سيرته يشكو الفاقة والاقلال ونضوب ينابيع الأموال واختلال نظام المعاملات.

فإذا كان عدم تقرير الربا لم يمنع تلك المدنية من الظهور بأجلى مظهر في كل فرع من فروع المحاولات الانسانية ولم يؤثر على نمو التجارة وانتظام المعاوضات بشيء، بل شهد التاريخ أن آباءنا كانوا أمهر رجال عصورهم في التجارات وأبعد مدى في نظام المعاملات من كل أمة مناظرة لهم . إذا كانت حالهم كذلك وهم

أعداء الربا الألداء وثبت أن حال أوروبا المقررة للربا كان على نقيض ذلك أي في اختلال واعتلال .. أفلا تدل هذه الحادثة بالبداهة على أن الربا عرض يصطلح عليه الناس اصطلاحا ويتفقون عليه اتفاقا ؟

دعنا الآن من بيان وجه ضرر الربا أو نفعه وكشف أسرار أحد هذين الوجهين لمن يجهلها ، ولنساجل أولئك الذين يودون استحلال الربا رسمياً البحث في هذا الموضوع وإن لم يعطونا من آرائهم إلا الإجمال فنقول : هب أن أمة من الأمم الشرقية أحلت الربا وعدته من قواعد الثروة العمومية كما يريد أن يوهمها بعض نصحائها فماذا ينالها من وراء ذلك ؟ لا حاجة إلى إجالة الروية فان الأمر ليس من الأمور المغيبة التي يعوزها الخوض في المجهولات والرجم بالظن فإن الربا في مصر وإن لم يحلل رسميا فقد استحله قومنا عرفيا إما افتتاناً وإما ضعفاً وصار لهم نحو من أربعين سنة وهم يتأملون به إعطاء وأخذاً سواء من جهة الأفراد أو الحكومة ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت كما ترى خروج معظم أطيان القطر المصري عن ملك مالكيها وخراب ألوف مؤلفة من البيوتات الباقية إلى الاضمحلال والانحلال . فهل هذه هي النتيجة التي يرمي إليها مرشدونا .. ؟ كلا ! إنهم يريدون بتقرير قاعدة الربا أن ينمحي من عندنا ذلك المانع الهائل الذي يمنع أغنياءنا عن ضم رؤوس أموالهم معاً وتكوين عصابة مالية تؤلف بنكا أو بنوكا وطنية على نحو ما هو موجود منها في كل بلد متمدن والدخول بتلك الأموال في ميدان الأمور الاقتصادية والمضاربات المالية وإحداث ما تحدثه البنوك من الآثار الحسنة على بلادها وحكوماتها .

هذه شبهة تروج في أكثر الاذهان وتنطلي على غالب العقول لا سيا ونحن تحت تأثير فتنة شديدة يضيع أمام مظاهرها كل تحقيق . ولكننا مع ذلك لا نتأخر عن مصاولة هؤلاء الدعاة بالحجج ولن تعدم الحقيقة فؤاداً حياً . وفؤاد حي خير مما لا يحصى من غيره .

هب أن الغاية التي يرمي إليها مستحلو الربا هي الواسطة لاجتماع الأموال

المتراكمة وظهورها في ميدان المغالبة الحيوية ؛ وهب أن الربا هو قوام ذلك المال المجتمع وحياته ؛ فهل ذللت كل الصعوبات التي تحول دون ذلك الاجتماع كما تحول دون كل اجتماع آخر يراد منه فائدة عامة ؟

إذا كان المغترون بقشور المسائل تزدهيهم المناظر المتنوعة المتحولة فيطلبونها بألسنتهم ولا يسمعون لأصواتهم صدى ويكتفون من لقب مرشدين بأن يكونوا مجرد دعاة يأتي كل منهم من حين لآخر بجريدة تشمل قوانين مطالبه في الاصلاح وقواعد مذهبه في استرداد المجد المفقود ..

إذا كان بعض الناس تزدهيهم المناظر فتحملهم على النداء والصخب بالمطالب المتنوعة في كل فرصة من الفرص الممكنة، فإن العلم لا يرى تلك المظاهر المتعاقبة وإن تعددت في الأشكال والأحوال إلا مظاهر مختلفة لقوة واحدة هي (الحياة) ليس غير . وإذا كان أولئك المتعجلون لا يدرون سر تلك العوامل الطبيعية والنفسية الحاملة إلى الاجتماع على الأغراض الصالحة والاتحاد على الغايات المشتركة فيطلبون من الأمة مطالبهم بدون التفات لتلك العوامل والتحسس منها لإثارتها وتنشيطها ؛ فإن العلم يرى أن الأمم كالأفراد لا تتحرك إلا بحياة تحل فيها . وأن تلك الحياة تظهر في صغريات الأمور كما تظهر في كبرياتها . وأن العاطفة التي تحمل إنكليز بلدة على الاتحاد لتأسيس ميدان للعب الكرة هي بعينها التي تحملهم للاتحاد على مقارعة الاعداء وتذليل الصعوبات والقيام بعظائم الاعمال. وأن تلك الدوافع التي تدفع في صدور المصريين عن الصبر على تكوين جمعية أدبية هي عينها التي تدفعهم عن تأليف شركة تجارية أو عصابة مالية . فالعلم قبل أن يطالب الأمة بطلب من المطالب العمرانية يتأمل في مقدار ما عندها من القابلية له تحاميا عن مفاجأتها بطلب تعجز عنه فيكون انخذالها بعد الشروع فيه سبباً في غرس بذر اليأس في فؤادها وتعودها على النكوص بعد الإقدام وعلى الفشل بعد العمل . فالعلم يحسب لهذه المطالب حساباً دقيقاً جداً ويدرك خطر تلك

الجرائم المضرة التي يولدها في الأمة بجموع ذلك الصخب بالمطالب المتنوعة والمزاعم المتوالية المتكررة .

إذ تقرر ذلك فدون الاجتماع على تأسيس بنوك وطنية تلعب دوراً مالياً في ميدان المحاولات الاقتصادية العامة صلاحية الأمة للاجتماع والثبات في المشروعات الكبرى. ولا تكون تلك الصلاحية إلا إذا دبت في الأمة نفحة الحياة الاجتماعية بمعناها الخاص . هنالك يكون الاجتماع لاحداث الأعمال الحيوية اضطراريا كاجتماع أعضاء الجسم وتكاتفها بالفطرة على أداء الاعمال اللازمة لحفظ الجسد ، فالعلم يسعى في تهييء الأمم وإعدادها لقبول تلك الحياة والتصرف بها وهو بعيد عن مثار تلك التنبهات المزعجة والزواجر المفعمة المثالب .

إذا علمت هـذا فتحككك بعض الناس في أمر استحلال الربا سابق أوانه ، ولا يكون من وراء خوضهم فيه إلا تكدير أذهان الناس بما لا طائل تحته . ذلك إن كان الربا في حـد ذاته قوام المعاملات ودستورها وكان تحريمنا له خطأ منا في الفهم وليس الأمر كذلك .

هذا من جهة . وأما من جهـة أخرى فإن الذين يريدون من تحليل الربا بعث أغنيائنا من خمولهم المـالي وتحريضهم على النزول بأموالهم المجتمعة في غمرات المعارك الاقتصادية ومزدحم المقارعات المالية ، على نحو ما عليه الأمم الحية ، هم في مطلبهم هـذا كمثلهم في سائر مطالبهم الأخرى يرمون للنتائج الكبرى ولم يقدموا لها مقدمة تناسبها ، ويريدون أن يبنوا على الأسس الواهية علالي تزاحم السحب في مدارجها ، كأنهم يتخيلون أن الكلام قـوة تحيل الأشياء عن مجاريها الطبيعية وتوقف النواميس الاجتماعيـة عن بلوغ حدودها . لا جرم أن الذين يطلبون تحليل الربا ويكون غرضهم منهم تحلية الأمة بهذا السلاح المالي على نحو ما رسمناه هنا قد برهنوا على عـدم إلمامهم بشيء من القوانين التي تجري على مقتضاها هذه الحرب الحيوية العامة خصوصاً من جهة الأمور الاقتصاديةوالأعمال المالية ، ولو عرفوا أن قيادة بنك تستدعي من القائد من المهارة وبعـد النظر

وسعة مدار الفكر أكثر مما تستدعيه قيادة جيش أُلقيت عليه عهدة حماية حدود الأمة من عدوان العادي عليها ، لأمكنهم أن يفسروا تغاير البنوك الأوربية وتزاحمها على اقتصادي واحد يود كل منها أن يكون صاحب الزعامة في إدارة أموره وتدبير شؤونه ، وكثيراً ما تحصل هذه المزاحمة على بعض الاقتصاديين في البلاد الأوربية ، ومن يطلع منا على خبرها يندهش ويتعجب .. وليس في الأمر عجب لمن يعلم أن لكل شيء قانوناً خاصاً ولكل صناعة في هذا العصر فناً له أصول وقواعد ، وأن للشئون المالية علماً قائماً بذاته يقال له علم الاقتصاد السياسي له أصول وفروع وقوانين مستندة على الحوادث والوقائع ، ولإدارة الأموال على مقتضى ذلك العلم أساليب وطرق شتى تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمزاحمات وطبيعة المقارعات والمنازعات ولتلك الشؤون المختلفة فرجات وأزمات لكل منها أحوال تقتضيها وأمور لا بد من دراستها والتعمق فيها ، فكيف لا تتزاحم البنوك على رجل دلت أعماله المالية ومراميه الاقتصادية القصية على بعد نظره في الأمور وكمال دربته بادارة أموال الجمهور ؟ ومن يعلم أن الأمم في هذا العصر أصبحت تتنازع البقاء بالأسلحة المالية ، وأن ماتحمله الواحدة للأخرى من أنواع النكايات وصنوف الهزائم من تلك الجهة أشد وأقسى مما تحمله لها من الجهة العسكرية ؛ عرف تبعاً لذلك أن كل أمة تود أن تلقي بنفسها في ميدان المنازعات التي من هذا القبيل يجب عليها قبل كل شيء أن تبحث عن القادة المدربين والاقتصاديين الوطنيين الذين يحسن أن يسند اليهم أمر قيادة مال الأمة في مجال هذه المصارعات المالية الخشنة ، ومن الخطر المحض دعوة الأمة إلى حشد قوتها وإسنادها إلى من لا يعرف من أساليب الحروب الاقتصادية شيئاً فإن في ذلك ضياع مالها كله ضياعاً قانونياً .. ثم لا تستطيع أن تطالب به غريماً .

فإذا كانت أمتنا لم تدخل بعد في دور الاجتماع على إحداث الأعمال العامة ذات النتائج البعيدة كما أثبتنا ذلك وكما يلحظه كل متأمل من آحادها . وإذا

كان من العبث المحض البحث في أمثـال هذه الأمور المالية الهائلة قبل وجود من يلقى إليهم زعامة قيادتها ورئاسة إدارتها منا كما برهنا على ذلك .. فأي فائدة في تكدير ذهن الأمة بالتكلم في حلية الربا وإحداث قيل وقال في هذا الموضوع الذي ليس وراءه أدنى فائدة .

هذا فكرنا في عموميات هذا الموضوع أما في خصوصياته من أمر أذاته وفيما يتعلق به مما يمس الأخلاق وهيئة الاجتماع فذلك موضوع المقالة التالية .

* * *

(٣)

الأصول الحيوية للأمم

لكل أمـــة أصول حيوية صبت على قالبها عقولها ومداركها وقاست على مقياسها دستورها وقوانينها ووزنت بقسطاسها عوائدها وأخلاقها وأنهت اليهــا محامدها ومفاخرها وناطت بها حياتها وبقاءها . فأصبحت تلك الأصول عينها التي تبصر بها الوجود فتحكم عليـــه حكماً يناسبها . وعقلها الذي تدرك به الأمور فتقضي عليها قضاء يشاكلها . ومشاعرها التي تشعر بها الأشياء فتنزلهــا من نفسها المنزلة التي تلائمها . وعواطفها التي تتحرك بها فتتجه بنفحتها إلى حيث ترمي إليه وتنقاد له .

هذه الأصول تسود على الأمم فتؤيدها لهـــا الحوادث أو تحورها وتمكنها منها الشؤون أو تزعزعها ولكن لا يزول أصل حتى يحل محله غيره إما وحياً من مؤثرات الحوادث الوجودية أو نفثاً من جائشات الأوهـــام الضميرية . ونحن كما يرى كل راء أمة عظيمة تبلغ آحادها مئات الملايين حالين من الأرض بأخصب البلاد تربة وأجودها هواء وبقعة ، وقد سجل لنا الوجود تاريخاً يخفق على كل صحيفة منه علم مجـــد وسؤدد وتشرق من كل سطر من سطوره لألاء فضيلة ومحمدة . وقد أثر ماضينا على ماضي أكثر الأمم فأصبح تاريخها مرتبطاً بتاريخنا فلا تعطفهم لقديمهم عاطفة ذكرى حتى يكون لنا قسط منها وهي بقية من بقايا تلك السيادة الصورية والمعنوية التي كانت لآبائنــا على أسلاف هذه الأمم . فإن ما نالوه من بسطة الملك والجـــاه نشر سلطانهم شرقاً وغرباً وأحاطوا بآخذ الأرض جنوباً وشمالاً ، فكان القطر الذي لم تجل لهم فيه الدهم المطهمة تتبرج منها [illegible] العلوم المنقحة والآداب الموشحة والصنائع النافعة ؛ وأمة تحل من العالمين محل الهامة من الجسد أو العين من الرأس وتأخـــذ على عهدتها تخليص الأمم من أيادي

الآخذين بتنفسها حيفاً وهضماً والماسكين بأكظامها إذلالاً وإهانة لا شك يكون لها أصول في الحيـــاة تحافظ عليها وتحتذي طريقتها . ولا مشاحة في أن تلك الأصول قد انتقلت منهم إلينا جيلاً بعد جيل فاختلطت بدمنا وحياتنا وتلبست بأجسادنا وأنفسنا وإن دخل اليها ما ليس منها وخرج عنها ما كان متمماً لها ، فنحن وإن فصلتنا عنهم القرون وأبعدت بيننا وبينهم الأجيال وغيرت منـــا الحوادث وبلغت فينا الوساوس؛ نسخة منهم وصورة مأخوذة عنهم وإن لم تكن صورة مطابقة ونسخة مضبوطة . خلاصة القول أنا أشبه الناس بهم أو أكثرهم حباً لهم وتحككاً فيهم . نزعم أنهم كانوا الأكملين أخلاقاً ونقيم على ذلك الأدلة وندعي أن مدنيتهم كانت المدنيـة الفضلى ، ونأتي على ذلك بالشواهد ونعتقد أن اليوم الذي نتمسك فيه بسيرهم ونحتذي فيه سمتهم هو اليوم الذي نسترد فيه المجد المفقود والشرف الضائع ، ويكون لنا من السلطان على الشعوب ما كان لهم .

هذه عقائد امتزجت بعقولنا وعواطفنا واختلطت بكياننا وطبيعتنا حتى صار دون نزعها منا نزع أفئدتنا من نياطها ، وخلع أكبادنا من مواطنها .

نعم إنا لسنا عاملين بتلك الأصول التي نحبهـــا ونهواها والتي نصف لك من تعلقنا بها وبأهلها ما نصف . وربمـا كان من الأمم الأجنبية عنا من هي أكثر عملاً ببعضها منا ، ولكنا رغماً عن ذلك ورثة تلك الأصول وأهلها ، وما مثلنا في عدم العمل بها ومجرد تمنيها إلا كمثل ولد ترك له والده مالاً جمـاً ، وعرضاً كثيراً ، فحالت بينه وبين ميراثه حيلة محتـال أو غيلة مغتال ، أوجب وقوعه فيها ضعف عقـــله ، وسورة أهوائه ، فهو لا يزال يحلم بميراثه ، ويمني نفسه بالاستيلاء عليه متى بلغ أشده وساعدته الحوادث . أتستطيع أن ترده عن تمنيه هـذا ؟ كيف وهو غاية ما يسليه في وحدته ، ويعزيه في بلاءته وشدته ، فهو لن يزال يترقب استرداد ميراثه حتى يناله ، فيعيش غنياً أو يموت طالباً له فيروح وفياً .

كذلك نحن حرمنا ميراث آبائنا لأسباب كثيرة ، ولكن حب ذلك الميراث امتلك أهواءنا وتسلط على عواطفنا ؛ فلا تزال تذكره وتردده ، وإن كان منا من أخنت عليه الملمات المؤيسة ، ونهكت ضميره الفتن المقنطة ، إلا أن السواد الأعظم ينشد تلك الضالة ويترقبها ، لا يهنأ له بال ولا يتم له سرور إلا بحصول أمته عليها ، فهو في خلوته أو جلوته ، في تجارته أو صنعته ، في حله أو رحلته، في عرسه أو مأتمه ، يذكر ذلك الميراث ويتمناه ويحادث به أصدقاءه وخلصاءه ، ويثق من استرداد أمته له وظهورها به بمظهر أوائلها وأسلافها ، حتى إنه ليقول ، وقد جاشت بصدره الآمال ، ولمع له بارق الإقبال : « ترى هل نعيش حتى نرى ذلك اليوم ؟ » .

تلك الأصول الحيوية العالية التي كانت لآبائنا فملكوا بها الأمم وأفئدتها ، والتي لا نزال نتمنى الرجوع إليها والعمل بها ترينا الحياة وتكاليفها ، والإنسان ومواهبه ، والأمم وشؤونها ، والوجود وممالكه ، والفضائل ومواطنها ؛ على غير الصفة التي ترينا الأصول الأوروبية التي يسعى بعض كتابنا في إشرابها نفوسنا ، وصبنا على قالبها .

من أكبر تلك الأصول التي أشربتها نفوسنا : إننا ننظر للحياة الأرضية نظر الغريب منها النازح عنها ، ونرى أن لذاتها ومسراتها بروق خلب وأعراض خدع ، وأن مثل العالم فيها ، مثل قوم شدوا رواحلهم ، وزموا ركائبهم طلباً لمرعى خصيب فيه العيش خفض ، والحياة رغد، فهم فيما بينهم يجب أن يكونوا على مثل حال المزاملين في الظعن،والمنقطعين في الفلوات ، متراحمين لا متزاحمين، ومتواهبين لا متناهبين ، ينعطف غنيهم على فقيرهم ، ويحنو كبيرهم على صغيرهم ويعلم عالمهم جاهلهم تخفيفاً لألم الترحال ، وتلطيفاً لمضض الأوجال ، هؤلاء القوم لا يحرمون على أنفسهم اللذائذ ، ولا يخلونها من شيء من الملهيات ، ولكنها لذات لا تقعدهم عن المسير ، وملهيات لا تقطعهم عن التفكير في المصير ، ولا تنشيء بينهم وبين إخوانهم الأدنين نيران الحسد ، ولا تزرع بين المثرين منهم

والمقترين بذور اللدود ؟ وكيف يتحاسد المتزاملون في السفر والتحاسد مقطعة عن الوصول ، ومدعاة للتيه عن الجادة ؟ غنيهم لا يتيه بغناه ، ولا يتخذه آلة الاستعباد من دونه ، بل يعتبر نفسه مؤتمناً على عروض عهدت إليه لإنفاقها في حدودها ووضعها في مواضعها من المصالح التي تستدعيها طبيعتها . فهو لا يريد الغنى إلا ليواسي به فقيراً أو يفك به أسيراً ، أو يقيم به بيتاً ، أو يكسب به عارفة سكن إليها فؤاده، وتسرح في لذاتها المعنوية نفسه . ومن كان ينظر للحياة وتكاليفها ، وللثروة واختصاصاتها بهذا النظر (فكيف يعد الربا مباحاً ؟) ويتقاضاه من معوز لا يملك قوت عياله ، فإذا لم يؤده إليه حرمه من طعمته ، وصادره في أمتعة أطفاله وزوجته ؟ بل كيف يعد الربا مباحاً من هو مدين لأمته سنوياً باثنين ونصف عن كل مائة من أمواله مهما بلغت ، وبما يقارب ذلك من عروضه المالية الأخرى ؟

يريد مرشدونا السطحيون أن يحيلونا بتحليلهم الربا وغيره إلى هذا الأصل الأوربي قلباً وقالباً . أما قالباً .. فها نحن فيه ، وقد سار أكثرنا على صراطه وتورطوا في أوحاله ، وهم أعلم الناس بأحواله . وأما قلباً.. فلا يمكنهم ذلك ، فإن الحس لا يعارض بالكلام والحقيقة لا تزول بالأوهام ، فلا يستطيعون مهما قالوا وكتبوا أن يمنعونا عن اعتقاد أن أصلنا هو الأصل الموافق لحقيقة الحياة المخفف من أوصابها ومصائبها ، وأنه سيأتي يوم يراه العالم كله أحق بالاتباع وأجدر بالعمل به ، ولكن بعد أن تكون الفتن قد أدبته بسوطها والجوائح قد عركته بأظلافها . هنا أشعر أن أسرى الظواهر ، وصرعى الفواتن أخذوا يهزون أكتافهم استبعاداً واستهجاناً ، وربما كان لهم شبه العذر ، فإن مظاهر الرقي الصناعي الأوربي قد سترت عيوب تلك المدنية المادية ، بحيث أصبح لا يراها إلا أصحاء الأفئدة والبصائر ، وهل نطمع أن نستشهد على ما نقول بأحسن من علمائها ومقيمي صروحها . قال الفيلسوف (فيبرنس جيافرت) في كتابه (الغمة الحاضرة) : «إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الدائمة . وان جنون البذخ والكبر ينموا على قدر ذلك

لدى أهل اليسار والترف ، وهذا الإلحاد الآخذ في النماء يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة إلى حـــالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملوك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنـــة الماضية والحكم الإستبدادي بدل أن يتركز في بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين ، فكل ديموقراطي يتمنى أن يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات التي تفرضها عليه الكنيسة ، وازدرى بذلك الدستور السياسي الذي يراه يتغير بسرعة جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيـه كل الحرية ، وصار يعتبر أن ما له من حق المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنيـــل مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ، ولقد رجونا أن نداوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية ، التي ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان ، كما تكاتف العلماء ، والمهندسون والصناع ، والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا ، فلم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات ، إلا نشر حمى حب المـال في الطبقات النازلة جداً » . ثم قال :

«إن تحت السلم الذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر اختماراً بأشد ممـــا كانت في أي زمن من الأزمان . فإن جرائم الفوضويين وإفلاس الماليين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الآخــــذة في الانتشار بين الناس ، والجنون الذي لا ينتظر إلا سنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقي الشديد الوطأة البعيد القرار الذي عم أجناسنا ناشىء من عـــدم وجود أصل يصلح لإحداث الوحـــدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفة الحب فينا .

« لذلك ترى ظلمات من الحسد والكد آخـــذة في الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الإنسان في غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانشراح ، حتى أصبحنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنيل امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعي لنفسه حقوقاً ليس لها حـــد

تنتهي اليه ، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أي زمن من الأمان » . ا هـ.

وقال الأستاذ (كاميل فلامريون) : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتية . أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ، والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » ، « إن من التناقض المؤلم البين أن نرى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وإن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات » (انتهى) .

فهل بعد أن نسمع عن أعلام تلك المدنية أمثال هذه الحقائق الحيوية نستطيع أن لا نحب أصلنا ونتمناه وأن لا ندعو أنفسنا والعالم كله إلى حماه ؟ نعم أنا لا أفكر أنا لسنا ناهجين منهاجه ولا متبعين أعلامه ولكننا في تنكبنا عنه نعتقد أننا ضعفاء مفتونون وأننا لصنوف الجوائح مستهدفون ، ولا نزال نمني أنفسنا بالرجوع إليه والتعويل في الحياة عليه ، وكل ما نلاقيه في أنفسنا من المصائب وما نقرؤه عن سوانا من الحوادث يزيدنا ثقة فيه ويحملنا نعتقد بضرورة رجوع العالم إليه في المستقبل القريب ، وليس ذلك بعجيب . فياصاح لا تقنع بأنك صاح .

* * *

المخلص من فتنة المدنية الغربية

ليس من الصعب سرد الأمراض ووصف الأعراض والإشارة لجهـــات الألم ومراكز السقم ، وإنما الصعب كل الصعب تعيين عللها وأسبابها وتحديد عواملها وموادها، فإذا تعينت العلل وتحددت العوامل أمكن للطبيب مكافحتها بأسلحة العلاج وحصر نفوذها في دوائرها وأخـــذ المسارب عليها من كل جهة حتى لا تتعدى حدودها وتبلغ نهاية استشرائها .

نحن أمة منتشرة في كل قارة من قارات العالم وما من طائفة منها إلا وهي مصابة بأمراض اجتماعية خاصة أكسبتها لها أحوالها الحيوية وشؤونها السياسية وأمراض وراثية عامة هي مـــا أصابها بصفتها جزءاً من جسم أمة عظيمة ذات شأن كبير في تركيبها الانساني . فيحسن بالباحث العمراني قبل أن يسترسل في بحث أن يشير على أي شعب يتكلم أو في أي نوع من أمراضه يبحث ، أما ذلك الخلط بين الأمراض الخاصة والعامة وبين شعب وآخر فمما لا يكون له نتيجة ولا يناله غير الإغفال والإهمـــال . وإني بما كتبته في المؤيد لم أحُم حول الأمراض الخاصة لأي شعب من شعوبنا لعلمي أن تلك الأمراض الخاصة مما لا يدخل تحت حصر ، وهي كيفيات رديئة اقتضاها شيء من النقص الخلقي أو العقلي لا تلبث أن تزول كما تزول العلل الجسدية متى بلغت حدها الطبيعي وسيرها المعتاد إذا كان الجسد محمياً من المؤثرات الخارجية ، ولتحققي بأن العــــلة العامة هي الأحق بالعناية والأدعى لبذل أقصى مجهودات العلم في تحديدها وتعيينها .

أثبتنا في مقالاتنا السالفة أن مرضنا العـــام الشامل لجميع شعوب أمتنا وهو المرض الذي تلاشت فيـــه سائر أمراضنا السابقة ، هو تلك القوى المحللة المنصبة علينا من أوروبا تحت أسماء ومظاهر فاتنة مموهة . وقلنا أن هذا التدافع بيننا وبين تلك القوى أمر طبيعي تقضي به نواميس الوجود قضاء لا مرد له ، بل

إن نظام الكون يستدعيه لحفظ التوازن الحيوي في العالم وسوق الطوائف البشرية الى بلوغ غاية ما عدت له من منصات المدنية الفاضلة والحياة الطيبة .

قلنا كل ذلك وبسطناه على قدر الإمكان ولكن قارئنا ينتظر منا بعد هذا كله أن نريه وجه الخلاص من هذه الورطة الهائلة وهو ما وقفنا له الشق الثاني من هذا البحث .

الحيلة الوحيدة الفعالة للخلاص من هـذه الورطة المجتاحة هو التربية والتعليم وبذل الوسع في تعميم أنوار المعرفة بين سائر طبقات الأمة . هنا أشعر أن بعضاً ممن يأبهون بكتاباتنا يحسون أنفسهم بطائف من عـدم الارتياح لفوت ما كانوا ينتظرونه منـا من الذهاب في شرح الدواء المذهب الذي سلكناه في تشخيص الداء، مما كانوا يؤملون أن يجدوا فيه الإكسير المجرب الذي لا يخيب متعاطيه ولا يخلص مجافيه . وهـل هنالك إكسير مجرب شهد له الوجود وتاريخ الإنسان قديماً وحديثاً غير التربية والتعليم ؟ أي شيء أحـــدث ذلك الفارق الهائل بين أوروبي القرون الوسطى في خضوعهم للخرافات وعجزهم عن حمـــاية بلادهم وعمايتهم عما يلزمهم من الصنائع النافعة ، وبين أوروبي هذا العصر في حذقهم ومهارتهم وصنائعهم وقوتهم غير التربية والعلم ؟ وإني بقولي التربية والتعليم قد قلت أحسن ما يمكن أن يقوله قائل وجئت بما لا تقوى أي فلسفة على دحضه ، وإن كان من الشيوع والشهرة بحيث لا يجهله أحد .

يقول قائل : « لا ينكر أحد فضل التربية والتعليم ولكن يظهر لنا أنهما في بلادنا سائران على أسلوب ناقص لا يصلح لايقاظ عواطف النفس وإحياء ملكات المدارك ودليلنا على ذلك ضؤولة نتيجتها وضعف أثرهما في حالة البلاد . » نقول أن الأمـــة لم تشعر بحاجتها إلى التربية والعلم إلا من منذ ربع قرن تقريباً ولا أحسب ما سبق ذلك . فإن سعي الأمة إذ ذاك وراء العلم لم يكن شعوراً طبيعياً منها بل سوقاً قهرياً من حكامها . والناظر لنتيجة التعليم في هـذه المدة الوجيزة ممن يكون على علم بحال الأمة قبلها يدرك لأول وهلة أن الأمـــة قد

خرجت من دور غفـــوة وظلمة إلى دور يقظة ونور بسرعة لم تشاهد في أكثر الأمم . ومن يتأمل في هـــذا العدد العديد الذي نبغ منا في الكتابة والتأليف والطب والقوانين والهندسة والمشروعات والزراعة الخ .. يعلم أن البلاد أنجبت من الرجال من لم يكن يحلم به رجـال الزمن الماضي . ومن كان لا يزال على قيد الحياة من أبناء الجيل السالف يعترفون بهذه الحقيقة الجلية . ومن يلتفت حوله فيشرف على الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات المتنوعة العلمية والمؤلفات التي تترى كل يوم لا يتمالك نفسه من الاعجاب والتعجب ويزيد إعجابه وتعجبه لو نقل نفسه الى الجيل الماضي وأشرف على حـالة الخمود والخمول اللذين كانت فيهما البلاد وانصراف الناس حتى عن الفكر فيما يسمى تحريراً أو تأليفاً أو نصيحة . ولست في حاجـــة للتنويه بهؤلاء الكتاب والشعراء الذين شرفوا عالم الآداب بقرائحهم الخصيبة وملكاتهم النجيبة ورقوا اللغة العربية الى ما يقارب درجتها في زمن المدنية العربية الباهرة ... أليس هذا كله أثر من آثار التربية والتعليم على مـا فيهما من نقص في الأسلوب وتشوه في الشكل ؟.. على أن ذلك النقص يتكمل من نفسه وهذا التشوه يتجمل بذاته شيئاً فشيئاً ما دامت الأمـة تشعر بالحاجة الى التربية والتعليم شعوراً ذاتياً ولم تدفع اليه دفعاً كما كان شأنها في الزمن السالف . ولو دام الحال على هذا المنوال لبلغت الأمة المصرية من التنور والمعرفة درجة الأمم الراقية لا محالة . وهل ثم من يستطيع أن ينكر علينا أن التعليم في العشر سنين الأخيرة قد ارتقى عما كان عليه قبلها رقياً محسوساً ، ومن الشطط البيّن أن توجد مدارس حاصلة على أرقى أساليب التعليم المناسبة لحـالة الأمة طفرة بدون تدريج .

يقول قائل آخر : « لا ينكر أحد درجة التنور التي وصلت اليها البلاد في مدى هذه المدة الأخيرة ، ولكن المشاهد أن هذه الدرجة من العلم لم تؤثر على المصري في تحسين حاله أو الفكر في مآله ، بل هو لم يزل كما كتب بعض الإنجليز في (الإجبشن غازيت) في الدور الذي كان عليه قبلا لم يطبق علمـه على العمل في إدارة أموره الشخصية ولم تفـده التربية فائدة في تكميل نفسه وإعدادها

للمكافحة والجهاد ». نقول ليس هذا بعجيب وإنما العجيب أن يكون المصري في هذه المدة القصيرة كالانجليزي أو الألماني استعداداً للعمل وجلداً فيه وصرفاً للعلم في تحسين شؤونه وأحواله، أليس من الاجحاف البيّن أن نطلب إلى المصري الذي لم يشعر بذاته ولم يعرف له وجوداً إلا أمس أن يحاكي في الحياة والنظام من أحيته الحوادث منذ قرون وهيأته المكافحات لإدراك أحسن وسائل البقاء وأوجه وجوه الاستفادة من الوجود؟ إذا كان المصري في هذه الخمس والعشرين سنة أدرك أن له وجوداً وشعر بأن سيكون له مستقبل حسن أو رديء، فظل يبحث فيه وينقب عنه وإن لم يعمل له بمقتضى علمه فقد أتى بكل ما يمكن أن يأتي به كل ناشىء لم يصل بعد لفهم خطاب الحوادث وإدراك معنى وخز الكوارث لقرب عهده بالشعور والحركة وقلة خبرته بالحياة وتكاليفها. وهل يرجى من الطفل الناعم أن يبلغ مبلغ الكهل البادن دربة في الأعمال وتصريفاً للأمور ورأياً في المعاضل وبصراً في أعقاب الأحوال ومصاير الشؤون؟ يكفي المصريين فخراً أن يتمنوا مجارة غيرهم في مضمار الحياة وإن لم يجروا شوطاً واحداً للآن لعدم استعدادهم له. وهم بذلك كالناشىء الذكي يحب أن يأخذ أخذ الرجال في الأعمال والعظائم فيقعده لين جسمه وضؤولة شخصه وقصور أعضائه فيتألم ويستكين وقد يبكي ويظن بنفسه الظنون ولا يدري أن الزمان عامل في إعداده وتكميله، فإذا وصل إلى مستوى الرجال قوي على الكفاح وصبر على مكارهه وشدائده ونال من نتائج كده ما يناله كل عامل دائب.

قال قائل ثالث: « وكيف إذن أدركت اليابان شأو أمم الغرب في ثلاثين عاماً. ألسنا مثلهم جسماً وعقلاً؟ ». نحن لا نؤاخذ هذا المعترض فإنه ليس بعمراني يدرك وزن المسائل الاجتماعية فيتحاشى ما يستهجنه العقل ويمجه العلم وينكره الواقع، وإنما نؤاخذ أولئك الكتاب المغالين الذين يتحمسون لبعض المسائل بدون تدبر فيسوقون الشعريات والخيالات مساق الحقائق الثابتة بغير نقد ولا بحث. أليس من المضحك المبكي أن يصور بعض كتابنا للأمة أن الشعب الياباني خرج في مدة ثلاثين سنة من غيهبة الخمول إلى نور الحركة والحياة

وأتى في هذه المدة الوجيزة بما يعجز البشر ولم يسمح به الحظ لأمة من الأمم ، مع أن صنائع اليابان كانت قبل (ألف سنة) تعرض في قصور ملوك أوروبا كما تعرض الأعاجيب المحيرة للمدارك ؟ أليس من العجيب أن الأمة التي ترد غارة (كوبلاي خان) عن بلادها وهو فاتح العالم وضارب الجزية على الروسيا ، وتلقي أجنحة حمايتها على كوريا رغماً عن جارتها الدولة الصينية الضخمة ، تصبح بفضل بعض كتابنا الأمة الحديثة النشأة الجديدة العهد بالحياة ، والأعجوبة الاجتماعية التي لم تسمح النواميس العمرانية في مدى تاريخ العالم كله بمثل ما سمحت لها به من الرقي السريع والحياة الفجائية ؟ أي مانع يمنع أمة مثل الأمة اليابانية ظلت ألفين وخمسمائة سنة مستقلة ومعرضة لتأثير حوادث مهذبة للمدارك وكوارث مهيئة للرقي وشؤون محيية لمواهب النفس أن تصل بعد كل هذه المدة الطويلة الى مثل ما عليه أمة أوروبية ؟ بل أي مانع يمنعها من أن تكون أرقى من أرقى أمة لقدم عهدها بالاستقلال والمدنية ؟ لا جرم أن الذي يقيس الأمة المصرية بالأمة اليابانية يشط شططاً بيناً لعدم انطباق الحالين على بعضهما من كل وجه كما بيناه هنا في مقالات متوالية .

الخلاصة أن التربية والتعليم هما المخلص الوحيد مما فيه الشرق عامة وكل أمة على حدتها خاصة ، لكن هناك أمران خطيران يجب الالتفات اليهما وهما : (الأول) القوى الأوروبية المحللة . (ثانياً) المفتونون منا بمدينة الغرب . أما تلك القوى المحللة فقد درسناها في مقالة سبقت فهي دائبة لا تكل ، وكلما أدمنت وتمادت مصت دماءنا وأفنت قوانا واستنزفت حيويتنا شيئاً فشيئاً .. وأما المعجبون منا بمدنية أوروبا إعجاباً لا حد له فهم في تحمسهم لعاداتها وأصولها ونصحهم للأمة بالأخذ بها يساعدون فعل تلك القوى المحللة مساعدة خطيرة للدرجة القصوى . ألا ترى تزاحم أمم أوروبا على فتح المدارس ببلاد الشرق تصرف المصاريف الطائلة عليها وهي أحق بها في بلادها ؟ ماذا يعني ذلك من تلك الأمم إن لم يكن السعي في نشر لغتهم وعاداتهم بيننا تسهيلاً لتحليلنا لما قرره لهم العلم من أن اللغة والعادات من أكبر المحللات لعناصر الأمم المستضعفة ؟

فهؤلاء الذين يلقبون بعضهم بعضاً بالمصلحين هم أكبر أعوان تلك القوى المحللة من حيث لا يدرون بل من حيث يريدون الاصلاح ، فإن كان هنالك وجه للتخوف والشك من المستقبل فهو من جهة هذين الخطرين الكبيرين ليس إلا ، وعلينا أن نبدي رأينا فيهما تتميما لهذا البحث خدمة لأمتنا المحبوبة .

*

زيادة بيان

لاحظ على بعض ما كتبته تحت هذا العنوان في مقالاتي المتتالية كاتب نبيل بمقالة نشرت يوم الخميس الماضي في المؤيد وجعل أمام ملاحظته جملة ثناء وتحبيذ بها تعبر عن أدبه وحياة شعوره ، وإني أحييه وأحيي فيه تلك النزعة الفاضلة . وإني بمقالتي هذه أرجو أن أزيد موضوعي بياناً وأولي ما أغمضته سعة وشرحاً .

إن ما ذكره حضرة الكاتب من أن هذا الاحتكاك بين الغرب والشرق كما هو سبب فتنتنا هو سبب يقظتنا أيضاً مما لا مشاحة فيه ، وإني للآن ما بحثت في أسباب هذه اليقظة ولا في العوامل التي هيأتها ولعل لها موضعاً فيما يلي من القول.

أما تشبيه المصريين باليابانيين فلا أراه جائزاً بوجه من الوجوه لتخالف الأمتين في جل أحوالهما الرئيسية التي لها الشأن الاول في حياة الأمم ونموها . ولأسرد أمهات تلك الأحوال على عجل فأقول :

(١) الأمة اليابانية أمة تبلغ خمسة وأربعين مليوناً من النفوس قائمة بذاتها غير مرتبطة بأمة أخرى في حركتها الحيوية . والأمة المصرية يبلغ عددها عشرة

ملايين نسمة [1] وهي جزء من أمة عظيمة لا مناص لها من التأثير بحركتها العامة جذباً وانجذاباً وسكوناً واضطراباً .

(٢) الأمة اليابانية دولة مشكلة تحت زعامة ملك هو حلقة من سلسلة ملوك يصعد تاريخ أولهم إلى ما قبل الفين وخمسمائة سنة ، والأمة المصرية ولاية تابعة لدولة أخرى كانت لا مناص لها من الرضوخ لمن تؤمره عليها وتطلق يده بالتصرف فيها وكثيراً ما أضرت تلك اليد بالمصالح الخاصة والعامة معاً ، ثم لما حصلت العائلة الحاكمة في هذه البلاد على شيء من ظواهر الاستقلال احتوشتها أطماع الأجانب وأصبح أمرها تابعاً لارادات الدول جمعاء ، ولا يخفى على أحد ماهية تلك الإرادات ووجهتها .

(٣) الأمة اليابانية لم يذلها الاستعباد الاجنبي ولم يتسرب اليها الحين من قبل الحكومات القاتلة للعواطف الفاضلة ، ولا يجد المؤرخ أمة تحاكي الأمة اليابانية في كثرة اضطراباتها ومشاغبها الداخلية ، وناهيك بشعب يقضي أكثر من ألفي سنة في حركة وهياج لا تهدأ لها ثائرة إلا ريثما تستجمع قوى جديدة وتدخر أسلحة أحد ضريبة ، وما أوجب لها كل هذا الشغب إلا دم يغلي بحرارة العزة وعوامل الأنفة والفتوة . أما الأمة المصرية فقد رضخت لحكم فاتحيها وسلمت لهم قيادها بعد أن أعياها الجهاد قبل أكثر من ألفي سنة فخنعت للسكون وتركت أمورها لتصرف قادتها ، حتى أن الأجانب المتنازعين في السلطة كانوا يتقاتلون في دارها بجيوشهم المخيفة وهي ساكنة تنتظر الغالب لتخضع له مكرهة وتقدم له الإخلاص منكرة عجزاً منها عن مناوأة العالم كافة . فإنه لم يكن أمامها إلا أحد أمرين : إما أن تقف لكل فاتح بالمرصاد وما كان

---

(١) هذه الأرقام نتيجة إحصاءات سابقة منذ اكثر من أربعين عاماً ، وقد تضاعف عدد سكان كل من الدولتين عدة مرات خلال هذه المدة .

— الناشر —

أكثرهم في العالم السالف فكان يجب عليها لذلك أن لا تغمد سيفاً ولا تروي زرعاً ولا تدخر شاباً وليس هذا في وسع أمة ، وإما أن تخضع للفاتحين وتكون تابعة لأقوى دول العالم في كل جيل وقد فعلت ولم تزل على ذلك . أين هذا من الأنفة اليابانية التي لم تقبل أن تضيف الأجانب في بلادها وتشملهم برعايتها ؟

(٤) الأمة اليابانية تسكن جزائر بعيدة عن مرامي الأنظار ومطارح المطامح فلم تزعجها غيل المغتالين ولم تكن يوماً من الأيام مغنما يستدعي شره الفاتحين ، أو طريقاً يرجو مالكه أن يحكم به الأمم أجمعين . والأمة المصرية تسكن قطعة من الأرض تعد مفتاح الشرق كله دانيه وقاصيه ويعتبرها الجغرافي والسياسي نقطة الاتصال بين الأمم المستعمرة والشعوب المستأهلة للفتح . لذلك قاست مصر من ضروب الهجمات وصنوف المباغتات وألوان الغارات والطامات ما لم تذقه أمة من أمم الأرض . وكابدت من أخلاق الفاتحين وشراسة المغتصبين ما لم يصبر عليه غيرها .

(٥) الأمة اليابانية في كل أدوار حياتها تحدث نفسها بالمجد والسؤدد والغلبة والظهور ، ولكن المصرية من منذ ألفي سنة لا تحدث نفسها إلا بأمنية واحدة وهي عدل الفاتح ومرحمته لا الخلاص من ربقته والتفصي من حبالته . وفرق جسيم بين أمتين إحداهما تحدث نفسها بالعزائم والعظائم وأخرى تستعطف المراحم وتستلين الغاشم. تلك تنمو فيها ملكات الإقدام والجرأة والشهامة وهذه تنعدم فيها على طول الزمن صفات الأحياء ولا تزداد على توالي الأدوار عليها إلا استكانة وخمولا ، ولو تلاقي أمة ما لاقته الأمة المصرية لكانت مثلها لا محالة ، فلا جرم ختمت الامة اليابانية تاريخ اضطراباتها بإقامة حكومة دستورية شوروية وكان ذلك نتيجة جهادها كل تلك القرون الماضية قبل أن يدرس شعبها درساً واحداً من مدنية أوربا .

لما استتب للحكومة الجديدة الأمر حانت منهم التفاتة فإذا الغرب أسبق منهم إلى كثير من كماليات الحياة فمالوا إلى الأخذ بها ، ولكن ميلة العالم يريد أن

يتكمل لا الجاهل يود أن يتعلم : لذلك لم تفتنهم مدنية أوروبا بل كانوا بإزائها كمن لاحت لهم غنيمة فخفوا إليها سراعـــا كخفتهم الآن في سهوب منشوريا و رعان بورآرثر بهمة لا تعرف لها حداً خشية المباغتة ، لأنهم كانوا يعلمون أن أوروبا لو فطنت لهم لعلمت كيف تناقشهم الحساب على ما يأخذون منها . ولم تكن أوروبا تعرف عنهم وعن حياتهم الصحيحة إلا ما ينقله لها كتـــاب الرحلات ولا يخفى على أحد مصدر نقلهم ومسرح نقدهم ومبلغ معـــارفهم . وكلنا يعلم أن جلهم لا حظ لهم من كتابتهم على الشرق إلا ذكر العجائب وإيراد الشوارد في الأخلاق والعادات ، ومن يرد أن يعرف طرفاً من خلل نقلهم وبعدهم من الوقائع في أكثر ما يوردونه فليطلع على ما يكتبونه عن المصريين وعاداتهم .

أخذ الأوروبيون معلوماتهم عن اليابان من أولئك الرحـــالات فصوروا اليابانيين لأنفسهم بصورة ما ، فلما حسرت عن وجهها اللثام وظهرت بمظهرها الحقيقي خالها الناس أعجوبة اجتماعية وغالوا حتى كادوا يعلون بها عن مستوى البشر وسيعلون بها حتى ينبههم المنبه الأوروبي .

أما الاحصاءات التي يمكن إيرادها عن ترقي أحوالها الاقتصادية والحربية في مدى هـــذه الثلاثين سنة فهو من طبيعة الحكم النيابي وخصائصه ، فإن للأمم حاجات في نفوسها تشعر بها ولا تستطيع إبرازها لقصور طاقة الأفراد عنها ، فهم يؤملونها من القائمين بشؤونهم تأميلاً فإن شاءوا حبوهم بها وإن شاءوا أرجأوها لأنه كثيراً ما تخالف إرادة الحكومة مطالب الشعب وحاجاته فتهملهـا بل وتميت العاطفة الباعثة اليها ، ولكن متى حصلت على الحكم الدستوري تدفقت تلك الحاجات وبرزت إلى عالم الظهور بسرعة مدهشة. هذا ما يريناه تاريخ كل أمة دستورية ، ولو وازى المنتقد بـين ما حصل من الرقي الفجائي في ممـالك أوروبا بعد تقرير تلك المجالس مباشرة وبين اليابان لرأينا أن في اليابان بطأ في السير عن غيرها .

أما الذي صد (كوبلاي خان) عن اليابان فهو جسارة اليابانيين وإقدامهم

وتمكن الأنفة والحفيظة من نفوسهم ، فقد داهمهم الفاتح الأسيوي في ديارهم بمائتي ألف وأربعين ألفاً من الجنود العتاة المتعودين على شرب المهجات وخوض الغمرات ؛ فلم يصدهم المحيط ولم يعوزهم للوصول إلى جزر اليابان إلا تعدية بحر اليابان الذي يفصل تلك الجزر عن القارة الأسيوية . ولقد نازل فرسانه رجالات اليابان كتفاً لكتف فلم يسعه بعد أن رأى ما رأى من شكيمة شديدة وجلد لا يغالب إلا أن يرضى من الغنيمة بالإياب .

أما عرفان فضل اليابان بخمول ذكر الصين ففيه نظر . فان الصين ليست كما يصفها كتاب الرحلات من خمود الحركة وموات العزيمة وهمود الاحساس . وما صوّر لنا هذه الأمة الفخيمة ذات المدنية القديمة وجعلها في أذهاننا عنوان الخمول والانحطاط إلا أولئك السواح المتهورون الذين يكتبون عنا أشد من ذلك مما لا حقيقة له ، ولكن أهل العلم منهم يقرون للرجل الصيني بصفات تضعه قبل الياباني بدرجات وإن قهره هذا الاخير في سنة ١٨٩٤ وألجأه للتسليم بشروطه . ويستنتج هؤلاء العلماء من صفات الصينيين وقبولهم السريع للرقي بأخص معانيه وعددهم البالغ حدود الكثرة أن هذه الأمة سيكون لها شأن هائل في العالم وأن أوروبا التي لا تعبأ بها الآن ستلتجىء لأن تحتمي منها بالهرب إلى بلادها وهذا ما يعبرون عنه (بالخطر الأصفر) ، ولولا ما يتوقع من النهضة السريعة للصين لما كان للخطر الأصفر وجود البتة ، فإن الأمة اليابانية إن قاومت دولة أوروبية فلا قبل لها بمقاومة دولتين وهي عبارة عن جزر لا تبلغ مساحتها مساحة فرنسا لو تحطم أسطولها لتلاشت خطارتها وزال كل خوف من جانبها .

يقول قائل كيف قهرت اليابان الصين وكيف سبقتها الى الأخذ بالنافع من المدنية الأوروبية مع ما تصف به الصيني من السمو على الياباني ؟ .. نقول أما سبب غلبة اليابانيين فجودة السلاح وحسن القيادة العسكرية وقد دهمت هذه الأمة جارتها الضخمة بهذه الوسائل المخيفة وهي في غفلة عن خطارة الجديد خطره فلم تقو على الدفاع فسلمت لعدوها في مطالبه. لا عجب من هذا فقد قهر

المصريون الأتراك في بلادهم تحت قيادة ابن مؤسس العائلة الخديوية مع مـا هو مشهور من شجاعة الأتراك وشدة بأسهم . ولكن هي الأساليب الحربيـة والأسلحة المتقنة التي أصبحت مدار الفوز في حروب هذا الجيل .

أما سبب سبق اليابانيين في الأخذ بالنافع من أوروبا فله أسباب اجتماعية كثيرة من أكبرها :

(١) أن الصين أمة كبيرة جداً يبلغ أفرادها نحواً من خمسمائة مليون أي ثلث العالم كله ، وهي تشغل حيزاً شاسع الأطراف من الأرض يصعب على أهله أن يلتئموا على غرض واحد أو يتآمروا على أمر مشترك . وهي مقسمة إلى ولايات كل ولاية تزيد في المساحة عن أربعة أضعاف مساحة جزر اليابان لها حاكم شبه مستقل وله جيش خاص منعزل في إدارته ونظامه عن جيوش زملائه الحكام حتى عن جيش الامبراطور نفسه . فما سهل على اليابان من ضم نفسها والتآمر على حفظ كيانها وتدبير أمورها من تأييد دستور وتدريب جيش وتنظيم أساطيل يصعب على أمة الصين الكبيرة لهذه الأسباب كما لا يخفى .

(٢) اليابانيون أمة تكونت من الهجرات المتوالية من الصين وأصقاع آسيا القريبة منها ، وكل أمة تتكون على هذه الصورة تكون أقبل للترقي من الأمم الأصلية ، لأنه لا يقوى على هجر وطنه وأهله إلا من كان يحمل فؤاداً كبيراً وتحمله نفس تواقة للمعالي . وبناء عليه فالأمة اليابانية المتكونة من المهاجرات تعد أمة مقداماً بطبعها قابلة للأخذ بالنافع بفطرتها مستأهلة للإقدام على كل غاية قبل غيرها . وقد أخذت بالصالح من أوروبا وضمته إلى ما كان لديها وغداً تسبقها لا محالة . لهذا السبب ترى أمريكا الشمالية التي تكونت من المهاجرات قد سبقت الأوروبين الذين هي منهم وهي لم تزل أسبق إلى كل جديد وأقبل لكل فكرة حديثة من غيرها .

(٣) اليابانيون أمة محصورة بالبحر جزائرها ووسائلها الحيوية محـددة تكفي عدداً محدوداً من النفوس ، ولكن متى زاد عدد سكانها عن القـدر

اللازم تستدعي طبيعة العمران منها أن تتخذ لنفسها سبلاً إلى خارج بلادها وإلا هلكت . من هنـا كان اندفاع الأمة اليابانية متركزاً على دوافع قهرية وبواعث طبيعية لا يمكن إحصاؤها . فلا عجب أن تأملت في ذاتها وتفكرت في وسائلها وجمعت أمرها ورقت شؤونها قبـل غيرها . أما الأمة الصينية فهي أمة أصيلة تفتخر بأن مدنيتها تبلغ من العمر آلافاً من السنين ولها تاريخ يرفع من معاطسها ويزيد من أنفتها وهي في بقعـة فسيحة خصبة تقيت ضعفيها وتؤوي مثليها . فليس لها والحالة هذه دوافع قهرية تدفعها رغماً عن إرادتها ، فلا عجب أن سبقتها الأمة اليابانية التي لم تبلغ ولاية من ولاياتها ، أما وقد تولدت بعض تلك الدوافع من جراء مطامح الأوربيين فقـد ألقى الصينيون بأنفسهم في ميدان الرقي ،وقد نقل المؤيد هذا الأسبوع عن بعض جرائد أوربا أنه يوجد في مدارس بلجيكا وحدها خمسة آلاف طالب علم منهم ، ولا تسل عما يوجد منهم في أمريكا القريبة إليهم وفي اليابان جارتهم وفي سائر ممالك أوروبا . وإذا استمرت هـذه الحركة عشر سنين انتقلت الصين فجأة من حال إلى حال آخر وعلم الناس هنالك أنهم كانوا غير مقدريها قدرها ولا واضعيها في الصف اللائق بها .

هذا ما استطعت إيراده في هـذا الموضوع الخطير وإني أرجو أن أعود لهذا البحث نفسه بعـد الفراغ من أعمالي المتراكمة عليّ في هذه الأيام ، وإني ما جئت اليوم بهذه العجالة إلا توطئة لما أرجو كتابته في هذا الصدد بعد الفراغ من مبحث فتنة المدنية الغربية .

* * *

القوى المحللة

قلنا في مقالاتنا السابقة أن الأمة بمجموعها سائرة نحو الحياة والتقدم سيراً حثيثاً . ثم خصصنا الشعب المصري ببعض التفصيل فأثبتنا أنه نال في الخمس والعشرين سنة الأخيرة من اليقظة والشعور ما يعز على غيره نيله في هذه المدة الوجيزة . قلنا ذلك كله ولم نبحث عن موجبات هذه اليقظة بل ولم ننوه عما يحتوشها من العيوب المؤيسة التي خصها كثير من الكاتبين بالبحث والتحليل وأفردوا لها الأبواب والرسائل وعقدوا فيها فصولاً لعيوب الأفراد وأخرى لمثالب العائلات وغيرها لسائر طبقات الهيئة الاجتماعية . وما حدا بأولئك الكتاب إلى تكلف المشقة في تلك المباحث إلا أنهم يتخيلون لهذه النقائص أسباباً قريبة وقانوناً سهل المأخذ . وعندهم أنهم متى كشفوا القناع عن بعض الحوادث التي نكب فيها بعض العائلات اتعظ الناس بها واتخذوها لهم عبرة . ولكنا نرى أنه ليس يصح أن تعيّر الأمة بمعائبها إلا في أدوار دون أدوار ، ولو صح أن يقال أن للأمم في حياتها طفولية فلا يليق أن تبكت الأمة بنقائصها في ذلك الدور كما لا يليق أن يجعل فضح مثالب بعض الأطفال بالتفصيل والتحليل عبرة للأطفال الآخرين في دور نشأتهم .

من هنا صار تعيير الأمة بنقائصها في نظرنا من العبث المحض ولو أردنا أن نحكم حكم العمراني الصارم لقلنا أنها تزيد الناقصين نقصاً ، وتغري الكاملين على الخروج عن حدهم لوجدانهم العذر والقدوة السيئة خصوصاً لو كان الناقصون من الطبقات العالية . وقد ثبت في علم الإنسان أن مكاشفة الأمم بعيوبها في بعض أدوارها يجرىء المستعد لها على غشيانها ويلشىء في الغافل عنها نزوعاً اليها . لذلك كان أمر سياسة الأمم من أدق السياسات وأشدها على قادة العلم وأساطين الحكمة .

يرى الناس أجمعون أن قد نشأت فينا مع هذه النهضة أدواء لم تكن معروفة

لآبائنـــا من قبل ، وأن تلك الأدواء آخذة في النمو والانتشار كل يوم حتى آل أمر بعض أصحاب البصر بسببها الى اليأس من المخلص فإن الإلحاد على أشكاله والعقوق بصنوفه والفساد والسفاد بسائر ضروبها الخ .. كلهـا عيوب لم تكن لدى أهل الجيل السالف الذي وصفناه بالخمول والخمود إلا بدرجة محدودة ، أمـا الآن فهي في جسمنا الإجتماعي بثرات درنية خبيثة عدت على كيان الأمة والعائلة وسرت إلى سائر الطبقات فأحدثت فيها أموراً لو عدّدها المعدّد لأدمت العيون أسى وكلمت الأفئدة أسفاً .

نعم كل هذا كائن وليس من الصعب سرده سرداً وقذف مرتكبيه بالمثالب والملاوم والنعي عليهم بمـا هم أهله ، ولكن الصعب كل الصعب أن تنقب على العلة فتجد جرثومتها فتجتثها أو تهتدي إلى ميكروبها وتعرف مادة حياتـه فتبيده بالمطهرات . هذا أمر شاق وأشق منه على النفس أن تهتدي إلى علل هذه الأعراض السيئة ولا تستطيع أن تعالجها ، لاستدعاء علاجها عقيدة من الآحاد راسخة في إمكان الخلاص منها وأملاً واسعاً جداً في المستقبل وصبراً على شدائد الصبر وهي صفات عالية لا تعطاها أكثر الأمم .

تلك النقائص التي التثنا بها وارتطمنا في شعابهـــا في هذه السنين الأخيرة وأصبحت وصمة درنية في وجه هذه النهضة الجميلة لم تنشأ فينا نشوءاً طبيعياً كما ينشأ الشوك بجانب الورد حتى كنا نضيفها الى باب الأعراض التي لا تتنزه عنهـا كل نهضة من هـــذا القبيل ، بل اجتازت تخوم المعقول وخرجت إلى متاهات العسف فهوت تيارها بيوتاً وانقرضت أسر بأسرها وتهـــدم بها من مجد البلاد معاهد كانت قوية القواعد ركينة الوطائد . ولا غرو أن وجد الكاتب المتشائم مجالاً واسعاً ليراعته من هـذا الحال الحالك ولا عجب أن استطاع أن يسرد من ضروب الحجج العيانية الحسية ما يذهب بالبقية الباقية من الرجـاء في قلوب الراجين .

إنا نتحد كلنا في هـــذا الباب وليس فينا واحد يرى أن النهضة نزيهة عن

نقائص مجتاحة عاملة على الدوام على إطفاء نورها وتصويح زهرتها ولكن الخلاف يأتي بعد ذلك . يأتي في وجه معالجة هذه النقائص المهلكة فيذهب قوم إلى لزوم تكميل التربية وإعطائها قسطاً وعظياً مؤسساً على قوانين الحكمة . ويذهب آخرون إلى أن هذا التعديل الخلقي مما يجب أن يوكل لسلطة الحكومة فهي التي يُطلب منها أن تسوس البلاد بما يقف بأهلها عن الترامي على مهاوي الهلكة والتهافت على مزال الفتنة . ويظن غيرهم أن هذا وظيفة المهذب المدرسي والوازع الحكومي معاً . أما نحن فلا نرى واحداً من هذه الآراء الثلاثة يصلح لعلاجنا مما نحن فيه . نعم إن في تكميل التربية والتهذيب ودعمها بقوانين الحكمة أثراً لا ينكر في تحسين الأخلاق . وكذلك في قيام الحكومة بسن القوانين الرادعة للناس عن التهالك على الموبقات وصدهم عما يبيدهم ويبددهم دخلاً لا يستهان به في كبح الأهواء والإبقاء عليهم من التحلل ولكنا مع ذلك لا نعلق عليهما خلاص البلاد مما هي فيه .

أما الاعتماد على الحكومات في سن ما يحفظ الناس في دوائر الاعتدال ويحميهم شرور نفوسهم فليس بطريق طبيعي لطالب الإصلاح لأنه من باب الاعتماد على المصادفات إلا إذا كان للشعب قوة على انتخاب الحكومة التي ترضيه . أما شعب مثل الشعب المصري لم يصل لدرجة انتخاب حكومته بنفسه فلا يجوز له أن يرتكن على الحكومة في إصلاح شؤونه . لأنه إن كان في حكومة اليوم شيء من العدالة والمراعاة للعواطف فعسى أن تكون حكومة الغد على نقيض ذلك حتى لا تحتمل أن تسمع منا طلباً للإصلاح ، وقد رأى المصريون من تغير الحكومات عليهم ضروباً من أهواء الحاكمين تعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم ولا يضعون حياتهم في يد حكومتهم .

لا جرم أن اعتماد الأمم على حكوماتها في أمر رقيها وتعديل أخلاقها اعتماد على المصادفات ، ولا تفلح أمة تعد بالملايين تتكل في أمر حياتها على أفراد من المسيطرين . وعندي أن القول بأن الأمة المصرية لا تصلح إلا مقودة بقوة حاكمة

مستبدة من الأمور التي لا يقوم عليهـــا دليل ولا شبه دليل . والاستدلال من التاريخ على أن المصريين صلحوا تحت الحكومات الصالحة حتى فعلوا الأعاجيب، وفسدوا تحت الحكومات المفسدة حتى سقطوا للحضيض لا يؤخذ حجة على أن المصريين خلقوا لأن يعيشوا مجردين من الإرادة والشعور وسيبقون كذلك أبد الآبدين . وإنمـــا غاية ما يؤخذ منه أنهم فتنوا بالضغط الشديد المتوالي وحملوا بالعسف المتواصل على أن يستسلموا للمستبدين استسلاماً لا حد له . فهل يصح أن نجعل هذا الاستدلال تكأة نتكىء عليها في القول بأن المصريين لن يبلغوا قط مبلغ الأمم الراشدة فيشعروا بشخصيتهم ويعملوا لأنفسهم بأنفسهم بدون سيطرة حكومتهم عليهم ؟ وهل يليق أن نرتكز على هذا الاستدلال فنقرر أن هـذا الشعب لن يرتقي عن هـذا الدور الاتكالي كما ارتقى عنه كل شعب في العالم بالعلم والتربية ؟ إن ساغ لنـــا ذلك الزعم فقد ساغ لنا أن ندعي أن المصريين خلقوا نسيج وحدهم وفطروا على غير فطرة سائر الناس وأن ما رفع الأمم الى مقاوم الشعور والأنفة من العلم والتربية لا ينفعهم.

وهذا مما لا يسمح بـه مذهب فلسفي من مذاهب العالم . وما سبب صدور هذه الآراء البعيدة إلا استبطاء مبديهـــا حول الأدوار وحدوث الانقلابات والتغيرات ، فهم يودون أن تتسلسل أمامهم الحوادث الاجتماعية بمـا تستدعيه من إصعاد قوم وتسفيل قوم وتقويم أمـــة وتعويج أخرى كما تتوالى أمامهم حوادث العام أو الشهر . ولذلك فمتى رأوا أن شعباً لبث ألفي سنة على حالة واحدة متبعاً سنة واحدة استنتجوا من ذلك أنـه خلق عليها ولن يتعداها إلى غيرها . وربما لا يغيب عنهم أن هنالك أقواماً باقين على حالة الوقوف من يوم خلقوا للآن لأسباب لا يسع هـذه العجالة سردها سرداً ، وما ألفا سنة في عمر الاجتماع البشري إلا كعامين من عمر الإنسان الواحد .

ظهر من هنا أن الذين يعتمدون على سلطة الحكومات يخطئون خطأ عمرانياً جماً ويرتكنون على المصادفات وهي مما لا يصح الارتكان عليها في شيء لأنها

كالرياح يوم لك ويوم عليك ، والعاقل من يعتد لنفسه عـــدة تقيه ما عليه من الأدوار فإن عجز اليوم وأخفق جهده فلا يجوز له أن يعتقد أنه عجز الى الأبد فإن للأمم في حياتها أدواراً وللحوادث نتائج وآثاراً . ونحن إن ربينا أبناءنا على هذه السنة سُنّة الاعتماد على الحكومات فقد أنشأناهم على ذلك القالب البالي، وجعلنا منهم أشباحاً لا إرادة لها ولا عزم على سنة من تقدمهم من الأجيال . وأما إن قررنا لها الحقيقة العمرانية وصورنا لهم واجب الأمة على نفسها وحددنا لها وظيفة حكومتها بإزائها فقد أقمناهم على صراط الحياة الاستقلالية، فإن لم يحيها الجيل الخالف حييها من بعده .

هذا هو الدستور العلمي المؤسس على التجارب وما بعده إلا الآراء المنتزعة من حوادث جزئية خاصة لا تصلح لأن يستنتج منها قانون عمراني له وزن في الأمور العامة .

أما التربية فإنا ممن يعتقد أنها تفعل الأعاجيب ، وهل بعد تدريب الحمام على الرسائل فوق القنابل ، وتمرين الكلاب على قيادة العميان والتفتيش على الجرحى في ساحات الوغى ، وتعويد الخيول والفيلة والمعزى على الألعـــاب الرياضية المدهشة .. بعد هذا يشك انسان في فضل التربية على الإنسان ؟ لا . لا يشك فيها أحد ولكن الإنسان ليس على سنّة الحيوان . هذا محدود القوى والمدارك مقيد القابلية والاستعداد وذلك مطلق المواهب والملكات بعيد مدى التصور والخيال ، ثم هو مع ذلك مرتبط بطائفة من بني نوعه تستطيع أن تنقض له ما يبرم وتبرم له ما ينقض، فما يتم لك على الحيوان في عام لا يتم لك على الإنسان في أعوام ، بل ربما لا يتم لك في أجيال متعاقبة تبعاً للأحوال التي فيها الأمة . وقد سبق لنا أن تكلمنا على الحرب الحيوية القائمة بين الأمم ، وقلنا أن الضعيف منها معرض لتحليل القوي وهضمه والفناء في جسمه ، وقلنا أن هذه الأمة مصيبها قسط هائل من تلك القوى المحللة المنصبة عليها من أمم الغرب فما تفعله التربية في عقول الناشئة في سني المدرسة تبدده لها تلك القوى المحللة بأسلحتها السلبية

الفاتنة في يوم واحد . وهل بعد أن يرى أحدنا أنه تربى في المدارس الأوربية الخاصة لتخريج القادة والزعماء فخرجت الفرقة التي كانت معـــه من الأجانب فتولت إدارة بلادها بين عالم عمراني وفيلسوف اقتصادي وقائد عسكري أو سياسي ، وخرج هو لا يدري أي شيء يعمل وربما جاء ساخطاً على بلاده زارياً على أهلها ويود أن لو لم يكن من بنيها . هل بعد أن يرى أحدنا نفسه على هذه الصورة يستطيع أن يمتنع عن اعتقاد أننا بعد التربية تتلقانا أيدي فتنة آسرة تسلبنا إرادتنا وعزيمتنا وتتخذنا آلة لتحليل من دوننا ؟

هــذه الفتنة هي مظهر من مظاهر القوى المحللة ولهــا أشكال وصور شتى يأتينا ميكروبها محمولاً في صدور الأقمصة الملمعة وجيوب الألبسة المؤنقة وأطواء الفرش المنضدة وأثنــاء الجمــل الفلسفية المفوفة وغير ذلك مما يعلم بالبداهة ولا يحسن قوله علينا .

ما دامت هــذه الفتنة عاملة دائبة فهي تلاشي آثار التهذيب أو أكثرها ولا تزال بنا حتى تجعلنا فلاسفة قولاً وسفهاء فعلاً .

يقول أنصار المذهب الثالث — مذهب الاعتماد على الحكومة والتربية معاً : « ألا ترى الآن أنه لو كانت حكومتنا مع ما نحن عليه اليوم من الميل للتهذب والتعلم تمنع عنا هذه الفتنة التي نهوي فيها هوياً سريعاً لوصلنا في مدى قريب إلى درجة عالية من درجات الحياة الصحيحة » .

نقول : نعم ولكنه لم يحصل ويكفي لبيــان وهن أساس هذا الرأي أنه من قبيل الأماني .

يقول قائل : إذا كان الأمر كما ذكرت فما المخلص من هـــذه القوى المحللة الهاضمة ؟ نقول لا نستطيع أن نبدي رأينا فيه إلا بعد إبداء كلمتنا على المفتونين منا بالمدنية الغربية لارتباط الأمرين ببعضهما .

* * *

(٧)

المفتونون بالمدنية الغربية

لست من أعـداء المدنية الأوروبية ولا من الواهمين في تقدير قدرها . بل أنا ممن يعتقد أنهـا أفخم مظهر من مظاهر الرقي الإنساني في عالمي الصناعة والعلم الطبيعي وأنهـا قد ورثت سائر ما حفظته بطون الأوراق وخزائن الأملاك من آثار أعلام العرفان والحكمة ، وذخائر نقباء الطبيعة والصنعة . فوحدت بين متفرق هـذا الميراث الأدبي وضمت بين أجزائه . وركبت منه مزيجاً جمع نتائج قرائح الأمم في أمـة . وصبت نهايات المدارك الابداعية في قالب واحد . ثم ضمت اليه ما اكتشفته من مساتير الوجود. وما هديت اليه من خفيات المعارف ودقيقات المسائل. فجاء هذا الكل شكلاً يأخذ بالقلب هوى ويملأ العين سحراً.

الناس بإزاء هذا البدع الفخيم أحد ثلاثة رجال :

(١) فهم إما خفاف الأفئدة سريعو التأثر بالظواهر فيزدهيهم هـذا الشكل الآسر فلا يرون لحياتهم قيمة ولا لوجودهم وزنا إلا بتقليد أهـله في شأنهم كله ، فيكدون في هـذا السبيل صارفين له هممهم وهممهم واقفين عليه جدهم وجهدهم فيعيشون متطفلين على موائد غيرهم ، ومن يرض أن يعيش متطفلاً فلن يكون صاحب دار أصلاً .

(٢) وإما موهمون أنفسهم بأنهم زارون على هذه المدنية ومعتبروها رجساً من الأرجاس وقنعوا بهـذه الأقوال ثرثرة وتفيهقا ، ولكنهم آخذون في تربية أولادهم على سنتها المهلكة (في نظرهم) ، فهم من القسم الأول ويزيدون عنهم إثماً في التلبس بالتغرير والتضليل ؛ وهؤلاء حجة الطاغين وفتنة اليائسين .

(٣) وإما هم (أحياء بالفطرة) شارفوا هذا المنظر المدهش فمراهم ما عرا

غيرهم من دهشة المفاجأة ، ولكنهم لم يفقدوا رشدهم فوقفوا بما وهبوه بالفطرة من قوة الفؤاد واستقلال النفس وقفة المفكر في وجه السير وجهة العمل فتبين لهم بعد إطالة الروية أن الذي ظهر به أصحاب تلك المدنية من المظهر الآسر ليس بطبيعي فيهم وإنما هو عَرَض اقتضته لغيرهم من قبلهم . وإن تلك الصفات والآداب ليست بوقف على أمة دون أخرى فعلموا أن الأمة متى أدركت تلك الصفات فتخلقت بها وأخذت نفسها بأدبها استقامت قناتها وتيسرت أمانيها وعلت علماً وعملاً وغنى حتى تساوي مناظريها أو تفوق عليهم . فدرسوا تلك الصفات الاجتماعية بنور الفطرة التي أوتوها ، فرأوها ليست شيئاً سوى ما طبع الإنسان بفطرته على اعتباره أصولاً للكمال والسيادة مثل العلم والعمل والدأب والصبر والاعتدال إلى غير ذلك من الصفات التي لا يشك في جمالها رجلان . فنظروا إلى ملتهم وقالوا لو علمت أمتنا وعملت ودأبت وصبرت واعتدلت لوصلت إلى مثل ما وصل اليه هؤلاء ، ولو لم يصل جيلها الحالي لوصل اليه من يخلفه أو من بعده ، وإن أخطأ الأمة اليوم المتاع بما ترمي اليه فلا يخطئها شرف التمهيد وفضيلة التأسيس .

وصل الأحياء بالفطرة إلى هذا السر فنظروا لأسرى التقليد فرأوهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم . كيف لا و هم واقفون رؤوس أموالهم على الظهور بغير مظهرهم ومتكلفون من الحياة ما لا تسمح لهم به وسائلهم . وهم بما ينشئونه كل يوم لأنفسهم من الاحتياجات الوهمية التي بتأصلها تصبح ضرورية ، واضعون أنفسهم بحيث يصيرون طعمة الآكل وهدف النابل . ثم رنوا الى القسم الثاني فرأوهم كالأولين ويزيدون عليهم تغريراً ، فتحققوا أن هذين القسمين واقعان لا محالة في رق أصحاب تلك المدنية طوعاً وكرهاً وساقطان في حضيض من النقص ، حتى ليؤول أمرهما إلى الغبطة بأسرهما والتبجح برقهما فيكونان بحالهما وقالهما مثلاً محسوساً لفساد الفطرة ومسخ الطبيعة .

نظروا هذا النظر وانتهوا إلى هذه النتيجة ولم يدعوا أنهم منزهون عن تلك

الفتنة ، ولكن ذلك الأثر الذي علق بهم منها فضلاً عن أنه لم يطمس بصيرتهم يحرضهم على عدم الوقوف لئلا يقعوا مع الواقعين فـــلا يعودوا يذكرون الخلاص ولا تخيلا .

هؤلاء الأحياء لا يحقرون مدنية الغرب ولا يهمون فيهـــا . بل هم أكثر من المتحمسين لها تقديراً لقدرها وعلماً بجهات قوتها وأشد من المفتونين بها حباً في مساماتها ومسابقتها ، ولكنهم أصحاب بصر وعلم لا يدعون إليها لأنه لا معنى لذلك ولو دعوا إليها لأوهموا الناس أنهم يدعون إلى قشورها من ملبس وملهى كما هو حاصل . ولكنهم يدعون الى الأصول الأولية التي هي دعائم كل مدنية . يدعون للفضائل ويزجرون عن الرذائل . يعلمون أن القوي يغـــلب الضعيف ويهضمه ، وأن الأمم فيما بينها في حرب سلميــة أسلحتها الوسائل الاقتصادية والتمويهات الصناعية الى غير ذلك من موجبات الفتنة فيحذرون إخوانهم من التعرض لفعل هذه الأسلحة المدمرة بكل ما في وسعهم من علم وحكمة وما يسعه إمكانهم من سيرة طيبة وقدوة صالحة .

هؤلاء الأحياء هم مادة حياة الأمة وملاك قوامها ومساك هيكلها ونظام جامعتها بهم تحفظ شخصيتها ومنهم تستمد قوتها . فهم كالخلايا الحية في الجسم الآلي تبعث الحياة لمن يجاورها . وليسوا مقصورين على فرع واحــــد من أفرع المجهودات الانسانية بل تصـــادفهم في كل مجال : في التجارة . في الزراعة . في الصناعة . في العلم . وهم في أي مسرح وجدوا تراهم نسيج وحدهم وأئمة مذهبهم لا تستعبدهم العادات ولا تسترقهم التقاليد ، ميالون بفطرتهم للتوفيق بين علمهم وعملهم وبين عواطفهم وأسلوب حياتهم ، شديدو الإرادة قويو العزيمة لا يبالون بما ينتاب جسومهم في مرضاة أفئدتهم .

هؤلاء الأحيـــاء ينشؤون نشوءاً لا يعرف له قانون طبيعي لليوم ، ليس للمدارس في إيجادهم إلا أثر لا يعتد به وربمـا استعصت فطرهم على نظامـات

المدارس ودوائرها الضيقة ، فلم ينبغوا إلا مستقلين عنها كما أثبته الأستاذ (سيزار لومبروزو) في كتابه على النابغين المشاهير .

هذا الصنف من الناس الذين نسميهم (أحياء بالفطرة) لايمتازون عن إخوانهم الخاملين في شيء من الخلق الظاهر ، فلا يتوهمن قارىء أنا نصور له عالماً فوق العالم الانساني بل هم من أفراد الدهماء ، وإنما هو فؤاد أشم سكن بين جنوبهم فقلب كيان سرائرهم وجعل لهم وجداناً غير وجدان معاشريهم فهم منهم جسماً ومولداً وليسوا منهم غاية ووجهة . يشغلهم من الشؤون ما يئس منه إخوانهم ويعنيهم من الأمور ما نفض منه الناس أيديهم ، لم يدخل اليأس أفئدتهم بينما يكون اليأس سنةً شائعة .ولم يدان الانحلال عزائمهم بينما يكون الخور جنةواقية.

يرى الأحياء هذا من أنفسهم وربما أثر عليهم حال الوسط فتألموا من شدة شعورهم وربما سحرهم حال إخوانهم المفتونين فودوا لو غلظ حجابهم ووردوا موردهم ولكن هيهات أنهم مقهورون على حالهم لا يزدادون في شعورهم إلا رقة وفي حجابهم إلا لطفاً . تتوالى أمامهم الأمور وتتقلب بهم الأدوار ويرون الناس حولهم على طرائق من الأثرة شتى فيَهِمُّ بهم خاطر لمجاراة الناس فيردهم عن ورود هذا القذر وجدان عال وعاطفة كريمة فيحجمون وربما تألموا من إحجامهم لغلبة الفتنة المحيطة بهم ، وسواء علموا أنهم على هدى أو لم يعلموا فهم مقهورون على سلوك جادة المحامد مدفوعون اليها دفعاً وإن لم يتنزهوا عن شيء من النقائص . فإن شئت أن تصفهم بوصف جامع فقل إنهم مقودون رغم أنوفهم إلى سبل الحياة بدوافع ضميرية قاسرة لا يعرفون مستقرها من أنفسهم .

بماذا تعلل حركات الأمم الحية واضطرابها وبيعها نفوس بنيها رخيصة في سبيل استعمار بلد أو حماية عن مصلحة ؟ بل بماذا تعلل بيع الانكليز نفوس فلذات أكباد أشرافهم وعليتهم أمام حصون البوير ومعاقلهم ، وتهاون اليابان في أمر الحياة وبذلها الألوف من رجالها أمام حصون (بور أرثور) ومضائقها ؟ بماذا تعلل هذه الحركات المدهشة من أمم تستطيع أن تعيش مئات من السنين

هادئة ساكنة إلا بما قدمناه لك من أن الحياة في الأحياء حركة اضطرارية فوق الإرادة وفوق العقل وأنها تنشأ على ناموس غير معروف الإنسان ولا هو مما يمكنه علمه .

قلنا ينشأ هؤلاء الأحياء على ناموس غير معروف وإنما الذي تعرفه هو أن كثرتهم في الأمة حياة لها وزيادة لأمد بقائها وقلتهم موت لها وتلاش لعناصرها.

هؤلاء الأحيـــاء لا ارتباط لهم بالمدارس والعلم إلا من جهات ثانوية فهم قد يكثرون في أمم قليـلة المدارس ولو أنشئت لهم المدارس لزادت حيـاتهم سلطاناً وانتشاراً .

وقد يقلون في أمم كثيرة المدارس حتى لا تصادف منهم في الألف واحداً . وقد تراهم يكثرون في جيل من أجيال الأمة الواحدة فيرفعون شأنهـا للسماك الأعزل وقد يقلون في الجيل التالي رغماً عن زيادة عدد المدارس وارتقاء العلم في تلك الأمة ذاتها فتسفل حتى تتهددها الحوادث في تركيبها الصميم ورابطتها الأصلية . ومن ينتقد حال بعض أمم أوروبا العصرية يجد مصداقاً لما نقول .

إذا تقرر هذا فخلاصنا من هذا الضعف الذي نحن فيه وظهورنا بمظهر الأمم ذات الحيـــاة الصحيحة والشعور لا يتأتى إلا بنبوغ كثير من صنف الأحياء بيننا الذين قلنا إنهم ينشأون على مقتضى قانون لا يعلمه البشر .

أنا لا أقول أن العلم لا أثر له ولكني أقول أنه لا يفيد إلا إذا صادف تلك الأفئدة الحية بالفطرة فهي التي تنتفع به وتزداد منه حياة وحركة . أما العلم في أمة لم توهب أولئك الأحياء بالفطرة فلا يفيدها بشيء بل يكون سبباً في التياثها بكثير من النقائص وعلة لسرعة خطاها إلى التلاشي. مثال ذلك (وهذا تشبيه مع الفارق) البخار المضغوط يدير الآلات ويحملها تحدث أكبر الأعمال وأعجبها ولكنه لا يدير إلا الآلات الصالحة أما الناقصة والمصنوعة من معادن غير صالحة فلا تنال بضغط البخار إلا تبدداً وانفصاماً .

يقول قائل : « إنك في مقالك السابق لم ترض رأي المعتمدين على الحكومة لاستنادهم على المصادفات فكيف تعتمد عليها أنت في ظهور من تسميهم بالأحياء ؟ » أقول إني قلت إن ظهور أولئك الأحياء يأتي على مقتضى قانون غير معروف لنا فأراني أثبت له قانوناً وإن كنت أجهله . ولكن لم يقل أحد أن لظهور الحكومات الصالحة قانوناً إلا ما يكون من حياة الأمة وانتخابها لحكومتها بنفسها .

فان قيل أن هذا يوجب الكسل ويحلل العزائم . أقول أما إن كان من يسمعه من الموتى فليست له عزيمة يخشى على تحللها . وأما إن كان من الأحياء فقد أدرك نفسه ومضى في شأنه وذلك لا يخشى عليه من شيء فإن حركته ذاتية اضطرارية .

صفوة القول أنه متى قدر لنا أن نحيا نبغ فينا أحياء كثيرون مدفوعون لعمل الأحياء بفطرتهم لا بدافع من القول ولا زاجر من الكلام ، وإنما هي حركة ذاتية اضطرارية توجه الكافة وجهة الحياة الصحيحة بلا تردد ولا روية ، أشبه شيء بحركة الجسم الحي بأجهزته العاملة المدفوعة لأداء وظائفها دفعاً طبيعياً لا دخل للارادة فيه .

هذا رأينا في وجه خلاصنا من الضعف والفتور الذي نحن فيه . وهو ما استنتجناه من استقراء الحركة الإنسانية بأطوارها وأدوارها في كل أمة مستندين فيه على الحوادث الاجتماعية والظواهر التاريخية . ولا خلاف بيننا وبين المتكلمين قبلنا إلا في أنهم يرون أن أولئك الأحياء توجدهم التربية ، ونحن نرى أنهم يوجدون بقانون فوق التربية وإنما التربية إن وجدت زادت مواهبهم قوة وحياتهم بركة ، فإذا لم يوجدوا في أمة فلا تفيدها التربية بشيء ولو بلغت نهاية الكمال وغاية الاتقان .

ليس في مذهبنا هذا من الفراغ إلا عدم اهتدائنا الى الناموس الذي ينشأ على مقتضاه الأحياء ، ولقد كنا نستطيع أن نحاول تلمسه بالاحتمالات ولكننا نراه

فوق كل احتمال ، ومهما أضنينا أفكارنا بالبحث عليه فلم نهتد إلا إلى ما يسبقه من الممهدات أو ما يصاحبه من الشؤون والأعراض ، أما هو نفسه فيدق عن مداركنا وكأنه مما لم يقدّر لنا علمه .

فعلى الأمة أن تستمر فيما سبقت إليه من التربية ونشر العلم فإن ذلك من الأسباب الظاهرة التي لا مندوحة لنا عن الأخذ بها . أما ما خفي علينا من العلل والأسباب فلم نكلف بعلمه وما تطرقنا اليه في بحثنا هذا إلا من قبيل إعطاء البحث حقه من التحليل والنظر قسطه من الاعتبار .

هذا وإنا نرجو الله سبحانه وتعالى أن يهدينا للسداد وأن يجمعنا على هداه وهديه إنه ولي الكفاية ومولى التوفيق . وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله أولا وآخرا على ما هدانا ووفقنا لخدمة دينه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين . آمين .

* * *

ملحق

هذا الجزء يضم عـدة أبحـاث ومقالات نشرهـا المؤلف ملحقة بأجزاء الكتاب: رداً على أسئلة للقراء ، وإيضاحاً لما يحتاج إلى توضيح مما سبق نشره من أبواب وفصول .

(الناشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسولك الامين ، محمـــد عبدك ونبيك خاتم المرسلين، ونور العالمين ، وعلى آله وصحبه أساطين الدين ، وأراكين اليقين ، وتابعيهم بخير وإحسان من عبـادك المؤمنين ، آمين . (أما بعد) فانا وان كنا آلينا على أنفسنـــا أن نجعل كتابنا (الاسلام في عصر العلم) سهل العبارة ، قريب المأخذ ، من جهة القالب العربي ، والاسلوب الكتابي ومن جهة البعد عن مصطلحات الفلسفة العويصة ، والهجر لتراكيبها الحرجة ما امكن ، الا أننا رأينا أن كل ذلك لن يقف بالاذهان الطالبة للاستفادة ، ولن يقعدها عن ابتغاء الزيادة ، فعولنا أن نجعـل للكتاب ملحقاً يصدر ان شاء الله تعالى معه كل شهر في ست عشرة صحيفة ، يكون موضوعه شرحاً لما يغمض من المدركات الفلسفية التي تأتي في الكتاب ، وإيضاحاً لما يستبهم على القراء في بعض أبحاثه في المواضيع الجديدة التي لم يعتد على سماعها أصحاب اللسان العربي ، ولكنا لن نشرح إلا ما نسأل عنه ، فعلى كل من يود استيضاح مبهم ، أو استبانة معجم ، أن يكتب لنا سؤاله ويرسله قبل انتصاف الشهر ليجـد الجواب ان شاء الله في الجزء اللاحق .

بهذه الطريقة المبتكرة نرجو أن يكون قارئنا على بينة تامة بكل ما يطالعه من كتاباتنا أولاً فأولا . وانا هنا نعد قراءنا باننا لم نزل على عهدنا من مقابلة كل سؤال بصدر رحب ، وذرع واسع ، غير متبرمين من تشدد سائلنـــا ، ولا مزدرين بمن يعترض علينا . وقصدنا من ذلك أداء خدمة للملـة نرجو أن تكون خالصة لوجه الله الكريم ، وان تطهر من كل ما يحيطها من همزات الشياطين ، والله الموفق المعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على إمام المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

* * *

رأينا في داء الأمة ودوائهـــا

ما هي الأمة الاسلامية ؟ كيف تكونت في مبدئها وعلى أي أساس قامت وحدتها ؟ ما هي تلك الروح التي هبطت عليها فلمت شعثها ، وضمت أجزاءها، وبعثتها بعد موتها ؟ الى أي درجة وصلت أهميتها في الوجود وما هي آثارها فيه لليوم ؟ الى أي حالة وصلت الآن ، وما هي العوامل التي أثرت عليها فأوصلتها الى هذه الحالة السيئة ،هل يؤمل لها استرجاع مجدها واسترداد عظمتها السابقة ، ان كان نعم فبأي الوسائل يكون ذلك ، هل لرابطتهـــا الأصلية قوة تصلح لاقامتهـــا علىمنهاج الرقي والفلاح أم لا بد من تغيير تلك الرابطة برابطة أخرى أصلح منها للبقاء وأليق بمناسبات الجيل .

هذه مسائل يجب أن يضعها نصب عينيه كل من كان له قلب يتألم وحميـــة تهزه لأن يكون حياً بين أمة حية لها مقام بين الأمم. نعم ان درس هذه المسائل يحتاج لدقة نظر في العلوم العمرانية ،والمام عظيم بحوادث صعود الامم وهبوطها ، ونفوذ فكر في ضمائر التاريخ، ويحتاج فوق ذلك الى غيرة حقة تلم بفؤاد الباحث فتريه أن حياته الصحيحة هي حياة أمته ولو كان من بين اخوانه فقيراً حقيراً ، وان موتها هو موته ولو كان من بينهم يملك الخزائن ذهباً. ربما كانت هذه الغيرة الحقة وحدها أنفع من كثير من العلم فانها ان لم تجعله الا خلية حية في الامـــة لكفاه بذلك تأثيراً ، فان حياته تنبعث منـــه الى صاحبه ومنهما الى جارهما وهكذا حتى تتكون جرثومة أساسية تنبت شجرة طيبة ولو بعد حين .

الأمة الاسلامية أصلها نبي كريم اصطفاه الله خاتمـــاً لأولي العزم من الرسل وفاتحاً لتاريخ جديد للنوع الإنساني بعد ما كمل عقله وبلغ رشده ، وأعدتـــه الاحداث للسير في باحات الكمالات الصورية والمعنوية آمناً على نفسه من العطب.

قام هـــذا الرسول الكريم في وسط أمة لا عهد لها بنظام ، ولا استعداد لها لوئام ولا التئام ، لا رابطة تجمعها ولا وشيجة تضمها، لها من قحولة أرضها ، وجدوبة أوديتها ، وحال معيشتها ، عوامل قوية على التفريق ، وفواعل قاهرة على التشتيت والتبديد . قام ﷺ بينها وحيداً بلا مال ولا انصار حاملاً اليهـا تعاليم ربه قرآناً عربياً غير ذي عوج ، يضمن لها سعادة الحياة وسعادة الابد . فأيده الله بروح من عنده ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فأقامهم بروح القرآن الشريف على صراط الوحدة في العقائد الدينية والجامعة العموميـــة الدنيوية ، فنهضوا في بضع وعشرين سنة نهضـة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسان ثم لم يلبثوا ثمانين سنة حتى صاروا خلفاء الله في ارضه ، لا ينازعهم فيها منازع ، ولا يزاحمهم مزاحم ، كلمتهم العليا ، وصراطهم الأبلج ، يقيمون حـدود الله علماً وعملاً ، ويتمتعون بنفحاته دنيا وديناً . ولم يزالوا في حركتهم هذه حتى طرأت ظروف ونجمت أمور قضاها الله لحكمة يعلمها ويعلّمها للراسخين في العلم، فدخلت الأمة في دور من الخدر يشبه الموت ولم تزل ساكنة والامم تتقدم حولها حتى وصلنا ووصلوا الى ما نرى اليوم ، فما سبب ذلك الخدر ، وما علة تلك الوقفة بعد تلك النهضة المدهشة؟ماذا طرأ على العقائد،ماذا حدث في العواطف، ماذا أصاب العقول والمواهب ؟ ما هو العامل الذي ثبط تلك الحركة الهائلة ؟ وهل يمكن اعادتها الى ما كانت عليه ؟ هذا مختلف الإذهان، ومضطرب الافهام، ومشتجر الاقلام : ان قلنا طرأت على العقائد بدع اخرجتها عن أصولهـــا ، وضلت الأمة عن صراطها ، رددنا على أنفسنا وقلنا : ولماذا لم تضر البدع الدينية الا المسلمين دون سواهم ؟ ها هي أمم في العالم قائمة على ساق وقدم ، ولا يخلو دين واحدة منها من بدع لا تعد بدع المسلمين بجانبها شيئاً ، فان كان التقدم متوقفاً على دين بلا بدع فكان يلزم من ذلك أن لا يكون رقي في العالم اليوم . لا نقصد بهذا أن نثبت عدم ضرورة الدين لقيام الأمم ورقيها . حاش لله ! فسيمر بك أثناء الكلام على ماهية الدين في مبحث الانسان ان شاء الله ما فيه الكفاية من هـــذا الموضوع فانتظره . أما الذي نريد ان نقوله هو ان الاصل الأولي الذي

يكوّن الأمم وينهض بها ، بعد أن يبعث فيها روح التقدم والارتقاء ، ويهيئها الى قبول أكمل صفات الاجتماع هي (الرابطة بين الآحاد). هذه الرابطة نفحة من (الدين المطلق)المغروز في طبيعة البشر كما ستراه في موضعه ان شاء الله ، ومكانه منه كمكان سائر الاصول الحيوية كالعدل والحرية وغيرهما المنقوشة في صميم معناه الانساني . وكما ان العدل قد يوجد في حكومة وثنية على صفة أكمل مما هو عليه في أمة توحيدية لأسباب شتى كذلك قد توجد الرابطة على أشكالها في شعب كافر وتكون دون ذلك في شعب مؤمن .

لكل أصل من أصول الفضائل أثر ظاهر على كيان الأمة لا يشتبه بآثار الأصول الأخرى ، فأثر العدل في الأمة لا يشبه أثر الحرية فيها ، وآثار كليهما لا تشتبه بآثار التساعد والتناصر والارتباط وان كانت كلها تتحد في النتيجة وتضع الأمة بقوتها الرافعة الى أوج المدنية الفاضلة .

وظيفة الرابطة كوظيفة الحياة في الفرد الواحد . فكما أن (الحيـاة) في الجسم تربط وظائف الأعضاء ببعضها بعد أن تمدهـا بالحس والحركة وتكون للانسان شخصية متميزة متأهلة للتحلي بسائر الكمالات الحيوية الأخرى كذلك (الرابطة الاجتماعية) تجمع بين قوى الأفراد ، وتنشىء لهم منها شخصية كلية هي روح الأمة التي تبعثهم للحركة وتهيئهم للترقي ، وتجعـل لهم حياة مشتركة بحيث لو تألم واحد من الجمعية تألمت له سائر الآحاد تألماً طبيعياً لا تصنعياً كما يتألم الجسم كله لوجع عضو منه . (فالرابطة) روح الاجتماع بين الأفراد،وأصل يهيء الامة لقبول سائر الفضائل الأخرى.ولا يعقل اجتماع بدونها كما لا يعقل أن يحس جسم أو يتحرك بغير الحياة . وقد أشار الله تعالى الى ذلك إشارة عالية غالية فقال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

ومما يدلك دلالة صريحة على أن الرابطة حياة الأمم وأن غيرها من الأصول الاجتماعية متوقف عليها ، وأن لكل منها على حالة الأمة اثراً لا يشتبه بغيره ، الحرب التي شبت بين أتباع امير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما . ترى أن

اتباع الامام مع انهم كانوا من صميم العرب ، وبيوتات المجد واولي السابقة الحسنة في الأسلام، لم يتوصلوا الى تدويخ جيش معاوية مع أن اكثره من جفاة الأعراب واخلاط من الشام ، بل رأوا أن لا مناص من الانصياع لهم وقبول شرطهم بعد موت امير المؤمنين . وما ذلك إلا لشدة (ارتباط) أصحاب معاوية فيما بينهم بخلاف اصحاب الامام فقد كان التفرق بالغاً منهم مبلغاً خطيراً فلم تغنهم فضائلهم الأخرى شيئاً ، بل غلب (الارتباط) سائرها ، واستتب له الامر دونها . وقد أدرك ذلك الامام وباح به في بعض خطبه . فإن كان شيء من قلة الارتباط بين أصحاب إمام من أكبر أئمة المسلمين ، وهم أصحاب القدم الراسخة في الدين ، جعلهم يتنـــازلون عن حقوقهم السياسية لأخلاط من الأعراب والسوريين،لا يقارنون بهم دنيا ولا ديناً ولا قوة في الحرب ولا صبراً عند احتدام الشدائد ، فكيف ، لا تتأخر الأمم الشرقية المنحلة أمام الأمم الغربية المتحدة؟ ماذا تفيدنا خصوبة أرضنا ! وجمال بلادنا ، واعتدال هوائنا ، وعذوبة مائنا ، ولطف أخلاقنا ، اذا كانت رابطتنا اقل إحكاماً من روابط الأمم المحيطة بنا ؟

يقول قائل : « آمنـــا بأن مصيبتنا عدم الرابطة بين الآحاد، ولكن كيف الوصول الى إيجاد روح تضمنا ، وتجعلنا إخواناً كآبائنا ، وتفيض علينـــا من نفحاتهـــا مثل ما أفاضت عليهم من قبلنا ؟ اليست هذه عضلة العقد وموضع الحيرة ؟ كم كتب الكتّاب في ضرورة الارتباط ، وكم خطب الخطباء بلزوم الاتحاد وكم أقاموا الحجج البينة ، واقسموا الايمان المغلظة ، على أننـــا إن لم نرتبط ببعضنا تلاشينا، وذهبت ريحنا ،ومع كل ذلك فالاثر هو ما ترى اليوم: يأس وانشقاق ، وتلاعن وافتراق . لقد سئم الناس سماع هذا الدور ، وشبعوا من هذه النغمة ، حتى أن ما يكتب الآن في الجرائد من هذا الباب يعده القراء من سقط المتاع » .

للمعترض الحق فيما يقول فإن الدواء المعروف المستعمل الآن لما نحن فيه هو الدعوة الى الارتباط وبيان فائدته ، وهو دواء غير معقول ان جاء بمفرده ، وما

مثل القائمين به إلا كمثل رجل يقوم أمام أشلاء جثة فيصيح بها : أن ارتبطي ببتها الأعضاء المبددة وتضامي ، فان فائدة الاتحاد كيت وكيت ، ويأخذ في سرد صفات الاحياء ، وخصائص الاصحاء ، فإن تفد هذه الصيحة في أشلاء الجثة ، أفادت تلك الدعوة للأمم المنحلة أو الآخذة في الانحلال .

الارتباط مظهر الحياة الكامنة في الأمة والدليل عليها ، ومتى لم يوجد أو لو وجد فاتراً دل ذلك على عدم الحياة أو على ضعفها فالعلاج المعقول في هذه الحالة هو الالتفات الى الحياة أولاً لأعادتها أو لتقويتها ، ومتى وجدت وجد الارتباط بدون دعوة ، لأنه مظهرها، ووجدت تبعاً له سائر المزايا الاجتماعية .

يقولون ألا تعلق أدنى أهمية على كثرة صياح الجرائد اليوم بلزوم الاتحاد والارتباط ، أتعد ذلك كله ذاهباً أدراج الرياح ؟ نقول إن كل هذا اللغط مما لا يحسن بنا أن نتخذه فألاً حسناً ، فقد دل الاستقراء التاريخي وأيده العلم الاجتماعي أن الأمم إذا أخذت في الانحلال تصيح بلزوم الارتباط، وتجعل ذلك شغلها الشاغل ، كأن الطبيعة تشعرها بدائها فتصيح به كما يصيح المريض بلزوم الصحة له . فإن شفي المريض بمجرد صياحه بطلب الصحة ، تحيا الأمة أيضاً بمجرد طلب الحياة . ومن يطالع تاريخ اليونان والرومان ير أنه قد نبغ في أثناء انحلالها خطباء ووعاظ لم يكونوا من قبل ، ولكن ماذا أفادت صيحاتهم مع عدم معالجتهم للمرض ؟

أنا لا انكر فائدة الجرائد في تحسين اللغة ونشر العلم ، ولكنني لا أكتم عليها انها قد بذرت في القلوب روح اليأس بكثرة ندبها ونعيها على الناس سوء حالهم ، وانذارها لهم بسوء منقلبهم . ولو كانت سلكت في تربية عواطف الامة مسلك الحكيم المربي العارف بمكان الضعف والقوة من ثنيات القلوب ، واحناء الصدور ، لكانت ساعدت على ارجاع حياة الأمة مساعدة تذكر لها وتشكر . ولكنها بدل ذلك كله أسرفت في النعي على الأمة تأخرها وتقهقرها واستهترت في ذلك حتى يأست الأمة من مستقبلها ، وأضعفت ثقتها بنفسها ، وغالت جداً في تشريح

طبقاتها من كبراء وعلماء وأرباب زراعات وتجارات وجعلت أهم مباحثها التنقيب عن عوراتهم ، وأخذت تطعن عليهم صنفاً صنفاً حتى جردت سائرهم من كل مزية وأهلية . فماذا أصاب الناس من هذا ؟

وقرّ في نفوسهم وانتقش في مخيلاتهم ، انه ليس لهم في اي طبقة من طبقات أمتهم مرجع يرجعون اليه عند الحيرة ، وموئل يعتصمون د. وقت الشدة ، فمرنت السنتهم على الطعن في كل صنف والتنديد بكل طبقة منهم حتى صار ذلك اليوم فاكهة للمجالس الخاصة والعامة فأصبحنا والأمة كلها يلعن بعضها بعضاً . ولو كان اولئك الكتّاب حفظوا لأنفسهم أمام الأمة مكاناً صالحاً ، لوضعت فيهم ثقتها ، وعلقت على أرواحهم الطيبة مستقبلها ، ولاعتبرتهم خلايا حية تبعث الحياة الى ما يجاورها وينتظر منها استرداد مجد مفقود ، أو استرجاع شرف ضائع ، لكن أكثرهم لم يحفظ لنفسه تلك المكانة فسقطوا من عين الأمة ولحقهم فيما بينهم (ناموس التلاعن) فصاروا أمهر المتلاعنين . تراهم بدل ان يتعاطفوا ويتراحموا ويعلموا الأمة بتواضعهم وبعقائل صفاتهم كيف تسلك سبيل الحياة وكيف تهتدي الى سعادتها ، متقاطعين متنابذين ، إذا اعترض أحدهم على مقالة لأخيه ، أو لاحظ على فكرة من أفكاره ، تقع بينهما الحرب العوان ، فيشمرون لها الأردان ، ويشحذون لها أسنة الأقلام ، ولا يزالون يتلاعنون ويتشاتمون ، والامة أمامهم تضحك عليهم تارة وتبكي حتى تفنى عبارات اللعن ، وتضيق مسالك الطعن ، فيهدأون على مضض تربصاً للفرص فإذا كان أكثر جرائدنا بهذه الصفة ، فلا يكون لما يجيء فيها من مقالات الحث على الارتباط والاتحاد أدنى أثر ، ويمكن أن يقول لهم اليائسون وغير اليائسين : « اذا كنتم على ما نرى من التباغض والتحاقد فيما بينكم مع أنكم في مقدمتنا علما وفضلا ، فكيف تطمعون أن نطيع لكم أمراً ، أو نعمل لكم بنصيحة ، أتأمرون بالمعروف ولا تأمرون ، وتنهون عن المنكر ولا تنتهون « كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون » .

يستحيل على أمة أن تحيا بـلا وجهة تعرف حدودها فتسير عليهـا ، وغاية عالية تتحمس بها وتميل بعواطفها اليها . وسترى في أثناء الكلام على حياة الأمم وموتها ، إن شاء الله ، أن كل بناة الهيئات الاجتماعية وضعوا نصب أعينهم هذا السر الاقدس ، ولم يبدؤوا عملهم بتضليل أممهم في مذاهبها ، وتيئيسها من قوتها الذاتية ومواهبها الكامنة فيها . فليعلم كتّابنا ان نهاية ما يتمناه لنا اعداؤنا هو ما اوصلوا الأمة اليه اليوم من تشتيت فكرها ، وتشويه أجزائها في عينها وسلب الاحترام المتبادل من أفئدة آحادها . وكفى الأمة نذيرا للتلاشي أن تصبح يلعن بعضها بعضاً . فالدواء الذي وقفنا له قلمنا هـو تخطيط وجهـة مثلى للأمة تسير عليها ، وابانة غاية لها في الحياة تحبها وتميل اليها ، لتنضم سائر مواهبها وقواها الى طريق واحد ، وتتركز في مركز مشترك ، فتحيا حياة اجتماعية ، وتلشأ فيها الروح القومية . وهو دواء كل المصلحين الذين لهـم اكبر الآثار في تاريخ الأمم .

درسنا هذا الموضوع الهـائل درساً مدققاً وسيمر بك تفصيله في الكتاب ، فرأينا أن أجمل وأفضل وأكمل غاية يصح أن يضعها الإنسان نصب عينيه بصفة الغرض المقصود من الحياة هي (الإسلام) بمعناه الحق . ولكن كيف يتأتى لنا ذلك ونحن في جيل يظن آحاده أن زمن الاديان قد فات ، وان المدنية شيء والعقيـدة شيء آخر ، وان العلم قد حـل محل كل المدركات السابقة ، وان هذه المدنية الغربية المادية هي أكمل وأفضل مدنية ظهرت في العالم ، وانها لن تتلاشى أبداً ولن تتغير عما هي عليه ؟ ان دعونا للإسلام في جيل هذه فلسفته الآخذة في الانتشار كل يوم ، بدون أن نجعل ذلك العلم الذي يتبجحون به وبناة تلك المدنية الساحرة من ضمن الشاهدين على ما نقـول ، ذهبت صيحاتنا ادراج الرياح ، فإن لكل مقام مقالاً ، ولكل جيل رجالاً . ونكون غير عاملين بقوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . لذلك رأينا أن نفيض القول في المسائل الإسلامية مع مقارنتها بالتعاليم الفلسفية من جميع جهاتها الـتي تتسرب منها

الشكوك والشبه ، حتى إذا نجحنا في مشروعنا هذا رجونا ان يتجلى الإسلام لهذه العقول الجديدة في مظهر يملأ العيون مهابة وجلالاً، والقلوب حماسة وهياماً. لا نقصد من هذا أن نقول ان الاسلام يحتاج لمثلنا في شيء ، وانما نريد ان نقول اننا سنواجه به الافكار الجديدة من جهات شكوكها وشبهاتها ، وسنقارعها ببيناته وحججه من شطر معارفها وعلومها . اذا فعلنا ذلك رجونا ان تصبح تلك العقول الطامحة أحسن أنصاره ، وأقوى أعضاده، ومتى طأطأت أمام نوره رقاب الخاصة من الناشئة المتهذبة وجدت الحيـــاة وظهرت نفحاتها في مظهر الارتباط والوئام ، وصار شعار كل منا « ان الدين عند الله الإسلام »

* * *

داء الأمة ودواؤها

قلنا في ملحق الجزء الماضي ان داء الأمة الإسلاميه اليوم ضعف في قوتها الحيوية الاجماعية طرأ عليها من حوادث كبرى انقضت عليها وأدوار شتى انتابتها منذ قرون كثيرة ؟ وقلنا إن هذا الداء قد ظهر فيها بمظهره المعتاد وهو ارتخاء في روابطها الاجتماعية وانحلال في عرى وحدتها الملية . هذا الداء طرأ عليها من ضعف اعتراها في عقيدتها الدينية وسلطتها الدنيوية معاً . أما العقيدة الدينية فجاءها الضعف من قبل المبادىء الفلسفية التي سرت اليها من اليونانيين ومن بعض الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام ولم يدركوه فكسوا سائر معتقداتهم القديمة باسماء اسلامية وصبغوها بصبغ قرآنية وعدّوها إسلاماً .

جاء الأسلام يطهر الفطرة الانسانية مما ران عليها من انواع الوساوس ، ويخلص العقل من شباك الخرافات ، ويوجه الروح الانسانية نقية طاهرة لخالقها حتى تستطيع أن تستمد منه حياة تكافح بها ما يكتنفها من فواعل الكون ومبيداته وتستعير منه نوراً تستحق به خلافته في كائناته . فجاء من العقائد بما لا يجافي الحس الظاهر ولا الشعور الباطن ، ومن الأحكام بما يلائم الفطرة ، ويوافق الطبيعة ، ولكن شهوات العقول ، وأماني الأفكار لم تشأ ان تقف به عند هذا الحد ، بل سلكت به مسالك الفلسفة والعلوم النظرية فتركّب بعد ان كان سهلا ، وخرج عن حقيقته بالكلية .كل ذلك والقرآن يقيم الحجج ببيناته ولم يزل يقيمها حتى يرجع اليه الغلاة ويلحق به المقصرون ، وسيكون ذلك في يوم قريب إن شاء الله . هذا من جهة الضعف الذي طرأ على العقائد الدينية ، أما الضعف الذي دخل على السلطة الدنيوية فأسبابه اجتماعية استلزمتها أسباب شتى ليس هنا موضع بحثها .

لو كان داء الأمـة ينحصر في هذين السببين لأمكن حصره في مكانه بنشر العلم ، وتهذيب الأمـة ، وكان لا يمضي ردح من الزمان حتى تتلاشى البدع من ذاتها وتشتد أساطين السلطة بمحض ذلك التهذيب نفسه كما هي السنة في الطبيعة، ولكن داءنا اليوم أصبح داء أوروبياً ، جاءنا ميكروبه محمولاً على أجنحة هذه المدنية الساحرة فصار السعي في مدافعة أدوائنا القديمة من العبث المحض ، أمـا البدع الأصلية فقد سرى عليها ناموس الترقي (الداروني) فاستحالت الى شبه، ونشبت هذه الشبه في رؤوس القائمين على السلطة فانقلب داؤها الأصلي بتطورهم إلى أدواء أخرى ناتجـة كلها من ذلك الميكروب الأوربي المتمدن ، فصارت وظيفة العالم العمراني المسلم والحالة هذه محاربة هذا الميكروب وحده الذي لحق كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية فأحدث فيه الداء الذي يناسبه . دخـل للعامة فأحدث فيهم اليأس وفساد الأخلاق على اختلاف أنواعه وللخاصة فأصابهم بالبذخ والسرف والتقليد الأعمى والإلحـاد الجهري والسري على جميع أشكاله . فأضحت أعراض أمراضنا لا تدخل تحت حصر يظنها الرائي أدواء مستقلة وما هي في الحقيقة إلا داء واحد له ميكروب واحد ، وما دمنا لا نعرفه لنكافحه استشرى أمره ، وطم خطبه ، وصار كل بحث في الأعراض الأخرى لا يفيـد شيئاً. ماذا عسى أن يداوي أحدنا إذا لم يهتد إلى هذا الميكروب القاتل؟ أيداوي اليأس أم البذخ أم الطمع أم التقليد الأعمى أم التآكل أم التواكل أم عدم الحياء أم التجادل أم عدم الثقة بالذات أم القنوط من قـوة الأمة ! كل هذه أعراض رئيسية يتفرع منهـا أعراض ثانوية لا تدخل تحت حسبان ، ولو أراد الطبيب الإجتماعي أن يقصر نفسه ويقف قلمه على علاجها لاضطربت في ذهنه ، وشوشت عليه عقله ، وأصبح أكبر اليائسين رغم أنفـه ، لأنه لا يصادف في تطبيبه إلا أدواء متراكبة على بعضها ، مشتبكة في حلقاتهـا ، يتوه فكره في مباديها ونتائجها ، ومـا ذلك إلا لكونها اعراضاً لداء واحد تتلون وتنصبغ بحسب الظروف والمقتضيات على نسبة استحالة الداء الأصلي من حـال إلى حال آخر في أثناء سيره الطبيعي .

هذا الميكروب الاوروبي الذي اهتدينا اليه بمنظار البحث والتنقيب أصاب رابطة الأمة مباشرة وعدى على قوتها الحافظة . أما البدع فليس هـــذا وقت محاربتها فإنها كما قلنا استحالت الى شبه وشكوك ولئن بقي منها شيء لدى بعض العامة فأمره بسيط لا تستلزم ازالته الا همة صغرى من القائمين على حفظ الدين ، ومع ذلك فهي لا تضر مع سلامة الرابطة الأصلية كما لم تضر المسلمين في عصري بني أمية وبني العباس ولم تمنعهم من احداث أكبر الاعمال في العالم، وكما لم تضر البلغاريين مثلاً مع سلامة رابطتيها .

بناء على هذا فمذهبنا في الإصلاح هو تعهد رابطة الأمة بالعلاج والتقوية ولا يمكن تقويتها إلا من الجهة التي أصيبت فيها وهي جهة دينية محضة . تلك الجهة المصابة كان ميكروبها يقـال له (بدع) حملته الفلسفة العقلية في كمها ، ونفثه الشعوب التي دانت للإسلام من أفواه خزعبلاتها . أمـا ذلك الميكروب اليوم فقد تطور وارتقى على حسب (مذهب داروين) وأكتسي ريشاً لماعـاً سحرياً فصار يدعى (شبهاً) حملته العلوم الطبيعية على أسلاك التليفون واسطوانات الفونوجراف .

استحالة ميكروب البدع إلى ميكروب الحاد وشبه لا يشاهد أثره في الخاصة فقط بل في أحط طبقات العامـة أيضاً . ألا ترى العامة اليوم بعد أن كانوا يلتفون في حلقات الذكر ويجتمعون زمراً زمراً في الطرقات حاملين للاعـــلام صائحين صاخبين ، صاروا يتحلقون في الحانات حول الصهباء ، ويحتفون في المنتديات بالراقصات طول الليل ، وإذا مر بهم رمضان قابلوه بالافطار غـــير حاسبين لأحد حساباً . فهل هذا أثر ميكروب البدع أم ميكروب الإلحاد الذي حمل الينا من أوروبا وأخذ يفرخ في كل قلب بما يناسبه ، ويتلون لكل عين بمـا يؤثر عليها ؟ هذا الميكروب القاتل هو الذي وقفنـــا لمحاربته بجموع قوانا وأعددنا له المنظارات التي تكتشفه في كل تشكلاته وهيأنا له الأسلحة التي تبيده ان شاء الله .

أنا لا أنكر أن الأمة قبل أن يجيئها هذا الميكروب المتمدن كانت جامدة ساكنة ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر علينا انها كانت مع ذلك الجمود حية حياة كامنة ، وكان خطبها كله لا يعوز غير نشر التعليم والتهذيب في الطباق المختلفة على حسب الحاجة ، ولكن هذا الميكروب أخذ الآن يحللها تحليلاً ويبعثر اجزاءها إلى كل جهة . ولئن سألنا سائل عن ذلك الجمود قلنا إنه كان نتيجة طبيعية يجب أن تدخل فيه أمة عظمى تحركت ألف سنة حركات مختلفة في جميع المجهودات الإنسانية : فتحت البلاد السحيقة ودوخت الأمم الكبيرة وابتنت الأساطيل الماخرة ؛ وشيدت المدائن الزاهرة ، وسنت القوانين العادلة ، وبحثت في مساتير الكائنات ونقلت النوع الإنساني بأسره من حالة إلى حالة أخرى من الجهتين المادية والمعنوية . فحرمان هذا الجسم النشيط من الهدوء قليلاً من الزمن ليهب أنشط مما كان لا يعد عدلاً . وهل مثل الأمة في مجموعها إلا كمثل الفرد الواحد يكد طول النهار ويكدح ويكافح الصعوبات ثم لما يجن عليه الليل ينام فيظنه الرائي ميتاً وما هو بميت ويحسبه جامداً وما هو بجامد وقد يغط ويلغط في النوم فيحسبه يهذي وما هو كذلك ، ولكنها حالة طبيعية لا بد منها ليسترد قوة فقدها في المكافحة ، ويسترجع خلايا اماتها بالمجاهدة .

هكذا كانت الأمة في دور النوم الطبيعي بعد جهاد طويل وإذا ببعض أبنائها قد استيقظ لآلام أصابتهم فبدل أن يوقظوها بتلطف أو ينتظروها حتى تفيق بنفسها هالهم سكوتها في وسط هذه الحركة الكبيرة ؟ حركة هذه المدنية الأوروبية ، فذهب الخوف عليها منهم مذاهب شتى : فأخذ بعضهم يصيح في وجهها باكياً نادباً ، لاطماً وجهه صارخاً ، بعدد مصائبها تعديداً ، ويوسعها عليها تقريعاً وتنديداً ، وطفق بعضهم يزجرها إلى الحركة زجراً ، ويزعجها إلى المسابقة والمزاحمة إزعاجاً ، وأنشأ بعضهم يهيب بها لإنشاء المعامل ، ويقرصها بزواجره قرصاً لتشييد المصانع ، وأخذ بعضهم يدفعها بيديه دفعاً ويدعّها بلسانه دعّاً لتجري أمامه في باحات الرقي مع الجارين وتركض على صهوات التقدم مع الراكضين .. فإنهم لكذلك وإذا بها قد استيقظت مذعورة ذاهلة لا تسمع غير

لغط بين يديها ومن خلفها وعن ايمانها وشمائلها . وناهيك بأم انهكتها متاعب التربية طول النهار تستيقظ بين يدي ابنائها على هذه الصورة المفزعة . ويا ليت الأمر وقف عند حد الإيقاظ والتنبيه بل تعدى من ذلك إلى الزجر والشتم والتعيير والندب واللطم والبكاء والنوح والشهيق والتعديد وشتم الآباء والجدود والتشدق بسرد مساويهم ومعائبهم ، وفضح مخازيهم ومشائنهم على حسب ما صوروه لأذهانهم .

ماذا يكون حال هذه الأم الشفيقة بين يدي أبنائها في هذا اللغط المصم ، وهذا العقوق المستغرب . جاهدت لأجلهم جهاد الأبطال في وسط المزاحمات الهائلة ، وكافحت لحفظهم كفاح الإقبال في معمعان المقاومات العنيفة ،ثم جعلتهم بعد شدة التعب ، وعظم النصب ، في حضنها فأنامتهم ليستريحوا واضطجعت لتستريح معهم ، فلم تكد تتم دور نومها الطبيعي حتى استيقظت فوجدت أن أولئك الأبناء قد أصبحوا كلهم فلاسفة بغير علم ، وأساطين شرائع بغير فهم ، وأطباء عمرانيين بغير حكمة ، وانتقاديين بغير لطف . إلى أي جهة لفتت وجهها رأت هذا يتفلسف لها ويتقعر وهذا ينهج لها شرعة السير ويتمسف ، هذا يعلمها طرق العمران ومناهج المزاحمات ويتكلف ، وهذا يلفحها بسموم الانتقـــاد ويشتم منها الآباء والأجداد ويزعم انهم سبب تعاسته ومثيرو شقاوته وانهم لو فعلوا كيت وكيت ولم يفعلوا كيت وكيت لكان هو اليوم كيت وكيت مما يصوره له عقله .

أليس هذا مثال محسوس لحال مجموع هذه الأمة مع بعض أبنائها ؟ ماذا عسى أن تفعله أمـــة يكون أبناؤها على هذه الحالة من الخلاف والتلاحي والتصاخب والصياح ، ما هذا التفلسف ، ما هذا التعسف ، ما هذا البكاء ، ما هذا الندب ، ما هذا اللطم ، ما هذه الضوضاء ، ما هذا التنديد بالآباء ، ما هذا الازراء بالأسلاف ؟ هل عهد مثل هذا العلاج لأمة من الأمم ؟ نحن لو التفتنا إلى أنفسنا معشر المتفلسفين المتعسفين لرأينا أننا داء الأمـــة الوحيد ، وخلاياها

المصابة التي يتسرب منها الداء إلى مجموعها. ولو كنا غير ذلك لكنا علمنا وعملنا، نصحنا وانتصحنا، أمرنا بالمعروف وائتمرنا، نهينا عن المنكر وانتهينا، نهجنا طرائق الخير وانتهجنا، سددنا مخالج الشر وتنكبنا. ولكن الذي تشاهده الأمة بخلاف ذلك، كأننا ننصحها باللسان إلى الصلاح ونعلمها بالفعل كيف يكون الفساد، نثرثر لها بالكمالات والفضائل، ونزرع في نفوسها بأيدينا بذور الرذائل، سحرتنا المدنية المادية حتى انستنا أنفسنا، ويا ليتنا احببناها من جهتها التي تحب منها، بل همنا بها من الجهة التي يشكوها أصحابها، ويتألم بها واضعوها، ويعتبرونها جراحاً دامية فيها، وبثوراً عفنة في وجهها، يخشى عليها من نتائجها ويتوقع الفساد لكيانها من اعراضها. اين يتاه بنا؟ ما هذا السحر الذي غشي بصائرنا. هل الذي بنى هذه المدنية الفتانة البذخ، السرف، الترف، الابتذال، الخمر، القمار، المراقص، التياترات، الأكل بالشوكة، شرب النبيذ على المائدة، التفاخر بتكلم لغة أجنبية، عدم الصلاة، نكران العقيدة الالهيـــة والروح والخلود، جحود فضل الاسلاف وتعليق أسباب التأخر بهم، التهزيء والسخرية بالصاق تبعـــة البدع التي نحن فيها على وجوههم؟! هذه كلها أدواء أكثرنا من المتفلسفين وكلها سرت الينا من الفتنة التي أصابتنا من هذه المدنية لم تقم على هذه الأباطيل المهلكة والأمراض المجتاحة بل قامت على أساطين الهمة والإقدام والعلم والعمل، أما ما يشاهد فيها من هذه المخازي التي سحرت أكثرنا سحراً فهي أدواء هذه المدنية وسمومها، ولقد قام في وجهها رجال منهم يدافعونها كما يدافع الإنسان العقارب القاتلة، والأفاعي السامة. مما سيمر بك في محاله من كتاب الإسلام في عصر العلم إن شاء الله.

نعم قامت المدنية الأوربية بهدم العقائد ولكن الباطلة منهـــا، وكذبت بالأديان ولكن المضرة التي تقتل العواطف قتلاً، وأنكرت الروح ولكنها هبت تثبتها بالحس كما فصلناه في مؤلفاتنا السابقة وسنزيده هنا تفصيلاً إن شاء الله: وحررت المرأة من ربقة الرق وأصفاد العبودية وغلت في ذلك ولكنها أدركت غلطتها في إفراطها فقامت ترجعها إلى وظيفتها الطبيعية الأصلية كما قررناه من

ذات أقوالهم في كتابنا (المرأة المسلمة) . أما تلك القاذورات التي هـام بها أكثرنا هياماً جنونياً فأدران المدنية ، وأوضار النفوس البهيمية . فهل يصح بعد أن نكون أول المسحورين بهذه القاذورات الشائنة ، أن نعطي أنفسنا وظيفة تطبيب الأمة ومعالجتها ؟ وهل تموت الأمم وتهلك إلا من هذه الجهة ؟ وهـل تزول الفضائل ، وتحل الرذائل إلا من هذه المسارب ؟

يجب ان يكون الطبيب مثالاً حسناً للمريض ليكون لنصحه أثر في نفسه ، ولعلاجه فعل في دائه ؟ لا أن يكون هو أول المصابين يحمل الميكروب في كمه ، وجرثومة الداء في جيبه ؟

الأمم النائمة يجب أن يكون موقظوها قدوة صالحة للسير في باحات اليقظة والحياة ، حتى إذا استيقظ عضو منها تبعهم في سيره ، واقتاس بأعمالهم في عمله وجرى على خطتهم لتحقيق أمله . فماذا عسى أن يصادف منـا المستيقظ من غفلته ؟ لن يصادف إلا لغطاً مشوشاً وجلبة عمياء تحيره في تلفته ، وتعـثره في مشيته ، يجد هذا يدعو بالويل والوبال ويندب سوء الحال والمآل ، وهذا يصيح بالزواجر ويثرثر بالقوارع ، وهذا يدعو لبناء المعامل ، وتشييد المآثر ، ولكنه قد لا يجد قدوة صالحة في قوله وعمله فيضرب عن الكل صفحـاً ، ويباوي عن الجميع كشحاً ، ويتجه كما يجيء لا كما يجب ، ثم تنطبع في ذهنـه صورة تلك الولولة فيحاكيها ويرددها بفمه لا بقلبه . فلا يكون مرتبطاً بالأمة لأنهم أروه أنهـا مريضة أو ميتـة ، ولا يستطيع أن يرتبط بنا لأننـا كلنا متنابذون متخاصمون ، متشاحنون متحاقدون ، لا نجتمع على أصـل ، ولا نرتبط بفرع فيداخله داء الأثرة ويسعى أن يكون مستقلاً رغم أنفه . على هذا المنوال ينسج كل عضو يستيقظ أي يتعلم ، ولو استمر هذا الحال زمناً مناسباً لأصبحت الأمـة أفراداً مستقلين يصح أن يطلق على كل منهم أمة وحده . أليس كل أب يعلم ابنه يشاهد فيه هذا الأثر ؟ هل هذا أثر التربية ؟ هل هذا نتيجة التعلم ؟ هـل هذا فعل التهذيب بالنفوس ؟ هل تعلم السكر في المدرسة ؟ هل تعلم القمار في المدرسة؟

هل فيما بين يديه من الكتب ما يعلمه ذلك ؟ هـذا أثر الذين تعلموا قبله وسموا أنفسهم أيقاظاً وأرادوا أن يوقظوا الأمة ، فسعوا في حل رابطتها الأصلية من حيث لا يشعرون . كل هذا بفضل انسحار أكثرنا بقاذورات هـذه المدنية ولا نقول بها ذاتها : لأنها ذاتها لا تسحر العقول ولا تميت العواطف ولكنها تبعث الغيرة إلى النفوس الحيـة وتوقظ الحمية في القلوب الثابتة ، بل وتحيي الروح الإسلامية في أشبـاح المنتسبين إليها ، لأنها نفحـة من القرآن أصابت الأندلس فسرت منه إلى أوروبا وأحدثت فيها هذه الحركة اليوم بشهادة بناة هذه المدنية أنفسهم . ولو كنا نريد حقيقة أن تكون لنا مدنية مثلهـا ، لكنا استرشدنا بأقوال أقيالها الذين أسسوها ودعموها لا بأقوال مؤلفي الروايات فيها وأصحاب الخلاعة منها وكنا بهذه الصفة نهتدي إلى أكبر علومها وهو علم العمران المقتبس كله من القرآن كما سترى ذلك في كتابنا (الإسلام في عصر العلم) إن شاء الله ، وكنا عرفنا منه كيف نأخذ الأمـة باللطف لا بالعنف ، وباللين لا بالشدة ، وبالهدو لا بهذا اللغط المزعج ، وبالاتحاد على مبدإ لا بهـذا التخاصم والتلاعن ، وكنا عرفنا مكامن الأدواء ، ومظان القوة من أنفسنا ، وكنا لا نزعج أمتنا هذا الإزعاج المدهش ، وكنا لا نفتتن من المدنية بمراقصها وملاعبها ، وتياتراتهـا وزخارفها ، ومقاذرها ومشائنها ، فماذا عسانا نجني من وراء هذا ؟ لا شك نجني منه هذا الانحلال التدريجي الذي طرأ علينا من قبلنا معشر المتفلسفين الآخذين على عهدتنا تطبيبها ومعالجة دائها . أما الأمة نفسها فقل إنها جامدة أو قل إنها نائمة ، وإن شئت فقل إنها مريضة ، ولكن لا تستطيع أن تقول إنها ميتة لأنها تجتمع كلها على أصل واحد وهي العقيدة ، ويشملها روح واحـدة وهي روح الدين . لـك أن تقول إن تلك العقيدة قد غشتها البدع ، وحجبت نورهـا الخرافات ، كما أن لك أن تقول إن تلك الروح الدينية التي تحركها ضعيفة لما يعطل حركتها من جهل الناس وغباوتهم ، ولكن ليس لك أن تقول ان الأمة محلولة العرى ، مبددة الأجزاء لا تصح أن يطلق عليها لفظ أمة . ولكننا معشر المتفلسفين ما هي العقيدة التي تجمعنا وما هي النقطة التي تحمسنا ، وما هي الغاية

التي تتركز فيها سائر عواطفنا ؟ هل عهد في تاريخ أمة مريضة يُتوقّع لها الشفاء أن يكون بين معالجيها مثل هذا الفشل المخجل ، قل لي بعيشك ماذا يكون حال مريض يجتمع على رأسه شرذمة من الأطباء ؟ وبدل أن يستشير بعضهم بعضاً في تشخيص مرضه ووصف العلاج المناسب له بالإجماع ، ليكونوا بإجماعهم تسلية له في آلامه ، وليُحدِثوا باتحادهم في نفسه أملاً في شفائه ، يتصاخبون ويتشاتمون ويستقلون ، ثم يأخذ كل منهم في وصف علاج لا يقرّه عليه جاره ، بل يدّعي أنه مميت مهلك ؟ ألا يكون ذلك المريض بين أيديهم في حال هي أشدّ عليه مما به ، وأسرع في إهلاكه من جميع أوصابه ؟ ألا يكون لذلك المريض العذر في حيرته ، والحق في احتقار أطبائه وطردهم من حضرته ؟ ألا يقال ، والحالة هذه ، ان هؤلاء الأطباء هم أشد أدواء ذلك المريض المسكين ، ولو تركوه وشأنه لكان الرجاء في شفائه أكبر منه وهم يتنازعونه بينهم تنازعاً ، ويتزاحمون على رأسه تزاحماً ، ويقتحمون حجرته اقتحاماً مفزعاً ، يتدافعون بالمناكب ويتآخذون بالنواصي ، ويتماسكون بالخناق ، ثم ينهالون عليه صائحين في آن واحد ، هذا يشتمه وهذا ينهاه ويزجره وهذا يقرعه ويؤنّبه . كل ذلك فضلاً عن هاجم عليه يجس نبضه ، ومنقضّ على صدره يفحص قلبه ، وحاضن له يبحث رئتيه ، وعاجن بطنه يفتش أمعاءه ، ومستولٍ على عينيه يختبر بياضها ، الخ ، الخ .. وهو لا يسمع إلا لغطاً مشوشاً ، وعجيجاً مصدّعاً ، ولا يحسُّ إلا تنازعاً في جسمه ، وتزاحماً من الأيدي على أعضائه . فهل على هذه الصورة يُعالَج مريض ، وهل على هذا الشكل المفزع يشفى عليل ؟

إيه إيه ! لقد حقّر الناس شأن تطبيب الأمم ، وصغّروا أمر إحياء الهمم مع أن هذا وظيفة الأنبياء خاصة ، ومن ينهج سبيلهم من العلماء والحكماء ، لا كل من يمسك القلم ويعبر عن فكره بكلمات عربية ، ويعطي نفسه بنفسه تلك الوظيفة العلية .

* * *

الأسلام في عصر العلم

ملاحظة على ملاحظة المقتطف

أهدينا نسخة من مقدمة كتابنا إلى مجلة المقتطف الشهيرة ، بصفتها أقدم المجلات العربية في هذه البلاد ، ولم يكن ليصدنا عن ذلك ما نعلمه من الخلاف الجوهري بيننا وبين حضرتي الدكتورين محرريها النشيطين ، فتكرما بأن كتبا عنها في مقتطفهما كلاماً صدّراه بتمهيد أبانا فيه فكرهما على الدين وتأثيره على النفوس – وإنا وإن كنا لا نوافقهما على كل ما جاء في ذلك التمهيد ، إلا أننا لا نخليهما من الشكر على حريتهما . وليس لنا أن نناقشهما هنا على فكرهما فإن كتابنا شامل لكل ما ورد على الدين من مدركات الفلاسفة سواء مليين أو ماديين ، أقدمين أو محدثين ويتلو كل إيراد من ذلك محاكمة دقيقة تنتهي بفكرنا الخاص في الموضوع ولا موجب للتعجيل به الآن .

أما غرضنا الوحيد من هذه المقالة اليوم فهو إيضاح أسلوبنا في البحث تصحيحاً لحكم حكمه علينا المقتطف لا يؤخذ من كلامنا تصريحاً ، ولا يستنتج منه استنتاجاً .

أما أسلوبنا فهو كما قلنا في مقدمتنا في صحيفة (٣) : « وسأتوخى إن شاء الله في بناء هذا الصرح تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ولا ناهج بمقرراته مخالج التكلف والتحريف . ولكن سأسير معها سيرها الطبيعي وأسلك بها مسلكها التحليلي ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيداً الثاني وناصره ، وحاميه من شائبات الشكوك ومؤازره ، ما دام العلم منتزعاً من أشياء الكون والدين وحي من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحي إلهي مخالفاً لوضع طبيعي وكلاهما مستمد وجوده من خالق

واحد تتنزّه أفعاله عن التناقض ، وتتعالى إفاضاته عن التعارض ؟ بل الذي يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاتــه ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهمياته .. هذا هو الذي يرى العلم عدواً لدوداً فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً . هذا هو الذي إن ذكر العلم بحضرته عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال إن هذا إلا قول البشر ، أما المسلم فمتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ، وأنى رأيناه صدف عنه وخاف بطشه » انتهى كلامنا في المقدمة ومنه يتضح بأجــلى بيان أن أسلوبنا في البحث هو عين أسلوب العلم العصري ، وسيرى قراؤنا إن شاء الله صدق هذا الوعد بأعينهم .

وقد أورد (المقتطف) جملتــين من كلامنا وعلق عليها ملاحظة ترانــا مجبرين على مبادلتــه الفهم فيها . أما تانك الجملتــان وملاحظة المقتطف عليها فهي :

« أما الآخرون فـــانفضوا رؤوسهم سخرية وهزؤا ، وهزّوا أعطافهم زهواً وعجباً ، ثم رفعوا عقيرتهم كبراً وصلفاً وقالوا : هذه آثار الماضين ، وبقية من بقايا الأقدمين فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس الكون كافية في تعليل كل ظواهره ، وقوانينه قد فسّرت أكثر غوامضه ، فلا داعي لفرض قوى وراء الطبيعة ، ولا موجب لتوهّم عالم علوي وراء هذه المرائي المحسوسة ... »

« كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوروبي ونبــع سمها من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة فالتاثت أكثر العقول بأقذارهــا وتسممت بسمومها . »

ثم علق المقتطف على هاتين الجملتين ملاحظة فقـــال : « هذا ومتى رأيت القاضي يسمع احتجاج خصمين فيصف أحدهما بالزهو والعجب والكبر والصلف

وكلامه بالشبه المتعاصية ، والسم بين ذرات الدسم ، عسر عليك أن تنتظر منه الانصاف في حكمه . ولله درّ من قال ان الشك أول مراتب اليقين ، فإذا أقدم كاتب على موضوعه إقدام مرتاب في صحة كل ما قيـــل ، وبحث بنفسه عن صحته أو فساده تعذّر عليه أن يهتدي إلى الصواب ويرشد غيره إلى الهدي ، أما إذا دخل باب البحث وذهنه مفعم بمسلمات ومعتقدات يتعذّر عليه الريب فيها ، فقلما يرجى من بحثه نفع لنفســـه أو لغيره . » انتهى كلام المقتطف نقول : أما ما قاله عن الشك والارتياب وفائدتها في استجلاء الحقائق ، فمما لا ريب فيه ، ولكن بالنسبة لمن يبدأ في بحث موضوع من المواضيع لا بالنسبة لمن بحثه وسبر غوره وقام ينشر بين قومه نتيجة جهاده الطويل . على أنـّا متى رأينا شاكـّاً فيما يكتب نجح في دعوته ، أو وصل إلى غاية مما يؤمله من هداية قومه ؟ لا يجوز للشاكّ أن يمسك القلم ويؤلف لأن تشككه لا يفيد قرّاءه إلا حيرة ، وتذبذبه لا ينشر حواليه إلا ذبذبة وتردداً ، ولا يوجد شيء أضرّ على خاصة أمة وعامتها من فقدها الثبات في مدركاتهم .

وعلى هذا السمت التحقيقي الذي جرينا عليه جرى العلماء المحققون في كل أمة وفي كل زمان ، وأقرب شاهد على ما نقول كتاب (معرفــة الله من درس الطبيعة) تأليف الأستاذ (كاميل فلامريون) الذي يصفه المقتطف بأنــه من أشهر علماء الفلك في العالم ، فقد قال هذا العلامة في مقدمة كتابه هــذا الذي طبع (٢٦) طبعة في وسط أوروبا .

« مهما ظهر لنا مبدئياً من صعوبة دحض المذهب المادي دحضاً علمياً ، فإن موقفنا من الآن جميل جداً لأننا في ذات الميدان الذي فيه خصومنا .

« ونحن في هذه الحرب السلمية للغاية قد تحققنا مقدماً بأن النصر سيكون في جهتنا . وبما أن عدونا في مركز باطل فليس علينا لنوال ذلك النصر إلا أن نكشف وجه بطلان ذلك المركز وأن نفقده موازنته فيه . » .

أنظر كيف حكم لنفسه بالغلبة ولعدوه بالهزيمة ، ولم يشك في ذلك لتحققه من قوة نفسه وضعف خصمه .

أما إيراد المقتطف إزراءنا بالماديين وإكباره مـا وصمناهم بـه من الزهو والعجب والكبر والصلف وما وسمنا به كلماتهم بالشبه المتعاصية والسم ، فمما لا نرى له فيه حقاً ، فإننا إنما وصفنا بذلك منكري الألوهية ومن من الناس لم يصم ولن يصم هؤلاء المتهوّرين بذلك ؟

إنا لو أردنا سرد ما يصمهم به إخوانهم العلماء من المشائن والمقابح لملأنا سفراً ضخماً وإن شئت المثال فإليك ما يقوله عنهم العلامة (كاميل فلامريون) في كتابه المتقدم قال :

« إنا حينما نناقش مباني العبارات يجب علينا أن نرجو القارىء لأن يعتقد أننا إن عاملنا بعضاً من خصومنا بشيء من الشدة فلا يجوز أن ينسب الينا تبعة هذا التسامح لأننا لا نعتمد على هذه الوسائل الصارمة إلا في الظروف (ومـا أكثر هذه الظروف) التي فيها خصومنا يعاندون الحقيقـة لكي لا يغلبوا . في هذه الحالة نكون مجبرين على معاملتهم بنوع من الشدة وإجبـارهم على التسليم بالبرهان الساطع الصادر من الأقوى منهم لأنهم في الحقيقة الأضعفون في هـذه الحرب القانونية » .

وقال : « تراهم يطبقون العلوم الفلكية والكيماوية والطبيعية والفيسيولوجية على مسائل لا يستطيعون ولا يريدون حلها ولا يكتفون بأن يجبروا هذه العلوم على الإجابة عن الأسئلة الخارجة عن اختصاصها فقط ، بل يسيئون إليها أيضاً كأنها عبيد أذلة لكي تقر لهـم بدون رضاها وبالزور والبهتـان بأشياء لم تدر في خلدها . » .

وقال : « سترى في مجادلاتنا الآتية أن هؤلاء العلماء خارجون تماماً عن

دائرة العلم ، وأنهم يغشون أنفسهم ويغشوننا معهم، وإن براهينهم واستدلالاتهم واستنتاجاتهم فاسدة . » .

وقال : « وترى العقول العطشى والمتذبذبة مع أخذها في كتبهم معلوماتها لاحتياجها إليها تشرب معها سماً زعافاً يهدم في أفئدتها جزءاً من فضائل المعرفة . » .

ثم قال : « إن نظرياتهم هذه ثمرة من ثمرات الأفكار الجامدة التي برجوعها على نفسها دائماً تتوهم أنها مؤسسة على العلم بينما هي لم تقبل من شمسه المضيئة إلا شعاعاً ضئيلاً حائداً عن سيره الطبيعي . »

ثم قال : « تراهم يحكمون على ما يسكت عنه العلم الصحيح كأنهم حضروا في مجلس خلق الوجود أو كأنهم خلقوا العالم بأيديهم . »

ثم قال : « هؤلاء العاملون المعجبون بأنفسهم الذين يزعمون أنهم يمثلون العلم ويتكلمون باسمه لم يتنزلوا ولا باتباع الأسلوب العلمي الذي يقضي بعدم الحكم بدون برهان . »

ثم قال : « وسترى بالفعل أن الذين يحكمون بأن القوة لا سلطان لها على المادة إنما يأخذون هذه الفكرة من خيالهم لا من العلم . »

ثم قال : « إنكم قد تهورتم لحد أن نسبتم إلى العلم مجموع ضلالاتكم ، فإذا سمعكم العلم ولا بد أن يسمعكم لأنكم أبناؤه لضحك من أوهامكم . »

وقال: « إنا إذا نظرنا من قرب إلى حجر الزاوية الذي وضعه مذهب الماديين بعد صرفه نفقات طائلة تبين لنا أنه ليس إلا كتلة من الخشب المسوس ، وأنك إن سبرت ضمائر أنصار هذا المذهب وجدتهم لا يعتقدون متانة صرح إلحادهم كما كان لا يعتقد ذلك تلاميذ هيراكليت وأبيكور ذوو الرؤوس الصلعى . وهم وإن حاولوا أن يجعلونا نعتقد مذهبهم فليس هو إلا رأياً أظهر بطلاناً وأقل

اعتماداً على العلم من كثير من الخرافات العلمية . وبما أنهم يعلنون بذاتهم بأن كل رأي (غير مثبت) يجب طرده من العلم فيلزم أن يُبتدأ بطردهم قبل كل شيء ».

ثمّ سرد الأستاذ الفلكي الشهير بعض بدائع الكون واستعظم إنكارهـا فقال : « هل هذا جنون أو حمق ؟ هل هذا كبر أو جهل؟ ماذا عسى أن يكون منشأ هذا الضلال العقلي الغريب ، وماذا عسى أن تكون نتيجته ؟. ثم قال متعجباً : « لماذا ينكرون الجمال ؟ لماذا يحرفون معنى الرحمة ؟ لماذا يجحدون الحكمة؟ لماذا يسمون الفضائل الأبدية التي بها قوام العالم ويكسفون النور الناصع النازل من السماء هذا الكسف المحزن ؟ » .

هذا ما يقوله عنهم الأستاذ (كاميل فلامريون) في نحو خمسين صحيفة في كتابه ، ولو عنينا بترجمة كل ما جاء في كتابه من عبارات القدح والاستهزاء والإزراء والتجهيل بالنسبة لأولئك الماديين لملأنا عشرات من الصحف ، مع أن الرجل مشهور بين العالم أجمع بدماثة الأخلاق وعفاف القلم . أما ما غصت بـه الكتب والأسفار من الغميزة بالماديين والنعي عليهم من كبار رجالات العلم والفلسفة قديماً وحديثاً فمما لا نسمح لأنفسنا بترجمته هنا إلا عندما نلجأ إلى ذلك إلجاء ، على أنه ليس بشيء يذكر بجانب ما ينفثه هؤلاء الماديون من أفواههـم طعناً على العقائد وحطاً من كرامة المذاهب ووضعاً من شرف الآخذين بها مما يدل على مبلغ آدابهم وينم على مقدار أخلاقهم .

نحن لا نقصد بما وصمناهم به من الزهو والعجب والكبر والصلف أن نشتمهم فإن ذلك مجال لا نسمح لأنفسنا بمبارزتهم فيه فليرتعوا في أرجائه وحدهم ، بل قصدنا منه وصفهم ونعتهم . ومن ذا الذي يقف على مناكرهم ويستطيع أن لا يصفهم بذلك مهما كان نزيه اللسان عفيف القلم ؟

هؤلاء الرجال يؤكدون بملء أشداقهم أنـه لا خالق للوجود ، ولا روح للإنسان ، ولا خلود له بوجه من الوجود وإنما مثله كمثل النباتات والحيوانات يولد

ويغتذي وينمو ويلد ثم يموت ، وان الوجود كله محكوم بالقوانين الميكانيكية والنواميس الطبيعية وهي قديمة كقدم الكون نفسه . يضعون هذه المبادىء نصب أعينهم ويحكون من خلالها على كل مدركات البشر المخالفة لها بجدة وشدة غريبتين ، فيشتمون ويهزؤون ويحقرون ويجهلون ، مع أنهم لو نوقشوا في مبادئهم هذه لرأوا أنهم متمسكون بأهداب الخيالات ومعتصمون بأوهى من بيوت العناكب . وها نحن نصيح بأعلى أصواتنا بأنه لا يوجد برهان ولا شبه برهان على نفي الخالق والروح وأن الفلسفة الحسية المتطرفة لا تقول بذلك ، قال أستاذها وشيخها (ليتريه) :

« لما كنا نجهل أصول الكائنات ومصائرها فلا يليق بنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يليق بنا أن نثبت ذلك . فالمذهب الحسي يتحفظ كل التحفظ في مسألة وجود العقل الأول لإقراره بجهله المطلق في هذا الشأن . كما أن العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يلزمها أن تتحفظ من الحكم على أصول الأشياء ونهاياتها ، بمعنى أننا إن لم ننكر وجود الحكمة الإلهية فلا نتعرض لإثباتها . فنحن على الحياد التام بين النفي والإثبات » .

هذا حكم دستور الفلسفة الحسية المتطرفة ، أما حكم قانون العلم الطبيعي فهو: قال الأستاذ الطائر الصيت (ميلين ادوار) الانجليزي :

« يجب أن يندهش الإنسان لما يرى أن أمام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالاً يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست الا نتائج الصدفة أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة إلى أن قال : إن هذه الآراء الباطلة او بالأولى هذه الأضاليل العقلية (تأمل) التي يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضاً فإن الطبيعي لا يستطيع أن يعتقدها أبداً . » انتهى .

نقول إذا كانت الفلسفة الحسية مع صرامتها وتشددها والعلم الطبيعي على دقته وصولته يتبرآن من منكري الألوهية ويلفظانهم كما يلفظ الإنسان القذر

ويسميان مدركاتهم اضاليل واوهاماً أفلا يعد أصرارهم على خزعبلاتهم بعد ذلك زهواً وعجباً وكبراً وصلفاً . وإذا كنت لا تصم بهـــذه الأوصاف رجلاً تبرأت منه الفلسفة الحسية والعلوم الطبيعية نفسهـــا ومع ذلك لا يرعوي ولا يرجع عن غيه فمن ذا الذي يصح أن تصمه بها بعد ذلك ؟

يقول العلامـة (كاميل فلامريون) : « لقد عجز الأساتذة عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء ، أما التلامذة فإنهم يدعون أنهم فاقوا معلميهم فقاموا يحرفون نظرياتهم التي يزعمون زوراً بأنهم حماتها ومؤيدوها . » انتهى .

نقول إذا كان هؤلاء الملاحدة يسميهم أبناء جلدتهم بالتلامذة ويصيحون بأنهم حرفوا العلوم وزعموا بالزور انهم حماتها فهل يليق بنا نحن أن نحترمهم أو نقيم لهم وزناً .

يؤاخذنا المقتطف على أن وسمنـــا كلامهم بالشبه المتعاصية والسم في ذرات الدسم . فنقول واين السم من كلامهم ؟

وضع هؤلاء الرجال تلك النظريات الباطلة بين ايديهم (وقد أريناك مقامهم ومقامها) واستنتجوا منهـا تعاليم كلها شر ووبال على هذا الإنسان الضعيف : انكروا الروح والخلود وأروه نفسه نتيجة وظائف اجهزته وأجزائه،ومثلوه في نظره بالآلة الميكانيكية ، وطعنوا ما شاءوا على ما كان يعتقده من أن له روحاً مستقلة وانها من مصدر عـال وأن لها داراً بعد هذه الدار تحيا فيها حياة طيبة وتنجو بها من مضانك هذه التكاليف الأرضية ، ثم جحدوا الفضيلة في ذاتهـــا وأروه أنها اسم لا حقيقة له البتة ، وأن الباعث الوحيد الذي يسوق الإنسان في ميادين الحياة هو طلبـــه النفع لنفسه ليس إلا ، أما يعتقده من أن هنالك شيئاً يقال له علو نفس وطهارة قلب فليس هو على زعمهم إلا أضاليل اخترعها رؤساء الأديان للسيطرة بها على أرواحهم .

نشروا هـذه التعاليم وما يتبعها بين ضعاف العقول وصغار الأحلام فنشبت فيها نشوباً وأفرعت فروعاً مختلفة على حسب الأفهام والمدارك ووجد الآخذون بها من الحرية الضاربة اطنابها في بلادهم مجالاً فسيحاً فجروا في أرجائه أشواطاً بعيدة طرباً بتلك الأفكار وفرحاً بنتائج تلك الفلسفة الحرة ، فإنهم لكذلك وإذا بصاخة عظمى تمزقت لها اصمخة آذانهم فالتفتوا حواليهم ليروا ما الخبر وإذا بهم في مشهد تذوب منه فؤاد الإنسانية أسفاً وتذرف أعين الفضيلة من مرآه حزناً وكمداً ! ماذا رأوا ؟ رأوا الأثرة والشره والطمع والبهيمية لابسة ثياباً من نار المعامل والمصانع ، وبيدهـا سوط من ظلمة المناجم تسوقهم ليدوسوا بأرجلهم الفقراء والضعفاء من الرجـال والنساء والولدان وهؤلاء يجأرون الى الله من ظلم الظالمين وهم بين اشلاء ممزعة ، ومهج سائلة ، وكبود مفتتة وشهقات تتصعد قـد أحماها اليأس حتى استحالت شراراً . هـذه الصيحة الهائلة لفتت كبار الرجال في العالم المتمدن إلى البحث في أحوالهم حتى كادت قواهم كلها تنصرف إلى ذلك. ولقد أحس القوم بما هم فيه حتى قال قائلهم :

« ما سبب هذا الأنين الذي يرن من كل جانب عند ظهور آخر كتاب فلسفي أو قصة جديدة أو قطعـة تمثيلية متقنة ان لم يكن هو الشهيق الماليخولي الذي تسببه حياة قريبة من الفناء وعالم هرم قد أحس أنه سائر إلى قبره . » [1]

يقول الأستاذ (اجوست سباتييه) مـا سبب هذا الأنين المزعج الذي يرن من كل جانب فيجيبه عن يمينه الفيلسوف (فيبرنس جيفايرت) في كتابه (الغمة الحاضرة) بأن سبب ذلك عـدم الدين وفشو الإلحاد بتعاليم أولئك المضللين ويقول : « إن الساسيين والفلاسفة والمنشئين الذين من منـذ قرن من الزمان يتكاتفون على اهباطنا إلى حضيض هذا الانحطاط الأدبي ليسوا في الحقيقة إلا فواعل ثانوية متأثرين بسبب فرد : وهو عدم الروح الدينية ».

---

(١) فلسفة الأديان تأليف الاستاذ (اجوست سباتييه) .

هل بعد هذه الحـــالة المحزنة التي آلت إليها هذه المدنية الزاهرة بتعاليم الملحدين يلاحظ علينا ما وسمنا به أقوالهم من الشبه المتعاصية والسم في ذوات الدسم . وأين فعل السم مما أحدثوه في عالمهم من هذه الفتن المظلمة التي يكاد أن لا يكون لها دواء .

وهل علينا من حرج بعد هذا لو قمنا نكافح الإلحاد ونقوض أركان مبادئه صوناً لعالمنــا من مثل ما وقع فيه سواءاً من الحيرة في العقائد ، والألم من خلو الأفئدة من روح الدين ؟ ها نحن نصيح بأعلى صوتنا بأن مدنية أوروبا قـــد افسدها عدم الدين ، وأن عـــدم الدين سببه تعاليم الماديين ، وأن تعاليم الماديين ضد العقائد خيالات وأوهام لا تؤيدها حجة ، ولا يسندها علم بل العلم بريء منهم ومن تعاليمهم فمن يرى أن الأمــر خلاف ما نقول فليساجلنا البحث في هذا الموضوع الخطير غيرة على الحقيقة والسلام على من اتبع الهدى .

* * *

تنبيه لحضرات قرائنا

انا وصلنا بالقارىء بواسطة التحليلات الفلسفية التي عملناها في مبحث الإنسان إلى لباب نظريتنا التي وقفنا قلمنا ومحاولاتنا لبلوغ الغاية من تجليتها والإشراف منها على ادوائنا الاجتماعية والذاتية واستنزال روح علاجاتنا من قبلها إن شاء الله تعالى .

تلك النظرية هي أن لكل جيل روحاً عمومية تنبعث من أقوى أمة أو من أقوى الأمم في الجيل فتحتف بسائر الأمم الأخرى وتصاولها من جهات ضعفها حتى تستولي على إرادتها ، وتتسلط على اختيارها ، وتديرها في تيار حركتها ، لتجعلها لا تعيش إلا لها ، ولا تتحرك إلا بها ، ولا تستمد الحياة إلا منها ، ولا تسكن أو تضطرب إلا في صالحها ، وقلنا أن الروح السائدة اليوم على آفاق العالم أوروبية مختلطة ، أحاطت بالأمم الضعيفة إحاطة السوار بالمعصم وجرت على سنة كل الأرواح العمومية السابقة ، ثم فسرنا بهذه النظرية سائر ما نحس به من التناقض في أحوالنا والارتباك في شؤوننا . وقلنا ان الدواء مما نحن فيه لا يمكن تركيبه وتحضيره الا بعد درس مصدر هذه الروح العمومية درساً علمياً ، والوقوف التام على العوامل التي كونتها وأمدتها ، وعلى جهات الضعف فينا التي واجهتنا منها فأحدثت فينا هذه الآثار المحزنة. ثم يضاف إلى هذا الدرس البحث الدقيق عن حقيقة هذه الروح وعن جهات قوتها وضعفها ، وعن عوامل حياتها وموتها ، وعن المسارب التي تسربت منها إلى أفكار البشر وعقائدهم فقلبت شكل الأرض من حال إلى حال آخر .

هذا البحث والدرس سيكون طبعاً بتشريح حالة الأمم قبل حدوثها من جهة الأفكار والعقائد والأحوال السياسية والعلمية والاجتماعية ومن الأخلاق

والآداب في أوربا محل نشوء هذه الروح العمومية، وببيان الرجال الذين ظهرت بهم هذه الروح وتسربت من تعاليمهم تدريجاً تدريجاً . وسيكون هذا البيان إن شاء الله بسرد حالة الأفكار في العصر الذي وجدوا فيه وما أفادوه للناس من الروح الجديدة، وتوضيح جهات القوة والضعف من تعاليمهم، ومجرى تلك التعاليم من عصور معاصريهم ، ثم بيان كيفية انضمام تعاليم السابق الى اللاحق منهم وهكذا حتى نشرف بالقارىء على كيفية تكون تلك الروح الأوروبية السائدة اليوم وعلى حالتها من جميع جهاتها الدينية والفلسفية والعلمية والخلقية ، وعلى مراكز قوتها وضعفها من كل جهـــة من تلك الجهات ، وعلى سر تسلطها على المسلمين من كل تلك الجهات المذكورة . بينما نتابع سلسلة هـــذه المباحث في كراسة الإنسان ستكون كراسة مبحث خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم شاملة لمحاكمة كل ما يرد من تلك المباحث بدستور القرآن الكريم ، فما يكون موافقاً منها لتعاليم القرآن استفدنا منـــه على وجهين (أولاً) من وجه كونه من المعجزات العلمية للمصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم (وثانياً) من وجه اتخاذه من الأدلة المحسوسة على صدق نظريتنا من أن الروح الأوروبية سينتهي بها الأمر إلى مقابلة الروح الإسلامية في أفقها والفناء فيها وترك السلطان لها،أما ما خالفها منها فسنثبت للقارىء أن شاء الله تعالى بأنه مخالف للطبيعة والعقل معاً وانه من جهات الضعف في الروح الأوربية التي سيتطرق اليها الفناء منها .

بهذه الصفة ستكون السيرة المحمدية بحول الله وقوته على أسلوب جديد حاصلة على الروح المطلوبة منها بمعنى أنها لن تكون سيرة تاريخية محضة بل مرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال روح رسول الله صلى الله عليه وسلم في إصلاح العالم وأثرها فيه لليوم ومستقبل السلطان العظيم الذي سيكون لها بعد حين . والله يهدينا لاقوم سبيل .

* * *

ما وراء المـــادة

وجاءنا من حضرة الأستاذ المومأ اليه أيضاً بأننا قلنا في كراسة مـــا وراء المادة : (فحصها فحصاً علمياً من جهاتها الثلاث تجريبياً وفلسفياً وأدبياً) ويريد أن يعرف مراد الاستاذ فالكومر (صحيفة ٣٤٩ سطر ٩) من الفحص الادبي وما الفرق بينه وبين الفحص الفلسفي » .

(الجواب) — لا يخفى أن نظرية الروحيين التي يستدلون عليها في أوروبا بالحس في هذه الايام هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملأ الأعلى لا يصل العقل الى ادراك كنهها، وإنها متصلة بهذا الجسد الطيني بواسطة هيكل لطيف على شكل الجسد تماماً ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه ، وانه كغلاف للسر الالهي المسمى روحاً . ولعل في هذا ما يشبه قول الامام مالك بن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد). ويقولون ان الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص الى عالم غير هذا العالم ولكنها لا ينفصلان عنه كل الانفصال بل ارواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة ولكنا لا نراها بأعيننا لعدم استعداد أعيننا لذلك ، كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعـة (رونتجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآلة التي صنعها الاستاذ (رونتجن) لها وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وافادت العـــلم الطبيعي فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص به يرون الارواح رائحة غادية وعن أيمانهم وعن شمائلهم رؤية حقيقية وهؤلاء الأشخاص هم الذين يصح أن يتخذوا وسطاء لتجسد الارواح ، لأن ذلك الاستعداد الذي اتاح لهم رؤيتها يجعل بينهم وبين عالم الارواح نسبة خاصة يستفيد الارواح من هؤلاء الاشخاص قوة ومادة يظهرون بها أمام أعين الناس . وقد سئل بواسطتها الأرواح عن مصدر المادة التي ظهرت بها وعن مصيرها بعد ذهابها فقالت ان في غلافها قوة خاصة بها تكون

لها جسماً في الحال وتتخلى عنه في الحال كذلك . أمـــا مصدره فهو جسم الواسطة التي تظهر بواسطتها . قالت انكم تتحققون من ذلك لو وزنتموها أو وزنتموه قبل حضوري وفي أثناء تجسدي لتدركوا الفرق الواضح في وزنها أو وزنه في كلتا الحالتين. ولما فعل العلماء ما أشارت به الروح وجدوا أن الواسطة يفقد من وزنه في أثناء تجسد الروح قدر النصف فإذا ذهبت عاد اليه وزنـــه الحقيقي كما كان . ومما يثبت لهم حقيقة ذلك أن الاستاذ الروسي (اكزاكوف) كان يحضر روحاً مع ثلة من إخوانه وكانت الواسطة إمرأة شهيرة جداً اسمها (مدام دسبرانس) فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطـة فقدت أطرافها السفلى تماماً وقد فحصوا ذلك بأيديهم وهم في غاية الدهشة فلم يجدوا لأطرافها أثراً ، ثم لما ذهبت الروح عادت اليها أطرافها. وقد شاهد هذه الحادثة التي فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه بعض علماء آخرين كما سنبينه تفصيلاً إن شاء الله. ويقول الباحثون في هذا الفن بهذه التجارب وبواسطة هؤلاء الأشخـــاص الذين فيهم ذلك الاستعداد الخاص قد أصبح الحد الفاصل بين عالم الأحياء والاموات رقيقاً جداً . ويقولون ان هذا العلم ليس بجديد في العالم أي ليس مبدؤه سنة ١٨٤٧ حين ظهر في أمريكا لأول مرة بل هو معروف ومستعمل من منذ أقدم أزمنة التاريخ المعروفة كما أثبت ذلك الاستاذ (جريمار) وغيره وأنه في الهند أرقى منه في أوروبا بكثير. ويقولون أن هذه التجارب لا يكون من فائدتها إثبات وجود الروح وخلودها والإلمام بأحوالها في عالمهـــا فقط بل سيكون من ورائها حل معميات كثيرة في العالم مثل مسألة الحياة والعقل وغيرها وقطع دابر تعاليم الملحدين الذين مسخوا فطرة الأنسانية بتعاليمهم السامـة ، وسدّوا على الأفئدة منافذ الرجاء بما نشروه من ظلمات اليأس،وكسف الباطل .

هذه هي أهم أركان نظرية الروحيين ، ففحصها تجريبياً هو تطبيق الاسلوب العملي عليها والبحث عما إذا كانت مما يمكن إثباتها بالحس كما هو منطوق النظرية فتعد من ضمن العلوم التجريبية وتدخل في مصاف المعلومات الحقة ـ أم لا ،فتلفظ الى عالم الآراء والفروض التي تتناولها الشكوك وتتحكم فيها الريب. وأما فحصها

فلسفياً فهو مقابلتها بقوانين العلوم المنطقيه ليرى هل تتفق مع دستور العقل ولا تجافيه في شيء أم تتعالى عليه فيكون ذلك حجة للذين يدعون أن المصدقين بهذه النظرية مصابون بنوع من الخلل العقلي كما زعم ذلك في اول ظهورها كثير من رجال العلم، ومنهم الاستاذ الكبير أكبر علماء الجرائم (لوميروزو)،ثم رجع عن رأيه بعد ما فحص المشاهدات التي تؤيدها وكذّب نفسه في كتاب ألفه في ذلك.

وقد نقلنا عنه في الفصل الماضي من مبحث (ما وراء المادة) الجملة الجميلة التي ختم بها بحثه . أما فحصها أدبياً فهو النظر في مبلغ تأثير هذه النظرية على الآداب والأخلاق تعديلاً أو تضليلاً . فقد زعم في أول ظهورها كثير من رجال العلم أنها ستعيد سلطة الأوهام والخيالات التي كانت سائدة في القرون الوسطى وستحيي صناعة السحر والطلاسم التي أفسدت عقول العامة والخاصة قروناً طويلة ، وستؤثر تأثيراً سيئاً على العقل الأنساني الذي بذل العلم جهده في انقاذه من أنياب الأضاليل المظلمة والرموز الحالكة وأخرجه إلى عالم الوضوح والجلاء.

هذا ما كان يثرثر به بعض العلماء ولكن ظهر أن الأمر بخلاف هذا ، فقد شوهد أنها أنقذت من محارات اليأس نفوساً هلكى وخلصت من غمرات التعاليم المادية الإلحادية أفئدة غرقى ، ونشرت على الانسان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر نوراً ساطعاً أرته به أن للحياة غايات أكمل وأجمل من وقف القوى على الشهوات البهيمية ، وعدم المبالاة في جلب المال بإزهاق الأرواح البشرية .

وقد قوي هذا الرجاء في القرن العشرين فأصبح الناس ينتظرون إشراق عصر جديد يسترد الإنسان فيه من الدين الحق ضالة روحه ، وتسترجع نفسه باسم العلم من كرائم العقائد أنشودة فؤاده،حتى يستقيم على صراط الفطرة الصحيحة ، ويستثير من كنوز معناه جماله الإنساني ، وكماله الروحاني ، فيعيش على الأرض ملكاً في شكل إنسان ، لا جاناً في صورة حيوان . ومن يعش ير والسلام .

* * *

استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي

جاءنا من حضرة الوجيه الفاضل إبراهيم حسن أفندي بارود من أعيان (صور) من مدائن سوريا كتاب يقول فيه « من الاطلاع على (الإسلام في عصر العلم تبين أنكم نشرتم في (الحياة) كيفية التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح وبما أن كثيرين من قراء (الإسلام في عصر العلم) لم يطلعوا على (الحياة) فقد اقترحوا علينا أن نستمد منكم كيفية حدوث هذا العلم ومن الذي اخترعه ولأي درجة وصل اليها ، وهل حصل سؤال للروح المستحضرة عن البرزخ أي برزخ الأرواح وبأي هيئة كانت تحضر الروح . الخ » .

(الجواب) التنويم المغناطيسي كان عند المصريين الأقدمين ومستعملا في هياكلهم ، وكذلك في تاريخ الكلدانيين وغيرهم ما يدل على وجوده عندهم . أما في أوروبا فلم يظهر إلا سنة (١٧٧٥) بواسطة الدكتور الألماني (مسمر) فقد قرر بأن في الإنسان سيالاً مؤثراً سماه (المغناطيس الحيواني) لا يعرف كنهه ، ينبعث من الانسان بإرادته ويؤثر على الأشياء والاشخاص تأثيراً خاصاً . وقرر أن كل الناس متمتعون بهذا السيال المؤثر ولكن على اختلاف في الدرجات . فلقي هذا الدكتور من ملحدي زمانه ما يثبط الهمم ويهد العزائم لأنه كان ضد تعاليمهم ولكنه ثبت في مركزه وأخذ يطبب بواسطته المصابين بأمراض عصبية بواسطة التأثير عليهم به وإيقاعهم في نوم حقيقي . ولما كثر الكلام فيه قام بفحصه رجال من أهل العلم فصادقوا على قول مسمر ثم زاد أنصاره حتى صار فيه مثل الاساتذة الكبار شاردل و (شانييه)و (ده بوتيه) و (بريون) و (شاركو) ولم يزل هذا الفن يجاهد اضداده حتى فاز عليهم ودخل اليوم في العلم الرسمي. قال (جه. دولن) في كتابه (المذهب الروحي أمام العلم):« اما الآن فقد حصل في صالحه رد فعل عظيم . فإنك ترى الجرائد على اختلاف

صبغها وأماكنهـــا والمجلات الطبية مشتغلة بالمشاهد العجيبـة لفن التنويم المغنـاطيسي » .

وقال الاستاذ (شاركو) وهو العلم الفرد في العلوم الطبية في العالم « النوم المغناطيسي عالم تجد فيه بجانب المشاهدات المحسوسة المادية التي تنطبق على علم الفزيولوجيا أشياء أخرى خارقة للطبيعة لم يستطع أحد تفسيرها للآن ولا تنطبق على أي قانون تشريحي » .

هذه الخوارق للطبيعة التي يتكلم عنها الاستـــاذ (شاركو) تثبت وجود الروح بطريقة لا تحتمل الشك . قال الاستاذ (بيو) في كتابه (المخاطبات على المغناطيس الحيوي : « النوم المغناطيسي يثبت وجود الروح وخلودها ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسية بالمادة » .

اليك محاورة بين منوّم ومنوّمة نقلها الاستاذ (شاردل) المذكور آنفاً . قالت المنومة : هل تسمع ما يأمرني به ؟ فقال الدكتور من هو الذي يأمرك ؟ فقالت: هو ، ألست تسمعه ؟ فقال: كلا ، لم أسمع شيئاً ولم أر أحداً . فقالت : حقيقة ، لأنك نائم أما أنا فيقظى . فقال لها الدكتور : كيف ذلك ؟ أتدعين أني نائم وأنك يقظى مع انك تحت تأثير إرادتي في الحالة المغناطيسية ، انك تتوهمين أنك يقظى لكونك تكلمينني وأنك متمتعة بنوع من الإرادة ولكنك في الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحي جفنيك. فقالت: إني اكرر لك القول بأنك أنت النائم، وأنا بالعكس اليقظى تماماً على مثل الحالة التي سنكون عليها جميعاً يومـــاً ما . لأفسر لك ذلك : ان كل ذلك الذي تستطيع أن تراه أنت ليس إلا أشكالاً غليظة مـــادية فلا يمكنك أن تميز إلا أشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقي محجوب عنك تماماً . أما أنا في حالة وقوف وظائف أعضائي الآن وفي حالة حرية روحي من علائقها الاعتيادية فإني أرى ما هو مستور عنك، وأسمع ما لا يمكنك سماعه وافهم كل ما هو غير مفهوم عندك . الى أن قالت : واني بمجرد الإرادة أستطيع أن أسمع الأصوات البعيدة عني ولو كان بيني وبينها مائة فرسخ

وبالأختصار فإني لا أحتاج أن تأتي الأشياء اليّ بل أنا أذهب اليها حيثما كانت وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم به عليها أي إنسان آخر لا يكون في الحالة التي أنا عليها . اهـ (١)

ونقل الاستاذ (اكزاكوف) في كتابه (المذهب الروحي وفن استحضار الارواح) ان زوجة الاستاذ الانجليزي الشهير (دومرجان) معتادة على تنويم سيدة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب الى المحل الذي تعينه لها . فقالت لها يوماً وهي تحت تأثير المغناطيس : اذهبي الى منزلي الذي كنت اسكنه سابقاً . فقالت المنومة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة. قالت زوجة الاستاذ : فذهبت في اليوم التالي لأتأكد من صدقها وسألت عما حصل في تلك اللحظة فاجابني السكان بأنهم سمعوا طرقاً شديداً على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا أحداً فعلموا أن ذلك فعل اشقياء الاطفال . يقول الاستاذ (اكزاكوف) ان هذه الحادثة وامثالها تثبت بطريقة لا تقبل الشك ان للروح وجودا متميزاً عن المادة وانها تستطيع ان تعمل ما يعن لها بنفسها .

★

كتب الينا حضرة الأستاذ الشيخ محمد أحمد الألفي من طوخ القراموص يقول: « هل مستحضرو الأرواح سألوها عن كنه الروح وعلاقتها بجسد الانسان ؟ هل سألوها عن العذاب والنعيم الاخروي ؟ هل سألوها عن الأديان الصحيح منها والفاسد ؟ هل في امكانهم استحضار أرواح الانبياء والملائكة والجن ؟ هل سألوها عن المباحث الكثيرة التي تجل عن الحصر بين علماء الاديان والعمران ؟ »

الجواب استحضار الأرواح التي ظهرت في العالم الغربي سنة ١٨٤٧ تعد أكبر مدهشات العلم البشري فلا غرو ان استلفتت انظار النوع الإنساني باسره وأصبح

---

(١) هذا مما يفسر الحديث الشريف « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

لها من الأتباع ما ينوف عن العشرين مليوناً ، ودخل فيها العلماء والكتّاب والسياسيون افواجاً افواجاً مثبتين ابحاثهم وتجاربهم في أكثر من مائتي مجلة خاصة . هذا عدا عما يكتبونه في المجلات العلمية والجرائد اليومية . وكيف لا يكون لهذه المسئلة هذه الأهمية الكبرى وهي التي هدمت أصول الالحاد وقوضت دعائم العناد وصدت تيار العلم المادي في أشد جماحه وأبطلت بالحس دعوى الماديين الذين انكروا العالم الروحاني والخلود وحشروا الإنسان في مصاف الحيوانات العجماء بل جعلوا مصيره كمصير النباتات يولد وينغذى ويتوالد ثم يموت وتتلاشى اجزاؤه في ذرات الأرض ويذهب الى حيث يذهب كل شيء .

هذه التعاليم السامة كم جرحت من فؤاد، وكم طعنت من حشاشة، وكم قرحت من عيون واجفان ، كم باتت أم فقدت فلذة كبدها تتلظى على تنور اليأس من عود رؤيته ، وتضطرم على غضا القنوط من احتمال بعثه ، لا جرم قد شوهت هذه التعاليم حياة الانسان تشويهاً جعل فؤاد المتشبع بها منساباً لذمائم الصفات، ومسرحاً لأقذار الدنايا ، ومرتعاً لشياطين الأميال البهيمية التي يستحيل أن تجتمع كلها في أسفل حيوان .

هذه الصفات كلها وخلو الفؤاد من الراحة والطمأنينة لا تمنع ما نشاهده من هذا الرقي الصناعي المدهش في هذه المدنية الساحرة بل هي من أقوى البواعث اليه ، لأن النفس متى حصرت في اقفاص السآمة وأحيط بها في مضائق القلق تتطلب الخلاص بكل حيلة ووسيلة، وبما أنها يئست من روح الدين وقنطت من السبح في سبحات أنوار العقيدة فلا تجد لها مناصاً إلا عالم المادة بإعطاء الحواس الجثمانية غاية ما تستطيع الشعور به من لذة جسدية .

تخيل أمماً هذا شأن أرواحها من التعطش الى العقيدة ، وتلك حالتها من اليأس من وجود الأدلة لدحض مزاعم الفلسفة الحسية التي اهم أصولها لا تصدق حتى تحس ، قلنا تخيل أمماً هذا شأنها من الحرمان من أشرف مسليات النفس وأكرم معزيات العواطف وهو الدين، ثم تصور كيف يكون حالهم لو ظهر فيهم

قائل يقول : ان أرواح الموتى يمكن أن تظهر للاحياء في شروط خاصة وتأتي من العجائب ما لا يمكن الوصول اليه بالوسائل المحسوسة ولا ينطبق على نواميس الطبيعة . قل لي كيف تكون حال أولئك الغرقى في لجج اليأس الذين يطلبون مخلصاً مما هم فيه من أي سبيل كان ؟ لا شك يحدث فيهم هذا القول رجة كبرى وحركة عظمى تستفز علماءهم لفحصها وبحثها ، أملا في اعتقادها أو دحضها . وقد حصل ذلك ، فانه لم يمض على هذا القائل خمسون سنة حتى أصبح مذهب مكالمة الأرواح من الأهمية بالمكان الذي وصفناه لكم وسنزيده وصفاً إن شاء الله .

هذه الملايين العديدة الذين كانوا بالأمس لا يصدقون بشيء لا يكون شأنهم حيال هذه المسألة المدهشة كشأننا نحن معشر الذين نعتقد بعالم الأرواح والملائكة والجن ، أي انهم لا يكون شغلهم في مبدأ الأمر الا التحقق من حصول ما يحصل بدون غش أو آلات دقيقة كما هو شأن المشعوذين ، ولذلك تراهم صرفوا هذه المدة كلها في هذا البحث وهو كما لا يخفى الأصل الذي يجب الوثوق به مبدئياً .

هذا هو حال من ننقل عنهم من العلماء الكبار والفلاسفة المحققين وهم الذين نثق بهم ونطمئن لبحثهم لاستبعادنا وقوعهم في أشراك الحيل ، واكبارنا غفلتهم عن دقائق الآلات التي يحتمل أن تستعمل لذلك . أما من لا نهبهم مثل هذه الثقة من رجال السياسة والكتاب والمحامين وغيرهم ممن يكفيهم من البراهين ما لا يكفي الأولين فلهم بالنسبة لما سألتمونا أقوال يطول بسطها ، ولكننا لم ننقل عنهم لليوم شيئاً من ذلك لأنه لا ينطبق على أسلوبنا في ابحاثنا : فاننا بصفتنا مسلمين مخاطبين بهذه الآية الكريمة « وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » يلزم ان يكون قسطاسنا أدق من كل قسطاس ، فلترونا لا ننقل الا عن مثل (فلامريون) و (أوليفيه) و (جيبيه) و (ودوروشاس) من الفرنساويين ، و (زولنر) و (أولتريسي) و (بير) و (فيشنر) من الالمان ، و (كروكس) و (وولاس) و (فارلي) و (دومرجان) و (اكسن)

و (شمبير) و (جللى) من الانجليز ، و (ماب) و (هار) و (إدمون) و (اليوت) من الامريكان الخ الخ الخ وكل واحد من هؤلاء ركن من أركان النهضة العلمية الاوربية وعمدة كبير في العلم الذي يبحث فيه ، ولا هم لهم جميعاً من بحث هذا المذهب الا التحقق المطلق من حصول تلك الخوارق بغير وساطة الغش والتدليس وانها آتية من عالم روحاني محض . على ان منهم من اكتفى بالبراهين التي لديه واعتقد بانها الارواح حقيقة ، ومنهم من نسبها لعالم روحاني آخر ومنهم من توقف عن الحكم حتى يتم انجلاء المسألة تماماً . منهم الاستاذ (كروكس) أكبر كيماوي الانجليز فتراه بينا يؤكد صحة تلك الخوارق وانه لا دخل للتدليس فيها فيخطب في الجمعية العلمية الملوكية قائلاً (أنا لا أقول ان هذا ممكن بل أقول هو ثابت محقق) تراه من جهة أخرى لم ينطق لليوم باعتقاده بانها أرواح الموتى أو ان تلك الروح التي تجسدت أمامه وفحصها في منزله في تجاربه الخاصة هي حقيقة روح الشخص الذي اخبرته انها روحه مع انه وصف تلك المشاهدة المدهشة في ١٩ صفحة من كتابه الذي ألفه بالانجليزية وطبع اثنتي عشرة مرة بالفرنساوية وهذا نعده من التبصر الجدير برجال العلم .

أما ان أردتم موجزاً من أقوال غير هؤلاء القادة في اعتقادهم في المسائل التي وجهتموها الينا فأليكم : انهم يعتقدون أن الروح سر إلهي لا يدرك له كنه ولكنه متلبس بجوهر نوراني ألطف من المادة على شكل الجسد وهو الذي يربطه به الى حين . ويقولون ان الأرواح إذا ارادت الاختلاط بالناس تظهر لهم بهذا الهيكل الشفاف وإذا أرادت التجسد تجسدت بواسطته فأن فيه خاصية تكوين جسد له في ساعته وافنائه في ساعته أيضاً، وذلك بواسطة المادة التي يستفيدها من جسم الواسطة التي تحضر الروح بوجودها ويكون فيها استعداد لذلك .

أما النعيم والعذاب فهم يعتقدون أنها أمور معنوية محضة ، فالنعيم شعور بسعادة وصفاء والعذاب شعور بألم وتندم .

أما الأديان فقد أرشدتهم تلك الكائنات إلى ما يكاد يوافق الاسلام بأن حذرتهم من عصيان العقل والتعداد في ذات الصانع تقدس وعــــلا ، وأمرتهم بترك الظنون والاوهام في العقــــائد ، وأرتهم ان الوحي حق الانبياء بلا تفرقة بينهم من تكذيب أحدهم وتصديق الآخرين ، وأريد بهذا أن كثيراً منهم آمن بخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما نعتقد أنه أحسن نتائج الاسبرتزم وسنترجم لكم ان شاء الله في الجزء المقبل تفصيلات جليـــلة في شأن قربهم الى الإسلام وايمانهم بنبينا عليه الصلاة والسلام .

* * *

اقتراح من مجلة المنار

اقترحت علينا (مجلة المنار) الغراء أن نذهب الى أوروبا ونفحص بأنفسنا مسألة استحضار الارواح وقالت ان ذلك أمنية الكثيرين ، ونحن نشكرها ونشكرهم على هذه الثقة بنا الا أننا نرى أن الأفضل من ذلك أن نتعقب نتائج ابحاث العلماء فيها ومقارنتها ببعضها كما نفعله في كراسة (ما وراء المادة) نقلاً عن كبار رجال العلم في العالم لتنجلي لنا ان شاء الله من وراء ذلك حقيقة المسألة من مجموع تلك المجهودات المجتمعة . ولا يظنن القارىء ان بحث هذه المسائل من السهولة بحيث يستطيعه أحدنا في أثناء سياحة واحدة أو سياحتين إلى تلك البلاد . كلا فإن الذي يريد أن يطبق عليها أسلوب العلم العملي لا تكفيه في ذلك السنة ولا السنتان درساً وتجريبا مع الانقطاع لها تماماً . ومن العلماء الذين ننقل أقوالهم من بحثها نحواً من ٣٥ سنة مثل الاستاذ الطائر الصيت (وليم كروكس) الانجليزي ، ومنهم من فحصها في ١٥ سنة مثل العلامة (اوكسن) ومنهم من زاولها اثنتي عشرة سنة مثل الاستاذين (هودسن) و (هيزلواب) واخوانها من اعضاء جمعية المباحث النفسية . وكتب الاستاذ الجيولوجي الانجليزي (باركس) في مجلة (اتليلس اوف انفستجيشن انتومودرن اسبرتو اليزم) يقول: انه قبل ان يعتقد حقية الاسبرتزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه أو في دحضه وجادل كل متكلم فيه ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشر سنوات . قال وبعد هذا كله استطعت ان اتكلم في مشاهداته واخطب بعلم ودراية .

لهذا لا نجد من الفراغ ما يسمح لنا ببحث هذه المسائل بانفسنا فلنستفد من غيرنا ممن وقفوا حياتهم لها ، وليس من الحكمة ان لا يصدق الإنسان الا ما يراه بنفسه فـأن عمره لا يكفي لسبر غور فن واحد فما بالك بمجموع المحاولات الانسانية كلها . واي شهادة على صحة الخوارق الروحية اكـبر من نقل اقوال الذين كانوا بالامس يفخرون بانهم ماديون فأصبحوا يصيحون بانهم كانوا مغرورين وانهم أصبحوا مؤمنين بيوم الدين .

* * *

باب المسائل

(١)

كتب لنا حضرة الشاب المهذب الغيور أحمد حمدي بك أحد طلبة مدرسة الطب المصرية يسألنا رأينا في نتيجة المناظرة التي ثار ثائرها بين متخرجي مدرسة الطب أيام كانت دروسها تلقى باللغة العربية وبين متخرجيها بعد دخولها في شكلها الجديد أي بتدريس العلوم فيها باللغة الأجنبية . يسألنا حضرته بصفته أحد المتناظرين في هذا الموضوع ممن كتبوا فيه المقالات الضافية الذيول في المؤيد وكان لمقالاته تأثير كبير اختلفت آثاره على الجمهور .

نقول أننا تتبعنا حركة تلك المناظرة بين الفريقين تبعاً أتاح لنا الإشراف على جهات القوة والضعف في كليهما على قدر ما وصل اليه علمنا ونستطيع اليوم بغاية السهولة أن نكتب عنها نبذة انتقادية نسرد فيها صواب الفريقين وخطأهما وندعوهما بعد ذلك إلى الصلح والوئام من أعم غاياتها كما يفعله الحكم الذي يعين للفصل بين متقاضيين . ولكننا نرى ذلك عديم الفائدة ولا ينطبق على أسلوبنا في ابحاثنا فإننا لا نود أن نصرف مجهوداتنا إلا على العموميات التي تتدرج فيها الجزئيات اندراج الفرع في الأصل ، أي أننا لا نحب أن نشتغل من كل مسألة إلا بدستورها الأساسي الذي تتنزل منه القوانين التي تسيطر على الجزئيات على كثرة أشكالها وتطوراتها . وبما نأ السؤال الذي نحن بصدده يتعلق بالمدارس ونظامها فقد رأينا أن نأتي على فكرنا في العلم والتعلم والتعليم أي على الدستور الذي يجب أن تنطبق أصوله عليها ، ومنه يعرف قراؤنا رأينا على كل مسألة من هذا القبيل .

لا مشاحة في أن في الأمة نهضة إلى التعليم وحركة تزعجها إلى التربية تشبه نهضة المريض إلى تعاطي الدواء وحركته لتنسم نسمات الشفاء، ولكنا مع اعجابنا بهذه الروح الجديدة نرى أنفسنا واقفين أمامهـا موقف الوجل وهو تناقض في الشعور ليس تفسيره بالأمر الصعب . فأما الإعجاب فلكوننا أمام نهضة دافعة وحركة سائقة تشير إلى أن فينا نوعاً من الحياة ، وأما الوجل فلمعرفتنا بأن ما كل دواء بدواء ، وان أنكأ ما يصيب المريض في علته دواء لا يلائم حالته ولا يناسب مزاجه لأنه لو ترك ونفسه فربمـا تغلبت قوة الحياة الكامنة على اعراض المرض وأصوله فأجلتها عن الجسم بدون علاج ، وأما الدواء غير المناسب فإنه إن لم يؤخر الشفاء فربما أمد مادة المرض وقوى تيار العلة وأودى بالحياة على صفة لا تنتظر .

في الشرقيين ناس يتهمون نتيجـــة التعلم ويذمون أثره ويقيمون على صدق مزاعمهم كثيراً من البراهين ويسردون لذلك عـــدة من الاحصائيات ، يقول قائلهم مثلاً : أنظر إلى البلاد قبل ظهور المدارس وعـد ما كان فيها من محلات المسكرات والملاهي والمواخير والقهاوي ثم انظرها اليوم وعـد ما شيد فيها من قصور المقامرة والفسوق والشراب وانظر إلى القهاوي واحسب إن استطعت من يتردد عليها من أبناء البلاد وما يسيل من جيوبهم فيها من اللجين والنضار وما يستهلك فيها من خلايا الحيـــاة ، تجد الأمر مما يذيب الفؤاد أسى ويذهب باللب كمداً . ثم يقول لك أنظر إلى أصحاب الأطيان الواسعة من الفلاحين كيف استهواهم زخرف المدارس فحشروا اليها أولادهم زمراً زمراً فنشأوا على صفة لا تتفق مع حالة عائلاتهم فغادروا الزرع والضرع وكلفوا بخدمة الحكومة بدل ان يحلوا محل آبائهم في القيام بتدبير ثروتهم الطائلة وافتتنوا بمعاهد البلاد الأجنبية فأموها أفواجاً أفواجاً يذهبون ثقالاً فيعودون خفافاً حتى أثقـــل الدين كاهل الأطيان وأصبح أكثر من ثلاثة أرباع البلاد رهناً لعدة من المرابين، وصار همّ الفلاح سواء كان صغيراً أو كبيراً ، بذل مهجـــة الفؤاد في الشغل في سبيل (البنوك) فكانت نتيجة المدارس والحالة هذه تبديد ما جمعه الآباء والأجداد وازهاق روح

البلاد. ولو قلتَ لهذا القائل ليست هذه نتيجة المدارس ولكنها أثر البذخ الهائل الذي سرى ميكروبه فينـــا ودفع الناس لتقليد الأجانب في زخارف المدنية الجديدة لصاح بك على الفور قائلاً : ومن أين سرى لنا هذا الميكروب وما هي الخلية الأولى التي أصابها فعدت الينا عدواها ؟ أليس ممن تربوا في المدارس وزعموا أن لا حياة لهم إلا في التقليد والانطباع بالطابع الجديد؟ هب انهم لا دخل لهم في ذلك فأين اثرهم في إيقاف هذا التيار ؟ ولماذا نراهم اطوع من الجاهلين إلى تقحم هذا العار ؟

هذا ما يقوله غير واحد من المغرمين بالبحث في الشؤون العامة يوافقه عليه الكثيرون . ولكنه لا أثر له في إيقاف تيار الاندفاع في التعليم وربمـا كان ابن هذا المعترض الشديد الشكيمة من ضمن طلبة احدى المدارس وأول المسوقين للتقليد ، مما يدلك على أن في الأمة سوقاً قسرياً إلى الحركة ودافعاً ذاتياً يدفعها عن الوقوف . فالأمة في مثل هذه الحالة في غاية الحاجة إلى أطبائها العمرانيين الذين يهدونها إلى أمثل الطرق التي يجب اتباعها في حركتها الجديدة لئلا تكون كالمريض يدفعه الكلف بحياته إلى تلمس الدواء لعلته فيسلك له الطرق الموبقة ، ويلقي بنفسه بين يدي كل من شام منه بارقة العلم ولم يتئد في الدواء الذي يعطى اليه ليعلم ان كان معلوم التركيب أم مجهوله ، على نسب مضبوطة بين العقاقير أم معمولاً كيفما اتفق .

إذا دخلت الأمم من حياتها في مثل الدور الذي نحن فيـــه كان من أهم واجبات أطبائها العمرانيين القيام لقيادة حركتها إلى طريقها الأمثل صيانة لها من أن تذهب قتيلة أشرف عواطفها، وهي عاطفة طلب العلم. وليس هذا بعجيب فرحم الله شيخ المعرة حيث يقول :

أفضل ما في النفس يغتالها * فنستعيذ الله من جنـــده

هذا الدور من الأمم يشبه دور البدء في الأكل للاطفال وهو دور حرج جداً يودي بحيـــاة أطفال لا يحصى لهم عدد من جراء جهل أهليهم بقوانين التغذية .

والأمة في هـذا الدور لا تفترق من حيث حرج المركز عن أولئك الأطفال في شيء. فكما أن الطفل متى دخل في ذلك الدور ينشأ فيه ميل لتناول كل ما يعطى اليه من غير تمييز لما يضره أو ما ينفعه– كذلك الأمة في مثل هذا الدور من حياتها تدفعها الضرورة الاجتماعية ويظهر في أفرادها سائق شديد لتغذية أفكارها بالعلم والمعرفة من غير تفرقة بين ما يضرها وما ينفعها منه . وتكون النتيجة عليها من جراء ذلك صلاحاً أو فساداً مثل نتيجته على الطفل سواء بسواء . فكما أن هذا يلتهم كل ما يقدم إليه مهما كان نوعه ويزيده الإفراط وعدم التدبير نهماً فيفرح بذلك أبواه الجاهلان ظناً أن ذلك مما يكسبه قوة وصحة فيخيب ظنهما عندما يريان أعراض النزلات المعدية والمعوية قد ساقته إلى أحرج المواقف بالنسبة لصحته كذلك الأمة تزداد في هذا الدور نهماً للعلم وشرهاً للمعرفة فيفرح بذلك محبوها ممن ليس لهم بصيرة في تربية الأمم، فلا يلبثون إلا عشية أو ضحاها حتى يروا أن النتيجة قد جاءت على غير ما ينتظرونه من نجاحها في ميدان الحياة، فيقفون حيارى أمام هذا المنظر المدهش ويذهبون في تعليله كل مذهب . والحقيقة هي ما نقول من أنه يجب مراعاة التناسب التام بين سن الأمة ونوع العلم الذي يلقى إليها . أنا لا أنكر أنه يوجد من الناس من يشك فيما نقول ولكنهم بذلك يمثلون الآباء والأمهات الذين يهزأون بقول الطبيب إذا نصحهم بتقليل الأطعمة الدهنية لولدهم أو بقطعها عنه بالمرة لأمد معين، ويقولون: كيف ينصحنا هذا بعدم إعطاء ولدنا لحماً وهو الغذاء المقوي الذي لا يعادله غذاء آخر في إيجاد القوة والعافية، فيستمرون على أسلوبهم في تغذيته فتزداد حالته خطراً يوماً بعد يوم، وحين يحسون بسوء المغبة يودون أن يدعوا بأمر الطبيب ويبتدئون في قطع ذلك الغذاء عنه، ولكن هيهات، فإن النهم والشره يكون قد بلغ من ولدهم حداً لا يستطيعون معه منعه بوجه من الوجوه، ولا يزالون يتحملون منه أشد العذاب حتى يموت قتيل عدم مراعاتهم التناسب في تغذيته . هذا حال الطفل، ومثال الأمم في مثل هذا الدور لا يفترق عنه في شيء . وهل المصريون اليوم إلا أكثر الناس مشاهدة لنتائج عدم مناسبة التعليم لبنيهم لما يرونه يومياً من المرائي المحزنة والآثار السيئة.

فلا غرو بعد هذا إن رأينا الأمم الراقية تلقي بنفسها بين يدي علمائها العمرانيين ليقودوها إلى الطريق الذي يؤديها إلى الحياة الكاملة بما وصلوا إليه من العلم . فإن حياة الإنسان الشخصية والعمومية تابعة لقوانين ثابتة وسنن مقدرة « قد جعل الله لكل شيء قدراً » . وقد وهب الإنسان القدرة على البحث عنها ومعرفتها ، بخلاف الحيوان فإنه مطبوع على قوانينه فما دام لا يبحث عن تلك السنن لينصاع لأحكامها فيكون قد أراد أن يشبه الحيوان ، فيعيش كما يجيء لا كما يجب ، وتكون حياته سلسلة من حوادث مضطربة وهو بينهما كالريشة في مهب العواصف يسخط على بخته ويشكو مصائب الدنيا بينما تكون الأمم المجاورة له ممن هدوا إلى سنن الحياة في صفاء من العيش فيذهب فكره المذاهب المختلفة وربما كفر بعقيدته الحقة من جراء ذلك مع أن دواءه فيها ، أليس يقول كل يوم « اهدنا الصراط المستقيم » و « لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

لهذا نرى من واجبنا انتهاز فرصة السؤال المتقدم لإيراد دستور التعليم قياماً ببعض ما يفترض علينا في مثل هذه الأحوال وإذا رأى قارئنا خروجنا عن دائرة الموضوع فلنا العذر البين في ذلك وليتنظر المقالة لآخرها فربما وجد فيها بلال الغلة وشفاء العلة إن شاء الله تعالى .

* * *

باب المسائل

(٢)

سألنا طالب نجيب عن فكرنا في موضوع المناظرة التي حصلت في جريدة المؤيد بين طلبة مدرسة الطب قبل نظامها الجديد وبعده، وقد أجبناه في الملحق الماضي ووعدناه بإيراد دستور التعليم وهو بحث سيرمي إلى مدى بعيد ويطوح

بنا الى كثير من المسائل العمرانية ولكنا نرجو من ورائه فـائدة كبرى ان شاء الله فنقول :

الغرض من تعليم الأمة هو هداية أفرادها الى سنن الحياة وتعليمهم أساليب المكافحة والجهاد في هذا العالم ليصلوا بذلك الى ما قدر لهم من سعـــادة مادية وأدبيـــة ويؤدوا الأمة بمجموع مجهوداتهم الى حالة من الوجود تكون فيه قادرة على حفظ استقلالها وشخصيتها في وسط هذا المعترك الحيوي الهـائل . إذا ثبت هذا فيكون من الواجب أن يعلم القائمون بالتعليم والداعون اليه ماهية الأمم وموتها ليكونوا في تعليمهم الأمة على بينة مما يحاولون ويرمون اليه تحاميـاً من أن يأتوا البيوت من غير أبوابها فلا تكون لأعمالهم نتيجة أو لها نتائج مضادة لما كانوا ينظرون ، ولذلك نقول : أثبت لنا علم العمران أن الأمم كالأفراد تولد ثم تدخل في دور الشبوبية وتبلغ أشدها ثم تكتهـل فتقف عن النمو ثم تهرم ثم تموت لا محالة « لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستـأخرون ساعة ولا يستقدمون »وأن أردت نص هذا الناموس من علم العمران فإليك: قال(درابر) استاذ بكلية نيويورك بأميريكا « الأمة كالفرد تولد على غير علم منها وتموت على كره منها وكثيراً ما تموت وهي تكافح الموت وتقاومه . فالحياة العمومية إذن لا تفترق عن الحياة الشخصية الا في كون مداها اطول ومدتها أفسح . ولكنها مع هذا لا تستطيع أبداً أن تتخلص من شرب ذلك الكأس المحتم،فكل أمة متى نظر اليها من هذه الوجهة التاريخية فلها طفولية وشبوبية وكهولة وشيخوخة ، هذا إذا لم يعترضهـا عارض فيمنعها من متابعة سيرهـــا الطبيعي في أدوار حياتها » انتهى.

كما أن للفرد الواحد في كل دور من أدوار وجوده شأناً خاصاً يستدعي عناية خاصة وتربية خاصة بحيث لو جهله القائم بالتربية لنشأ الفرد على صفة ناقصة أو لمات وتلاشى قبل بلوغ كماله النوعي ، فلا مشاحة في أن للامم مثل ذلك بـــل خطب الأمم أشق وأصعب . وكما أن إدراك دقائق التربية الفردية لا يحسنه إلا

رجال انقطعوا لها وتعمقوا فيها يسمون الأطباء ، فكذلك تربية الأمم تستدعي أن يكون لها عرفة خبيرون وأطباء نطاسيون ، وهم كما ثبت من التاريخ الأنبياء والمرسلون ومن أخذ أخذهم وحذا حذوهم من كبار أفراد النوع الإنساني . هذا من البداءة المسلمة لدى الأمم الحية فتراها تحبو أولئك الرجال من رسوم الاجلال والإعظام ، وتؤدي لهم من واجب الطاعة والإكرام ما تضن به على ملوكها وقادة مصالحها، وفي تاريخ آبائنا الأولين في حبهم لعلمائهم العاملين وما يفعله أمام أعيننا الأوروبيون من أكبار أطبائهم العمرانيين عبرة للمعتبرين .

ما هي حياة الفرد الواحد وما هو موته ، وما هي حياة الأمة وما هو موتها؟ يقال ان ذلك الإنسان حي إذا كان فيه ذلك السر الآلهي المسمى(روحاً) ويستدل على وجوده فيه برؤية أعضائه مؤدية وظائفها الخاصة على النحو الذي خلقت لأجله بأن له احتباراً وإرادة . ويقال إنه ميت إذا لم يكن فيه ذلك السر الآلهي بأن كانت أعضاؤه واقفة عن تأدية وظائفها وإرادته واختياره معدومين .

ويقال أن هذه الأمة حية إذا كان لها رابطة تربطها وتضم آحادها وتوجه كل أميالهم وعواطفهم الى غاية مشتركة ، ويستدل على وجود الرابطة العامة فيها بشعور كل فرد منها بمجموعه ووجود نفسه مسوقاً ومرغماً على التفكر في أمته واشتغال باله بامورها الخاصة والعامة ، ومدفوعاً بدافع قاهر للعمل على ما يجعلها متمتعة بأرقى ما يمكن من سعادة مادية وأدبية . وبالعكس يقال ان الأمة ميتة إذا لم يكن لها رابط يربطها لا ديني ولا جنسي وكان كل فرد منها مشغولاً بنفسه لا يتعدى همه محيط جثمانه ، يائساً من رقيها وفلاحها ، قانطاً من عواملها الذاتية وحياتها الكامنة ، ومتهافتاً على التبرؤ من الاعتزاء اليها والانتساب الى أصلها ، وأدل دليل على أن أفرادها كذلك أن لا نرى لها اختياراً ولا إرادة ، ومن أين لها ذلك واختيارها هو مجموع اختيارات أفرادها ، وإرادتها هي ملتقى قوى إرادتهم ، فتكون أمثال هذه الأمة والحالة هذه مرغمة على الدخول في كل

شكل تقاد اليه وتدفع فيه ، وترى نفسها مرغمة على قبول أي حال تساق له وتزج اليه .

وكما أن علوم الطب عاجزة عن إعادة الحياة للشخص الميت فكذلك يعجز علم العمران عن إرجاع الحياة الى الأمة الميتة (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) .

هذا هو معنى الحياة والموت في الآحاد والأمم فهل نحن أمة حية ؟

★

هل نحن أمـــة حية ؟

نعم نحن أحياء في المجموع ولو كان بعض أعضائنا قد اصيب بشلل اجتماعي عسير الشفاء لأنه ما دامت الحياة كما قررنا من علم العمران هي الرابطة فلا يزال شق عظيم منا، وهم العامة وأصحاء الخاصة، لهم رابطة قوية وهي الدين وإن كان مشوباً بما ليس منه ، لأن المدار على وجود الرابطة لا على نوعها . وفي العـــلم الاجتماعي أن شرذمة من اللصوص التي تضم آحادها رابطة السلب والسبي أحياء وأصلح للبقاء من أي طائفة أخرى لا رابطة لها، ولو كانوا من العلم والتهذب في المكانات العلى . العلم يسم الأولين بالحياة مهما كان نوع رابطتهم ويصم الآخرين بالموت مهما كانت صفاتهم ومزاياهم، لأن محض انضمام الأولين وتلاصقهم يبعثهم بحكم قانون الترقي لترقية نوع اربطتهم . أما الآخرون فمحض عدم التئامهم يقضي عليهم بالتنابذ والتخالف أو بالأقل يشتت مزاياهم شذر مذر فلا تؤدي لغاية ثابتة . وطبيعة الحياة الانسانية تأبى هذا النحو من البقاء فيفنيهم الخالق حفظاً لنظام الوجود وصوناً لدستور الخليقة .

اليك مثالاً باهراً يصور لك كيف تترقى روابط الأمم تحت تأثير ناموس

الرقي العام : لما حاصر قدماء اليونانيين في القرن الثامن قبل الميلاد مملكة ترو ادة عشر سنين ثم أحرقوها بالنار تفرق أهلوها شذر مذر ، فجاءت شرذمه منهم الى جهة من ايطاليا على بحر الأدرياتيك وألقوا بها عصاهم ولم يكن يربط آحاد تلك الشرذمة في ذلك الحين إلا أبسط الضرورات الماشية التي كانوا ينالونهـــا من الغارات على الأمم المجاورة لهم . ولما اطمأن جانبهم وأمنوا الهلاك جوعاً مالوا لأن يكون لهم نساء كما هي سنة الطبيعة فلم يجـــدوا طريقة أمثل في نظرهم من السبي فأعلنوا الأمم المجاورة بأنهم سيحتفلون بعيد لهم وسيظهرون فيه من عجائب الألاعيب وفنون الفروسية ما يرتاح اليه البصر وتنبسط منه النفس . فهرع الناس الى المكان الذي عينوه نساء ورجالاً وأطفالاً ، فإنهم لمجموعون يتفرجون وإذا بفرسان تلك الشرذمة انقضّوا على النساء انقضــاض النسور على فرائسهـــا واختطفوهن من بـين يدي أزواجهن وآبائهـن خطفاً وفروا بهن إلى معاقلهم وغيرانهم . ومضت عليهم القرون فتناسلوا وكثروا وصاروا أمة أغارت على من حولها فدوختهم ولم تزل تلتهم الأمم والشعوب حتى صارت أكبر أمة ظهرت في العالم بعد الأمة الإسلامية وأصبحت تدعى امة الرومـــانيين التي لم تزل علومهـــا ومعارفها تدرس في مدارس العالم لليوم .

هذه النظرة التاريخية تدلك دلالة محسوسة على أن المدار في حياة الأمم على وجود رابطة ما تضم آحادها ولا عبرة بنوعها ، فإنها تترقى على مدى القرون حتى تصل لأرقى ما يتصوره العقل. ومن يتصفح تاريخ الأمم ير أن كثيراً منها إرتقى من رابطة اللصوصية الى أرقى رابطة اجتماعية جنسية .

إذا أسسنا هذا الأصل ساغ لنا أن نقول ان أحياء طائفة في أمتنا اليوم هي طائفة العامة ، فإن لها رابطة عظمى هي رابطة الدين وإن كانوا أدخلوا اليه ما ليس فيه أو أدركوه على غير حقيقته وذهبوا به عن نقـــائه الجوهري . فهم والحالة هذه أصلح للبقاء من أهل الخـــاصة الذين انسحروا بزخارف الصنـــاعة الغربية وخلعوا أطواق الدين من أعناقهم وأصبحوا لا يعرفون لهم رابطة تربطهم

ولا وشيجة تضم اشتاتهم ، وأضحوا واليأس قرين عقولهم ولزيم عواطفهم . ولو ترك العامة وشأنهم لارتقوا بحكم القانون العمراني الى أرقى درجة من درجات الإجتماع ، ولكن هل يستطيعون أن ينجوا من غوائل خاصتهم ؟

★

العامة والخاصة

العامة في كل أمة من أمم المسكونة تبع لأهل الخاصة في عقائدهم وعاداتهم ومدركاتهم ، ونريد بالخاصة من رفعه العلم أو المال الى منصة ممتازة . أما السبب في كون العامة تبعاً لأهل الخاصة فهو لأن هؤلاء بوجودهم في مقدمة الأمة يكونون عرضة للالتيات قبل غيرهم بالاصابات الاجتماعية والفتن العمرانية . والنظر المجرد في تواريخ الأمم البائدة يرينا ان الداء الذي لاشاها لم يأتها إلا من قبل أهل خاصتها . فالالحاد الذي ثل عرش ملك اليونان وفساد الأخلاق الذي نسف صرح الرومان كان منشأه الخاصة ثم سرى منهم الى العامة وقد أشار الله تعالى الى هذا القانون الاجتماعي الكبير بقوله « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وقوله تعالى « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .

أما إذا أراد الله أن يتدارك أمة برحمته فيعيد اليها الحياة فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامة لأنهم لبعدهم عن مناشىء الفتن الاجتماعية يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد العمراني من أهل الخاصة ، فإنه في الوقت الذي يكون فيه الترف والبذخ قد استوعب قوى أفراد الطبقة العليا من الشعب ترى أنه لم يزل في الطبقة الدنيا رجال أحياء لم تصبهم جراثيم الفساد مطلقاً ويصلحون لأن يكونوا مواداً أولية تبنى بهم بنية جديدة للأمة ذات مزاج غير مزاجها الأصلي . ومن يتصفح تاريخ العالم ير أن كبار المصلحين وخصوصاً الرسل عليهم السلام لم

يطأمنوا من كبْر الأعلياء ، ويكسروا من شرة الأقوياء إلا بالعامة . وبهـذا السر العمراني خاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام حينما أراد الخاصة أن يجعل لهم وقتاً يجتمعون به فيه دون العامة أنفة في المساواة فقال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعـدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » . وقد حكى الله حال الخاصة مع الأنبياء وأنفتهم من الفقراء والضعفاء مع أنهم مادة الحياة وجراثيم الفلاح فقال تعالى عن قوم نوح « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، قال وما علمي بما كانوا يعمـــلون ، إن حسابهم الا على ربي لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين » . وقد اغترف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هذه الغرفة الروية من الحوض الالهي الأقدس فكتب في عهده للأشتر النخعي حين ولاه مصر يقول : (وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضى الرعية فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة ـ أي لا ينفع رضى الخاصة إذا سخط العامة) وان سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقل معونة له في البلاء ، وأكره للانصـــاف ، وأسأل بالالحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم) .

هذه الحكمة الباهرة رشفة سائغة من بحر العلم الإلهي الزاخر الذي أفاضه الله علينا في كتابه الكريم وغفلنا عنه ، وسيأتي يوم يرى الناس عموماً أن قوانـــين الاجتماع كلها منعكسة من شمس القرآن ، فسيقولون نواميس قرآنية بدل قوانين عمرانية ومن يعش ير .

★

الحـــج

جاءنا من حضرة الأديب أمـين أفندي عمر بنظارة المعارف العموميـة كتاب يسألنا فكرنا في الحج وعن حكمة كونه ركناً من أركان الإسلام ، وعن الفوائد المادية والأدبية التي تعود منه على المسلمين . فنجيب حضرته :

الدين الإسلامي كله أسرار وعجائب ، ويكفيك دليلاً على كونه أكبر آيات الله في هذا العالم أنه تعالى كوّن به في بضع وعشرين سنة أمة أحـدثت في الوجود أكبر وأعظم الحوادث الاجتماعية والانقلابات العمرانية ، وتربعت في دست خلافـة الله في الأرض قروناً كثـيرة كانت في خلالها أعجوبة العـالم الإنساني دنيا وديناً ، ورفعت أعلام الحرية والإخاء والعلم إلى أعلى ما يصل اليه إمكان البشر ، ولم تزل لليوم حية حياة قوية وإن كانت كامنة كموناً وقتياً يظهر من ذلك انتشار نفوذها الروحاني في كل الأمم بصفة تبشر بضرورة رجوعهـا إلى مجدها القديم والقبض على زمام أمور النوع البشري كله بتلك اليد الرحيمة التي خلصته بها من قتلة عواطفه من قبل .

كل أصل وركن وفرض وسُنـَّة من هذا الدين تحتـه أسرار وأنوار تعوز الدرس الطويل والشرح الضافي والبحث العميق ، ويدلُّ عليه دلالة محسوسة انتقال العرب بمجرد العمل بها من حالتهم الأصليـة إلى حالة أخرى أقـل ما يقـال فيها أنهم أصبحوا بها مثلاً يُضرب في الفضـائل في جميع الأمم حتى أعدى أعدائهم . وإنـّا لنرى بأعيننـا أن العالم الغربي مسوق بدوافع الطبيعـة ونواميس الحيـاة إلى العمل بتلك التعاليم والاهتـداء بنورها في حوالك أحوالهم ، وإن كان متطرفوهم قد غالوا في التشنيع عليها ووصموها بما هي بريئة منه .

هذه مسألة الطلاق التي طالما حاولوا أن يغضوا بها من أبصارنا ، ويحطوا من كرامتنا قد التجأوا أخيراً إلى عدها علاجاً شافياً لكثير من المفاسد العائلية التي لها أسوأ أثر في كيان الهيئة الاجتماعية ، وقد أصبح لديهم محاكم مخصوصة للتطليق فى كل بلد متمدنة [1] .

وهذه مسألة تعدُّد الزوجات التي كانوا يتفكـّهون بترداده على ألسنتهم في مجالسهم الخاصة والعامة أصبحت الشغل الشاغل لبعض أفرادهم ممن يبحثون في ذلك الجيش الجرّار من النساء اللاتي أصبحن لا عائل لهن وصرن عرضة للفساد الخلقي الشديد الوطأة على النوع البشري [2] .

وهذه مسألة الصيام التي كان يعدها سوادهم الأعظم وبعض الأغرار منا من الويلات الكبرى على الجسد والعقل معاً ، أصبحت اليوم لديهم اكسيراً كبيراً يداوون به الجبن الأدبي وفقد عزيمة الرجولية ، وقد ألـّفوا في ذلك الكتب الضخمة . إليك ما قاله عنه الدكتور (جبهاردت) في كتابه : (كيف يكون الإنسان قوي الإرادة) رداً على الذين يتوهمون أن في الصيام ضرراً ، قال : « لا نشكُّ في أن معترضاً سيعترض على هذا العلاج الصومي ظاناً أن في الأخذ به ضرراً على الصحة ، وهو اعتراض لا أساس له البتة . أما من حيث الصحة والطب فإن الصيام من العلاجات التي يجب الأمر بها والاعتراف بعظم فوائدها . » إلى أن قال متابعاً في ذلك الدكتور (ستوهر) : « إن من الناس من كبر وعاش مقتنعاً بأن طينته أرق وألطف من طينة غيره من الآدميين ، ومع ذلك فإن المراقب لأحوال أمثال هؤلاء الناس لتأخذه الدهشة إذا وقف على هذا المعمى الذي لا يحل وهو أنه بينا يرى الواحد من هؤلاء قد يقع على الأرض من الضعف والهزال إذا لم يقدم اليه ما اعتاده من كأس المرق

---

(١) انظر كتابنا المرأة المسلمة .

(٢) أنظر كتابنا المرأة المسلمة .

يراه قبل بضعة أيام قد احتمل أعباء الرقص وتكاليفه بغاية النشاط والجلد طول الليل لغاية الساعة الأولى صباحاً . »

أما الحج فلم يوجد بينهم في أي عصر من العصور من يطعن على تشريعه لوضوح فائدته وسطوع حكمته ولما له من الأثر الظاهر في بقاء جامعة المسلمين حية لليوم . وليس أحد يستطيع أن ينكر الفوائد المادية والأدبية التي تنجم من اجتماع العناصر المختلفة من أمة كبيرة كالأمة الإسلامية في صعيد واحد. من يريد أن ينكر ذلك فلينظر حتى في كتب أعداء الإسلام وما كتبوه عن الحج من أنه مثار الوحدة الإسلامية والباعث إلى نفوس الآخذين بهذا الدين روح الانضمام والتآلف . وبما أنهم لا يريدون وجود تلك الوحدة التي تحول بينهم وبين فصم جامعة المسلمين فتراهم يرون في الحج خطراً دائماً على مشروعهم في حل تلك الجامعة حماها الله .

الإنسان جسد وروح وهما قائمان على قسطاس من العدل الإلهي بحيث أن صلاح أحدهما أو فساده ينال الآخر لا محالة ، فشرع الله دينه على كيفية بها كل أصل فيه يفيد كلاً من هذين الجوهرين فائدة تلائمه ليقوم الإنسان بهذا الدستور الإلهي الأقوم على صراط الفطرة الصحيحة : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . »

الحج هو اجتماع الألوف المؤلفة من المسلمين ، المبعثرين في سائر أرجاء العالم ، المختلفين في الأجناس واللغات ، في بقعة واحدة ملبين بالروح والجسم معاً نداء ربهم ، وهم من بساطة الملبس ، والتساوي في الدرجات على صورة لا توازيها صورة في أي شرع من الشرائع ولا مدنية من المدنيات الأرضية . وهم بين أمير ومأمور ، وحاكم ومحكوم ، وعربي وتركي ، وأفغاني وفارسي ، وهندي وسوداني ، وحبشي وصيني ، وأوروبي ، وأوقيانوسي ؛ وبين أبيض ناصع ، وأصفر فاقع ، وأحمر قاتم ، وأسود فاحم . والكل شخوص بالأعين

والأفئدة إلى نقطة واحدة ليس في ضمائرهم إلا موضوع واحد : تركوا الأهل والوطن ، وهجروا المال والسكن ، خاضوا غمرات البحار الزاخرة ، واقتحموا الصحارى الغامرة ، لعبت هوج الرياح بهم تارة على السفائن ، ولفحتهم لوافح السموم طوراً في السباسب ، خلعوا عاداتهم وتقاليدهم ، وغيروا لباسهم ومآكلهم ، وصعدوا وهم على هذه الصورة التجريدية على سطح جبل يضم أشتاتهم ويلم جمعهم ، فماذا يكون من أثر هذا الموقف المهيب عليهم . وماذا تكون نتيجة هذا المنظر الفخم على أفئدتهم وأرواحهم ؟

لا شك أن تركز كل الأشعة المنبعثة من صميم معانيهم إلى غرض واحد ونقطة مشتركة ، وهم على هذه الصورة من المساواة والبساطة على قمة ذلك الجبل الذي وقف عليه قبلهم بناة مجد هذه الأمة الكريمة من الشهداء والصالحين والعلماء العاملين والأولياء المقرّبين وفوق هؤلاء كلهم خاتم النبيين محمد الأمين صلى الله عليه وعلى أصحابه وآله أجمعين .

كل ذلك يوحي إلى سرائرهم ، وينقش في صميم روعهم ، ويصوّر لهم في لباب فطرهم ، حقيقة معنى (الله أكبر) وناهيك برجل (يعتقد) أن الله أكبر .

من يعتقد أن الله أكبر ، لا يرضخ للذل ، ولا يستكين للعبودية ، ولا يلين قياده في يد غاشم . من يعتقد أن الله أكبر لا يخاف بطش العوادي ، ولا يرهب قرع الحوادث ، ولا ترتعد فرائصه من نازلة مهما عظُمَت . من يعتقد أن الله أكبر لا يستعظم الأقوياء ، ولا يكبر الأعلياء ، ولا يستخذي للكبراء .

من يعتقد أن الله أكبر ، لا ينسحر بمدنية ، ولا يؤلّه أي قوة أجنبية ، ولا ييأس من بلوغ أمته أقصى المكانات العمرانية .

من يعتقد أن الله أكبر ، كان رجلاً صحيحاً ، وانساناً تاماً ، وفاضلاً صرفاً ، لأن من يعتقد أن الله أكبر لا يستبد ولا يتكبر ولا يتجبر ولا يعجب بنفسه

وهي من كبرى مهلكات الانسان.ثم لا يسرف ،لان باعث الاسراف حب التفرد وكيف يتفرد والله أكبر ، ولا يقتر لأن موجبه خوف الفقر وكيف يخافه والله أكبر . والخلاصة أنه لا يقارف دنيئة سواء كانت معنوية أو حسية لأن مثيرها ارضاء الهوى ، وكيف يرضي هواه من يعتقد أن الله أكبر !

نعم من كان يعتقد أن الله أكبر على هذه الصورة كان مسلماً حقاً . ولو قلت ان الذي سما بهمم آبائنا الأولين ، فرفعهم في بضع وعشرين إلى أعلى عليين هو محض اعتقادهم أن الله أكبر – لما كنت مغالياً في المقال ، ولا ذاهباً بالقارىء مذاهب الشعر والخيال .

يقولون اذا كان هذا أثر الحج فأين نحن منه اليوم . قلنا إن أركان الإسلام كلها مرتبطة ببعضها ولايغني شيء عن شيء منها وقـــد ترك المسلمون كل تلك الأركان وبعضهم يأتيها صورة لا حقيقة فكيف تؤثر فيهم هذا الأثر الباهر الذي أحدثته في آبائنا الأولين الذين كانوا يراعونها على حقيقتها ؟ فان قيل : وما سبب عدم تأثيرها فينا اليوم ؟ فنحيل القائل على مقالتنا في العوامل العمومية من الجزء الرابع وعلى ما سنكتبه في ذلك الشأن على التتابع إن شاء الله .

* * *

النبوّة ليست اكتسابية

ورد إلينا من حضرة الأديب محمد أفندي كامل بتفتيش الري باسكندرية خطاب يقول فيه : « اطلعت بصحيفة ٢٦٥ من كتاب حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، على مـا يفيد أن الروح الإنسانيـة إذا تجرّد صاحبها عن الاشتغال بالمادّيات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر . أليس في هـذا ما يقوّي مذهب القـائلين بأن النبوّة مكتسبة » ؟ فنجيب حضرتـه :

الوجود مراتب كثيرة لا تتناهى تعلو وتسفل على حسب مرتبة الشخص من قوة الروح ونور الحياة . إذا نظرت إلى صنوف الحيوانات واستعرضت مراتبها من أول الكائنات المكوّنة من خلية بسيطة إلى الحيوانات الشديبة التي في قمتها القردة ، ترَ من الفرق بين هذه وتلك في الاحسـاس بالوجود والشعور بذاتها ما يطوح بالانسان إلى القول بأنها وإن كانت على سطح كوكب واحد تنعشها شمس واحدة وتظللها سماء مشتركة ، إلا أنها في وجودات مختلفة وعوالم متباينـة . وشتان بين حيوانين ، هذا عبارة عن خلية بسيطة تغتذي بتمثيل ما يحيط بها من المواد الرطبة ولا أعضاء لها البتة ، وهذا له أعضاء وأجهزة وفكر واختيار وإرادة كالقردة مثلا . لا شك أن الفـارق بين هذين الحيوانين كبير جداً لدرجة تسمح لنا أن نقول أن كلا منهما يشعر بالعالم على صفة خاصة به . الأول لا حظ له منه إلا الاحساس المجرّد بألم أو راحة ، ولا نصيب له مما فيه من النعم الأخرى ؛ أما الثاني فقسطه منه أكبر بكثير على قدر ما متع من أعضاء وما سيقت له من أغراض ، وما مُتّع به من قوى ومواهب . فإن من لم يُخلق له لسان لا يتمتع بلذائذ الطعوم ، ومن لم يوهب أنفاً لا يكون له حظ من زكيات الروائح الخ .. ثم لو صعدت من

عالم الحيوان إلى عـالم الإنسان واستشرفت سائر أعضائه وأجزائه ومواهبه وملكاته وقواه لتحققت أن حظه من الوجود وشعوره به يجب أن يكون أكبر مما لغيره ، ثم أن إدراكه لأسراره الصميمة وإلمامه بلطائفه يلزم أن تكون أعلى مرتبة مما منح سواه من ذلك – لدقة تلك الأعضاء وتنوّعهـا وقيامها على نظام أكمل مما للحيوانات منها ، ولسعة سلطان مواهبه وبعد مدى قواه أيضاً .

هذا بالنسبة للحيوانات والإنسان ، أما لو استعرضت أصناف الإنسـان نفسه وتأملت في ذلك المتوحش (لهونانتوتي) مثلاً في جهله وعمايته عن الوجود واكتفائه بما يكتفي به الحيوان من أكل ورق الشجر واللحم النيىء والاعتصام بذرى الأشجار والجبال ثم تركته وتأملت في فيلسوف من المعاصرين لنا أو من الذين سبقونا بالإيماز لرأيت فرقاً واضحاً جداً ربما حملك على أن تقول أن هذين الإنسانين ، وإن كانا في وجود واحد ، إلا أنهما في عالمين مختلفين للغاية. كيف لا وذلك إن نظر إلى السماء ظنها خيمة معتمة فيها شرر منثور على غير نظام وربما لا ينظر اليها ولا يتفكـّر فيها . أما هذا فينظر اليها وله عليهـا من حقائق العلم ما يملأ كتباً وله من نتائج سبح فكره في مناحيها ما لا يستطيـع التعبير عنه بالألفاظ المصطلح عليها ، هذا عدا عمّا له على كل شيء من أشيـاء وجوده من العلم المناسب والفكر الواجب .

هذا كله بالنسبة لعالم الأجساد ، اما عالم الأرواح أي العالم الذي وراء هذه المادة – ولا نريد بقولنا وراء هذه المادة ان له حيزاً وراء هذا الحيّز ، كلا وإنما نريد بوراء المادة الوجود الذي هو أرقى من المادة والمتسلّط عليها كتسلـّط الروح على الجسد – فإن مراتب الناس فيه تختلف كاختلافهم من مراتب عالم الجسد بل أكثر . وكما أننا مرتبطون بعالم المادة بآلات وأعضـاء تمكننا من الإحساس به وإدراكه ، ولا حظّ لنا من التمتع بالشعور به إلا على قدر مـا وهبنا الله من قوى تلك الأعضاء والآلات ، فكذلك لنا ارتباط بعالم ما وراء

المادة من جهة روحنا التي هي نفحة منه ، ولا نصيب لنا من التمتع بالشعور بها إلا على قدر ما منحنا الخالق من نقاء جوهرنا وصفائه . وكما أن القصير النظر والكليل الأعصاب لا يستطيع أن يغير في خلقه فيهب بصره وأعصابه قوة فوق قوتها لزيادة متاعه بالعالم المادي ، فكذلك ليس في حولنا أن نزيد في نقاء معنانا الإنساني وأن نذهب به إلى أبعد مما خلق مستعـــداً له لزيادة تمتعنا بلطائف ذلك العالم ، فكل إنسان مرغم على الوقوف حيث وقف به استعداده الفطري وانتهى عنده مبلغ قوته . فإن قلنا بعد هذا أن الإنسان بتجريد نفسه عن الشواغل يستطيع أن يعلم علماً لا دخل لحواسه الظاهرة فيه ، هو مثل قولنا أن الإنسان لو راقب الكواكب وتأمل في حركاتها يستطيع أن يوجد لنفسه بذلك علماً لأن الإنسان متمتع بكلتا الخاصتين عـــلى السواء ، ولكن لما كان الإنسان برصـده الكواكب لا يستطيع أن يزيد في موهبة تصوُّره الفطري فيذهب به إلى أبعد مما أعدَّ له عقله ، فكذلك لا يستطيع ذلك المشرف على عالم ما وراء المادة أن يتجاوز المقام الذي قيس على استعداده . فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفراد من النوع الإنساني ، يهبهم الله استعداداً خاصاً للسبح في عالم ما وراء المادة ، يشرفون به على مـــا تنقطع دونه أنفاس أكبر العزائم ، وتحسر أمامه عين أعظم البصائر . وليس أمر هذا الاختصاص بعجيب ، فإن أمام أعيننا رجالاً متَّعهم الله بقوة عضلية لا يكاد يتصوَّرهـا إلا من يراهم ، فإن كان لا يمكن التردُّد في أن هذه القوة الهائلة موهبة خاصة لا يُستطاع كسبها بوجه من الوجوه، فأي غرابة في أن أمر النبوَّة وهي قوة روحانية من المواهب الخصوصية التي يمتّع الله بها أفراداً من النوع الإنساني ليهدوهم إلى أقصد المناهج وليحملوا إليهم أنوار الحقائق وأسرار الشرائع. ولا ندري كيف غفل عن مثل هذه المحسوسات أولئك الذين زعموا أن النبوَّة مكتسبة ؟

* * *

من أين جاءنا الفساد الاجتماعي

نحن ببحث هـــذا الموضوع إنما نريد أن نخترق بمسبار الفكر والروية كل الظواهر العرضية التي تتراءى للناظر في صورة الأمراض والعلل وهي ليست إلا أعراضاً تتغير وتتطور من حسب تغير المرض وتطوره ممـا لو صرفنا السنين في درس أشكالها وأحوالها لما وصلنا بعد هذا الجهد الناصب إلا لمثل ما يصل إليه من تزدهيه الألوان الخلابة التي تأخذها السحب عند غروب الشمس أو شروقها فيصرف عمره في درسها وهو غافل عن أسبابهـا التي تولدها . لا جرم أنه يظل يبتني النظريات، ويدعمها ويبتكر الأسباب ويؤيدها ثم يرى نفسه مجبراً على هدمها وبناء غيرها كلما دله حسه على فسادها حتى يضيع عمره سدى أو يعيش قانعاً بما حصله على غير هدى . ولكن هذا الباحث لو اهتدى بفكره أن لكل ظاهرة سبباً طبيعياً أو أسباباً ، أو لو سأل أهل الذكر من الذين أفنوا أعمارهم قبله في درس الظواهر الطبيعية وعلم بهذه الواسطة أن أشعه الشمس واختلاف كثافات السحب هي السبب الأصلي في إحداث هـــذه الألوان الباهرة واستعان على فهم ذلك بالرجوع إلى نظريات الضوء وانكسار الأشعة وألوان الشمس لرجع ظافراً بمراده ،فرحان بفوزه في اجتهاده ، وإن كان كلفه ذلك أن يصرف عمره في درس علم الطبيعة وينزل إلى درجـة صغار المكاتب فإن ذلك أولى له من التفيهق بغير عرفان ووزن الأشياء بغير ميزان . يكتب الكاتبون ويصيح الخطباء المفوهون ، بأننا مصابون بعـــلة أو بعلل اجتماعية تمنعنا عن الاستقامة على طريق التقدم والمدنية وتجعلنا غرضاً لسهام المطامع الأجنبية . يقولون ان تلك العـــلة ألمت بعواطفنا فقتلتها ، وبإحساساتنا فأطفأتها ، وبحميتنا فأخمدتهـــا ، وبإرادتنا فسلبتها ، وحاصرتنا من مكان قريب حتى جعلت اليأس صفة من صفاتنا ، وصيرته جزءاً من طبيعتنا ، وقد أثمر فينا ثمراته المعهودة كالتبرؤ من الجنسية

والتقليد للأجنبي والبذخ والسرف والترف والأثرة والتخاذل والتنابذ الخ الخ من الأعراض التي هي لوازم اليأس ومقتضياته ثم ماذا ؟ ثم نقول ان ذلك من عدم الدين . من عدم الفضائل. من عدم التربية . من عدم التناصر. من عدم التعاطف. من عدم الغيرة . من احجام الأغنياء عن البذل . من قعود العلماء عن الإرشاد . من سوء سياسة الأمراء . ثم ماذا ؟ ثم نقول يجب أن نكون متدينين.. فضلاء.. متربين.. متناصرين.. متعاطفين.. غيورين.. باذلين.. مرشدين.. سائسين.. ثم ماذا ؟ نعيد ما بدأناه ونبدأ ما أعدنا. ولا نزال نطوى ما نشرناه ، وننشر ما طويناه حتى سئم القارىء والمكاتب ويئس السامع والخاطب ، وأصبحت النصيحة والهذيان في مستوى واحد، فاغرانا ذلك من ولوج باب جديد وذلك أننا أبدلنا النصائح بالشتائم ، واستعطاف العزائم بسرد الذمائم ، وتشهير المآثم ، حتى صرنا لا نعد الكاتب نحريراً ، ولا الخاطب سهيراً ، إلا إذا ذهب في القذع كل مذهب ، وأسهب في شرح المقاذر وأطنب ، حتى أنست الاسماع بالثلب واستنامت الأفئدة للشتم والسب . وفقدت الأمة بهذا الضرب من التهذيب حرارة الحمية ، وحماسة الرجولية ، فنشأت بين ظهرانيها جرائد لا مادة لمقالاتها الا الطعن والهمز، ولا روح لنصائحها إلا الغمز واللمز ، فترى الناس يتحلقون لجريدة من تلك الجرائد فيتلوها عليهم واحد منهم وقد حوت من أنواع الفحش والتقبيح، بكل تلميح وتصريح، ما يستفز الحمية ، ويقدح في زند العزيمة ، ولكن الناس لاعتيادهم سماع المقاذر ينشطون القارىء بالثناء على الكاتب ، والترنح لحسن ترادف المثالب ، ثم يقول أمثلهم لقد بل فلان الغليل ، وجاء بما يشفي العليل وهلم جرا . وبذلك فقد فعلنا بالأمة بكتاباتنا هذه ما لم تفعله ظبى أعدائنا بأعناقنا ، ولا ختل مناقينا بمعاقد اجتماعنا ، مع أن وظيفه التحرير ترقيق الأميال ، وتلطيف الشعور ، وإحياء الغيرة والحمية وإيقاظ الفتوة والرجولية — لا ثلم العواطف، وتغليظ الإحساسات ، وإطفاء الحماسة ، وتعويد النفوس على الاستنامة للشتائم . وهذا الأمر الجليل سببه فيما أرى دائماً إسناد الأمر إلى غير أهله فإن كل من استطاع عندنا ان يكتب العربية صحيحة لا يتأخر

عن ندب نفسه لإرشاد أمتــه ، ونعشها من وهدتها ولو كان كل من يكتب بلغة صحيحة يليق لهــذا المنصب الخطير للاق بكل انجليزي أن يكون عمرانيــاً ، وبكل فرنساوي أن يكون أخلاقياً ، فإن أكثر القوم يكتبون لغتهم بغير غلط، ويستطيعون أن يتكلموا في كل ضرب من ضروب الكلام! لكن هيهات، ذلك منصب يعد أهــله على الأصابع ولا يبرز فيه إلا الشاذ النادر ، فالباحث العمراني في هذه البلاد قبل أن يفكر في تأسيس نظرياته وسرد تعاليمه يجب عليه أن يعد الأذهان لقبولها ويهيئها لإحلالها من الأفئدة في محلها اللائق بها. ولا يتأتى له ذلك إلا بتخليص الافكار مما علق بها من تلك المدركات المتناقضة والمبادي المتعاكسة التي نقشها في أذهان الجمهور أولئك الكتاب في مدى سنين كثيرة، فانا لم نعلم بلداً من البلاد سهل على أهــله بأسرهم معرفة الداء والدواء غير بلادنا كما لم نعلم بلداً من البلاد لم ينتفع بعلمه مثل بلادنا . والناظر البسيط لهــذا التناقض المدهش يتأكد أن ذلك الداء لو كان هو الداء بعينه وإن ذلك الدواء هو الدواء الشافي منه حقيقة لكان لنا اليوم من الصحه ما نرتجي. فإنه لا يتصور أن يتحمل المريض مضاعفة الداء ولاعج العلة ، والدواء بين يديه لا ينظر بعينه اليه ، ولا يعول عليه . هذا ضد الطبيعة . هذا خلاف المحسوس. هذا قلب لنظام الوجود. هذا خرق للعادة . إذن فليس ذلك الداء داءنا ولا ذلك الدواء دواءنا .

اليك مثال يريك كيف أننا من تشخيص دائنا في خلط عظيم ومن وصف دوائنا في خبط جسيم . يقولون مثلاً أن داءنا (عدم الاتحاد) ، ودواؤنا هو (الإتحاد) وأنا أقول اننــا لسنا بمصابين بعدم الاتحاد وإن من اللازم لنا الاتحاد ولكني أقول أن عدم الاتحــاد ليس هو مرضاً بذاته بل عرض مــن الأعراض الكثيرة. وان أردت أن تعرف كيف اننا واهمون فإليك : إن كان عدم الاتحاد هو الداء والاتحاد هو الدواء فما المانع عن الاتحاد ؟ هل حسن لدينا البقاء على مضاضة المرض وهان لدينــا ان نكون لقمــة سائغة للأمم . يقولون إن عدم اتحادنا ناشيء من سوء التربية وعــدم العلم نقول إذن فقد سقط قولنا بأن داءنا (عدم الاتحــاد) ولزمنا أن نقول انــه عدم التربية . ومع ذلك فنحن نجاري

المعترض في فكره ونسأله هل نحن أقـل تربية وعلماً من سائر الأمم ؟ هل نحن أقل تربية وعلماً من العصابات الثائرة في مقدونيا ؟ إذا كان الاتحاد يتوقف على التربية والعلم لما قام للنوع الانساني اجتماع قط . والحقيقة بخلاف ذلك فقد تشكلت الهيئات الاجتماعية قبل أن يأتيها العلم والتربية . ويمكنك أن ترى اليوم قبائل في آخر دركات الجهل على أحسن ما يكون من التئام واتحاد . هذه ممالك افريقية الصغيرة التي يجتاحها المدفع الأوروبي واحدة بعد أخرى كلها متحدة ملتئمة لا تشكو غير الجهل وعدم التربية وتراهم يدافعون عن أمتهم بأقصى ما يتصوره العقل من الصبر والثبات ! ولولا مقذوفات المدافع والبنادق لما استطاع الأوربيون ان يقربوا منهم فضلاً أن يحكموهم ويأسروهم .

وإن كنا نعلق وجود الاتحاد على وجود العلم والتربية فكأننا نود أن نجعل كل الأمة فلاسفة لا يتحدون إلا بعد أن يضعوا المقدمات المنطقية ويستخرجوا منها النتائج الفلسفية .. مع اننا نرى بأعيننا أن العامة اليوم أصبحوا أكثر تماسكاً والتئاماً من أكثر الخاصة ، وقد كان آباؤنا قبل أن تنتشر بينهم المدارس أشد تلاصقاً واتحاداً منا في هذا العصر . كل هذا يدلنا بالدلائل المحسوسة أن الاتحاد ليس نتيجة العلم ولا التربية بل هو لازم من لوازم الحياة الاجتماعية في الأمة كما ان اتحاد اعضاء الجسم على اداء وظائفها وتعاضدها في أغراضها نتيجة الحيـاة الشخصية ليس إلا . وبهـذا فقد استحالت المسألة إلى إدراك معنى الحياة الاجتماعية وكيفية الاتصاف بها ، وليس هذا الموضوع من اختصاص هذا الفصل فلنتركه لفصل خاص يأتي إن شاء الله في هذه العجالة ، فانظر كيف ان وقوفنا من التشخيص مع الاعراض يصرفنا عن الوصول إلى لباب المسألة وكيف يجرنا إلى نتائج من العلم فاسدة ، ولئن بقينا الف عام نقول ونكتب بأن داءنا (عدم الاتحاد) وظللنا نداويه بكل الوسائل فلن ننجح في ازالته مهما كانت مقاومتنا له كما لا ينجح من يداوي الأدواء الجلدية بالادهان وهو غافل عن علتها الرئيسية في الدم أو في المعدة ، فكما أن هذا الطبيب السطحي لا يزيد المريض الا تعذيباً

واقتحاماً في المرض، كذلك لا يكسب الأمة من يداوي أعراضها الاجتماعية الا تغلغلاً في الفساد وتوغلاً في الانحلال، فأن الدواء ان لم يصادف المرض انقلب سماً زعافاً وصار مادة تقوي الداء وتمده. وإن شئت ضربنا لك الأمثال وحشرنا لك الأشباه والأشكال.

فلا أظن أنه لا يخفى على واحد من قرائنا ان أعضاء الجسم الحي مرتبطة ببعضها ارتباطاً عجيباً ووظائفها متعلقة ببعضها تعلقاً مدهشاً حتى انه قد يشكو الانسان بالتهاب في عينه يكون سببه امساك في معدته بحيث انه لا يستطيع دفع ذلك الاحتقان مهما داواه وعالجه إلا بإزالة الامساك. وقد يشكو بصداع في رأسه وتكون علته برودة أصابت قدميه، وقد يتوجع من ضرسه ويكون مثار وجعه برد أصاب جسمه فيكون علاج الضرس الوحيد تعاطي سلفات الكينين حتى ان الإنسان ليندهش من هذه العلاقات البعيدة ولا يسعه الا التسليم بها عندما يرى النتائج مطابقة للمقدمات. وهكذا الشأن في الأمراض الاجتماعية. بل ان المنكرات: تلك الأمراض وشعوبها تكون أشد ارتباطاً وتداخلاً بما لا يدخل تحت حصر، فنحن ان ذهبنا في تشخيص بعض أدوائنا مذاهب لا تتفق مع ما هو مقرر في العادة فلا نقصد بذلك الاغراب وحب التفرد بالرأي وإنما نقصد أن نكون موافقين لعلم العمران متبعين سمته، وإلا فلا فائدة من حشو الصحف بالكلام الذي ردده الناس سنين عديدة ولم يكن من أثره غير اللوث في الاذهان والخبط في المدركات.

على ان موضوعنا اليوم (من أين جاءنا الفساد الاجتماعي) وهو بحث عويص جداً ان أردنا ان نصعد الى جرثومته الأولية. وليس هنا موضع هذا التحليل. واما ان أردنا ان نصل الى سببه القريب الذي يقتضيه الموضوع الذي نحن بصدده وهو دستور التعليم فالأمر سهل ونستطيع أن نجمله في لفظتين وهو أن سبب فسادنا الاجتماعي الخاصة. واليك البيان:

كثر لغط الناس في هذه الأيام بذكر البدع التي انتشرت بين المسلمين والخرافات

التي نمت وانتشبت في أذهان العامة من الأمة ، وينسبون لها كل ما نحن فيه من هبوط وتأخر. ونحن أولا لا نوافق القائلين بأنها علل يجب مداواتها بل نقول انها أعراض لعلل أخرى ان لم نعرفها ذهب تعبنا أدراج الرياح كما يذهب تعب كل من يداوي الفروع ويترك الأصول . ثانياً اننا لا نقر على أنها سبب هبوطنا وتأخرنا فان البدع في الدين والخرافات منتشرة في جميع الأمم بل أكثر الأمم على دين باطل هي الوثنية بعينها فلو كانت البدع في الدين تؤخر الرقي في الحياة لما تقدمت أمة اليابان في ميدان المدنية ولا قيد شبر . وقد نص القرآن على ذلك فقد قال تعالى « من كان يريد الحيـاة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. اولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثالثاً اننا لا نوجه اللـوم في هذه البدع على العامة بل على الخاصة فانهم مادتها وجرثومتها وهم الذين ورطوا العـامة فيها توريطاً قسرياً . وإذا أردت الدليل فاسرد إلي أشخاص البدع التي تغالي في تقريع العـامة عليها ونحن نثبت لك أنها من افاضات الخاصة عليهم . ان قيل ألا ترى أن العامة قد أصبحوا يؤلهون الصالحين وينسبون لهم ما لا يصح نسبته إلا الله تعالى وأنهم قد أوّلوا الدين على قدر عقولهم فأدخلوا اليه ما ليس فيه وأخرجوا منه ما هو عنصر من عناصره الكريمة . نقول ان سبب ذلك الخاصة فانهم هم الذين ابتنوا المقاصير على القبور وهم الذين رفعوا عليها القباب وهم الذين زخرفوا المساجد حتى جعلوها أشبه بسرايات الملوك وهم الذين وقفوا عليها الأمـوال الطائلة وهم الذين سنّوا المواكب والاحتفالات الدينية وهم الذين قعدوا عن ارشاد العامة الى حقيقة الدين . يشكو الناس من سوء حالة خطباء المساجد ووعاظها ويندّدون بهم غاية التنديد ويغفلون عن المسئولين عن ذلك ، أليس هم الخاصة الذين يصرفون.. عشرات الالوف من الجنيهات في إقامة حوائط المساجد واضاءتها بالكهربائية ويضيقون على الخطيب والواعظ فلا يعطونها الا ما يرضى به غير العجزة والزمنى من الفقهاء ؟ من الذي قلب حقيقة الدين فجعله في إقامة القصور على القبور بدل تعيين الأئمة المرشدين والوعاظ الكاملين غير أهـل الخاصة من هـذه الأمة ؟ من

الذي علم العامة امتهان الدين؟ من الذي علمهم احتقار الوطن؟ من الذي علمهم البذخ والسرف ؟ من الذي علمهم التقليد الاعمى ؟ من الذي علمهم تأليه الاجنبي ؟ من الذي علمهم الرضوخ والاستسلام للذل والاستكانة ؟ أليس الذين علموهم ذلك بالفعل وبالقدوة هم الخاصة؟ ما هذا الضرب من الجبن الأدبي، ما هذا القلب لنظام الحياة ؟ كيف ننسب فساد الشرق الى عامته دون خاصته ؟ وهل ؟ وهل أفنى الرومان وقدماء اليونان ونسف صروح الدول ذوات الشأن غير الخاصة ؟ « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بانفسهم » . انا لسنا من اعداء العلم ولا يخطر ببالنا يوماً من الأيام أن نثبط حركة التعليم ولكننا مع ذلك نقول ان كل حركة لا يكون لها وجهة ولا هي مقودة بحكمة وروية تؤدي الى ضرر عظيم في المستقبل مهما كان ظاهرها حسناً في الحال.

ومن الذي كان يجسر من أهل البصر في الأجيال التي كان التنافس بالغاً حده في إقامة جدران المساجد والقباب وزخرفتها وبذل القناطير المقنطرة في أثاثها ورياشها ؟ من الذي كان يجسر في تلك الاحيان أن يقول لاولئك المتبرعين انكم انما تبتنون صروحاً لايقاع العامة في اشراك البدع وتبذلون أموالكم لاحالة الدين إلى العبادات الصورية كما حصل في كل الأمم السالفة التي اعتاضت عن جمال العقيدة بجمال جدران المعابد وعن نور الإيمان بانوار الهياكل ، حتى جعلوا شعائر الدين أشبه باحتفالات الولائم ، وأقرب لاجتماعات المآدب ، لشدة ما تلتهي الأذهان بالنقوش والزخارف ، وما يشطح الفكر في التأمل في سجوف المنافذ وابداع المنابر . مع أن القصد من تلك الاجتماعات كان تجديد العقل من ملهيات العالم المادي ، وتخليصه من فاتنات المظهر الطيني والذهاب بالروح على أجنحة ذلك الاجتماع المندمج الى باب الرحمة القدسية لتطرقه بيد التجرد والعبودية الخالصة، ولترجع الى عالمها بنور من عالم القدس يثبتها في جهادها ويقيمها على صراطها ويحميها عن فتن الدنيا ومداحضها حتى إذا أدت وظيفتها في هذه الحياة عرجت إلى عالمها بتلك القوة التي اكتسبتها ، ودخلت من جنان الفيض الإلهي في الحال التي أعدت لها . من كان يجسر أن يقول هذا لأولئك الذين

صرفوا أموالهم لإلهاء الأعين والقلوب بتذهيب الجدران وصبغ الحيطان ، كان لا شك يُرمى بالإلحاد ، ويوصم بأنه من الساعين في الأرض الفساد ، وانه ممن يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، ولذلك نحن اليوم بإزاء حركة من الخاصة يتدافعون بها منافسة في فتح المدارس، وهي في الجملة حركة نبيلة ومرام شريفة ، ولا يتصور أن يوجد من توسوس له نفسه بتثبيطها أو إيقافها ـ ولكنا نرفع صوتنا ولا نخاف لومة لائم بأن هذه الحركة إن لم تكن الحكمة رائدها والروية الثاقبة قائدها فتكون فتنتها أنكأ الفتن على البلاد ، ومحنتها أنفذ المحن في العباد . ولكن ربما لا نكاد نقول هذا حتى تتسارع الينا الأفكار وتتركز علينا أشعة الأنظار عجباً من هذا القول العجيب واندهاشاً من هذا الفكر الغريب او سيذهب كل ناظر إلى حيث يقوده ضميره ، ولكننا لا نأبه لمثل هذا القيل والقال ما دمنا نريد تقرير حقيقة عمرانية كبرى يعدّها الجاهل اليوم بدعة وغداً يحملها عقيدة وشرعة .

نعم إن لم تكن حركة التنافس في فتح المدارس مقودة بيد الحكمة والروية لانقلبت شر الشرور ، ولأنتجت أعظم الأمور ، وإذا أردت الدليل فإليك التفصيل .

* * *

الجــــبروت والملكوت
والنـــــاسوت واللاهوت

سألنا حضرة الوجيه السيد ناصر بن سليمان بن ناصر بدار السلام بزنجبار عن معاني الجبروت والملكوت والناسوت واللاهوت فنجيب حضرته :

(الجبروت) صيغة مبالغة معناها العظمة والكبر والقدرة والسلطة .

(الملكوت) العز والسلطان والملك والعظمة . وهو مشتق من الملك .

(الناسوت) طبيعة الانسان ، قيل انها لفظة سريانية .

(اللاهوت) أصله (لاه) بمعنى اله زيدت فيه الواو والتاء مبالغة كما زيدتا في جبروت وملكوت وقيل هو لفظ سرياني .

أما ما يجيء في مباحثنا من مباحثنا « عالم الجبروت » « عالم الملكوت » فإنا نقصد بالاول عالم الجلال الآلهي الذي لا يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل فهو سر الاسرار الوجودية ، وكنز الكنوز الغيبية ، مثل الملائكة المقربين بإزائه كمثالنا نحن في عدم العلم به ، وانحسار التصور دون سرادقات عزه وحظيرات قدسه . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث في هذا المعنى وهو (ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الابصار ، وان الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم »

أما الثاني وهو عـالم الملكوت فنريد منـه في كتاباتنا عالم الارواح المجردة ومسرح القوى الروحانية ، فهو بالنسبة اليها مثل عالم الشهادة بالنسبة الينا ، وهو عالم ينتهي اليه كل انسان بعد خلعه هذا ، الجسد ويستطيع الأحياء أن يشرفوا

عليه اشرافاً وقتياً فيرون منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيعرفون بتلك الواسطة من الأمور الروحانية ، ويجدون فيه أكبر تسلية في متاعب الدنيا وويلاتها وتوالي أحداثها ومصائبها فلا يؤبهون للحياة ، ولا يحرصون عليها هذا الحرص الشائن ، ويرنون للدنيا بالعين التي تراها على حقيقتها أي انها دار بلاء وامتحان، وقرارة أكدار وأشجان،وان حفت بنا الكبرياء من كل مكان ، وطرنا في الهواء الى سائر البلدان ، وسكنا قصور اليواقيت والمرجان ، وانه لو اجتمع دكاترة العالم كله مع أكبر كيماوي العصر على أن يركبوا على أدق الآلات الصناعية بألطف التيارات الكهربائية على أشعة (رنتجن) اكسيراً يشفي أعظم ملك في أكبر أمة متمدنة من ظلمة الالحاد لما استطاعوا الى ذلك سبيلا : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

* * *

الصلاة والصيام في الاسلام

« ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

إننا قد سبقنا الكلام في هذه المجلة على عمرانيات الاسلام وما في اتباع أصوله من السعادة المادية على حسب مقتضيات الحاجات العصرية ولم نلم بما يختص بالروحيات في هذا الدين المبين إلا الماماً لا يشفي علة ولا ينقع غلة . فرأينا أن نعقد في هذا العدد مقالة من تلك المباحث النفسية لمناسبة حلول شهر الصوم الجليل ترغيباً لاخواننا في مداركة أرواحهم بإعطائها بعض حقوقها المهضومة وباتقاء الله فيها فإنها أحق بالتفاتهم من ذلك الجسم الفاني فنقول والله المستعان : لا مشاحة في أن الانسان مركب من شيئين متباينين أحدهما مادي كثيف مستمد وجوده من أجزاء هذه الطبيعة المحسوسة يقال له الجثمان والآخر معنوي لطيف مستمد وجوده من النور الالهي مباشرة يقال له الروح ، وهما متحدان ببعضهما اتحاداً مؤقتاً على حسب قانون ثابت وموازنة محكمة يقف العقل أمامها مبهوتاً .

أما الجسم المادي فهو مركب من البسائط الأرضية وتسري عليه أحكامها فهو لا شيء غير مادة عضوية مركبة من خلايا تشبه خلايا الحيوانات بل والنباتات أيضاً . فالناظر اليه يحكم عليه بالفناء عاجلاً أو آجلاً ، ونعني بالفناء هنا استحالته الى أجزائه البسيطة وذهاب كل من هذه الأجزاء الى حيث أتت من أشياء الطبيعة . وأما تلك الروح النورانية فليست مركبة من بسائط أولية حتى يحكم عليها بالفناء أي بالاستحالة الى تلك البسائط بل هي باقية بقاء سرمدياً وتابعة لنواميس خاصة بعالمها لا نخوض فيه هنا الآن. ولكل من الجثمان والروح مطالب

تناسب طبيعة كل منهما ودرجته في مراتب الوجود . فالجسم لا يفترق عن كل أنواع المادة في قبوله للنقص والزيادة والضعف والقوة والتركيب والتحليل، ولذلك فهو محتاج الى مقومات تقومه من نوعه كالغذاء والمسكن وغير ذلك مما يحفظ شخصه ونوعه . أما الروح فليست مطالبها من هذا القبيل فهي تواقة لمقاوم الشرف المعنوي ومنازل الكمال الأدبي ، طالبة لأن تلم بأسرار الملكوت كله وتدرك صميم عالم الشهادة وسائر عوالم الغيب ، مغرقة بالاحاطة الكلية . بجميع أشخاص الحقائق جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها واسمر من نفسها بالقابلية لذلك الراقي اللانهائي شعوراً فطرياً كأنه لازم من لوازم جوهرها السامي .

إذا كان شأن الروح الانسانية كذلك وكان هذا الرقي العقلي الذي حصله الانسان من يوم نشأته للآن يدل على استعدادها لتنال أسرار هذا الملكوت غير المحدود فما الذي يمنعنا عن بلوغ أمنيتها هذه ويضع العقبات أمام رقيها الى عالم الكمال الذي تحس به وتتضرم شوقاً اليه ؟ ما الذي يصد بعض الناس حتى عن التطلع الى هذه المنصات العالية ويجعلهم يتسفلون الى مشاكلة الحمر الوحشية في نزواتها والهائجات من النعم في خستها ودناءتها ؟ ولماذا لا يكون الناس كلهم بمنزلة واحدة في العلم والمعرفة فيتضافرون على قطع مفاوز تلك العقبات التي تحول بينهم وبين تلك الحالة السعيدة ؟ هل هناك شيء يمارس الروح في سلطانها ويناوئها العداوة في مملكتها ؟ نعم ، قضت حكمة الخالق (ليتم الإبداع الذي أراده)أن يجعل الروح والجثمان في تصارع مستمر فأيهما غلب سادت على الشخص أحكامه وسرى عليه نفوذه وسلطانه . ولذلك نجد من الناس من غلبت عليه مادته فصار لا يفتكر الا في اشباع شهواته بكل الطرق وكل الوسائل ، ولوى عن مطالب روحه كشحاً . ومنهم من سادت عليه روحه فمحض نفسه للرقي المعنوي من طريق الباطن وضرب بسعادة مادته عرض الحائط . وبين هذين الطرفين مراتب متفاوتة لا يكاد يحصرها قلم ولا يجمعها استقصاء .

أي الطرفين يا ترى قد أصاب المرمى ؟ الذي محض حياته لإشباع نهم

جثمانيته أم الذي أوقف نفسه لمشتهيات روحانيته ؟ لا جرم أن كليهما قد أخطأ. واليك البرهـــان : أما أمر الجثمانية فظاهر لأنهم لا يجنون عادة من الجري في أعقاب الشهوات إلا الخسران وكفى بمثالهم واعظاً لمن يريد أن ينتهج مناهجهم، وأما الروحيون فليسوا بأقل استحقاقاً للوم من الأولين فإن إضرابهم عن الماديات هضم لحقوق جثمانهم وتعطيل لنظام إرادة الله أن يتم في هذا الوجود . فإنه تعالى قد سخر كل هذه الطبيعة للإنسان واستخلفه عليهـا ، وليس مثل هؤلاء إلا كمثل رجل أودعه آخر بستاناً له ليستغله وينتفع به فغلب عليه الورع فهجر الحديقة المودعة اليه حتى تصوحت أزهارها وماتت أشجارها وجفت أنهارها وأصبحت قاعاً صفصفاً تأويها الأفاعي ، وتسكنها الوحوش الضواري . كلا . ليس في طرف من هذين الطرفين مثـــال يجوز للإنسان احتذاؤه، لأن في كليهما عصياناً لا مرية فيه لخالق الطبيعة ومبدعها وتعطيلاً لنظامها . إذن يجب اختيار خطة الاعتدال والتوسط : فنعدل مع جسومنا فنكملها ونحفظها ، ومع أرواحنا فنهبها أمانيها مع عدم الاجحاف بمطالب المادة . هذا هو الكمال الانساني الذي مات الفلاسفة دون الوصول الى تحقيقه وهذا هو غرض الاسلام ومرمى نظره . قال الله تعالى : « ربنا آتنـــا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » وقال سيد الأنام ﷺ (ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه) .

إذا تقرر هذا نقول : لما كان الجسم يحتاج في قوامه وحصوله على تمام سعادته الى نظام خاص يتبعه الشخص في مطالبه الكثيرة مما سمي بقانون الصحة الذي تكفل الأطباء بسن أصوله وفروعه ، كذلك تحتاج الروح لقانون تسير عليه في جريها وراء مطالبها العالية حتى لا تصادف أمامها من العقبات ما يحول بينهـا وبين عروجها الى المنازل التي تشرئب اليها . وهذا القانون يسنه الله تعالى بنفسه بواسطة أنبيائه على حسب قابلية كل زمان ومقتضياته . وليس ما جاء في الدين الاسلامي من أنواع العبادات بصعب التفسير على من أحياه الله بالعلم ونور بصيرته بالمعرفة وذلك أن العبادة الاسلامية يمكن تقسيمها الى قسمين : عبادة اجتماعية

وعبادة شخصية . فالاجتماعية كالزكاة والحج وغيرهما مما تعم فائدته الشخص وسائر أفراد جمعيته وسنتكلم على ذلك إن شاء الله في فصول أخرى . وأما العبادة الذاتية فهي كالصلاة والصوم ومما اللذان نريد أن نتكلم عليهما في هذه المقابلة بإيجاز مناسب فنقول : لما كانت الروح كما قلنا مستمدة وجودها من النور الالهي مباشرة فلا يجوز لصاحبها أن يجعل جسمه الكثيف حجاباً غليظاً بينها وبين محتد حياتها ، بل يجب عليه أن يعرضها آنا فآنا لفيوضات ذلك النور الأقدس حتى تكتسب نشاطاً جديداً وتقوى على مصارعة مقتضيات الجسد فلا يكون له عليها سلطان كما هو شأنه عند كثير من الناس حتى صاروا أقرب الى الحيوانية النازلة منهم الى الانسانية الكاملة . ولذلك جاءت الديانة الاسلامية آمرة بالصلاة وهي ليست شيئاً سوى تخلية الفكر من الشواغل المترددة عليه والتوجه بالقلب الى الله مباشرة توجها صحيحاً بتعطش تام لتتمكن الروح من قبول الامتداد القدسي مباشرة فتكتسب حياة جديدة طيبة تستطيع بها أن تكبح جماح شهوات البدن فترده الى الاعتدال وتذوده عن موارد الضلال . والى هذا يشير الله تعالى بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وبناء على هذا فالصلاة بالنسبة للروح يمكن تشبيهها بالغذاء بالنسبة للجسم . ولما كان لا يجوز للإنسان بوجه من الوجوه أن يحرم جسمه من الغذاء حتى يموت جوعاً كذلك بل بالأولى لا يجوز له أن يهمل روحه من غذائها الروحاني حتى يتغلب عليه صفات الحيوانية ويضارع الوحوش في حياتها البهيمية فلا ينفعه بنطلونه المزركش ولا قميصه اللامع ، ومن الاسف أن نرى أكثر الناس لا يأتون الصلاة إلا من قبيل العادة فلا يلاحظون هذه الحقائق الساطعة فيدخلون المحراب وصدورهم مفعمة بأنواع الشواغل ، ويخرجون منه وقد كسبوا الويل والثبور كما قال الله تعالى « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » . ومن الناس من يبتدىء في الصلاة بعد هجرها طول حياته ولا يلاحظ ما قلناه من التجرد والتخلي فلا يذوق لها أدنى لذة فيتركها ويستمر على لغوه ولهوه حتى يأتيه القدر المحتوم وهو على أسوأ حالة بهيمية نعوذ بالله من عدم التبصر في أسرار الدين .

وأما الصيام فهو بالنسبة للروح كالرياضة السنوية بالنسبة للجسم، وذلك أنه لما كان قانون الصحة الجسمية يحتم على كل عامل يريد حفظ صحته أن يريض نفسه شهراً كاملاً في السنة يقلل فيه من غذاء النفس (أي الاشتغال بالعقليات) ما أمكن كذلك قانون الصحة الروحيـــة يحتم على كل انسان أن يقلل شهراً في السنة من غذاء جثمانه. ولما كانت حجة أطبـاء الأجسام في ضرورة الاقلال من أغذية النفس وهي المعقولات شهراً في كل سنة هو لزوم تعويض ما فقده الجسم من القوة مدى الأحد عشر شهراً من جراء اشتغالاتـه العقلية كذلك يحتج أطباء الأرواح بأن القصد من الاقلال من الطعام مدى شهر في كل سنة هو تعويض ما فقدته الانسانية من حياتها من جراء اشتغال الإنسان بالماديات في أثناء العـــام كله . وليس قصد الاسلام من هذا الا حصول الموازنة بين حقوق الروح وحقوق الجسم حتى يكون الانسان انساناً كاملاً معتدل المزاج متوسطـــاً في مطالب طبيعته حاصلاً على تلك السعادة التي مات غطاريف الفلسفة دون الوصول اليها . أليس من أعجب العجائب أن له روحاً باقية ثم هو يهمل أمرها ويهضم حقوقها ويمنعها من غذائها ويلتفت الى جثمانه الفاني بكليته فيهبه سائر حقوقه وزيادة حتى تتغلب بهيميته على إنسانيته فتقوده من لحيته الى مقارفة الخسائس ومعاطاة الدنايا والمقاذر. نعم وأعجب من هذا ألف مرة من يتوهم أن الصيـــام والصلاة يضعفان البدن ويمنعان الانسان عن مزاولة أعماله ... وهو وهم فاسد سببه ضعف الاسلام وعدم شعور القلب بلذة الايمان . كيف لا يكون قائل هذا واهماً وأمام عينه تاريخ آبائه الأولين (الذين كانوا أكثر الأمم صلاة وصياماً ونسكاً) يشهد بجملته وتفصيله بأن عبادتهم لم تزدهم الا قوة ونشاطاً وجداً وجلداً سواء في استغلالهم لقواهم العقلية أو في استخدامهم للنواميس الطبيعية . ومن كان في ريب من ذلك فليرنا أمة من الأمم نبتت بين الشعاب الجبلية والصحارى القاحلة الرملية ثم امتدت في مدى ثمانين سنة الى ما لم تبلغه أمة الرومان في ثمانمائة عام مع علمك بأن (أمة الرومان كانت سلطانة العلم بأسره). هنا يمكن أن يتهمنـا بعضهم بالميل الى الخيالات والشعريات قائلاً في نفسه : ما هـذه الغلواء . كيف

يدعي هذا أن العبادة لله تبعث الى المعاني الدنيوية وتسوق للسبق في باحـــات المدنية ؟ هل يقصد من العبادة إلا التزهيد في هذه الدار الفـانية والترغيب في تلك الدار الباقية ؟هذا ما قد يقوله بعضهم غفلة منه عن أسرار الديانة الاسلامية وذهولاً عن عجائبها التي لا يحيط ببعضها إلا الراسخون في العلم. ونحن لا نتكبد كثير مشقة في الرد على أمثال هؤلاء الواهمين بل نقول لهم بصوت يسمعه كل من كانت له أذن: يا رعاكم الله ، إذا كان الأمر كما تظنون وكانت العبادة لم تجعل إلا لمحض صرف العقول عن أمور الدنيـا فكيف تعللون أفعـــال رسول الله ﷺ وأفعـــال أصحابه رضي الله عنهم من بعـده وهم بناة مجد هذه الأمة وواضعو أساس عظمتها حتى أسموها على سائر أمم الأرض عسكرياً واداريا ، علميـــاً وصناعيا ، ماليا وتجارياً وزراعياً بحيث صارت كعبة المعالي والعرفان ومناراً يهتدي بهديها بنو الإنسان ؟ أليست هذه النظرة البسيطة تكفي لأن ترينا إنا فاهمون من آثار العبادة غير ما كان يفهمه أباؤنا فيها ؟ أليست ترينا هذه النظرة وحدها أننا قد عكسنا الأمر عكساً كلياً لغفلتنا عن التبصر في الدين والاهتداء بهدي رسول رب العالمين ؟

ليعلم المسلمون أن العبادة في دينهم لم يقصد بها التذليل والاستكانـة بل هي للروح كقواعد الصحة بالنسبة للجسم لكي يحصل التوازن بين طبيعتي الانسان المختلفتين حتى لا يكون ماديا محضاً ولا روحيا صرفاً بغلبة إحدى هـــاتين الطبيعتين عليه فيتجـــلى في العالم إنساناً كاملاً ، أعني روحيا ماديا معتدلاً في مقتضيات جوهريه المكونين لشكـله البشري . فيا ليت شعري متى يلتفت المسلمون الى ذلك السر الالهي الذي هو بين أيديهم بعض التفـاتهم إلى سواه لينتفعوا به كما انتفع به آباؤهم من قبل حتى لا يحشروا في زمرة المقضي عليهم في هذه الآية « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » . ويا ليت شعري متى يصغون الى خالقهم الذي لم يزل يناديهم من سماء الرحمة ليخرجهم من الظلمات الى النور قائلاً « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » .

***

مذهب داروين والدين

جاءنا من حضرة الشاب النجيب أحمد حمدي بك الطالب بمدرسة الطب المصرية خطاب يقول فيه :

« إني لا أكاد أطالع كتاباً علمياً جديداً ، أو أي بحث من المباحث الفرعية الأخرى ، إلا وأجد الكاتب قد اتخذ مذهب داروين قاعدة أساسية له ، أقام عليها ما هو بصدده . ومن يطالع هذا المذهب بإمعان ويرى البراهين العلمية المبني هو عليها ، لا يكاد يجد له رداً من جنس إثباته .

ولقد أردت أن أقف على رد علمي مقنع ، فلم أعثر على شيء من ذلك ، وغاية ما احتوته الردود عليه هو التقبيح والسب في أصل هذا المذهب وناشريه .

لا يخلو الحال اذن من أحد أمرين : فإما أن يكون هذا المذهب القائل بترقي الإنسان عن القرد صحيحاً ، وعند ذلك كيف يمكننا أن نفسّر أصل الخلقة كما هو مذكور في القرآن الكريم . وإما أن يكون فاسداً فما هي الردود العلمية التي تكون من جنس قضاياه والتي يمكننا الاستناد عليها في رفض هذا المذهب ؟ »

الجواب

لم يكن في عزمنا أن نتكلم عن مذهب داروين في الملحق لولا أن وجّه الينا حضرة أخينا المشار اليه هذا السؤال . فوجب علينا أن نسعفه بكلمة فيه صغيرة تاركين الشرح والتفصيل لكتاب الإنسان، فإن الكلام على مذهب داروين

بأصوله وفروعه وحقائقه الثابتة ومسائله الظنية سيكون موضوع أبواب كثيرة في مبحث الإنسان ، فهو أليق به وأولى من هذا الملحق .

الحركة الفكرية التي أحدثها مذهب داروين في العالم العلمي الغربي لم تقدر قدرها تماماً في بلادنا هذه ، ولم يعرف متعلمونا عنه إلا أنه مذهب علمي من جملة المذاهب الأوربية ، فيلوون الكشح عنه ويصدون عنه صدوداً ، وهم أمامه على قسمين : قسم اعتقد صحته بدون امتحان ولا قياس فجرى عليه في عقيدته وسلوكه وأراح نفسه من حيث تعب الكرام . وقسم علق بذهنه وزاحم نور العقيدة في فطرته ، فأحرجه الوقوف عند حد الشك والذبذبة فقام يفحصه ويبحث فيه فإن التوى عليه الأمر ، وأعضل عليه الفهم ، سأل عنه من يتوسم فيه الخير في أمثال هذه المواضيع العويصة . وقسم سمع بهذا المذهب وأدرك كنه تأثيره على عقيدته فهرب منه هروباً واقتنع بأن يكون حظه من العقيدة أن يحافظ عليها محافظة صماء بالوهم لا بالحقيقة . لأنه في الحقيقة شاك ، وإنما هو يوهم نفسه أنه معتقد . وعندنا أن أفضل هذه الأقسام الثلاثة القسم الذي اصطدمت مزاعم هذا المذهب في نفسه وشعر بخطرها على عقيدته ، فقام يسأل ويباحث ، لا يهدأ له بال ، أو لا يقر له حال حتى يقف على الحقيقة الثابتة التي لا جمجمة فيها ، (وماذا بعد الحق إلا الضلال) .

يقول سائلنا المحترم أنه لم يفتح كتاباً علمياً إلا رأى أن كاتبه قد اتخذ مذهب داروين قاعدة أقام عليها بناء موضوعه ، وشيد على أسها أركان بحثه . ونظنه يريد بالكتب العلمية ما هو بصدده من كتب الطب ، ولكنا نزيده أننا لم نطالع كتاباً فلسفياً ولا أدبياً من الكتب الأوربية إلا ونرى أثر ذلك المذهب بادياً عليها، ظاهراً في مقدماتها ونتائجها ، مما لم نعهده لأي مذهب غيره من المذاهب العلمية الأخرى .

كل منا يعلم الجافاة الشديدة التي يتظاهر بها الأوروبيون للأديان الرسمية ،

والخشونة الصارمة التي يعاملون بها زعماءها إذا بدا منهم بارقة العمل لتأييد مذاهبهم ، فلا نقول أن ذلك سببه مذهب داروين ، فإن الشكوك والشبه ألمت بأفئدة أهل أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، كما أثبتنا ذلك في بعض فصولنا المتقدمة في مباحثنا ، وإنما نقول أن مذهب داروين أكسب تلك الشبه صبغة ثابتة ، وامتلخ من يد العقائد الرسمية ملايين تعد بالعشرات في سنوات قليلة ، وجعل التكذيب بمقررات الأديان أمراً طبيعياً علمياً في نظرهم .

مذهب داروين موضوعه الفزيولوجيا كما هو معلوم فكان المنتظر أن يكون تأثيره محصوراً في عالم العلم الطبيعي ، ولكنه لمساسه بمسألة خلق الإنسان خرج عن دائرة العلم الطبيعي ، وأغار على الفلسفة العقلية والفلسفة الحسية ، والعلوم الأدبية والأخلاقية ، وجاز كل تلك الدوائر حتى التهم العلم السياسي أيضاً . وعلى هذه الصورة انتشر بين الطبقات الاجتماعية حتى وصل إلى عامة الناس ودخل في معاملاتهم ومجاملاتهم ، وصارت مبادئه قاعدة أساسية لأخلاقهم وعاداتهم ، حتى أصبح عامة الشعوب الأوروبية داروينيين فعلاً وإن لم يحسنوه علماً . ثم فاض هذا المذهب من الشرق إلى الغرب ، وكان الموصل له إلى هذه البلاد طائفة من كتاب السوريين أصحاب المجلات العلمية فلم ينجحوا في بثه في أذهان الناس من قبيل العلم قدر ما نجحت عدوى معاشرتنا للأوروبيين ، فأصبح الناس هنا اليوم داروينيين بالعمل وإن كرهوا ذلك قولاً ووهماً .

نعم إنك لو واجهت إنساناً وقلت له : هل لك أن تعتقد ان الانسان حيوان مترق عن القرد ، وإن بينه وبين الكلاب والسلاحف آواصر قريبة من القرابة ، وإن كل الأحياء أصلها خلية حية واحدة ، وان كل ما تراه من صور الكائنات وأشكالها ، كله نتيجة الوسط المناسب والفواعل الجوية ، وضروب المعيشة ، وأنه بناء على ذلك ، لا يليق بالإنسان أن يوهم نفسه بعذاب

ولا بعقاب في دار غير هذه الدار ، وما عليه إلا أن يعلم أن السعادة هي سعادة هذه الحياة الأرضية ، وانها معقودة ببعض نواميس معدودة على الأصابع ، لو توخاها الانسان ، ووقف سيرته عليها ، فاز بمراده من أكبر قسط من السعادة المرجوة . من تلك النواميس : (الكائنات الأرضية كلها متنازعة في البقاء) و (القوي منها يغلب الضعيف ويبيده) و (لا يبقى إلا الأصلح للبقاء) فإن أحسنت المنازعة وسلكت فيها مسالك المهارة والدقة ، وأمكنك بذلك أن تقوي نفسك وتبدد كثيراً من الضعفاء وتمتص مادتهم صرت أصلح منهم للبقاء فبقيت أنت وأخلوا لك الجو ـ وهذا ما يعبر عنه بالسعادة البشرية العليا ـ لو قلت لإنسان مثل هذه المقالة لحوقل واسترجع ، وتألم وتأفف ، ورماك بالمروق من الدين والبعد عن الفضيلة ، بينما تكون هذه المقالة برمتها ترجمة سيرته بين قومه بل وأهل بيته ، فتراه مثلاً كالليث الضاري بالنسبة لصغار الفلاحين يقرضهم دريهمات قليلة ويبتز بها محصولات كثيرة ، ثم لا يزال ينازعهم بحيله ووسائله تارة بالإقراض وأخرى في السقي والصرف والبناء حتى يلجئهم لأن يبيعوا أرضهم وينجلوا من محلته بالمنازعة إلى حيث يدعوهم الهم الناصب والفقر المدقع . ولا معنى لهذا العمل كله إلا تحقيق مذهب دارون فعلاً ، فإن ذلك الرجل نازع مجاوريه، وتقوّى عليهم بقوته ثم بقي بعدهم لأنه أصلح منهم للبقاء ، وربما كان على هذه السيرة كثير الصلاة والصيام ، دائم التلاوة والتسبيح ، ويحتمل أن يكون بعد ذلك سبط اليد ، يبذل المال ويقري الضيفان !!

ألا ترى معي بعد هذا أن مذهب دارون أكثر شيوعاً مما يظنه أكثر الناس ، وأدخل في مسارب أميال هذا الجيل من أي مذهب آخر ؟ فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا نسأل عن هذا الأمر الجلل ، وكيف لا نفحصه فحصاً دقيقاً لنرى ما كنه هذا الأمر الهائل الذي ألمّ بالناس عموماً بالقول والعمل ، وكان موجوداً بالعمل من يوم خلق العالم إلى الآن .

لا يقال ان الإنسان ما عرف التنازع ولا تغلب قويــه على ضعيفه ، ولا بقي إلا الأصلح للبقاء ، إلا بعد ظهور هذا المذهب. فإن خبر الطوائف الإنسانية كلها ينبئك بتأصُّل هذه النواميس في طبيعة الخلقة البشرية تأصلاً تامــاً . ومن المعلوم بالبداهة أن الإنسان أرسل اليه رسل من الله وبعث فيه أنبياء يعدون بعشرات الألوف . فماذا كان شأنهم بإزاء هــذه النواميس وماذا كان تأثير العقائد عليها ؟

هذه النظرة التاريخية تدلك دلالة صحيحة على أن الدين وجد وعمل به مع وجود هذه النواميس ولا سبيل للقول بضد ذلك . بل ان هذه النواميس التي اكتشفها داروين ، وعدّها قاعدة أقــام عليها صرح مذهبه ، موجودة في القرآن الكريم بالنص من ضمن قوانينه العمرانيــة ، وإن أردت بعض البيان فإليك :

يقول داروين أن بين الطبيعــــة والكائنات الحية حرباً مستعرة من يوم ولادتها إلى يوم بلوغها قمة كمالها فالكائنات التي تبقى مع وجود هذا الحرب الدائمة تكون بلا شك أقبل للبقاء من سواها ، بل أحق بها من كل ما عداها ويضرب لذلك الأمثال فيقول مثلاً : إن عــــدد البيوض والجراثيم التي تولدها الأحياء أكثر بكثير من عدد الأحياء المتولدة منها . وهذا دليل محسوس على أن اكثر هذه الجراثيم يهلك في أوائل حياتــه ولا يسلم من العطب إلا النزر القليل الحاصل على صفات تمكنه من اجتيـــاز هذا الطور الحيوي الابتدائي . ثم لو قابلت عدد الأحياء الكثيرة الجراثيم بعدد الأحياء القليلة الجراثيم تجد أن من الصنف الأول مــــا لا يكاد يذكر من جهة عدد أفراده بجانب أصناف من الصنف الثاني مع أنه لا يبيض إلا بيوضاً قليلة . ومـــا تراه هنا في عالم الحيوان تراه بعينه في عالم النبات ، فإن أشخاصاً كثيرة من الفصيلة الثعلبية يولّد ألوفاً من الجراثيم ، وهو مع ذلك قليـــل العدد وأمامه أصناف من فصائل أخرى قليل البزر ولكنه كثير العدد جداً . كل

هذا يدل على أن عدد الأشخاص التي تبقى لا يتوقف على عدد الجرائم بل على صفات تلك الأشخاص الذاتية وحالة الوسط التي تحيا فيه . فما كان منها أملك لصفات البقاء والمقاومة سلم من المعطب وبقي ، وما كان غير ذلك هلك وتبدد وانقرض .

هذا الناموس عام أيضاً في الأحوال الانسانية ، فإن الأمم فيما بينها في تنازع مستمر وتزاحم عنيف ، فمن كانت منهن حاصلة على صفات الحياة ومتمتعة بخصائص أكمل من جاراتها سادت عليها ونازعتها أسباب حياتها واستأثرت بها دونها ، وهذا التنازع كما يقول الداروينيون من أكبر البواعث على الترقي والتقدم في باحات المدنية وساحات الحياة العقلية ، فإنه أقوى وازع للانسان عن الإهمال والتواني ، وأحجى هاد له إلى بذل الوسع لنيل الأماني ، وأعمل محرض له إلى صقل قواه الفكرية والعقلية . هذا الناموس في عرف (داروين) يسمى ناموس (تنازع البقاء) ونصه في الكلام الإلهي « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وقد أشار الله تعالى إلى سر الغلبة في هذا التنازع وهي القوة بقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . ولما كانت الصفات المؤهلة للغلبة والفوز في العالم الإنساني لا تستمد دائماً من القوة العضلية بل يستمد أكثرها من خلال الكمال النفساني ، وسجايا الشرف الخلقي ، أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وقوله تعالى بعد ذكر القتال : (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) بهذه الآيات الكريمة جمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى صفات القوة الجسدية أعلى صفات الكمالات الانسانية وبثها في أفئدة أصحابه فأصبح الواحد منهم وكأن المتنبي يعنيه بقوله :

قسا فالاسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

فدانت لهم الدنيا دينونة لم تسبق لأمة سواهم والسر في ذلك حصولهم على ينبوعي القوتين : الجسدية والخلقية ، ووصولهم إلى باحات الرتبتين البشرية والملكية . تم للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الفوز مع قلة عدد أصحابه وفقرهم ، وانخذل أعداؤه على كثرة عددهم ، ودوام مددهم ، وشدة حميتهم ، لأنهم لم يعتمدوا إلا على قوة الساعد ومضاء الحسام ، وهما لا يحدثان في العالم الإنساني إلا أثراً يشبه فقاقيع الصابون لا يرغي حتى يخمد ، ولا ينتفخ حتى يتمزق . والى هذا السر الكبير يشير الله تعالى في كلامه القديم : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها) .

يقول (داروين) وأحزابه إذا سلمت بأن تنازع البقاء ناموس من نواميس الكون ، فلا مناص لك من أن تسلم بحصول غلبة لبعض المتنازعين وخذلان للبعض الآخر ، ومعنى تلك الغلبة وذلك الخذلان بلسان علم الحياة البقاء والتلاشي . بمعنى أن الحزب الغالب يبقى متمتعاً بما افتتحه بقوته ومهارته ، وأما الحزب المغلوب فلا يجد ما يقيم أوده فيضعف ثم يزول ويتلاشى ويدع الجو خالياً لخصومه . وهذا الناموس في عرف (داروين) و (روسل ولاس) يسمى (بالانتخاب الطبيعي) ومعناه : لا يبقى إلا الأصلح . وقد أشار الله تعالى إلى هذا الناموس الكبير بقوله جل شأنه : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » والمراد بالصالحين هنا المستكملون شرائط الفضائل الجسدية والعقلية ، كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً في جمعهم بين فخامتي الدنيا والدين ، لا كما اصطلح عليه بعض الناس من أن الصالحين هم الضعفاء المنزوون . ولقد كانت غلبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كافة أعدائهم من رومانيين وفارسيين مع ما كانوا فيه من قوة الشوكة وعدد الجند وانتظام الأحوال دليلاً محسوساً على صحة ذلك الناموس الكبير ، فإنهم عليهم رضوان الله لما كانوا أصلح

للبقاء من كل من ذكروا ورثوا أرضهم وديارهم وصار ما بقي من اولئك الأقوام رعايا لهم يدفعون لهم الجزية ويعتزون بحمايتهم .

لداروين عدا عن هذين الناموسين (ناموسا المطابقة والوراثة) أما ناموس المطابقة فمقتضاه أن لنوع الأغذية وطرق الوصول اليها دخلا كبيراً في إحداث الاختلافات بين الأنواع . وأما ناموس الوراثة فمقتضاه أن الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط تنتقل إلى الأبناء فتنشأ تلك الأبناء مختلفة فيما بينها ، ولا يزال هذا الاختلاف يقوى بينها على مر الأجيال والقرون حتى تستحيل تلك الاختلافات العرضية إلى اختلافات جوهرية توهم الرائي لها أنها اختلافات نوعية من أصل الخلقة ، وهي في الحقيقة اختلافات بسيطة في مبدإهـا توالت عليها الأحقاب حتى ازدادت تأصلاً في الحيوان ونمت فيه فأدته إلى مباينة الأصل الذي نشأ منه تمام المباينة ، حتى أن الرائي لهما يظنهما من نوعين مستقلين وهما من نوع واحد . كما ترى ذلك بين الحمار والحصان فإنهما على مقتضى مذهب داروين نوع واحد وإنما اختلف الحمار عن الحصان هذا الاختلاف تبعاً لمقتضيات الوسط الذي عاش فيه والجهاد الشديد الذي بلي به .

هذان الناموسان : ناموس الوراثة وناموس المطابقة لا يجوز التردد في صحتهما فإن المحسوسات بجملتها وتفصيلها تدل عليها . إذا تقرر كل هذا فهل مذهب (داروين) صحيح ؟ وهل الإنسان كما يقول مرتق عن القرد ؟

أكبر الاعتراضات على هذا المذهب تنحصر في ثلاثة أمور : (أولاً) عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد الوف عديدة من السنين (ثانياً) عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلاً حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الإنسان رتبة واحدة أيضاً (ثالثاً) طول الزمان اللازم لحصول الترقي بين الاحياء . فإن

عمر الأرض كما قالوا لا يكفي لاحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف .

يرد الداروينيون على هذه الاعتراضات بقولهم أما عدم مشاهدة أي ارتقاء في الأحياء المرئية فلا يصح دليلاً على عدم الارتقاء عموماً . ومن يسلم بناموس تنازع البقاء ثم بناموس الانتخاب في الطبيعة أي بقاء الأصلح ، فلا مناص له من التسليم ببقـاء البعض وتلاشي البعض الآخر ، ونتيجة ذلك كلـه الارتقاء عموماً .

أما عن اعتراض فقدان الصور المتوسطة فيجيبون بأن ذلك غير صحيح وان علماء الطبيعة لفي حيرة وارتباك في تقسيم أنواع الحيوانات والنباتات لتقاربهـا في الصفـات والأعضاء . وما خفيت الصور المتوسطة منها فذلك سببه شدة تنازع البقـاء على حسب اختلاف الأوساط والأحوال . ولذلك لم يكن صور متوسطة بين الصفوف التي هي في حالة الانقراض أو الوقوف كالنعـام والفيل « فإنها لا تولد تباينات جديدة ولذلك فهي تؤلف أنواعاً مستقلة بخلاف طوائف الحيوان التي في حالة النمو فإنها تنحل إلى عدة أنواع جديدة بالتباينات التي تنشأ منها ولذلك يوجد فيها صور متوسطة كثيرة يحار فيها المرتبون » .

أما عن اعتراض طول الزمان اللازم لصحة التسلسل فيجيبون بأن من العبث الاعتماد على قول من يزعم بامكان تحديد عمر الأرض. وقد حسب الأستاذ طمسن الانجليزي الزمن الذى لزم ليبس القشرة الارضية فوجده لا يقـل عن عشرين مليوناً من السنين لا يزيد عن أربعمائة مليون سنة ، وانه يقتضي أن يكون بين ثمانية وتسعين مليون سنة ومائتي مليون سنة . وهـذا الزمن كما يقول داروين نفسه لا يكفي لبلوغ الحياة الأطوار التي ترى عليها الآن . لهذا رأى الأستاذ طمسن انه من الضروري أن الحياة لم تنشأ على سطح الأرض بل وردت اليها من أحد الكواكب ، بأن سقطت على الأرض بعض الجراثيم الحية محمولة على نيزك من النيازك الساقطة من بعض الاجرام العلوية .

لا يكاد الأنسان يواجه الداروينيين باعتراض حتى يقابلوه باشكالات طبيعية لا يمكن تفسيرها على ما يقولون إلا بمذهبهم . كأن يقولوا مثلاً :

لماذا تختلف الحيوانات والنباتات باختلاف شكل المعيشة واحوال الوسط الذي هي فيه إذا لم يكن فيهـــا قابلية لمشاكلة الأحوال ، والتطور على حسب المقتضيات ، أليست هذه القابلية للتغير دليلاً على أنها دائمة التغير والتحول ؟

ألست ترى أن هذا التنازع بين الأحياء يكسب بعضهــا دون البعض الآخر خواص وجودية تخالف بها اخواتها فتكتسب بذلك مركزاً ليس لسواها ؟

إذا لم يكن الانتخاب الطبيعي قانوناً طبيعياً فلماذا نشاهد أن نوعاً يقوى على مقاومة العوارض دون النوع الآخر . ولماذا نرى أن بعض الأنواع يضعف أمام خصمه ثم يتلاشى ؟

ألا ترى أن الوراثة وهي ذلك القانون الطبيعي الشهير صالحة لنقل الصفات المكتسبة الى النسل وتلك الصفـــات تنقلب جوهرية ذاتية فيهم متى صادفتها أحوال موافقة وظروف مناسبة ؟

إذا لم يكن للعادة أثر كبير في إحداث التغير في الأنواع فلماذا تضعف الأعضاء والصفات في الأحياء وربما تلاشت بالمرة متى أهمل أمرها وتركت ، ولماذا تقوى وتشتد بالاستعمال والتمرين ؟

نرى فرقاً كبيراً بين الاحصاءات المختلفة التي عملها العلماء عن الأنواع ، حتى أنهم ليختلفون بالمئــات الكثيرة . ترى أحدهم مثلاً يعد أنواع الطيور في قطر أقل من أربعمائة وترى الآخر يعدها في ذات القطر تسعمائة . فلماذا هذا الخلاف الهائل إذا لم يكن الفاصل بين الانواع دقيقاً جداً . ولماذا يكون هذا الفاصل بين الأنواع دقيقاً جـــداً إن لم تكن الأنواع حدثت من التباينات في شكل المعيشة والأحوال المكانية ؟

لو كانت الأنواع نتيجة خلق مستقل للزم أن لا يكون فيها أعضاء أثرية تدل

على أنها كانت قبل كثير من الأجيال ذات فائدة للحيوان أو النبات في أحواله المعيشية ثم لما تغيرت تلك الأحوال صارت عديمة الجدوى وبالتالي بطل استعمالها فضمرت حتى صارت أثرية لا يرى إلا أثرها فقط ؟

هذه أكبر المعضلات التي يقذفها أنصار داروين في كتبهم لكل من يحاول أن يعترض عليهم أو ينتقص مذهبهم فهل نسلم معهم بعد هذا أن الانسان مترق عن القرد وإن بينه وبين الكلاب قرابة ورحماً ؟

هب أن مذهب داروين صحيح فماذا يكون شأننا أمام الدين وأمام الفضيلة وأمام العادات والقوانين ؟ بل كيف نطبق ما ورد في كتبنا عن أصل الخليقة وأصل النوع الانساني على مقررات هذا المذهب إن كانت حقة ؟ وكيف يكون شأننا في عقيدة الروح والخلود والنعيم والشقاء الأخرويين ؟

إذا كانت العادات المتأصلة والتقاليد الموروثة تجعل الانسان يشمئز ويتبرم من سماع ما لا ينطبق على عقيدته الخاصة فيدفعه دفعاً بدون امتحان ولا اختبار ويوسع قائله وسائله شتماً وسباً ، فليس المسلم من هـذا الصنف من الناس . فإن الاسلام معناه التجرد اليه تعالى من كل ما سواه والتوجه الى ذاته توجهاً خالصاً منقطعاً عن كل العلاقات والنسب الحيوية الصناعية : أريد من هذا أن أقول ان المسلم ليس جامداً على مذهب خاص حتى يخشى صولة مذهب آخر ، بل المسلم مذهبه الحقيقة المطلقة دون سواهـا ينشدها في كل مكان فإن وجدها ولو على لسان عدوه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وإن لم يجدها بحث عنها جهده حتى يجدها أو يموت في سبيلها وهو في سبيل الله ، مستسلم لمولاه .

كل إنسان يدافع عن مذهبه جهده ، ويسعى في تأييده ولو بالخداع والحيلة، لأنه معتمده الوحيد وركنه الذي يعتصم اليه ، ولكنه رغماً عن هـذه المدافعة والاستبسال في سبيله يجد نفسه في نهاية الأمر مسوقاً إلى تركه وهجره متى لاح له بالحس أنه لا يقاوي زوابع الشبه وأعاصير الشكوك المنصبة عليـه من كل مكان . هذا مثل أصحاب الأديان في هذا الزمان أمام صولة العلم وجبروت

أهله . أمـا المسلم فلا يحس بهزيمة ولا يشعر بألم خيبة ، لان أنشودته الحقيقة ذاتها فما كان حقـاً أخذه على الرأس والعين وهو دينه، وما كان باطلاً عمل على زواله ، وإن كان ذلك الباطل عقيدة كانت له منذ أربعين سنة ، فإن المسلم خلق ليرتقي كل يوم ، ولا تجده يتبرم من ترك عقيدة كانت له من أربعين سنة بل تراه يفرح بحكايتها حيث يقول : أخذت عن تسعة وتسعين شيخاً ولومت قبل أن يدركني المتمم للمائة لمت على غير الاسلام [١] .

الخلاصة أن المسلم لا يضره مذهب علمي ، ولا أسلوب فلسفي مـا دام من ورائه الحقيقة التي لا مراء فيها فإن دين المسلم الحقيقة لا غير . وأنا لا أقول هذا تصديقاً لمذهب داروين ولكن من باب تهديىء أفئـدة من علقت بأذهانهم مقررات هـذا المذهب من اخواننا المسلمين لينتظروا منا إن شاء الله التحليل الدقيق لمبادىء هـذا المذهب وبراهينه ومستنداته ونتائجه على الدين والعلم والأخلاق والسياسة ومبلغ أصوله من الحقيقة ، وكنه فساد الفاسد وسلامـة السليم منها– كل ذلك بالتحليلات الفنية والتدقيقات الفلسفية حتى نصل إلى نهاية الموضوع فتحاكمه المحاكمة الدقيقة في كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) هذه الكلمة الكبرى تروى عن أبي يزيد البسطامي وهي أجمل مثل على معنى الاسلام .

نظرة على ما سبق

لا يوجد واحد من الشرقيين لم يحس بألم التأخر في مجال الحياة وميدان الوجود عن مناظريه الغربيين . ذلك الألم حل بالأفئدة وأحدث فيهـا آثاراً تختلف باختلاف الناس وأمزجتهم ودرجاتهم من المال والعلم . فانقسم الناس إلى جملة أقسام : قسم هاله الفرق بين حالتنا وحالتهم فاستكان لليأس ، واستنام له، فلاءم أحواله عليه ، فإن كان غنياً هام بالتقليد والمحاكاة ، وغالى في التحكك والالتصاق بهم حتى لو استطاع أن يبـدل وجهه غربياً لفعل ، وجرى وراء الثروة جرياً جنونياً ، لانـه تحقق مع يأسه أنها ركنه الوحيد في دنياه ، وعونه الفريد في إيفائه مقتضيات هواه. وأما ان كان فقيراً فعل اليأس به أسوأ الأفعال ودفعه لطلب المـال من سائر وجوهه بلا فرق بين مشروع ومحظور ، وأعطى أولاده بذلك أسوأ الدروس الحيوية. فإذا أنس أن جهاده صادف مرعى خصيباً، وجناباً ممرعاً ازداد نهماً وشرهاً ، وغلا كلباً وجشعاً ، وصار لاهم له إلا المـال دون سواه . وان قـادته الظروف إلى مجال ضيق ومحلة خشنة ، ضاق صدره، وهلعت نفسه ، واستوعب النكد فكره وتصوره ، وصار عبرة لنفسه فكيف لا يكونها لغيره ؟

وقسم رأى ذلك الفرق الهائل بين شأننا وشأنهم فظنه سحابة صيف، وحسبه عرضاً زائلاً ، فجال بـه ذلك التوهم في مجالات التصورات الوهمية ، والأقيسة الظنية، وأخذ يسرح من سراب حلم، إلى فضاء وهم، منتظراً وقوع الاحن بالغرب وأهله يوماً بعد يوم وهلم جراً ...

هذا القسم يشن غارته هذه على الغرب وهو سابح في زخارف مدنيته ورائع في أرجاسها من حيث مأكله ومشربه وملبسه ، وهو يحس بذلك كـله ويعترف بأن ذلك الجديد المستعار أحسن مما فيه قومه ، ولكنه اعتراف لا يجاور شغاف

قلبه ، ولم يصعد إلى مركز تعقله لشدة مـا أخذت الأوهام بمخنق إدراكه ، وأمسكت باكظام تصوره .

وقسم لم ييأس من مساواة مناظره ، ومساءاته في مفاخره ، ولكنـه يرى أنه خير الذرائع للحـاقه هي تقليده ومحاكاته في صنائعه واختراعاته ، فهو يدأب في بث هـذه الفكرة جهده . من هذا القسم أكثر كتاب الصحف ! ومؤلفي الكتب .

هناك قسم رابع ساووا القسم المتقدم في عدم اليأس ، وزادوا عليهم في سد مساربه بالعلم والعمل ، ولكنهم يرون أن الترقي الصناعي والعلمي (مظاهر روح عالية) تحل بالأمة كما تحل الحياة بالجسم الميت فتسوقها الى مقاوم العـلاء والشرف سوقاً طبيعياً منتظماً .

أفراد هذا القسم يرون أن دواء الشرق هو رد روحه اليه بالوسائل الحيوية التي سنها الأنبياء وتبعهم فيها كبار المصلحين ، لا بالدعوة الى مظاهر المدنية أو فتح المعامل الصناعية . هؤلاء هم أصحاب العقول العاليـة والأفئدة الكبيرة ولكنهم أقل من أن يعدوا على الأصابع .

إذا تقرر هـذا فقل لي أي شيء هو هذا الأمر الجلل الذي انصب علينا من العالم الغربي تحت اسم المدنية الغربية ، وسلبنا من أنفسنا سلباً لجيثه لكل واحد منا من جهة ضعفه وشطر مقتله ، فلم يدع غنياً ولا فقيراً ولا شيخاً ولا شاباً إلا ودخل إلى سويداء قلبه ، ونفذ إلى صميم كيانه ؟

لا يمكن أن يكون هـذا الأمر حالاً عرضياً ، أو مظهراً سرابياً ، أتت به الحوادث جزافاً ، وكونته الظروف صدفة ؟

النفوذ إلى حقائق هـذا الأمر الجلل ، والسريان إلى سره من حق وباطل ، وطبيعي ووهمي ، وصحيح وفاسد ، لا يتم إلا بتحليل كل مـا يردنا من تلك المدنية تحليلاً فلسفياً دقيقاً وامعـان النظر فيه بعين الحزم والاناة . وهي وظيفة

(الإسلام في عصر العلم) فإنه لن يدع إن شاء الله مذهباً فلسفياً ولا رأياً علمياً ولا ناموساً عمرانياً ولا أساً نفسياً مما أنتجته تلك المدنية إلا فحصه فحصاً دقيقاً وحلله تحليلاً شافياً إن شاء الله تعالى بنور القرآن وحـال الرسول عليه الصلاة والسلام ، صيانة لايماننا في هذا الجيل العجيب الذي يصبح الرجل فيه مؤمنـــاً ويمسي كافراً إلا من عصمه الله بالعلم .

إذا تقرر هذا فمذهب (داروين) وإن كانت نتيجة تضاد ما نذهب اليـه إلا أنه لا يخلو من حقائق وجودية كبرى لهـا أكبر الآثار في ترقية فكر الرجل العصري وتهذيب ملكانه ، فإن رفضناه من أول وهلة بدون امعـان النظر فيه ، ودرس ظاهره وخافيه ، كنا غاشين لأنفسنا ، مزرين بعقولنا ، لأن شبهه علقت بالأذهان ، وقوانينه أصبحت جزءاً من سيرتنا فعلاً ، فما معنى إيهام أنفسنا بعد ذلك باننا من أعدائه الالداء ، وخصومه الأشداء .

إن هؤلاء الناس الذين يعادون قوانين مذهب (داروين) كله لأجـل نتيجة لا يدرون أنه قــد أقام أقوى البراهين الحسية على حقائق قرآنية كان الغربيون لولاه يتوهمون أنها جهاتنا الضعيفة التي يبرهنون بهـا على عدم حقية ديننا كما مر بك تفصيلاً فيما سبق ، وكما سيمر إن شاء الله تعالى في أجزاء لاحقة .

* * *

فهرست

صفحة

صفحة

